بو علي ياسين

بيان الحد بين الهزل والجد



دراسة في أدب النكتة

بيان الحد بين الهزل والجد

دراسة في أدب النكتة

بيان الحد بين الهزل والجد

دراسة في أدب النكتة

منشورات

٢٠		دراسات

اسم الكتاب : بيان الحد بين الهزل والجد (دراسة في أدب النكتة)
المؤلف : بوعلي ياسين
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى ١٩٩٦

تصميم : محمد سعيد الصكار - باريس
اللوغو : صادق الصائغ

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

بوعلي ياسين

بيان الحد بين الهزل والجد

دراسة في أدب النكتة

منشورات

دراسات



٢٠

الإهــداء

إلى أصدقاء الفرح

محسن ومحمود وعلوش

مقدمة

التاريخ يُمليه السلاطين
يكفيك من جلّه العناوين
فابحث عن ذكريات المقهورين

أحد المثقفين الطيبين سألني مؤخراً: ماذا تكتب هذه الأيام؟ قلت: أؤلف كتاباً عن النكتة. صمت قليلاً وتململ في مجلسه ثم قال: أنت أكبر من أن تكتب عن النكتة!. ولم أجد في ذلك إطراء: فهل أنا أكبر من الجاحظ؟!. حالة كهذه عشتها في بداية نشاطي ككاتب. وقتها كتبت مقالة عن الجنس، فكان همّ أحد الأصدقاء المثقفين أن يهوّن من قيمة هذا العمل ويبيّن ضرورة صبّ الجهود في التوعية السياسية. كأني بهؤلاء الناس الطيبين يريدون القول: أهذا وقت الكتابة عن الجنس أو النكتة أو ألف ليلة وليلة...، والأمة العربية في هذه الحالة التي هي عليها؟!. لهؤلاء أقول: وماذا أفعل للأمة العربية، إذا كانت أحوالها على هذا السوء منذ مئات السنين؟! أنتفرغ جميعاً للثقافة السياسية ونهمل ماعداها؟ وهل إنقاذ الأمة العربية متوقف على كتابتي أنا العبد الفقير لله بوعلي ياسين؟!.

إذا حقّ لي الآن بعد ربع قرن من الكتابة، وقد تجاوزت الخمسين من عمري بثلاث سنين، أن أنصح الكتاب الشباب، فإني أقول لهم: ابحثوا واكتبوا في أي موضوع يستهويكم، ولا تعيروا اهتماماً لتوجيهات الآخرين، مهما حسنت نواياهم. فلو عاد الأمر إلى عامة مثقفينا الآن، لما وُجد الأديب الجاحظ، ولما كتب ابن حزم «طوق الحمامة»، والأصفهاني كتاب الأغاني،

وابن عبد ربه عقده الفريد، وابن الجوزي نوادره عن الحمقى والأذكياء والظرفاء، والبغدادي عن التطفيل.. لو عاد الأمر إلى عامة مثقفينا الآن، لما تكلم ولما كتب أحد إلا في السياسة، والسياسة اليومية حصراً. فهم لا يدرون أن كل الثقافات تصبّ أخيراً في السياسة، بالمعنى الواسع للمفهوم. إذا جاز لي النصح، أقول للكاتب الشاب: ليس المهم فيم تبحث وعم تكتب، المهم ماذا ولمن تكتب. المهم أن تبدع صدقاً جيداً، جديداً، مثيراً...

مع ذلك، لابأس بطرح المسألة على بساط النقاش: بماذا يفيد كتاب عن النكتة أكثر من الاستمتاع بالمضحكات التي يتضمنها؟ أولاً، لاشك أن الإضحاك بحدّ ذاته ذو فائدة لا يستهان بها. إلى جانب ذلك أرى أن النكات تساهم، إلى جانب وسائل أخرى، في فهم الناس الذين يتناقلونها وفي فهم أوضاعهم. من ناحية ثالثة لم أتوهم يوماً أن أمثال هذه الدراسة يمكن أن تخلق مبدعين في النكتة، تماماً كما أن دراسة الأدب لا تخرّج بالضرورة أدباء. فابداع النكتة موهبة، وكذلك استقاؤها من الواقع، وحتى روايتها. الدراسة لا تنوب عن الموهبة، لكنها تساعد أصحابها. الفائدة الرابعة التي أرجوها من الكتاب هي ردّ الاعتبارللنكتة، بحيث تنال الاهتمام الذي تستحقه من الأدباء والفنانين والباحثين.

هذا الكتاب هو ثمرة جهود لمدة سنوات، بدأت في عام ١٩٨٧، عندما شرعت أسجّل النكات عن أفواه الناس وأنقلها عما توفّر لي من صحف ومجلات وكتب متداولة في الوطن العربي. لقد اعتبرت أن هذه النكات تعبّر عن أولئك الذين يتناقلونها، إنما بدرجات: النكات الأكثر تعبيراً هي الشفهية، بالدرجة الثانية تأتي النكات المحلية المنشورة، بالدرجة الثالثة النكات التراثية المسجلة، وبالدرجة الرابعة النكات المترجمة. بالطبع لا يمكن دائماً التمييز تماماً بين هذه الأنواع الأربعة. فثمة نكات سمعتها شفهياً، قد تكون منشورة في الأصل. وثمة نكات سجلت بعد تناقلها شفهياً، كنكات التراث الشعبي التي يجري تسجيلها. بالمقابل يتناقل الناس شفهياً الكثير من النكات والنوادر الموجودة أصلاً في كتب التراث. وهناك نكات

مترجمة لها أصل أو شبيه محلي، كما أن بعض النكات المترجمة تبدو كأنها محلية. مما يسهّل هذا التداخل أن النكات مازالت تعتبر محلياً وعالمياً من الثقافة المشاعة، يجري تناقلها دون إذن، ودون إسناد أو تحقيق، خلافاً لما كان يفعله أجدادنا الأقدمون. أما تفضيلي للنكات الشفهية، فذلك لأنها أقلّ خضوعاً للرقابة وأصدق تعبيراً عن أصحابها، وخاصة فيما يتعلق بالمحرمات الأربعة: الدين والجنس والسياسة والبذاءة. وأما قبولي للنكات المترجمة، فلا يعود فقط إلى صعوبة الجزم بكونها أجنبية، بل أيضاً إلى أن تناقلها محلياً ليس دون مدلول، فلابد أنها تعبّر بشكل ما وإلى حدّ ما عمن يتناقلها.

بلغت حصيلة ما سجلته من نكات أكثر من أربعة آلاف نكتة، لكن الكتاب لا يتضمن سوى جزء منها، وإن كانت الدراسة استندت إليها جميعاً في رسم الصورة وإبداء الرأي. ولقد أشرت إلى المصدر لدى إيراد أي نكتة، إلا إذا كانت شفهية. فنادراً ما يرغب أو يقبل رواة النكتة ذكر أسمائهم. في مواضيع المحرمات، حيث تكثر النكات الشفهية أوردت القليل مما لديّ. مردّ هذا التقتير في إيراد الشواهد والأمثلة النكتية يكمن في مفارقة تجابه الكاتب في حياة عامة الناس: يروون لك النكات المحرّمة والبذيئة، ثم يغضبون ويحتجّون إذا نشرتها. لماذا هذه الازدواجية؟! أو لماذا هذا الإصرار على شفهية الثقافة الشعبية؟!.

كان فصل «النكات المعتقدية» أكثر الفصول تأثراً بالاحتراز المذكور. سوف يلاحظ القارئ أنه كان يمكن أن يكون أكثر اتساعاً وعمقاً. في الحقيقة وقعت قبل كتابته في حيرة: أن أحذفه تجنباً لحساسية قد يثيرها، أو أن أكتبه كما يتوجب علي كصاحب أمانة. قلّبت الأمر: من ناحية صار الناس أكثر تدخلاً وأضيق صدراً عما في الماضي. كنا – نحن الكتاب – في السابق نشكو من رقابة أجهزة دولنا. فصرنا الآن نحسب حساباً لأمزجة الناس. وإذا كانت في الدولة المعنية جهة واحدة يطلب الكاتب رضاها وينال ضمن حدود معينة، واسعة نسبياً، فإن رضى الناس غاية لا تدرك. من ناحية

أخرى، لا معنى للكتابة إذا أراد المرء أن يتجنّب أي إشكال أو مساءلة على حساب أصول العمل الفكري وأخلاقيته. فليس من الطبيعي أن يصدر كتاب يتحدث عن النكتة ولا يتطرق إلى النكتة المعتقدية، رغم كثرة تناقلها في الحياة الاجتماعية. الحيرة بين هذين القطبين، بين حذف الفصل وإعطائه حقه، جعلتني أكتب الموضوع بالصورة المختصرة التي ظهر فيها.

في فصل «المرأة والجنس» غضضت النظر عن النكات الجنسية البحتة، أي التي لا تعبر سوى عن الكبت الجنسي والتي تشبه في ذلك أفلام البورنو. فلم يكن هدفي الإثارة الجنسية، ولا هي ميداني، بل حاولت استجلاء صورة المرأة والرجل والتعرف على الحياة الزوجية واستكشاف العلاقات الجنسية من خلال النكات المتناقلة. وفي الفصل الاقتصادي والسياسي لم أذكر النكات التي لا تبغي سوى التجريح بسياسيين معينين دون اعتبار لسياستهم. ذلك لأنني أردت من هذا الفصل، كما هو واضح من عنوانه، استقصاء التعبيرات والمدلولات السياسية والاقتصادية في النكات التي جمعتها. هذا يعني: استبيان الأحوال والعلاقات، وليس بأي حال القدح والذمّ بالشخصيات الاقتصادية و/أو السياسية. هنا نلاحظ أن النكتة السياسية ازدهرت في العقود الثلاثة الأخيرة، وذلك على شكل موجات مترافقة مع أحداث وتغييرات. وانتقلت أكثر فأكثر من الكتابية إلى الشفهية على طريقة الشائعة، وفي أحيان متزايدة من الشفهية العلنية إلى الشفهية السرية على طريقة الشائعات الخطيرة. هذا ما يسوّغ استعمالنا لمصطلح «نكات المحرم السياسي». ربما يكفي لفهم هذا التطور أن نقرأ ما كتبه أنور الياسين (في مجلة: العربي، العدد ٤٢٥ - نيسان ١٩٩٤، ص ٢١٠) عن النكتة: «زعيم عربي غريب - وما أكثرهم - صرّح بأنه يجب ألا نضحك على النكتة، بل يجب اعتقال قائلها وتعريضه للعقاب والتعذيب حتى يعترف على من قالها له!».

بعد هذا أودّ أن أبيّن حدود مصداقية هذا العمل. في البدء ثمة معيقات ذاتية. أولها أنني شخصياً لم أطلع على محاولة كهذه من قبل،

أعني: دراسة تعبيرات ومدلولات النكتة في الوطن العربي أو أحد بلدانه، إلا بصورة جزئية (تحديداً في مصر). بالتالي لم أستفد إلا القليل من انجازات الآخرين وأخطائهم، فانحصرت الفائدة برأي هنا وملحوظة هناك وإشارة هنالك.. أما في القسم النظري، ويشمل في الكتاب المدخل والفصول الثلاثة الأولى، فقد خدمني عدد من الكتب التي ذكرتها في المكان المناسب. إنما خرجت بالجديد حول مفاهيم السعادة والفرح والضحك وحول مفهوم النكتة وأنماطها وتفانينها. ثانيها، أنني جمعت مواد بحثي بنفسي، مع أني لست متفرغاً لذلك ولا مختصّاً به؛ أي اضطررت لأن أقوم بمهمتي الجمع والدراسة، وهذه ظاهرة معروفة من ظواهر التخلف الثقافي في بلدان العالم الجنوبي. ورغم طول فترة الجمع ورغم كثرة ما جمعته من نكات وطرائف، فأنا لا أعلم إن كان ثمة مضحكات ضاعت عني وكانت ستعدّل إلى هذا الحدّ أو ذاك الصورة التي رسمتها والآراء التي استنتجتها مما كان في حوزتي من المواد. بالارتباط مع ذلك يأتي المعيق الموضوعي: في بلادنا لا يمكنك التجوال بين الناس وسؤالهم عن النكات والنوادر التي يحفظونها. ستثير شكوكهم عندئذ وتبعدهم عنك، إن لم ينلك الأذى. كما لا يمكنك حمل دفتر وقلم وتسجيل النكتة لحظة سماعها أمام راويها، فهذا أيضاً يثير الشك ويجلب المتاعب؛ وفي كل الأحوال ينفضّ عندئذ المجلس. وما لم ينقل الباحث مادته عن اخوان ثقة، فعليه انتظار سماعها عرضياً وعفوياً وحفظها في الذاكرة إلى أن يتفرد بنفسه فيحفظها على الأوراق. ومهما نشطت الذاكرة، فطاقتها محدودة. أما المعيقات الموضوعية الأخرى فقد بينتها في أماكن متفرقة من هذا الكتاب، وأكتفي الآن بذكرها: مشاعية النكتة، ضعف اهتمام المثقفين بها، قلة المراجع عنها.

هنا أجد فرصة، وكذلك ضرورة، لأن ألفت انتباه القراء الكرام إلى أمر كنت أظنه بديهياً: إن مادة هذا الكتاب مضحكات، ليست وقائع ولا حقائق. وفي كل الأحوال لست مبدعها ولا قائلها، أنا ناقلها فحسب، عنكم وعن غيركم. إن كانت خيراً، حافظوا عليها؛ وإن كانت سوءاً، تخلصوا منها. أقول هذا تأثراً ببعض ردود الأفعال على كتابي السابق «عين الزهور - سيرة

ضاحكة». فبعض الناس، ويا للعجب، اعتبروا النكات والنوادر الواردة فيه حقائق واقعة. لهؤلاء أقول: هي أدب، يا مواطنين، تعكس الواقع وليست هي الواقع، تعبّر عن الرأي وليس عن الحقيقة، تصوّر الظروف والعلاقات وليس الممارسات الفعلية. لشدّ ما أزعجني الفهم المغلوط لمضحكات عين الزهور. كانت الغاية إضحاك القارئ مع إعطائه العبرة، فكانت النتيجة أنني ظهرت بمظهر المعادي لكل من ذكرت عنهم نكتة أو نادرة. هل يُعقل أن أناساً يعود تراثهم الفكاهي إلى ألفين أو ثلاثة آلاف من السنين، يصلون إلى هذا الحدّ من قصور الفهم أو فقدان الاحساس بالنكتة؟!.

أخيراً أقدّم شكري وامتناني لكل من شجعني على انجاز هذا الكتاب، ولكل من ساعدني على جمع مواده، من الأصدقاء والأقرباء والزملاء والمعارف، وهم - لحسن الحظ - كثيرون. فلولا التشجيع والمساعدة لما تمكنت من إتمام هذا العمل.

بوعلي ياسين
اللاذقية، آذار ١٩٩٥

مدخل

ثقافة الإضحاك

الإنسان هو محور الكون، بالنسبة للإنسان*. و«السعادة» هي الغاية النهائية لبني الإنسان. يقول أبو الطيب المتنبي:

ولكني حُسدتُ على حياتي ... وما خيرُ الحياةِ بلا سرورِ

تصوّر الجنة نابع من هذه الغاية. فالجنة والجحيم يمثلان في اعتقاد المؤمنين السعادة والشقاء السرمديين، وهما النهايتان المحتملتان لحياة البشر في هذه الدنيا أيضاً. لو تمعّنا في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الجنة والنار، لما وجدنا مضامينها تختلف جوهرياً عما سنبيّنه حالاً من مفهومي السعادة والشقاء: «إلا عباد الله الصالحين، أولئك لهم رزق معلوم، فواكه وهم مكرمون، في جنات النعيم، على سرر متقابلين، يطاف عليهم بكأس من معين، بيضاء لذة للشاربين، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وعندهم قاصرات الطرف عين، كأنهن بيض مكنون». «جنات عدن يدخلونها يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، الذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسّنا فيها نصب ولا يمسّنا فيها لغوب». «إن المتقين في مقام

* نشر سابقاً مقالتان من هذا الكتاب: ـ هوامش على أدب النكتة في بلادنا، في مجلة: شؤون أدبية (الشارقة)، العدد ٩، صيف ١٩٨٩ (وقد عدّل الناشر العنوان دون إذن). ـ في الضحك وأدب الإضحاك، في مجلة: لوموند ديبلوماتيك (الكراس العربي)، عدد كانون الثاني ١٩٩٠، وعدد شباط ١٩٩٠.

أمين، في جنات وعيون، يلبسون من سندس واستبرق متقابلين، كذلك وزوجناهم بحور عين، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم»[1].

للسعادة جانبان: جانب استبطاني سكوني، هو الشعور بالارتواء، نتيجة تلبية الحاجات من هواء وماء وراحة (نوم) وطعام وكساء وجنس...، بما يقي من مشكلات مصيرية (وجودية) كالعطش والجوع والبرد والارهاق والحرمان الجنسي.. الخ. والثاني استظهاري حراكي، وهو التحقق المتتابع لما يؤلف هدف الحياة لدى الشخص المعني، بما يتجاوز المشكلات المصيرية المذكورة. هذا الهدف أو هذه الأهداف يمكن تسميتها أيضاً «قيماً»، مثل: المال، الجنس، الرفاه، السلطة، الوجاهة، الإبداع، اللعب.. الخ. الجانب الأول أساسه غريزة البقاء، فهو مادي قبل كل شيء، وهو لذلك غير مرن وأقلّ تلوناً بالمقارنة مع الجانب الآخر. أما الجانب الثاني فأساسه النزعة لتحسين البقاء؛ يَفترض إذن تحقق الجانب الأول. بالتالي يغلب عليه الطابع المعنوي، بالمقارنة مع الجانب الأول. كما أنه أكثر مرونة وتلوناً.

يقول محمد عوض: «والواقع أن العامة يرون أن السعادة إشباع الرغبات والشهوات والنزوات، وهذا ضرب من السعادة الحيوانية، نربأ بالإنسان العاقل أن يضعه لنفسه هدفاً في الحياة». فمن الواضح أنه لا يميز بين الجانبين من السعادة، الموضوعي والذاتي. كذلك غاب عن وعيه أن الإنساني ليس نفياً للحيواني، بل تجاوز له، أي يتضمنه ويزيد عليه. وقد ردّ ابراهيم مذكور بالقول، إن الفلاسفة الذين حاولوا أن يعرّفوا السعادة، «بعضهم يغلّب الاتجاه المادي، وبعضهم يغلّب الاتجاه الروحي. ولاريب في أنها تشتمل عليهما معاً»[2]. هذا

---

(١) على التوالي: الصافات ٤٠ - ٤٩، فاطر ٣٣-٣٥، الدخان ٥١ - ٥٦. الملاحظ في جميع آيات الجنة، التي ذكرنا والتي لم نذكر، أن الطعام الذي تعد به المؤمنين نباتي، أي خال من اللحوم. فنستنتج أن قتل الحيوان لن يحدث في الآخرة. وهذا - برأيي - درس لمن يفكرون أو يسمون إلى تحقيق مثال الجنة على الأرض. فلا جنة، أي لا مجتمع عدالة ومحبة، مع القتل، إلا دفاعاً عن النفس من العدوان.

(٢) ندوة الهلال - المجتمع السعيد، في مجلة: الهلال، عدد أيار ١٩٩٠، ص٨٢.

صحيح. وقد سئل النبي محمد: ما السعادة، يا رسول الله؟ فقال: هي القناعة. على هذا الأساس قال الشاعر أحمد رامي: «لم أشعر في حياتي يوماً بأنني لست سعيداً، لأنني رجل بعيد عن الأطماع، ونواحي طموحي في حدود معقولة. ففي حياتي جميعها كنت أسعى إلى النجاح، ولكن خطوة خطوة. وإن إيماني بالله ورضائي بكل ما قسم لي سبب آخر من أسباب سعادتي»(٣). إذن، بقدر ما يكون الإنسان قنوعاً، يصبح تحقق الجانب الثاني من السعادة أيسر، لأنه يكون عندئذ أقل حجماً. بالتالي فإن التقدم الحضاري لا يجلب للإنسان بالضرورة مزيداً من السعادة. فكما أنه يسهّل عليه تغطية الجانب الأول بجهد (أو عمل) أقل، فإنه يوسع الجانب الثاني من متطلبات السعادة. هذا يعني أنه من ناحية يخفّف أو يلغي من جهود وآلام تلبية الحاجات البقائية للإنسان، ومن ناحية أخرى يزيد من حاجاته الترفيّة (قل: الحضارية) ويخلق بعضها، بالتالي يتطلب مزيداً من الجهود (أو الأعمال) والآلام. لذلك قال المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

العامل الحاسم في ترجيح السعادة أو الشقاء، بين تسهيل تحقيق الجانب الأول من السعادة وتوسيع متطلبات الجانب الثاني منها، هو النظام الاجتماعي والرجحان في بنيته بين التعاون والاستغلال، التضامن والتناحر، تحقيق الذات والاغتراب.

تبقى السعادة، سواء كانت واردة إلى الداخل (من الخارج) أو صادرة إلى الخارج (من الداخل) شعوراً داخلياً ظاهره الحسّي «الفرح». نقيض السعادة هي التعاسة (أو الشقاء)، ونقيض الفرح هو الحزن والكآبة. فنحن لا نرى سعادة الآخرين مباشرة، بل نستدلّ عليها من آثار الفرح عليهم، مثلما نستدلّ على التعاسة من تأثيرها الحزين. رمز السعادة هو البشاشة والابتسام، ورمز التعاسة هو التجهّم والعبوس. ورد في القرآن الكريم: «إنا نخاف ربّنا يوماً عبوساً قمطريراً». ويصف سعادة أهل الجنة بقوله: «وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة»(٤).

(٣) في مجلة: الهلال، عدد كانون الثاني ١٩٥٤، على التوالي ص٤٢، ٦٦.

(٤) سورة الإنسان، الآية ١٠؛ سورة عبس، الآية ٣٨، ٣٩. مُسفرة: مضيئة، متهللة بُشراً. قمطرير: شديد العبوس.

هناك صنفان حدّيان من البشر، وما بينهما توجد أصناف (بينية) كثيرة، تميل بهذه الدرجة أو تلك إلى أحد القطبين: أناس الفرح، وأناس الكآبة. ضمن هؤلاء وأولئك يتواجد طيبون وشريرون، بالمقاييس الأخلاقية المتعارف عليها. يعدّ من أناس الفرح: المهرّجون والثوريون والمومسات والمبدعون؛ ومن أناس الكآبة: الرهبان والشحّادون والطغاة والمربّون. لكن الحق هو أن خير أناس الكآبة قد لا يكون أفضل من شرّ أناس الفرح، بمقياس السعادة. أقصد أننا لا نستطيع مسبقاً وبصورة عامة أن نفاضل بين الصنفين. مثلاً، ربما اعتبر البعض المومس شرّ أناس الفرح، وربما اعتبر هذا البعض الراهبة خير أناس الكآبة. غير أن المومس، بعطائها المحتمل للرجال المحرومين، قد تخلق لغيرها من السعادة ما لا تستطيعه الراهبة لنفسها أو لغيرها، نظراً لاعتزالها مباهج الحياة. بالطبع قد يكون العكس هو الصحيح، بحسب الحالة الإفرادية. قال أحدهم:

مكتفية مستغنية
لست بحاجة لأحد
لا خيبة من صديق
ولا صدّ من حبيب
فمن يحسدكِ،
يا دودة الأرض؟!.

بافتراض تساوي الفئتين في المنزلة الاجتماعية، يبدو أن عامة البشر يميلون إلى أناس الفرح أكثر مما إلى أناس الكآبة. وهذا ما عبّر عنه ابن عبد ربه بنقل هذه القصة: «إن يوحنا وشمعون كانا من الحواريين. كان يوحنا لا يجلس مجلساً إلا ضحك وأضحك من حوله. وكان شمعون لا يجلس مجلساً إلا بكى وأبكى من حوله. فقال شمعون ليوحنا: ما أكثر ضحكك، كأنك فرغت من عملك!. فقال له يوحنا: ما أكثر بكائك، كأنك قد يئست من ربك! فأوحى الله إلى المسيح، إن أحبّ السيرتين إليّ سيرة يوحنا»[٥]. كذلك محمد المويلحي لا ينصح بنظرة الحكيم هيراقليط، بل

(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه، الجزء الثالث، دار مكتبة الهلال، بيروت (بلا تاريخ)، ص٢٤٦. =

بنظرة الحكيم ديموقريط، إذ «كان الأول يشاهد أمور الناس فيبكي ويتحسّر، وكان الثاني يراها فيضحك ويسخر»(٦).

أحبّ آناس الفرح في المجتمع هم الظرفاء كأبي نواس وجحا وعبد الله النديم وفارس الخوري ونجيب حنكش وغيرهم، وكهذا الذي حدثنا عنه الجاحظ: «كان رجل من أهل السواد يتشيّع، وكان ظريفاً. فقال ابن عم له: بلغني أنك تبغض علياً؟ والله لئن فعلت، لتردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك!. فقال: والحوض في يده يوم القيامة؟. فقال: نعم. فقال: ما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بالعطش؟!. فقيل له: أتقول هذا مع تشيّعك ودينك؟!. فقال: والله لا تركت النادرة ولو قتلتني في الدنيا، وأدخلتني النار في الآخرة»(٧).. أناس الفرح هم – على الأرجح – المتفائلون المقبلون على الحياة، وأناس الكآبة هم – على الأرجح – المتشائمون المستنكفون عن الحياة. الأولون يرون من الكأس النصف المليء بالماء، والآخرون يرون نصفه الفارغ. أما الحياة فهي النصفان معاً، وهي الحكيمان الاغريقيان، وهي الحواريان المسيحيان في واحد، وإن كنا نميل فطرياً إلى أحد النصفين، أو أحد الحكيمين وأحد الحواريين دون الآخر.

إذا كان الفرح دليل السعادة، فهو، – كما نلاحظ في حياتنا اليومية – يتطلب الاجتماع، يرغب بمشاركة الآخرين، بينما يطلب الحزن الانفراد، يميل إلى الإنزواء والإنعزال. لذلك يستغرب الناس أن يروا شخصاً فرحاً لوحده، يشكّون في سلامة عقله. في حين أنه من الطبيعي أن تجد الحزين أو الكئيب منفرداً، وتعجب إن رأيته ساعياً للقاء الناس. بالمقابل ينفّر الحزين أو الكئيب الناس من حوله، باستثناء ما قد يثيره من الشفقة أو ما تستدعيه

= «وفي بعض الكتب أيضاً أن عيسى بن مريم لقي يحيى بن زكريا ع ص س، فتبسم إليه يحيى. فقال له عيسى: إنك لتبسم تبسم آمن. فقال له يحيى: إنك لتعبس عبوس قانط. فأوحى الله إلى عيسى أن الذي يفعل يحيى أحبّ إليّ». انظر أيضاً: المستطرف في كل فن مستظرف، لشهاب الدين الأبشيهي، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٠، ص٣١١.

(٦) حديث عيسى بن هشام، دار الجنوب بتونس ١٩٩٢، ص١٥٤. انظر أيضاً عباس محمود العقاد: جحا الضاحك المضحك، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩، ص٤٦.

(٧) نوادر الجاحظ، إعداد جميل جبر، مطبعة قلفاط، بيروت ١٩٥٥، ص٢٠-٢١.

حالته من مشاركة طوعية بحكم التعاطف الإنساني، أو مشاركة مفروضة كواجب اجتماعي في المآتم والمآسي. في كلا الحالتين يكون المطلوب هو إنهاء حالة الحزن والكآبة أو التخفيف منهما. على العكس من ذلك تهدف المشاركة بالفرح إلى الاستزادة منه وتعميمه، أي إيصاله إلى الآخرين.

بخصوص هذه الضرورة الاجتماعية للفرح تجدر الإشارة إلى التأثير المتبادل بين الاجتماع والفرح: فكما أن الفرح يتطلب الاجتماع ويسعى إليه، فإن الاجتماع بدوره يتسبب في الفرح والضحك أو يستدعيه. فبحكم أن الانسان مخلوق اجتماعي وأن الضحك لا يكون عادة إلا في حالة الاجتماع، فإن الاجتماعات واللقاءات هي في الأحوال الطبيعية أماكن الفرح والضحك، مهما كانت أسباب الاجتماع واللقاء جديّة. وتكون الأحوال غير طبيعية، فلا يثار فيها الضحك، إذا كان الاجتماع قسرياً أو اغترابياً. هذا يعني: أن الأشخاص المعنيين لم يجتمعوا بحريتهم ورغبتهم، أو هم يحسّون أنفسهم غرباء بين الآخرين، بالتالي يكونون غير مسرورين، يفتقدون إلى الأساس الداخلي للضحك الحقيقي. بالعكس، قد يجري تقصّد الإضحاك لإزالة الشعور بالغربة بين أناس يجهلون بعضهم شخصياً في اجتماع مرغوب أصلاً، حيث تكون الغربة ذاتية، لاموضوعية، أي مجرد شعور ذاتي مسبق لا يقوم بالضرورة على أساس موضوعي.

قد يتجسّد الفرح في الابتسام أو الضحك، أو بالغناء والرقص، أو بتعبيرات فرحية أخرى مثل التصفيق والصراخ وحتى البكاء[٨]. فالضحك في الحالات الطبيعية هو شكل من أشكال الفرح، الشكل السافر أو الصارخ منها، شكل يستثار من الخارج. هو عَرَض من أعراض السعادة، إنما بالواسطة. بتعبير آخر: السعادة تربة غنية للضحك، لكنها لا تبثّه دون باعث أو مستثير، بل تتلقف بواعثه واستثاراته بسهولة وسرعة. والإنسان السعيد يضحكه أقلّ سبب، لأن السعادة بمثابة ضحك جواني يلزمه أضيق منفذ كي ينبعث إلى الخارج. يبشّ الفلاح لسنابل حقله الذهبية المكتنزة، ليس

(٨) قال أبو العلاء المعري: فلا تحسبوا دمعي لوجدٍ وجدته   فقد تدمع العينان من شدة الضحكِ.

لجمالها بالأصل، بل لأنها ثمرة طيبة لجهوده، ومن خلال ذلك يرى جمالها قبل كل شيء. ومشية الرضيع تضحكنا، لا لأنها لهو أو هزل، بل لأنها تفرحنا. هذا يعني، أننا سعداء بطفلنا الصغير ونموّه. فتجلت هذه السعادة ضحكاً أو ابتساماً، عندما رأيناه يحاول المشي متعثراً (ومن الطبيعي أن يتعثّر).

هناك رأي، خرج به أولاً الأميركيان غريغوري (١٩٢٤) وهايوورث (١٩٢٨) ثم تبنّاه كثيرون غيرهما، يقول - كما يعبّر هيرش[٩] - نشأ الضحك بالأصل في زمن إنسان النياندرتال، عندما كان البشر الأولون يرتحلون في مجموعات (شلل) للصيد والغزو. فظهر الضحك كعلامة ارتياح لدى التغلب على العدو أو اضطراره للهرب أو لدى القضاء على الطريدة. ويرى راب (١٩٥١) أن «أصل الضحك يكمن في الكراهية والعدوان. هو في أصله وجوهره وحشي. ومن غير المستطاع أن يفهم المرء تأثيره، ميزاته ومخاطره، قدرته على الشرّ والخير، إذا لم يدرك هذه الحقيقة»[١٠]. هذا الرأي يعبّر - في نظري - عن نصف الحقيقة، لأن البدائي يضحك بعد قهر العدو واقتناص الطريدة مثلما يضحك لإيجاد الماء بعد العطش مثلاً، أي في حالة الفرج بعد الشدّة عموماً دون ارتباط حتمي بالعداء والعدوان. إنني أرى الضحك فطرياً كالبكاء، ولا أرى فرقاً في طبيعة كل من الضحك والابتسام، بل في درجتهما، كما يؤخذ من التراث العربي. والقول، بأن المبعث الأصلي للضحك هو صرخة الانتصار على العدو، الذي يعني أن الضحك عدواني في أصله، أي شرّير، يمثل نظرة جرمانية تذكرنا بفلاسفة الليبرالية؛ وهي نظرة أحادية لا تجد في العلاقات بين البشر وبينهم وبين الطبيعة سوى العداوة والعدوان، في حين تتصف النظرة العربية (والشرقية عموماً) بالثنائية، التي ترى الخير والشر معاً، إنما الخير هو الأصل الأول وهو الدائم، والشر هو الطارئ وهو المغلوب في النهاية.

(٩) تكوين النكتة أو مدرسة المضاحك، دار دي تي فاو، ميونيخ - ألمانيا، ط٢، ١٩٩٣، ص١٨٠.
(١٠) المصدر السابق، ص١٢٦.

كان هذا عن الضحك في الحياة العملية. غير أن الانسان، ذلك الكائن الحربوق، يقلب الآية، فلا ينتظر الفرح كتجلّ للسعادة، ولا ينتظر الضحك كتجسيد للفرح، بل يفتعل أو يصطنع الضحك والفرح. على مستوى الحياة (الواقع) هناك اللهو واللعب كواسطة لهذا الافتعال أو الاصطناع. ولكن، لننظر إلى الأمر من الزاوية الثقافية. فنرى الانسان يبتدع أشياء ومظاهر معينة بقصد الضحك. هذا ما نسميه «هزلاً». فبدل أن نضحك لأننا سعداء، يريد المثقف الأديب أو الفنان أن يُسعدنا من خلال إضحاكنا. وهو يعكس الآية، كما يقول أبو نواس(١١):

إني أنا الرجل الحكيم بطبعه ... ويزيد في علمي حكاية من حكى
اتتبع الظرفاء اكتب عنهم ... كيما أحدث من أحبّ فيضحكا

بناء على هذا الأساس، ثمة ضحك حياتي وضحك ثقافي. الضحك الحياتي واضح مما شرحناه، هو الضحك المباشر، أي ضحك المرء في حياته اليومية. أما الضحك الثقافي فهو الضحك من الحياة المعاد تمثيلها، ليس من الحياة الأصل، بل من الحياة المنسوخة أو المقتبسة أو المختلقة. هذا يعني: الحياة في الآداب والفنون، أو الثقافة عموماً.والضرورة الاجتماعية في الضحك الثقافي هي مثلها في الضحك الحياتي. ونحن حين نبتسم للنكتة أو نضحك لها، فإننا في الآن ذاته نضحك للآخرين أو نضحك معهم ونمرح، وتتفتح بذلك أبواب التعارف و/أو التقارب والمودة. قال أحدهم:

بظنّي اصبحنا صديقين
بيننا حديث وضحك
فما بالها أنكرتني؟!

على أن هذا الفرح المفتعل أو المصطنع لا يمكن أن يتمّ، مهما برع المثقف الهازل، إلا عندما يلقى صداه في نفوس المتلقين، أو – على الأقل – عندما لا يلقى صدوداً منها. هذا يعني، أن يُقدّم إرضاء لحاجة نفسية فيهم، مهما كانوا تعساء، أو لأنهم تعساء؛ في هذه الحالة: حاجة ثانوية،

(١١) نقلاً عن: زهر الآداب وثمرة الألباب للحصري، مطبوع على هامش العقد الفريد لابن عبد ربه، المصدر المذكور، الجزء الأول، ص١٨٦.

بالطبع. فإذا لم يلاق هذا الضحك المثار قصداً من خارجنا، أو هذا الإضحاك، تجاوباً داخلياً، أي إذا لم تتلقفه سعادة (موضوعية)، بل صدّته تعاسة في داخلنا أو هموم تشغلنا (إنما ليس إديولوجيا معارضة)، فإن الإضحاك المذكور يكون - بالحدّ الأدنى - من خلال المتعة التعويضية المحتملة (المتأتية من إرواء حاجة نفسية) قد قلّل من تأثير التعاسة إياها أو ساعدنا على نسيان أو سلوان همومنا، خلق بعض التوازن الداخلي الذي يسهّل متابعة الحياة على رماديتها. هذه هي الحاجة النفسية للضحك، وهي تتضمن أيضاً مقاومة الاكتئاب والخمول النفسي والإحباط؛ وربما أيضاً الانتقام المعنوي، كما في حالة الضحك على الأعداء (تنفيس). لدى نيتشه تبدو هذه الضرورة أكثر من نفسية، تبدو ضرورة وجودية (مصيرية)، وذلك من خلال قوله: «ربما كنت أفضل من يعلم، لماذا الإنسان وحده يضحك: فهو يتألم بعمق لدرجة أنه تحتّم عليه أن يخترع الضحك»[١٢].

استناداً لما سبق، ينتظر المرء أن يزداد الهزل في ثقافة مجتمع معين مع ازدياد تعاسة هذا المجتمع وبؤسه؛ تزداد الحاجة إليه، في الحقيقة. أو لنقل: يتقبّل المجتمع الهزل بما يتناسب مع مقدار بؤسه وشقائه. هذا ما يجده مثلاً عامرفياض في المجتمع العربي المصري، ويقول: «وإن أشدّ الناس بؤساً وأسوأهم عيشة وأقلّهم مالاً وأخلاهم يداً أكثر الناس نكتة. كأن الطبيعة التي تداوي نفسها بنفسها رأت البؤس داءً، معالجته بالنكتة دواء»[١٣]. ويصل محمود السعدني إلى ذات القناعة، إنما من طريق أخرى: «واكتشفتُ أن كل رجل ضاحك رجل بائس، وأنه مقابل كل ضحكة تفرقع على لسانه تفرقع مأساة داخل أحشائه، وأنه مقابل كل ابتسامة ترتسم على شفتيه تتحدر دمعة داخل قلبه»[١٤].

غير أن البشر يمكن أن يتعاملوا مع مصادر البؤس والشقاء، مع

---

(١٢) هيرش، المصدر المذكور، ص٢٥٧.

(١٣) الفكاهة سلاح المقاومة في مصر، في مجلة: ٢٢ يوليو (لندن)، العدد ١٩، تاريخ ٩ يوليو ١٩٧٩، ص٤٤.

(١٤) المضحكون، دار العودة - بيروت، دار الكتاب العربي - طرابلس (بلا تاريخ)، ص٥.

صعوبات الحياة، بواحدة أو أكثر من السبل التالية[١٥]: ١ـ بالتصدي لها مباشرة، وهو موقف بطولي إلى هذا الحد أو ذاك، موقف الشجاع، وأحياناً موقف المتهور. ٢ـ بمداراتها، وهو موقف الخائف الجاهل، كالبدائي الذي يلجأ إلى السحر، وكذلك موقف المنافق والانتهازي. كما قد يكون موقف الحكيم أمام قوة قاهرة إلى الحين المناسب للتصدي لها. ٣ـ بالهروب منها، وهذا سلوك الضعيف الجاهل أو الواهم. ويكون الهروب بالمسكرات والمخدرات والتديّن الزائد، وفي الحالة القصوى بالانتحار. ولا أدري إن كان موقف الزاهد يعدّ هروباً من الحياة، أو هو سبيل قائم بذاته، من باب مقاطعتها أو التخلي عنها. ٤ـ بالخضوع لها، وهو الموقف الاستسلامي، موقف العاجز والجبان أو الذليل، كما أنه موقف الصابر الباكي، لا الصابر الضاحك، موقف الباكي أمام قدر قاهر. ٥ـ بالضحك عليها، وهو أيضاً موقف شجاع إلى حدّ ما وبشكل ما، وكذلك موقف الحكيم، على مبدأ: «إذا لم تستطع جعل الأمور أفضل، فاضحك عليها»[١٦]. وذروة ذلك نجدها في مواجهة الموت. وقد عبّرت الممثلة الأميركية كاترين هيبورن عن هذا الموقف بشكل طرفة، إذ قالت: «يبدو لي أننا بلغنا المرحلة التي علمتنا أن نواجه الموت بروح النكتة. بالنسبة إلي، هذا أمر لابدّ منه. فحين تبلغ السن التي بلغتها (ولدت عام ١٩٠٩) تصبح شبيهاً بسيارة. يثقب منها دولاب فتصلحه، ثم ينطفئ مصباح أمامي فتصلحه كذلك. ثم يأتي يوم تذهب بالسيارة إلى مرآب، فيقول ذلك الميكانيكي: آسف جداً، هذا النوع من السيارات أصبح في خبر كان!»[١٧].

في الغرب يسمون الهزل «كوميك»، ويضعون على الطرف النقيض «تراجيك» (أي مأساوي). في الثقافة العربية نجد النقيضين في «الهزل»

(١٥) يرى أحمد حيدر أن الذات الإنسانية تفرّ من ضرورة هذا العالم وقسوته، بعد أن استحال عليها تعديله وتلطيف جوانبه والتلاؤم معه: أولاً بالفن، ثانياً بالسحر، ثالثاً بالضحك، رابعاً بالبطولة، خامساً بالتصوف، سادساً بالعبث، سابعاً بالمخدرات، ثامناً وأخيراً بالانتحار. انظر: طريق الإنسان الجديد بين الحرية والاشتراكية، دار الآداب، بيروت ١٩٦٢، ص٧١ – ١٢٢.

(١٦) نقلاً عن مجلة: المختار، العدد ٧٥، شباط ١٩٨٥، ص٥٢.

(١٧) في مجلة: المختار، العدد ١٠١، نيسان ١٩٨٧، ص٥.

و«الجد»[18]. صحيح أن عمر بن أبي ربيعة وأبا تمام الطائي[19] وضعا اللعب مقابل الجد، لكنني أرى أن القطب الآخر للّعب هو العمل وليس الجد. ومع ذلك يمكن اعتبار الجد في الحياة الواقعية هو العمل، واللعب في الحياة الثقافية هو الهزل. على كلّ، وكما هو الحال في علاقة الفرح والسعادة باللهو واللعب من جانب وبالجدّ والعمل من الجانب الآخر في الحياة الواقعية، كذلك في الحياة الثقافية لا يخلو الابداع الجدي بالضرورة من المتعة، كما أن الإبداع الهزلي ليس خالياً من العنصر الجادّ والمؤلم، بل حتى أننا يمكن أن نجد في الظاهر الجدي مضموناً مضحكاً، وفي الظاهر الهزلي مضموناً محزناً. ولا ننسى أيضاً أن البكاء قد يعبّر عن السعادة (خاصة في حالة الفرج بعد الشّدة)، مثلما قد يعبّر الضحك عن الألم الشديد. من هنا جاء المثل العربي: «شر البلية مايضحك»[20]. تقول إحدى أغاني الزنوج (البلوز):

عندما تراني أضحك

فإنني إنما أفعل ذلك

لأمنع نفسي من الاسترسال في البكاء[21].

المسألة مسألة شكل، أي أن هناك أشكالاً هزلية وأشكالاً جادّة لأمور الحياة البشرية ذاتها. الهزل طريقة في التعبير، مؤدّاه جدّي. كل مباكي الحياة يمكن قلبها إلى مضاحك ثقافية، وجميع المضاحك الثقافية هي

---

(١٨) يقول الشاعر الهزلي أبو العجل:

فمرني بما أحببت آت خلافه   فإن جئتني بالجد جئتك بالهزل.

انظر: حسين الجبوري، من تاريخ الصراع الجدلي في الإسلام، في مجلة: الجيل، المجلد ١٣، العدد ١٠، تشرين الأول ١٩٩٢، ص٥٥.

ولأبي العتاهية رأي مقارب: إن الفساد ضدّه الصلاح   وربّ جدّ جرّه المزاح.

(١٩) يقول عمر بن أبي ربيعة: فاتتها طبّة عالمة   تمزج الجدّ مراراً باللعب.

انظر: جمع الجواهر، ص٤٣ - ٤٤.

ويقول أبو تمام: السيف أصدق أنباء من الكتب   في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب.

(٢٠) هذه مثلاً حالة الممثل الهزلي سعيد صالح: «إن الضحك في حياتي مساحات قليلة جداً، وإنه غالباً لا يأتيني إلا في المواقف المحزنة جداً. فأنا في لحظات القهر أضحك، وفي الظلم أضحك، وفي الموت أضحك. لقد ضحكت بعد جنازة أمي، ويومها سهرت مع عادل إمام وظللنا نضحك حتى الصباح!». روز اليوسف، العدد ٣٤٤٢، تاريخ ٣٠/٥/١٩٩٤، ص٦٠.

(٢١) نقلاً عن: أحمد عبد المجيد، رحلة مع الظرفاء، سلسلة اقرأ، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٦، ص٢٦.

مباكٍ حياتية في الأصل. وقد قال هيغل: «الدعابة هي ميل العقل والقلب إلى قول الحقائق بأسلوب مرح»[٢٢]. ونقرأ لدى الجاحظ: «ومتى أُريدَ بالمزاح النفع، وبالمضحك الشيء الذي له جُعل الضحك، صار المزاح جداً، والضحك وقاراً»[٢٣]. على صعيد التطبيق عرضت مسرحية «حسن ونعيمة» لشوقي عبد الحكيم في عام ١٩٦٤ كمسرحية تراجيدية، ثم أعاد المؤلف بعدئذ كتابتها كمسرحية كوميدية غنائية استعراضية[٢٤]. ورغم مأساوية سيرة «ريا وسكينة» فقد تحولت إلى مسرحية هزلية متميزة، أجاد في تمثيلها شادية وسهير البابلي وعبد المنعم المدبولي وأحمد بدير. وبرأيي ليس من الصعب قلب كوميديات شكسبير إلى تراجيديات.

تتضح لنا صحة هذه العلاقة بين الهزل والجدّ، لو وضعنا أنفسنا مثلاً مكان الشخص الذي يجري عليه مقلب. فعندئذ سنغضب بالتأكيد، في حين كنا قبل قليل نضحك كمتفرّجين. مثال ذلك، أن الممثل الكوميدي لوريل يجلس في أحد أفلامهما على فخذ صديقه هاردي بدلاً من الكرسي، دون قصد. هاردي يغضب، والمتفرج يضحك. هاردي يغضب، لأن رجله أخذت وظيفة الكرسي، لأنه رأى نفسه مشيّئاً. والمتفرج يضحك لأنه ليس من المألوف أن يجلس رجل على فخذ رجل آخر. لو فعلت ذلك امرأة، لما ضحكنا نحن، بل لكان هاردي نفسه هو من سيضحك فرحاً، وكنا نحن اعتبرنا المشهد غزلاً. بهذا المعنى نفهم التعريف التالي للنكتة: «النكتة هي حادثة وقعت لغيرك، ولو وقعت لك لجعلتك تبكي بدلاً من أن تضحك»[٢٥]. مع ذلك يستغرب كثير من الناس، لماذا لا يضحك الممثل الهزلي أثناء تأديته لمشهد ضاحك. أما نحن فنستغرب، كيف يمكن أن يضحك هذا الممثل، إذا تقمّص دوره؟! ضحك الممثل هنا معناه أنه لا يمثل، بل يتفرّج، معناه أنه ممثل سيئ!.

(٢٢) انظر داميان بارنياكوف: الفكاهة البلغارية، ترجمة حسين راجي، دار مجلة الثقافة، دمشق ١٩٨٢، ص٢٠.
(٢٣) البخلاء، دار الكاتب العربي – سورية، ١٩٨٣، ص٩.
(٢٤) فايز الصايغ في لقاء مع شوقي عبد الحكيم، منشور في جريدة تشرين، تاريخ ١٩٧٧/٨/٢٥، ص٧.
(٢٥) في مجلة: الموعد، العدد ١١٦٢، تاريخ ١٩٨٥/٦/٨، ص٥٨.

السؤال الذي ينطرح عادة هو: لماذا يجري التعبير بطريقة هزلية؟. بينما لا أحد يسأل عن سبب التعبير بالطرق الجدّية. هذا، لأن الجدّ هو الحالة العادية، في حين أن الهزل هو الحالة الطارئة، غير العادية. من هنا جاء المبدأ الأخلاقي السلوكي: «الضحك من غير سبب قلة أدب»، بالمقابل لا يحتاج الجدّ بحكم طبيعته إلى أي تبرير. يقول عباس محمود العقاد[٢٦]، إننا نُقبل على الفكاهة «لأن الفكاهة اختيارية، بينما الجد تكليف. والإنسان لا يحب عادة ما يكلف به». ويضيف محمد خطاب[٢٧]: «و(الجد) لا جديد فيه. فنحن نشاهده كل يوم، بينما الفكاهة جديدة. ولذلك فهي طريفة».

إضافة إلى ما ذكرناه فيما سبق، يمكن أن نجيب على السؤال المطروح أيضاً بالبساطة التالية: نحن نعبّر هزلياً كي نضحك. فنحن نحتاج إلى الضحك. ولأننا نحتاج إلى الضحك، نسعى إليه. ولأننا نسعى إليه، يتواجد على الدوام من ينشغل بإضحاكنا، على الأقل للكسب، إن لم يكن بحكم الطبع الشخصي. هكذا نحصل على سبب (من أسباب) وجود الكوميديا: أناس يبغون الضحك كيفما كان، يلتقون مع أناس مستعدين لإضحاكهم بأقل ثمن. إذن، نحن نحتاج إلى الضحك، ولكن ليس دائماً وباستمرار. ونعيش في الجدّ فلا نشعر عادة بالحاجة إليه. إنما عندما يزيد الضحك عن حدّ معين، ينشأ لدينا دافع نفسي إلى التوقف، بل حتى إن جسمنا ينقبض ولا يعود يتجاوب مع دواعي الضحك. حدثني عمي، أنه عندما كان معلماً في إحدى القرى، وجد لديه في إحدى السنوات تلميذ دائم الضحك، أينما كان ودون سبب. كان كل ما في المدرسة بالنسبة له، هو الراعي، مهزلة. فاستدعاه عمي إلى غرفة الإدارة، وطلب منه أن يضحك. فأخذ التلميذ يضحك، في البدء متحفظاً. ولما شجعه عمي، أطلق لضحكه العنان. ومازال يضحك وعمي يستزيده، حتى صار يبكي. ومن يومها لم يره أحد في المدرسة ضاحكاً. لقد أدرك المسكين حسياً أن المدرسة جديّة، لدرجة البكاء.

---

(٢٦) ندوة الفكاهة، في مجلة: الهلال، عدد آب ١٩٤٨، ص١١١.

(٢٧) نفس المصدر.

ربما أمكن تشبيه الهزل والجدّ بالعطر والهواء. فقليل من العطر ينعشنا، وكثيره يفسد الجو ويعيق التنفس. فالجدّ هو الحالة الطبيعية، والهزل هو الحالة الاستثنائية. لذلك كان الهزل زاهياً ناعماً رنّاناً، وكان الجد رمادياً خشناً أجشّ. ويعبّر البستي ببلاغة عما نريد[28]:

أفد طبعك المكدود بالهمّ راحة بــراحٍ وعلّله بشيء من المزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

فإذا زاد عن ذلك، صار الهزل عادياً، بالتالي غير مضحك، بالتالي تافهاً، وهو أسوأ أنواع الجد: كل ما زاد عن حدّه، انقلب إلى ضدّه!.

إذا شبهنا الثقافة عموماً بالدواء، فإن الثقافة الجدية تكون عندئذ هي الدواء المرّ، وتكون الثقافة الهزلية هي الدواء الحلو. كلاهما يساعد الجسم كي يعود إلى حالته الطبيعية المتوازنة. على أن الدواء الحلو يسهل تناوله، في حين قد يتعذر على البعض، وخاصة الأطفال، أن يتناولوا الدواء المرّ. وبينما يمانع الأطفال أثناء تناولهم الدواء المرّ، مما يصعّب على الدواء أن يأخذ مفعوله، فإن الدواء الحلو يدخل جسم الطفل والجسم متقبّل له أو راغب به. بذلك يتحول الشكل المرّ أو الحلو لأن يصبح في مثل هذه الحالة «مضموناً» مستقلاً، وليس مجرد شكل للدواء ذاته؛ بمعنى أنه قد يؤثر على حالة الجسم إيجاباً أو سلباً من خلال التقبّل أو الممانعة. بهذه الصورة أرى الثقافة أيضاً. فالثقافة الجادة تلقى عموماً تقبلاً أقل، إنما مفعولها في الحالة الطبيعية أكبر نسبياً. والثقافة الهزلية تلقى بالمقابل على العموم تقبلاً أكبر، ويكون مفعولها نسبياً أقلّ. - بذلك نكون قد أتينا على ذكر الضرورة الثالثة للضحك، وهي تأثيره الفيزيولوجي الايجابي على الجسم، ومن ذلك تنشيط الدم وإراحة الأعصاب وانبساط العضلات وغير ذلك. ويفسر هيرش هذا المفعول الارتياحي للضحك فيزيولوجياً، بالاستناد إلى ملحوظة لساندور فرنزي (١٩١٣): «الضحك نفثان للهواء من الرئة، البكاء عباب للهواء»، فيقول، إن «الضحك زفير، يذكر بالأنين، وتأثيره

(٢٨) أبو الفتح البستي، في كتاب: زهر الآداب... المصدر المذكور، الجزء الأول، ص١٨٨.

مماثل في الترويح عن النفس، حيث يفشّ المرء ضغطاً داخلياً. بالمقابل فإن التنهّد هو نزوع إلى الهواء»(٢٩).

هكذا نصل في بعض الأوقات إلى حالة من الجفاف النفسي والخمول الجسدي نشتهي فيها الضحك، ولو على أنفسنا؛ نشتهي فيها الضحك ولو بالدغدغة. قال الإمام علي: «روحوا القلوب واطلبوا لها طرف الحكمة، فإنها تملّ كما تملّ الأبدان»(٣٠). أما الأطفال الذين هم أكثر منا - نحن الراشدين - عفوية، وبالتالي أقرب إلى الطبيعة، يرغبون أحياناً بالكركرة (الدغدغة)، حتى أنهم قد يطلبونها كي يضحكوا. إنهم يشعرون بضرورة الضحك، دون أن يكونوا قد شغلوا رؤوسهم الصغيرة بذلك. وقد قلت مرة شيئاً مضحكاً أمام طفل، فاستسلم للضحك. وعندما انتهى من الضحك بقي مبتسماً وقال لي: شكراً، أضحكتني. وأنا الذي كنت قد ابتسمت لضحكه، غمرني شكره بالسعادة. ومما يروى في هذا الإطار: «وكانت سويداء لبعض الأنصار تختلف إلى عائشة فتلعب بين يديها وتضحكها. وربما دخل النبي على عائشة فيجدها عندها، فيضحكان جميعاً. ثم إن النبي فقدها، فقال: يا عائشة، ما فعلت سويداء؟ قالت له: إنها مريضة. فجاءها النبي يعودها، فوجدها في الموت، فقال لأهلها: إذا توفيت فآذنوني. فلما توفيت آذنوه، فشهدها وصلى عليها وقال: اللهم إنها كانت حريصة على أن تضحكني، فأضحكها فرحاً»(٣١).

وللضحك عبر تأثيراته الجسدية والنفسية والاجتماعية مفعول أخلاقي وخُلقي (طباعي). يروي الجاحظ عن أحدهم أنه «قال حين عوتب في قلة الضحك وشدّة القطوب: إن الذي يمنعني من الضحك، أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل، إذا ضحك وطابت نفسه»(٣٢). وهذا جائز، بالنظر إلى أن

(٢٩) هيرش، المصدر المذكور، ص٢٥٥ - ٢٥٦.
(٣٠) نقلاً عن ابن الجوزي في كتاب: أخبار الحمقى والمغفلين، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠، ص١٧. انظر أيضاً العقد الفريد لابن عبد ربه، الجزء الثالث، ص٣٤٥.
(٣١) العقد الفريد لابن عبد ربه، المصدر المذكور، الجزء الثالث، ص٢٤٦. انظر أيضاً أحمد الحوفي: بشر النبي وفكاهته، في: مجلة الكويت، العدد ١٢/١٩٨١، ص١٢.
(٣٢) البخلاء، المصدر المذكور سابقاً، ص٨٨.

عامة البشر ليسوا شريرين خالصين وخيّرين خالصين، بل تتجاذبهم عموماً نوازع متضاربة، متفاوتة في محتواها الايجابي أو السلبي. فإذا لم يكن هذا الصراع الداخلي لدى شخص معين محسوماً بعد، وضحك، فقد ينفتح بذلك منفذ لظهور الناحية الايجابية في نفسه، فتتغلب وتوجّه سلوكه. أما العكس فهو الأصحّ، برأيي، إذ أن الضحك - في الحالة الطبيعية - دليل على انتصار الايجابي على السلبي. يقول الجاحظ: «الضحك أول خير يظهر من الصبي»[٣٣]. في شعر لبدوي الجبل يظهر الخير في ضحك الأطفال، والشر في تقطيب الوجه لهم[٣٤]:

وصن ضحكة الأطفال، يا ربّ، إنها   إذا غردت في ظامئ الرمل أعشبا

ويا ربّ، حبّب كل طفل فلا يرى   وإن لجّ في الأعنات، وجهاً مقطبا

وعلى العموم تترافق القسوة مع الجدية والعبوس، واللين مع المرح والابتسام. وكم من ورطة وقع فيها ذكي، فاستطاع أن ينجو منها بإضحاك ذوي السلطة، وكم من أمر صعب ناله ظريف بإضحاك ذوي الأمر. هذا ما سبقنا إليه الحصري، عندما قال: «وكم ظريفة من الخطاب ومليحة من الجواب خلّصت من الهلاك من نصبت له الشراك، وسلمت من الحتوف من أصلتت له السيوف»[٣٥]. من ذلك ما نقرأ في كتب التراث: «أُخذ رجل ادعى النبوة أيام المهدي، فأُدخل عليه. فقال له: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: وإلى من بعثت؟ قال: أوتركتموني أذهب إلى أحد؟! ساعة بعثت وضعتموني في الحبس. فضحك منه المهدي وخلّى سبيله»[٣٦]. وكان من المفترض أن يأمر بقتله، كما جرت العادة الاستبدادية وقتذاك. هكذا أيضاً يرى جيري لويس، عندما يقول: «لا نقدر أن نكره ساعة نضحك»[٣٧]. وقد «سبب اندفاع أرنب مذعور بين صفوف الجنود المتقابلين موجة عارمة من الضحك، مما أدى

---

(٣٣) المصدر السابق، ص٩.

(٣٤) من قصيدة «البلبل الغريب» التي قالها بحفيده، في فيينا بتاريخ ٢ أيلول ١٩٦٢. نشرتها مجلة المضحك المبكي في العدد ١٠٣٩، تاريخ ٦/١٠/١٩٦٢.

(٣٥) أبو اسحق الحصري: جمع الجواهر في الملح والنوادر (ذيل زهر الآداب)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية - البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٣، ص١٨.

(٣٦) العقد الفريد، الجزء الثالث، ص٢٥٠.

(٣٧) القول المثال في الحكم والأمثال، جمعها وترجمها جبرائيل سكاف بالاشتراك مع ريمون قسيس، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٦، ص٢٠٦.

إلى انسحاب الجنود من مواقعهم من دون قتال. حدث هذا في موقعة بويروتتوس في فرنسا، والتي كانت بداية المعارك الأولية لحرب المئة سنة بين فرنسا وإنكلترا»[٣٨].

المسألة متعلقة أصلاً، كما أرى، بمدى ابتعاد واقتراب المرء من جوهره الإنساني: فثمة أمور وحالات تنزع بالمرء إلى الابتعاد، كما ثمة أمور وحالات تنزع به إلى الاقتراب من هذا الجوهر. المال والسلطان مثلاً يغريان بالشرّ، أي اللاإنسانية، بينما المعرفة مثلاً أميل إلى الخير (بمعنى النزعة الإنسانية). مع ذلك، حتى ضمن علاقات الشر قد تتحقق حالات إنسانوية: لقد بيّن برشت في مسرحية «بونتيلا وتابعه ماتي» كيف يلتغي النظام الطبقي في عقل الثري بونتيلا عندما يسكر (أي عندما يغيب عن وعيه الطبقي)، وكيف يعود هذا النظام على أشدّه عندما يصحو (أي عندما يعود إلى وعيه الطبقي). وثمة أعمال أدبية كثيرة جداً ترينا كيف يصير العاشق بعد حقد وكراهية محباً لكل البشر، متسامحاً مع أخطائهم وتجاوزاتهم، مستعداً لتقديم كل عون لهم.. ويمكن القول، إن الضحك والابتسام كتعبيرين عن الفرح، لهما مفعول خيري مشابه على الأشخاص المعنيين. هذا ما يراه سومرست موم أيضاً، عندما يقول: «إنك لا تغضب من الناس حين تضحك منهم، والمرح يعلّم التسامح»[٣٩]. انظر إلى شخص جبار عنيد وقد اتخذ قراراً ظالماً، فليس ثمة ما يثنيه عنه. يكون متجهماً عابساً، جامد النظرة، متحفزاً. فإن استطعت أن ترسم على وجهه ابتسامة، فقد فتحت نافذة إلى قلبه، وأمكنك على الأرجح أن تعيده إلى الصواب. وإذا ضحك، فقد تراجع عن ظلمه. لذلك ينفر أمثال هؤلاء الجبابرة من المزاح والضحك في غير مجالسه، بل ويمنعونه ويعاقبون عليه.

من أمثلة ذلك أنه «اختصم إلى زياد بن أبيه بنو راسب وبنو طفاوه في غلام ادّعوه وأقاموا جميعاً البيّنة عند زياد. فأشكل على زياد أمره. فقال

(٣٨) الأسبوع الضاحك، العدد ٣٥، السنة الثانية، ص١٠.

(٣٩) عصارة الأيام، تعريب حسام الخطيب، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٤، ص٧٩.

سعد الرابية من بني عمرو بن يربوع: أصلح الله الأمير، قد تبيّن لي في هذا الغلام القضاء، ولقد شهدت البينة لبني راسب والطفاوة، فولني الحكم بينهما. قال: وما عندك في ذلك؟ قال: أرى أن يلقى في النهر، فإن رسب فهو لبني راسب، وإن طفا فهو للطفاوه. فأخذ زياد نعليه وقام وقد غلبه الضحك. ثم أرسل إليه: إني أنهاك عن المزاح في مجلسي. قال: أصلح الله الأمير، حضرني أمر خفت أن أنساه. فضحك زياد وقال: لا تعودنّ»[٤٠]. فزياد وأمثاله يرون في الضحك انتقاصاً من الهيبة. وما الهيبة هنا سوى نتاج للتسلط والقمع، أي خُلق شرّاني. أما الهيبة غير المفروضة قسراً، مثل هيبة العالم والفاضل، فلا تتأثر سلباً بالضحك. ومما يروى عن الإمام علي: «من كانت فيه دعابة فقد برئ من الكبر»[٤١]. والكبر في هذا القول يعني في لغتنا المعاصرة: التكبّر والعجرفة.

كتب نجاة قصاب حسن، وهو من كبار المثقفين الظرفاء في سوريا: «وفهم النكتة من أعلى علامات الذكاء، أكاد أنفجر إذا حكيت حكاية باسمة لواحد وبقيت ملامحه مشدودة إلى تحت وسألني: وبعدين»[٤٢]. في مشهد من مسرحية برشت المذكورة آنفاً، حيث يدور الحدث في حجرة للطعام، يتردد الاقطاعي بونتيلا في تزويج ابنته من الملحق بالسفارة، ويستشير القاضي فريدريك في ذلك. يستمر المشهد بعدئذ كالتالي:

«- بونتيلا: انظر إلى وجهه ثم احكم، فريدريك!.

- القاضي: هل تعرف نكتة اليهودي الذي نسي معطفه؟ علق المتشائم على ذلك بقوله: نعم سوف يعثر عليه. أما المتفائل فقال: لا لن يجده! (المدعوون يضحكون).

- الملحق: وهل وجده؟

- القاضي: أعتقد أنك لم تفهم النكتة تماماً.

---

(٤٠) العقد الفريد، الجزء الثالث، ص٣٦٧. وتنسب هذه النادرة لجحا وكذلك لهبنقه. انظر عبد الستار فراج: أخبار جحا، مكتبة مصر، القاهر ١٩٥٤، ص١١٢.

(٤١) نقلاً عن: زاهر أبو داود، الفكاهة الهادفة في الإسلام، مكتبة دار المحبة، دمشق ١٩٩١، ص٧٤.

(٤٢) زاوية يوميات: البقاء وحسن البقاء، في جريدة البعث (دمشق)، تاريخ ١٩٨٣/٢/٢٣، ص١٢.



- بونتيلا: فريدريك!.
- الملحق: لابد أن تشرحها لي، أعتقد أنك بدّلت التعليقات، فالمتفائل هو الذي يقول: نعم سوف يجده!.
- القاضي: لا، بل المتشائم!. حاول أن تفهم. إن طرافة النكتة في أن المعطف قديم لدرجة أنه يتمنى أن يكون قد ضاع!.
- الملحق: فهمت. المعطف قديم؟ لقد نسيتَ أن تقول هذا. هاهاها!. هذه أحسن نكتة رأسمالية سمعتها في حياتي!
- بونتيلا (يقف متجهماً): يجب الآن أن أتدخل. إنني لا أستطيع أن أحتمل مثل هذا الانسان. فريدريك! أنت ترفض الاجابة الصريحة على سؤالي الجاد: ما رأيك في مثل هذا الوجه إذا أدخلته في عائلتي؟ حسن. لقد وصلت إلى سن تسمح لي باتخاذ قرار وحدي. إن الانسان الذي لا يفهم المزاح ليس إنساناً على الاطلاق»(٤٣).

بالاضافة إلى الجوانب الاجتماعية والجسدية والنفسية والأخلاقية، التي ذكرناها، أرى في الضحك جانباً جمالياً. لا أقصد جمالية الثقافة أو الأدب والفن حصراً، بل جمالية الضحك نفسه، سواء كان منشؤه حياتياً أم ثقافياً. فالانسان الضاحك جميل، خلافاً للإنسان العابس. وقد أراد الشاعر البحتري أن يبيّن جمال فصل الربيع، فلم يجد أبلغ من وصفه بأنه يضحك من الحُسن:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً   من الحسن حتى كاد أن يتكلما

ويرتبط المفعول الجمالي للضحك بالمفعول الطباعي. وقد لاحظت شخصياً أن الكثير من بنات الأغنياء الجميلات في الأصل، إنما المتعجرفات، تتقلب وجوههن غير جميلة لكثرة الاشمئزاز والتقزّز، إذ مع الأيام يثبت هذا التعبير القبيح على وجوههن ويصير من طبيعة الوجه (طبيعة مكتسبة). وهذا ما نلاحظه أيضاً على المهووسات بالنظافة ذوات

(٤٣) ترجمة عبد الغفار مكاوي، الدار القومية، القاهرة (دون تاريخ)، ص١٣٠ - ١٣١. (سلسلة مسرحيات عالمية رقم ٢١).

النفور الجنسي. بالمقابل يتفق الجميع على جمال الوجه البشوش الباسم، يستشفّون منه الطيبة، كما يبدو. على العموم ترتسم إلى هذا الحدّ أو ذاك وتثبت على وجه الإنسان ملامح تعبّر عن طبيعته، فيتجمّل وجهه بالطبع والسلوك الطيب، ويقبح بالطبع والسلوك السيء. وأظن أن فن الفراسة، أو علم الفراسة (إن وُجد هكذا علم) يستند إلى هذا الأساس الافتراضي: الحكم على السرائر (البواطن) بدلالة الظواهر أو المظاهر، أو: استشفاف السرائر من خلال الظواهر. لذلك أيضاً دأب الفن والأدب منذ البدء وبصورة عفوية (ليست دائماً مبرّرة) على تصوير الشرير قبيحاً متجهماً، والطيب جميلاً مشرقاً. يشبّه العوام الوجه العابس بالجلاّد، أما الوجه البشوش فبالملاك. وما من تشبيه أبلغ من ذلك.

ليس كل مايضحك هزلياً، كما ذكرنا، ولكن لا هزل بلا ضحك، بالمعنى الواسع لكلمة «ضحك»، التي تتضمن الابتسام[٤٤] وحتى الضحك المكتوم (أي الفرح غير المُستظهَر). بذلك لا يعاني الفن الهزلي من مشكلة المتعة، هي متحققة فيه حكماً. فهل يمكن أن يعاني من فقدان الفائدة؟. إن الفن الهزلي يمتاز بأن فائدته متضمنة فيه إلى حد بعيد. نقصد أن الضحك الذي يولّده يمثّل بحد ذاته فائدة. بالتالي يمكن في الهزليات أن نتحدث عن «الهزل للهزل» (الذي يتطابق هنا مع مبدأ «الفن للفن»)، دون أن نكون بذلك قد نقضنا بالضرورة مبدأ «الهزل للفائدة». بهذا المنظار يشبه الهزل عملة الذهب، قيمته فيه. أما الابداع الجادّ فمثل العملة الورقية، تتراوح قيمته بين التراب والبلاتين. كي نكون أكثر وضوحاً نقول: إن الهزل يخضع لنفس مقاييس الفن الجادّ، باستثناء أنه كمضمون ذو شقين: المحتوى الضاحك أو الإضحاك بذاته، من جهة (أي الشكل، حيث هو في نفس الوقت مضمون)، والقصد من الإضحاك أو المؤدى

(٤٤) ورد في القرآن الكريم: «فتبسّم ضاحكاً». سورة النمل، الآية ١٩. ونقل زاهر أبو داود عن الثعالبي أن «التبسم أول مراتب الضحك، ثم الإهلاس وهو الإخفاء، ثم الكتكتة أشدّ منها، ثم القهقهة والقرقرة والكركرة، ثم الاستغراب ثم الطخطخة (وهي أن تقول: طيخ طيخ) ثم الاهزاق والزهزقة، وهي أن يذهب الضحك به كل مذهب». الفكاهة الهادفة في الإسلام، ص٧. انظر أيضاً عبد الكريم اليافي، دراسات فنية في الأدب العربي، طبعة ١٩٧٢ (دمشق)، ص٧٣/٧٤.

الجدّي للضحك، من الجهة الأخرى (أي مضمون الشكل الهزلي). وفي حين نجد أن الشقّ الأول، وهو الضحك بذاته، متحقق بالتعريف، وإن بمستويات متفاوتة من الجودة الفنية ومن درجات الإضحاك (فتكثر نسبياً «البياخة» هنا)، فإن الشق الثاني، وهو المقصود من الضحك، يخضع للتقييمات السارية على الفن الجدي، دون حاجة لأن نخوض الآن في مناقشة هذه التقييمات. على أن هذا التعريف دراسي؛ وفي التطبيق العملي يتوحّد الشقّان ويكون الحكم النهائي على كامل العمل الثقافي دون تجزئة.

لذلك لا نستغرب إن وجدنا نقد الأعمال الهزلية أقلّ صرامة وتجنيّاً من نقد الأعمال الجدية. يكفي أن يجعلنا العمل الفني نبتسم، كي ينال حداً أدنى من القبول. فيظهر كأن الإضحاك قد شفع للعمل قصوره المحتمل في الأمور الأخرى الخاضعة للتقييم. لكن الحقيقة هي أنه بهذا الإضحاك قد حقق بعض غايته، إذا صحّ تبعيض الغاية. بالمقابل تبدو الأعمال الجدية الجيدة أعلى تقييماً من الهزلية الجيدة. فإذا كانت علامات الأعمال الجدية تتراوح بين ٠-١٠، فإن علامات الأعمال الهزلية تتراوح تقديرياً بين ٣-٧ أو بين ٢-٨. وإذا صحّ تعليلنا لعدم انخفاض علامة الهزليات عن ٣ أو ٢، فما هو السبب في عدم تجاوز حدّه الأقصى لـ٧ أو ٨؟ أظن أن هذا يعود إلى أن الأعمال الجدية يتصاعد فيها مجرى الحدث من الباطل إلى الحقّ، أو من الشرّ إلى الخير، أو من القبيح إلى الجميل، أو من التافه إلى الجليل. أما الأعمال الهزلية فينتقل الحدث فيها، كما سنبيّن بالتفصيل، بصورة معكوسة، من المستوى الأعلى إلى الأدنى، أو من الطبيعي إلى الشاذّ... هكذا يبدو أن التقنية تؤثر على رأينا في التقييم العام للأعمال الثقافية الجدية والهزلية. وفي الحقيقة لا نكون غيّرنا رأينا، إذا عدنا وعبّرنا عما سبق بالقول: ليس في الإبداع الجدي شفيع يقابل الضحك في الإبداع الهزلي، اللهم إلا البكاء. غير أن البكاء شفيع سيء، لأنه ينزع بالعمل إلى المنزلق الميلودرامي... وعلى كلّ: أية جمالية تكمن في جعل الناس يبكون؟!.

إذا أخذنا بمقياس السعادة، الذي بدأنا به حديثنا، فإنه يُفترض بالعمل «الباكي» (إذا صحت هذه العبارة) أن يقدم من الفائدة، ممثلة بالعبرة، ما يعوّض ويزيد عن اللامتعة (الألم) التي يسببها الإبكاء. غير أنه يمكن الاعتراض على ذلك، بأن البكاء قد يقدّم متعة، مثله مثل الضحك. بالطبع، عندئذ لا يكون البكاء تعبيراً عن فرح وسعادة كالضحك، بالتأكيد لا، بل يكون - كما هو - تعبيراً عن الحزن والتعاسة. فمن أين المتعة أذن؟ إذ ذاك تكمن المتعة في أن المرء قد يكون حزيناً في داخله لدرجة يصبح فيها البكاء متنفساً. وهذا التنفيس يخلف ارتياحاً، بالتالي متعة، وهي متعة تصريف طاقة ضاغطة أو محقونة. هكذا أرى تفسير رغبة كثير من عامة الناس (وخاصة النساء) بمشاهدة الأعمال الميلودرامية، وتقييمهم لجودة العمل التمثيلي بحسب قدرته على الإبكاء. وهذا ليس دون أساس موضوعي. فالقدرة على الإبكاء تبقى مهارة، مثلها مثل القدرة على القتل وعلى الإغاثة وعلى قيادة السيارات. لكن، ما يدفع إلى تقييم القدرة على الإبكاء تقييماً ايجابياً هو ما ذكرناه عن التجاوب الداخلي لدى المشاهدين المعنيين، أقصد حاجتهم إلى البكاء وتلبيتها، بوساطة المشاركة الوجدانية مع شخوص التمثيلية المعنية. حدث مرة أن أحد معارفي قدم للتعزية بوفاة قريب مرموق، وما أن وصل حتى صاح أمام أهل الميت: الآن طاب البكاء!. وبالفعل علا على الفور صوت الناحبين والناحبات. كأنه كان يفتقد إلى سبب أو ذريعة للبكاء، فانسرّ بلقياه بهذه الدسامة، وتمتع بالبكاء الجماعي. هنا حياة المفارقات، هنا تزدهر ثقافة الإبكاء والإضحاك:

المراثي هنا والأغاني سواء
وهنا يستوي ضحك بالبكاء[٤٥].

(٤٥) سميح القاسم، في مجلة: الناقد، عدد آذار ١٩٩٠، ص١٢.

الفصل الأول

مفهوم النكتة

ثمة فنون هزلية كثيرة. يمكن القول: في كل فن يوجد نوع هزلي. لنتذكر الكاريكاتير مثلاً في الفن التشكيلي (الرسم). ما يهمنا هنا هو الأدب الهزلي. يُصار عادة إلى التفريق بين نوعين أساسيين من الأدب الهزلي: الهزل الاستحساني (وهو هزل إيجابي)، والهزل الاستنكاري (وهو هزل سلبي)[1]. يدعى الأول باسم Humor، أي فكاهة، والثاني Satire، أي السخرية. ويتضمن مفهوم الفكاهة المزاح والمداعبة والظرف، بينما يشمل مفهوم السخرية الهجاء والتهكم واللؤم. هذا تفريق مدرسي بالطبع، يسهّل الفهم، لكنه لا يعبّر تماماً ودائماً عن فن الهزل أو أدب الهزل في الممارسة التي قد يختلط فيها النوعان أو قد تضيع بينهما التخوم.

هذه المصطلحات، على قلّتها، ليست موحدة في المنشورات العربية. ثمة من يطلق على Comic فكاهة (بدلاً من هزل)، وعلى Humor هزلاً أو مزاحاً أو دعابة (بدلاً من فكاهة)، وعلى Satirc هجاءً (بدلاً من سخرية)...

(١) يقسّم مارسيل بانيول الضحك إلى نوعين: «ضحك ايجابي، ويقرر أنه هو الضحك الحقيقي والصحي والمنعش. والضحك السلبي، ضحك حزين، متجهم، غليظ القلب. وهذا الضحك يتولد عن شعور المرء بنقص الآخر أو ضعفه أو ضعته، أي ضحك الاحتقار أو الازدراء أو الانتقام أو التشفي». انظر محمد أبو خضور، النكتة الصهيونية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٧٧، ص٢٠.

وهكذا[٢]. لذلك يضطر الكاتب العربي عادة للجوء إلى المصطلحات الأوروبية، إذا أراد أن يكون واضحاً في مقصده، دقيقاً في تعبيره. لنسمع هذه العبارات في الأدب الهزلي، ولنحاول أن نجد لكل منها في المراجع اللغوية والأدبية العربية تعريفاً واضحاً مميِّزاً: النادرة، السالفة، النكتة، الدعابة، الطرفة، الملحة، القفشة، النهفة... أظننا سنضطر - بعد هذا العمر الطويل للآداب العربية - لأن نضع لها من عندنا معان محددة. ذلك لأننا لن نجد المراجع التي تحسم هذه المسألة. من جهة يشي هذا بقلة الانشغال الثقافي بهذه المفاهيم، ومن جهة أخرى يبدو أن رجال اللغة العرب «الرسميين» لم يعوا بعد أهمية المصطلح في العلوم العصرية وفي الحياة الثقافية، أو لم يستوعبوا معناه الحديث، وهو أن المهم في تسمية الأشياء هو الاصطلاح بالدرجة الأولى. هذا يعني: الاتفاق بين أبناء اللغة المعنية على هذه التسمية أو تلك، مع الحرص (وليس الاشتراط) على أن يعطي الجذر اللغوي للمصطلح بشكل ما المعنى المتضمن في المفهوم أو الشيء المراد تسميته. ولما كانت بعض الجذور اللغوية قريبة في معانيها، فإنه يمكن نظرياً أن يطلق على مفهوم جديد عدة أسماء مختلفة (باللفظ)، دون مخالفة للأصول اللغوية. وهذا يوجب الاصطلاح أيضاً. في تونس مثلاً يقال «الأسعار القارّة»، وفي سوريا «الأسعار الثابتة». وكلاهما صحيح، إنما الأفضل أن يتفق جميع متكلمي العربية على مصطلح واحد لهذا المفهوم الاقتصادي الهام، كي يفهموا بعضهم دون ترجمة.

لو فتشنا عن المعاني اللغوية لعبارة «نكتة» في لسان العرب والقاموس المحيط وفي المنجد في اللغة والأعلام والمعجم الوسيط، لوجدنا ثمانية، ليس واحداً منها يعطينا المفهوم الحالي: ١ـ الأثر الحاصل من الضرب في الأرض بقضيب. ٢ـ النقطة في الشيء تخالف لونه. ٣ـ شبه الوسخ في

(٢) انظر على سبيل المثال: ـ الكوميديا، تأليف مولوين ميرشنت، ترجمة علي أحمد محمود، مراجعة شوقي سكري، سلسلة عالم المعرفة ١٨، الكويت ١٩٧٩. ـ معجم المصطلحات الأدبية، إعداد ابراهيم فتحي، التعاضدية العمالية، صفاقس (تونس) ١٩٨٦. ـ عباس محمود العقاد: جحا الضاحك المضحك. ـ شوقي ضيف: الفكاهة في مصر، كتاب الهلال، شباط ١٩٥٨.

المرآة والسيف ونحوهما. ٤ـ شبه وقرة في العين. ٥ـ نبوة الفرس، أو انحراف مرفق البعير حتى يقع على الجنب فيخرقه. ٦ـ المسألة الدقيقة أخرجت بدقة نظر وإمعان فكر. ٧ـ العلامة الخفية. ٨ـ الجملة اللطيفة تؤثر في النفس انبساطاً(٣). ويمكن أن نضيف معنيين آخرين نشتقهما من معنى فعل «نَكَتَ»: ٩- رمي الشيء إلى الأرض، أو إلقاء شخص على رأسه. ١٠- نشر ما في الشيء أو إخراج ما فيه.

من بين هذه المعاني أرى الثامن هو الأقرب إلى مفهوم النكتة في استعمالنا المعاصر، لكنه قابل لأن يستوعب بشكل أفضل مفاهيم أخرى مختلفة كل الاختلاف، هزلية وغير هزلية. على سبيل المثال يمكن بناء عليه أن تعني النكتة، فيما يمكن أن تعنيه: الغزل، وكذلك المديح!. في الحقيقة، أنا لم أفتش في قواميس اللغة لتوقعي أن أجد فيها ضالتي، بل فقط لأذكر مثالاً حياً يؤيد رأيي في أن اللغة بذاتها لا تعطينا مفاهيم، بل نحن الذين نخترع المفاهيم ونحاول أن نجد لها اسماً في لغتنا بمساعدة القواميس والمعاجم. وتفادياً لتعدد الأسماء للمفهوم الواحد في اللغة الواحدة وما ينتج عنه من سوء تفاهم، إن لم يكن تشويشاً في اللغة (وفي الحالة القصوى انقسامها إلى اثنتين أو أكثر من اللغات الشقيقة)، لابدّ من الاتفاق، بل لا بد منه ولو على خطأ. لهذا السبب بالذات أراني مع الخطأ الشائع، لأنه شائع، بمعنى أنه متفق عليه ضمنياً. فاللغة ملك متكلميها في نهاية الأمر، وُجدت لتخدم أغراضهم. هذه هي حدود القدسية، وهي في هذا المقام أن لا تنقلب قدسية اللغة إلى خرق قدسية أو انتهاك حُرمة الأمة التي تتكلمها، أن لا تنقلب الوسيلة إلى غاية.

لقد وجدنا قبل قليل أن لعبارة «نكتة» ثمانية معان على الأقل في معاجم اللغة العربية. يمكن تجريبياً أن ننطلق من المعنى الأول لنصل إلى

(٣) لسان العرب لابن منظور، طبعة دار لسان العرب، بيروت، المجلد الثالث، ص٧١٤. القاموس المحيط للفيروز أبادي، دار الجيل، بيروت، الجزء الأول، ص١٦٥. المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة ٢٣/ ١٩٧٥، ص٨٣٦. المعجم الوسيط، طبعة دار الأمواج، بيروت ١٩٨٧ (عن الطبعة الثانية الصادرة في القاهرة عام ١٩٧٢)، ص٩٥٠ - ٩٥١.

المفهوم الحديث، فنقول: النكتة هي عملية إظهار للنقطة السوداء في صفحة الحياة البيضاء، حيث تكون النقطة السوداء مخفية أو غير واضحة.
- هذا تأويل لم يتأت تلقائياً من المعنى اللغوي، بل تطلّب تحويراً استند إلى معرفة مسبقة بالمفهوم الحديث. وهو مع ذلك واسع يتعدى حدود النكتة وحتى عامة الهزل ليشمل الهجاء. على أنه يتفق معه أساساً تعريف ك. فيشر للهزل، حيث يقول: «موضوع الهزل هو القبيح في أي شكل من تجلياته: حيث كان مغطّى، يجب كشفه لضوء النظرة الهزلية؛ وحيث كان لا يثير الانتباه، يجب إبرازه وايضاحه كي يصبح أمام الملأ جلياً للعيان»(٤).
كذلك قلنا آنفاً، إن المعنى اللغوي الثامن هو الأقرب إلى ما نفهمه الآن من مصطلح «النكتة». وهذا المعنى لم يورده سوى أحدث المعاجم اللغوية المذكورة، وهما (في مراجعنا): المنجد، والمعجم الوسيط. ذلك يدعونا إلى التخمين بأن النكتة كجنس أدبي هزلي مستقل هي مفهوم حديث نسبياً، وإن وجدت النكتة فعلياً منذ أقدم العصور. مثال ذلك النكتة المصرية القديمة التالية: «كان أحد الكتبة يقطن غرفة بين محلّين: الأول نجّار والآخر بنّاء. وقد أزعجته الضجة المنبعثة من المحلّين. فقصد النجار وقدّم إليه مبلغاً من المال لكي يغادر غرفته إلى غرفة أخرى. ثم فعل ذلك مع البنّاء... وفي اليوم التالي انتقل البناء إلى غرفة النجار، وانتقل النجار إلى غرفة البناء»(٥). والتراث العربي مليء بالنكات إلى جانب الطرف والنوادر، منذ الجاهلية.

مع ذلك من الضروري تتبع تطور مفهوم النكتة في تاريخ الآداب العربية، بصورة منهجية. وقد فعل ذلك الأوربيون، فوجدوا أنه في القرون الوسطى كانت عبارة «نكتة» Witz تعني في الأدبيات الألمانية شيئاً مثل قوة التفكير، ذكاء، عقل بشري سليم، حيث كان المقصود شيمة مكتسبة

(٤) زيغموند فرويد: النكتة وعلاقتها باللاوعي، دار فيشر، فرانكفورت أم ماين ١٩٨٦، ص٧.
(٥) أوردتها مجلة أسامة (دمشق)، في العدد ٢٦٣، تاريخ ١ كانون الثاني ١٩٨٠، ص٦، كأقدم نكتة في التاريخ، ولم تذكر المصدر. بالتالي يبقى هذا الشاهد من الناحية العلمية غير ملزم، أي ليس حجة، أما النكتة المذكورة فهي مكتملة الشروط الفنية.

أكثر منها فطرية. في نهاية القرن السابع عشر ضاق معناها بتأثير الفرنسية، وأصبحت عبارة «نكتي» Witzig تعني ما يقرب من طريف، وتشير خاصة إلى حضور البديهة، تداعي المعاني، سرعة الخواطر. ومع بداية القرن التاسع عشر أصبح مألوفاً أن يُشار بهذه العبارة إلى نتاجات المعنى المذكور آنفاً، ثم غلب على الاستعمال أن تطلق على نوعية معينة من النصوص(٦). ويؤكد مصدر آخر أن عبارة نكتة كانت تعني في اللغة الألمانية حتى بداية القرن التاسع عشر: «الفهم السريع» و«الذهن العميق»، وأن المعنى الغالب أصبح بعدئذ هو: «تنافر في ظروف الحياة، يفرّق بينها من جهة ويجمع من جهة أخرى، مؤثر هزلياً وباعث على الضحك؛ أو هو القدرة على رؤية هذا التنافر وعرضه بصورة مؤثرة»(٧). غير أن هذا التعريف يبدو لي واسعاً لدرجة قد يستوعب معها مفهوم الهزل بعامة.

إن ما يضحك في النكتة مثلاً هو نفسه - من حيث الجوهر - ما يُضحك في النادرة أو الطرفة أو الدعابة...، ولا أستثني الملهاة. الفرق يكمن في الشكل والطريقة. السؤال الأولي لأية نظرية في أدب الإضحاك هو: كيف يدفعنا الأدب الهزلي إلى الضحك؟. والجواب هو: من خلال المتعة المكثفة التي يمنحنا إياها. وقد قلنا سابقاً، إن الإضحاك الأدبي هو افتعال للفرح والسعادة، أو بتعبير أدق هو: تعويض عن تلبية حاجة أولية وعن تحقيق هدف مادي. بناء عليه نستطيع القول: إن الأدب الهزلي يضحكنا من خلال المتعة المكثفة التي تخلقهاالتلبية التعويضية المتضمنة بأساليب معينة في هذا الأدب. فبدون متعة تعويضية تميز المتعة الثقافية عن المتعة الحياتية (أو المادية) ليس هناك ضحك هزلي. لولا الكبت الجنسي مثلاً، لما كان للنكات الجنسية، كما نعرفها اليوم، أي وجود. كذلك، عندما لا نستطيع أن نعزل عدواً سياسياً أو نقضي عليه، نعوّض عن تلبية الحاجة إلى العزل أو الإعدام بالضحك على هذا العدو. وقد يكون بيننا أناني أو

---

(٦) برايزندانتس: حول النكتة، دار الجامعة، كونستانس ١٩٧٠، نقلاً عن: النكتة - نصوص دراسية، إعداد هـ. ليكسفيلد، دار ركلام، شتوتغارت ١٩٧٨، ص٣١ - ٣٢.

(٧) هـ. شميت/ غ. شيشكوف: القاموس الفلسفي، ط٧، دار كرونر، شتوتغارت ١٩٦٥، ص٦٥٣.

استغلالي أو انتهازي أو وصولي.. الخ من ذوي الطباع السيئة، ولا نستطيع قمعه عن الأنانية أو الاستغلالية.. الخ، فنحاول أن نلبي حاجتنا (بإعادته إلى السلوك السليم) عن طريق التنكيت عليه. ربما يكفينا أن تكون السخرية منه عبرة لغيره، فلا يحتذي به. من التراث الفكاهي العربي: «.. رأت الضبع ظبية على حمار، فقالت: أردفيني! فأردفتها. فقالت: ما أفره حمارك. ثم سارت يسيراً، فقالت: ما أفره حمارنا. فقالت الظبية: انزلي قبل أن تقولي: ما أفره حماري»[٨]. ولعلّ هذه الخرافة المضحكة تلبي حاجتنا إلى ردع ذوي الطباع الشريرة عن طريق تحذير الناس منهم، بصورة ضاحكة.

غير أن المتعة التعويضية لا تخلق وحدها أدباً ضاحكاً، نظراً لأن المتعة متوفرة عادة بشكل ما حتى في الأدب الجدّي (متعة الفائدة)، وإن كان بمقدار أقل نسبياً من الأدب الهزلي. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، التلبية التعويضية لا تتوقف على الشكل الهزلي، وإن كان هذا الشكل يوفّر إمكانيات أكبر نسبياً. العامل الحاسم هنا والرائز الأول للأدب الضاحك هو أسلوب المفارقة. نقصد بالمفارقة - كعنصر أول - نوعاً من المقارنة أو المقابلة أو المشابهة أو المواجهة الفعلية أو الذهنية بين طرفين: شخصين أو جماعتين أو طبعين أو علاقتين أو سلوكين أو عقليتين.. الخ، أحدهما اعتيادي، وهو عادة السويّ، والآخر استثنائي، عادة زائغ، كي لا نقول: منحرف. يقول مثل شعبي عربي: «اللي مالو حظ، يلاقي العضم في الكرشة». فيا لها من مفارقة، عند المقارنة بين المحظوظ والمنحوس!. وليس من الضروري أن يكون الشيئان المقارنان ماثلين دائماً أمام الشخص المقارِن أو المتلقي، بل يكفي أحياناً أن تكون صورة الطرف المألوف أو السوي حاضرة في الذهن. وقد تكون «الأنا» أو «النحن» هي المعيار أو الطرف الاعتيادي. فلكي نضحك على بخيل مثلاً لا نحتاج بالضرورة إلى وضعه في احتكاك مباشر مع إنسان كريم أو عادي، بل نحن لدينا تصوّر معين مسبق عن الإنسان السوي من زاوية البخل والكرم. هذا التصور

---

(٨) ابن الجوزي: الأذكياء، تحقيق أسامة الرفاعي، مؤسسة مناهل العرفان/ مكتبة الغزالي، بيروت/ دمشق ١٩٨٥، ص٢٩٣.

مرتبط طبعاً بثقافة المجتمع والوسط الاجتماعي الذي ننتمي إليه وكذلك بشخصنا. من نوادر البخلاء ما نقله الجاحظ عن أحدهم، حيث قال: «كنت أتغدى عند الكندي يوماً، إذ دخل عليه جار له، وكان الجار لي صديقاً، فلم يعرض عليه الغداء. فاستحييت أنا منه، فقلت: لو أصبت معنا مما نأكل. قال: قد والله فعلت. قال الكندي: ما بعد الله شيء!. قال: فكتّفه والله، يا أبا عثمان، كتفاً، لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً، وتركه. ولو أكل، لشهد عليه بالكفر...»[٩].

الطرف الاعتيادي في المقارنة قد يكون في الحالات الإفرادية (في نكتة معينة أو مشهد محدّد من مسرحية.. الخ) هو: المألوف أو الطبيعي أو المنطقي أو العقلاني أو الرفيع أو الواجب أو المناسب أو الصحيح أو الصادق أو الحقيقي أو الملموس أو الواقعي.. الخ. وقد يكون الطرف الاستثنائي إفرادياً هو: الغريب أو الشاذ أو اللامنطقي أو اللاعقلاني أو الوضيع أو غير الجائز أو غير المناسب أو الخاطئ أو الكاذب أو الموهوم أو غير الواقعي.. الخ. من الأمثلة البسيطة على ذلك، «أن طفلاً لأحد زملائي، عندما زار الريف ورأى لأول مرة في حياته شجرة برتقال، قال لأمه متعجباً: ماما، ماما، ليكي البردقانات معلقات ع الشجرة!». لقد رأى الطفل، بحكم غربته عن الطبيعة، شيئاً غير طبيعي. هذا ما فهمناه، دون حاجة لأن تذكر لنا النكتة ما هو الطبيعي وما هو غير الطبيعي.

من خلال المقابلة بين هذين أو ما يماثل هذين الطرفين غير الملتقيين، أي المتناقضين أو المتعارضين أو المتنافرين أو المتعاكسين، نصل إلى الغرض الهزلي. وتتسم هذه المقابلة أو المقارنة أولاً بالبهلوانية، فهي مقارنة حركية، أو نقلة ذهنية أو حسية، أو هي قفزة أو شطحة أو سقطة تصل بين الطرفين المفارقين. بدورها تتصف النقلة بأنها غير متوقعة، كأنها حدثت لنا نحن المتلقين من خلال دفعة أو دفشة أو صدمة

(٩) البخلاء، ص١٥، وكذلك ص٥٧. انظر أيضاً: توفيق الحكيم، أشعب، مطبعة الآداب، القاهرة ١٩٣٨، ص٣٧ - ٣٨.

أو زلقة فعلها بنا أحدهم. وهذا هو العنصر الثاني في المفارقة. العنصر الثالث يتجلّى في أن النقلة تنتزعنا من أحد الطرفين المتناقضين أو المتعارضين أو المتعاكسين وتحطنا في الطرف الآخر، حيث يلتقي بشكل ما اللاملتقيان (المتوازيان)، إنما - وهذا هو العنصر الرابع في المفارقة - بمسار يتجه بالحدث أو الحديث من المستوى الأعلى إلى المستوى الأدنى. أمثلة ذلك، كما سنعرض بالتفصيل تشبيه الإنسان بالحيوان، وتغلب الضعيف على القوي، والتفاخر بالنقائص، والذمّ في صورة المدح، والبذاءة في وسط محافظ، وترك الجليل سعياً وراء الحقير، والاهتمام بالجزئي بدلاً من الكلي، والتعامل مع الوهم كواقع، ومعاملة الميت كالحي،.. الخ. ربما أمكننا تشبيه هذه النقلة من الأعلى إلى الأدنى بالمطبّ الجوي الذي يهبط له القلب مع انخفاض الطائرة. فبلحظة يجد المستمع نفسه قد دخل في حالة غير طبيعية، يُغمض العينين على المستوى الأول، وعندما يفتحهما يجد نفسه في المستوى الثاني الأدنى. وكما يرتاح الراكب عند استقرار الطائرة على المستوى التحتي للمطبّ، فإنه يضحك عندما يصل به الحديث إلى المستوى النهائي للنكتة. يقول سبنسر معبراً عما نعنيه: «إن الضحك يولد ولادة عفوية عندما ينحدر الشعور إلى موضوعات تافهة صغيرة بعد انصرافه إلى موضوعات جليلة عظمى»[10]. من زاوية نظر أخرى يرى بديع خيري، «إن الجمهور يحترم الممثل الفكاهي لأنه يحس أنه واحد منهم، ينزل إلى مستواهم، ويبسط لهم المغزى بطريقة تستسيغها نفوسهم. أما الممثل الجدي فإنه يضع نفسه في مستوى أعلى من مستوى الجماهير»[11].

من نوادر نصر الدين جحا، أنه كان يوماً في مجلس تيمورلنك، فقال له: هل تعلم، يا جحا، أن خلفاء بني العباس، كان لكل منهم لقب اختصّ به، فمنهم «الموفق بالله» و«المتوكل على الله» و«المعتصم بالله» وما شابه ذلك. فلو كنت أنا واحداً منهم، فماذا كان يجب أن أختار من الألقاب؟ فأجاب جحا على الفور: يا مولاي الملك، لاشك أنك كنت تدعى بلقب «العياذ

(١٠) انظر عادل العوا: أخلاق التهكم، دار الحصاد، دمشق ١٩٨٩، ص٢٢.
(١١) ندوة الفكاهة، ص١١٣.

بالله»[١٢]. من هذه النادرة نرى أن جحا نقلنا فجأة بصورة غير متوقعة من موضوع ايجاد لقب لتيمورلنك على غرار خلفاء بني العباس، وهو حديث يناسب المجلس، إلى تسديد شتيمة لهذا الطاغية الكبير. وقد أمكنه ذلك - تقنياً - من خلال صياغة الشتيمة على شاكلة لقب تعظيمي.

في إطار الحديث عن عنصر المفارقة في النكتة تجدر الإشارة إلى نظرية برغسون في المضحك، إذ يرى أن «المتصلّب والجاهز الآلي، في مقابل المرن والدائم التغيّر والحي، ثم الذهول في مقابل اليقظة، وأخيراً الأوتوماتيكية في مقابل النشاط الحر، ذلكم هو بالجملة ما يشير إليه الضحك ويريد إصلاحه»[١٣]. وأنا أرى أن تعريف برغسون للهزلي يندرج ضمن فهمنا للمفارقة الهزلية، لكنه لا يستوعبها كاملة. هو إذن تعريف جزئي. غير أنه إذا أصرّ المرء أن يفهم (مثل برغسون) بطريقة تأويلية من عبارات التصلب والآلية والذهول والأوتوماتيكية كل ما يمكن أن تعبّر عنه «المفارقة»، فلا تتعدّى المسألة حينئذ حدود الخلافات على التسمية. لذلك ربما كان الأجدر بالنقد لدى برغسون هو طريقته التأويلية أكثر مما هو فحوى نظريته.

ورد في كتابه: «رجل يركض في الشارع، فيتعثّر فيسقط، فيضحك المارة. ما أظنهم كانوا يضحكون لو كان بدا لهذا الرجل فجأة أن يقعد على الأرض بملء اختياره. ولكنهم يضحكون لأنه قعد على الأرض بغير إرادة منه.. فلعلّ حصاة كانت في الطريق، فكان عليه أن يغيّر خطاه أو يحيد عن الحاجز؛ لكنه لنقص في المرونة، لذهول أو عناد في الجسم، لصلابة أو لسرعة متعوّدة استمرت عضلاته في إجراء نفس الحركات..»[١٤]. نلاحظ أولاً أن هذا «المضحك» حياتي، وأن برغسون لا يميزه عن المضحك الثقافي، مع أهمية هذا التمييز، كما ذكرنا في البداية. فقد يضحك المرء

(١٢) لدى عبد الستار فراج، ص١٨٨/ ١٨٩.
(١٣) هنري برغسون: الضحك - بحث في دلالة المضحك، تعريب سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٣ (ط٣)، ص١٠٤.
(١٤) المصدر السابق، ص٢٠.

على شيء عاينه أو عايشه، ولا يضحك عليه إذا قرأ عنه أو سمع به. ثانياً، يفترض الكاتب ضحك المارة لسقوط رجل في الشارع، ولا أظن أن هذا الحدث مبعث ضحك لدى عامة الناس، أو على الأقل: هو ليس مبعث ضحك لدى جميع الناس. أنا شخصياً لا يضحكني. ثالثاً، لو أن الرجل تأذّى بسقوطه، لما ضحك المارة عليه، بل الأرجح أن يسرعوا لمساعدته. بالتالي يمكن أن يتأتّى الضحك في مثال الكاتب عن الفرح لأن السقطة جاءت سليمة. رابعاً، ثمة مفارقة فيما أراده الرجل المسرع وما حصل له، بين حالته وهو يركض بصورة مألوفة، وحالته المفاجئة غير المتوقعة وقد انلقح على الأرض معفّراً بالتراب أو الوحل. فإذا حصل ضحك، فلهذه المفارقة!.

كذلك نأخذ على برغسون أنه لم يبيّن لنا بشكل مقنع، لماذا نضحك من التصلّب والآلية.. الخ، أي ما هو الممتع فيها الدافع إلى الضحك. فالضحك كعقوبة اجتماعية على نشاز الفرد عن المجتمع، كما يرى المؤلف، يعبّر عن متعة محدودة لا تشمل الضحك على الذات الفردية والجماعية والإنسانية، ولا الضحك غير الهادف (أي لمجرد الضحك كالنكات اللعبية)، ولا تغطي هذه المضحكات عموماً سوى الجانب الاستنكاري من الهزل، وبصورة جزئية. قد تكون مع ذلك عدوانية تربوية، وقد تكون أيضاً «سادية» تعويضية - إذا صحّ هذا التعبير: الاستمتاع بانزعاجات وتألمات الآخرين. على سبيل المثال: أين العقوبة الاجتماعية في هذه النكتة وشبيهاتها من نكات الأطفال ونكات اللامعقول: «الطفل: بابا، لماذا لا تشتري لي ما أطلب منك؟ - الأب: لأنه ليس معي نقود. - الطفل: طيب، اشتر نقود». وأينها في هذه الكلمة الضاحكة وأمثالها: «الخبرة هي مشط تقدمه لك الحياة وقت تصبح فيه أصلع»(١٥). أو في هذه النكتة «البايخة»: «فيه واحد ضيّع مستقبله، ذهب يبحث عنه»، «فيه واحد شدّ حيله، انقطع»(١٦). فالنكتة المذكورة أولاً من نوع اللامعقول المبني على

(١٥) برنار بلبي، نقلاً عن القول المثال، ص١٣٥.
(١٦) عن مجلة: سعد، العدد ٧٦٥، تاريخ ١٩٨٥/٢/١٨.

الفهم الطفولي، والثانية تقدم حكمة وليس عقوبة، والأخيرتان لا تريدان أكثر من الإضحاك المجاني.

في نقده لبرغسون كتب عبد الكريم اليافي: «إن دستور المضحك الذي انتهى برغسون إليه يشير إلى التباين بين الآلية والحياة. وهو جانب من جوانب المضحك لا يسوغ تعميمه ولا يصحّ. يذكر برغسون أن الراكض إذا تعثر فسقط، كان مضحكاً، وهذا غير صحيح، لأن التعثر لا يضحك في كثير من الأحيان، ولاسيما إذا سقط المتعثّر وجرح جرحاً بليغاً.. وليس الآلي الملبس للحياة يُضحك دائماً وبالضرورة. بل على العكس قد يُرهب كالجيش عند العرض، حركاته الآلية هي المطلوبة، ولو شذّ عنها أحد الجنود فكان مرناً لاستهدف للضحك. وقد تكون الآلية الملبسة للحياة سبباً للرقة كفوج الراقصات في المسرح يقمن بحركات مرسومة.. إن عكس دستور برغسون يصحّ أيضاً لسبب ما تقدم، فقد يكون المضحك الحياة ملبسة للآلية... يفرق برغسون بين جانبين متقابلين في المضحك: الحياة من جهة والآلية من جهة ثانية. فالضحك عنده ثأر الحرية من الآلية. ثم هو ذا يجد في الضحك صراعاً بين الفرد والمجتمع، أي ثأراً للمجتمع من شذوذ الفرد. ولكن في هذا تناقضاً خفياً، لأن المجتمع يفرض على الأفراد القسر ويحاول الحدّ من حرياتهم بمقابل العادات الجارية فيه والعرف القائم لديه. وبهذا الاعتبار يبدو الضحك ثأر الآلية من الحرية. ثم إنا نجد برغسون يوسّع معنى الآلية ومعنى الحياة وفقاً لما يريد أن يطبقهما فيه»[١٧].

أما بخصوص عنصر المتعة فيجدر الاهتمام بنظرية فرويد في الإضحاك: لا يعتبر فرويد الهزل Komik مفهوماً عاماً يضمّ في أحد التصنيفات الفكاهة Humor وفي تصنيف آخر النكتة Witz، بل يرى في كل من الهزل والفكاهة (وهذه تساوي عنده الدعابة Scherz) والنكتة نوعاً إضحاكياً مستقلاً عن النوعين الآخرين. بالتالي لا تتميز النكتة في نظره أساساً بتقنياتها، بل بطبيعة المتعة التي تقدمها: فهي ترضي دافعاً (شهوانياً

(١٧) عبد الكريم اليافي، ص٨٤ - ٨٥.

أو عدوانياً أو حتى لعبياً)، رغم العائق الذي يقف في طريقه، من خلال التفافها على هذا العائق والوصول بذلك إلى منبع اللذّة. فبالنكتة يجري اجتناب العائق الخارجي أو التغلب على العائق الداخلي الذي يقف أمام تحقيق الغرض. هذا يعني اغتنام اللذة مع توفير في المجهود النفسي وكذلك اللذة بهذا التوفير. وتتطابق لدى فرويد اللذة المكتسبة من النكتة مع التخلص والتخفيف من المجهود الردعي (الكفّي). وإذا كانت متعة النكتة تتأتّى بنظره من التوفير في المجهود النفسي، فإن متعة الهزل تنجم عن التوفير في المجهود التخيّلي (الذهني)، ومتعة الفكاهة (الدعابة) عن التوفير في المجهود العاطفي. متعة التوفير في المجهود النفسي يجدها فرويد في النكتة المُغرضة (القصدية)، كما في النكتة البريئة، إذ يرى في تقنيات النكتة بحد ذاتها منابع للذة تتحدر من لذة اللعب بالألفاظ والأفكار[١٨].

هكذا نستنتج أن فرويد قد ركز في نظريته على عنصر المتعة (اللذة) في النكتة بحيث أهمل عنصر المفارقة، حتى أنه بالكاد رأى في تقنيات النكتة غير متعة التكثيف واللعب بالألفاظ والأفكار. بالمقابل تركز اهتمام برغسون على عنصر «المفارقة» في المضحك، كما فهمنا نحن أو أوّلنا دواعي الضحك التي ذكرها، ولم ينل عنصر المتعة والفرح في نظريته سوى مكانة ضعيفة من خلال تفسير مجتمعي تبسيطي غير مقنع. على أساس نظرية فرويد نستطيع بسهولة أن نربط بين متعة النكتة وغاية السعادة، وإن كان قد حصرها ضمن أشكال ثلاثة: شهواني - عدواني - لعبي. أما بحسب نظرية برغسون فمتعة المضحك ليست غاية على الإطلاق، بل مجرد وسيلة يريد بها المجتمع إعادة الفرد إلى حظيرته. إذ ذاك نتساءل: فماذا كسب الفرد المتلقي من هذه الغاية الاجتماعية المفروضة على الفرد المستهدف، بل ما مصلحته في أن يضحك على الدوام دون فرح حقيقي نابع من ذاته هو كفرد؟. إذن، نظرية برغسون تفتقد إلى الصلة بين متعة الإضحاك وغاية السعادة. أكثر من ذلك: غايتها سلبية، عدوانية تحديداً، من عامة المجتمع ضد الفرد المستهدف منفرداً، بالتالي في كل مرة (أي

(١٨) فرويد، النكتة، ص ٨١ - ٨٦، ٩٦، ١٠١، ١٩٢ - ١٩٣ وغيرها.

في كل مضحك) يتواطأ ضد الفرد المستهدف جميع الأفراد الآخرين: المجموع ضد الواحد!. لكن الفيلسوف (بغض النظر عن صحة أو خطأ نظرته السوداوية هذه التي تذكرنا بفلاسفة الليبرالية) لم يبيّن لنا كيف يتحقق هذا التواطؤ، بأية أوالية (ميكانيزم).

العنصر الأساسي الثالث في الإضحاك ذو طبيعة مختلفة عن سابقيه: إنه التعاطف بين راوي المضحك والمتلقي بما يتعلق بموضوع الضحك أو الغرض من المضحك. إذا نظرنا إلى الأمر من موقع المتلقين، فإنه يُشترط في العمل الهزلي، في النكتة مثلاً، كي تكون نكتة بذاتها ولذاتها، فيما يُشترط، أن تلقى تجاوباً من قبل السامعين، أي أن يكون ثمة تجاوب مع النكتة أو مع ناقلها من قبل متلقيها حول مرمى النكتة أو غرضها. فإذا أُلقيت نكتة معينة أو قُدّم مشهد مسرحي يسخر من شخصية أو جماعة أو قضية أمام أناس تحتل هذه في نفوسهم مكانة رفيعة، فإنهم لن يتجاوبوا مع السخرية أو النقد، وبالتالي لن يضحكوا. بالعكس قد يحتجون ويثورون، فيأتي مفعول النكتة أو المشهد المسرحي معاكساً لما أراده. هكذا يحتاج المبدع الهزلي إلى تأييد المتلقين لما يرمي إليه هزله، والأفضل أن يكون التأييد مسبقاً. هذا التأييد المسبق يتحقق عموماً بوجود مشتركات معينة (انتماء، عصبية، عاطفة.. الخ) بين المبدع والمتلقين في إطار العمل الثقافي (الهزلي) المذكور. في كل الأحوال لابدّ من التواطؤ بين الطرفين، المبدع أو الراوي والمتلقي، ضد الطرف الثالث المستهدف (بالهزل). وإلى هذا رمى الحصري عندما نقل عن سابقيه: «الراوية أحد الشاتمين، كما قيل: السامع أحد القائلين»[١٩]. التواطؤ لا يفترض أو لا يشترط المشتركات المذكورة، لأنه قد ينشأ لنوازع فردية أو تحزبية محدودة، إنما المشتركات تسمح في الظروف الطبيعية أو العادية بالتواطؤ المطلوب، هي تربة غنية له: مثلاً النكات ضد النساء تتطلب عادة مجلساً من الرجال،

(١٩) أبو اسحاق الحصري، جمع الجواهر، ص٤. انظر أيضاً: فرائد الأدب في الأمثال والأقوال السائرة عند العرب، في: المنجد، للأب لويس معلوف، ص١٠٦٥: الراوية أحد الشاتمين؛ هذا مثل قولهم: سبّك من بلّغك.

النكات التي تسخر من قوم أو شعب معين تفترض عدم وجود منتم أو متعصب لهذا القوم أو الشعب... أظن أنه بالنظر إلى التواطؤ قيل قديماً: «المجالس أمانات».

أيام الدراسة الجامعية تعرّفت إلى طالب اسكتلندي، وتطرّق الحديث إلى النكات عن قومه وبخلهم، فحدثني مطوّلاً وبصورة جدية تماماً أن هذه النكات غير صحيحة وأن الاسكتلنديين مظلومون وأنهم في الحقيقة أكرم بكثير من الانكليز الذين روّجوا النكات عن بخل قومه (والشعبان تضمهما دولة واحدة يسمونها «المملكة المتحدة» ونسميها نحن «انكلترا»). من هذه النكات هذا المثال النمطي: «كان الاسكتلندي يسير مع زوجته وأولاده الأربعة، حين نادى سيارة تاكسي وسأل السائق: كم تأخذ لتوصلنا إلى المحطة؟ فقال السائق: سآخذ خمس شلنات عنك أنت وعن السيدة، وأما الأطفال فسأنقلهم مجاناً. وعندئذ فتح الاسكتلندي باب السيارة وقال للأطفال: هيا اصعدوا جميعاً ليوصلكم، أما أنا وأمكم فنسير على أقدامنا»[٢٠]. آنذاك استغربت أن يعطي زميلي الاسكتلندي للموضوع تلك الأهمية، واستقللت عقله أن يجعل منه قضية يجادل فيها. فأنا شخصيا، وكان بظني أن عموم الناس مثلي، كنت أضحك لدى سماع النكات عن بخل الاسكتلنديين، لمجرد التسلية والضحك، دون أن تقلّ أو تكثر قيمتهم في عيني.

فيما بعد تبين لي أن النكات عن الأقوام والجماعات الأخرى قد تتجاوز حدّ البراءة والمزاح لتصبح مهينة، بل ولتكون سلاحاً ايديولوجياً ضدهم. لننظر مثلاً إلى هذه النكتة: «كان أحد الأشخاص يسير في أحد أزقة مدينة بلفاست في ايرلندا الشمالية حيث الصراع المذهبي بين الكاثوليك والبروتستانت. فجأة خرج عليه أحدهم يشهر بوجهه مسدساً، وسأله: أجب بسرعة، هل أنت كاثوليكي أم بروتستانتي؟ - لا هذا ولا ذاك، إنني يهودي يا سيدي. - لاشك إذن أنني عربي محظوظ!»[٢١]. هذه النكتة قرأتها في

(٢٠) عن مجلة: المضحك المبكي، العدد ١٠٢٤، تاريخ ١٩٦٣/٦/٩، ص٢٣.
(٢١) عن مجلة: العربي، العدد ٣٢٢، أيلول ١٩٨٥، ص١٧٨. وردت بعنوان: طرفة عربية!. من عصبويتها يتضح أنها غير عربية، بل إما انكليزية أو صهيونية أو انكليزية صهيونية.

مجلة «العربي»، وهي دون شك ممتازة فنياً، لكن المجلة – وهي المعروفة بعروبيتها – لم تتنبه إلى أن النكتة معادية للعرب، حاقدة عليهم، لدرجة أنها تتهمهم بالإرهاب الأعمى الذي يستهدف أياً من اليهود (لا الصهاينة ولا الإسرائيليين فحسب) في أي مكان من العالم. بالإضافة إلى أنها تشوّه صورة الصراع في ايرلندا الشمالية، فتعتبره طائفياً بحتاً، بينما هو بالأساس بين الوطنيين الايرلنديين (وهم الكاثوليك) والاستعمار البريطاني (المقنّع بالبروتستانتية).

يتحدد التواطؤ المذكور آنفاً بين راوي النكتة ومتلقيها بحسب مقاصد النكتة. نستبق هنا ما سوف نبحثه لاحقاً ونقول إن النكات تنقسم من حيث مقصدها أو غايتها إلى ستة أنواع: ١ـ نكات تهزيرية، دافعها اللعب وغايتها التسلية والترويح عن النفس، لا يعيقها سوى المستوى الثقافي للوسط الذي يتناقلها. ٢ـ نكات تربوية تتحدد بالفهم التربوي لدى الوسط المعني. ٣ـ نكات عصبوية تقوم على الولاء للذات الجماعية ضد الذوات الأخرى. ٤ـ نكات عرضحالية غايتها التنفيس عن ضغوط حياتية (اقتصادية، سياسية..)، وتلقى قبولاً بقدر تعبيرها عن الوسط الذي تُلقى فيه. ٥ـ نكات شهوانية بغاية التعويض عن حاجات أساسية غير ملباة، وتلقى قبولاً بقدر تعبيرها عن الوسط وبحسب عقليته وأخلاقيته ومستوى ثقافته. ٦ـ نكات تتعلق بالموت والمصير والايمان، دافعها الخوف والرجاء، وهدفها السلوان وتقبّل ما هو محتوم.

ما ذكرناه آنفاً من عناصر الإضحاك يُعتبر أسلوباً عاماً ينطبق على كل أدب هزلي. أما الأسلوب الخاص في عرض المفارقة لدى خلق المتعة التعويضية، فهو ما يميّز جنساً من الأدب الهزلي عن جنس آخر من هذا الأدب. الروح واحدة، وهي المفارقة، بينما الأشكال تختلف.

يعرّف عبد المنعم الحفني النكتة بأنها «قصة مختزلة تنتهي عادة بكلمة أو جملة لها معنى مزدوج، تُحدث أثراً ممتعاً وتنتهي بالضحك. ولذة

النكتة جمالية، ترتبط بإفراغ طاقة متسامية. وتقوم النكتة على الشكل وليس على المحتوى»[٢٢]. يبدو لنا هذا التعريف متناقضاً: فإذا كانت النكتة تقوم على ازدواج معنى القفلة (من كلمة أو جملة) وعلى الشكل لا المحتوى، وإذا كانت لذتها جمالية، فكيف ترتبط عندئذ بإفراغ طاقة متسامية؟! لقد خلط الكاتب بين تعريفين متعارضين: شكلاني وفرويدي. على أية حال، هو لا يستوعب سوى نوع واحد من النكات، ويغفل القسم الأكبر منها.

فيما يلي مثال يتفق مع رأي الحفني: «كان الشاعر حافظ ابراهيم يسير مسرعاً في طريقه إلى دار الكتب، عندما كان مديراً لها... وإذا بأحد المارة يستوقفه ليسأله قائلاً: والنبي يا عم، الشارع ده رايح على فين؟ فأجابه حافظ: يا أخي، لا رايح حتّه ولا جاي من حتّه، أهو طول عمره هنا!»[٢٣]. النكتة هنا في المعنى المزدوج لكلمة «رايح». فالمستوى الاعتيادي الذي عبّر عنه السائل يمثله المعنى المجازي الذي أراده السائل وفهمه القارئ، وهو: إلى أين يؤدي هذا الشارع؟. هذا معنى متعارف عليه، في حين أن حافظ ابراهيم أعاد للكلمة معناها الحقيقي، وبذلك انحرف بالكلام عن مقصده، ونقلنا إلى مستوى غير متوقع، إلى مستوى استثنائي هنا، وإن كان قد حافظ على المعنى الأصلي للكلمة. ونكات المعنى المزدوج مرتبطة باللغة تحديداً، لكن منها ما هو متعلق باللغة البشرية عموماً، كما في هذه النكتة، وأخرى متعلقة باللغة المعنية خصوصاً، وهي التي لا يمكن ترجمتها كنكتة بسهولة إلى لغة أخرى[٢٤].

كمثال على نوع من أنوع النكات التي يستبعدها تعريف الحفني، وبالتالي كشاهد على قصور هذا التعريف، نذكر نكتة عصفور الدوري وابنه - وهو شاهد عادي، أي غير حدّي: «عصفور الدوري أراد تعليم ابنه أن

(٢٢) موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، تأليف عبد المنعم الحفني، دار العودة ببيروت ومكتبة مدبولي بالقاهرة ١٩٧٨، الجزء الأول، ص٤١٦.

(٢٣) نقلاً عن: محمد صديق المزاتي، عجائب القاهرة وغرائبها، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٣، ص٧٤. روتها جريدة البعث بتاريخ ١٩٨٧/٢/٢٥ عن نجيب الريحاني.

(٢٤) انظر بهذا الخصوص: برغسون، ص٨٤.



يحترس من بني آدم. قال له: يا بني، إذا رأيت ابن آدم انحنى نحو الأرض، فاعلم أنه ينوي أن يلتقط حجراً ويرميك بها. فقال له فرخ الدوري: وإذا كانت الحجر في جيبه؟!». الحديث الجاري هو أن الأب، المجرّب عادة، يعلّم ابنه، وهذا أمر طبيعي. المفارقة تنشأ، عندما يظهر فرخ الدوري، الغرّ في الحالة الطبيعية، أفهم من أبيه، فيأخذ الابن دور الأب. بذلك تمت نقلة مفاجئة من المسار الجاري الاعتيادي إلى مسار استثنائي غير متوقع. فلو أن شخصاً راشداً آخر (الجد مثلاً أو العم أو صديق الأب أو جاره) نبّه الأب إلى احتمال وجود الحجر في جيب الانسان، لكان الأمر جدياً ولما ضحكنا. والبعض يروي هذه الخرافة Fable بأن يضيف إلى ما ذكرناه قول الأب تعليقاً على جواب ابنه: اذهب، فلا خوف عليك!. هذه الإضافة، على ضآلتها، ألغت شكل النكتة، لأن الخرافة لم تنته لحظة الالتقاء بين المستوى الاعتيادي والمستوى الاستثنائي، بل تابعت طريقها على مستوى جديد يوحد المسارين المذكورين. بذلك اتخذت شكل النادرة، واكتسبت معنى جديداً. فيظهر الابن في النادرة أكثر حرصاً من أبيه، لكنه مازال ابناً تلميذاً، في حين يبدو في النكتة أكثر فهماً من أبيه، يصلح لأن يكون هو الأستاذ. من خلال هذا التغيير المزدوج، في شكل الخرافة ومقصدها، ضعفت قوة الإضحاك: إننا نسرّ لأن نرى الأطفال واعين، لكننا ننفجر ضحكاً عندما نراهم يتبادلون الأدوار مع معلميهم. ذلك لأنه مما يضحك أكثر أن تأتينا المفارقة مكثفة في ضربة واحدة من أن تصلنا متدرجة. إنها ومضة النكتة التي تحدث فرقعة الضحك.

مما سبق نصل إلى التعريف التالي للنكتة: «هي حديث عن طرفين متنافرين ينتقل فجأة من الطرف المألوف أو الاعتيادي إلى طرف استثنائي مجهول وغير متوقع، فيُحدث في المتلقي وعياً مضحكاً بالمفارقة من خلال المتعة التعويضية التي يمنحها له». من المؤكد أن التعرف إلى النكتة بالمحسوس أسهل بكثير من تعريفها نظرياً، هذا مع أن التعرف بحد ذاته، هو الآخر، ليس دائماً سهلاً. فيمكن أن يقف المرء أمام هزلية معينة حائراً، لا يستطيع الحكم، هل هي نادرة أم نكتة أم طرفة. ولعلنا نستطيع من أجل

التفريق بين المفاهيم الثلاثة أن نسترشد بالعلامات الفارقة التالية: ١- النادرة قصة موجزة، بينما الطرفة أقرب إلى اللقطة منها إلى القصة المتكاملة، والنكتة أقرب إلى اللمحة منها إلى اللقطة أو القصة. ٢- النادرة مفارقتها ضعيفة، في حين تكون مفارقة النكتة على أقوى ما يمكن. فإذا كان قطبا المفارقة في النكتة يتصادمان، فإنهما في النادرة يتقاربان، وفي الطرفة يتلامسان. فتحتل الطرفة مكانة متوسطة في شدة مفارقتها بين النكتة والنادرة. ٣- النادرة تهتم بالعبرة، بينما تتوزع الطرفة بين العبرة والبسمة، أما النكتة فتركز على الضحكة دون اهتمام بالعبرة المباشرة. ٤- الخاتمة بكلمة أو جملة هي مفتاح النكتة، أي مبعث الضحك، وهي في ذات الوقت قفلتها التي لا تحتمل كلمة أو جملة زيادة. هذا، في حين تكون النادرة أكثر إسهاباً وأكثر احتمالاً للإسهاب، إذ تعتمد على غرابة الحدث والعبرة المستقاة منه. أما الطرفة فتقوم على الاثنتين: غرابة اللقطة والعبرة في الخاتمة.

أمثلة النوادر كثيرة جداً. وأكثر ما يروى عن جحا وأبي نواس وأشعب وأشباههم يدخل ضمن جنس النادرة. من هذا الكم التراثي الهائل نختار نادرة متداولة[٢٥]: «سُرق حمار جحا، فجاءه أصحابه وقال أحدهم: أنت مهمل لأنك لم تعن بإقفال الباب. وقال آخر: لابد أن سور البيت كان واطئاً، وهذا إهمال منك. وقال ثالث: لابد أنك فعلت ذنباً فعاقبك الله بسرقة حمارك. وقال رابع وخامس... فقال جحا: لقد كان الباب مقفلاً وسور البيت عالياً وقد احتطت لنفسي، ومع ذلك أنتم تلومونني، فهل اللص - برأيكم - لا ذنب عليه؟!». من هذه النادرة يتبين لنا أن الجانب المضحك ليس مركزاً كلية في الخاتمة، بل يظهر بظهور المفارقة منذ البداية تقريباً، لكن ظهور المفارقة ليس شمسياً بازغاً، كما في النكتة، بل قمري هادئ لطيف بطيء، وإن كنا في هذه النادرة قد التقطنا في الخاتمة ومضة نهائية قوية نسبياً تذكر بالنكتة.

(٢٥) بالاستفادة من صياغة محمد رجب النجار: جحا العربي، عالم المعرفة، الكويت ١٩٧٨، ص١٥٠ - ١٥١.

ومن الطرائف ننتقي واحدة من التراث العربي الكنعاني: «أراد الفأر أن يهرب من النمس، فدخل حجر أفعى. ولما رأى نفسه وجهاً لوجه أمام الأفعى، بادرها قائلاً: لقد أرسلني الحاوي مع التحيات»[٢٦]. تُعدّ هذه الطرفة/الخرافة هزلية سوداء، إذ تضحك على الموت. وهذا بالذات يمثل المفارقة فيها. وهي مفارقة ضعيفة، لأن التنافر ليس شديداً بين أن يستسلم المرء للموت بحزن صريح أو يستسلم له بمرح ظاهري مبطن بالحزن. كذلك نلاحظ أن هذه الطرفة ليست قصة، بل مشهد خاطف؛ العبرة فيه كما قال الشاعر المتنبي:

وإذا لم يكن من الموت بدّ   فمن العجز أن تموت جبانا

وهي عبرة لن تفيدنا بأي حال، إذا - لا قدر الله - وجدنا أنفسنا في مثل وضع الفأر. ولنلاحظ أن الطرفة بدأت بمفارقة نكتية، إذ أراد الفأر النجاة بحياته فسلم نفسه للموت المحتم. غير أننا، لو اكتفينا بذلك من هذه الخرافة، لحصلنا على نكتة مبتذلة لا إبداع فيها.

إن مفاهيم النكتة والطرفة والنادرة متجاورة، قد تشترك في بعض قطاعاتها، ويكون من الصعب وضع التخوم الدقيقة بينها. بالمقابل فإن بعض الأجناس الهزلية الأخرى لا ترتبط معها بمثل هذه العلاقة التجاورية. فالملهاة (الكوميديا) مثلاً قد تتضمن نكات أو طرائف أو نوادر. والخرافة (وهي قصص الحيوان المؤنسن) قد تكون بشكل نكتة أو نادرة أو طرفة.. وبعض الأمثال الشعبية الضاحكة تراها نكتة كاملة مكمّلة: «قالوا للبغل: من أبوك؟ قال: خالي الحصان»[٢٧]. و«سألوا الجمل: شو بتشتغل؟ قال لهم: بدق بالشبابة. قالوا له: مبيّن من شفاتيرك!»[٢٨]. وإذا كنا قد تحدثنا عن النكتة خصوصاً، ثم عن النادرة والطرفة، فهناك أسماء هزلية مستخدمة،

---

(٢٦) علي القيم: إضاءات من الذاكرة القديمة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٦، ص١٢٨.

(٢٧) أوردته أيضاً كتب التراث. انظر العقد الفريد، المجلد الثالث، ص٢٤٣. وكذلك شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، دار مكتبة الحياة، بيروت (بلا تاريخ نشر)، المجلد الخامس، ص٨٢٢، على لسان عبد الله بن عباس.

(٢٨) انظر سهام ترجمان، يا مال الشام، دمشق ١٩٧٨، ص١٤٧.

فصحوياً أو عامياً، ماتزال تبحث عمن يشرحها كمفاهيم، كي يعمّ استعمالها بمعنى موحّد لدى الناطقين بالعربية. فما معنى: ملحة، قفشة، نهفة، مزحة، دعابة، آبدة، شذرة، سدّة، تقريقة، أنجلة.. هكذا يتبيّن من جديد أن الأمر مازال يحتاج إلى جهود إضافية وتبادلات في الرأي من أجل الوصول إلى حالة مقبولة من الدقة والوضوح في تحديد المفاهيم وايجاد المصطلحات العربية المناسبة الموحَّدة.

إجمالاً نستطيع القول، إن النكتة هي «حديث يتضمن مفارقة تقدم متعة تعويضية بما يناسب المتلقي». فتتضمن كمفهوم ثلاثة عناصر رئيسية (بصورة مجتمعة): المفارقة والمتعة التعويضية والتواطؤ بين الراوي والمتلقين. فلا تخرج هذه العملية عن عقلية المتلقين وولاءاتهم (انتماءاتهم)، وهذا شرط ثقافي أثني (حضاري أقوامي) يتعلق بالمجتمع المعني. أما المفارقة كمفهوم فتتضمن بدورها أربعة عناصر مجتمعة: أولاً – حدوث نقلة. ثانياً – بصورة غير متوقعة، فالنكتة المعروفة لا تُضحك. ثالثاً – بين مستويين لا يلتقيان في الأحوال الطبيعية. رابعاً – من الأعلى إلى الأدنى، خلافاً للمألوف.

الفصل الثاني

النكتة كجنس أدبي

النكتة جنس من أجناس الأدب، تنتمي إلى الفرع الهزلي منه، باعتبار أن الفرع الآخر هو - كما قلنا - الأدب الجدي. هناك ميل لدى بعض الكتاب لتصنيف النكتة كأدب شعبي(١). وهذا عملياً صحيح إلى حد بعيد، نظراً لغلبة هذا اللون الأدبي، كماً ونوعاً وأهميةً، لدى عامة الشعب. غير أن النكتة ليست بالتعريف وليست بالضرورة كذلك. فيمكن أن ينتجها الأدباء المثقفون، وقد يقتبسونها من العامة ويوظفونها في أعمالهم الأدبية. كما أن العكس صحيح أيضاً، فيأخذ الشعب النكتة عن أحد المثقفين ويتناقلها كما هي أو بعد التعديل.

على كل تحتل النكتة مكاناً مرموقاً في الأدب الشعبي الضاحك، حيث نميّز بين ثلاثة أنواع من الآداب الشعبية الهزلية: ١ـ نوع أبدعه أو سجله مثقفون معروفون، فلقي صدى كبيراً لدى عامة الناس، لدرجة أنهم تبنوه وأصبح أدبهم. إنه الأدب الجماهيري الذي صار ثقافة شعبية. مثال ذلك

---

(١) مثلاً عبد الحميد يونس: الفكاهة طب نفسي، في مجلة: العربي، العدد ٣٥٧، آب ١٩٨٨، ص٣٢. والأستاذ عبد الحميد يونس مرجع في الأدب الشعبي على مستوى الوطن العربي، وأظنه وصل إلى هذا الرأي في المقال المذكور لأنه قصر الحديث على النكتة الشفهية.

المقتبسات من قصص البخلاء والمكدين لدى الجاحظ ومن نوادر الحمقى والمغفلين لدى ابن الجوزي ومن مهازل قراقوش لابن مماتي. هنا نرى التداخل بين الأدب المثقفي والأدب الشعبي، وكذلك التداخل بين النادرة والنكتة. ٢ـ الهزل الشعبي المكتوب، مثل نوادر جحا وأبي نواس وأشعب، ومقالب علي الزيبق، والقصص الضاحكة في ألف ليلة وليلة بخصوص التغفيل وكيد النساء وغير ذلك. في هذا النوع نلاحظ تداخلاً أكبر بين النادرة والنكتة، فتظهر النادرة أحياناً كنكتة ممدّدة (أو ممطوطة)، أي أننا نستطيع أن نكثّف الكثير من النوادر ونجعلها نكات. ٣ـ الهزل الشعبي الشفهي، وهو المتداول بين الناس شفاهياً، إما (أولاً) لعدم الاهتمام بتسجيله؛ أو (ثانياً) بسبب تعديه على أحد المحرمات الأربعة: الدين والجنس والسياسة والحشمة؛ أو (ثالثاً) لحداثة نشوئه، باعتبار أنه - كابن للحياة الاجتماعية المتدفقة باستمرار - ينشأ يومياً. مثال ذلك الحكايات والنوادر والنكات والأمثال الشعبية الضاحكة. أو (رابعاً) بحكم طبيعته غير الكتابية كبعض أنواع المسرح الشعبي والنكات السماعية أو البصرية البحتة.

لقد ازداد في العقدين الأخيرين أكثر فأكثر اهتمام المثقفين العرب بتسجيل الأدب الشعبي، لكنه مازال دون المستوى المطلوب، وخاصة في مجال تسجيل ونشر النكات. عموماً، ما سُجل ونشر من الهزل الشعبي ضئيل جداً بالمقارنة مع ما سجل ونشر من حكايات وقصص وأمثال شعبية. وإذا كان تسجيل ونشر الحكايات والأساطير والأمثال يجري عموماً بشكل منهجي إلى هذا الحد أو ذاك، على الأقل يجري التعامل معها بحرص على أنها شعبية، فإن النكات والنوادر تعيش حالة أقرب ما تكون إلى المشاعية والتسيّب. إن ما يُسجل من نكات، خاصة في المجلات الأسبوعية والشهرية غير الأبحاثية، أي الإخبارية والتسلوية، يختلط فيه المنقول عن لسان الناس مع ما يؤلَّف من قبل كتاب وصحفيي هذه الدوريات، مع ما يُقتبس من التراث العربي، مع ما يُترجم من المنشورات الأجنبية، بحيث لا يعود الباحث إزاء قسم كبير من هذه النكات يعرف التفريق بينها بحسب مصادرها: فالمصادر لا تُذكر؛ وتُجرى أحياناً كثيرة

تعديلات تُحذف فيها الأسماء والأماكن والأزمان؛ وتعاد صياغة النكات فصحوياً لتختفي منها التعابير الشعبية المميزة؛ وتترافق عملية التفصيح عادة مع عملية التحشيم بإسقاط الألفاظ البذيئة (المحرّم الرابع)؛ وقبل كل شيء تخضع النكتة كغيرها من الثقافة المنشورة إلى سيف المحرمات الثلاثة. بذلك تفقد النكتة أيضاً مدلولها الأصلي المعبِّر وتخسر جمال لونها وبريقها وبالتالي قوة تأثيرها.

الأمثلة كثيرة على ما أقول. سأروي في البدء نادرة شعبية سمعتها منذ الخمسينات في جبال العلويين من سوريا، عن شخص جاهل اسمه «بوعلي العيروف» في وسط أكثر جهلاً (في زمنه): «جاء أناس من الضيعة لعند بوعلي العيروف وشكوا له: يا بوعلي، دخل رأس الفدّان في الخابية[٢] وعصي فيها. قال لهم: بسيطة، اقطعوا رأس الفدان!. قطعوا رأس الفدان، فبقي الرأس في الخابية. قالوا له: يا بوعلي، الرأس مازال في الخابية!. قال لهم: بسيطة، اكسروا الخابية! كسروا الخابية. هكذا حلّ المشكلة بوعلي العيروف، وانصرف أهل الضيعة يشكرون بوعلي ويشيدون بذكائه وحكمته». بقيت سنوات طويلة أظن أن هذه النادرة مغرقة في المحلية، إلى أن اطلعت على كتاب أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي، فاكتشفت فيها مثالاً على النادرة الحياتية التي يسجلها مثقف ثم يتلقفها الشعب ويتملكها ثانية. نقرأ لدى ابن الجوزي[٣]: «عن أبي الفتح محمد بن أحمد الحريمي قال: كان عندنا بخراسان إنسان قروي، فكان له عجل، فدخل داره وأدخل رأسه في جبّ الماء ليشرب، فبقي رأسه في الجب. فجعل يعالج رأسه

(٢) الفدّان هو الثور. والخابية: وعاء فخاري كبير نسبياً.

(٣) انظر ص ١٤٣ من طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠. كذلك يبدو أن قصة فرخ الدوري، التي أوردناها سابقاً، محوّرة عن أصل تراثي: صيغة أولى: «تزعم العرب أن الغراب أراد ابنه أن يطير، فرأى رجلاً قد فوّق سهماً ليرميه، فطار. فقال أبوه: اتئد حتى تعلم ما يريد الرجل. فقال له: يا أبت، الحذر قبل إرسال السهم». الصيغة الثانية: «يحكون في رموزهم أن الغراب قال لابنه: يا بني، إذا رميت فتلوّص، أي تلوَّ!. فقال: يا أبت، إني أتلوص قبل أن أرمى». مجمع الأمثال، لأبي الفضل الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، منشورات دار النصر، دمشق/ بيروت (بلا تاريخ)، ص٢٠٦، ٢٢٦ من الجزء الأول.

ليخرجه من الجب، فلم يقدر. فاستحضر معلم القرية فقال: قد وقعت واقعة. قال: فما هي؟. فأحضره وأراه العجل. فقال: أنا أخلصك، أعطني سكيناً!. فذبح العجل، فوقع رأسه في الجب. وأخذ حجراً وكسر الجب. فقال القروي: بارك الله فيك، قتلت العجل وكسرت الجب!». فيما بعد وجدت هذه النادرة بصيغتها الشعبية منشورة كقصة للأطفال بعنوان «رأس الثور»، على أنها من تأليف عارف الخطيب(٤). فرأيت فيها مرة أخرى شاهداً على الآثار الأدبية الشعبية التي يعيد المثقفون صياغتها وينشرونها بأسمائهم دون الإشارة إلى مصدرها.

وثمة أمثلة كثيرة عن نكات ونوادر شعبية شفهية يجري نشرها من قبل بعض الصحفيين والكتاب، دون الإشارة إلى أصلها الشعبي، فتبدو بلا هوية. وأحياناً كثيرة تنشر بعد التهذيب والتشذيب، وبالتالي التبهيت والتسطيح. من ذلك النكة التالية: «دخل رجل محل بيع طيور، ووقع نظره على ببغاء في رجله حلقتان. فسأل البائع عنهما فأجاب: إذا شددت الحلقة اليمنى تكلم الببغاء الفرنسية، وإذا شددت اليسرى تكلم الانكليزية. فقال الرجل: وإذا شددت الاثنتين معاً؟ فرد الببغاء بسرعة: يقع!»(٥). هذه النكتة سمعتها في صيغتين شعبيتين، كلاهما بذيء، إنما يعطي مدلولاً أوسع وأقوى من الصيغة المثقفية المهذّبة، وبالتالي فإن المفارقة أقوى والعبرة أفضل. هذا يعني أن الصيغة الشعبية، رغم بذاءتها أو ربما بسبب بذاءتها، قد أدّت وظيفتها التربوية أو التعليمية أفضل منها بعد مرورها من مصفاة الوصاية المثقفية الرسمية.

إذا كنا نرفض عقلية الوصاية هذه، فلنسمع النكتة في شكلها الأصلي: «كان عند أحدهم ببغاء قبيح الشكل، بذيء اللسان. فكانت الزوجة تكرهه وتريد التخلص منه، حتى وصل الأمر بها إلى التهديد: إما هي وإما الببغاء. فأخذه الزوج إلى من علّمه كلمات أجنبية، ثم أعاده إلى البيت بعد أن لوّنه

(٤) منشورة في مجلة: أسامة، العدد ٢١١، تاريخ ١ كانون الثاني ١٩٨٢، ص٤ - ٥.

(٥) انظر جريدة: البعث، تاريخ ٢٥ أيلول ١٩٨٨، ص١٢.

بألوان جديدة، كي تظنه الزوجة ببغاء آخر. أخذ الرجل يشرح لزوجته مهارات هذا الببغاء «الجديد». قال: إذا شددت قدمه اليمنى، تكلم الانكليزية، وإذا شددت قدمه اليسرى تكلم الفرنسية. فسألته الزوجة: وإذا شددت القدمين سوية؟ فأجابها الببغاء: أقع، يا شرموطة، أقع!». هذه الصيغة تتحدث كسابقتها عن التغفيل، وتزيد عليها بالحكمة القائلة: «الطبع غلب التطبع». أما الصيغة الثالثة، أي الصيغة الشعبية الثانية فهي كالتالي: «كان عند أحدهم ببغاء لا يتكلم بغير الألفاظ البذيئة. وكان لهذا الرجل صاحبة، فيستقبلها الببغاء على الدوام بكلمة: شرموطة. بعد مدة لم تعد تحتمل، وهددت: إما هي وإما الببغاء. فأخذه الرجل إلى من علمه كلمات فرنسية، وأعاده إلى البيت بعد أن غيّر لونه، كي تظنه المرأة ببغاء آخر. وشرع الرجل يشرح لصاحبته مهارات الببغاء الجديد، فرفع له رجله اليمنى، فقال الببغاء: بون جور. ثم رفع رجله اليسرى، فقال: بون سوار. فسألته المرأة: وإذا رفعت الرجلين سوية؟ فقال الببغاء: أما قلت لك هي شرموطة؟!». هنا زيادة على موضوعي التغفيل وغلبة الطبع تورية برفع الرجلين، أهي للببغاء أم للمرأة، مما يزيد في دواعي الضحك.

كذلك نقرأ في دورياتنا العربية الكثير من النوادر والنكات المنقولة عن منشورات أجنبية، دون الإشارة إلى مصدرها، بل ومع حذف أو تغيير للأسماء. وقد تكون النكتة عن شخصية عالمية شهيرة، فتنقلها الدورية العربية عن شخص غير معين، كما في المثال التالي: «تأخر زوج عن العودة إلى منزله ذات ليلة، فأبرقت زوجته إلى أصدقائه الخمسة تقول: سمير لم يعد، فهل يقضي الليلة عندك؟. لكن الزوج عاد إلى بيته بعد قليل. وبعد وصوله ببرهة تلقت الزوجة خمس برقيات جوابية من أصدقائه، تقول كل برقية منها: نعم»[٦]. عندما قرأت هذه النكتة رأيتها مليحة، إنما غير مميزة، حتى أنني شككت بمصداقيتها بدعوى المبالغة. ثم بعد زمن وجدتها منشورة في دورية عربية أخرى[٧]، فعلمت أن الزوج المسمى «سمير» لم

(٦) انظر جريدة: البعث، تاريخ ٣ كانون الأول ١٩٨٦، ص١٢.
(٧) انظر مجلة: العربي، العدد ٣٥٦، تموز ١٩٨٨، ص٥٨.

يكن في الحقيقة سوى الأديب الكبير جاك لندن. ولأن النكتة لم تعد تتحدث عن زوج ما من الأزواج في هذا العالم الهائل، بل عن رجل عرفته وأحببته من خلال أدبه، لذلك اكتسبت النكتة في نظري أبعاداً أخرى واسترعت مني اهتماماً أكبر، بالتالي صار لها وقع أقوى وأطول في النفس.

هذا التعامل مع النكتة لا يدل على تقدير كبير لهذا النوع من الأدب. هو موقف رافض لكلا الأدبين: الشعبي من جانب، والهزلي من الجانب الآخر. فكيف إذا اجتمعت - في نظر المعنيين - الطبيعتان معاً، الشعبية والهزلية، كما في النكتة؟!. وكيف إذا كان ذلك في قالب اللهجة العامية، كما في قسم كبير من النكات والنوادر والأمثال؟! إن الموقف الرافض للأدب الشعبي هو موقف الأدب المثقفي، أو «الرسمي»، كما يسمى أحياناً، عندما كان الأدب يخضع لهيمنة أو وصاية أبناء الطبقات العليا في المجتمع. يقول شوقي ضيف: «وكنا إلى عهد قريب لا نُعنى بفرض هذا الكتاب الفكه في أدبنا، لأنه كتب أكثره بلغتنا العامية، وكأننا انصرفنا عنه ترفعاً منا، أو استصغاراً لشأنه، مع أنه أكثر دلالة علينا وعلى نفسيتنا من الأدب الفصيح الجاد»[٨]. وكتبت دولينينا في بحثها عن محمد المويلحي وكتابه «حديث عيسى بن هشام»: يورد علي الراعي ما ذكره توفيق الحكيم «من أن البعض كانوا يترددون على ابراهيم المويلحي ويتشكون من أن ابنه سلك طريقاً غير محمود حيث ألف كتاباً على شاكلة الأدب الشعبي. ولعل المقصود (بالأدب الشعبي) هو الجانب الساخر في الكتاب... بيد أن الأدب الساخر احتل درجة واطئة في سلم الأنواع الأدبية، ولم يكن هناك ما هو أوطأ منه غير أنواع الأدب الشعبي التي لم تكن تعتبر أدباً بالمعنى الكامل للكلمة»[٩].

إن للانحياز إلى اللغة الفصحى ضد العاميات العربية اعتبارات لا يُستهان بها، في المقام الأول كونها رابطة ثقافية حضارية تاريخية

(٨) شوقي ضيف، المصدر المذكور، ص٨.

(٩) دولينينا: «حديث عيسى بن هشام» خطوة من المقامات إلى الرواية، في: بحوث سوفييتية في الأدب العربي، ترجمة خيري الضامن، دار التقدم، موسكو ١٩٧٨، ص١٢٣.

للمتكلمين بها وتمثل بالتالي قاعدة ثقافية حضارية لبناء الدولة العربية الواحدة. لكن هذه الاعتبارات لا يجوز أن تعيقنا عن التقييم الصحيح لآداب العاميات العربية، ولا أن تحرمنا من الكنوز الأدبية والفنية التي تحفل بها هذه العاميات. إن دعوى انحطاط هذه النتاجات الثقافية لمجرد كونها باللغة أو باللهجات العامية هي دعوى ايديولوجية بحتة لا تقوم على أي أساس علمي في التقييم الأدبي. فكما قال ابن خلدون قبل أكثر من ستمئة سنة: «فالإعراب لا مدخل له في البلاغة. إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه، سواء كان الرفع دالاً على الفاعل والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس. وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام، كما هو في لغتهم هذه. فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل المَلَكة. فإذا عُرف اصطلاح في مَلَكة واشتهر صحت الدلالة وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال، صحّت البلاغة، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك»(١٠).

لا أظن أنه مما يخدم الثقافة (من أدب وموسيقى وغناء)، ولا حتى الوحدة العربية، أن نتخلى عن أشعار العامية لبيرم التونسي وأحمد رامي والأخوين رحباني وأحمد فؤاد نجم وغيرهم. انظر مثلاً إلى هذا التهكم الرائع في الشعر السياسي لنجم، حيث يتحدث عن الرئيس الفرنسي السابق جيسكار ديستان بلسان رئيس جمهورية مصر وقتذاك(١١):

يا سلاملم يا جدعان — ع الناس الجنتلمان
داحنا حنتمنجه واصل — وحتبقى العيشه جنان
التلفزيون حيلوّ ن — والجمعيات تتكون
والعربيات حتموّن — بدل البنزين بارفان

ثم دون إذن منا تتوالد يومياً وتنتشر نكات ونوادر باللهجة العامية، لأنها اللغة المحكية، ولا يمكن دائماً وكلياً تفصيحها دون الاضرار بعذوبتها أو بدون فقدان عنصرها الهزلي، الأمر الذي قد يتوقف أحياناً على لفظة

(١٠) مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت ١٩٧٨، ص٥٨٣.
(١١) ديوان أحمد فؤاد نجم، الجزء الأول، دار طلاس، دمشق ١٩٨٦، ص٢١٤.

عامية واحدة: «يقال إن أحد الثائرين على السلطة سلم نفسه اعتماداً على وعد من وزير الداخلية بالعفو عنه. غير أنه حكم بالشنق. قبيل التنفيذ سألوه كالعادة عن آخر أمنية له، فطلب وزير الداخلية. ولما جاء، قال له: شو، يا فلان، أهذا اتفاقنا؟! فأجابه الوزير: معليش، مرقلنا ياها هالمره!». المشكلة هي إذن أن عامية النكتة ناجمة عن عامية الحديث في الحياة اليومية العربية، والنكتة هي نتاج هؤلاء المتحدثين وهذه الحياة. ومن أهم أنواع الأدب العامي: الأمثال الشعبية (الضاحكة) مثل: - حشري نزل ع جهنم، قال: الحطب نديان، - زي اللي بيرقص بالعتمة، - بيفصّل للبرغوت قميص، - بيلهي الحمار عن عليقه»[12].

وأما الموقف الرافض للأدب الهزلي فأظنه نهضوي الأصل، تولّد على أثر عصر الانحطاط كرد فعل على لهو أدبه وعامية لغته، فاقترن الأدب الهزلي في أذهان القيّمين على الأدب بخطر فقدان اللغة الفصحى وفقدان قضية الأدب وبالتالي انعدام الفائدة منه، كما يظنون. على كل مازلنا نلاحظ قلة التقدير لأدب النكتة، حتى أن بعض الأدباء تجنبوه كلياً رغم مهارتهم الفائقة فيه، مثل عباس محمود العقاد وابراهيم ناجي وحافظ ابراهيم. كتب محمود السعدني عن حافظ ابراهيم[13]: «ولكن حافظ رغم البؤس ورغم الخوف ورغم القلق كان ظريفاً، وكان يضحك من الأعماق ويسخر من كل شيء حتى من وجوده. كان يقول، إن الحياة محنة، وإن من الواجب أن نستعين عليها بالابتسام. وحافظ لم يكن يبتسم فقط، لقد كان يقهقه، ويحرك نفوس الناس ليضحكوا هم الآخرون»... «ولكن الغريب في الأمر أن خفة دم حافظ ونكتته الشيّقة لم يبد لها أثراً في شعره. إذ كان هو في قرارة نفسه حزيناً مكلوماً يشعر بالوحدة ويحسّ بالحرمان. ولذلك جاء شعره كله باكياً مريراً، وأجاد في الرثاء وفي

(١٢) نقلاً عن سيمون حمصي: ألف وخمس ميه من الحكم والأمثال الشعبية، دار طلاس، دمشق ١٩٨٦، ص٣١١، ٤١٥. وأديب قدندراق: الأمثال الشعبية، في: دراسات اشتراكية، عدد أيلول ١٩٩٢، ص١٣٦. إلى جانب المسموعات.

(١٣) محمود السعدني: الظرفاء، دار العودة، بيروت/ ودار الكتاب العربي: طرابلس (بلا تاريخ)، ص٢٥، ٢٧.

الوطنية». وأنا لا أوافق السعدني على هذا التفسير، لأنه كان يكفي حافظ ابراهيم أن يسجل شعراً أو نثراً النكات والنوادر التي عاشها أو أبدعها، كي يكون من كبار أدباء الفكاهة العرب الحديثين. فكيف لو استخدم موهبته الفكاهية هذه في التعبير عن آرائه ومشاعره في الناس والمجتمع والحياة؟!: «كان حافظ ابراهيم يحضر حفلاً موسيقياً، وطلب من قائد الأوركسترا أن يعزف لحناً معيناً، وإذا بقائد الأوركسترا يقول له، إن اللحن الذي يطلبه قد عزفه منذ دقائق. فأجاب حافظ على الفور: يا سلام، على كده يبقى انبسطنا»(١٤).

كما ذكرت من قبل، النكتة ليست بالضرورة شعبية، وإن كان الشعب بعامته قد تفوّق كماً ونوعاً في هذا المضمار على كتّابه وفنانيه. بعض المثقفين ألّفوا في أدب النكتة، إنما ظهرت كتاباتهم كأقصوصات أو خرافات، وحتى بشكل شعر أحيانا، أو تضمنتها أشكال أدبية أخرى. في حوزتي، إضافة لما سبق ايراده، الكثير من الشواهد من التراث العربي ومن الآداب الأجنبية. أول ما يخطر على بالي هذه الأبيات المشهورة للشاعر أبي دلامة والتي تؤلف نكتة نادرة المثال في الشعر، وهي عن الخليفة المهدي ووزيره(١٥):

قد رمى المهدي ظبياً — شكّ بالسهم فؤاده
وعلي بن سليما — ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما كـ — ل امرئ يأكل زاده

ومن الأدب الألماني نكتشف في أحد أشعار فيلهلم بوش هذه النكتة(١٦):

كانوا جالسين يحتسون النبيذ ويتعايطون:
ما هذه الترّهات التي يقولها داروين؟!
ثم إنها منافية للكرامة الإنسانية.
كرعوا أكواباً عديدة

---

(١٤) عجائب القاهرة وغرائبها، ص٧٤. الظرفاء، ص٢٥.
(١٥) انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، مؤسسة جمال، بيروت (بلا تاريخ)، الجزء السادس، ص٢٤٠. أيضاً الجزء العاشر، ص٢٥٨.
(١٦) ثوان هي الخيالات – قصائد، دار ركلام، لايبزيغ (بلا تاريخ)، ص٧١.

وخرجوا يترنّحون وينخرون

ودخلوا بيوتهم يدبّون على أربع!.

ونقرأ لدى ليسنغ[١٧]: «قال الحمار لإيسوب: إذا خرجت في مرة قادمة بحدّوتة عني، فاجعلني أقول شيئاً منطقياً وذا معنى!. فأجاب إيسوب: أنت تقول شيئاً ذا معنى؟ كيف يصحّ هذا؟! ألن يقول الناس عندئذ بأنك أنت الحكيم وأنا الحمار؟!». وكتب برشت[١٨]: «اتّهم أحد مساعدي السيد كاف بأنه يقف منه موقفاً غير ودي. فدافع عنه السيد كاف: نعم، ولكنه لا يفعل ذلك إلا من وراء ظهري». ومن النوادر التي سُجلت عن برشت نفسه[١٩]، أن السيد باء سئل من أحد مساعديه، بأي لون يجب أن تُدهن الكوليسه. فأجاب بأريحية: لا فرق عندي، المهم أن يكون رمادياً».

كما نوّهت من قبل، قد تظهر النكتة: ١ـ مستقلة بالشكل المتعارف عليه. ٢ـ أو متضمنة في أجناس الأدب الأخرى. ٣ـ أو متماهية مع أجناس أدبية أخرى. ٤ـ وهناك صنف رابع، نادر، وهو أن تكون النكتة نواة لإبداع أدبي آخر، مثل مسرحية «الفيل يا ملك الزمان» لسعد الله ونوس التي تقوم على قصة/نكتة تراثية، تروى كنادرة عن جحا: «كان في جيش تيمورلنك فيلة كثيرة، فبعث واحداً منها إلى قرية جحا ليرعى في مزروعات القرية، فعاث فيها فساداً ولم يستطع أحد أن يتعرض له خوفاً من بطش تيمورلنك. فاجتمع الفلاحون وذهبوا إلى جحا ليتدبروا الأمر في إنقاذ مزروعاتهم، فأخذهم جحا وتوجه للقاء تيمورلنك. ولما مثل بين يديه، قال: يا مولاي لقد انتدبني هؤلاء القوم لأكلمك في شأن الفيل. فصاح تيمورلنك في غضب: أحدث للفيل شيء؟ وخاف جحا فقال: كلا يا مولاي، وإنما هم يقدمون لكم واجب الشكر على تفضلكم بإرسال الفيل إلى قريتهم وبما أن

(١٧) خرافات، دار ركلام، لايبزيغ ١٩٦٨، ص٤٤. وايسوب هو الحكيم اليوناني (؟) القديم الذي اشتهر في الغرب بخرافاته عن الحيوانات.

(١٨) قصص من الرزنامة، دار ركلام، لايبزيغ ١٩٦٨، ص١٦٦. وقد قمت شخصياً بترجمة هذا الكتاب، نشرته مكتبة عين الزهور باللاذقية عام ١٩٩٢.

(١٩) أندريه موللر/ غيرت زيمّر: قصص عن السيد باء، دار أوفباو، برلين وفايمر ١٩٦٨، ص٦٧. والكوليسه (ج. كواليس) هي خلفية المسرح.

الفيل وحيد في غربته وليس له أنثى تؤنسه، نرجوكم أن تصدروا أمركم الكريم بإرسال أنثى إليه، لتكون له أنيساً في وحدته، وبذلك تزداد دعواتنا لجلالتكم. فسرّ تيمورلنك بهذا الرجاء، وأنعم على جحا، وأمر بإرسال أنثى مع الفيل في هذه القرية»[٢٠].

وقد أوردت فيما سبق أمثلة على الصنف الثالث، من النادرة والخرافة والشعر والمثل الشعبي. نستنتج من «مجمع الأمثال» للميداني أن الكثير من الأمثال العربية هي بالأصل نوادر نكتية ذهبت مثلاً، وإن كانت هذه الأمثال بأغلبها غير معروفة الآن على المستوى الشعبي. من ذلك: «أن امرأة حُملت على بعير وهو بارك، فأعجبها وطء المركب، فقالت: قودوه بي باركاً!». ومنه أيضاً أن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص أرسلت مولى لها «يأتيها بنار، فوجد قوماً يخرجون إلى مصر، فخرج معهم فأقام بها سنة، ثم قدم فأخذ ناراً وجاء يعدو، فعثر وتبدّد الجمر، فقال: تَعِست العجلة!»[٢١]. كذلك أمثالنا الشعبية الحالية، كثير منها هو قفلة نكتة أو نادرة نكتية، مثل: «حلب ماهون، الدراع ماهون؟»؛ «بين حانا ومانا ضيّعنا لحانا»؛ «اللي بيعرف بيعرف، اللي ما بيعرف بيقول كف عدس»... وغيرها كثير. بالإضافة إلى ذلك هناك كثير من الأقوال اللاذعة والحكم الباسمة التي تتجلى فيها النكتة، أو تتماهى معها. بتعبير آخر، قد تتخذ النكتة هيئة قول لاذع أو حكمة باسمة، إلى جانب النادرة والخرافة الفكاهية والمثل الضاحك. مثال ذلك قول الإمام علي: «من كانت همته ما يدخل جوفه، كانت قيمته ما يخرج منه!»[٢٢]. ومثاله هذا التعريف الساخر: «الزواج محاولة مضنية للتدليل على أن ١+١=١»[٢٣].

أما الصنف الثاني، فإلى جانب ما أوردناه من مسرح برشت، نجد

(٢٠) عبد الستار فراج، المصدر المذكور سابقاً، ص٢٦. انظر أيضاً: جحا العربي لمحمد رجب النجار، مصدر مذكور سابقاً، ص١٥٠.

(٢١) مجمع الأمثال، المصدر المذكور، ص١٣٩ من الجزء الأول.

(٢٢) نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد، المجلد الخامس، ص٩٤٨.

(٢٣) نقلاً عن مجلة: الهلال، حزيران ١٩٥٠، ص١٦٤.

الكثير منه في المسرحيات والتمثيليات الفكاهية المعاصرة، وخاصة الناطقة بالعاميات العربية. مسرحية «كاسك يا وطن»، التي ألّفها محمد الماغوط ودريد لحام، تتضمن شاهداً على ذلك. فعندما جرى في المسرحية تعذيب غوار بالكهرباء، أخذ هذا يضحك بدل أن يصرخ من الألم. فسأله المحقق متعجّباً عن سبب ضحكه، فأجاب بأنه يضحك لأن الكهرباء وصلت إلى قفاه، قبل أن تصل إلى قريته. وكانت مجلة «المضحك المبكي» قد نشرت هذه النكتة بالنص النوادري التالي: «... حكاية رويت لنا عن أحد أبناء حي الفردوس في حلب... وخلاصتها أن هذا الرجل أصيب بالتهاب البواسير، ولم ينجح فيه طبّ ولا دواء. وأخيراً وصف له أحد الأطباء الكيّ. وفي أثناء العملية سأل المريض الطبيب: بماذا تكويني، يا دكتور؟ قال له: بالكهرباء. فأخذ المريض يضحك. قال له الدكتور: ولماذا تضحك؟ قال له: لقد هلكت حتى أوصل الكهرباء إلى الحي، وما كنت أعتقد أنه يصل لـ.. قبل أن يصل إلى حارتنا»(٢٤). لقد وظّف دريد لحام هذه النكتة جيداً في مسرحيته، فجاءت منسجمة تماماً مع سياق الحدث، وزادها جمالاً بأن جعل المفارقة أكبر مما في حادثة المضحك المبكي، فازداد تأثيرها على المتفرّج.

إن المرء ليُفاجأ، كم يستفيد المؤلفون و/أو الممثلون الهزليون من نبع أدب النكتة الشعبي. كشاهد آخر على اقتباس النكتة الشعبية وتوظيفها في المسرح نأخذ مشهداً لعادل إمام في مسرحية «شاهد ما شافش حاجه»: يُستدعى المواطن سرحان عبد البصير (عادل إمام) إلى المحكمة كشاهد في قضية قتل، لكنه كمواطن عربي مقموع يقف أمام المحكمة وكأنه متهم. ويتدخل أحد الأشخاص ليزيد الشاهد خوفاً وإرباكاً. وعندما يتأكد لسرحان عبد البصير أن هذا الرجل ليس من مسؤولي المحكمة، بل هو مواطن مثله، يصرخ في وجه هذا الحشري ويضربه. هذا المشهد يذكّر بنكتة معروفة: «أحد المواطنين كان واقفاً في باص نقل داخلي، فداس على قدمه راكب آخر. سأله: حضرتك ضابط؟ قال: لا. ـ ألك قريب ضابط؟

(٢٤) العدد ١٠٤٤، تاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩٦٣، ص١.

- لا. ألك صديق ضابط؟ - لا. عندئذ أمسك به المواطن من صدره وأخذ يصفعه ويقول له: إذن، لماذا، يا كلب، تدوس على قدمي؟!». هذه النكتة سمعتها شخصياً في الستينات. ويقول محمد الرميحي(٢٥)، إن المرء يسمعها في كثير من الأقطار العربية.

على صعيد القصة، ربما كان الأديب التركي عزيز نيسين من أشهر الكتاب الذين استفادوا من النكتة. بمهارة فائقة أعاد نيسين كتابة عدد من النكات المعروفة أو المتداولة بشكل قصص فكاهية قصيرة، وخاصة في مجموعته القصصية «أسفل السافلين»[٢٦]. مثلاً قصة «أم لثلاثة ملائكة» (من ضمن المجموعة) تقوم على نكتة سمعتها شخصياً في عام ١٩٨٨ (أي قبل خمس سنوات من ترجمة كتاب نيسين)، تتضمن أن سياسياً «ذهب إلى بلد أجنبي، فرأى امرأة فاتنة تطيل النظر إليه، فلحقها إلى بيتها. أدخلته غرفة النوم، وجعلته يتعرى. ثم خرجت وجاءت بأولادها وقالت لهم: شايفين شو بيصير باللي ما بيشرب حليب؟!». ومن الطريف أن نعلم أن أول قصة نشرها الأديب الشهيد غسان كنفاني (١٩٥٣) كانت نكتة عاشها في المدرسة. القصة باختصار: «عاد التلميذ غسان إلى المدرسة بعد أيام من المرض. وصادف في ذلك اليوم أن زار المدرسة مفتش انكليزي، وجعل يختبر معلومات التلاميذ. فسأل غسان: من هو مخترع الآلة البخارية؟ لم يعرف غسان الجواب، فاستعاد السؤال بصوت أجش مرتجف: واط؟ فربت المفتش على كتفه بلطف وقال له: جيد! جيد!»[٢٧].

تراثياً استُخدمت النكتة أيضاً في مسرح خيال الظل. وهو مسرح رائد، كان يمكن - بتصوري - أن يتطور إلى مسرح الدمى، لو جرى دعمه وتشجيعه في بلادنا العربية أو في تركيا العثمانية. وإن الستارة التي تجري خلفها الأحداث المظلّلة، لنلمح فيها ومضة تنبؤية تبشّر بشاشتي السينما

(٢٥) حديث الشهر: يا أمة ضحكت!، في مجلة: العربي، العدد ٣٢٩، نيسان ١٩٨٦.
(٢٦) ترجمة عبد اللطيف عبد الحميد، دار الحصاد، دمشق ١٩٩٣.
(٢٧) نشرتها جريدة: نضال الفلاحين، في العدد ١٣٣٠، تاريخ ٢١/١٠/١٩٩٢، ص٦. عنوان القصة: «أنقذتني الصدفة».

والتلفـاز. في نفس الوقت نلحظ في شـخـوص ذلك المـسـرح رسـومـاً كاريكاتورية مجسمة.

وتوظف النكتة في فن الكاريكاتير. بالأساس يقوم فن الكاريكاتير على المفارقة، على الأقل بين الأصل والرسم، على الأقل من خلال تغيير الواقع، مثل التشويه أو المبالغة تهويناً أو تهويلاً. فهو نقل تحويري للواقع. وهو يقدم كذلك متعة تعويضية في الأحوال العادية، مثلاً لدى تقبيح صور بعض السياسيين. من بين رسامي الكاريكاتير العرب أخصّ بالحديث هنا: علي فرزات وناجي العلي.

إن الكثير من الكاريكاتيرات التي خطّها علي فرزات هي نكات بحق وحقيق. يكفي أن نعيد صياغة الرسمة بالكلمات، حتى نتحقّق من ذلك، مع فارق أن الصورة أبلغ وأجمع تعبيراً. في إحدى الرسمات يلفت نظرنا في الزاوية العلوية اليمنى إعلان عن مناقصة عالمية تطلب فيها شركة مرفأ اللاذقية عروضاً لإبادة الجرذان. وفي الوسط جدار فيه ثقب، وشخص بلباس فرنجي قد طوبز وهو ينظر في الثقب ويقول: Do you speak English?.. وتضم رسمة أخرى رجلين فقيرين مرقعي الثياب، أحدهما برقعة واحدة والآخر بعدة رقعات. يقول صاحب الرقعات العديدة لصاحب الرقعة الواحدة شاتماً: بورجوازي!. وفي رسمة ثالثة نجد أربعة أشخاص جالسين حول طاولة في مقهى، يلعبون بورق الشدّة، وقد طالت لحاهم وعشعش العنكبوت في كراسيهم، لطول مكوثهم على هذا الوضع: وبالقرب منهم يقف شحاذ مادّاً إليهم بصحن، يطلب صدقة: فيرشقه أحد اللاعبين بنظرة استنكار وهو يقول: روح اشتغل!. ومن أجمل رسمات علي فرزات كاريكاتير لطفل لبس في عيد الصغير ثياباً واسعة جداً عليه، يقول لنفسه: إذا حدا سألني، بقول له: نسيت ولبست هدوم عيد الكبير[٢٨]... جميع هذه

(٢٨) عيد الصغير هو عيد الفطر، وعيد الكبير هو عيد الأضحى. يقول الطفل بالفصحى: «إذا سألني أحد، أقول له: نسيت أنه العيد الصغير، فلبست ثياب العيد الكبير». نشرت هذه الرسمات في جريدة «الثورة» (دمشق) في السبعينات الثانية (١٩٧٩).

النكات مبتكرة، على حدّ علمي. هذا يعني أن علي فرزات لا يعيد في هذه الأمثلة صياغة النكتة المتناقلة بالخطوط، بل يؤلف فيما يصحّ أن نسميه «كاريكاتير النكتة» (بدلاً من «أدب النكتة»).

أما ناجي العلي، رسام الكاريكاتير الشهيد، فما كان يعتمد على النكتة، ومع ذلك لا تخلو رسوماته من بعضها، كهذه: «قال القارئ حنظلة للمثقف الوطني المنهمك بالكتابة: مقالك اليوم عن الديمقراطية عجبني كتير، شو عمتكتب لبكره؟ فأجابه الكاتب: عمبكتب وصيتي[٢٩]». ولاشك أن ناجي كان بهذه الرسمة يتنبأ لمصيره الشخصي، وهو شهيد الكلمة الرسمة في بلاد لا يتحمل سياسيوها أو أكثرهم نسمة فكر لا تخرج من أفواههم أو من أقفيتهم. وفي كاريكاتير آخر للشهيد نقرأ: «أنا أفكر، إذاً أنا موجود»، وذلك على شاهدة قبر، كي لا يقول لفظياً بلسان المثقف الحرّ في الوطن العربي: أنا أفكر، إذن أنا موجود، في القبر!. على أن ناجي العلي، في حقيقته، ليس رسام كاريكاتير ضاحك، بل رسام كاريكاتير باكٍ. وقد أبكانا أكثر ما أبكانا بوفاته، غير أننا بكينا عليه مرفوعي الرأس.

بعد هذا الاستعراض السريع لمدى استثمار النكتة في الأدب والفن، تظهر النكتة بين أجناس الأدب الأخرى في بلادنا كخبز الشعير (أيام زمان): مأكول ومذموم. فالقيّمون على الثقافة تتوازعهم عموماً مواقف ثلاثة من أدب النكتة: ١ـ يتجاهلون وجوده، فلا يعتبرونه أدباً، بل ثرثرة ولهواً بالكلام؛ أو ٢ـ يصنّفونه كأدب وضيع خاصة لشعبيته ومشاعيته وعاميته؛ أو في أفضل الأحوال ٣ـ يضعونه عند التقييم في المرتبة الدنيا، بحيث لا يستحق منهم الاهتمام والدراسة. لذلك نرى الدوريات الثقافية الرصينة (دوريات الدراسات) لا تعير اهتماماً للنكات والنوادر (سوى

---

(٢٩) انظر ماهر اليوسفي: ناجي العلي – مدهش الملهاة ومفجع المأساة، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٣. استشهد ناجي العلي في ١٩٨٧/٨/٢٩ اثر محاولة اغتيال في ١٩٨٧/٧/٢٢. انظر أيضاً: أحمد عنبوسي، الموضوع والأداة في فن ناجي العلي، دار المبتدأ في بيروت ودار الزاوية في عمان ١٩٩٣.

التراثية)، حتى ولو كانت هذه الدوريات أدبية. لكن موقفها يتحول مئة وثمانين درجة، عندما تصاغ النكتة بشكل قصة قصيرة، كما ذكرنا بخصوص بعض قصص عزيز نيسين، وكما نرى أمثلتها لدى أغلب الأدباء الفكاهيين من كتاب القصة القصيرة. دوريات أخرى (دوريات التحقيقات) تلقي بالنكات إلى الخلف مع الكلمات المتقاطعة وحظوظ الأبراج والتسليات المشابهة. وأكثر من يهتم بها هي مجلات التسلية، ومنها المجلات المسماة «فنية»، تلك المتخصصة غالباً بأخبار وفضائح حرفيي وحرفيات التمثيل والغناء والرقص بشكل خاص، وبابهارات ومثيرات المجتمع المخملي. كما تحتل مكانة معينة في مجلات الأطفال. ولاشك أننا قادرون بهذا الخصوص، كما في كل جنس أدبي، أن نميز بين النكتة الجيدة والنكتة المبتذلة، بين الجميلة والسمجة، العميقة والسطحية، التقدمية والرجعية.. الخ. أما أن نحكم هكذا مسبقاً على نوع أدبي برمته، فهذا خطأ وضرر. أدب النكتة لن يزول بهذا الموقف السلبي من قبل المثقفين العرب الطليعيين والمتميزين، إنما يتضرر حين يترك هؤلاء مثلاً لمن يسمى «المونولوجيست» ولصحفيي الدوريات المتواضعة ثقافياً وللأطفال أن يصولوا ويجولوا في هذا الميدان.

خلافاً لذلك نجد مجلة «المختار» (المتعددة الجنسيات) تبدي اهتماماً شديداً بالنوادر والطرائف والنكات والأقوال اللاذعة، حتى أنها تجمع المضحكات من حياة الناس ومن المنشورات المحلية المغمورة في جميع الأقطار، فتساهم بذلك في تسجيل ونشر النكتة على الصعيد العالمي. لكنها للأسف لا تشير إلى مصدر النكتة، رغم علمها به أو إمكانها العلم به، مما يجعل نكاتها وطرائفها عالمية (بالأحرى «مدولنة») ويجعل من المجلة ذاتها المرجع الأول أو المرجع الأشهر لها، فيما يشبه التجيير لصالحها. نقرأ في سلسلة أعداد من المجلة: «اكتب واربح. هل لديك نكتة، هل صادفت في حياتك العائلية أو المهنية حادثاً طريفاً، هل سمعت حكاية ذات مغزى وترغب في أن تشرك الآخرين في متعتها؟ خذ قلماً وورقة واكتب ما لديك وأرسله إلى «المختار» فتدفع لك المجلة في المقابل، بعد النشر، المعدلات

الآتية: صور من الحياة: القصة يجب أن تكون حقيقية تتحدث عن تجربة شخصية ناجحة ذات متعة خاصة. تدفع عن القصة الواحدة ٢٥ دولاراً. الضحك خير دواء: تفضل النكتة الأصلية، أما إذا كانت منشورة فيجب أن تختار من المطبوعات المحلية ذات الانتشار المحدود. تدفع ٢٥ دولاراً عن الأصلية و١٠ عن المنشورة. تأملات معاصرة: مقاطع أصلية أو من كتب ومقالات منشورة تنطوي على مغاز حكمية. يدفع دولار عن كل سطرين. حديقة أفكار: أقوال مأثورة للأعلام العرب. تدفع ٥ دولارات عن كل سطرين، على أن لا يتجاوز القول المأثور السطرين. السدّات: هناك نكات ونوادر قصيرة من مصادر مطبوعة مثل الكتب والمجلات ذات الانتشار المحدود. وهذه كذلك يرحب بها «المختار» ويدفع دولارين عن السطر ذي العامودين. المقالات: يرحب «المختار» بالمقالات التي تتحدث عن تجارب شخصية مرّ بها آخرون معروفون من القراء مع ذكر الأسماء والوقائع والمراجع. يدفع ٢٥٠ دولاراً عن الموضوع الذي ينشر في المجلة»[٣٠].

كذلك خلافاً للوقت الحاضر نلاحظ في تراثنا الفكري والأدبي عناية خاصة بالنكات والنوادر. فها هو العالم والأديب الجاحظ (٧٧٥-٨٦٨م) يضع كتاباً هزلياً عن البخلاء والمكدّين. وعالم الدين أبو الفرج ابن الجوزي (١١١٦-١٢٠١م) يعدّ ثلاثة مؤلفات هزلية عن: الحمقى والمغفلين، والظرفاء، والأذكياء. وآخرون، كأبي الفرج الأصفهاني (٩٧٦م) في «الأغاني»، وابن عبد ربه (٨٦٠-٩٤٠م) في «العقد الفريد» يُحلّون روائعهم، حيثما أمكن، بأطرف القصص وأملح النكات. ويمكن أن نذكر أيضاً: أبا اسحق الحصري (٤١٣هـ)، وأبا المنصور الثعالبي (٤٢٩هـ)، والخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) وأبا الفضل الميداني (٥١٨هـ)، وابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، وشهاب الدين الأبشيهي وغيرهم كثر. فيبدو أن أجدادنا كانوا أكثر معرفة منا بقيمة الأشياء، يبحثون عن كل ما هو طريف ونادر ويسجلونه، حتى أن نكات ونوادر «الأغاني» مثلاً جاءت مسندة على طريقة الأحاديث النبوية. على سبيل المثال يقول الأصفهاني: «أخبرني محمد بن

(٣٠) انظر مثلاً العدد ١١٥ من المختار، حزيران ١٩٨٨، ص١٤٥.

العباس اليزيدي قال: حدثنا الخليل بن أسد قال: حدثنا العمري عن الهيثم بن عدي عن أشعب قال: دخلت على الوليد بن يزيد الخاسر وقد تناول نبيذاً. فقال لي: تمنَّ! فقلت: يتمنى أمير المؤمنين ثم أتمنى. قال: كأنما أردت أن تغلبني، فإني لأتمنى ضعف ما تتمنى به كائناً ما كان. قلت: فإني أتمنى كفلين من العذاب»[٣١].

بقي أن نبحث في الشكل الأول الذي تظهر فيه النكتة، وهو: النكتة المستقلة أو الخالصة، أي القائمة بذاتها ولذاتها. فهذا الشكل هو الذي نقصده عادة، عندما نتكلم باللغة اليومية عن «النكتة». يقال، إن النكتة بهذا المعنى تتخذ بالضرورة صيغة حوار[٣٢]. وهذا ليس صحيحاً على الدوام، وإن كان الحوار هو الحالة الغالبة. ناهيك عن نكتة المثل وعن القول اللاذع، اللذان يكونان عادة بلا حوار، فهناك إلى جانب نكتة الحوار نكتة الخبر، كهذه النكتة الصهيونية: «ألقيت قنبلة على جلسة الحكومة. قتل الجميع. الخسائر لاشيء». وكهذه التي تشير إلى التضخم المالي: «سمح الحاخام (غورن) بالسير يوم السبت مع ورقة مالية من فئة المئة ليرة، لأن هذه ليست نقوداً». وهذه التي تسخر من الجدل حول تعريف اليهودي: «إن بريجينيف يؤخر الهجرة من الاتحاد السوفييتي، لأنه لا يعلم من هو اليهودي»[٣٣]. يبدو لي أن نكات الخبر يمكن تحويلها ببساطة إلى نكات حوار، كأن يسأل الراوي: لماذا يؤخر بريجينيف الهجرة من الاتحاد السوفييتي؟ فيسأله السامعون: لماذا؟ فيجيب: لأنه لا يعلم من هو اليهودي!. كذلك بالإمكان - إنما ليس بنفس السهولة - تحويل الكثير من نكات الحوار إلى نكات خبر. أما غلبة الصيغة الحوارية للنكتة فتعود برأيي إلى أن الصيغة المذكورة أسهل على الراوي وأرحب من الصيغة الخبرية،

---

(٣١) الأغاني، المصدر المذكور سابقاً، المجلد السابع، ص٥٩. والكفلان هما النصيبان (الحصتان). ينسب أبو اسحاق الحصري هذه النادرة إلى بديح. انظر ص٥٧ من كتابه: جمع الجواهر في الملح والنوادر.

(٣٢) انظر هيرش، ص٣٩.

(٣٣) محمد أبو خضور: النكتة الصهيونية، دار الحكمة، دمشق ١٩٩٠، ص٣٦، ٣٣، ٧٤ على التوالي.

وأقوى تأثيراً على المتلقي. أمثلة أخرى على النكتة الخبرية: «واحد تنبل، راح تزوج واحدة حامل»، «واحد أحول اشترى عصفور أحول. إجا ليحطه في القفص، حطه خارج القفص. طار العصفور ودخل في القفص»، «امرأة وقفت أمام المرآة وأغمضت عينيها، لترى نفسها كيف تظهر وهي تنام»(٣٤).

من ضمن النكتة الخالصة تعدّ أيضاً نكتة الحزّورة، وهي غالباً نكتة خفيفة، قد تصل إلى التفاهة؛ القصد منها في الغالب مجرد الإضحاك (أي الفكاهة للفكاهة). ومن الضروري تمييز النكتة الحزورة عن الحزورة ذاتها. فبالإضافة إلى كون الأولى ضاحكة والأخيرة جادة، فإن نكتة الحزورة تختلف عن الحزورة في أن المطلوب فيها ليس ايجاد حلّ للحزورة، بل العكس هو المطلوب: عدم ايجاد الحل، كي يأتي الحل على يد الراوي بصورة غير متوقعة من السامعين، يتقاطع فيها خطّا النكتة أو يلتقي فيها مستوياها، كما بيّنا سابقاً. تتصف نكتة الحزورة ببساطتها وسهولتها، فيستطيع أكثر الناس، وحتى الأطفال، التعامل معها روايةً واستماعاً. هذه الايجابية عموماً هي في هذا الميدان سلبية، لأن البساطة والسهولة تترافق هنا مع السطحية والابتذال. لذلك، كثيراً ما تكون نكتة الحزورة من النوع البايخ. وهذا طبيعي، لأن الفن - بالتعريف - هو إبداع صعب ومهارة نادرة، فإذا شاع انتفت صعوبة الإبداع وندرة المهارة فيه، فلا يعود فناً. من أمثلة نكات الحزازير: «ليش المسطول بياخد معه سكر لما بدو يسافر؟ - لأن الغربة مرة»؛ «ليش الصرصور ما بيتزوج أم أربع وأربعين؟ ـ لأنه لا يلحّق لها كنادر (أو جرابات)»؛ «النملة قرصت الفيل، بتعرف شو قالت له؟ ـ شو؟ ـ وجّعتك يا فوفو؟»(٣٥). وكلها من النكات النمطية، وخاصة نكات المسطول ونكات الفيل والنملة ونكات الفيزون (كآخر الصرعات)، التي تدرج في فترات زمنية على شكل موجات كالموضة، وتقال في السهرات واللقاءات العائلية من أجل التسلية والضحك.

(٣٤) نكتة قديمة، نقلتها عن: الفكاهة البلغارية، ص٢١.
(٣٥) النكتة الأخيرة نقلاً عن حميدو في مجلة: الشبكة، العدد ٨٥١، تاريخ ١٩٧٢/٥/٢٢، ص٤٣. النكات الأخرى مسجلة من قبلي عن أفواه الناس. ويقول حميدو: «طرائف الفيل والنملة هي محور السهرات الاجتماعية في بيروت اليوم».

ومن الضروري أيضاً التمييز بين نكات الحزازير وبين الحزازير النكتية. فإذا كانت النكتة الحزورة هي نكتة بصيغة حزورة، أي الحزورة فيها مجرد شكل، فإن الأصل في الحزورة النكتية هو الحزورة، إنما تنقلب الحزورة إلى نكتة بالتحول من استحالة الجواب إلى إمكانيته، أي الانتقال من المستحيل (وهو شعور طبيعي تجاه الحزورة) إلى الممكن. هذا الاكتشاف غير المتوقع هو المضحك: «كيف تستطيع أن تلقي بيضة نيئة من ارتفاع أربعة أمتار دون أن تتكسر؟ الحل: تلقي بالبيضة من ارتفاع ستة أمتار، وبالتأكيد ستجتاز الأمتار الأربعة الأول دون أن تتكسر»[٣٦].

ومن أنواع النكتة أيضاً «نكات البسامير» أو «القفشات»، كما يسميها المصريون، وهي شكل من الصراع الكلامي الفكاهي أو المباراة الهجائية بين اثنين. في تبادل الهجاء هذا يكون المستمعون هم الحكم، حيث يعتبر غالباً من يُعلّم (كالمسمار) على خصمه أكثر، أي يُضحك المستمعين عليه أكثر، من حيث كمية وقوة النكات التي يرميها في وجهه. كثيراً ما يكون التباري بالقفشات لعبة بالنكات، وأخصّ بالذكر هنا نكات «اش معنى» أو نكات القافية، كما تسمى في مصر، وهي نكات نمطية تتمحور في كل مرة حول موضوع معين (هو القافية)، الغاية منها الفرفشة والضحك في مجالس الأصحاب، رغم ظاهرها العدواني. وتفرض أخلاقية المزاح أن يضحك مع الضاحكين كل من المتبارين من نكتة منافسه، رغم أنها موجهة ضده. هذه هي فروسية الفكاهة. وقد درجت القافية في الأربعينات وخصوصاً في الخمسينات. من هذه المباريات ما سجلته مجلة «الاثنين» القاهرية عام ١٩٤٧[٣٧]:

«وقد أتيح لمندوب الاثنين أن يقضي السهرة مع أمراء الفكاهة المعروفين في معسكر الرياضيين الذين يستعدون للدورة الأولمبية بنادي العلمين، حيث تبارى فريقان منهم في تبادل القافية، التي كانت تدور حول

(٣٦) أسامة، العدد ٣٠٣، تاريخ ١٩٨١/٩/١، ص٢٧.
(٣٧) الاثنين والدنيا، العدد ٦٨٦، تاريخ ١٩٤٧/٨/٤، ص٢٧.

الجلاء وقضية مصر في مجلس الأمن. وقد انجلت هذه المباراة عن فوز الفريق الذي يرأسه الاستاذ حسن الفار المدرّس بمدرسة الصناعات الميكانيكية والمعلم محمد سلطان الجزار المشهور. وإلى القارئ أطرف ما حوته هذه القافية من نكات: «- عمة والدك. - اشمعنى؟ - عريضة.؛ - هدومك معروضة. - اشمعنى؟ - على مجلس الأمن.؛ - الفقر والجهل والمرض في بيتكم. - اشمعنى؟ - عاملين اجتماع.؛ - الفرّان يطلب منكم. - اشمعنى؟ - حق الفيتو.؛ - الجوع والكسل عندك. - اشمعنى؟ - لا يتجزءان.؛ - عاملين لك في قسم السيدة. - اشمعنى؟ - مذكرة.؛ - قالوا لحماتك: تقري، يا ست؟ - اشمعنى؟ - قالت: ما نقراشي.؛ - عيلتكم طول عمرها تشتكي. - اشمعنى؟ - من جلاء المعيشة.؛ - مراتك منعتك من التدخل. - اشمعنى؟ - في شؤون بيتكم.؛ - انت مالكش في لبس الهدوم. - اشمعنى؟ - هيئة.؛ - قالوا لك: اقعد على القهوة، قلت لهم. - اشمعنى؟ - والنبي مجلس».. إلى آخره.

كتب محمود السعدني عن نكات القافية في معرض حديثه عن أعلام الفكاهة في مصر: «وقبل أن يدخل السوق هؤلاء الأعلام، كانت الفكاهة مجرد «قفش» ومهرجاناً للقافية. وهذا النوع من الفكاهة لا يحتاج إلى ذكاء كبير، بل يحتاج إلى براعة في التلفيق. وهو لا يحتاج إلى سرعة خاطر، لأن أغلبه محفوظ ومكرر ومعاد ويقال في كل مقام. فإذا كانت قافية السيارات مثلاً يقال: - وشك من الضرب. - اشمعنى؟ - كبرليه. ويقال أيضاً: - لما تخش بيتكو. - اشمعنى؟ - يبقى فيه تيس»[٣٨]. ونقرأ لدى شوقي ضيف: «وهذه الروح (الفكهة) أكثر ما تشيع في أهل القاهرة، فهي أكثر مدن مصر ميلاً للضحك والتندير. وكثيراً ما يطلقون على من يشتهر بذلك فيهم «ابن بلد»... ولأبناء البلد هؤلاء طرق مختلفة في التنكيت، ومن أشهرها القافية، إذ يدعى اثنان للمبارزة الفكهة في موضوع بعينة، ويبدأ أولهما فيذكر شيئاً، ويقول الثاني اش معنى، أي لماذا، فيجيب الآخر إجابة مسكتة ضاحكة».

(٣٨) محمود السعدني: ليس بعد الضحك ذنب، في مجلة: الهلال، عدد خاص عن الفكاهة، العدد الثامن، أغسطس (آب) ١٩٦٦، ص١٦٥ - ١٦٦.

وهذه لقطات من مبارزة في قافية الساعة: «ـ الأول: الخيرات في بيتكم. ـ الثاني: اشمعنى. ـ الأول: ممسوحة.؛ ـ الثاني: ساكن في ذقنك. ـ الأول: اشمعنى؟ ـ الثاني: جوز عقارب.؛ ـ الأول: عيشتك. ـ الثاني: اشمعنى؟ ـ الأول: ما فيهاش تقديم.؛ ـ الثاني: صنعتك مع الفجر. ـ الأول: اشمعنى؟ ـ الثاني: رقاص»(٣٩).. وهكذا.

وللقفشة أهمية خاصة، أو لنقل: مكانة متميزة في الأدب الفكاهي المصري، لدرجة أن النكتة تتماهى مع القفشة، أي يصبحان سواء، لدى شوقي ضيف: «والنكتة فكاهة المجالس، ولابد لها من اثنين على الأقل، إذ ينتهز أحدهما كلمة لصاحبه فيمدّها، أو قل يمدّ فكرتها إلى حيث تعبّر عن نقيض ما يريد، فيحس كأن صاحبه أو محدثه ينصب له أشراكاً ليقع فيها. وهو يعتمد في ذلك على ما يسمى في عاميتنا باسم «القفش»، كما يعتمد على التورية في الألفاظ. ويستمد صاحب النكتة من سرعة البديهة وخفة الروح، فيقصد إلى مغالطة صاحبه في ألفاظه أو مدّها، كما نقول، وكأنه يسرقه أو يسرق منه كلماته. ويضحك الحاضرون لهذه السرقة المكشوفة التي تقوم على المناورات اللفظية»(٤٠). نلاحظ في هذا القول أيضاً أن الكاتب يحصر النكتة في نوعها اللفظي. وسوف نبحث في ذلك بعد قليل. أما المازني فيرى «في النكتة معنى النقد، بالسخرية والتهكم وما نسميه القفش». هذا يعني أن القفش شكل من أشكال التعبير النكتي، وليس هو النكتة ذاتها. ويقول: «وكثيراً ما تدور النكتة على تشابه الألفاظ في الجرس واختلاف دلالاتها أو معانيها، ومثل هذا الضرب لا سبيل إلى نقله إلى لغة أخرى، لأنه يتعلق باللفظ لا بالمعنى أو الصورة»(٤١).

بهذا الشاهد للمازني ننتقل من النظرة إلى النكات بحسب تجلياتها أو

(٣٩) شوقي ضيف: الفكاهة في مصر، ص١٧٥، ١٧٦.

(٤٠) شوقي ضيف: ما هي الفكاهة؟، في مجلة: الهلال، عدد فبراير (شباط) ١٩٥٨، ص٦٣ - ٦٤. أو كتابه: الفكاهة في مصر، المصدر المذكور سابقاً، ص١٤.

(٤١) ابراهيم المازني: النكتة المصرية، في مجلة: الهلال، عدد يوليو (تموز) ١٩٤٧، ص٥٨.

ظهوراتها، إلى النظر إليها من حيث المادة التي تتصنّع منها النكتة، فنميز في هذه الحالة بين نوعين رئيسيين من النكات: نكتة الألفاظ ونكتة الأفكار. فنكتة الألفاظ تستخدم لعبة الكلمات لتصل إلى هدفها الهزلي، بينما نكتة الأفكار تتلاعب بالفكرة للوصول إلى الهدف إياه. ويضيف هيرش إلى النوعين المذكورين «نكتة الأوضاع»[٤٢]، حيث تجري عملية الإضحاك من خلال تغيرات في الأوضاع وليس بالألفاظ أو الأفكار. ويمكن أن نضيف نوعاً رابعاً باسم «النكتة الحواسية»، وهي النكتة الشفهية بالضرورة، أي التي تصعب كتابتها أو قراءتها والتي قد تكون بصرية أو سمعية، إذ يجري التأثير على سمع المتلقي أو بصره من أجل إضحاكه. غير أن هذا النوع ليس كثير التواجد كالنكات الفكرية أو اللفظية، ولا حتى الأوضاعية، كما أنه ذو أهمية ثانوية، بحيث أن إهماله لن يضرّ بتاتاً بأدب النكتة:

«كان أحدهم في البرية، وكان معه علبة كبريت فيها عود ثقاب واحد. أشعل العود بحرص شديد، وقرّب السيجارة (وهي بين شفتيه) لإشعالها. في هذه اللحظة سأله صديقه: هل اشتعل معك؟ فأجابه: أوف ف ف.. فانطفأ العود». مثال آخر: «ذهب تنبل إلى البازار، كانت الناس تشتري وتبيع، تروح وتجيء، وهو واقف يتفرج، ساعة، ساعتين.. سأله أحدهم: ما لك واقف هكذا؟ أجاب: جئت أشتري حمارة مع ضفدعة، فلم أجدهما. فسأله: أفهم لماذا تشتري حمارة، ولكن لماذا الضفدعة؟ قال: كي تسوق الجحشة (وصوّت له بصوت الضفدع المشابه لصوت من يسوق حماره)». مثال ثالث: «أخذ أحدهم يتكلم مع أحد أصحابه بلسان أعوج وحنك مجقوم: «دخلت، يا أبو الشباب، ع الكازينو ولعبت روليت. شلت الفيش المعي وحطيتهم ع الأحمر، ربحت. شلت هالفيش وحطيتهم ع الأسود، ربحت. صاروا مبلغ مليح. حطيتهم ع رقم، ربحت. صاروا كومة قدامي. شلتهم كلهم وحطيتهم ع رقم ثاني، قمت خسرت كل شي معي». قال صاحبه: «العمى، ما انفلجت؟!. فقال له: «لكن، مفكرني حاطط بومبونه بتمي؟!». وهذه نكتة رابعة، إنما بصرية هذه المرة: «في الباص سأل

(٤٢) هيرش، المصدر المذكور سابقاً، ص١٢٢ - ١٥٨.

أحدهم جاره: الأخ صيني؟ أجابه: لا. بعد قليل عاد فسأله: الأخ ليس صينياً؟. ـ لا، لست صينياً. بعد قليل سأله مرة ثالثة: أصحيح أن الأخ ليس صينياً؟ ـ قلت لك، لست صينياً!. وعاد بعد قليل فسأله للمرة الرابعة: بالله عليك، قل لي إن كنت صينياً. غضب الرجل، لكنه آثر أن يرتاح من الأسئلة المتكررة، فأجابه: نعم، أنا صيني. فقال له: ولماذا عيناك ليستا هكذا؟ (وشدّ طرفي عينيه بأصابعه نحو الجانبين)».

من الأمثلة التي يوردها هيرش عن نكات الأوضاع: «قدمت الممرضة الوليد للأب الشاب. فانحنى هذا فوق الطفل وصاح: رائع، إنه صبي! فصاحت الممرضة بدورها: لا، اترك اصبعي!». ويعلّق على هذه النكتة بقوله: «لا يمكن الحديث هنا عن أية فكرة، إنما يتأتى الهزل من الخطأ الملموس للأب، أي من التصرف. بالتأكيد، يجري في النكتة التلميح فقط إلى هذا التصرف، وذلك بنفس الوسائل اللغوية التي لاحظناها حتى الآن. وإذا كانت الممرضة قد ذكرت اصبعها الصغيرة، فهذا - من حيث التقنية - تورية. لكن هذه التورية تسمح بايضاح الحدث». ثم يعطي الكاتب مثالاً آخر: «أحد المرضى يستشير الطبيب: ماذا علي أن أفعل، فيداي ترتجفان بشكل. فقال الطبيب: أنت تشرب كثيراً ولا شك. - بتاتاً، يا دكتور، فأكثره يندلق مني!»[٤٣].

أما نكات الألفاظ فقسم منها (وليس كلها، كما يرى المازني) لا يمكن ترجمته إلى لغة أخرى دون ضياع العنصر الهزلي منه، الأمر الذي يجعله وهو مترجم بلا معنى. وهذا نابع من الخصوصية اللغوية، حيث مع افتراض تماثل المفاهيم بين اللغتين المعنيتين أو تقاربهما تختلف الألفاظ المعبرة (أي العبارات) والتعبيرات عن هذه المفاهيم فيما بينهما. بالتالي تصعب بنفس القدر ترجمة النكات اللفظية من الواحدة إلى الأخرى. وباعتبار وجود أسر لغوية في العالم، تتطابق إلى هذا الحد أو ذاك مع انقسامات العالم إلى مجموعات حضارية (أفقية)، تتفاوت درجات القرابة فيما بينها،

(٤٣) هيرش، المصدر السابق، ص١٢٢ - ١٢٣.

فإن مدى الاختلاف بين الترجمة والأصل يتناسب طرداً مع تباعد درجات هذه القرابة، وإمكانية الترجمة تتناسب طرداً مع تقارب درجات القرابة المذكورة. بصورة عامة وعلى سبيل المثال، فإن احتمال أو إمكانية ترجمة نكتة لفظية انكليزية معينة إلى الألمانية أو الهولندية أكبر من احتمال أو إمكانية ترجمتها إلى الايطالية أو الإسبانية، وإمكانية الترجمة إلى هاتين الأخيرتين أكبر منها إلى الروسية، وإلى هذه الأخيرة أكبر منها إلى العربية، وهكذا. من نكات الألفاظ: روي عن أحدهم أنه كان يعلّم جماعة من الفتيات آية «دعهم في ضلالهم يعمهون». فكانت البنات يقرأن «دلالهم» وهو يصرّ على تفخيم الضاد. فمر به واحد من الظرفاء فقال له: يا شيخ، سيبهم في دلالهم وخليك أنت في ضلالك!(٤٤). ونقرأ في «رحلة مع الظرفاء» عن الشاعر أحمد رامي: «كان لنا صديق يحضر مجلسنا ويسمعنا ونحن نتطارح ما يكون كل منا قد نظمه. فيقول: يا جماعة، دي حاجة عجيبة قوي، كل اللي انتم بتقولوه خطرت على بالي معانيه وكتير من ألفاظه وإشاراته؛ يبقى إيه ده يا رامي، توارد خواطر وإلا مناجاة أرواح؟ فأجابه رامي: لا أبداً، تقدر تقول إن احنا شعراء بقافية، وانت شاعر بلا قافية!»(٤٥).

من الواضح أن النكتتين السابقتين غير قابلتين للترجمة المفيدة. في النكتة الأولى يجري اللعب على حبلي الضلال/دلال في كل من الآية الكريمة والمعنى العادي، وفي النكتة الثانية ثمة استخدام لكلمة بلا قافية بمعنيين مختلفين. في كلا النكتتين ينحصر الجناس وازدواج الدلالة أو ازدواج المعنى لكلمتي ضلال/دلال وبلا قافية باللغة العربية، وربما في بعض شقيقاتها. أما النكتة التالية فلا تحول لفظيتها دون ترجمتها كنكتة: «تعرّف عامل عربي، وليكن اسمه باسم حمد، على أجنبي، فعزمه وشرب معه كأساً. رفع الأجنبي كأسه وقال: تشيز. فأجاب العامل: باسم حمد. ثاني يوم حدّث العامل زملاءه عن سهرته مع الأجنبي. فضحكوا عليه قائلين: هو يقول لك «بصحتك»، وأنت تعرّفه على اسمك؟! ولتصحيح

(٤٤) نقلاً عن نجاة قصاب حسن، في جريدة: البعث، عدد ١٩٨٣/٣/٣١.
(٤٥) رحلة مع الظرفاء، ص٢٠٢ - ٢٠٤. في سوريا يقال «بلا قافه».

الخطأ قام العامل بدعوة الأجنبي مرة أخرى، ورفع كأسه وقال: تشيز. فقال الأجنبي: باسم همد!». مثال ثان: «في حياة كل رجل خيبتان كبيرتان: المرة الأولى عندما لا يُوفق في المرة الثانية، والمرة الثانية عندما لا يُوفق في المرة الأولى»[٤٦]. هذه نكتة مترجمة تتلاعب بالألفاظ؛ وإذا صدف أن أحداً لم يلقطها، فذلك لأنها خبيثة، وليس بسبب الترجمة. ومن أمثلة النكتة الآبدة أو العبارة الشاردة، التي أوردها العقاد، هذه اللعبة اللفظية المعبرة: «الأمريكيون أحرار، لأنهم يأخذون حريات كثيرة»[٤٧]. نصل من كل هذا إلى أن النكات اللفظية قد لا تكون قابلة للترجمة وقد تكون. وإذا كانت صعوبة الترجمة تعود إلى خصوصية كل لغة أو كل أسرة لغوية، فإن قابلية الترجمة تعود إلى أن هناك - رغم الخصوصية اللغوية - قاسماً مشتركاً بين جميع اللغات البشرية، بل إن هذه الإمكانية الترجمانية تبرهن على أن لغات البشر ذات بذرة واحدة.

أما نكات الأفكار فهي أكثر شيوعاً من أي نوع آخر، وإمكانية نقلها من لغة إلى أخرى ميسّرة على العموم. هذا يفسّر انتشار عدد كبير من النكات (الفكرية) في جميع أرجاء العالم، لدرجة أنه نادراً ما يعرف بالضبط وبثقة الموطن الأصلي لهذه النكات. بالطبع هناك نكات يُرجّح أنها مقتبسة (أو مترجمة)، نقلتها الشعوب عن بعضها. وإنني أرى أن يسترشد هذا الترجيح بالمقياس الثلاثي التالي: ١ـ بالسبق الزمني مع الاتصال المكاني. ٢ـ بشهرة صاحب النكتة أو ناقلها أو بطلها، مثل ألف ليلة وليلة وجحا. ٣ـ بمدى التطابق شكلاً ومضموناً بين النكات المقارنة. ٤ـ باحتمال تشابه الظروف والخبرات البشرية ضمن الأحداث المختلفة للنكات المعنية.

فيما يلي مثال على تشابه النكات بين العرب والأوربيين، دون أي حكم بالاقتباس أو التوافق الظرفي: ورد في الأغاني: «قال الفرزدق لكثّير: يا أبا صخر، هل أمك كانت ترد البصرة؟ قال: لا، ولكن أبي كان كثيراً

---

(٤٦) هيرش، ص٢٩.

(٤٧) العقاد، ص١١.

يردها»[٤٨]. وذكر ابن أبي الحديد هذه النادرة عن الفرزدق مع غلام من بني فقعس[٤٩]. ونقرأ في كتاب فرويد عن النكتة، أن «أحد الملوك الألمان كان في جولة عبر ربوع مملكته، فانتبه في الجمع إلى رجل كثير الشبه بشخصه الكريم. فأشار إليه بالاقتراب وسأله: هل خدمت أمك يوماً في البلاط؟ فأجاب: لا، يا صاحب الجلالة، إنما أبي»[٥٠]. كذلك نقرؤها لدى هيرش، الذي يشير إلى أن جان باول أوردها في عام ١٨٠٤ باعتبارها رويت في العصر القديم عن قيصر روماني مع غريب[٥١]. والطريف أن مجلة الشبكة نشرت النكتة بصيغة أقرب إلى الرواية الأوربية منها إلى الرواية التراثية العربية: «أفلس أحد الارستقراطيين، فعرض قصره الجميل كأثر سياحي. وصادف يوماً بين السياح رجلاً يشبهه إلى درجة بعيدة. فقال له: أشارط أننا أقارب، هل عملت أمك خادمة في هذا القصر يوماً ما؟ فأجاب الشاب بكل برود: كلا، يا سيدي، ولكن أبي كان طباخاً في هذا القصر!»[٥٢].

مثال آخر عن جحا: «كان في الغرفة العليا من منزله، فطرق بابه طارق، فأطلّ من النافذة، فرأى رجلاً فقال: ماذا تريد؟ قال: انزل إلى تحت لأكلمك. فنزل جحا. فقال الرجل: أنا فقير الحال، أريد حسنة، يا سيدي. فاغتاظ جحا منه، ولكنه كظم غيظه، وقال له: اتبعني. وصعد إلى أعلى البيت والرجل يتبعه. فلما وصل إلى الطابق العلوي، التفت إلى السائل وقال له: الله يعطيك. فأجابه الفقير: ولماذا لم تقل لي ذلك ونحن تحت؟ فقال: وأنت لماذا أنزلتني ولم تقل لي وأنا فوق؟!»[٥٣]. هذه النادرة الجحوية نسبها

(٤٨) عن كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، المجلد التاسع، ص٣٤٢. وفي رواية أخرى، المجلد التاسع، ص٣٤١. وفي رواية ثالثة، المجلد الثامن، ص٩٦.

(٤٩) في شرحه لنهج البلاغة، المجلد الثاني، ص١١١.

(٥٠) النكتة وعلاقتها باللاوعي، ص٥٥.

(٥١) هيرش، ص٧٦.

(٥٢) الشبكة، العدد ١٣٥٢، تاريخ ٨ شباط ١٩٨٢، ص١٠٠.

(٥٣) نوادر جحا الكبرى، المكتبة الأدبية بحلب، ص١٨ (وهو طبعة شعبية متواضعة). لدى عبد الستار فراج، ص١٠٠.

صاحب الفكاهة البلغارية إلى الفنان البلغاري بيشكوف مع جاره الذي أراد أن يستلف منه بعض النقود(٥٤).

مثال ثالث نبدؤه برواية ابن الجوزي: «دعي الأعمش إلى عرس، فنشر فروته ثم جاء. فردّه الحاجب. فرجع فلبس قميصاً وإزاراً وجاء. فلما رآه الحاجب، أذن له..»(٥٥). هذه الحادثة الطريفة تُروى أيضاً كنادرة عن جحا: «دعي يوماً إلى وليمة. فذهب إلى الدعوة بثياب خلقة. فلم يحسن أصحاب الدعوة استقباله ولم يعيروه التفاتاً. فانسحب حالاً من بين المدعوين، وأسرع إلى داره، ولبس أحد ثيابه، وزاد عليها فروة جميلة، ثم عاد إلى بيت الدعوة. فلما رأوه على هذه الحالة، قاموا له وقوفاً، واستقبلوه بالتبجيل والتعظيم، وأعطوه صدر المائدة، وراحوا يضعون أمامه أطيب الأطعمة وأنفسها. فما كان منه إلا أن أخذ بفروته وقال لها: كلي، يا صاحبة الفخر والقدر. قالوا: ماذا تصنع، يا أستاذ؟ قال: إن فروتي تعرف ما لا أعرف، وهي أولى مني بالطعام، ولولاها ما جلست في هذا المكان!»(٥٦). ويبدو أن بعض المجتمعات العربية خلّدت هذه النادرة في مثل شعبي: «كل يا كمي قبل ثمي!»(٥٧). ونطالع شبيه هذه النادرة الجحوية في مجلة الهلال، عن «وجيه انكليزي دخل منزل أحد اللوردات بملابسه العادية، فاضطر إلى المغادرة والعودة ببذلته الرسمية، ثم أخذ يسقيها الشراب»(٥٨). كما نطالع في مجلة العربي نادرة مشابهة عن «أحد قواد الجيش الفرنسي، الذي حضر حفلاً للامبراطورة جوزفين بملابس الصيد، فطلبت هذه منه الذهاب وارتداء بدلة السهرة. وعندما عاد، أخذ يسكب الحساء على بذلته ويقول: مادامت الدعوة للملابس، فهي إذن صاحبة الحق في هذا الطعام!»(٥٩).

(٥٤) الفكاهة البلغارية، ص٨٣. في مقالته: جحا في الشرق والغرب، المنشور في مجلة: الهلال، عدد آب ١٩٤٨، ص١٢٨، يبين كامل الكيلاني مدى تأثر الآداب الفكاهية في العالم بشخصية جحا وكم اقتبست من تراثه.

(٥٥) ابن الجوزي: أخبار الظراف والمتماجنين، دار الحكمة، دمشق ١٩٨٧.

(٥٦) نوادر جحا الكبرى، ص١١. لدى عبد الستار فراج، ص٨٤/ ٨٥.

(٥٧) عوض سعود عوض: دراسات في الفولكلور الفلسطيني، ١٩٨٣، ص١٨٧ - ١٨٩.

(٥٨) مجلة الهلال، عدد آب ١٩٥١، ص٥٨.

(٥٩) مجلة العربي، العدد ١٨٣، شباط ١٩٧٤، ص٥٦/ ٥٧.

من الطريف أن نوادر لمزيد وأبي نواس والجاحظ وهبنقه وأشعب وبهلول وغيرهم من الحمقى والظرفاء العرب تُنحل لجحا العربي، وهذه مع نوادر جحا العربي تُنحل لجحا التركي، وهذه مع نوادر جحا التركي تنحل لدى شعوب أخرى إلى أشخاص مضحكين من مواطنيهم. وممن استفاد من التراث الفكاهي العربي أيضاً اليهود في أوروبا، حيث نقلوا قسماً من هذا التراث باعتباره لهم. «يذكر ابن المعتز في طبقاته أن الناس دأبوا على أن ينسبوا كل شعر فيه اسم ليلى إلى مجنون بني عامر، وكل شعر فيه خمر ومجون إلى أبي نواس. ولو تأخر الزمن قليلاً بابن المعتز، وكان من عامة الناس، لأضاف إلى قوله السابق: وإن كل نادرة فيها تحامق وغرابة ينسبونها إلى جحا»(٦٠). وجحا العربي هو أبو الغصن دجين بن ثابت. وقد ورد ذكره في الرسالة الرستباشية للسيد أبي عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي، حيث يتبين أن جحا هذا كان على ثقافة دينية عميقة، وأنه كان من أتباع الإمام جعفر الصادق. ومما يدل على ثقافته الدينية ما رواه ابن الجوزي عن أبي بكر الكلبي (وكذلك عن عباد بن صهيب) أنه قال: «خرجت مرة من البصرة، فلما قدمت الكوفة، إذا أنا بشيخ جالس في الشمس، فقلت: يا شيخ، أين منزل الحكم؟ فقال لي: وراءك. فرجعت إلى خلفي. فقال: يا سبحان الله! أقول لك وراءك وترجع إلى خلفك؟! أخبرني عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً)، قال: بين أيديهم. فقلت: أبو من؟ قال: أبو الغصن. فقلت: الاسم؟ قال: جحا»(٦١).

بعد هذه المعترضة عن جحا العربي نعود إلى سياق الحديث: نستطيع أن نتابع تقديم العشرات من الأمثلة على النوادر والنكات التي نسمعها في مجتمعات بشرية مختلفة بمضامين وصيغ متفقة إلى حد بعيد. ولا نريد أن

(٦٠) عبد الستار فراج، ص٥. شخصية أشعب تتخذ أيضاً هذه المكانة. في كتاب توفيق الحكيم عنه الكثير من الأمثلة على هذا الانتحال. إحدى النوادر عن عمرو بن نهيوي، ص٣٨، ثانية عن دعبل الخزاعي، ص٦٤، ثالثة لبديع الزمان الهمذاني، ص٧١، رابعة هي قصة مزين بغداد، ص١١٦، خامسة تروى عن ثمامة بن أشرس، ص١٥٦... إلى آخره. انظر أيضاً كتاب: التطفيل لأبي بكر الخطيب البغدادي، مكتبة القدسي، القاهرة ١٩٨٣.

(٦١) أخبار الحمقى، ص٤٤/ ٤٥.

نجزم تلقائياً بالانتحال أو الاقتباس، إنما نلفت النظر إلى هذه التوافقات. ولاشك أن هناك جزءاً كبيراً من النكات المنتشرة في مجتمعات مختلفة يعود تماثلها أو تشابهها إلى التماثل أو التشابه الجزئي في ظروف وتجارب أفراد البشر وجماعاتهم. فتقارب الظروف والتجارب يفرز نكات ونوادر متقاربة. وهذا دليل آخر على وجود قواسم مشتركة بين شعوب الأرض، بل إن هذا التماثل والتشابه غير المقتبس (افتراضاً) بين نكات الشعوب هو دليل على وجود القواسم المشتركة بين الجماعات البشرية المتباعدة مكانياً و/أو زمانياً، وحتى حضارياً. يقول مثل شعبي عربي: «عطوا الحمار وردة، أكلها!»(٦٢). ونقرأ في ديوان للشاعر الألماني فيلهلم بوش(٦٣):

«كان هناك زهيرة جميلة وناعمة/ نصف مفتحة في ضوء الشمس
وكان هناك فراش صغير/ تعلّقت روحه بهذه الزهرة
كثيراً ما جاء نحوّل/ وشرق وغبَّ ووزَّ عندها
كثيراً ما زحف خنفس/ على الزهيرة جيئة وذهابا
يا الله، كم أصاب هذا/ بالألم روح الفراش
لكن اكثر ما اذهله/ شرّ الأمور الذي حدث في الأخير
حمار عجوز التهم تماماً/ معشوقته الزهرة!»

ثمة درجات للحيرة والتردد في الحكم، إن كان التشابه فيها يعود إلى الاقتباس أم إلى تشابه الظروف: نعود إلى جحا التركي: «استصحبه تيمورلنك في أيام الربيع ليشاهد من الجند رمي القوس والنشاب، فقال جحا: إني أتقن رمي القوس والنشاب. فأمره تيمورلنك أن يرمي هو أيضاً. فاعتذر الشيخ، فلم يقبل منه وأجبره على الرمي. فأخذ القوس ورمى الهدف فما أصابه، فقال: هكذا يرمي الرئيس. ثم رمى آخر فأخطأ، فقال: هكذا يرمي الحاكم عندنا. ثم رمى الثالث فأصاب الهدف تماماً، فقال: هكذا أرمي أنا»(٦٤). ونقرأ في مصدر أجنبي: «قدم مريض إلى طبيب أسنان

(٦٢) نقلاً عن سيمون حمصي، ص٤٦.
(٦٣) بوش، المصدر المذكور سابقاً، ص٨.
(٦٤) نوادر جحا وابنه وحماره، مكتبة المهايني، دمشق (بلا تاريخ)، ص٥.

يريد قلع إحدى أسنانه. وأطبق الطبيب على السن بالكماشة، لكنها انفلتت. فقال: شايف، هكذا كانوا يقلعون الأسنان قبل مئة سنة. ثم أطبق ثانية بالكماشة على السن، فكسر قسماً منها، فقال: شايف، هكذا يقلع الأسنان منافسي في الطرف المقابل من الشارع. ثم أطبق مرة ثالثة بالكماشة على السن فقلعها تماماً وقال مفتخراً: شايف، هكذا أقلع أنا الأسنان!»(٦٥). فمع أن خط سير النكتتين واحد، فإن تشابه الظرف مع اختلاف الموضوع إلى جانب أصالة النكتتين يجعلنا نميل إلى ترجيح عدم الاقتباس.

في المثال التالي نرجح الاقتباس أو التأثر: «كانت المناقشات في مجلس العموم البريطاني صارخة صاخبة، فتحمست عضوة في المجلس من حزب العمال، قد أثارها تشرشل ببروده، فقالت له: لو كنت زوجي لوضعت لك السم في الشاي. فرد عليها تشرشل: لو كنت زوجتي، يا سيدتي، لشربت السمّ عن طيب خاطر»(٦٦). وهذه هي النكتة المشابهة: «خسر أحد المحامين قضية لسيدة وكلته بها. وغضبت السيدة، فقالت له بعد أن خرجت من قاعة المحكمة: لو كنت زوجتك لوضعت لك السمّ في الطعام. فرد عليها المحامي: لو كنت زوجك لتناولت السمّ راضياً مسروراً»(٦٧).

الحديث عن الأصالة والتقليد أو الانتحال يطول، خاصة في أدب النكتة. وقد آن الأوان أن ننهي هذا الفصل بوصل حديث قطعناه، وكنا قد قلنا فيه، إن أدب النكتة - بالتعبير الشعبي - مأكول ومذموم. وقد شرحنا الشق الثاني من هذا القول، فبقي أن نستقصي مدى صحة الشق الأول. بلغة اقتصادية، نحن عموماً نستهلك من نتاج أدب النكتة أكثر مما نستهلك من أي جنس أدبي آخر. نحن نعيش مع النكتة، نتبادلها يومياً، وإلى حد ما

(٦٥) رولف سيرياكس: الضحك خير دواء - الطبيب في مرآة الفكاهة، دار دلفين، ميونيخ ١٩٨٣، ص٦٨.

(٦٦) رحلة مع الظرفاء، ص١٥٠. مع بعض الاختصار.

(٦٧) نقلاً عن مجلة: الهلال، عدد شباط ١٩٥٠، ص١١. تروى أيضاً عن السياسي البريطاني لويد جورج مع إحدى النائبات في مجلس العموم البريطاني. انظر الاثنين والدنيا، العدد ٦٨٥، تاريخ ١٩٤٧/٧/٢٨، ص٨.

نحن نؤلفها بقدر ما نعيشها، أو نشارك في تأليفها بقدر ما نشارك في معايشتها. ولأنها تصاغ بالكلمات، إما شفهياً أو كتابياً، فإنها تعيش وتنتعش في الأمية كما في القراءة والكتابة، مما يزيد في شعبيتها ومدى انتشارها. كذلك ولذلك ليست النكتة مدينة بانتشارها لاختراع الطباعة إلا ضمن حدود ضيقة، ذلك لأنها تنتقل بين الناس كالإشاعة. يأتيك شخص من المعارف ويقول لك ببساطة: هل سمعت آخر نكتة؟ ثم يرويها لك، دون أن ينتظر ردّك، وأنت من بعد ترويها لغيرك، وهكذا. وإذا كانت النكتة تمسّ محرمات، وخاصة السياسية، فإن الثقة بين ناقل النكتة ومتلقيها شرط لروايتها. لكن - وهذا هو الطريف في الأمر - في النهاية تصل هذه النكتة المحرّمة إلى الجميع، بمن فيهم الأشخاص المستهدفون، دون أن يتحمل شخص معين تبعات هذا الخرق للمحرم السياسي، إلا في حالات استثنائية:

«فيما كان فرانكو يحتضر أفاق من غيبوبة، فسمع ضجة. سأل عن مصدر الضجة، فقيل له: إنه الشعب، يريد أن يودّعك. فقال: وإلى أين هو مسافر؟». هكذا تُتخذ النكتة (كالإشاعة) وسيلة إعلامية دعاوية، شعبية عفوية، أسرع من الصحافة، وربما من التلفاز، في نشر الرأي المصاغ نكتياً. و- في كل الأحوال - أكثر حرية: «ما هو الفرق بين المسيحية والشيوعية؟ - المسيحية تعظ بالفقر، أما الشيوعية فتحققه»[٦٨]. حول انتخاب رونالد ريغن رئيساً للولايات المتحدة، كان بعض الناس يتندرون قائلين: «إن أمريكا بعد مآسي رؤسائها منذ منتصف الستينات حتى منتصف السبعينات لم تجد رئيساً يمثلها فجاءت بممثل محترف يمثل دور الرئيس!»[٦٩].

النكتة إذن هي أكثر مادة أدبية مستهلكة. في ذات الوقت - وهذا هو الوجه الآخر للعملة - يقدم لنا أدب النكتة من الخدمات أو يلبي من الحاجات أكثر مما يفعل غيره من أنواع الأدب. فلم تترك النكتة باباً إلا

(٦٨) هيرش، ص١١٨.

(٦٩) محمد حسنين هيكل: زيارة جديدة للتاريخ، شركة المطبوعات، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ص٣٨٦.

وطرقتـه، ولا موضوعاً إلا تناولته، ولا اعوجاجاً إلا بيّنته، ولا سراً إلا فضحته: «دخل رجل على سليمان بن عبد الملك، وكان سليمان أول من أخذ الجار بالجار، وعلى رأس سليمان وصيفة رُوقه ﴿حسنة﴾، فنظر إليها الرجل، فقال له سليمان: أتعجبك؟ قال: بارك الله لأمير المؤمنين فيها. فقال: أخبرني بسبعة أمثال قيلت في الإست وهي لك. فقال الرجل: إست البائن أعلم. قال سليمان: واحد. قال: صرّ عليه الغزو إستَه. قال سليمان: اثنان. قال: إستٌ لم تُعوّد المِجمَر. قال سليمان: ثلاثة. قال: إست المَسْؤُول أضيق. قال سليمان: أربعة. قال: الحرّ يُعطى والعبد يألم إستُه. قال سليمان: خمسة. قال الرجل: إستي أخبثي. قال سليمان: ستة. قال: لا ماءك أبقيتِ ولا حرّك أنقيتِ. قال سليمان: ليس هذا في هذا. قال: بلى، أخذتُ الجار بالجار، كما يأخذ أمير المؤمنين. قال: خذها، لا بارك الله لك فيها!»(٧٠).

النكتة دائماً عند الباب، تنتظر من يطلبها لتضحكه فيما تدسّ له العبرة. وما من أدب أو فن آخر يملك مثل هذه القدرة التعليمية الترفيهية. فهي تعبير هزلي صادق عن حياتنا وواقعنا. هي بنت الحياة. يكفي أن يرصد المرء حياته ومعايشاته كي يسجّل عشرات النكات والنوادر مما يقع له أو لمن حوله. لابد أننا جميعاً عشنا الكثير من النكات التي أضحكتنا على أنفسنا أو على مَن حولنا، أو أضحكت علينا الآخرين. من جهتي أستطيع أن أروي مجموعة من الوقائع المضحكة في حياتي وحياة أقربائي وأصدقائي ومعارفي: حدثني أحد الأصدقاء أن «مديرية الهاتف باللاذقية وصلها مرة جهاز حديث ومعه خبير فرنسي. وكان هذا الخبير يضع قرطاً في أذنه. وفيما كان الخبير يدرّب العناصر السورية، كان هؤلاء يضحكون. سأل عن السبب، فقال له المترجم: يقولون إنه عيب أن يلبس رجل قرطاً في أذنه. فردّ الخبير: قل لهم، أليس عيباً أن يدربكم رجل يلبس قرطاً في أذنه؟!». مثال آخر شهده كثيرون: «في برنامج طريق النجوم سألت المذيعة أحد الهواة المتبارين، ما إذا كان على معرفة بالنوطة الموسيقية، فأجاب

(٧٠) مجمع الأمثال للميداني، الجزء الأول، ص٤٠٥. أخذ الجار بالجار يعني مساءلة شخص على ذنب اقترفه جاره.

بالنفي. قالت له: اسمع، ربما تعرف. أجاب: أنا واثق بأنني لن أعرف. فعلّقت المذيعة: الثقة بالنفس مليحة!». مثال ثالث: «في أحد المستشفيات سأل ريفي عجوز مريضاً آخر: ما هي العملية التي أجريت لك؟ فأجاب: شالوا لي البحصة. فقال العجوز: والله، لو كان الأمر لي لتركتك تموت ولا عملت لك العملية!. سأله المريض مستغرباً: ليش؟! قال: شو صغير أنت، حتى تبلع بحص؟!».

أنا شخصياً أرجّح أن النكتة المتداولة هي بالدرجة الرئيسية تجريد أو تعميم أو موضعة للنكتة المعاشة أو النادرة، حيث تصبح النكتة المعاشة متداولة بين يدي العموم بعد أن يجري استبدال الأشخاص المعنيين بأناس غير محددين وبعد حذف الزمان والمكان المحدَّدين في النكتة المعاشة، أو - على الأقل - تغييرها بالشكل الملائم لنقل النكتة المعاشة أو النادرة من صعيد الواقع إلى صعيد الأدب، إلى هذا الحد أو ذاك من الأمانة، أو إلى هذا الحد أو ذاك من إعادة التكوين. أما التأليف في النكتة على أساس مغاير لذلك، أي بدون نقل للنادرة أو الحادثة الطريفة من صعيد الواقع إلى صعيد الأدب، فنادر وصعب، إذا أراده المرء أدباً حقيقياً، أو هو مهدد بالسماجة والتفاهة من شاكلة: «واحد تزوج صينية، حطها بالفرن» و«أحول ماتت عمته، فبكي على خالته»[٧١]. أو في كل الأحوال يسود فيه العنصر الإضحاكي على حساب العنصر العبراتي، كما في نكات القافية والحزازير والفيل والنملة. هنا لا نعود نتحدث عن «أدب النكتة» بل عن «تسلية النكتة». يذكرني هذا بصديق أتعب ذهنه في تأليف نكات، فكان أفضل ما خرج معه: «سأل أحدهم صديقاً له: ماذا تسمّي شخصاً أمضى ساعتين في البوس؟ - ساعتين بوس وبس؟ - ساعتين بوس وبسّ! - أسميه: البائس».

لذلك أرى أن تُستخدم عبارة «مبدع النكتة» بتحفظ، لأن الإبداع هنا يختلف عنه في بقية الأجناس الأدبية والفنية. هنا الحدود ليست محددة تماماً بين المبدع والراوي، أو - على الأقل - لا نلقى التراتب بينهما كالذي

(٧١) الشبكة، العدد ١٢٨٩، تاريخ ٢٤/١١/١٩٨٠، ص٦٩.

نعرفه مثلاً بين الشاعر وراوي الشعر. من هنا ندرك صواب مصطلح «النكتي» المستخدم في اللغة الدارجة، فهو يعبّر عن مفهوم متوسط بين المبدع والراوي ويناسب تماماً أدب النكتة.

غير أن المهم ليس فقط كون النكتة تنقل شيئاً من حياتنا وواقعنا، بل كونها أيضاً تعبّر عن هذه الحياة وعن هذا الواقع. فهي، إلى حد بعيد، تؤرخ في كل مرحلة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والأخلاقية، وتواكب تطوراتها. لذلك ترى بعض النكات تموت بعد فترة قصيرة، كأن تكون أسيرة لحظتها التاريخية، بينما يبقى البعض الآخر متداولاً بهذا القدر أو ذاك لفترة أطول، كما هو أو مع شيء من التعديل. وهناك نكات تختفي زمناً ثم تعود. من العوامل التي تتحكم بذلك: مدى تعبير النكتة المعنية عن المرحلة أو الحالة الراهنة، أو بالأحرى: مدى انحصارها بها. قال أحدهم لأبي العتاهية: القرآن عندك مخلوق أم غير مخلوق؟ فقال: أسألتني عن الله أم عن غير الله؟ قال: عن غير الله. فأمسك أبو العتاهية. وأعاد عليه فأجابه هذا الجواب، حتى فعل ذلك مراراً. فقال له: ما لك لا تجيبني؟! قال: لقد أجبتك ولكنك حمار!»[٧٢].

إلى جانب ذلك، لا ننسى أن عامل الملل والرغبة في الجديد – وهذا من طبيعة الإنسان – يلعب دوراً هاماً هنا. من يروي نكتة معروفة للآخرين يخاطر بأن لا يلقى الضحك أو الابتسام المنتظر، بل أن يسمع من يقول له: قديمة، هات غيرها!.. إذن، حتى لو كانت النكتة تعبّر عن الواقع الراهن أو المرحلة الراهنة، فإنها قد تختفي بعد فترة بتأثير عامل الملل والرغبة في الجديد. هذا هو مثلاً حال نكتة سمعتها في النصف الثاني من السبعينات، وهي تعبّر عن أزمة السكن التي مازالت على وضعها تقريباً: «أحد المواطنين عثر على فانوس سحري. فركه، فطلع له عفريت ضخم، اللهم تعافينا. قال له العفريت: شبيك لبيك، عبدك بين ايديك، اطلب ما تريد! قال له المواطن: أريد بيت سكن. فقال له العفريت بصوت ذليل: لو كنت أستطيع تأمين البيوت، لما

(٧٢) الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، الجزء الرابع، ص٨.

رأيتني أسكن في فانوس». إن زوال النكتة بزوال أساسها الاجتماعي الاقتصادي، أو - عموماً - بزوال الباعث لها، أو - في كل الأحوال - بحكم الملل الطبيعي في النفس البشرية، يستدعي كحقيقة واقعة فور التداول أو السماع تسجيلها، ليس فقط بداعي قيمتها الأدبية والفنية، أي عبرتها وقدرتها الإضحاكية، بل أيضاً تقديراً لقيمتها التاريخية وحتى المعرفية:

حدث عندما بدأت ثورة اكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية في روسيا ضد القيصرية، أن عرضت إحدى الصحف التركية على المكتوبجي (وهو رقيب الصحافة) خبراً عن الثورة، فوجده يحوي كل الكلمات التي تحرّمها لائحة المطبوعات (من عهد السلطان عبد الحميد) مثل «الدستور والحرية والظلم والطغيان»، فشطبها جميعاً، ولم يبق من الخبر سوى سطر واحد نشرته الصحيفة في اليوم التالي، وكان نصّه: حدثت أمس مشاجرة في روسيا!»[٧٣]. كتب سومرست موم في سيرته: «وكانت أمي تعاني من السلّ الرئوي، وإنني لأتذكر قافلة الحمير التي كانت تقف في بابنا لتمدّنا بلبن الحمير، الذي ساد الاعتقاد في ذلك الوقت أنه يصلح لمجابهة هذا المرض»[٧٤]. نكتة سمعتها وسجلتها في وقتها: «إبان حرب الخليج في شباط ١٩٩١ زار أمير الكويت انكلترا، فقدّمت له عروض لبناء محطات كهربائية. أجابهم الأمير: لسنا بحاجة إليها، فمحطاتنا مازالت سليمة. فقالوا له: سوف ندمرها!».

حقاً إن عامل الملل يتبعه ويقابله عامل النسيان، بحيث أننا قد نسرّ باستعادة نكتة قديمة منسيّة. لكن، ليس هناك ما يكفل أن هذه النكتة المنسية لن تمحى تماماً من الذاكرة الشعبية، وأن تصبح بالتالي غير قابلة للاستعادة. وإذا كان تسجيل النكات الشفهية ضرورياً لحماية هذه الثروة الأدبية، فإن النكتة الشفهية ذاتها ضرورة ثقافية فاعلة على مستوى

(٧٣) صلاح عيسى: هوامش المقريزي، حكايات من مصر - المجموعة الثانية، القاهرة ١٩٨٣، ص١٧٩.

(٧٤) عصارة الأيام، مصدر مذكور سابقاً، ص٢٦.



الشعب، طالما - من بين الأسباب - بقيت وسائل الإعلام في الوطن العربي بعيدة عن أن تعبّر عن مواطني هذه البلدان، وعن أن يعبر هؤلاء عن أنفسهم من خلالها. هكذا تماماً كما تخبرنا هذه النكتة الجزائرية: « مواطن اشترى كيلو سمك ولفّه بجريدة. في الطريق تشتشت الجريدة وسقطت السمكات منها. فغضب وجعل يسبّ الجريدة (وهو القائل): دين باباك لدين اللي خدمك، اش حال تحملي من كيلو كذب ما تحمليش كيلو سردين؟!» (بالفصحى: دين أبيك لدين الذي سواك، كيف تحملين كذا كيلو كذب ولا تحملين كيلو سمك؟!).

بخصوص النكتة كجنس أدبي بقيت نقطة أراها جديرة بالبحث، من حيث أن النكتة تتميز بها عن باقي الأجناس الأدبية، أو على الأقل أكثر منها، وهي: تعلّق تقييم نكتة معينة بنوعية المتلقين بها. وهو تقييم يتراوح ببساطة بين القبول الضاحك والرفض المستنكر، لا بمقياس التواطؤ بين صاحب النكتة ومتلقيها، ولا بتأثير الحكم المسبق ضد شعبية النكتة وعاميتها، كما بيّنا سابقاً، بل بالمقياس الثقافي الأدبي، أو - لنقل! - بمقياس الذوق الأدبي. يتأثر هذا المقياس بعدة عوامل: أولها الانتماء الحضاري والأقوامي، ثانيها الانتماء الطبقي والفئوي، ثالثها المستوى الثقافي والتعليمي، رابعها فئة السن، خامسها نوع الجنس (ذكوري أم أنثوي). ومما قرأته بهذا الصدد: «وقد كان آباؤنا يتطلبون من الفكاهة أكثر مما نتطلب نحن، كانوا يحبونها حرّيفة قاسية لاذعة تفجر الضحك تفجيراً. وكان لا يعنيهم أن الفكاهة تؤلم بل تدمي بعض الناس، إذ أن المهم عندهم كان الضحك في ذاته ولو على حساب الآخرين. وإذا أنت رجعت إلى مجلات الفكاهة التي ازدهرت في بلادنا في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، لعجبت مما تتضمنه من جرأة تصل إلى حد الإفحاش في بعض الأحيان، لأن ذوقنا فيما نحسب قد انصقل اليوم إلى حدّ ما، ولم نعد نقبل هذا اللون الأليم من الفكاهة... والغريب أن هذه المجلات كانت تلقى رواجاً عظيماً، فمجلة «السيف» مثلاً كان يصل توزيعها إلى خمسين ألفاً، ويقال إن «البعكوكة» وصلت إلى مئة ألف، وذلك أمر غير مستبعد»(٧٥).

(٧٥) العالم يضحك، في مجلة: الهلال، حزيران ١٩٧٨، ص١١٧ - ١٢٠.

وأنا أرى أنه يمكن توسيع إطار هذا الحديث، فلا يقتصر على الفكاهة المؤلمة، بل يشمل أيضاً الفكاهة المقزّزة التي يقف فيها شعور الإنسان العربي الحالي بالقرف معاكساً للمفارقة النكتية إلى درجة إلغاء الضحك، كما في هذا المثال الذي ينافي ذوقنا الفكاهي الآن مع أنه كان يُضحك أجدادنا المباشرين (فعذراً من القرّاء): «يوم من الأيام تصادف حسن الطفران مع ابراهيم أفندي، وكان ابراهيم أفندي مكشّر ومادد بوزو هل طول طولو. فقال له حسن: شو باك باين مكشّر؟ ـ اتركني معدتي عم توجعني. ـ ليش معدتك عم توجعك؟ ـ والله جابولي اليوم جاط قشطة، فحطيت فوقه شوية سكر وشوية سمنة وجبت أربع خمس أرغفة ونزلت فيهم معك، لهل سبب حاسس هلأ ان معدتي عم تشاشي وبدي استفرغ. أما حسن هلي كان محروق قلبه من أكل خبز الترمس الحاف، اقترب من ابراهيم أفندي ومدّ له فمه وقال: يعني بقا عاوز تستفرغ؟ ـ اي والله. ـ اعمل معروف استفرغ بفمي، وأنا بكون ممنون إلك كتير!»[٧٦].

* * *

نصل مما سبق إلى أن النكتة جنس من أجناس الأدب الهزلي، تحتل مكاناً مرموقاً في الأدب الشعبي، وخاصة الشفهي منه. فمن ناحية يساهم عامة الناس باستمرار بابداع النكات. ومن ناحية أخرى يرغبون بها كاستهلاك ثقافي يومي، لا يعوّضه أي جنس أدبي آخر. فهي تعبّر بصدق عن حياتهم، وبشكل سهل ومأمون عن أهوائهم وهواجسهم، إلى جانب تلبية حاجة الضحك لديهم. وقد كان للنكتة مقام رفيع في تراثنا الأدبي، وهي تؤلف العنصر الأساسي في كثير من أمثالنا العربية الفصحى والعامية، أي الأمثال الضاحكة. خلافاً لذلك لا تلقى النكتة في الأدب المثقفاتي المعاصر ذلك الاهتمام والتقدير، وإن كان هذا الأدب ينهل من معينها باستمرار، موظفاً إياها في إبداعاته المختلفة من قصة ورواية ومسرح وشعر. كما يقوم على النكتة أحد فنون الرسم، وهو المسمى «كاريكاتير».

---

(٧٦) المضحك المبكي، العدد ١٦٨، تاريخ ١٩٣٣/٥/٦، ص٩.

النكتة مادة ثمينة لأنها مضحكة. لكنها سريعة الفساد مع الزمن، لأنها تخضع لعامل الملل ورغبة التجديد في النفس البشرية. إلى جانب ذلك تتميز النكتة بأنها كاللدينة يمكن تصنيعها بحسب الطلب. هذا يعني: دمجها أو تضمينها في أجناس أدبية أخرى، أو توظيفها في هذه الأجناس، أو الحصول عليها خالصة دون شائبة. وتتخذ النكتة الخالصة أو البحتة عدة أشكال، فمنها: النكتة العادية، نكتة الحزورة، الحزورة النكتية، القفشة أو البسمار، نكتة القافية، إلى جانب المثل الضاحك والأقوال اللاذعة والسدّات.. هذا من حيث تجلياتها أو ظهوراتها. أما من حيث المحتوى فيجري عادة التمييز بين نوعين رئيسيين من النكات: نكتة الألفاظ ونكتة الأفكار. وتذكر بعض المصادر نوعاً ثالثاً، يطلق عليه «نكتة الأوضاع». وربما يصحّ أن نضيف نوعاً رابعاً، وهو النكتة الحواسية، السمعية أو البصرية. وهي نكتة شفهية، تظهر جماليتها من خلال المؤشر السمعي أو البصري للراوي (تنغيم الكلام أو إرفاقه بحركات معينة). أخيراً، من حيث الأصل أو المنشأ، نميز بين النكتة المتأتية عن المعايشة بعد تجريدها وتعميمها، والنكتة المبتدعة تماماً. وقلنا إن النكتة المتأتية عن المعايشة هي الأجمل، دون أن ننفي عن المبتدعة حداً أدنى من الارتباط بالواقع المعاش. وقد أثار انتباهنا تشابه كثير من النكات فيما بين البلدان والشعوب، الأمر الذي عزيناه: إما إلى الاقتباس، أي انتقال النكتة من شعب إلى آخر أو من بلد إلى آخر كانتقال الحكايات والأساطير، وهي أسهل وأسرع في النقل، أو إلى أن تماثل أو تشابه الظروف والتجارب البشرية ينتج نكات متشابهة.

الفصل الثالث

بنية النكتة وتفانينها

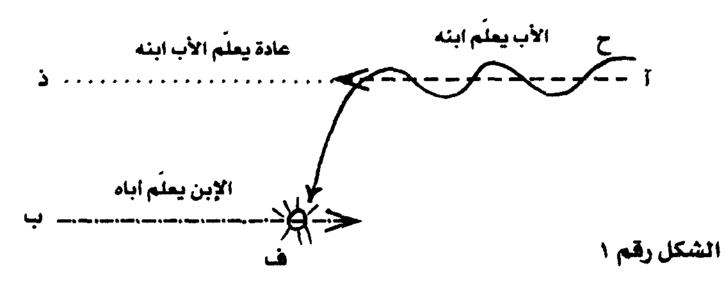
قلنا فيما سبق، إن النكتة حديث عن طرفين غير مرتبطين (متوازيين) ينتقل فجأة من الطرف المألوف والاعتيادي إلى طرف استثنائي مجهول وغير متوقع، فيثير اللقاء في المتلقي وعياً مضحكاً بالمفارقة من خلال المتعة التعويضية التي يمنحها له. تروى نكتة عن أستاذ الرياضيات في العربية السعودية، بأنه يقول لطلبته: «الخطان المتوازيان لا يلتقيان، إلا بإذن الله، وإذا التقيا، فلا حول ولا قوة إلا بالله». هذا يعني، أنه بإلغاء قانون عدم التقاء المتوازيين، تتزلزل الأرض، يتحطم الكون. في النكتة أيضاً يلتقي المتوازيان، لكن الأرض لا تتزلزل، والكون لا يتحطم، بل تتحطم القوانين والمقاييس، ويتزلزل المستمع ضحكاً.

كذلك تحدثنا سابقاً عن نمط الإضحاك في النكتة، عن البنية العامة تحديداً. غير أن هذه البنية العامة تحتوي على تنويعات كثيرة تعبّر عن البنى الأساسية للنكتة، وتتضمن أنماط التنكيت. ونلاحظ أن هذه البنى أو الأنماط لا تتطابق بالضرورة مع تفانين النكتة أو تقنياتها، أي مع الوسائل التي يستخدمها الراوي بغاية إضحاك المستمع. وقد تتطابق، فيصعب التفريق بينهما. في الأحوال العادية لكل نمط أكثر من وسيلة إضحاكية واحدة، في حين لا تتواجد الوسيلة الواحدة إلا في نمط إضحاكي واحد

محدد. فالنمط يستوعب الوسيلة، بينما الوسيلة تتدرج في البنية. من جهة أخرى، نتعرف من تشريح البنية إلى كيفية التقاء خطي الحدث في النكتة، من منظار موضوعي. أما من خلال تبيان الوسيلة، فندرك كيفية توجيه المبدع أو الراوي للمتلقي على الخط الظاهري من أجل مفاجأته عند الالتقاء بالخط الموازي (الباطني أو المستور) لحدث النكتة. بتعبير آخر: إذا كنا في دراستنا لنماذج المفارقة (أنماط النكتة) نبحث عن مستوى قطبي المفارقة واتجاههما والتقائهما، فإننا لدى دراسة تفانين النكتة نسأل عن نوعية المفارقة نفسها من حيث مكمن الإضحاك فيها، أي عن شكل تحققها لدى المتلقي. هذا الكلام النظري، الذي يبدو التباسياً، يسهل فهمه من خلال استعراضنا لما رصدناه من بنى وتفانين رئيسية للنكتة، مع أمثلة توضيحية عنها.

١ـ نمط أول للبنية النكتية ـ تبادل الأدوار

وهو انتقال الحديث أو الحدث في مساره من المستوى الاعتيادي الجاري (الظاهر) مباشرة إلى المستوى الاستثنائي الموازي (المستتر). مثال ذلك نكتة عصفور الدوري التي سبق ذكرها والتي يمكن أن نمثّلها بالشكل التوضيحي التالي:



الشكل رقم ١

وذلك باعتبار أن المستوى المخطط آ هو المستوى الاعتيادي، وأن الخط المخطط المنقوط ب هو المستوى الاستثنائي، وأن حرف ح يرمز إلى حركة الحدث. فيسير الحدث على المستوى آ، حيث يعلّم الأب ابنه، ثم فجأة ينتقل نزولاً إلى المستوى ب الذي يجهله المستمع ولا يتوقعه، حيث يعلم الابن أباه، ليثير فرقعة الضحك عند نقطة الالتقاء ف. فإذا اعتبرنا أن المسار آ هو الطريحة، فإن المسار ب هو نقيضها. بذلك تكون الطريحة قد تحولت إلى نقيضها، في نظر النكتة.

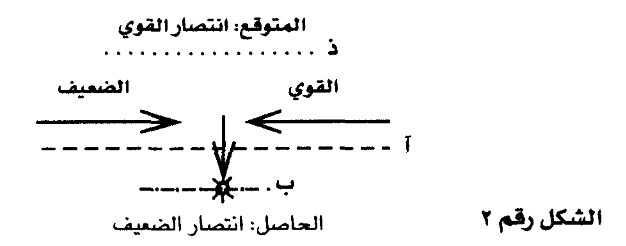
هذه هي حالة تبادل الأدوار بين النقائض: رجل/ امرأة، إنسان/ حيوان، راشد/ طفل، أب/ ابن، إلى آخره، أي بين طرفي أو شخصي المفارقة، بحيث أن الجانب الأضعف أو الأدنى يأخذ مكان الجانب الأقوى أو الأعلى؛ أو بالعكس، أن يأخذ الجانب الأقوى أو الأعلى مكان الجانب الأضعف أو الأدنى: «ذهب طفل مع أمه إلى حديقة الحيوانات، وبينما كانا يشاهدان الغوريلا في القفص، قال الطفل لأمه: انظري، يا ماما، إنه يشبه أبي كثيراً. فعبست الأم في وجه طفلها وأمرته بالسكوت عن الكلام. وهنا

اقترب الطفل من أذن أمه وقال لها هامساً: شو يعني، خايفه يسمعنا القرد؟»[1]. في حال تبادل الأدوار بين الرجل والمرأة، وإذا أخذ الرجل دور المرأة، نضحك عليه لهذا «الانحدار» (كما هو مفترض في مجتمع ذكوري العصبية). أما إذا أخذت المرأة دور الرجل، فإننا نضحك على الرجل الذي تفوقت المرأة عليه. ولا نضحك على المرأة، إلا إذا أساءت لعب الدور الذكوري. وهذا مكمن ضحك آخر.

يضم هذا النموذج أيضاً مجموعة النكات التي يتغلب فيها الضدّ الأضعف على الضد القوي، ومنها نكات المقالب وقصص الشطار وكيد النساء وما إلى ذلك: «ضبط هارون الرشيد أبا نواس في حالة سكر وعربدة مع غلمان، فقال له: يا أبا نواس، قد استخرت الله تعالى ووليتك قاضي المعرّصين. فقال أبو نواس: هل تحب لي هذه الولاية، يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك دعوة تدّعيها عندي؟»[2]. عموماً، التقاء الأضداد بحد ذاته طريف، مثل اجتماع لوريل وهاردي، الفيل والنملة، عنترة وشيبوب، السلطان والمهرج.. في مثل هذه اللقاءات، من الطبيعي أن يتغلب القوي على الضعيف، والغني على الفقير، والكبير على الصغير.. الخ، لكن أن تنعكس الآية، كما في نادرة الرشيد وأبي نواس، ويتغلب الضعيف على القوي، فهذا غير طبيعي أو غير مألوف. وإذا أقنعنا المبدع بذلك، من خلال أن الضعيف مثلاً أذكى من القوي أو أرشق أو بحكم المصادفة، فإنه يسرّنا ويفرحنا. ويكون إقناعه قبل كل شيء، بجعلنا ننحاز إلى جانب الضعيف، إضافة للإقناع الأدبي أو الفني. في بعض النكات نضحك لمجرد تصور الضعيف يتغلب على القوي، حتى لو كنا واثقين من لاواقعية هذه الحالة، مثل بعض نكات الفيل والنملة. ويمكن أن نصور نكات هذه المجموعة بالشكل التالي:

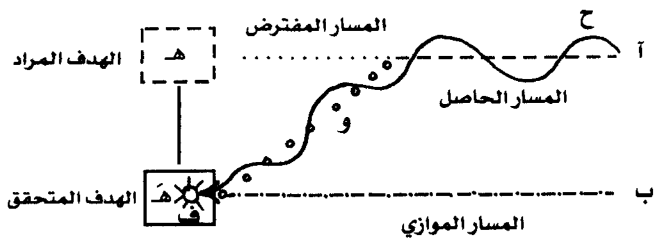
(١) نقلاً عن: المضحك المبكي، العدد ١٠٠٦، تاريخ ٢٨ تشرين الأول ١٩٦٢، ص٢٣. روتها أيضاً: الشبكة، العدد ١٣٥٠، تاريخ ٢٤ كانون الثاني ١٩٨٢، ص٩٦. وكذلك مجلة: الموعد، العدد ١١٠٩، تاريخ ٢٦ أيار ١٩٨٤، ص٦٠.

(٢) ألف ليلة وليلة، المجلد الثالث من طبعة البابي الحلبي بالقاهرة، ص٢٦٤.



الشكل رقم ٢

المجموعة الثالثة التي تتدرج في هذه البنية هي نكات الخيبة، حيث الغاية تخطئها الوسيلة، أو الوسيلة لا تودي إلى المقصود: «كان إعرابي قبيح طويل خطب امرأة. فقيل له: أي ضرب تريدها؟ قال: أريدها قصيرة جميلة، فيأتي ولدها في جمالها وطولي. فتزوجها على تلك الصفة، فجاء ولدها في قصرها وقبحه»[٣]. هنا تدخّل القدر لحرف السبيل عن الهدف المأمول، فأوصل الإعرابي إلى عكس المطلوب. وقد يكون ذلك بالحديث أو بالسلوك، أي بالكلام أو بالأفعال. وتدخل هذه النكات في باب الحماقة والغشمنة، وفي حالات في باب الغرور والطمع، وربما أيضاً في باب سوء الحظ والمصادفة. والرسمة التالية تعبر عن هذه الحالات:



الشكل رقم ٣

هناك مجموعة نكتية رابعة تخضع لهذه البنية هي نكات اللعب بالألفاظ، تحديداً: استغلال ازدواجية معنى الكلمات، معنى حقيقي ومعنى

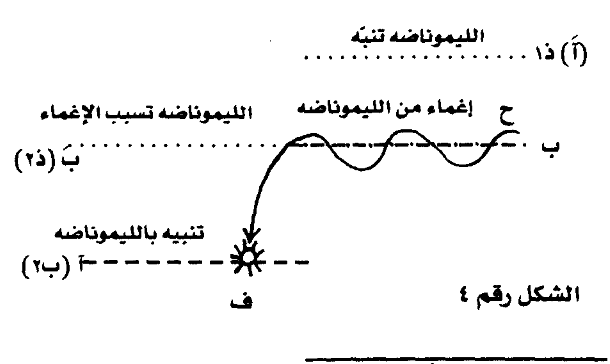
(٣) طبائع النساء لابن عبد ربه، تحقيق محمد سليم، مكتبة القرآن، القاهرة ١٩٨٥، ص٨٣. تروى نكتة مشابهة عن برنارد شو مع الممثلة غريتا غاربو، في مجلة: تسالي الكبار، العدد ٢٦٥، ص٢٠.

مجازي. من خلال اللعب على هذين الحبلين، هذين المعنيين اللذين لا يجمع بينهما سوى اللفظ، تتم عملية الإضحاك، حيث يُعطي في الخاتمة للكلمة معناها الأبعد الذي لا يتوقعه المستمع. وكثيراً ما تُستخدم هذه الوسيلة الإضحاكية في نكات «المسامير» أو «القفشات»، كما بيّنا من قبل، حيث - بالتعبير العامي - «يؤنجل» الناس على بعضهم، أي يهجون بعضهم مزاحاً. ويسمي العامة عملية إعطاء معنى مبطّن للكلمة (يلطي وراء المعنى الظاهر) «معناية» الكلام. هذا الاسم مشتق من فعل «معنى يمعني»، أي أعطى الكلام معنى آخر غير معناه الظاهر أو المألوف. طبعاً، الهزل بالكلام الممعنى أوسع من اللعب على حبلي المعنيين الحقيقي والمجازي للكلمة، إذ يشمل أيضاً ازدواجية معاني التعبيرات والجمل وما إلى ذلك: «كان للمرحوم حافظ ابراهيم جماعة من الأصحاب اعتادوا زيارته في أوقات غير مناسبة. وفي صباح أحد الأيام ذهبوا إليه في ساعة مبكرة، فقابلهم وهو يلبس القبقاب. فقال أحدهم معاتباً: بقا يصح، يا بيه، تنزل تقابلنا وأنت لابس القبقاب؟! فقال حافظ بك على الفور: لو كنت عارف أنكم أنتم، كنت نزلت لكم بالجزمة!»(٤).

(٤) عن مجلة: المضحك المبكي، العدد ١٠٤٦، تاريخ ١٩٦٣/١١/٢٤، ص٢٦.

٢ـ النمط الثاني ـ القياس على الخطأ

يتحقق بالانتقال من المستوى الاستثنائي الجاري إلى المستوى الاعتيادي الموازي. للوهلة الأولى تبدو هذه التفنينة مناقضة لما ذكرناه عن النمط العام، لكن التحليل سوف يزيل هذا التناقض الظاهري. لنعط قبلئذ مثالاً على هذه الإمكانية في الإضحاك النكتي، وهو نكتة عصير الليمون: «راهن أحدهم أنه يستطيع أن يشرب كمية كذا من عصير الليمون (الليموناضه). فأخذ يشرب ويشرب من العصير حتى أغمي عليه. تجمع الناس حوله. وفي هذه الأثناء مرت عجوز فقالت لهم: اسقوه كاس ليموناضه!»[٥]. فالحدث يجري في هذه النكتة على مستوى غير اعتيادي، وهو أن يغمى على الرجل من الليموناضه، ثم فجأة ينتهي المسار بشكل غير متوقع في مستوى اعتيادي هو مداواة الرجل بالليموناضه. ومع أن المداواة صحيحة في الحالات العادية، فنحن نضحك لأن الليموناضه كانت في هذه الحالة الاستثنائية هي الداء. لقد أصبح الداء هو الدواء، أو: أصبحت النتيجة هي السبب. ويتميز هذا النموذج في أن التابع والمتبوع يتبادلان فيه المواقع. ونلاحظ أن هذه النكتة، وجميع أمثالها التي تجري على مستوى استثنائي، تفترض وجود مستوى اعتيادي مضمر (في الذهن)، وهو هنا: الليموناضه تنشّط الجملة العصبية. ويمكن أن نمثّل ما قلناه على الشكل التالي:



(٥) منشورة أيضاً في: أسامة، العدد ١٥، تاريخ ١٩٦٩/٩/١، ص٢.

لدى المقارنة الذهنية بين المستوى الاستثنائي الجاري ب والمستوى المضمر ذ١ الذي هو في الحقيقة مستوى اعتيادي (أو طبيعي)، نكتشف طرافة أن يغمى على الرجل من الليموناضه، نبشّ لها، ولكن لا نضحك، لأنه ليس هناك تقاطع بين المستويين. فالنكتة مازالت مفتوحة، لم تجد بعد قفلتها. بالتالي يمكن أن نستنتج أن النكات التي تجري على مستوى استثنائي هي ذات قوة إضحاكية إضافية. وتتم القفلة بانتقال المسار ح إلى المستوى الموازي آ، حيث تعود الليموناضه إلى وظيفتها العادية كدواء. ومع أن هذا شيء طبيعي، فهو في حياة هذه النكتة استثنائي ب٢، لأنه يخالف ما أوهمتنا به النكتة وتأقلمنا معه كحقيقة ثابتة، وهو أن الليموناضه تسبب الإغماء.

يضم هذا النموذج النكات التي تقوم على المنطق المقلوب، أي التصرف المنطقي تجاه واقعة غير منطقية أصلاً. كذلك يضمّ النكات التي تعقّل اللامعقول وتوقعن اللاواقعي، وذلك باعتبارها ضمنياً الخطأ صحيحاً والوهم واقعاً ثم البناء الصحيح على هذا الأساس الخاطئ. بصورة عامة نستطيع أن نطلق على هذه الطريقة اسم «القياس على الخطأ»، أو تجاوزاً «القياس الصحيح على الخطأ». مثال ذلك: «سأل رجل عمر بن فنن عن الحصاة من حصى المسجد يجدها الإنسان في ثوبه أو خفّه أو جبته. قال له: ارم بها. فقال الرجل: زعموا أنها تصيح حتى تردّ إلى المسجد. قال: دعها تصيح حتى ينشق حلقها. قال الرجل: أولها حلق؟ قال: فمن أين تصيح؟»[٦]. من الواضح أن القياس على الخطأ خدم في هذه النادرة الكشف عن الخطأ إياه، فكان له دور تنويري ضمن القصة نفسها. أما المستمع إلى نكات هذه المجموعة فينال على الدوام العبرة (التنويرية) وهو يضحك: «رأى شرطي أجدب يصعد في سيارة طريقاً جبلية وعرة بصورة تواسية (القهقرى: أناريبه)، فسأله: لماذا تصعد الجبل أناريبه؟! أجاب: أخاف أن لا أجد مكاناً أدوّر فيه هناك. فتركه الشرطي يتابع طريقه. وبعد

(٦) العقد الفريد لابن عبد ربه، المجلد الثالث، ص٢٧٠. روت مجلة «العربي» في العدد ١٥٤/ أيلول ١٩٧١، ص١٢٨، هذه النادرة عن عمر بن قيس.

قليل وجده الشرطي ينزل الجبل تواسياً أيضاً، فقال له: ولماذا عدت تنزل الجبل أناريبه؟! أجاب: وجدت مكاناً أدوّر فيه هناك!».

قد ينظر القارئ إلى نكات القياس على الخطأ على أنها مجرد نكات للضحك. لكنه لا يستطيع أن يقدّر كم يخضع مع غيره من المواطنين في الواقع إلى مثل هذه الحالات. بالطبع، لا يفعل الواقع كالنكتة، فيبيّن له الفرضية الخاطئة التي جرى القياس عليها بشكل منطقي. قد يستغرب إن قلت له، إن هذه الحالة موجودة في الممارسات السياسية، وحتى في العلوم الإنسانية. وحتى في الرياضيات يمكن أن أضع فرضية خاطئة، وأقوم بحل معادلات مبنية على هذه الفرضية حلاً صحيحاً من الناحية الرياضية. لا أريد أن أثير هنا جدالاً ايديولوجياً، أكتفي بالتذكير أن «الاستعمار» عنى في الأصل: الإعمار، أي كان في مفهومهم عملاً خيراً. ولم يكثر هذا النوع من النكات عبثاً في تراثنا الفكاهي. فإذا كانت لدينا الآن شخصية الأجدب (أو «المسطول» في لبنان)، وهو المسمى «حمصي» ظلماً، فقد اشتهرت في التراث والتاريخ العربي والإسلامي شخصيات أبي الغصن جحا ونصر الدين جحا وأبي نواس وقراقوش بنكات ونوادر القياس على الخطأ: «قيل إن رجلاً أوثقه الناس وحملوه حياً ليدفنوه وهو يصيح في النعش مستغيثاً بقراقوش. فلما سمعه قراقوش، ترك المشيعين يمشون به وقال له: ويحك، لا أصدقك وأكذّب مئة من ورائك!»(٧).

وبصورة عامة نصادف أمثلة هذه الطريقة لدى الحمقى والمتحامقين، وكذلك لدى الكشف عن الحماقة أو الجهل أو السذاجة وحتى الطمع: «استعار جحا من أحد جيرانه دستاً، ثم أعاده إليه بعد أيام وفي وسطه طنجرة. فاستغرب الجار وجود الطنجرة في الدست، فسأله: ما هذا، يا جحا؟ فقال، إن الدست قد ولد الطنجرة. فسرّ الجار وأخذها. عاد جحا بعد أيام واستعار الدست مرة ثانية، فأبقاه عنده، دون أن يعيده إليه. فجاءه جاره يطالبه به. فقال الشيخ: البقية بعمرك، إن الدست قد أعطاك عمره.

(٧) العقاد، مصدر سابق، ص١١٢.

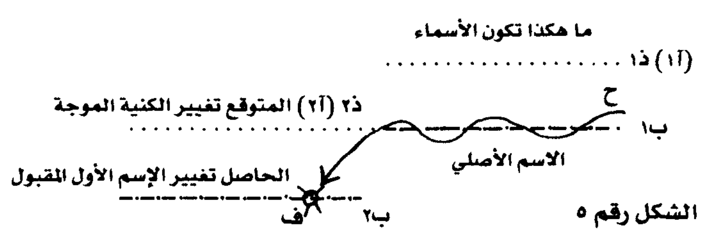
فقال جاره بحنق: متى كانت الدسوت تحيا وتموت؟ فأجابه جحا: كيف تصدق أنها تلد، ولا تصدق أنها تموت؟!»[٨].

أخيراً لا يجوز أن نغفل هنا: نكات المجانين. هي في الحقيقة تقيس أيضاً على الخطأ كالنكات التي ذكرناها آنفاً، لكنها تصنّف في الأدبيات عادة في مجموعة لوحدها، أظن لأهميتها في حياة البشرية أولاً، ولكثرتها في التداول ثانياً، ولكونها محبّبة إلى الناس ثالثاً: «كان أحد المجانين منهمكاً في صنع سفينة فضائية، فسأله زميله: إلى أين ستذهب؟ أجابه: إلى الشمس. - ولكنها ستحرقك! - لا عليك، سأذهب إليها ليلاً»[٩]. نلاحظ في هذه النكتة وفي غيرها من نكات المجانين وكذلك في نكات اللامعقول وعموم نكات القياس على الخطأ أن هناك دائماً عنصراً أسقطه الراوي من الحدث، كي يوهمنا بتساوي اللامتساويين. العنصر الذي أسقطه في النكتة السابقة هو المكان، إذ يريد الذهاب إلى الشمس ومازال ذهنه حبيس الأرض. جدير بالذكر أن عبد العزيز البشري يعتبر هذه الطريقة مع التورية (النمط العاشر) هي النكتة حصراً: «إن مردّ النكتة إلى خلل في القياس المنطقي بإهدار إحدى مقدماته أو تزييفها، أو بتوصيلها بحكم التورية ونحوها بما لا تصل به في حكم المنطق السليم... وهذا الذي يبعث العجب ويثير الضحك والطرب»[١٠].

(٨) نوادر جحا وابنه وحماره: ص٣٥.
(٩) عن مجلة: أسامة، العدد ٢٩٧، تاريخ ١ حزيران ١٩٨١، ص٧. وكذلك العدد ٣٦٦، تاريخ ١٦ نيسان ١٩٨٤، ص٦.
(١٠) نقلاً عن الرميحي، يا أمة ضحكت، ص١١.

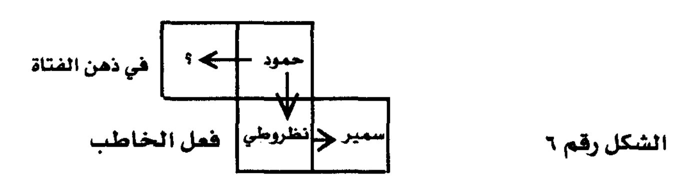
٣ـ النمط الثالث ـ التمادي (في المرفوض)

تتحقق هذه الإمكانية التكيتية بالانتقال من مستوى استثنائي إلى مستوى استثنائي آخر مواز. ولهذا النموذج من النكات وقع خاص، إذ تبدأ النكتة بالغريب لتنتقل إلى ما هو أكثر غرابة. بذلك يتهيأ المتلقي مسبقاً للضحك بحكم الدهشة التي بدأ بها سماع الحديث. مثال هذا النموذج النكتة التالية: «رجل اسمه غليظ، على شاكلة: حمود انظروطي. طلب فتاة للزواج، فقالت له: لا أقبل بك، إلا إذا غيّرت اسمك. فذهب الشاب وأقام دعوى وغيّر اسمه في المحكمة، وعاد لعند الفتاة. سألته: غيّرت اسمك؟ قال: اي. قالت: شو صار اسمك؟ أجاب: سمير انظروطي!». النكتة قائمة على سوء الفهم، بحسب المثل: جاء ليكحلها، فعماها. وبمقدورنا أن نعيد عرضها بالرسم التوضيحي التالي:



الشكل رقم ٥

فالمسار، بدل أن ينتقل بالتغيير من ب١ إلى المستوى ذ٢، حيث يتوقع تغيير الكنية بأي شكل، سقط إلى المستوى ب٢، حيث تغيّر الاسم الأول المقبول وبقيت الكنية الممجوجة على حالها. ويلاحظ هنا أن المستوى الأصلي ب١ قد انقسم إلى مستويين، الأول متوقع في ذهن الفتاة وهو تغيير جزء الكنية من الاسم الكامل، والثاني حاصل بفعل الخاطب وهو تغيير جزء الاسم الأول من الاسم الكامل. وقد قمنا بتمثيل ذلك كالتالي:



الشكل رقم ٦

جدير بالذكر أن هناك مجموعة كبيرة من النكات التي تعتمد على اختيار الجزء الخاطئ من الكل المنقسم، هي مناسبة تقنياً للتندّر على المغفّلين والمدمنين والممحونين وكل أسير أو مستعبد لطبع أو حاجة معينة. في مجموعة النكات هذه يجري الاهتمام بالجزئي في وقت الكلي، وبالتافه أمام العظيم، وبالقشرة بدلاً من اللبّ. في حكاية معروف الإسكافي يُفتضح معروف بأنه نصّاب كذاب، فتحثّه زوجته ابنة الملك على أن يسرع بالنجاة بنفسه قبل أن تطاله يد الملك فيقتله. وهنا يطلب منها معروف: يا سيدتي، أنا في عرضك أن تودعيني بوصالك[11].

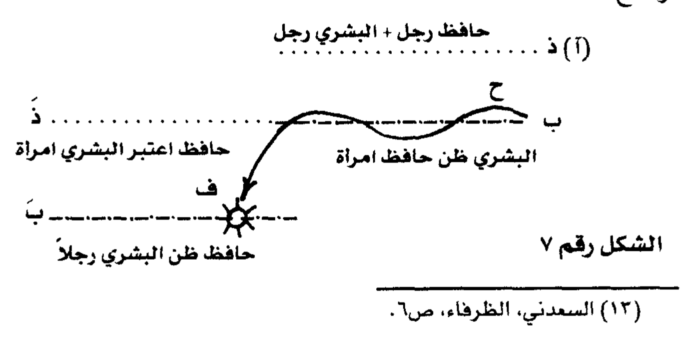
من عالم الطفولة أورد هذه النكتة المعبرة عن التمادي في الخطأ: قابل شيخ طاعن في السن طفلاً... فسأله: كم عمرك؟ أجاب الصبي: ست سنوات. فقال الشيخ: ست سنوات ولم يبلغ طولك بعد طول مظلتي؟! فاقترب الصبي من المظلة ووقف بمحاذاتها ماداً رأسه إلى أعلى وهو يقول: وكم عمر مظلتك؟[12]. وهذه نكتة تدخل في باب «أهون الشرّين»: «أوقف رجل أمن شاباً يحوم حول بناية، متهماً إياه بسوء الأخلاق، وقال له: أنت فاجر. فأخذ الشاب يبرر تصرفه، نافياً عن نفسه هذه التهمة. وهنا جاء رجل أمن آخر، واتهم الشاب بأنه يخطط لعمل إرهابي. فصاح الشاب: لا والله، أنا فاجر، اسأل زميلك!». في جميع هذه النكات يجري الانتقال من سوء إلى أسوأ، كما يقول المثل: «هربنا من الدبّ، وقعنا في الجبّ»: «أوصت الأم ابنتها صباح يوم العيد: لا تركبي بالمرجوحة، فيظهر سروالك الداخلي! أجابت الطفلة: لا تقلقي، أشلحه!».

من نكات هذا النموذج أيضاً: نكات «الردح»، أي تبادل الشتائم، وهو نوع من المزاح الخبيث. ونكات الردح هي نوع من الهجاء، لكنه ليس الهجاء الجاد، فهذا قلما يُضحك، بل الهجاء المبطّن، أي غير المباشر (الذي كثيراً ما يخاطب العقل)، هو الذي يُضحك. كذلك تعد هذه النكات شكلاً

(١١) ألف ليلة وليلة، الجزء الرابع، ص٣٨١.
(١٢) عن مجلة: العربي، العدد ٧٥، شباط ١٩٦٥، ص٤٢.

من أشكال التباري أو التنافس. في العادة يكون التنافس على الخير، لكن هنا: التنافس على «الشر»، ولذلك فهو مضحك. مثلاً: في العادة يكذب المرء كي يخفي الحقيقة، وهذا جدّ مزعج. المفارقة تكمن في أن يكذب المرء بشكل مكشوف، مما يثير الضحك. أما من يقول الصدق أو يتنافس عليه أو يزاود فيه، فهو جاد لا يدفعنا إلى الضحك؛ قد يكون عظيماً، إنما لا يضحكنا.

من أمثلة نكات «الردح» أو الهجاء المتبادل: «كان حافظ ابراهيم يوماً جالساً في حديقة داره بحلوان، عندما دخل عليه صديقه الشيخ عبد العزيز البشري وبادره قائلاً: لقد رأيتك من بعيد، فتصورتك واحدة ست! فقال حافظ: والله يظهر أن نظرنا ضعف، أنا كمان شفتك وأنت جاي افتكرتك راجل!»(١٣). الجزء الأول من الحديث طريف، بل هو بحد ذاته شبه نكتة (قفشة، بسمار). فحافظ ابراهيم رجل (ذ)، لكن البشري ظنه امرأة ب. ولو أن حافظ ابراهيم أجاب البشري بمثل قوله، أي لو أنه هو الآخر ظنه امرأة، لما كانت ثمة إضافة على القفشة، بل شتيمة بشتيمة، ولما كان الحديث مضحكاً هكذا. على كل حال يعترف البشري بخطئه. أما حافظ ابراهيم فيعتبر البشري امرأة ذَ، فأخطأ وظنه رجلاً بَ. فالمستوى ذَ من إبداع حافظ، لا وجود له في ذهن أحد. وقد لعب دور الوسيط غير الطبيعي (الاستثنائي) في نقلة النكتة من مستوى استثنائي إلى مستوى استثنائي آخر أو إلى مستوى أكثر استثنائية. والرسمة التالية توضح ما قلناه:



الشكل رقم ٧

(١٣) السعدني، الظرفاء، ص٦.

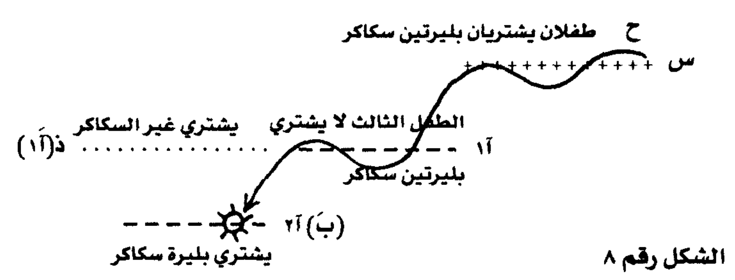
في النكتة إذن سقطتان: إسقاط البشري لحافظ من رجل إلى شبه امرأة، ثم إسقاط حافظ للبشري من امرأة إلى شبه رجل. هذه هي طريقة التباري بالشتائم أو النقائص (الردح). وتصلح هذه النكتة كمثال على معاداة المرأة، حيث تعتبر هنا نقيصة يشتم الرجال بها بعضهم.

وتعد من هذا النمط طريقة من طرق التهكم، يجري فيها الانسياق الساخر مع المسار الأصلي للنكتة من فعل خاطئ أو كلام مغلوط: «أصيب صاحب متجر الملابس بالضيق من أحد الأشخاص قضى أكثر من ساعة وهو يحاول انتقاء رباط عنق مناسباً، حتى سأله الشاب في تردد: ألا يمكنني أن أجد رباط عنق في لون القهوة التركية الممتزجة بلبن الماعز الطازج؟ صاح التاجر في حدة قائلاً: وهل تريدها بسكر أم بدون سكر؟»[١٤]. هذا الانسياق يختلف بالطبع جوهرياً عن الانسياق الذي سنصادفه في النموذج الثاني عشر.

(١٤) ماجد، العدد ٧٤٠، تاريخ ٢٨/٤/١٩٩٣، ص٣٠.

٤ـ النمط الرابع ـ استغراب المألوف

هنا يحصل الانتقال من مستوى اعتيادي جار إلى مستوى اعتيادي طارئ. قد يستغرب القارئ هذه الإمكانية، لكننا سنبين أنها حقيقية، وذلك استناداً إلى النكتة التالية: «جاء ثلاثة أطفال إلى بائع. طلب الأول منه بليرتين سكاكر. فقام البائع وأخذ السلّم وصعد عليه وتناول من الرفّ قطرميز السكاكر وأعطى الطفل طلبه، ثم أرجع القطرميز إلى مكانه. بعدئذ سأل الطفل الثاني عما يريده، فقال: بليرتين سكاكر. انزعج البائع وأنّب الطفل لأنه لم يطلب ذلك قبل إرجاع القطرميز. وبعد أن أعطاه ما يريد، سأل الطفل الثالث: وأنت، ألا تريد بليرتين سكاكر؟ أجاب الطفل: لا. فأرجع البائع القطرميز ثانية إلى مكانه، ثم قال للطفل: ماذا تريد إذن؟ أجاب: بليرة سكاكر!». والرسم التالي يعيد عرض القصة:



الشكل رقم ٨

هنا اعتبرنا المستوى الأول س مستوى مساعداً، إذ لا يحتويه أي من طرفي المفارقة، لكنه يمهّد لها. أما المستوى الثاني آ١، وهو كون الطفل الثالث لا يريد بليرتين سكاكر، فهو عادي لا غرابة فيه. المشكلة تكمن في أن البائع فهم منه، بتأثير المستوى المساعد، أنه يريد غير السكاكر ذ، بينما أراد الطفل بكل صدق وبراءة بليرة واحدة فقط سكاكر آ٢. هذا الطلب لم يكن يتوقعه البائع وبالتالي فهو بالنسبة له استثنائي بَ. والراوي، من خلال سلوك البائع (إرجاع القطرميز)، أوهمنا أن توقع البائع ذ هو الصحيح. ففوجئنا وضحكنا، عندما اكتشفنا خطأ توقع البائع وتخيلنا انزعاجه الزائد.

هذه النكتة قائمة على سوء التفاهم، بينما قامت نكتة البنية السابقة على سوء الفهم، مع أن الطرف الأول للمفارقة في كلا النكتتين يحتمل التفسيرين. غير أن هناك فارقاً، وهو أن الاحتمال المتحقق في النكتة السابقة (أي تفسير الخاطب) هو الاحتمال الأبعد (سوء فهم)، بينما في هذه النكتة هو الاحتمال الأقرب (المقصود طلب الطفل)، أو على الأقل الاحتمالان متساويا القوة (سوء تفاهم). من زاوية نظر أخرى يكمن الفارق في أن البائع هنا أخطأ التوقع، في حين أخطأ الخاطب التصرف في النكتة السابقة. لذلك لا تصلح هذه البنية للتندّر على المغفّلين أو المدمنين أو للدعابة، بل تدخل في باب «استغراب المألوف» وسوء التوقع بحسب المثل «ضربها سيما، طلعت خراحديد». وهي على أية حال إمكانية تنكيتية قليلة بصورة نسبية: «الطفل الأول: أرجو أن تمطر السماء طوال السنة. الطفل الثاني: لماذا؟ ـ لكي نكسب لقمة العيش. ـ هل أبوك فلاح؟ ـ كلا، إنه بائع مظلات!»[(١٥)]. من حيث البنية يعدّ تخطيء الصحيح مماثلاً لاستغراب المألوف، كما في هذا المثال: «قالت الأم لابنها: كفى ضجيجاً وصخباً، اذهب إلى فراشك فأنا متعبة! فقال لها الابن: أنت متعبة، يا أمي، فلماذا أذهب أنا إلى الفراش؟!»[(١٦)]. ـ سؤال منطقي بالفعل!.

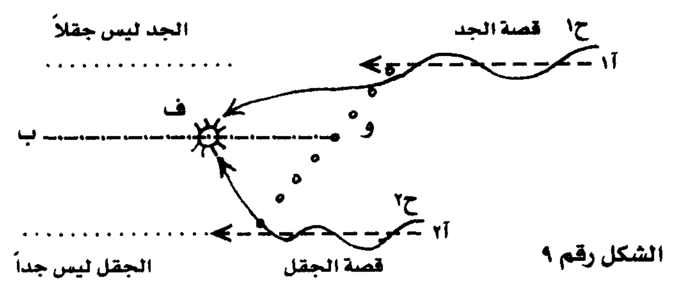
(١٥) عن مجلة: أسامة، العدد ٤٥، تاريخ ١٩٧٠/١٢/١، ص٣. وردت بصيغ أخرى في: أسامة، العدد ١٧٤، تاريخ ١٩٧٦/٤/١٦، ص٥. أسامة، العدد ٣٣٣، تاريخ ١٩٨٢/١٢/١. هوبي - عالم التسلية، العدد ٢٢٤، ص٣٦.

(١٦) عالم التسلية (دار سناء)، العدد ٤٨، ص٥٢.

٥ـ النمط الخامس ـ تداخل العوالم (الخلط)

ويحدث عند الانتقال من مستويين اعتياديين جاريين إلى مستوى استثنائي مولّف.

كمثال على هذا النموذج نورد هذه النكتة: «كانت امرأة قروية تستمع في سهرة ريفية إلى أحد الأشخاص يسرد قصة عن جده. ثم شغلها شاغل عن المتابعة. في هذه الأثناء انتقل الرجل إلى رواية حادثة أخرى مع جقل (ابن آوى). وعندما عادت سمعته ينهي القصة بقوله: ثم نطّ على الدجاجة ولقطها وأخذ يمرع فيها. فسألته: من؟ جدّك؟!»(١٧). والرسم التالي يصور النكتة:



الشكل رقم ٩

نرى في هذه الصورة مستويين اعتياديين، على المستوى الأول آ١ تُروى قصة الجد ح١، وعند انتهائها تروى على المستوى الثاني آ٢ قصة الجقل ح٢. وقد قامت المرأة الريفية عبر وسيط غير طبيعي و، هو إلغاء الزمن، بدمج القصتين في قصة واحدة، كأن غيابها عن السهرة لم يكن. تم الدمج على المستوى الاستثنائي ب، فالتقت القصتان في النقطة ف، حيث يصل المستمع إلى النتيجة الغريبة المضحكة: الجد جقل. ومما يزيد الأمر غرابة وإضحاكاً حدوث هذا في وسط قروي يقدس الأجداد وينجّس بنات آوى. أما الطريقة المتبعة في هذه النكتة فهي دمج شيئين أو أمرين مستقلين في شيء أو أمر واحد. ربما أمكن القول، إنها طريقة دمج طرفي أو شخصي المفارقة. وهي مناسبة للنكات التي تتكشف فيها مقدمات معينة عن نتائج مخالفة؛ أو بتعبير آخر: مخالفة النتائج للمقدمات، وكذلك مخالفة التحققات للأماني واليقظة للحلم.

---

(١٧) عين الزهور - سيرة ضاحكة، دار الحصاد بدمشق، ص١٨.

ومن أمثلة هذه الطريقة في التنكيت النادرة التالية لجحا: «رأى في منامه شخصاً أعطاه تسعة دراهم بدلاً من عشرة كان يطلبها منه، فاختلفا وتنازعا. ولما احتدم بينهما الجدال، انتبه من نومه مذعوراً، فلم يجد في يده شيئاً. فتكدر ولام نفسه على طمعها. ولكنه عاد واستلقى بالفراش وأنزل رأسه تحت اللحاف، ومدّ يده إلى خصمه الموهوم قائلاً: هاتها تسعة ولا تزعل يا صديقي!»[18]. هنا يدمج جحا الحلم بالواقع، يخرق الحاجز بينهما، ليصل إلى عالم لامعقول، إلا أنه ذو عبرة مؤثرة. من الواضح أن هذه الطريقة التنكيتية تخاطب الخيال في المتلقي وتتطلب من المبدع قدرة غير عادية على التخيل: «حدث أن كانت أم كلثوم في إحدى حفلات سباق الخيل. وقامت بفتح حقيبة يدها، فنظرت إلى المرآة لترى أحد المعجبين، وكان قصير القامة، فقالت له على الفور: أنت حاترجع، ولاّ أقفل عليك الشنطة؟!»[19]. غير أن هناك حالات من الدمج أو الجمع (دمج أو جمع ما لا يمكن دمجه أو جمعه) بسيطة كهذا المثال: «السيدة للسمسار: أنا طلبت منك خادمة واحدة وأنت أرسلت لي أربعة، لماذا؟ - السمسار: حضرتك طلبت مني خادمة أمينة وشاطرة ونظيفة وبالها طويل!»[20].

على أن الخلط قد يحدث بتأثير طبيعة اللغة وطرق التعبير. فليس نادراً أن يقص أحدهم على جليسه قصة، تتضمن حواراً بين القاص وأحد شخصيات القصة، فيخاطبه بضمير «أنت»، فتحدث الخربطة بين «أنت» في القصة و«أنت» في الحديث، ويجري التلميح (أو يحدث التداعي) من خلال هذه الخربطة إلى الجليس، مثال على ذلك هذا السؤال الخبيث: ((شيخي، شو الفرق بين «الله يلعنك» و«لعنة الله عليك»؟)). وكي لا يحدث مثل هذا الخلط المحتمل (في ظنهم)، يردد بعض العامة عبارات تلمح إلى تحقق هذا الاحتمال، على الأقل في ذهن الجليس أو السامع. قد ترد في

---

(١٨) نوادر جحا الكبرى، المكتبة الأدبية، ص٥. وردت لدى ابن عبد ربه في «العقد الفريد»، ج٣، ص٢٥٨، عن رجل مع محمد بن سيرين.

(١٩) آخر ساعة، العدد ٣١٠٤، تاريخ ٢٠/٤/١٩٩٤، ص٥٢.

(٢٠) عالم التسلية، العدد ٤٨، ص٥٢.

الحديث مثلاً كلمات غير مهذبة على شاكلة: «قلت له: أنت، يا حمار!»، فيضيفون بعدها موجهين الكلام هذه المرة إلى الجليس: «أنت أكبر قدر»!. إذن، هم يقولون لجليسهم، إنه أكبر قدراً من الحمار!!. وقد يتضمن الحوار في الحديث شتيمة أو ذكر لمادة نجسه، فيقولون للجليس: «بعيد عنك» أو «حاشاك» أو «برّا وجهك».. إلى آخره من العبارات التي يراد بها تجنب شيء، فتؤدي تخيلياً إلى الغرق في هذا الشيء المراد تجنّبه. عندئذ تتضافر معناية الكلام مع الخريطة، لتعطي مفارقة تُغضب الجليس الغريب في هذا الوسط الساذج وتضحك القارئ أو سامع النكتة.

لكن الأكثر إغضاباً وإضحاكاً يكمن - برأيي - في طريقة حديث متّبعة لدى بعض العوام العرب، حيث يستخدم المتحدث ضمير المخاطب (أنت) بدلاً من ضمير المتكلم (أنا)، وذلك - بظنهم - لتقريب الأمر إلى فِهم أو تصور المستمع، فيُصاب الشخص المخاطب بقصد أو بلا قصد بما أصيب الشخص المتكلم: «كان لأحدهم علاقة مع صبية. حاول معاشرتها، فما قبلت. ثم بزعم أنه سيعقد قرانه عليها في موعد قريب، وصل إلى مبتغاه. وجاء الموعد ولم ينجز الرجل وعده. وعندما قطعت الفتاة أملها، اشتكت عليه قضائياً. في المحكمة أنكر الرجل معرفته بالفتاة، فسألها القاضي: هل أنت متأكدة أن هذا هو الرجل؟. فقالت له: شحاري، يا سيدي القاضي، واحد يفتعل بك، ألا تعرفه؟!».

كذلك يعد من طرق الخلط: الجمع بين كلام لا صلة منطقية أو معقولة بينه، من نوع الهذيان والقروشة وتخريفات المجانين وكذلك «حوار الطرشان». فيجد المتلقي في ذهنه أو بحسب فهمه صلة غريبة بين هذا الكلام المتنافر، مما يدفعه إلى الضحك. في بعض هذا التخليط الكلامي شيء من «السريالية»، كما نعبّر في لغتنا المعاصرة وكما توصلت إليه ثقافتنا الحديثة. أشهر من طبق هذه الطريقة في التاريخ الثقافي العربي هو الشاعر أبو العبر. سئل مرة عن «المُحالات التي يتكلم بها أي شيء أصلها، قال: أبكّر فأجلس على الجسر، ومعي دواة ودرج: فأكتب كل شيء

أسمعه من كلام الذاهب والجائي والملاحين والمكارين، حتى يملأ الدرج من الوجهين، ثم أقطعه عرضاً، وألصقه مخالفاً، فيجيء منه كلام ليس في الدنيا أحمق منه». سأله أحدهم في بعض مجالسه بين العامة: «لم صار كل خصي أمرد، والماء في حزيران لا يبرد؟ فقال: لأن السفينة تجنح، والحمار يرمح!»(٢١). هذه طريقة متبعة في الزمن الحاضر في سهرات الأصدقاء والأقرباء، حيث توضع أسئلة منتقاة وأجوبتها منفصلة في أوراق، ثم تخلط وتقرأ، فيظهر لكل سؤال جواب على سؤال آخر، كثيراً ما يجد فيه اللاعب ترابطاً طريفاً أو إيحاءً مضحكاً. من النكات الحديثة التي تتبع هذا النمط: «س: الفيل أقوى أم الزرافة أطول؟ ج: الأرنب أسرع!». ومنها أيضاً: «حدث خطأ في نشر إعلانين في الجريدة. قال الإعلان الأول: تزوج رجل وذهب لقضاء شهر العسل، من يعثر عليه يسلّمه لأقرب مركز شرطة!. وقال الإعلان الثاني: تاه طفل من أسرته ليلاً، نتمنى له السعادة والهناء!»(٢٢).

يُعدّ من طرق تداخل العوالم أيضاً ما يُسمى «المشاكلة»، وهي تشبه طريقة جحا في النادرة المذكورة آنفاً، ويمثّلها البيت الشعري التالي(٢٣):

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه

قلت اطبخوا لي جبّة وقميصاً!.

أخيراً تدخل في باب الخلط طريقة التلاعب بعلامات الترقيم اللغوية. فعلامات الترقيم ليست - كما قد يظن البعض - مختصة بالكتابة، بل مستخدمة (ضمنياً) في التكلم أيضاً، إنما بدل النقطة في الكتابة ثمة سكتة، وبدل الفاصلة ثمة شهقة.. فإذا ألغيت الشهقة والسكتة، تداخلت الجمل وربما أعطت معانيَ مغايرة لما يراد قوله. فتصبح الجملة اللاحقة

---

(٢١) أحمد الحسين: مقالات في أدب الحمقى والمتحامقين، دار الحصاد، دمشق ١٩٩١، ص١٥١ - ١٥٤.

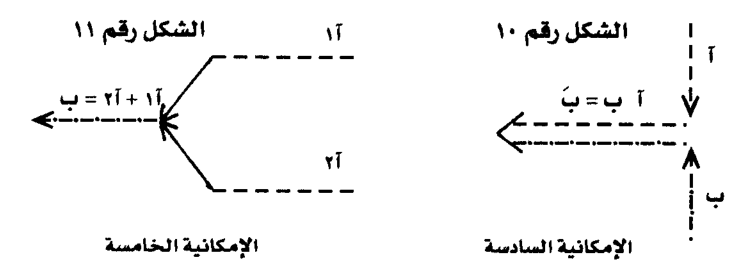
(٢٢) ماجد، العدد ٨٠٦، تاريخ ١٩٩٤/٨/٣، ص٥٩.

(٢٣) اليافي، ص٦١٨. نعمان طه: السخرية في الأدب العربي، دار التوفيقية بالأزهر، ١٩٧٩، ص٥٠. الشعر لأبي الرقعمق، والمصدر الأصلي: زهر الربيع في المعاني والبديع للحملاوي، مصر ١٩٠٦.

مدموجة بالجملة السابقة، كأن ينادي أحدهم شخصاً معيناً: «على أخي أبي فلان! تبوّل الصغير!». فلو حذفنا إشارة التعجب والنقطة (أو أية علامة ترقيم أخرى)، سواء في الكتابة أم في التكلم، أصبحت الجملة هكذا: «على أخي أبي فلان تبوّل الصغير». وهذه طريقة متبعة أحياناً بقصد المزاح في الأوساط الشعبية.

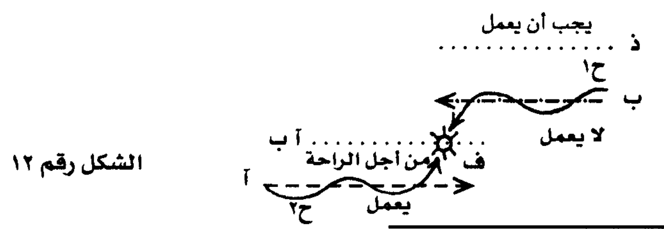
٦ـ النمط السادس ـ تماهي المتناقضات

تتحقق هذه الإمكانية عند دمج مستويين جاريين، اعتيادي واستثنائي، في مستوى استثنائي واحد، ويختلف هذا النموذج عن سابقه (الامكانية الخامسة) بأن المتناقضين هنا يصبحان واحداً، في حين أن المستويين المستقلين هناك يصبحان واحداً هجيناً. هنا تسوية بين طرفين متناقضين، هناك تركيب أو تمازج بين طرفين غريبين. بالخطوط الأولية يبدو الفرق كما يلي بين الإمكانيتين:



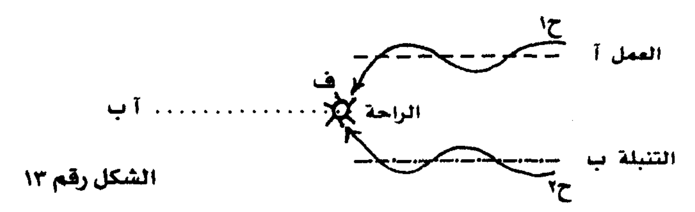
والنكتة التالية تعبر عن هذا النموذج (السادس): «كان فلاح قاعداً يرتاح في ظل شجرة. فمر من قدامه بائع يسوق حماراً في عزّ الحر، وقد حمّله بمختلف البضائع. فقال له البائع: ما لك تقعد هكذا دون عمل؟! قال الفلاح: وماذا أفعل؟ أجاب البائع: قم، تحرك، بع واشترِ!. - ولماذا أبيع وأشتري؟ ـ كي تربح. ـ وماذا أفعل بالربح؟ ـ يصير عندك أموال كثيرة وتصبح غنياً. ـ وماذا لو أصبحت غنياً؟. ـ تقعد وترتاح. ـ وماذا تراني أفعل الآن؟!»[٢٤].

ويمكن أن نعيد عرض هذه القصة الضاحكة بالرسم التوضيحي التالي:



(٢٤) أورد نجيب حنكش نكتة مشابهة عن صياد سمك، في: حنكشيات، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٧.

كما يمكن تصوير النكتة بشكل آخر، وإن كان الشكل المعروض آنفاً أكثر توضيحاً للتعارض بين الموقفين:



الشكل رقم ١٣

هنا يمثّل المستوى آ الكد والتعب. ويمثل المستوى ب الكسل والتنبلة. فيسير الحدث على خطين متعارضين ح١ وح٢، لكي يصل الكد والتعب إلى نفس نتيجة الكسل والتنبلة، وهي: الراحة. ولا يجوز أن يغرب عن بالنا أن الخطين آ و ب يبقيان في الحالة الطبيعية متوازيين، لا يلتقيان. الإضحاك يكمن تحديداً في هذا الالتقاء المستحيل. وقد تم ذلك بحيلة من الراوي، تتمثل في حذف عنصر في هذه المعادلة، وهو : تأمين العيش. فالمعادلة الصحيحة هي:

تعب وكد ←—— تأمين العيش ←—— راحة البائع =

تأمين العيش ←—— لا عمل ←—— راحة الفلاح

فلو حافظ الراوي على المعادلة الأصلية الصحيحة أو لو حذف العنصر الأول أو لو حذف العنصر الثاني من طرفي المعادلة، لكانت الحادثة عادية لا تُضحك:

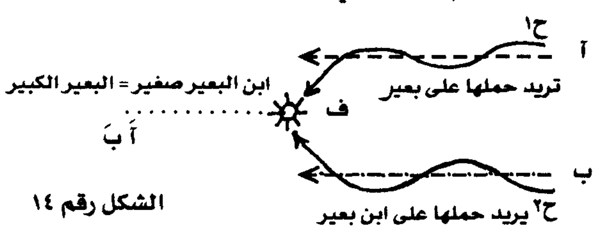
تعب وكد ←——راحة البائع = تأمين العيش ←——راحة الفلاح

تأمين العيش ←——راحة البائع = لا عمل ←—— راحة الفلاح

فالراوي أخذ من المعادلة الأصلية العنصر الأول من الطرف الأول والعنصر الثاني من الطرف الثاني واصطنع منها معادلة جديدة، صحيحة في ظاهرها، خاطئة في جوهرها؛ هي شكل أدبي ضاحك من السفسطائية.

إذا كانت هذه النكتة قد ساوت وهمياً بين اثنين لا متساويين فعلياً، فإن هذا النموذج يضم أيضاً مجموعة نكتية تساوي حقيقياً بين لامتساويين ظاهرياً أو ظنياً، كما في المثال التالي: «جاءت امرأة إلى النبي محمد

فقالت: يا رسول الله، احملني على بعير. فقال: بل نحملك على ابن البعير. فقالت: ما أصنع به؟ إنه لا يحملني!. فقال: ما من بعير إلا وهو ابن بعير!»(٢٥). وها هو الرسم التوضيحي لهذه القصة:



الشكل رقم ١٤

فعلى المستوى أَ بَ يلتقي الرأيان المتعارضان ظاهرياً (متعارضان تحديداً في ذهن المرأة): البعير كبير وابن البعير صغير، ليصبح الرأي الموحد: كل بعير هو ابن بعير، وبالتالي كلاهما كبير أو هما واحد في هذه الحالة. فلسنا هنا أمام سفسطائية، بل أمام تذكير بحقائق بسيطة وبديهيات تغيب بعض الأحيان حتى عن الذهن العميق. وهذا مما يضحك. وللرسول نكات أخرى من نفس النوع، لذلك كان يقول: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً»(٢٦).

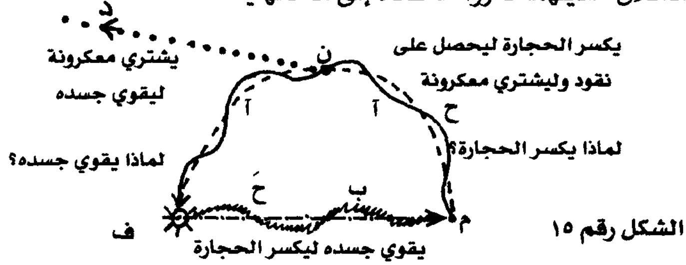
جدير بالذكر أن هذه الطريقة الدعابية ليست مختصة بالنبي الكريم؛ فمازالت مستخدمة حتى الآن، وإن كان النبي أشهر من استخدمها. أذكر مثلاً أن المرحوم أبي كان يستخدمها. فعندما كان يغضب من أحد أولاده غضباً شديداً. كان يتجنب الضرب وكذلك التفوه بكلمات نابية، فيصيح في وجه المذنب: «الذي خلقك، خلق الحمار!». بذلك قال الحق. ومع ذلك ثمة وخزة، كان المذنب يحسّ بها، دون أن يستطيع الاحتجاج عليها. فهو شبّهه بصورة تلميحية خفيفة، مضمرة، بالحمار. فشتمه ولم يشتمه!!.

---

(٢٥) اليافي، المصدر المذكور، ص٥٤٠. أيضاً في مجلة: الكويت، العدد ١٢/ عام ١٩٨١، ص١٢. بعبارات أخرى كذلك لدى: الأبشيهي، المستطرف، ص٣١١.
(٢٦) الفكاهة الهادفة في الإسلام، ص٣٩.

٧ـ النمط السابع ـ الحلقة المفرغة

ويكون بتوحّد المستويين، الاعتيادي الجاري والاستثنائي الطارئ، في مستوى اعتيادي استثنائي متناوب ضمن دارة مغلقة (أو حلقة مفرغة). والنكتة التالية توضح المقصود: «سأل عامل إيطالي زميله: ـ ماذا تفعل يا أنطونيو؟ أجاب: ـ أكسر الحجارة، كما ترى. ـ ولماذا تكسر الحجارة؟ ـ لأحصل على النقود. ـ ولماذا تطمع في النقود؟ ـ لأشتري معكرونة. ـ ولماذا تشتري معكرونة؟ ـ لأقوي جسدي. ـ ولماذا تقوي جسدك؟ ـ لأكسر الحجارة!»[٢٧]. فنهاية القصة تصب في بدايتها، بحيث لو تابع العاملان حديثهما لكررا ما قالاه إلى ما لانهاية.



الشكل رقم ١٥

ينطلق الحديث ح من النقطة م على المستوى آ بشكل اعتيادي، ليصل إلى النقطة ن، حيث يفترض أن ينتهي الحديث أو أن يتابع على المسار ذ ليصل إلى الهدف النهائي من العمل. غير أن الراوي قام بحيلة، فتابع الأسئلة متجنباً الهدف النهائي أو مغيّباً له، لكي يصل آخر الحديث بأوله، ويدخلنا في حلقة مفرغة تصبّ في ايديولوجيا العبث واللاجدوى من العمل والحياة. فالعامل - في الحقيقة - لا يأكل المعكرونة لكي يقوي جسده، كغاية أولى، بل لكي يعيش، ويعيش لغاية يحددها هو، أو على الأقل لغاية لا نقدر نحن ولا يحق لنا أن نحددها. مع ذلك ليس الأمر بهذه الجدية. فنحن نضحك من غرابة أن تتصل نهاية القصة ببدايتها، كالأفعى التي تلتف وتمسك بذيلها. مما يشير إلى عدم قناعتنا بحقيقة هذا الحدث، أو - في أسوأ الأحوال - عدم قبولنا به، فيما لو كان ممكناً.

---

(٢٧) عين الزهور، ص٢٠٨.

على كل حال، هذا النموذج محدود الاستخدام نسبياً. وقد وجدنا مثالاً آخر من التراث العربي: يُحكى «أن رجلاً كان في عصابة يتحدثون، فضرط رجل منهم، فضحك رجل من القوم. فلما رآه الضارط يضحك، ضحك الضارط فاستغرق في الضحك، فجعل لا يملك إسته ضرطاً. فقال الضاحك: العجب، أضحك من ضرطه، ويضرط من ضحكي»[٢٨]. فذهب قوله مثلاً. وثمة مثال من الحياة التجارية: «أحد مؤجري أشرطة الفيديو كان يؤجر أفلاماً جنسية للجميع. إذا كان الزبون راشداً، نصحه أن يخفي الفيلم عن أولاده. وإذا كان الزبون قاصراً، نصحه أن يخفيه عن أبويه».

هناك طريقة مشابهة نستطيع اعتبارها حالة خاصة من «الحلقة المفرغة»، وهي «الدائرة المغلقة» أو «الدارة المغلقة»، حيث يكون للحديث نهاية تتصل بالبداية دون إمكانية للتكرار، فينبعث الضحك عند إغلاق الدارة (تماماً كما في الدارة الكهربائية): «لدى بلوغه إحدى القرى سأل الزائر عن منزل المختار، فقيل له إنه مجاور لمنزل معلم المدرسة. وصادف قروياً آخر، فسأله عن منزل معلم المدرسة. وكان الجواب أنه مجاور لمنزل المختار. واحتار الزائر كيف يذهب، إلى أن مرّ شخص ثالث، فطرح عليه السؤال التالي: أين يقع منزل المختار ومنزل المعلم؟ فأجاب القروي: أحدهما في جوار الآخر!»[٢٩].

جدير بالذكر أن هذا النمط التنكيتي يسمى في الغرب «دائرة أو أغنية الشيطان». ويطلق عليه العامة في الشام «حكاية ابريق الزيت». ويقولون في ريف الساحل «إجينا لحيّك منديلو». وفي المحافظات الشرقية من سوريا يتحدثون عن «سالفة الدبيبينة» التي لا نهاية لها: أسولف لك ع الدبيبينة؟ إن قلت لا، وإن قلت إي، رح سولف لك ع الدبيبينة!.. وهكذا قد تطول

(٢٨) الميداني، مجمع الأمثال، الجزء الأول، ص٤٢٠.

(٢٩) المختار، العدد ٥٦/ تموز ١٩٨٣، ص٧١. وردت بصيغة مختلفة في: أسامة، العدد ٣٦٤، تاريخ ١٩٨٤/٣/١٦. وفي جريدة البعث، تاريخ ١٩٨٩/٥/١٧، ص١٢. وفي: أسامة، العدد ٥٠٠، نيسان ١٩٩٣، ص٦.

السالفة إلى ما لانهاية[٣٠]. في الأدب أو الفن الجدي نجد نظيراً لهذا النمط، تحديداً في القصص والغناء الشعبيين. مثال ذلك حكاية «الجقل آكل الحليبات» وحكاية «الدبّانه»[٣١]، وكذلك بعض أغاني الأطفال في الأعياد.. على منوال هذه الأغاني الأطفالية ألّف أحمد فؤاد نجم ولحّن وغنّى الشيخ إمام أوائل السبعينات الأغنية السياسية ذات الروح الشعبية «بقرة حاحا». أما في اللغة الدارجة الحديثة فيشبهون هذه الحالة بالاسطوانة التي تكرر نفسها.

ومن باب التكرار ما نود تسميته بـ«تفسير الماء بالماء»، أي أن يرد المرء على شيءبالشيء نفسه، فلا يقول شيئاً جديداً. مثال ذلك: «سأل القاضي الشاهد: هل أنت متزوج؟ فأجاب الشاهد: نعم، يا سيدي، متزوج من امرأة. فقال القاضي مستغرباً: وهل هناك من يتزوج رجلاً؟!. قال الشاهد بجدية: ابنة عمي تزوجت رجلاً!»[٣٢]. مثال آخر: «كان آدم وحواء يبحثان عن أسماء للحيوانات. قال آدم: أقترح أن أسمي هذا الحيوان فرس النهر. سألته حواء: ولماذا هذا الاسم بالذات؟ آدم: لأنه الوحيد الذي يشبه بالفعل فرس النهر!». مثال ثالث: «سأل المعلم التلميذ: كيف نعرف العصفور من العصفورة؟ فأجاب التلميذ: نضربه بحجر، فإن طار فإنه عصفور، وإذا طارت نتأكد أنه عصفورة!»[٣٣]. وهناك أمثلة خفيفة أكثر، تصل أحياناً لدرجة البياخة.

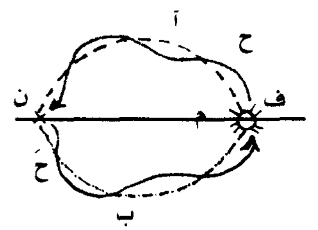
كذلك تتبع هذا النمط التنكيتي طريقة هزلية أرغب بتسميتها «إغلاق القوسين»، وهي على شاكلة القرار والجواب في الموسيقا، أو «كلمة ورد غطاها»، كما يعبّر العامة. المهم نكتياً هنا هو الجواب أو رد الغطاء. والرسمة التالية تعبّر عن هذه الطريقة:

(٣٠) في: نضال الفلاحين، العدد ١٢٧٦، تاريخ ١٩٩١/٩/٢٥، ص٨.

(٣١) في ليالي كانون - حكايات شعبية، جمع وإعداد سلمى سلمان، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٦.

(٣٢) مع بعض التصحيح عن: البعث، تاريخ ١٩٨٩/٤/١٤.

(٣٣) سامر، العدد ٧١٦، تاريخ ١٩٩٤/٤/٧، ص٢٩.



الشكل رقم ١٦

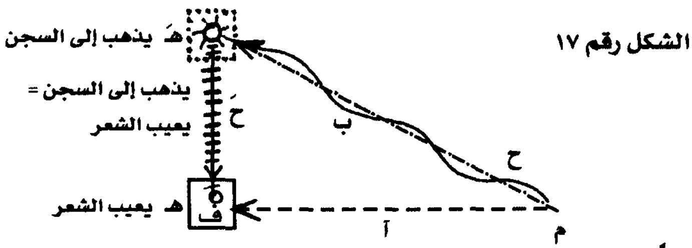
هنا تسير النكتة من النقطة م على المستوى آ إلى النقطة ن. ثم تعود من النقطة ن على المستوى ب إلى نقطة البداية م، حيث تغلق الدارة وتحدث بذلك فرقعة الضحك. الأمثلة على هذه الطريقة كثيرة: «يقول المعلم لتلاميذه الصغار: إن العصفور المبكر يلتقط الدودة. فيقول أحدهم: والدودة المبكرة يلتقطها العصفور!»[٣٤]. «إن الحب يذهب بالزمن، وإن الزمن يذهب بالحب!»[٣٥]. «أتى رجل إلى ديوجين وسأله عن السن التي يستحق الإنسان فيها الزواج، فقال: مادام الانسان صغيراً، فإن وقت زواجه لم يحن بعد؛ ومتى صار كبيراً، فقد فات أوانه!»[٣٦]. انظر أخيراً إلى هذا المثال الذي يتضمن نكتتين، نكتة في القرار ونكتة في الجواب: «الأول: هل تعرف دعابة الدليل السياحي الذي كان يشير بإصبعه إلى جمجمتين قائلاً للمجموعة السياحية التي ترافقه، إن الأولى للامبراطور نابليون وهو طفل صغير والثانية له وهو قائد كبير؟ الثاني: كلا، لا أعرفها يا صديقي، هل يمكنك أن ترويها لي؟»[٣٧].

أخيراً ثمة طريقة هزلية أرى تصنيفها ضمن هذا النمط الهزلي وهي ما يسمى «حوار الطرشان»: «التقى أطرش بأطرش آخر يحمل شبكة وصنارة على مفترق طريق يوصل إلى نهر. فقال له الأطرش: شو هاد هلي حاملو؟ بالظاهر رايح عالصيد؟. فقال له الأطرش الثاني: لا، لا لا، أنا رايح عالصيد. فأجابه الأول: لا تواخذني افتكرت رايح عالصيد!»[٣٨]. وقد قدم الرحابنة بصوتي فيروز ووديع الصافي أغنية فكاهية على هذه الشاكلة، بعنوان «يا بومرعي!».

(٣٤) العقاد: جحا الضاحك المضحك، ص٢٦.
(٣٥) المصدر السابق، ص١٤.
(٣٦) من طرائف الفيلسوف ديوجين، إعداد أمين سلامة، في مجلة: الهلال، عدد حزيران/ ١٩٧٨، ص٦٤.
(٣٧) أسامة، العدد ٤٩٥، تشرين الثاني ١٩٩٢، ص٦.
(٣٨) المضحك المبكي، العدد ١٨٧، تاريخ ١٩٣٣/٩/٣٠، ص٦.

٨ـ النمط الثامن ـ المواربة

هنا يكون الوصول إلى الهدف بطريق استثنائية بدلاً من الطريق الاعتيادية، أي بالمواربة وكذلك بالترميز. شبيه هذه المواربة قولهم، إن فلاناً من الناس يشير إلى أذنه بأن يمدّ يده اليمنى إلى أذنه اليسرى من وراء رأسه. هذا المفهوم يتضمنه أيضاً المثل الشعبي: «عليكِ يا كنّه، اسمعي يا جاره!». ويمكن أن نمثله بمن يسلك تحويلة للوصول إلى هدفه، خارجاً عن الطريق المباشر المألوف. ويذكر هذا بمثل صيني مفارق يقول: «إذا كنت مستعجلاً، اعمل تحويله!». والنكتة التالية مثال على ذلك: «سئل أبو نواس عن شعر الأمين، فعابه، فسجن أياماً. ثم نظم الأمين شعراً غيره وأسمعه أبا نواس، ليعطي رأيه فيه. فلما سمع أبو نواس الشعر، قام يجري. قيل له: إلى أين؟ أجاب: إلى السجن!»[٣٩]. ويمكن تصوير بنية هذه النادرة كما يلي:



فبدلاً من أن يعيب أبو نواس شعر الأمين آ هـ، ذهب إلى السجن ب هـَ، بمعنى أنه يعيب الشعر هـ، لأن الهدف غير المباشر هـَ هو مرآة الهدف المباشر هـ أو صورته. بالنسبة لنا طوّل أبو نواس الطريق، إذ لم يعبّر بصورة مباشرة م آ هـ، بل بصورة مواربة أو غير مباشرة م ب هـ هـَ. لكن بالنسبة له جرى اختصار الطريق، إذ بدلاً من أن يعيب الشعر ويذهب إلى السجن م آ هـ هـَ، كما حدث سابقاً، توجّه مباشرة إلى السجن م ب هـَ. وهذا الحدث السابق هو الحدث الممهّد للنكتة، ولولاه لما كان ثمة نكتة، وحركته معاكسة تماماً لحركة النكتة (م آ هـ هـَ بدلاً من م ب هـَ هـ).

---

(٣٩) نوادر أبي النواس، مطبعة كرم بدمشق (بلا تاريخ)، ص١٠ - ١٢. تروى عن أبي دلامة أيضاً. انظر جمع الجواهر للحصري، ص١١٣.

هذا النموذج من النكات يصلح للهجاء المبطن والمزاح الهجائي، خوفاً من العقاب أو الخصومة، كما يصلح للتخلص الذكي من المآزق والورطات، وكذلك للاحتيال بالتعبير عن الرأي الممنوع أو المرفوض. وهو نوع من البلاغة، هنا: إحلال الفعل محل الكلام، ككناية عنه. وهذا مثال نمطي بسيط مأخوذ من الحياة الاجتماعية : «المضيفة: إن شاء الله يكون الطعام أعجبك؟ الضيفة: تسلم يداك، لم أذق أطيب من هذا الخسّ!».

يضم هذا النموذج أيضاً مجموعة نكات يفضح فيها الشخص ذاته (فضح الذات)، إما بالانزلاق سهواً أو من خلال استدراج الآخرين له. من هذه النكات: «دخل طفل حديقة الجيران ليسرق مشمشاً. فرآه صاحب الحديقة ورماه بالشحّاطة. فهرب الطفل. وفي اليوم التالي صادفه في الشارع، فقال له: ألم تكن أنت الذي أردت سرقة المشمش البارحة؟ أجاب الطفل: لا. فأصرّ الرجل: بل أنت، وعلّمت على قفاك الشحاطة. فرد الطفل: ملعون أبو الكذاب، إن كانت أصابتني!». هذه حالة من الايقاع بالذات. ويمكن أن تعبّر النكتة عن الايقاع بالآخرين، كما في هذه النادرة: «تباهت سيدة متصابية بحضور عباس محمود العقاد، بأن زوجها يهديها في كل عيد من أعياد ميلادها مبلغ خمسين جنيهاً. فقال لها العقاد: لابد، يا هانم، أنك أصبحت مليونيرة!»(٤٠). مثال آخر: «جاء أحد الزبائن بسيارته إلى محل لتصليح السيارات. فقال له صاحب المحل: هل ذهبت إلى محل غير محلنا؟ الزبون: نعم، ذهبت إلى المحل الذي بجوارك. صاحب المحل: وما الشيء السخيف الذي قاله لك؟ الزبون: أرشدني إليك لأنه مشغول!»(٤١).

أخيراً، أن تصنع تمثالاً لشخص وتعطبه ظناً منك أنك تؤذي شخص التمثال؛ أو أن تأخذ أثراً من شخص، كشعرة من رأسه أو قطعة من ملبوسه، وتظن أنك قد سيطرت عليه بذلك.. الخ، فهذه طرق سحرية كان

(٤٠) أحمد عبد المجيد: رحلة مع الظرفاء، ص٣٥/ ٣٦. ينسبها ابراهيم المازني إلى محمد الخطاب. انظر: النكتة المصرية، ص٥٨.

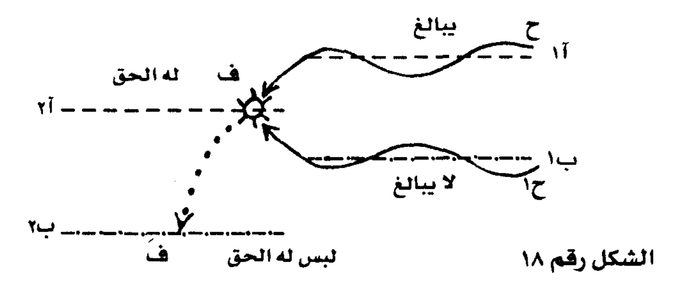
(٤١) ماجد، العدد ٧٤٩، تاريخ ١٩٩٣/٦/٣٠، ص١٣.

يؤمن بها ويتبعها الإنسان القديم، ومازالت آثارها حتى أيامنا هذه. أما في عصرنا العقلاني فقد أصبحت طريقة من طرق النمط الموارب في الأدب الهزلي، يضحك لها حتى أولئك الذين مازالوا يؤمنون إلى حد ما بالسحر: «رأت الصغيرة شقيقها يمدّ يده إلى المفكرة الجديدة التي اشتراها والدهما لمكتبه، قالت له محذرة: إياك أن تدير هذا الزّر، وإلا انقلب اليوم إلى أمس أو إلى الغد!»[٤٢].

(٤٢) حواء، العدد ٧٢٨، تاريخ ١٩٧٠/٩/٥، ص٥٣.

٩ـ النمط التاسع ـ التحريف

ويكون بانتقال قطبي المفارقة بمساريهما من مستويين (اعتيادي واستثنائي) معينين إلى مستويين آخرين مع تبديل موقعيهما، من الاعتيادي إلى الاستثنائي ومن الاستثنائي إلى الاعتيادي. مثال ذلك: «شخص من الجبل اشتهر بالمبالغة في أحاديثه والمفاخرة المغالية أحياناً. كان يروي قصة هجومه بفرسه على كوكبة من أعدائه، وكيف أن رصاصة كسرت ساق فرسه ولكنه استمر في الهجوم، ثم كسرت ساقها الثانية واستمر في الهجوم. وكان ابنه حاضراً فحاول أن ينبهه إلى هذه المبالغات، فرد عليه بعنف: الفرس فرسي، بدي ادحلها دحل»[٤٣]. فالابن كان يعترض على مبالغة الأب، فتغافل الأب عن هذا الاعتراض، وجعل الخلاف حول حقه في تلك المعاملة للفرس. هكذا اعتبر ضمنياً أن ما رواه صحيح لا خلاف عليه، فانتقل من موقع الضعف وهو المبالغة إلى موقع القوة وهو حقه كمالك للفرس. والرسم التالي يوضح ذلك:



الشكل رقم ١٨

لقد انتقل الأب من المستوى ب١ حيث يكابر بأنه لا يبالغ، صعوداً إلى المستوى آ٢ حيث يجادل في حقه على الفرس. في نفس الوقت ينقل الأب عسفياً موقع ابنه من المستوى آ١ حيث ينبه هذا إلى المبالغة، نزولاً إلى المستوى ب٢ حيث يلبسه تهمة الاعتراض على حق الأب على الفرس. يلتقي الطرفان في النقطة ف، لأن الابن لا ينفي ملكية أبيه للفرس، في حين أن الأب يزيح ابنه عسفياً إلى النقطة فَ. فيظهر الأب خداعياً بمظهر

(٤٣) سلامة عبيد: أمثال وتعابير شعبية من السويداء، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥، ص٥٩.

المحق والابن بمظهر المخطئ. يصلح هذا النموذج للمكابرة، وعدم الاعتراف الصريح بالخطأ، وللالتفاف على القضية المطروحة، وكذلك للتخلص الذكي والمرح من المآزق. فهي نكات «حرف الحديث»، أو «نكات التحريف». وتسمى أيضاً «نكات التصحيف».

وهناك تنويعات على هذا النموذج تشترك جميعها في تحريف المسألة الأصلية. ومنها هذه النكتة المعاشة في وسطي الاجتماعي: «على مائدة الطعام نبّهت الأم طفلها إلى أن الفليفلة حارّة. لكنه أمسك بقرن منها، فهددته: إذا أكلت منها وحرحرت، فسوف أضربك وأزيدك ألماً. لكن الطفل لم يأبه، وقضم قطعة من الفليفلة، فلهب فمه ولسانه. سألته أمه: ما بك؟ فكتم ألمه وشدّ على نفسه ورجف قائلاً: أح، برد!. وكان الفصل صيفاً».

النكات التي تقوم على الربط بين أمرين مختلفين نوعياً، أي لا رابط بينهما، قد تكون إما عن قصد لتحقيق غرض أو باللاشعور المعبّر عن مصلحة معينة. من ذلك: «سئل حلاق عن رأيه بشخص معين، فقال: آدمي، يحلق عندي». فمسألة أن الرجل جيد أو سيء ارتبطت في مفهوم الحلاق بمسألة ما إذا كان يحلق عنده أو عند غيره، بل إن المسألتين أصبحتا واحدة في ذهنه. قد يكون هذا الارتباط كامناً في لاشعور (لاوعي) الحلاق، فكشفه التداعي أو انزلاق اللسان. ومن أمثلة الربط بين شيئين لا رابط بينهما هذه النادرة عن أبي نواس: «رآه الرشيد وهو حامل زجاجة خمر. فقال له: ما هذا، يا أبا نواس؟ فمسك الزجاجة بيده الثانية وجعلها خلف ظهره وأراه الأخرى وقال: ليس في يدي شيء. فقال: في يدك الثانية. ففعل كما فعل في الأولى وقال: هذه الثانية. فقال: أرني يديك الاثنتين. فرجع إلى الحائط وسند الزجاجة بظهره، وأراه يديه الاثنتين. فقال: تقدم أمامي. فلما رأى أبو نواس ذلك، قال: تنكسر، يا بارد!»[٤٤]. هذا النموذج من النكات يخدم حسن أو سوء التخلص، حين يتورط المرء في مسألة خاسرة ويمنعه الخوف أو المكابرة من التراجع. ومن الواضح هنا أن لا علاقة ما

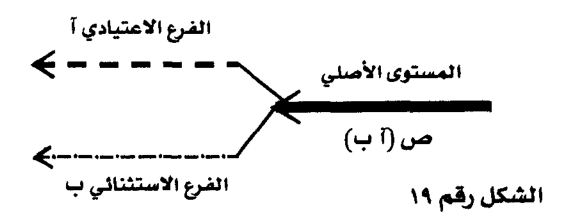
(٤٤) نوادر أبي النواس، ص٢٠.

بين مسألة ما إذا كانت القنينة تتكسر أم لا ومسألة ماذا يخفي أبو نواس وراء ظهره، سوى القنينة نفسها. ما حدث هو أن أبا نواس حرف الحديث عن موضوعه الأصلي، فأضحك الخليفة ونجا من المشكلة: «كان الفتح بن خاقان مع المتوكل، فرمى المتوكل عصفوراً فأخطأه. فقال: أحسنت، يا أمير المؤمنين!. فنظر إليه نظرة منكرة. فقال: إلى الطائر حتى سلم. فضحك المتوكل»[٤٥]. وهذا مثال على استخدام هذه الطريقة لغايات خبيثة، كما فعلت هذه المرأة اللئيمة: «في أول يوم من العام الدراسي ذهبت الأم مع صغيرها لتتعرف على معلمة الفصل. وبين ما قالته لها: ابني حساس جداً، فإذا ارتكب خطأ فلا تضربيه، يكفي أن تضربي جاره، فيخاف!»[٤٦].

(٤٥) جمع الجواهر، ص٩. يرويها نعمان طه، ص٤٣، عن صياد عوضاً عن المتوكل.
(٤٦) حواء، العدد ٧٣١، تاريخ ١٩٧٠/٩/٢٦، ص٤٧.

١٠ـ النمط العاشر ـ الانفصام (التورية)

تتواجد هذه الإمكانية عند انفصام المستوى الأصلي إلى مستويين، اعتيادي واستثنائي، واختيار المستوى الاستثنائي كاحتمال أضعف. وهذه تقنية معاكسة للإمكانيتين الخامسة والسادسة: هنا انفصام وهناك دمج بمعنى التمازج أو التسوية. بالخطوط الأولية تبدو الإمكانية العاشرة كالتالي:



الشكل رقم ١٩

تضم هذه الإمكانية مجموعات عديدة من النكات، فهي كثيرة الاستخدام. من ذلك هذه النكتة: «أراد رجل يسمى «جمعة» أن يداعب صاحباً له يسمى «مبروك»، فقال له: اشترى جار لنا خنزيراً، فجاء أصحابه يهنئونه ويقولون له: مبروك الخنزير، مبروك الخنزير. فداعبه الآخر لينتقم منه وقال: واشترك اثنان في شراء حمار، فلما اختلفا على طريقة استعماله قال لهما القاضي: كل واحد يركب الحمار جمعة»[٤٧]. فالأصل، الذي هو كلمة «جمعة» أو كلمة «مبروك»، له عدة معان. المعنى الاعتيادي لجمعة هو (هنا) «الاسبوع»، وقد يكون في أحاديث أخرى اليوم الأخير من الأسبوع (يوم الجمعة)، والمعنى الاستثنائي هو اسم شخص معين. أما المعنى الاعتيادي لمبروك فهو (هنا) «تهانينا»، وقد يكون في أماكن أخرى «صاحب البركة»، والمعنى الاستثنائي هو اسم شخص معين. النكتة مصاغة على أساس صحة الاحتمالين، الأول والثالث، لكنها توحي (من خلال جو الحدث) بأن المقصود هو السيد جمعة أو السيد مبروك. هذا ما يسمى «التورية»، وهو في نفس الوقت تلاعب بالألفاظ.

(٤٧) المضحك المبكي، العدد ١٠١٤، تاريخ ٢٣ كانون الأول ١٩٦٢، ص٢٣.

ونكات التورية، التي تُستخدم عادة في الدعابة والمزاح (الخبيث)، تلعب على وتري المعنى المزدوج للكلمة، غالباً المعنى العادي والمعنى المجازي. لذلك فهي محكومة بلغتها، بالتالي غير قابلة للترجمة إلا في حالات نادرة. وليس من الضروري أن تكون النكات القائمة على ازدواج المعاني موضوعة للمزاح والدعابة. فهناك نكات «الكلام الممعنى»، وهي التي تتضمّن عبارات يمكن أن توحي دون قصد بمعنى آخر (غير المباشر) تسمح به اللغة المعنية (العربية بالأخص) وتستحضره للذهن ثقافة المجتمع المعني. درءاً لذلك تكثر - كما يُلاحظ - بعض المجتمعات الشعبية العربية في أحاديثها من ذكر «بلا معنى» كمعترضة، أي: أقصد المعنى المباشر، لا المعنى المجازي أو الثانوي أو الايحائي. هاكم مثال على ذلك، وهو في نفس الوقت مثال على نكات ازدواج المعاني، التي برغم ذلك يمكن بشكل ترجمتها إلى لغات أخرى: «كان رجل قروي يسوق حماراً محملاً بعيدان الحطب. في أحد زواريب الضيعة التقى بامرأة، فقال لها محذّراً: شكل فيك، شكل فيك!. فردت عليه المرأة: عيب عليك، عيب، صحيح أنك لا تستحي». فالمرأة مَعْنَت الكلام، لأن فعل «شكل» يسمح بذلك، ولأن الفاعل مجهول، يمكن أن يكون عود الحطب (وهو المعنى الأقرب) ويمكن أن يكون ما خطر ببال المرأة (وهو المعنى الأبعد). هي في الحقيقة احتجّت على تعبيره الذي يسمح بتأويل غير بريء؛ ولو ظنت أنه يقصد المعنى الجنسي، لما احتجت كلامياً فحسب، بل لكانت ربما ضربته أيضاً. ويختلف هذا النموذج عن نموذج نكات المواربة (الامكانية الثامنة) في أن الأساس هنا هو تعدد معاني العبارة الواحدة لغوياً، بينما الأساس هناك هو الاختلاف بين معنى الكلام، كعبارات أو جمل، وبين دلالته، أي ما يرمز إليه ذهنياً (وليس لغوياً)، وهذا ما يسمى «المغزى».

وقد كانت الأجيال الشعبية التي سبقتنا تعير معناية الكلام اهتماماً أكبر بكثير من الحاضر. كما ذكرت، كانوا يردّدون عبارة «بلا معنى» (أو «بلا قافه»)، حيث يحتمل الكلام ازدواج المعنى: معنى مباشر وبريء، ومعنى غير مباشر وخبيث. يريدون بعبارتهم المذكورة أنهم يقصدون المعنى البريء،

فيثيرون انتباه السامع إلى المعنى الخبيث، إن كان فاته ذلك، أو إن كان لم يخطر بباله. أما في النكتة التالية فلا يستطيع المتلقي إلا أن يفكر بالمعنى الخبيث: «قال مدير الشركة يؤنب موظفه الذي فشل في مهمته: لو كنت أعلم أنني أبعث بواحد مغفّل، لذهبت أنا!»(٤٨). مثال آخر: في أيام الانتداب الفرنسي نشرت جريدة «الخازوق» اللبنانية الخبر التالي: «علمنا أن صاحبة العصمة عقيلة المفوض السامي الفرنسي قد غادرت ميناء بيروت في رحلة مفاجئة إلى فرنسا. و«الخازوق» يأسف لتقصيره في أداء واجب الوداع نحوها، لأن علمه بالنبأ جاء متأخراً»(٤٩).

وثمة طريقة انفصامية مميّزة نود تسميتها «فصل ما لا يمكن فصله»، بحيث أن المسار الأصلي للحدث، المبين في الشكل رقم ١٩ يتفرع إلى فرعين استثنائيين، كلاهما غير صحيح: «قالت الخادمة لسيدتها: يا ستي، لازم يكون أنا بحب زيت السمك، لأني أحب الزيت وأحب السمك!»(٥٠). يقابل هذه الطريقة طريقة «دمج ما لا يمكن دمجه» التي تتبع النمط الخامس من التنكيت، كما ذكرنا سابقاً.

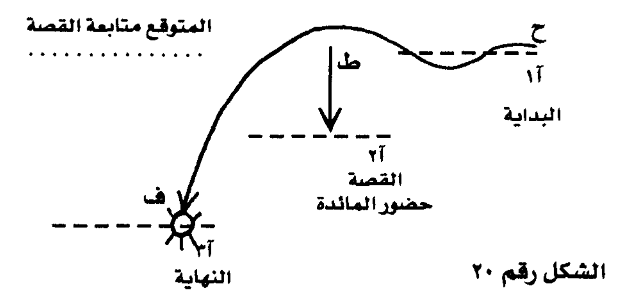
(٤٨) مجلة: سعد، العدد ٦٣٢، تاريخ ١٩٨٢/٧/٥، ص١٩. والعدد ٧٤٤، تاريخ ١٩٨٤/٩/٢٤، ص٢٣.

(٤٩) فوزي عطوي: الفكاهة في الأدب اللبناني، في مجلة: الهلال، عدد آب ١٩٧٤، ص٣٣.

(٥٠) انطوان شعراوي: حياة الحلبي القديم، منشورات مجلة الضاد، حلب ١٩٩٣، ص٤٤.

١١ـ النمط الحادي عشر ـ الإغفال والتلميح

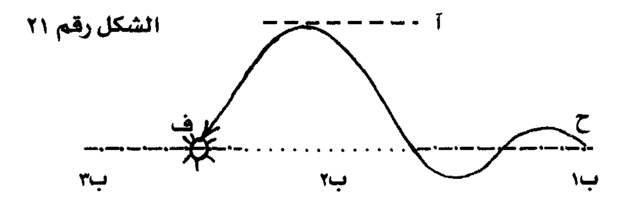
تحدث هذه الإمكانية عند الانتقال من بداية المستوى الاعتيادي أو الاستثنائي الجاري إلى نهايته مع إغفال أو تحوير جزئه الرئيسي بتأثير عامل طارئ. هنا يجري تقسيم المسار إلى ثلاث مراحل: مرحلة البداية، ومرحلة الوسط التي تضم المحتوى الرئيسي للحديث، ومرحلة النهاية، حيث يقوم الشخص المعني بالقفز من المرحلة الأولى مباشرة إلى المرحلة الأخيرة، دون المرور بالوسطى لنفس المسار. هكذا، كما في هذه النكتة عن أشعب: «كان أشعب يقص على أحد الأمراء قصة بدأها بقوله: كان رجل.. فصفق الأمير للخدم يطلب الطعام. وأبصر أشعب المائدة قد حضرت، فعلم أن القصة ستلهيه عن الطعام، فسكت. فقال له الأمير: وماذا؟ فقال: ومات..»[٥١]. وربما أمكن تصوير النادرة على الشكل التالي:



الشكل رقم ٢٠

تحتاج هذه الطريقة إلى مزيد من الذكاء أو الخبث، لذلك فإن استخدامها أصعب نسبياً: «القاضي: وبعدما ضربك كف؟. المتشاجر: ضربني ثالث كف. القاضي: تقصد ثاني كف!. المتشاجر: لا، ثاني كف كان مني أنا له»[٥٢]. وهناك تنويعات أخرى على هذه الإمكانية، كأن يغادر المسار المستوى الجاري مؤقتاً ثم يعود إليه؛ وبهذه العودة تحدث المفارقة وينفجر الضحك. الرسم التالي يصور ذلك:

(٥١) أحمد راتب الخشن: أخبار الطفيليين ونوادرهم، دار كرم بدمشق، ص١٠.
(٥٢) نقلاً عن مجلة: سعد، العدد ٧٨٠، تاريخ ١٩٨٥/٥/٢٧، ص٢٧.



هذا الرسم يعبّر عن النكتة الحياتية التالية: «ثلاثة من الصبيان أساؤوا إلى فلاح في قرية غريبة عنهم. فهجم عليهم الفلاح بعصاه وهو يشتمهم: يا كلاب، يا خنازير، كيف تفعلون هذا؟ من أين أنتم؟. من شدة الخوف واسترضاءً له، قالوا إنهم أقرباء لأناس من قريته. فقال لهم: إن كنتم أقرباء لفلان على الرأس والعين.. أولاد الكلب!»[٥٣]. ونجد لدى جُحا مثالاً آخر: جلس جماعة يتفاخرون بفروسيتهم، فقال جحا: «أتي يوماً بحصان حرون فتقدم إليه أحد الفرسان، فلم يستطع أن يقترب منه. وقفز واحد ليركبه فرفسه. وجاء آخر فلم يمكنه من الركوب. فأخذتني الحمية وشمّرت عن ساعدي، وجمعت أثوابي، ومسكت بعرفه وقفزت». وهنا دخل أحد معارف جحا، فأكمل جحا حديثه قائلاً: «ولكني لم أستطع أن أركبه»[٥٤].

في الحقيقة لم تقفز قصة جحا عن المسار الأول للنادرة، بل تابعته إلى نهايته، إنما جعلت ذهن القارئ يشطّ عن هذا المسار، فيظن أن جحا سوف يمتطي الجواد الحرون، لتفاجئه أخيراً بأن هذا لم يحدث. وربما أمكن تصنيف هذه النادرة ضمن مجموعة نكات المبالغة (الامكانية الثانية عشرة)، فهي مثال حدي (على التخوم)، إذ تحتوى على مبدأي الإغفال والمبالغة. وهناك نكات يبدأ الحدث فيها من نهايته وتعود القهقرى لتستدرك ما جرى إغفاله أو لتكشف المستور، كهذه النكتة اللماحة: «اشترت امرأة فاتنة عطراً من أحد المحلات ودفعت لعاملة الصندوق ورقة نقدية من فئة الخمسمئة فرنك. قالت لها العاملة: آسفة، هذه الورقة

(٥٣) بتصرف عن: عين الزهور، ص٢٢.
(٥٤) جحا العربي، المصدر المذكور، ص١٦٣.

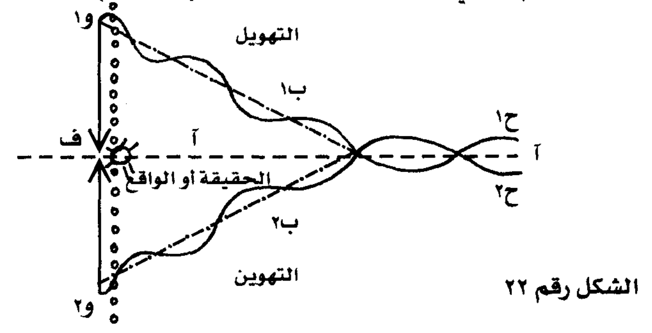
النقدية مزيفة. فصاحت المرأة الفاتنة: يي، إذن فأنا منذ قليل كنت ضحية اغتصاب!»[٥٥]. أخيراً تدخل ضمن هذا النمط طريقة «التعريض» المتّبعة كثيراً في التراث الفكاهي العربي، في الهجاء تحديداً. من ذلك ما رواه الحصري[٥٦]: «.. ساير شريك بن عبد الله النميري يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري فبرزت بغلة شريك، فقال له يزيد: غضّ من لجامها! فقال: إنها مكتوبة، أصلح الله الأمير. فضحك وقال: ما ذهبتُ حيث أردتَ. وإنما عرض بقوله: «غضّ من لجامها» بقول جرير المشهور: فغضّ الطرف إنك من نمير/ فلا كعباً بلغت ولا كلابا. وعرض له شريك بقول ابن داره: لا تأمنن فزارياً خلوت به/ على قلوصك واكتبها بأسيار. وبنو فزارة يُرمون بإتيان الإبل». تحتاج هذه الطريقة إلى مستوى عال من الثقافة والذكاء، وفي هذا المثال تحتاج على الأقل إلى اطلاع واسع على المخزون الشعري العربي. فهي طريقة مثقفية بحتة. وهذا مثال حديث عن التعريض: «أراد طبيب مستشفى المجانين أن يتصل برقم يحتاج إلى التحدث مع صاحبه على عجل، فجن جنونه لإهمال العاملة ومراوغتها في الجواب، وصاح بها محتداً: ويلك، أتعلمين من أنا؟ قالت: لا، ولكني أعلم أين أنت!»[٥٧].

(٥٥) هيرش، ص٧٣.
(٥٦) زهر الآداب للحصري، ص٢١ - ٢٢.
(٥٧) العقاد، ص١٦.

١٢ـ النمط الثاني عشر ـ المبالغة

في هذا النموذج يتضخّم المسار الأصلي للحديث أو الحدث، لينتقل إلى نقيضه، ثم يعود بتأثير عامل خارجي إلى حجمه الطبيعي أو مساره الأصلي. في ذلك يشبه نموذج الإغفال والاستدراك (الإمكانية الحادية عشرة)، إنما هنا في نكات المبالغة لا يجري إغفال جزء من الحدث، بل الابتعاد عن الحقيقة أو الواقع. نكات هذا النوع تجعل من الحبة قبة أو من القبة حبة، لذلك يمكن تسميتها نكات التهويل والتهوين. وعلى هذه الطريقة يقوم من حيث الأساس فن الكاريكاتير، إذ يصورون ما يميل إلى الصغر صغيراً جداً، وما يميل إلى الضخامة ضخماً جداً. وهذا تشويه مضحك، نظراً للمفارقة بين الأصل والصورة الكاريكاتورية، كما في هذا المثل الشعبي: «الغريبة تقول: خميرة أهلي رطلين»، على المبدأ الذي يعبر عنه المثل الشعبي التالي: «يا رب، اجعلني غريب، حتى أكذب وزيد»[٥٨].

كذلك نجد هذا النموذج من المفارقة في نكات «التجليط» (الخرط أو التخريط)، كما يقول السوريون، أو «الفشر»، كما يعبّر المصريون؛ وهو المبالغة الكاذبة أو الكذب المفضوح، ومنه التباهي الفارغ والادّعاء الكاذب أو «المنفخة»، كما يُسمى في سوريا. هنا ينفجر الضحك، عندما تظهر الحقيقة، وذلك لحظة اصطدام الحديث الكاذب بالواقع، بتأثير عامل طارئ. والرسم التالي يصوّر بنية نكات التهويل (والتهوين):



الشكل رقم ٢٢

(٥٨) انظر عبد الكريم الحشاش، الأسرة في المثل الشعبي الفلسطيني والعربي، دمشق ١٩٨٨، ص٥١.

في هذه الرسمة يمثّل آ خط الحقيقة أو الواقع، الذي يبتعد عنه الحديث ح على خط التهويل ب، ليعود إليه عند النقطة ف بتأثير العامل المساعد و، الذي يمثّله في نادرة جحا دخول أحد معارفه.

يعرّف ابراهيم المازني «الفشر»[٥٩]، بأنه: «تحديث الناس بما يظن المرء أنه أبعث على الإعجاب به، وأدعى إلى حسن الرأي فيه، أو التمدح بالباطل، أو بأكثر مما عنده. فهو ضرب من الكذب، يقوم - في الأكثر - على المبالغة أو التوسع في القول بغير ضابط، أو الإسراف في التخيل». والفشار يكون «بجد أو بهزل. فأما ما يكون منه هزلاً، فالغرض القريب منه إدخال السرور على النفوس، وشرح الصدور، وإضحاك السن، أي التسلية». فالفشر «يقبل ويستملح إذا كان على سبيل المزاح والتلهي ساعة. أما إذا كان الفشار جاداً، وكان يتوقع من الناس التصديق أو التظاهر به على الأقل، فإن هذا لا يكاد يطاق إلا بعناء وجهد». ويعتبر الصيادون من أشهر وأظرف الخرّاطين (الفشّارين): «كان صياد يوهم امرأته دائماً أنه أمهر صياد في بلده. وكان كلما ذهب إلى الصيد، ابتاع ما تيسر له من العصافير والحجال التي اصطادها سواه، ووضعها في الجعبة وانطلق بها نحو البيت فرحاً. وحدث أن ذهب حضرته يوماً إلى الصيد ونسي بندقيته في البيت. ومع ذلك فقد عاد مساء بالصيد المعتاد. فعندما رأت ذلك زوجته دهشت وقالت له: عجيب، كيف ذهبت إلى الصيد ونسيت بارودتك، فما أخذتها معك. فأجابها: معك حق، كنت كلما قوّصت ضرب أقول: مدري شو ناقصني»[٦٠].

في هذه النكتة تتوحد البنية الحادية عشرة مع البنية التاسعة، مما يجعل عنصر الإضحاك مضاعفاً. وهذه طرفة خرافية تدخل في باب التهويل، وهي من الأدب الكنعاني: «تبوّل الثعلب في البحر. وبعد أن انتهى من فعلته، فكر برهة وقال: هل من المعقول أن يكون كل هذا البحر من

---

(٥٩) في مجلة: الهلال، عدد آب ١٩٤٧، ص٢٥ - ٢٧.

(٦٠) المضحك المبكي، العدد ١٠٤٢، تاريخ ١٩٦٣/١٠/٢٧، ص٨. موجودة أيضاً في: حنكشيات، ص٤٠.

بولي؟!»[٦١]. في هذا المضحك لم تغلق الدارة الفكاهية إلا في ذهن القارئ، فلم يحدث الوصل فعلياً بعد القطع التهويلي، أو لم يعد المسار الاستثنائي فيلتقي ثانية بالمسار الاعتيادي، ولذلك أسمينا هذه الخرافة طرفة وليس نكتة. أخيراً، إذا أردنا أمثلة على نكات التهوين، فإن نكات الفيل والنملة في الانتظار: «الفيل دخل المشفى، أصرت النملة على ملازمته، أتعرف ليش؟ – ليش؟ – ربما احتاج إلى دم». ونجد في التراث الكنعاني مثالاً آخر: «جلست البعوضة على ظهر الفيل، فقالت له: هل أزعجتك بركوبي على ظهرك؟»[٦٢] . أما أجمل نكات التهويل والتهوين التي قرأتها فهي لجبران خليل جبران: «خرج الثعلب من مأواه عند شروق الشمس، فتطلع إلى ظله مندهشاً، وقال: سأتغدى اليوم جملاً. ثم مضى في سبيله يفتش عن الجمال الصباح كله. وعند الظهيرة تفرّس في ظله ثانية، وقال مندهشاً: بلى، إن فأرة واحدة تكفيني»[٦٣]. هنا تحدث فرقعة الضحك من التقاء خطي التهويل والتهوين.

تقوم طريقة المبالغة بتضخيم النقطة السوداء على الصفحة البيضاء. وهي كثيرة الاستخدام في التنكيت. وإذا علمنا أن الكوميديا عموماً تقوم على النكتة، أدركنا أهمية المبالغة في الأدب الفكاهي. الجدير بالذكر أن طريقة المبالغة سهلة نسبياً، وربما كانت أسهل طريقة تنكيتية؛ وهي في نفس الوقت بسيطة، بالمقارنة مع غيرها، لا تتطلب الكثير من ذكاء المبدع، وبالمقابل تضعف فيها عموماً درجة الإضحاك. لكثرة الاستخدام واحتمالات التكرار قد تصل هذه الطريقة إلى درجة الابتذال، أو البياخة، فلا تضحك. فيبدو أنها مناسبة أكثر للمستويات الثقافية (الحضارية) العادية، فلا تُرضي دائماً ذوي المستويات الثقافية (الحضارية) العالية: «ثلاثة تنابل حكم عليهم السلطان بالإعدام. وعندما وضعوا الحبل برقبة الأول كي يشنقوه، حنّ قلب السلطان، فقال له:

---

(٦١) علي القيم، المصدر المذكور سابقاً، ص١٢٨.

(٦٢) المصدر السابق، ص١٢٧.

(٦٣) جبران، في: المجنون، نقلاً عن مجلة: الكويت، العدد ٤/ كانون الثاني ١٩٨١، ص١٢٦.

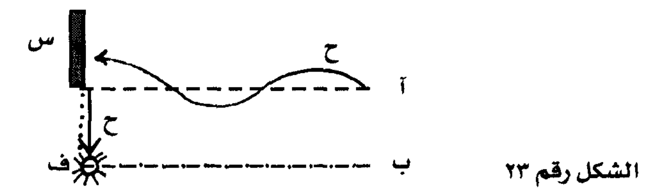
سأعطيك فرصة، امش عشر خطوات، أعفو عنك. ردّ التنبل: لا والله، الشنق أسهل. وجاء دور الثاني، فقال له السلطان: امش خمس خطوات، أعفو عنك. فردّ الآخر: لا والله، الشنق أسهل. ثم جاء دور الثالث، فقال له السلطان: امش خطوة واحدة قدّ الشعرة، أعفو عنك. فسأله التنبل: قدّ الشعرة بالطول أم بالعرض؟». هذا لا يعني أن نكات المبالغة على الاطلاق ضعيفة الإضحاك متدنية الثقافة، بل المقصود هو أنه من الصعب ايجاد نكات مبالغة قوية الإضحاك رفيعة الثقافة. فهي من نوع السهل الممتنع، كما رأيناها لدى جبران وفي الأدب الكنعاني. أي شخص يستطيع ممارسة التنكيت بالمبالغة، لكن القليلين يجيدون: «تنبل، غادرت زوجته المنزل ونسيت المفتاح. عندما عادت، طرقت الباب، فلم يرد أحد. عاودت الطرق وهي تناديه بأنها فلانة زوجته، فقال لها: روحي، أنت طالق!». من الأدباء الذين اعتمدوا بالدرجة الأولى على المبالغة: الجاحظ وموليير[٦٤] والمويلحي.

من هذين المثالين نصل إلى نقطة هامة، وهي أن نكات المبالغة ذات تأثيرين متعاكسين. فهي من ناحية تضخّم العنصر السلبي في الحدث، لتزيد في كراهية المتلقي لهذا العنصر (هنا: التنبل و/ أو التنبلة). لكن من ناحية أخرى يظهر المضمون السلبي في النكتة المبالغة كبيراً لدرجة أنه قد لا يشعر أحد من المتلقين أنه معني به، حتى لو كان تنبلاً بالفعل، أو بخيلاً أو شرهاً إلى آخره. فإذا اتخذت النكتة كتعريف للطبع السلبي المستهدف، وهذا احتمال وارد، عندئذ قد يظن التنبل نفسه محباً للراحة، والبخيل مقتصداً، والشره ذوّاقة. هكذا تفقد النكتة وظيفتها التربوية، ولا يبقى فيها سوى العنصر الإضحاكي، هذا إذا كان لها بالأصل أي قصد تربوي. مثلاً ينعت الكورسيكيون بالكسل والخمول، فيروى «أن كورسيكياً

(٦٤) يروي الجاحظ عن البخيل الثري ابن الجصاص، أنه خرجت يده من الفراش في ليلة باردة، فأعادها إلى جسده بثقل النوم فايقظته، فقبض عليها بيده الأخرى وصاح: اللصوص، اللصوص. وفي مسرحية موليير يمسك البخيل بذراعه بعد أن سُرق، ويحسب أنه أمسك بالسارق!. انظر اليافي، ص٥٩٩.

قال لآخر: أتدري أن أنطوان يعمل اليوم؟! فأجابه الآخر قائلاً: هه، غريب والله أمره، يفعل أي شيء لتحصيل المال!»(٦٥).

أخيراً قد نستطيع أن نضم إلى أسرة نكات المبالغة طريقة في التنكيت نودّ أن نسميها «نكات الانسياق أو الانجرار». تقوم هذه الطريقة على متابعة السير على الخط الأصلي رغم وصوله إلى النهاية، فيحدث تجاوز للحدّ وسقوط في النقيض. مرجع ذلك إلى الانسجام في الحديث أو مع الحدث والسهو عن الحد النهائي الذي لا يمكن تجاوزه، بحسب القاعدة المعروفة: كل ما يتجاوز حدّه ينقلب إلى ضدّه. هكذا تبدو لنا صورة هذه الطريقة:



الشكل رقم ٢٣

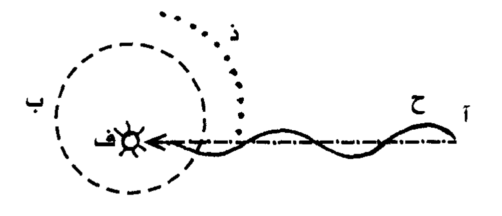
مثال ذلك: «سألت الأم الأمريكية صغيرها: إلى أي حدّ تحبني؟ أجاب يقول: أحبك كثيراً جداً بالطبع، سوف أشتري لك، عندما أكبر، موقداً كهربائياً ومكواة كهربائية وكرسياً كهربائياً!»(٦٦).

(٦٥) نقلاً عن مجلة: ماجد، العدد ٧٧٨، تاريخ ١٩/١/١٩٩٤، ص٣٩.
(٦٦) عن مجلة: حواء، العدد ٧٥٩، تاريخ ١٠ نيسان ١٩٧١، ص٤٧.

١٣ـ النمط الثالث عشر ـ النشاز

تدخل ضمن هذه الإمكانية حالات التنافر بين الطبقات والأقوام والحضارات المختلفة عند التقائها. هذا اللقاء يخلق باعثاً للضحك، عندما يكون السلوك غير منسجم مع الوسط الغريب الذي يتواجد فيه المرء المعني، مع أن هذا السلوك قد يكون طبيعياً في وسطه الأصلي: بدوي أو ريفي في مدينة، ابن عالم ثالث في أوروبا أو أميركا، كادح في مجتمع ارستقراطي... الخ: «قروي نزل إلى المدينة ودخل السينما. سألوه بعدئذ عن رأيه بالفيلم، فأجاب: ما شفت شيئاً، ما لحقت أسلّم على الجماعة حتى انتهى الفيلم!»[٦٧].

قد يكون سلوك النشاز عفوياً، بحكم سذاجة الشخص المعني أو جهله. وقد يكون مقصوداً، أي بوعي، كشكل فكاهي من أشكال التحدي والصراع بين الطبقات والمجتمعات المختلفة أو الغريبة عن بعضها. بالطبع لا يتعلق الأمر بالسلوك فحسب، بل يتعداه إلى التعبير (اللغوي) والحركات والأخلاق: «بدوية تزوجت من ابن مدينة، ودخل عليها زوجها. وفي الصباح وجدوا الزوج مقتولاً. سألوها: شو صار؟ قالت: العرض غالي!». في ذلك يهزأ عادة الوسط المضيف من الشخص الدخيل، إذ «كل ديك على مزبلته صياح»، وأن الكثرة تعتبر نفسها مقياساً وقدوة للقلة أو الفرد. كذلك يهزأ عادة من يرى نفسه أرفع مستوى ممن هو - حقاً أو ادعاءً - أدنى مستوى، لأن الأعلى يرى نفسه هو المقياس. تقنياً يحدث الضحك، عندما يصطدم السلوك النشاز بالوسط المضيف، أو يخرق حواجزه (قواعده)، كما تبيّن الرسمة التالية:



الشكل رقم ٢٤

(٦٧) من السماع. النكتة منشورة أيضاً في مجلة: الموعد، العدد ١١٧١، تاريخ ٣ آب ١٩٨٥.

فكان المفترض أن يتحول المسار ح من على آ إلى ذ، انسجاماً مع الوسط ب، لكنه تابع وخرق هذا الوسط، فأغضب أهل الوسط ب وأحرج أهل الوسط آ، وأضحك القارئ. أضحكه على من؟ ربما على جماعة آ أو على جماعة ب، بحسب النكتة المروية. في النكتتين السابقتين ضحكنا على القروي والبنت البدوية، ولا شك أن لدى أبناء الريف والبادية نكات تسخر من أولاد المدينة.

طريقة النشاز هي طريقة اللاتناسب أو اللاتناغم أو اللاانسجام، أشبه ما تكون بالصوت النشاز ضمن جوقة موسيقية، أو بعزف آلة خرجت عن النوطة أثناء تأدية لحن معين. وهي كثيرة الاستخدام في الكوميديا، ربما تأتي بالدرجة الثانية بعد المبالغة مباشرة. أعمال شارلي شابلن عن شارلو المتشرد تقوم أساساً على هذه الطريقة: «ما يضحكنا أولاً هو التنافر بين شارلو وملابسه، ولذلك يبدو في حالة تنكر دائم بملابسه...». «ويبدأ الضحك من عدم اعتراف المتفرج، الذي يعرف شارلو جيداً، بلياقة المتأنق، ومن الجدية الواهمة التي يحاول التشبث بها لينسجم مع قناعه». من ناحية «يحلم بالارتقاء فوق طبقته وإمكانياته»، ومن ناحية أخرى يعبّر عن «ضغينة متأصلة ضد الرأسماليين الذين يظهرون في أفلامه ضخاماً قساة القلوب»[٦٨]. كذلك دريد لحام يستخدم طريقة النشاز، وخاصة في فيلم «الصعاليك» الذي يقاسمه البطولة فيه نهاد قلعي. كما أن الاجتماع البشري يقدم عفوياً الكثير من نكات هذا النوع: «في أحد الأعياد التقت مذيعة تلفزيون سورية بشرطي سير على رأس عمله. سألته: منذ متى تعمل أنت هنا؟ أجاب: منذ عشرين سنة. فقالت له المذيعة: العمر كله، إن شاء الله!». بصراحة، أنا شخصياً عانيت في فتوتي كثيراً من مشكلة القول المناسب في المناسبات. مثلاً، يقول المواطن السوري بعد تناول قهوة الضيافة: دايمه. لكن هذا القول لا يجوز بعد شرب قهوة التعزية، بل على المرء أن يقول: الله يرحمه. وكم يحدث أن ينفجر الضحك في المآتم

(٦٨) زهير الجزائري: في مئوية ميلاده - شارلي شابلن - الضحك والبصيرة، في مجلة: النهج، العدد ٢٥/ ١٩٨٩، ص٢١٦، ٣٠٨.

بسبب تعابير أو تصرفات غير مألوفة، أي غير موافقة للمناسبة. فلكل مقام مقال، ولكل ظرف سلوكه أو طقوسه.

هذه نكتة تقوم على القياس الخاطئ ثم على النشاز: «قال أحدهم لصديقه: تعال نعزّي زميلنا فلان بوفاة أبيه. قال له: أنا لا أعرف كيف يعزّون، لا أعرف ماذا أقول. قال: افعل كما أفعل أنا وقل ما أقوله! ذهب معه وفعل مثله، فصافح ابن الميت وقال له: البقية بحياتك، المرحوم ما كان أبوك وحدك، كان أبانا كلنا. هكذا تعلّم الرجل كيف يعزّي. ومرة ذهب يعزّي شخصاً ماتت زوجته، فقال له: البقية بحياتك، المرحومة ما كانت مرتك وحدك، كانت مرتنا كلنا!». أخيراً هذه نكتة شعبية على طريقة النشاز (الكلام غير اللائق) فحسب، قد لا تعجب الكثيرين، لكن العامة تضحك منها دون أي إشكال: «مريضة ذهبت إلى عيادة طبيب. كشف عليها الطبيب وسألها: كيف خروجك؟ فأجابت: أوقات أوقات مثل الشوربة التي تأكلها، وأوقات أوقات تضرب رأسك تفجّه!».

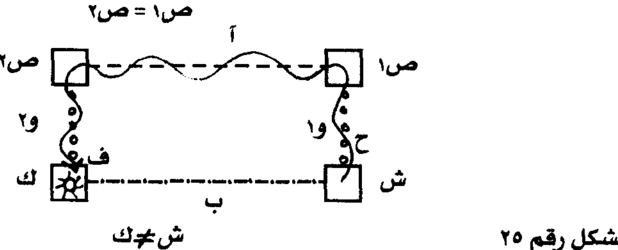
١٤ـ النمط الرابع عشر ـ المحاكاة والتشبيه

هنا يلتقي القطبان المتوازيان من خلال عنصر مشترك بينهما. هذا العنصر المشترك قد يكون صفة معينة. هنا يحل جزء سلبي من الكيان الأصلي محل الكل، ليقابل شبيهه الاعتيادي في كيان آخر الذي بدوره حل محل كله. هذا يعني أن من بين صفات كثيرة لإنسان معين تؤخذ صفة واحدة تجمعه بكائن أقل قيمة، ومن خلال ذلك يصبح الإنسان المعني هو الكيان الآخر (بحكم اشتراكهما بجزئية واحدة). وإذا لم تكن الصفة سلبية والكائن أقل قيمة، فلا باعث للضحك. مثال ذلك أن فلاناً من الناس يتصف بالغباء، يشترك في ذلك مع الحمار. فيقال إن فلاناً حمار، بدل أن يقال «غبي». من بين جميع الصفات التي يتحلى أو يتبشع فيها هذا الشخص جرى أبراز صفة واحدة، هي الغباء. في الطرف الثاني ثمة كائن يشتهر بالصفة نفسها، فهي معممة عليه سلفاً أو يمكن تعميمها بحكم اشتهارها أو سيادتها أو غلبتها على بقية صفاته. الذي يحدث هو أن هذا المشترك يوحد بين الاثنين المختلفين جوهرياً. هذا هو الأساس، فقد جرى تعميم الصفة ذاتها على المشبه أيضاً. وهذا التعميم يعتبر نوعاً من المبالغة، إنما ليس بمعنى تضخيم الكيان، كما في الإمكانية الثانية عشرة، بل بمعنى تضخيم الجزء ليشمل الكل ذاته. في ذلك تبدو هذه الطريقة معاكسة لطريقة المواربة (الإمكانية الخامسة). مثال هذا النموذج هذه النادرة من الجاحظ عن الجاحظ نفسه:

«أتتني امرأة وأنا على باب داري، فقالت لي: لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي. فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي وقالت له: مثل هذا. وانصرفت. فسألت الصائغ عن قولها، فقال: إنها أتت إلى بفصٍّ، وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان. فقلت لها: يا ستي، ما رأيت الشيطان. فأتت بك وقالت ما سمعت!»[٦٩].

(٦٩) نوادر الجاحظ، ص١٩.

يمكن تصوير هذه البنية على الشكل التالي:



الشكل رقم ٢٥

من هذه الرسمة نجد أن الطرف الأول ش المختلف نوعياً عن الطرف الثاني ك قد تساوى به من خلال الصفة المشتركة بينهما ص١ و ص٢. بالطبع ليس هذا هو الشكل الوحيد لهذا النموذج من النكات. هناك المحاكاة والتقليد. وهذه تكثر في الإضحاك الحياتي وكذلك في الإضحاك الثقافي، إنما ليس في النكتة. مجرد تقليد حيوان بالصوت أو الحركة قد يضحك، بسبب المفارقة بين اختلاف الكائنين وتماثل الصوتين أو السلوكين. من الأمثلة القليلة نسبياً على ذلك هذه النكتة السماعية: «أتعرف كيف تقاقي الدجاجة الصعيدية؟ - تقول: بق، بق، بقيق!» (بالقاف البدوية أو الصعيدية وباللهجة الصعيدية المميزة). وهذه نكتة يقلد فيها الحيوان الإنسان: «أحدهم عنده كلب مدرب. أرسله بأغراض إلى البيت. بعد زمن رجع الكلب لعند صاحبه. سأله: أوصلت الأغراض؟ أجاب الكلب يهزّ رأسه: هاو. - رأيت معلمتك؟ - هاو. - عندها أحد؟ - هاو هاو. - هل يفعلان شيئاً؟ - هاو هاو هاووو (نكتة سماعية، يجري فيها مطّ الواو الأخيرة).

وتكثر التشبيهات في الأمثال الشعبية، حيث يلتقي القطبان المشبّهان بصورة استثنائية في الحالة التي هما عليها أو في النتيجة التي يصلان إليها، وبغير ذلك لا صلة للواحد منهما بالآخر. وهذا يتفق مع رأي المبرد: «المثل مأخوذ من المثال، وهو قول سائر يشبّه حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه»(٧٠). من شواهد ذلك: «مثل اللي بيحك قفا غيره!»، «مثل

(٧٠) نقلاً عن علي الخليلي، ص١٠.

عزيمة الحمار ع العرس»، «الأغنيا البخلا زي الحمير، تشيل دهب وتاكل شعير»[٧١]، «رايح جاي مثل بيضات المغربل»، «مستورة سترة المعزي». وفي القرآن الكريم نجد عدداً من التشبيهات الباسمة: «مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا»، «واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير»[٧٢]. وهذه نكتة تشبيهية قدمتها لنا الحياة السياسية اللبنانية: «جاء وفد من أهالي القرى المجاورة لصوفر إلى حبيب باشا السعد للتهنئة. وبعد تناول الضيافة، طلب شيخ الضيعة الكلام، ووقف أمام الباشا، فصاروا يسكتون بعضهم بعضاً ليسمعوا خطبة الشيخ. ولما ساد السكون قال: بقى، يا باشا، كلمتين مختصرات، ما بدي طول عليك ولا على السامعين، أنت عندنا مثل الثور، ونحن مثل الدبان قدامك، إذا رفعت دنبك عشنا، وإذا نزلته نموت»[٧٣]. وإذا أردنا يمكن أن نعدّ هذه السالفة من نكات النشاز أيضاً. أما النكتة التالية فتشبيهية خالصة: «مرض أحدهم، فذهب لعند البيطري. استغربت الناس، فقال لهم: ليش حتى ما روح لعند البيطري؟! أفيق مثل الحصان، وأشتغل طول النهار مثل الحمار، وأرجع من الشغل إلى البيت ألهث مثل الكلب، وفي الليل أنام إلى جانب بقرة!». وفي ختام هذه الفقرة مثال آخر من التراث الفكاهي العربي: من نوادر ابن أبي عتيق أنه «لما سمع قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

فأتتها طبّة عالمة تمزج الجدّ مراراً باللعب
تغلظ القول إذا لانت لها وتراخي عند سورات الغضب

قال لعمر: ما أحوج المسلمين إلى خليفة يسوسهم مثل هذه!»[٧٤].

---

(٧١) هذا المثل نقلاً عن: حمصي، ص٧٨. البقية من السماع. انظر مصادر أخرى للمثل الشعبي: سلامة عبيد، أمثال وتعابير شعبية من السويداء. عبد الكريم الحشاش: الأسرة في المثل الشعبي. عوض سعود عوض: دراسات في الفولكلور الفلسطيني. سهام ترجمان: يا مال الشام. أحمد تيمور باشا: الكنايات العامية، ط٢، الشركة الشرقية، بيروت ١٩٧٠. وغيرها.

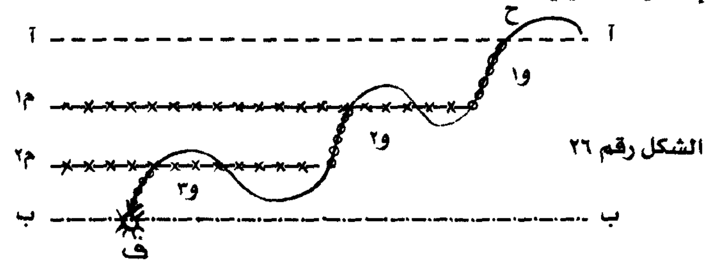
(٧٢) سورة الجمعة، الآية ٥. سورة لقمان، الآية ١٩.

(٧٣) باختصار نقلاً عن: المضحك المبكي، العدد ١٠٤١، تاريخ ٢٠ تشرين الأول ١٩٦٣، ص٢.

(٧٤) جمع الجواهر للحصري. نقلاً عن: ابن أبي عتيق، دراسة لعبد المعين الملوحي، في مجلة: المدى، العدد ٥، تاريخ ١/٢/١٩٩٤، ص٣٦.

١٥ـ النمط الخامس عشر - التدرّج والزحلفة

يتمثل في طرق الوصول إلى الهدف تدريجياً، أي بخطوات متلاحقة، كل خطوة تمهد للتي تليها وتستدعيها بصورة غير متوقعة، في حين يتعذّر الوصول من المنطلق إلى الهدف بنقلة واحدة. يقابلها في عالم الجدّ «سياسة الخطوات» التي اتبعها واشتهر بها سيء الذكر كيسنجر في جولاته المكوكية بين العرب واسرائيل في عهد نيكسون. والشكل التالي يصوّر هذه الإمكانية التكتيكية:



الشكل رقم ٢٦

هنا يجري الحديث ح على المسار الاعتيادي آ لينتقل عبر عامل مساعد و١ إلى مستوى مرحلي أو مؤقت م١، لينتقل ثانية من هذا المستوى م١ إلى مستوى مرحلي ثان م٢ ومنه إلى الغاية النهائية ب التي ما كان إليها سبيل لولا هذه المراحل الوسطية م١، م٢... الخ. وهذه الطريقة قريبة من طريقة التمادي (البنية الثالثة) وربما صحّ دمجها فيها، مع فارق أن طريقة الزحلفة تتألف من نقلتين أو أكثر، بينما ليس في طريقة التمادي سوى نقلة واحدة:

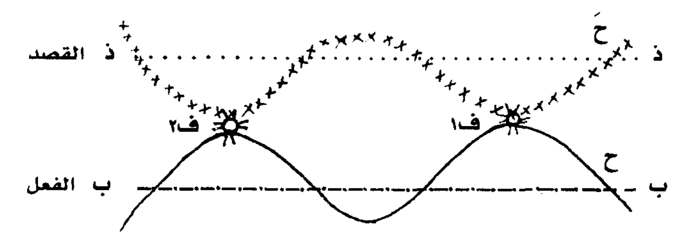
«دخل أبو دلامة على المهدي، فأسمعه مديحاً فأعجبه، وقال له: سل حاجتك. قال: كلب صيد أصطاد به. قال: قد أمرنا لك بكلب تصطاد به. قال: وغلام يقود الكلب. قال: قد أمرنا لك بغلام. قال: وخادم تطبخ لنا الصيد. قال: وأمرنا لك بخادم. قال: ودار نأوي إليها. قال: أمرنا لك بدار. قال: بقي الآن المعاش. قال: قد أقطعناك ألف جريب عامرة وألف جريب غامرة. قال: وما الغامرة؟ قال: التي لا تعمر. قال: فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفاً من فيافي بني أسد. قال: فإنا نجعلها عامرة

كلها»[٧٥]. مثال من الأدب الشعبي المعاصر: «قال صياد لصديقه: شفت مية ديب وديب. فاعترض الصديق: مية ديب؟! ما معقول، يا زلمه!. - يمكن كانوا خمسين ديب. - حتى خمسين، ما معقول. - يمكن كانوا عشرة. - ولا حتى عشرة. - يمكن كان ديب واحد. - لا، ما ممكن تكون شفت أي ديب، لأنه ما في دياب عندنا. فغضب الصياد وقال: يلعن أبو الكذاب، لكن شو اللي خش بالسنسال؟!»[٧٦]. وكمثال حديث، «قال الولد لجده: أعطني، يا جدي، خمس ليرات. فقال له الجد البخيل: ماذا؟ أربع ليرات؟ ما تفعل بالثلاث ليرات؟ عندي ليرتان، أتريد واحدة؟»[٧٧]. أخيراً هذا المثال: «في أسبوع العيد دخلت سيدة أحد محال الهدايا في لندن. قالت للبائع: أريد هدية لرجل متقدم في السن. قال البائع مقترحاً: ربطة عنق؟. قالت: لا، فللرجل لحية. قال: حزام؟. قالت: لا، لحيته طويلة جداً. قال: إذن شبشب!»[٧٨].

(٧٥) العقد الفريد لابن عبد ربه، المجلد الثالث، ص٣٧١.
(٧٦) عين الزهور، ص٢١٦ - ٢١٧.
(٧٧) سامر، العدد ٧١٦، تاريخ ٧/٤/١٩٩٤، ص٢٩.
(٧٨) حواء، العدد ٧٤٥، تاريخ ٢/١/١٩٧١، ص٤٧.

١٦ـ النمط السادس عشر ـ التهكم والقلب

وتتمثل هذه الإمكانية في قول أو فعل شيء يُراد به أو يُفترض أن يراد به عكسه، بقصد أو دون قصد. إذا كان قصداً فمن أجل التهكم أو لمجرد الإضحاك. وإذا كان عفوياً، أي غير مقصود، فبتأثير الرهبة أو كزلّة لسان، قد تفصح عن اللاشعور. مثال عن قلب الكلام: «دخلت امرأة على عمر بن الخطاب، وكان حاسر الرأس، وكان أصلع، فدهشت المرأة. فقالت: أبا غفر، حفص الله لك. وأرادت أن تقول: أبا حفص، غفر الله لك. فقال عمر: ما تقولين؟ فقالت: صلعت من فرقتك. وأرادت أن تقول: فرقت من صلعتك!»[٧٩]. وهذا مثال عن قلب (أو عكس) الفعل: «دخل ابن الجصاص يوماً على ابن الفرات، الوزير الخاقاني، وفي يده بطيخة كافور. فأراد أن يعطيها الوزير ويبصق في دجلة، فبصق في وجه الوزير ورمى البطيخة في دجلة. فارتاع الوزير وانزعج ابن الجصاص وتحيّر وقال: والله العظيم، لقد أخطأت وغلطت وأردت أن أبصق في وجهك وأرمي البطيخة في دجلة. فقال له الوزير: كذلك فعلت، يا جاهل. فغلط في الفعل وأخطأ في الاعتذار!»[٨٠]. ويمكن تصوير هذه البنية النكتية على الشكل التالي:



الشكل رقم ٢٧

تقنياً يجري بحسب هذه الطريقة السير على الخط الاستثنائي ب ظاهرياً، وهو يمثل القول أو الفعل الحاصل، وفي نفس الوقت السير على الخط

(٧٩) مجمع الأمثال للميداني، المجلد الأول، ص١٨٨.

(٨٠) أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي، ص٥٠.

العادي الموازي ذهنياً ذ، وهو يمثل القصد أو المراد بالنية قوله أو فعله. فقاع أحد المسارين هو ذروة المسار الآخر، والعكس بالعكس. وعندما تلتقي ذروة مسار الفعل بقاع مسار النية تحصل فرقعة الضحك. وقد لا يكون الفعل أو القول المعكوس عفوياً، بل مقصوداً، في حين يتظاهر الفاعل أو القائل بأن نيته حسنة. وهذه طريقة المغالطة.

تستعمل هذه الطريقة للتهكم، بحسب تعريفه[٨١]: «ضرب من السخرية التي تستعين بتبديل اللهجة، أو بعدم إعطاء الكلمات قيمتها الحقيقية، أو قيمتها الكاملة، على إفهام السامع أو القارئ عكس دلالة القول». أو هو «سخرية ترمي، بسائق اللهجة أو السياق، إلى سحب الدلالة الحقيقية عن الإشارات، لفظاً وصورة وصوتاً، أو سحب دلالتها الحقيقية التامة، بغية جعلها تدل على غير ما تظهر، أو عكس ما تظهر». مثال ذلك قول مدام دي ستايل: «إنني سعيدة جداً لأنني لست رجلاً، لأنني لو كنت رجلاً لاضطررت إلى الزواج من امرأة»[٨٢]. ومن أمثلة التهكم أيضاً: «قدم إعرابي في طيء فاحتلب لبناً ثم قعد مع زوجته ينتجعان، فقالت له: من أنعم عيشاً، نحن أم بنو مروان؟ قال لها: بنو مروان أطيب منا طعاماً، إلا أنّا أردأ منهم كسوة، وهم أظهر منا نهاراً، إلا أنّا نحن أظهر منهم ليلاً!»[٨٣]. ومن الأمثلة الحديثة: «التلميذ الكسول لزميله: أحياناً أحب مدرس الرياضيات. زميله: ومتى يكون ذلك؟. التلميذ: عندما يغيب عن المدرسة»[٨٤].

ومن الطرق التي تخضع لهذه البنية النكتية طريقة القلب التي اشتهر بها الشاعر أبو العبر في عهد الخليفة المتوكل. وقد شرح أبو العبر طريقته فقال: «كنا نختلف، ونحن أحداث، إلى رجل يعلمنا الهزل. فكان يقول: أول ما تريدون قلب الأشياء. فكنا نقول، إذا أصبح: كيف أمسيت؟ وإذا أمسى:

(٨١) عادل العوا: أخلاق التهكم، ص١٥، ٩. وأبلغ تعريف له: «التهكم هو شتيمة متلبّسة بمديح». انظر القول المثال، ص١٤١.
(٨٢) المصدر السابق، ص٢١.
(٨٣) طبائع النساء لابن عبد ربه، ص٨٤.
(٨٤) عن مجلة: ماجد، العدد ٧٨٩، تاريخ ٦/٤/١٩٩٤، ص٦٢.

كيف أصبحت. وإذا قال (تعال)، نتأخر إلى الخلف». «ومن تحامقه في قلب الأشياء قوله: أما قبل فاحكم بنيانك على الرمل، واحبس الماء في الهواء، حتى يغرق الناس من العطش، فإنك إذا فعلت ذلك أمرتُ لك كل يوم بسبعة آلاف درهم ينقص كل درهم سبعة دوانيق»[٨٥]. ويطلق على هذه الطريقة أيضاً «العكس»، «وهو أن تقدم جزءاً في الكلام ثم تؤخره بأن تؤخر ما قدمت، وتقدم ما أخرت، مثل قول أحدهم يسخر من صديق له غضب لمزاحه معه: ليس الضحك بداية سيئة للصداقة، ولكنه نهاية حسنة»[٨٦].

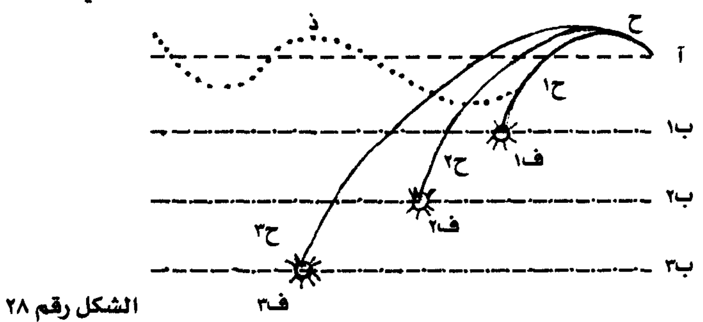
---

(٨٥) أحمد الحسين: مقالات في أدب الحمقى والمتحامقين، دار الحصاد، دمشق ١٩٩١، ص١٥٢، ١٦١.

(٨٦) نعمان طه: السخرية في الأدب العربي، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، ١٩٧٩، ص٥٠/ ٥١. يرجع في ذلك إلى: زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع للحملاوي، مصر ١٩٠٦، ص١٥٤.

١٧ـ النمط السابع عشر ـ النسبية

النسبية حقيقة من حقائق الحياة البشرية على الكرة الأرضية، وتعني بالخطوط العريضة أن الأمور تختلف بحسب الشخص الناظر إليها أو بحسب زاوية النظر إليها. المضحك هو أن ترينا النكتة، خلافاً لفهمنا، احتمالاً لا نراه ولا نتوقعه، ويظهر مع ذلك أنه صحيح: «الجدة: قل لي، يا صغيري، ماذا تتمنى أن تعمل، عندما تصبح كبيراً؟ الحفيد: أريد أن أكون طبيباً، كي تفرح ماما؛ ومهندساً ليفرح بابا؛ وبائع حلوى كي أفرح أنا»(٨٧). مثال آخر: «سألت الضيفة الطفلة: كم عمرك، يا صغيرتي؟ أجابت الطفلة: حسب الظروف! قالت الضيفة: وكيف ذلك؟ قالت الطفلة: في المنزل والمدرسة ٨ سنوات، عند دخول السينما ١٦ سنة، وعند ركوب القطار ٣ سنوات فقط!»(٨٨). ويمكن أن نعبّر عن هذا النمط بالشكل التالي:



الشكل رقم ٢٨

من على المستوى الأصلي آ تتفرع عن الحركة الأصلية ح عدة حالات ح١، ح٢، ح٣... وقد تكون موضوعياً جميعها صحيحة، كما في المثال الأول؛ أو قد تكون صحيحة ذاتياً فقط، في حين تبقى هناك حقيقة موضوعية واحدة ذ تتواجد على المستوى الأصلي آ، كما في المثال الثاني. وعند التقاء أي فرع ح١، ح٢، ح٣... مع المسارات الموازية ب١، ب٢، ب٣...، تحدث

(٨٧) أسامة، العدد ٢٩٢، تاريخ ١٩٨١/٣/١٦، ص٧. واردة أيضاً في: ماجد، العدد ٧٨٩، تاريخ ١٩٨٤/٤/٦، ص٦٢.

(٨٨) ماجد، العدد ٧٨٩، مذكور سابقاً، ص٦١.

فرقعة الضحك ف١، ف٢، ف٣... جدير بالذكر أن نمط النسبية ليس كثير الاستخدام، لأنه نسبياً محدود في تعبيراته، وكثيراً ما يأتي كنمط مركّب مترافقاً مع نمط آخر، كما في المثال الثاني والمثال الثالث التالي: «فحص طبيب الأمراض النسائية صبية فحصاً دقيقاً، ثم قال لها: عندي لك خبر سار، يا سيدة شولتسه!. فقاطعته الصبية قائلة: آنسة شولتسه. - إذن، يا آنسة شولتسه، فعندي لك خبر مزعج!»(٨٩). وكمثال أخير: «تعارف رجلان في أحد المطاعم. قال أحدهما للثاني: زوجتي لا تعدّ الطعام، ولذلك أتناول طعامي هنا، وأنت؟ قال: أنا أتناول طعامي هنا، لأن زوجتي على العكس هي التي تعدّ الطعام!»(٩٠).

في الختام

تلك كانت الأنماط التي استطعنا رصدها في النكتة، وهي تمثل الأشكال الرئيسية التي تتخذها بنية النكتة: تبادل الأدوار، القياس على الخطأ، التمادي (في المرفوض)، استغراب المألوف، تداخل العوالم (الخلط)، تماهي المتناقضات، الحلقة المفرغة، المواربة، التحريف، الانفصام (التورية)، الإغفال والتلميح، المبالغة، النشاز، المحاكاة والتشبيه، التدرج والزحلفة، التهكم والقلب، وأخيراً النسبية. وثمة تنويعات على هذه الأنماط. على أنه من الضروري أن أضيف، وإن كان هذا واضحاً للقارئ، أن عملنا هنا (يشبه علم العروض) لا يهدف إلى إعطاء مساطر يقيس المبدع عليها نكاته. مثل هذا الصنيع يخلق نكات مصطنعة، أو لنقل: هياكل نكات. إبداع النكتة يحتاج إلى موهبة وثقافة وخبرة حياتية، مثل أي أدب أو فن. لكن، بوجود هذه الأثافي الثلاث يمكن للمبدع أن يستفيد من دراستنا، فيضبط عمله ويشذّبه ويحسّنه. أما بالنسبة للقارئ فمعرفة بنية النكتة وتقنياتها هي الفائدة، وما من فائدة أهم من المعرفة.

(٨٩) الطبيب في مرآة الفكاهة، ص٩٢. منشورة أيضاً في: الموعد، العدد ٥٣١، تاريخ ١٩٧٢/١١/٩، ص٨٢. وكذلك في: الشبكة، العدد ١٣٥٦، تاريخ ١٩٨٢/٣/٨، ص٨٨.
(٩٠) حواء، العدد ٧٢٨، تاريخ ١٩٧٠/٩/٥، ص٥٣ (ومع تعديل طفيف في الصياغة).

الفصل الرابع

تربوية النكتة

تتطلب النكتة عموماً ثلاث شخصيات: الشخصية الأولى هي مبدع النكتة أو راويها. وهذا شخص غير حيادي، حتى لو كان مجرد راوٍ للنكتة، إذ يصحّ أن نسأله: لماذا يروي النكتة، ولماذا هذه النكتة وليس غيرها. فهو لن يروي النكتة إن لم يكن: إما (١) يؤيد مضمونها، أو (٢) ليس لديه اعتراض على هذا المضمون، لأنها تمسّ الغير، أو (٣) لا يهمه المضمون في سبيل أن يضحك الآخرين طمعاً في مكافأة مادية أو معنوية. للمبدع أو الراوي إذن مأرب من النكتة التي يرويها، وهذا المأرب يتعلق بالشخصية الثانية أو الثالثة. الشخصية الثانية هي المستهدفة مباشرة من النكتة، وهي التي تدور حولها أو التي تتحدث عنها النكتة؛ هي البطل الأدبي و/ أو الفكرة التي يُراد الدفاع عنها أو دحضها. «البطل» في هذا النوع الأدبي سلبي عادة، لأن النكتة تريد الوصول إلى الإيجابي من خلال السلبي. وليس عبثاً أن المعنى اللغوي للنكتة هو «النقطة السوداء على الصفحة البيضاء». بالطبع يتحدد السلبي أو تتحدد النقطة السوداء بمنظار المبدع أو الراوي وكذلك - في الأحوال العادية - بالنسبة للمتلقين؛ والغاية هي الدفع لإزالة هذا السواد: «كان محمد البابلي - وهو من كبار ظرفاء مصر - جالساً في مقهى بميدان الأوبرا، وكانت المدارس والدواوين مغلقة لإضراب الطلبة والموظفين، فمر به شحاذ جعل يستجدي رواد المقهى في إلحاح ثقيل

وصوت قبيح، فالتفت إليه البابلي قائلا: يا أخي، أضرب لك يوم، انت معندكش وطنية؟!»[١].

في الغالب تتضمن النكتة أكثر من بطل، على الأقل بطلين، وهذا ضروري للحوار الذي يسود عموماً في النكتة. عندئذ قد يكون أحدهما هو المستهدف أو كلاهما: «المتسوّل: أعطني رغيفاً. ـ السيدة: ليس عندي خبز. ـ المتسول: أعطني قطعة لحم. ـ السيدة: ليس لدي لحم. ـ المتسول: أعطني أيّ شيء. ـ السيدة: ليس عندي أيّ شيء. فصاح المتسول: هيا نتسوّل معاً!»[٢]. هنا، المرأة هي المستهدفة وليس الشحاذ رغم سوء التسوّل، بينما في النكتة السابقة كان المتسول هو المستهدف وليس محمد البابلي. في هذه النكتة لعب البابلي دور الوسيط للوصول إلى المتسول، وفي النكتة التالية لعب المتسول دور الوسيط لنقد المرأة المدعية المتمسكنة. وهذه نكتة تضحكنا على بطليها: «ظل الصبي خلال سنوات يسمع أباه يشيد بفضائل الاقتصاد، إلى أن كان يوم رجع فيه من المدرسة لاهثاً وقال بفخر: لقد اقتصدت الآن خمسين قرشاً، فاتتني الحافلة، فركضت وراءها حتى وصلت إلى البيت. فردّ أبوه: لقد كان عملك في غاية الغباوة، في المرة القادمة اركض وراء سيارة أجرة فتقتصد أكثر»[٣]. فكلا البطلين مستهدف هنا، لأن النكتة تنتقد البخل.

يلاحظ أن الكثير من النكات يستهدف أشخاصاً معينين، لذاتهم، لكن الأكثر منها يستهدف طبعاً أو موقفاً أو سلوكاً لديهم. هذا الطبع أو الموقف أو السلوك قد يتجسد في أشخاص، وقد يظهر مجرداً، بحيث تنعدم الشخصية الثانية، كما في النكتة التالية من الاتحاد السوفييتي:

(١) أحمد رامي: أظرف من عرفت، في مجلة: الهلال، عدد كانون الثاني ١٩٤٧، ص١٢٤. وردت أيضاً في مجلة: آخر ساعة، العدد ٣٠٩٠، تاريخ ١٢ كانون الثاني ١٩٩٤، ص٥٢.

(٢) في مجلة: سعد، العدد ٧٤٥، تاريخ ١/١٠/١٩٨٤، ص٢٧. يبدو أن النكتة تراثية، انظر المستطرف للأبشيهي، ج٢، ص٣٢٣، نقلها الأبشيهي عن الجاحظ.

(٣) الموعد، العدد ٦٦١، تاريخ ٨/٥/١٩٧٥. منشورة أيضاً في: المختار، العدد ١١٠، كانون الثاني ١٩٨٨، ص٢٧.

«للاشتراكية خمس علامات تدل عليها: ـ لا أحد يعمل، إنما الخطة تتحقق. ـ الخطة تتحقق، لكن لا شيء في السوق. ـ لا شيء في السوق، لكن البيوت تتموّن. ـ البيوت مموّنة، لكن الناس غير مبسوطة. ـ الناس غير مبسوطة، لكن الكل يقول نعم». وقد تتوحد الشخصية الثانية مع الشخصية الأولى: «قال مارك توين: إن أغرب الناس هم الذين يجدون صعوبة في ترك التدخين، فقد تركته أكثر من ألف مرة!»(٤).

الشخصية الثالثة في النكتة هي المتلقي، المستمع أو القارئ. عن طريق نقد الشخصية الثانية يريد الراوي أن يؤثر على وعي المتلقي، فيقدم له شيئاً جديداً أو يدعم ما عنده من قناعات أو ربما أيضاً يزعزع فيه قيمه دون أن يقدم قيماً جديدة. فالشخصية الثالثة مستهدفة هي الأخرى، إذن، إنما بصورة غير مباشرة. بالطبع، ثمة نكات تهدف إلى تقويم الشخصية الثانية، وكذلك ثمة نكات أخرى لا تلعب فيها الشخصية الثانية سوى دور المطية للتأثير على الشخصية الثالثة. فيما ذكرنا آنفاً عن الصبي وأبيه لا تريد النكتة ولا تستطيع أن تجعل هذين البخيلين كريمين، بل تسعى إلى تحقيق ذلك في المتلقين. بالإضافة إلى أن هناك نكات لا تريد أن تصلح، لا الشخصية الثانية ولا الثالثة، بل تتضمن توكيداً للذات الراوية والمتلقية تجاه الأشخاص المستهدفين، أو تبغي تنفيساً عن همومها على حساب أولئك، إلى آخره من الغايات: «بدوي زار المدينة. عندما عاد إلى ربعه، سألوه: ايش عملت بالمدينة؟ قال: أكلت موز. ـ كيف شفت الموز؟ ـ والله ما طيّب، كلّه بزر!».

في الفصل السابق (أي الثالث) انحصر حديثنا في مبدع النكتة، حيث تساءلنا: كيف يصل إلى إضحاك الآخرين، ما هي طرقه ووسائله. اهتمامنا انصبّ إذن على الناحية التقنية في النكتة. وهي الناحية الفنية في هذا النوع من الأدب. ما يهمنا في هذا الفصل هي الشخصية الثانية، كيف تتناولها النكتة المتداولة، شفهياً أو كتابياً، على المستوى العربي عموماً

(٤) عن: العربي، العدد ٣٦١، كانون الأول ١٩٨٨، ص٦٦.

والسوري خصوصاً، وكيف تؤدي من خلال هذه الشخصية وظيفتها التربوية. ونقصد بالتربية: التعليم والتوجيه والتوعية...

- آ -

هناك ستة أنواع من النكات التي تتناول الأفراد: ثلاثة منها تتناول أشخاصاً معينين معروفين، على الأقل من قبل ناقل الحكاية ومتلقيها، معرفة تاريخية أو ثقافية أو من الواقع الاجتماعي. وبحسب ايجابية أو سلبية مكانة هؤلاء الأشخاص في نفوس الناس، إما أن تمازحهم النكتة بمحبة، أو تجرّح بهم، أو بين بين فتجرح وتداوي - كما يقال -، أو أنها تبغي عن طريقهم شيئاً رابعاً، شيئاً تربوياً من خلال تقديم مثل أعلى أو عبرة أو حكمة معرفية. في كل الأحوال تلعب هذه النكات دوراً تربوياً، ايجابياً أو سلبياً، حتى لو لم تقصد ذلك. هذا لأن عامة الناس ميّالة إلى تقليد المشاهير الايجابيين في محاسنهم ومساوئهم، وإلى نبذ المشاهير المقيمين سلبياً، حتى في محاسنهم. هذه الشخصيات قد تكون أولاً حقيقية، وقد تكون ثانياً حقيقية مؤسطرة مثل جحا وأبي نواس وأشعب وقراقوش، أو ثالثاً مبتدعة لا وجود لها كأشخاص بلحم ودم مثل كراكوز وعيواظ والأجدب الحمصي وكذلك غوار الطوشة وحسني البورظان وقبلهما شخصيات حكمت محسن: أبو رشدي وأم كامل وأبو فهمي. هذه الشخصيات الأدبية والفنية المؤسطرة والمبتدعة توظفهم النكتة كمعلمين للناس أو كعبرة لهم، وجحا هو المعلم الهزلي الأول لدى عامة العرب.

أهم الشخصيات الحقيقية في أدب النكتة هم الظرفاء، وهم أشخاص يعيشون النكتة، يروونها ويبتدعونها في حياتهم اليومية. لنقل، إنهم ينظرون إلى الأمور من جانبها الضاحك، يرون الحياة بمنظار الهزل والسخرية، إلى هذا الحدّ أو ذاك. على المستوى العالمي يأتي في مقدمة الظرفاء الذين تذكرهم المصادر العربية: برنارد شو ومارك توين وتشرشل وغيرهم. مما يروى عن مارك توين: «أنه التقى يوماً بصاحب بنك شهير، فقال له هذا الأخير: إنني على استعداد لأن أعطيك ألف جنيه إذا عرفت أي عين من

عينيّ هي العين الزجاجية التي صنعتها أخيراً. فلم يتردد توين في أن يقول له: إن العين الزجاجية هي العين اليمنى. فاشتد عجب الرجل وقال: كيف عرفت؟ فأجابه توين: لأنها هي العين التي يتراءى فيها شيء من معاني الرحمة والإنسانية»[٥]. أما على المستوى العربي فترد أسماء كثيرة، أذكر منها: سعد زغلول، حافظ ابراهيم، محمد البابلي، عبد العزيز البشري، أحمد رامي، أم كلثوم، رشيد الخازن، نجيب الريحاني، نجيب حنكش، فخري البارودي، فارس الخوري وعلي الجندي وغيرهم. يثير الانتباه ورود اسم أم كلثوم كامرأة وحيدة بين هذه المجموعة الكبيرة من الرجال. أظنها في هذا الميدان لا تقل تميزاً عنها في الغناء: «حضر مجلس أم كلثوم فنان ممن يرون من مظاهر الفن الأصيل عدم قص الشعر وقلة العناية بالثياب ونظافتها. وأراد رامي أن يداعب الفنان، فقال له: يا سلام، يا أستاذ، ايه الكرافتة الشيك دي؟! فأجابه الفنان: دي ثمنها اثنين جنيه. - اثنين جنيه؟ مش معقول!. فقالت أم كلثوم على الفور: مش معقول ازاي؟ طيب دا فيها زيت يساوي جنيه ونص!»[٦].

من سوريا أورد هذه النادرة عن فخري البارودي بحسب رواية نجاة قصاب حسن: «كنا ذات ليلة في اجتماع في المعهد الموسيقي برئاسة فخري بك وحضور الجميع ومن بينهم الأستاذ يوسف البتروني. احتدمت المناقشة في تلك الليلة حول السلم الذي تكتب عليه موسيقى العود، هل هي على مفتاح (الصول) أم على مفتاح (الدو). البارودي كان يقول بمفتاح الصول لأن كل الموسيقى التركية تكتب على مفتاح (الصول). البتروني أصرّ علي مفتاح (دو) لأنه الأنسب لطبقة العود بالنسبة للآلات. (صول)، (دو)، (صول)، (دو)، البتروني أثناء المناقشة (انزحم) وخرج لحاجة طبيعية، ودخل مرحاض المعهد في آخر الساحة الكبيرة. نحن لم نعرف إلى أين ذهب، وظنناه حرد وانسحب. فانتهى الاجتماع، وخرجنا فأطفأنا الأنوار وأغلقنا الباب، ورمينا عليه كالعادة قفلاً من الخارج خوفاً من السرقة...

(٥) انظر ١٠٠٠ نكتة، الجزء ١٢، ص٥٨ - ٦٠.
(٦) ١٠٠٠ نكتة، الجزء ١٢، ص٥٠.

عندما خرج الرجل ورأى ما حدث له، اتصل بفخري بك قائلا له: أنا محبوس، أرجوك ارسل لي مفتاح المعهد مع أحد الأشخاص ليخرجني. فحبكت النكتة مع فخري بك وقال له: تَرَس، خلّي مفتاح الدو يطالعك!»(٧).

إلى جانب نكات الظرفاء ونوادرهم يستهوي عامة الناس سماع القصص والنوادر عن شخصيات عامة مشهورة، تاريخية أو معاصرة، ذات مكانة مرموقة في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو الثقافة والفنون. هنا ترد أسماء كثيرة يصعب حصرها، ننتقي البعض منها عالمياً، من العصور القديمة والعصر الحديث: «قالت زوجة سقراط لزوجها: ما أقبح وجهك! فأجابها: لولا أنك من المرايا الصدئة لتبين لك حسن وجهي!»(٨). «كان لدى فولتير خادم كسول. وحدث يوماً أن تأهب فولتير لمغادرة داره. فوجد حذاءه قذراً. فدعا إليه الخادم وقال له وهو يحاول أن يكظم غيظه: أظنك نسيت أن تنظف حذائي اليوم؟ فأجاب الخادم على الفور: لا، ولكن ما الفائدة من تنظيفه؟ إن الطريق قذرة، فلن يلبث أن يتسخ من جديد. فأسرّها فولتير في نفسه. حتى إذا غادر الدار، تعمّد أن يأخذ معه مفتاح (الدولاب) الذي كان يحفظ فيه الأطعمة، وأعلن للخادم بأنه لن يتناول غداءه بالدار. فهتف الخادم: إذن اترك لي المفتاح. فسأله فولتير في غباء متعمّد: ولماذا؟ ـ لكي أحصل على طعام آكله في الغداء. ـ ولماذا تأكل؟ إنك لن تلبث مهما أكلت أن تجوع!»(٩). «كان من المقرر أن يقضي سيمون بوليفار (الذي حرر أمريكا الجنوبية من الاستعمار) ليلته في أحد الفنادق بإحدى قرى بيرو، فأرسل ياوره الخاص كلمة إلى صاحب الفندق يطلب فيها إعداد غرفة مناسبة للرئيس، وطعام جيد... الخ الخ الخ. وما كاد سيمون بوليفار يصل إلى الفندق حتى قاده صاحبه إلى غرفته ليشاهدها. فإذا به يرى ثلاث فتيات جميلات. فسأل عنهن، فقال له صاحب الفندق: إنهن الخ الخ الخ!»(١٠).

(٧) جيل الشجاعة – حتى عام ١٩٤٥، دمشق ١٩٩٤، ص٣٠٩ – ٣١٠. مع بعض الاختصار.
(٨) التقويم العربي الهاشمي، ١٩٩٤/٧/٢٠.
(٩) الاثنين والدنيا، العدد ٦٩٤، تاريخ ١٩٤٧/٩/٢٩، ص٢١.
(١٠) الموعد، العدد ٥٩٣، تاريخ ١٩٧٤/١/١٧، ص٦١.

«قال الاسكندر الأكبر لقرصان أسره: كيف تجرؤ على انتهاك سلامة البحر؟ فرد القرصان قائلاً: إنني أمارس عملي من خلال سفينتي الصغيرة فقط، ولذلك يعتبرني الناس لصاً، أما أنت فتقوم بما هو أبشع من خلال أسطول ضخم فيعتبرونك امبراطوراً!»(١١). «بعد أن تزوج الشاعر الألماني غوته، هنأه صديق حميم له بزواجه. فقال الشاعر معقّباً على التهنئة: وهل يُهنّأ المرء على شراء ورقة يانصيب؟!»(١٢). «جلس نيوتن يوماً بجوار إحدى السيدات في مأدبة عشاء تكريماً له. وفجأة سألته السيدة: قل لي، يا مستر نيوتن، كيف استطعت أن تصل إلى اكتشافك هذا؟ وقال العالم الكبير في هدوء: المسألة في غاية البساطة، لقد كنت أقضي جانباً من وقتي كل يوم أفكر في هذه الظاهرة الغريبة التي تدفع الأشياء إلى السقوط إلى الأرض، إن التفكير وحده، يا سيدتي هو الذي هداني في النهاية إلى هذا الاكتشاف. وقالت السيدة: ولكنني أقضي ساعات طويلة من يومي أفكر وأفكر، وبالرغم من ذلك لم أستطع أن أكتشف شيئاً. وقال نيوتن: وفيم كنت تفكرين، يا سيدتي؟ قالت: في زوجي الذي هجرني، وانفصل عني بالطلاق. سألها نيوتن: وهل كنت تفكرين في زوجك بعد الطلاق أم قبله؟ قالت: بعد طلاقنا طبعاً. وهنا نظر إليها العالم الكبير وقال: لو أن تفكيرك في زوجك، يا سيدتي، كان قبل الطلاق، لاستطعت أن تكتشفي أنت أيضاً قانوناً للجاذبية من نوع آخر!»(١٣).

قبل أن أتابع ايراد الأمثلة أودّ أن أشير إلى أنني تقصّدت التنويع، ومع ذلك يستطيع القارئ أن يلاحظ معي، أن أكثر الشخصيات التي تتناقل المصادر العربية النوادر عنها هي أوروبية، في العصر القديم من اليونان، وفي العصور الحديثة من أوروبا الغربية وأمريكا. كذلك نلاحظ أن أكثر هذه الشخصيات ثقافية، ثم سياسية، ثم اقتصادية، ثم علمية. أما شواهد جيلنا فأكثرها فني. لعل هذا يعود سابقاً إلى اهتمام المثقفين الذين ترجموا لنا

(١١) نوام تشومسكي، في: البيان، حزيران ١٩٩٣، ص٩.
(١٢) الهلال، عدد تموز ١٩٤٨، ص٩٠.
(١٣) العربي، العدد ١٥٤، أيلول ١٩٧١، ص٨٣.

هذه النوادر، ثم لاحقاً إلى المجلات الفنية التي فرضت نفسها في السوق الثقافية وأوجدت لنفسها عدداً أكبر من القراء من عامة الناس وخاصتهم:

«قال ألكسندر توماس الأب وهو على فراش الموت: دعوهم يرمونني بالحجارة، فكوم الحجارة بداية التمثال!»[١٤]. «عندما فرّ نابليون من جزيرة ألبا في سنة ١٨١٥، نشرت إحدى الصحف الباريسية أنباء فراره في مقالات كتبتها على عدة أيام، وصدّرتها بالعناوين الآتية بترتيب الصدور: - فرار الوحش الكورسيكي. - وصول السفاح الأكبر إلى خليج جوان. - المغتصب يدخل مدينة جرينوبل. - بونابرت يقترب من مدينة ليون. - نابليون يشقّ طريقه إلى فونتنبلو. - صاحب الجلالة الإمبراطورية يصل غداً إلى باريس المخلصة!»[١٥]. «المعروف أن جان جاك روكفلر الغني المشهور أصلع وليس في رأسه أثر للشعر. وحدث ذات يوم أن علق جدال بين شابين حول ثروة روكفلر. فقال الأول: إن روكفلر عنده دولارات على عدد شعر رأسك. فأجابه الثاني على الفور: وأنا عندي دولارات على عدد شعر رأسه!»[١٦]. «كان سلفادور دالي يقول: إنني شبيه لبيكاسو في كل شيء: فبيكاسو من أصل إسباني وأنا كذلك، وهو يحب جمع المال وأنا كذلك، وهو عبقري وأنا كذلك، وهو شيوعي وأنا لست شيوعياً كذلك!»[١٧]. «مواطن من قرية ماركيز يقول لجاره: لقد نال ماركيز جائزة نوبل للآداب. فيردّ جاره: ومن هو هذا الماركيز الذي تتحدث عنه؟ ـ إنه شقيق كوكويا. ـ اللعنة عليك، لماذا لم تقل لي على الفور إن لدى كوكويا شقيقاً يعمل بالكتابة؟!»[١٨]. «كانت النجمة جلوريا دي هافن تشهد أحد الأفلام السينمائية، وهي ترتدي قبعة كبيرة ضايقت الجالس خلفها، فقال لها: أرجو أن تنزعي قبعتك، فقد دفعت ريالين لكي أشهد الفلم. فأجابت ضاحكة: معذرة يا سيدي، فقد دفعت أنا أيضاً

(١٤) الموعد، العدد ٦٨٥، تاريخ ١٩٧٥/١٠/٢٣، ص٥٧.
(١٥) ١٠٠٠ نكتة، الجزء ٢٠، ص٣٥.
(١٦) المضحك المبكي، العدد ١٠٠٩، تاريخ ١٩٦٢/١١/١٨، ص٢.
(١٧) رحلة مع الظرفاء، ص١١٣ - ١١٤.
(١٨) عن سهيل خليل في جريدة: الوحدة، عدد ١٩٩١/٦/١١، ص٤.

مئتي ريال ثمناً للقبعة لكي يراها الناس!»[١٩].

من بين النكات التي تتناول الأفراد ثمة ثلاثة أنواع أخرى تستهدف أفراداً غير محددين بشخوصهم، وهي: رابعاً، نوع ينتقد أناساً بما يعرفون به من طباع وآراء وتصرفات، أو من انتماءات وولاءات. في هذا الفصل سوف نستبعد الانتماءات والولاءات، لأنها لا تخص الفرد بقدر ما تخصّ الجماعات من أقوام وطبقات وأحزاب.. كما أننا سنفرد لنكات المحرمات زمناً وحيّزاً مستقلين تستحقهما. خامساً، نوع يتناول أيضاً أفراداً غير محددين بالاسم، لكن نكاته لا تهتم لآرائهم وطباعهم وتصرفاتهم، ولا لهويتهم الانتمائية والولائية، بل تبغي من تناولهم أشياء أخرى توصلها إلى المتلقين. سادساً، نوع يتحدد فيه الأفراد بمهنهم التي ينطبعون (على زعم النكات المعنية) بطابعها، بالتالي فالنقد موجه فيها إلى المهنة وصاحبها على حد سواء، مع ميلان إلى هذه الكفّة أو تلك. على هذه الأنواع الثلاثة بالدرجة الأولى سوف نعتمد في دراستنا للوظيفة التربوية للنكتة. أما الأنواع الثلاثة الأخرى، المذكورة أولاً، فلا تهمنا بعد الآن إلا بقدر ما تخدم الغاية المذكورة. إذن، ليس المقصود هنا أفراداً معينين، المقصود بالأحرى: طباع الناس وسيرهم. في هذا وبهذا المعنى نميّز بين: (آ) أناس مرفوضين أو مدانين لسوء طباعهم أو انحراف سلوكهم، و(ب) أناس منتقدين في لحظات معينة من حياتهم أو في تصرفات جزئية أو عرضية، و(ج) أناس لا مدانين ولا منتقدين، بل تبغي النكتة عن طريقهم إيصال أمر آخر إلى المتلقين، ولو مجرد الضحك.

ضمن هذا الإطار نتساءل: هل صحيح أن النكتة عدوانية في جوهرها، كما نقرأ لدى برغسون وفي كتب غربية أخرى مختصة؟ برأيي لا يمكن ببساطة تبني القول بعدوانية النكتة بصورة إطلاقية. قد تستهدف أفراداً مدانين ومنتقدين، ولا تكون مع ذلك عدوانية. كذلك قد تتناول أفراداً بريئين وتكون رغم ذلك عدوانية: «توفي أحد المعمّرين وأبت زوجته – وهي

(١٩) الاثنين والدنيا، العدد ٧٠٣، كانون الأول ١٩٤٧، ص٢٥.

امرأة مسنّة - إلا أن تشارك في تشييع الجنازة. وبعد دفن الجثة، انصرف المشيّعون. وكان التعب والحزن قد حطّم قوى الزوجة، فجلست على مقربة من القبر. ووقف الحانوتي يجاذبها أطراف الحديث. سألها عن سنها، فقالت إنها جاوزت المئة. وعندئذ هزّ رأسه قائلاً: على كده ما فيش لزوم أبداً تتعبي نفسك وترجعي البيت»[٢٠]. وهذا مثال من التراث العربي عن تسامح النكتة (= لا عدوانيتها) مع أفراد مدانين بحسب الأخلاقية السائدة: «زادمهر جارية الفاروجي، كتب إليها عاشقها: عصمنا الله وإياك برحمته. فكتبت إليه: يا أحمق، إن استجيبت دعوتك لم نلتق أبداً!»[٢١].

على العموم يبدو لي الحكم بعدوانية النكتة كالحكم بعدوانية قانون الجزاء. فإذا كان القانون يقضي بحبس أو تغريم شخص، فلأن هذا الشخص ارتكب جريمة أو جنحة أو مخالفة. هذا ما يفترضه المرء، وهذا هو الغالب، حتى مع الأخذ بعين الاعتبار جور كثير من القوانين وتحيّزها الطبقي والأقوامي (أو العنصري) في كثير من البلدان والأزمان. إنني لست مع الرأي بأن الرد على المسيء هو إساءة. فلا يستوي المرتكب والقاضي، إلا إذا كان الحكم ظالماً أو مبالغاً فيه، لا يتناسب مع حجم الإساءة، كما نجد عموماً في الشرعات القديمة وفي كثير من قوانين الدول الحديثة، المتخلفة وغير المتخلفة، والتي تبدو لي تهوى القتل والسجن، مع أنه لا يجوز القتل لغير القاتل، ولا السجن لغير الخطر على المجتمع[٢٢]. هذه الحالة العدوانية متواجدة في النكتة أيضاً، لكنها ليست القاعدة: «الصديق الأول: مضى لي سنوات وأنا أخجل من مقدار ما أشرب من الخمر. الصديق الثاني: لعلك إذن أقلعت عن شربها؟ الصديق الأول: لا، وإنما أقلعت عن الخجل!»[٢٣]. مثال آخر: «دخل رجل محلاً عرضوا فيه ببغاء

(٢٠) نقلاً عن مجلة: الاثنين والدنيا (القاهرة)، العدد ٦٩٩، تاريخ ١٩٤٧/١١/٣، ص٢٢.
(٢١) لطائف اللطف، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي، دار المسيرة، بيروت ١٩٨٠، ص٩٧ (الفقرة ١٦٥).
(٢٢) على هذا الأساس يقول برنارد شو: «الجريمة مخزن للبيع بالمفرق، يستمد بضاعته من مخزن للبيع بالجملة نسميه (قانون العقوبات)». انظر كتابه: مبادئ للثوار، ترجمة عبد المعين الملوحي، دار الينابيع، دمشق ١٩٩٢، ص١٣.
(٢٣) عن مجلة: العربي، العدد ٨٧، شباط ١٩٦٦، ص١٤٩.

للبيع. وكان الرجل مصاباً بالتأتأة. خاطب بتأتأته البائع قائلاً: هالبببغاء للبيع؟ فقال البائع: نعم. وعاد أخونا يقول: ببتحكي؟ أجابه البائع: نعم. وعاد أخونا يقول: ببببس ببتحكي مليح؟ فضاق صدر البائع وقال: على الأقل بتحكي أحسن منك!»[٢٤].

إنها نكتة قاسية تذكر بقسوة الأدب الشعبي (الحكايات). فما ذنب الرجل، إذا كان يتأتئ؟! وهل لا تستحق المرأة الحياة، إذا كانت مسنة؟! ومع سوء عادة شرب الخمرة، فمن القسوة أن نوصم صاحبها فقط لهذا السبب بأنه عديم الخجل. مع ذلك، تبقى قسوة النكتة كلامية معنوية، أقسى ما يصل إليه جورها هو الهجاء والشتيمة، وربما أيضاً تشويه الصورة في نظر الآخرين (المتلقين)، بينما قسوة القانون فعلية مادية، قد تصل خطورتها إلى سجن وقتل الأبرياء. والنكتة، التي تطرق هذا الباب مثل كل الأبواب، قد تضحكنا هنا أيضاً، إنما ضحكاً «أسود» أو «أصفر»، نستدل منه، لا على فرح العدل أو الشماتة، بل على قسوة ومرارة الفعل أو الظرف: «لما مضى سقراط ليُقتل، أقبلت امرأته تكبي وتصيح: وامظلوماه! فقال: أكان يسرّك أن أُقتل ظالماً؟!»[٢٥].

تجاوزاً أود تمييز الضحكة «الصفراء» و«السوداء» عن الضحكة العادية، ولنسمها «بيضاء». فالضحكة الصفراء هي ضحكة الخائب والمهزوم والمهان، يتقنّع بها لإخفاء شعوره بالخيبة أو بالهزيمة أو بالمهانة. فيتظاهر من خلالها بعدم الخيبة أو يكابر بعدم التأثر بالإهانة... هي لا تدل إذن على تلقي درس أو أخذ عبرة، بل الأرجح أن تخفي وراءها رفض النتيجة والتصميم على البدء من جديد أو الانتقام. فالنكات التي تستثير ضحكة صفراء، مؤداها لدى المستهدفين والمتعاطفين لاتربوي، وإن كان قصدها تربوياً: «سأل مدرس اللغة العربية أحد تلاميذه: إذا قلنا إن الرجل مصيب،

(٢٤) حنكشيات، ص١٨٣.

(٢٥) جمع الجواهر للحصري، ص٢٨٠، مع بعض الإضافة الضرورية. وردت أيضاً في: الفكاهة البلغارية، ص١٥.

فماذا نقول عن المرأة؟ فقال التلميذ: مصيبة!»[٢٦]. أما الضحكة السوداء فقد تكون تربوية، لا بمعنى الإصلاح والدفع للتغيير، وإنما بمعنى أخذ الحكمة وفهم الوجود، الأمر الذي يعزّي الإنسان ويمنحه قوة للصبر وتحمّل المصائب والأقدار: «ذهب المرحوم الشاعر البائس عبد الحميد الديب إلى أحد المنجمين ليكشف له عن طالعه، فقال له المنجّم: ستظل فقيراً سنة كاملة. فسأله الديب بلهفة: وبعد ذلك؟ فأجابه المنجم: ستكون قد تعودت على الفقر!»[٢٧].

إذن من الضروري التفريق بين عدوانية النكتة وتربويتها. وهي بخصوص الأفراد تربوية أكثر مما هي عدوانية، في حين أنها بخصوص الجماعات على الأغلب عدوانية لاتربوية. بالإضافة إلى ذلك أرى أن النكتة تفاؤلية في وظيفتها التربوية. فإذا كانت النكتة وعموم الكوميديا تبحث عن النقطة السوداء على الصفحة البيضاء، فهذا يعني أنها بالأساس متفائلة: البياض أي الخير (هنا) أو الاستقامة هو العام، والسواد أي الشرّ (هنا) أو الانحراف هو الاستثناء. فكم يكون الشر ضيلاً حتى نضطر إلى لفت النظر إليه، إلى إضاءته، تكبيره، إبرازه...، كي يراه الناس ويضحكوا عليه؟!. بالمقابل تبحث التراجيديا عن النقطة البيضاء (التي تمثل هنا الخير والاستقامة) على الصفحة السوداء (التي تمثل في هذا الميدان الشر والإنحراف). وهي لذلك متشائمة، نظرتها سوداوية، أو منطلقها تشاؤمي. لا غرابة في ذلك!. فالتراجيديا تلقط بصيص الأمل في ظلمة الحياة، فتكبّره وتوسعه وتعمقه، ليدركه الناس، فلا يقعوا في اليأس القاتل. تماماً كما تفعل التراجيديا مع بذرة الخير، تحاول الكوميديا أن تنمي بذرة السوء كي تظهر وتتكشف، فيمكن استئصالها. بصورة عامة: الكوميديا تعاقب الاستثناء الشرير، والتراجيديا تكافئ الاستثناء الخيّر. وهذه نكتة تناسب المقام: «في أمسية رسمية حضرها الشاعر بنيتشو سلافييكوف، كان بين

(٢٦) البعث، تاريخ ٢/٥/١٩٨٨، ص١٢.

(٢٧) العربي، العدد ١١٩/ تشرين الأول ١٩٦٨، ص١٠٥. وردت أيضاً في نضال الفلاحين، العدد ٤٨٩، تاريخ ٢١/١/١٩٨٦، دون ذكر لاسم الشخص. وكذلك في: ماجد، العدد ٧٧٨، تاريخ ١٩/١/١٩٩٤، ص٣٠.

المدعوين رجل قبيح ومغرور يدعي الثقافة والعلم في كل شيء. وبعد أن ثرثر كثيراً التفت إلى الشاعر سلافييكوف وسأله: قل لي من فضلك، وأنت الشاعر المعروف، ما هو الفرق بين الكوميديا والدراما والتراجيديا؟
- الفرق بسيط، وسأضرب لك مثلاً كي يكون أكثر بساطة: إن عدم معرفة الفرق بينهما هو بالنسبة لي كوميديا، وبالنسبة للآخرين دراما، أما بالنسبة لك فيجب أن يكون تراجيديا»(٢٨).

- ب -

نعود إلى غايات النكتة بخصوص الأفراد غير المحددين بالاسم، فنجد أن موقفها عدواني تجاه نماذج معينة منهم، لانحراف في سلوكهم أو طباعهم أو عقليتهم عن الخط الاجتماعي العام. وتختلف النماذج الفردية، التي تهزأ منها النكتة، من وسط اجتماعي لآخر ومن شعب إلى آخر أو من مجموعة حضارية إلى أخرى. على أن هناك نماذج مرفوضة على المستوى العالمي، وأخرى على مستويات محلية، وذلك بقدر ما تشترك البشرية في بعض القيم وتفترق في أخرى. ولا شك أنه من الطريف أن يُجري المرء دراسة مقارنة في هذا المجال. ما يهمنا الآن هو أن نستعرض - من خلال النكتة - النماذج المرفوضة على المستوى العربي عموماً والمستوى السوري خصوصاً. ربما على هذا المستوى الضيق نسبياً أمكننا أن نحصر هذه النماذج، لكنني لا أظن أنه بمقدورنا أن نرتبها بحسب الأهمية. هذا يعني أنه من الصعب جداً، حتى على مستوى محلي، أن نحكم، أية واحدة من مجموعات النكات هذه تأتي في المرتبة الأولى وأيها في المرتبة الثانية وهكذا. فحتى لو قبلنا بالكمية كمقياس للأهمية، فإمكانية الحكم تفترض أن نكون قد أحصينا تقريباً جميع النكات المتداولة من قبل العرب أو السوريين. وهذا شرط بعيد المنال. لذلك يبقى تصنيفنا التراتبي عند حدود الظن والترجيح. أما إذا غضضنا النظر مبدئياً عن تحديد المراتب، فنستطيع أن نعدد المجموعات التالية: نكات عن الجهلاء والمغفلين، عن القبضايات والجلاطين (الفشارين)، عن الشحاذين، عن التنابل، عن

(٢٨) الفكاهة البلغارية، ص١٥٣.

السكارى والمدمنين، عن اللصوص والمحتالين، عن البخلاء والطماعين، عن مدعي العلم والثقافة وأخيراً عن المخنثين.

ضمن حدود الظن والترجيح، التي ذكرتها آنفاً، أرى أن نكات التغفيل تحتل في الفكاهة العربية، ماضياً وحاضراً، مكانة مرموقة: «نظر رجل في الجبّ، فرأى وجهه، فعاد إلى أمه فقال: في الجبّ لص. فجاءت الأم فاطلعت فقالت: اي والله، ومعه فاجرة»(٢٩). ومن خلال تتبعي للنكتة في سوريا، لمدة ثماني سنوات تقريباً، لاحظت أن أكثر النكات تداولاً هي نكات «الحمصي» (وهي نكات عن «الأجدب» في الحقيقة، أو بالأحرى عن «المغفّل»)، ثم نكات أو نوادر جحا، المتوارثة والمخترعة (وهي بأغلبها عن الغفلة والمتغفلين): «واحد أجدب كان يطرش بيته. قالت له زوجته: خذ هذه الجريدة وضعها تحتك. قال لها: لا، أصل!». «حينما تولى جحا القضاء، جاء يوماً رجل يدعي على آخر، أنه عضّ أذنه. فدافع المدعى عليه قائلا: هو الذي عضّ أذن نفسه. فقال جحا: هل هو جمل حتى يعضّ أذن نفسه؟!»(٣٠).

ضمن حدود اطلاعي المتواضع، ما من شعب أكثر ضحكاً على الجهلاء والمغفلين من العرب: «كان لقرقوش باز يصيد به. فطار الباز ولم يعد إليه. فأمر بإغلاق أبواب المدينة ليرجع الباز، إذا أغلقت جميع الأبواب»(٣١). لقد أدهشني هذا الاكتشاف، نظراً للجهل والحماقة السائدين في زمننا هذا لدى العرب في جميع الميادين على جميع المستويات: «كان الفتى جريس في الفناء يستمع إلى أغنية عاللوما اللوما تذيعها محطة بيروت. فإذا بأمه تهرول من المطبخ وتصيح به: تقبر أمك، يا جريس، خيّك حنّا بيحب الغنية كتير، سكّر الراديو حتى تخليلو شوي منها»(٣٢). «كان أحدهم يعمل في حقله،

---

(٢٩) أخبار الحمقى لابن الجوزي، ص١٧٠. وهي نكتة قديمة جديدة، أي مازالت متداولة حتى يومنا هذا.

(٣٠) نوادر جحا، المهايني، ص٣٨. وقد وردت لدى ابن الجوزي في أخبار الحمقى، ص١٤٢، عن معلم نقلاً عن الجاحظ. كما يجري تداولها بصيغ معاصرة دون ذكر لجحا.

(٣١) العقاد، ص١١٣.

(٣٢) حنكشيات، ص٤١.

حين أقبل نحوه شخص وقال له: يا حسن، زوجتك ماتت. فترك المزارع ما بيده وأسرع نحو بيته. ولكنه توقف فجأة. فسأله الرجل: لماذا توقفت؟ أجاب: أنا لست متزوجاً، واسمي ليس حسن». كيف نفسّر هذه الظاهرة: أن يُكثر شعب معين من التندّر والضحك على الجهلاء والمغفلين؟ ألكثرة هؤلاء بين صفوفه، أم لندرتهم؟ أظن أن السبب عندنا، إذا صح وجود الظاهرة، هو كثرة هؤلاء و/ أو نفوذهم في المجتمع والمعاناة العامة من جهلهم وحمقهم، إلى جانب تأثير الإرث القيمي والموروث الفكاهي بهذا الخصوص: «قصد عجوزٌ عيادة طبيب شاكياً من ألم مبرح في قدمه اليمنى. وطمأنه الطبيب قائلاً: لا تخف، إنها مسألة متعلقة بالسن. فاحتج العجوز: لكن قدمي اليسرى لا تؤلمني، مع أنها في سن واحدة مع القدم الأخرى!»(٣٣).

لقد سمحت لنفسي (ضمن حدود الظن والترجيح) أن أضع النكات عن الجهلاء والمغفلين والساذجين في المرتبة الأولى من بين النكات المستهدفة للأفراد والمتداولة في سوريا والوطن العربي. لكن مستوى اطلاعي لا يسمح لي أن أتابع هذا التصنيف التراتبي. إنما أستطيع القول، إن النكات عن البخل والطمع والشراهة قد تراجعت مكانتها في الوقت الحاضر عما كانت عليه في الماضي، استناداً إلى ما حفظته لنا كتب التراث. لعل ذلك يعود إلى أن الفقر والجوع في بلادنا حالياً ما عادا يهددان مصير الفرد وكيان المجتمع، كما في السابق. ربما لهذا السبب أيضاً تبدو النكتة في الماضي أكثر تسامحاً مع الطفيليين منها في الوقت الحاضر. أعتقد أنه من الصعب أن تتواجد في هذا الزمان شخصية، سواء في الحياة أو في الأدب، مثل أشعب أو بنان. قد نجد في الكثيرين من حولنا شيئاً من أشعب، أو قد نجد في الكثيرين شخصية أشعبية لفترات محدودة، إنما ليس كنمط حياة ولا كنظرة إلى الحياة: «دعي مرة أشعب وابنه إلى وليمة. فجعل ابن أشعب يأكل ثم يشرب، ثم يأكل، حتى لم يبق شيء يؤكل، فقاموا. وعند ذاك انتحى أشعب بابنه ناحية ولطمه هامساً: لو

(٣٣) منشورة في: الهلال، عدد تشرين الأول ١٩٤٩، ص١٣. المختار، العدد ٧٠/ أيلول ١٩٨٤، ص٢٩. الموعد، العدد ١٢٤٠، تاريخ ١٩٨٦/١١/٢٩، ص٥٩. البعث، تاريخ ١٩٨٧/٢/٢.

جعلت مكان كأس الماء الذي شربته لقيمات! فأجاب الابن من الفور: إن كأس الماء يوسّع محلاً للقم. فتأمل أشعب كلام ابنه لحظة، ثم صفعه ثانية وقال: لِمَ لمْ تنبهني إلى ذلك قبل جلوسنا إلى الخوان؟!»(٣٤). هكذا كان أشعب. وهذه لحظة أشعبية حديثة: «بعد أن التهم الطفل عشر تفاحات، قالت له جدته: لقد وعدت أخاك بتفاحتين، فخذ هاتين التفاحتين واعطه إياهما. في الطريق إلى البيت التهم الطفل إحدى التفاحتين. ومد يده ليعط أخاه الأخرى، فقال الأخ: تفاحة واحدة! أين الأخرى؟ - أكلتها في الطريق. فردّ الأخ مستهجناً فعلة أخيه: أكلتها؟! ولكن كيف؟ فقضم الطفل التفاحة الباقية وقال: هكذا!»(٣٥).

يبدو لي أن النكتة عموماً أكثر تسامحاً ومودة مع الطفيلي والشره منها مع البخيل: «جاء بخيل إلى مغسلة ملابس يحمل بنطالاً، وقال للمستخدم: أريدكم أن تكووا رجل البنطال اليمنى فقط. فتعجب هذا منه وسأله: لماذا تريد كيّ الرجل اليمنى للبنطال فقط؟ فأجابه البخيل: لأنني أريد أن أتصور صورة جانبية!»(٣٦). لا شك أن المجتمع العربي مازال يرفض البخل والطمع والتطفل والشراهة وما إلى ذالك. لكنه في عصرنا هذا يهتم أكثر للاستغلال والجشع والاحتيال. فالبخيل يبخل بماله، يؤثر به نفسه أو الأقربين إليه أو - ليس نادراً - ورثته. أما المستغل والجشع والمحتال فهو يسرق جهود الآخرين، يرتوي من عرق جبينهم. لكل عصر أزماته وخطاته، ولدى المجتمع المعني نكات في كل أزمة ولكل خاطئ، يستخدمها كعصاة (معنوية) كي يعيد المخالفين إلى «جادة الصواب» التي أقامها، أو - على الأقل - كي يجعلهم مسخرة أمام من يعتبر. وبما أن مجتمعاتنا الحديثة صارت أكثر طبقية، فإن النكات اتخذت بدورها نكهة طبقية أكثر من الماضي. بذلك ازدادت كمية النكات عن الجماعات على حساب النكات عن الأفراد، أي وجّهت النكتة أنظارها إلى العلاقات بين الجماعات من طبقات

(٣٤) أخبار الطفيليين، ص٥١ - ٥٢. توفيق الحكيم، ص١٣٥.
(٣٥) أسامة، العدد ١٢٩، تاريخ ١/٦/١٩٧٤، ص٧.
(٣٦) عن التقويم العربي الهاشمي، دمشق، يوم ١٥/١/١٩٩٤.

وأقوام.. أكثر مما إلى العلاقات الفردية. وبالطبع لا تظهر الجماعة في النكتة كجماعة، بل دائما كأفراد يمثلون الجماعات المعنية.

سنتناول فيما بعد موضوع النكات عن الجماعات، فلنتابع الآن دراسة النكات عن الأفراد. إن النكات عن اللصوص والمحتالين وافرة. وهي ظاهرة تكثر في «قاع المجتمع»، في صفوف ما تسمى حالياً «البروليتاريا الرثّة»، حيث يتواجد أناس لا يملكون وسائل العمل والتكسب ولا تحتاجهم لسبب من الأسباب عملية الانتاج الاجتماعي، وحيث المدينة الكبيرة تغرّب الناس عن بعضهم وتستر انحرافاتهم: «راكب في ترام مزدحم أعطى الكمساري عشرة قروش، وكان إلى جواره راكب آخر أعطى الكمساري قرشاً واحداً. بعد قليل نادى صاحب العشرة قروش على الكمساري ليردّ له باقي العشرة قروش، لأن محطة نزوله هي القادمة. لكن الكمساري أفهمه أنه ناوله باقي ما دفع، فأنكر الرجل. وإذا بالكمساري فجأة يلمح وجه الراكب الذي دفع قرشاً وأخذ العشرة قروش. فقال له في غيظ: ألم تأخذ مني باقي عشرة قروش؟ فلم ينكر الراكب، ولكنه قال للكمساري بثبات: وأنا أعرف منين ثمن التذكرة عندكم يطلع بكام؟!»(٣٧).

من الشخصيات المستهدفة أيضاً في النكتة المتداولة، إنما المحببة نسبياً: الشحاذ (المتسول). وهو نموذج قريب من المتشرد والطفيلي، وإلى حد بعيد من التنبل. الملاحظ أن شخصية المتسول أو المتشرد محببة في الأدب عموماً أكثر منها في الواقع، أو - على الأقل - لا نراها في الأدب والفن منفّرة بالقدر الذي نشعره إزاءها في الحياة (لنتذكر مثلاً شخصية الشحاذ المتشرد في المسرحية الغنائية «المحطة» للرحابنة). كذلك نلاحظ أن النكات عن المتسولين في عصرنا أقل بكثير من الماضي، مع أنهم ليسوا بأي حال أقل عدداً أو نسبة في المجتمع. أرجّح أن السبب هو أن هناك شخصيات أخرى وأموراً أخرى تثير القريحة الفكاهية المعاصرة أكثر من المتسولين والطفيليين والمتشردين: «المتسول لإحدى السيدات:

(٣٧) رحلة مع الظرفاء، ص١٦. مع بعض الاختصار.

أعطني رغيفين من الخبز. السيدة: ولماذا رغيفين؟ المتسول: لأنني دعوت صديقي للغداء معي!»[٣٨]. «ذهب رجل إلى محل للبقالة وسأل صاحبه: هل عندك زيتون؟ قال البقال: نعم. ـ وهل عندك بيض طازج؟ أجاب البقال: نعم. ـ وهل عندك أشياء أخرى؟ أجاب البقال: نعم. ـ إذاً أعطني أي شيء، فأنا على باب الله!»[٣٩]. كذلك التنبل يبدو شخصية محببة إلى جمهورنا، رغم السخرية منها. فمن أقوالهم: «قال له: شو أطيب من العسل؟ قال له: الكسل». ومن نكاتهم: «أحد التنابل قال: يا ليتني مسلم، لكي لا أشتغل يوم الجمعة، ويهودي لكي لا أشتغل يوم السبت، ومسيحي لكي لا أشتغل يوم الأحد، وحلاق لكي لا أشتغل يوم الاثنين!»[٤٠].

وتجد النكتة المتداولة حديثاً في السكارى والمدمنين موضوعاً أثيراً للضحك، لم يكن له هذه الأهمية في النكات التراثية العربية. أظن أن الكحول والمخدرات لم تكن في الماضي في الخطورة التي عليها الآن، خاصة وأن انتشارها صار شاملاً على المستوى العالمي ومدعوماً بقوى لا يستهان بها مالياً وسلطوياً: «أسرف صديقان في تعاطي الخمر، فسكرا، ثم ركبا سيارة أحدهما. وعندما سارا بها، لاحظ أحدهما أن السيارة تسير بسرعة خطرة، فصاح في صديقه: احترس وأنت تقود السيارة وإلا هلكنا. فأجابه الثاني في دهشة ظاهرة: ماذا تقول؟! هل أنا الذي أقود السيارة؟ لقد ظننت أنك أنت التي تقودها!»[٤١]. نلاحظ في التنكيت المتداول على الإدمان أنه يتناسب مع أهمية الظاهرة، إنما بالقياس إلى كمية النكات المتداولة حولها فحسب، وليس من حيث القساوة أو العدائية تجاهها: «ليش هيك مطوّل بزّ سيكارتك كل هالقد؟ ـ لأنو الحكيم قلي انو ابتعد عن الدخان!»[٤٢]. صحيح أنه قلما يستهدف التنكيت ظاهرة أو شخصية نموذجية بالإدانة والنقد إلا ويبدي تجاهها تسامحاً في بعض الأحيان، بل

(٣٨) أسامة، العدد ٢٩٣ - ٢٩٤، تاريخ ١ - ١٦ حزيران ١٩٨٥، ص٧.
(٣٩) مجلة: تسلية، تصدر عن دار السلوى ببيروت، العدد ٥٤، ص٢٩.
(٤٠) شعراوي، ص٦٨ - ٦٩.
(٤١) الاثنين والدنيا، العدد ٦٩١، تاريخ ١٩٤٧/٩/٨، ص٢٦.
(٤٢) المضحك المبكي، العدد ١٠٢٢، تاريخ ١٩٦٣/٢/١٧، ص٢٣.



وقبولاً: «دخل حشاش في ساعة متأخرة من الليل إلى داره. فقامت إليه زوجته وأخذت تنهال عليه بالسباب والشتائم. قال لها: ولماذا كل هذه الضجة، والساعة الآن ما بلغت الواحدة؟ وبينما كان يقول هذا، سمع المؤذن يؤذن آذان الصبح. فقالت له امرأته: كيف تقول إن الساعة واحدة، وهذا آذان المؤذن؟! فقال لها: هذه المئذنة مسبقة!»(٤٣). قال بوب هوب مرة: «لقد قلقت جداً لكثرة ما قرأت من المقالات والأبحاث عن ضرر التدخين وما يعقبه من ويلات بصحة الإنسان، مما جعلني أتوقف تماماً عن قراءة الصحف!»(٤٤). غير أن هذا التسامح غير مبرر في حالة الإدمان الحالي على المخدرات الخطيرة من أنواع الكوكائين والهروويين وغيرهما، الذي أصبح يساوي أو يقارب الانتحار البطيء للمجتمع أو لجزء هام منه، وليس فقط لفرد أو لبضعة أفراد.

نقول عن النكتة إنها متسامحة، إذا كانت تضحك على النموذج المستهدف وتضحك معه في نفس الوقت. وهذا موقف مبرّر، طالما بقيت سلبية النموذج المعني محدودة، انطلاقاً من فهم للحياة لا يعتبر الحياة جديرة بأن تُعاش دون بعض الموبقات التي يستطيع المجتمع تحملها، أو – بلغة أخرى – دون بعض الخطايا القابلة للغفران، والتي تعطي للحياة لوناً ونكهة ونغماً وملمساً، قل «متعة»، إن لم تقل «معنى»: «المريض: أريد أن أعيش مئة سنة مثل أبي. الطبيب: هل تدخن أو تشرب أو تكثر من الطعام؟ المريض: أبداً. الطبيب: هل تلاحق النساء؟ المريض : أبداً، أبداً. الطبيب: هل تتزوج وتطلق والعكس بالعكس؟ المريض: أبداً أبداً أبداً. الطبيب: إذن، لماذا تريد أن تعيش مئة سنة؟!»(٤٥).

هذا لا يعني أن إبن الشعب يحبّذ الشرور أو الخطايا، بل هو يريد بشراً ذوي نقص مثله. لا يريد أنبياء متطوعين، ولا ملائكة من البشر. يرغب

---

(٤٣) المصدر السابق، العدد ١٠٣٥، تاريخ ١٩٦٣/٩/٨، ص٣١.

(٤٤) رحلة مع الظرفاء، ص١٥٨ – ١٥٩.

(٤٥) الشبكة، العدد ١٣٣٣، تاريخ ١٩٨١/٩/٢٨، ص٦٢.

بأناس على شاكلته، يفعلون الصحيح والخطأ، الجيد والسيء... على أن تكون الأخطاء والسيئات كنقاط سوداء على الصفحات البيض، كما قلنا مراراً، أي أن تكون شروراً صغيرة ضمن سيرة مقبولة عموماً بالنسبة للمجتمع المعني: «طلب شحاد من زحلاوي صدقة أو حسنة أو بلصة. وعندما رآه الزحلاوي بثيابه الرثة المزرية قال له: بتدخن شي؟ ـ لأ. ـ بتشرب شي؟ ـ لأ، لأ. ـ بتقامر شي؟ ـ لأ، لأ، لأ. ـ متزوج شي؟ ـ أعوذ بالله. ـ بتحب شي؟ ـ لأ، أبداً. فقاده الزحلاوي إلى بيته وخاطب زوجته قائلاً: شوفي آخرة كل من لا يلعب ولا يشرب ولا يقامر ولا يحب النسوان»(٤٦). «تعرّف راكبان في القطار على بعضهما. قال الأول: هل عندك أولاد؟ قال الثاني: نعم، لي ابن وحيد. الأول: هل يدخّن؟ الثاني: لم يذق طعم الدخان في حياته!. الأول: حسناً، هل يذهب إلى الملاهي؟ الثاني: لا، لم يذهب أبداً إلى أي ملهى. الأول: حسن جداً، هل يعود إلى البيت في وقت متأخر؟ الثاني: بل ينام بعد العاشرة مباشرة. الأول: إذن، دعني أهنئك، يا عزيزي، فهذا ولد نادر الوجود في زماننا الحاضر، وكم يبلغ عمره؟ الثاني: شهران ونصف!»(٤٧).

بعد هذا نتساءل: لماذا لم تتصد النكتة المتداولة لظاهرة الإدمان الحالي على المخدرات بالقسوة المناسبة لخطورتها؟ بل لماذا نجد النكات المتداولة حولها في الستينات وما قبل أكثر نسبياً مما هي في الثمانينات والتسعينات، رغم ازدياد الظاهرة حجماً وخطراً؟!: «ركب حشاش الترام، وبعد أن قطع مسافة غير قصيرة، التفت إلى قاطع التذاكر وقال له: فين كفاية الليرة؟ قال له قاطع التذاكر: أنا ما أخذت منك ليرة، أنا المصاري هلي معي كلها فراطة. قال له الحشاش: ما أنا أعطيتك الليرة فراطة»(٤٨). أرى أننا يمكن أن نفسّر ذلك، بأن هذه الظاهرة كبرت لدرجة أنها خرجت تقريباً عن ميدان عمل النكتة (أو الفكاهة عموماً)، هذا يعني أنها لم تعد

(٤٦) حنكشيات، ص١٣٨. ثمة نكتة مشابهة تروى عن جيمس ووكر الذي كان عمدة نيويورك. انظر: الاثنين والدنيا، العدد ٦٩٩، تاريخ ١٩٤٧/١١/٣، ص٢٦.
(٤٧) ماجد، العدد ٧٨٥، تاريخ ١٩٩٤/٣/٩، ص٥٩.
(٤٨) المضحك المبكي، العدد ١٠٣٦، تاريخ ١٥ أيلول ١٩٦٣، ص٣١.

نقطة، بل بقعة أو لطخة سوداء على صفحة بيضاء. لقد دخلت ميدان عمل التراجيديا. هذا إذا جاز لنا أن نميز ثلاثة حقول في التناول الأدبي للظاهرات الاجتماعية: الكوميديا - الدراما - التراجيديا. صحيح أننا نستطيع، كما أوردنا في البداية، أن نتناول أية قضية جدياً أو هزلياً، أي كوميدياً أو دراميا أو تراجيدياً. لكن، هناك ما هو مناسب وما هو مناسب أكثر. إن قيمة الأديب تظهر - فيما تظهر - في حسن اختياره للشكل المناسب لما يريد عرضه أو قوله. نظرياً يبدو أن الظاهرة، إذا تعدّت حجماً معيناً، لا تعود موضوعاً مناسباً للكوميديا. ففي الكوميديا، مهما كانت قاسية أو عدوانية، يبقى حد أدنى من المزاح أو (بتعبير مفارقي) من اللاجدّية التي لا تتفق مع «جدية» المشكلة أو خطورتها. وهذا - في الحقيقة - طبيعي، طالما أرادت النكتة الإصلاح، التربية، التأثير المعنوي، لا الاستئصال أو الإعدام.

كذلك من بين النماذج التي تستهدفها النكتة بغاية الإصلاح وإعطاء العبرة: القبضايات والجليطين، وهم بالاصطلاحات المصرية: الفتوات والفشارين: «واحد من القبضايات كان استلط على صاحب حمام، فدخل واستحم ثم ادعى أنه سُرق له شيء وأخذ «يقروش»، فأعطاه الحمامي ما فيه النصيب. ولما جاء يدخل مرة جديدة، رفضه صاحب الحمام إلا إذا حلف بالطلاق أنه لن يدّعي بسرقة شيء. حلف الرجل ودخل. فتآمر الحمامي مع الزبائن وجمع ألبسة القبضاي وأخفاها من أجل الضحك. خرج الأخ من الحمام وبحث عن أشيائه، فلم يجد منها إلا الخنجر المعلق بحزام، وكان موضوعاً على مسمار في الحائط وقد نسيه الحمامي. الرجل قال في نفسه: إذا ادعيت بأن أشيائي سرقت أو فقدت، طلّقت المرأة. فكّر ثم لبس الخنجر بالحزام على الزلط وأخذ يتمشّى عارياً حول البحرة بين ضحك الناس والتفت إلى الحمامي يقول: أنا ما انسرق لي شي، ولكن بذمتك بدينك، أنا هيك جئت؟!»(٤٩).

(٤٩) نجاة قصاب حسن: حديث دمشقي ١٨٨٤ - ١٩٨٣، المذكرات ١، دار طلاس، دمشق ١٩٨٨، ص٢٣٥/ ٢٣٦. وردت النكتة في المسلسل التلفزيوني لدريد ونهاد «حمام الهنا».

هكذا نجد ميلاً كبيراً عند الناس للضحك على القبضايات ومدّعي القوة والشجاعة، من قبيل الانتقام منهم على إرهابهم وسلبطتهم، وهو انتقام الضعفاء. فيظهر القبضايات في هذه النكات على أنهم طبول جوفاء، وأنهم يجعجعون ولا يفعلون: «قبضاي شايف حاله بقوته وقف في ساحة وصار يصيح: من يقاتل؟ من يقاتل؟. طلع له واحد قبضاي مثله، طويل عريض مفتول العضلات، قال له: أنا. فقال القبضاي: صرنا اثنين، من يقاتل؟ من يقاتل؟»[٥٠]. من خلال هذا التصوير للقبضايات والسخرية منهم سعت النكتة لأن تنزع من قلب المواطن الهيبة تجاههم، كي يتجرأ عليهم في الواقع الحياتي ويتصدى لهم، والمهم أن لا يخضع لتسلطهم وابتزازهم. مع ذلك لا تخلو النكات عن القبضايات من بعض المودة وحتى الإعجاب؛ فكل ما تقوله هو أنهم ليسوا قبضايات حقيقيين(!). فهؤلاء - في الحقيقة - حلّوا حتى وقت قريب محل الفرسان في العصر السابق، وكثر تواجدهم بقدر ضعف تواجد الدولة. وكان لهم دور في تحقيق توازن أمني، بهذا القدر أو ذاك من السوء، في تصارع القوى المتمثلة من جهة بالمجتمع ومن الجهة المقابلة بالدولة والشخصيات المتنفذة. فرغم قوته وشجاعته كان القبضاي كثيراً ما يعمل، إنما ضمن حدود أعرافه، لحساب الغير، وخاصة في المجتمعات الكبيرة (المدن) ومناطق الملكيات الكبيرة.

لكن للأسف، أخذت مع طغيان الدولة وشموليتها شخصية القبضاي في الثلاثة عقود الأخيرة تخلي مكانها لشخصية من الزعران الأوغاد، المعدومين تقريباً من القيم والمبادئ. كان يشين القبضاي مثلاً أن يعتدي على رجل فقير أو فتاة خلوقة أو مثقف فاضل... بينما يمثل المواطنون العاديون من عاملين مسالمين ومن ضعفاء أهدافاً جذابة لأوغاد اليوم، ولا يأبهون إلا بمن هم أكثر تعدياً وسفالة منهم: «أحدهم ركب مع امرأته في ميكرو باص. بسبب الزحمة قعدت المرأة محشوكة في المقاعد الأمامية إلى جانب الباب، وقعد هوعلى المحرك. كان لباسه عادياً، فلم يلق أي اهتمام. فأخذ يحوص ويلوص، ويندار يميناً وشمالاً، كي يظهر المسدس

(٥٠) عين الزهور، ص٢١٧.

إلى جنبه. ولما لم يلتكش به أحد، صاح بامرأته: فلانة، فلانة، أتتبولين كي أوقف لك الميكرو باص؟».

تنظر النكتة المتداولة إلى القبضايات باعتبارهم «مدّعين»، أي بمعنى ما «كذّابين». لكن القبضايات يكذبون (في نظر النكتة) بغاية التسلط والانتفاع. أما الجلّيطون فيكذبون تباهياً بما ليس فيهم، وأحياناً حباً بالكذب. الكذب عندهم طبع وهواية، ومتعة تضيع فيها الحدود بين الواقع والخيال، بين الحقيقة والحلم. وهم موجودون في كل زمان ومكان. لا يلغيهم تغيّر الأوضاع والأحوال، بل يكذبون بحسب هذه الأوضاع والأحوال. ولا يعيرون كثير اهتمام لإمكانية انكشاف كذبهم، إنما يراهنون على جعل الناس يصدقونهم. يبدو أنهم يرون أن خطر الانكشاف ثمن جدير بأن يُدفع في سبيل احتمال التصديق، ويكفيهم أن يصدّق البعض القليل من الناس: «واحد جلّيط، جعل يحكي لصديق له: كنت مرة في الصحراء، رأيت ضبعة، هجمت عليّ، صحت فيها، اندغرت علي، هربت، لحقتني، وجدت بحراً، ألقيت نفسي فيه. فاعترض الصديق: ما معقول، في الصحراء لا يوجد بحر. قال له: صحيح، ما هكذا حدث معي، بينما كنت في الصحراء رأيت ضبعة، هجمت علي، صحت فيها، اندغرت علي، هربت، لحقتني، وجدت سيارة، ركبت فيها ونجوت. فاعترض الصديق ثانية: وهذا ما معقول، في الصحراء لا توجد سيارات. قال له: صحيح، ما هكذا حدث معي، بينما كنت في الصحراء، رأيت ضبعة، هجمت علي، صحت فيها، اندغرت علي، هربت، لحقتني، وجدت شجرة، طلعت عليها. واعترض الصديق مرة ثالثة: كمان هذا ما معقول، في الصحراء لا توجد أشجار. فقال: صحيح، ما هكذا حدث معي، بينما كنت في الصحراء، رأيت ضبعة، هجمت علي، صحت فيها، اندغرت علي، هربت، لحقتني وأكلتني، انبسطت هيك؟!».

ويُعد الصيادون من أظرف الكذابين أو الجلّيطين، إن لم يكونوا أظرفهم على الإطلاق: «صياد كان في جمع من الناس. أخذ كل واحد منهم يحكي ويفخر كيف جمع أمواله وأصبح غنياً يعيش في عزّ. واستلم الصياد

الحديث فقال: مرة رحت ع الصيد، ودرت كثيراً ما لاقيت شيئاً أصطاده، دخلت في غابة، أنا وماشي شفت نمراً، اندغر عليّ، قوّصته، صبته، حمل الجرح وهجم علي... وأكلني. قالوا له: كيف أكلك؟! ها أنت عائش!. فرد عليهم: أهذه عيشة؟!»[٥١]. «سئل صياد متفائل: كيف حال الصيد معك؟ أجاب: أفضل من الأسبوع الماضي. قيل له: كيف؟ قال: في الأسبوع الماضي عدت بعد ثلاث ساعات خالي اليدين، وبالأمس كانت النتيجة هي نفسها، لكن في ساعتين فقط!»[٥٢]. «الولد لأبيه الصياد: بتقول لك الماما، وقت بدك ترجع الظهر من الصيد عالبيت ابقا جيب معك ثلاثة أواق لحمة من شان الغدا!»[٥٣]. «كان أحد الصيادين يتصيّد في جبل من الجبال المملوءة بالحجل. وكان كلما صادف حجلاً أطلق عليه عدة طلقات بدون فائدة. إلا أنه في أثناء طريقه اجتمع بحجلة كبير، فصوّب عليها بارودته وأطلق أول ضرب وثاني ضرب، وركض ليرى إذا كان أصابها ووقعت أم لا. وهنا ظهر له رجل كان جالساً وراء صخرة يرقب حركاته، فاقترب منه الصياد وسأله: دخلك شفت شي ريش طاير بعدما قوصت هلأ هالحجلة؟ فضحك الرجل وقال له: أي نعم، شفت ريش طاير وحامل معه حجلة!»[٥٤].

أما المثقفون فلا تستهدفهم سخرية النكتة كمثقفين بصورة مطلقة، بل كمثقفين مدّعين أو متكبرين أو لاواقعيين. فمن المعروف أن الناس في بلادنا يقدسون المعرفة ويبجلون أصحابها الحقيقيين المتواضعين وغير المنعزلين عن تيار الحياة العملية: «الكاتب: خلاصة القول، يا سيدي، أنني لم أكتشف عجزي وعدم كفايتي لمزاولة مهنة الكاتب الأديب إلا بعض مضي عشر سنين على مباشرتي لتلك المهنة. ـ الصديق: إذن فقد تخليت

(٥١) مثّل هذه النكتة نهاد قلعي في إحدى مسرحياته مع دريد لحام (غربة). يروى عن بسمارك أنه قال: «لا يمكن أن يكون هناك كذب أكثر مما نسمع قبل الانتخابات وخلال الحروب وبعد الصيد!». نقلاً عن: المختار، العدد ١٤/ كانون الثاني ١٩٨٠، ص٦٢. ينسب أحمد عبد المجيد هذا القول إلى تشرشل. رحلة مع الظرفاء، ص١٥٠.
(٥٢) ماجد، العدد ٨١٠، تاريخ ١٩٩٤/٨/٣١.
(٥٣) المضحك المبكي، العدد ١٧٦، تاريخ ١٩٣٣/٧/٨، ص٨.
(٥٤) المضحك المبكي، العدد ٢٤٠، تاريخ ١٩٣٤/١/٢٦، ص٧. مع بعض الاختصار.

عنها؟ ـ الكاتب: طبعاً لا، فقد أحرزت من الشهرة في تلك الفترة ما لم يسمح لي بالتخلي عن تلك المهنة!»[٥٥]. مثال آخر: «مثقف ركب في زورق يقوده بحار عجوز. سأله المثقف متباهياً: هل تفهم بالفلسفة؟ قال العجوز: لا. فقال المثقف: راح ربع عمرك. بعد قليل سأله: هل تفهم بالشعر؟ قال له: لا. قال المثقف: راح نصف عمرك. بعد زمن من الإبحار تغيّر الجو وهبّت الريح واضطرب البحر. فسأله العجوز: تفهم بالسباحة؟ أجاب المثقف: لا. فقال له العجوز: راح كل عمرك!»[٥٦].

برأيي، هذا هو أبلغ نقد يوجه إلى المثقف، وهو خطر أن تنعكس لديه العلاقة بين الواقع والوعي وبين الواقع والنظرية، كما هو واضح من هذين المشهدين المأخوذين من الحياة الثقافية في سوريا: «كان الشاعر ح ب يحاول إقناع أحدهم بأن ع أ روائي سيء. وكان هذا الشخص يصرّ على أنه جيد، ولا يقبل بحجج ح ب. أخيراً سأله: ألا تؤمن أن الرواية نتاج المجتمع البورجوازي؟ أجاب: نعم. فقال له: كيف إذن يمكن لـ ع أ أن يكتب رواية جيدة وهو من الضميرة؟!». المثال الثاني يشي برواسب من العصر الجاهلي: «سئل الشاعر ع خ عن أ خ، فأجاب: يا رجل، لا أعلم كيف صار هذا روائياً مشهوراً، مع أنه من عشيرة صغيرة!».

من الملاحظ أن تناول سلبيات المثقفين لا يتم في زمننا الحاضر من خلال نموذج مثقف معيّن، خلافاً لما نجده في التراث العربي الفكاهي. هناك نلتقي بشخصية الشيخ معلم الأولاد الذي وصمه الأدب الفكاهي العربي الموروث، وخاصة على يد الجاحظ، بأن عقله لا يتجاوز عقل تلامذته الأطفال. قال الجاحظ: «مررت على خربة فإذا بها معلم وهو ينبح نبيح الكلاب. فوقفت أنظر إليه، وإذا بصبي قد خرج من دار، فقبض عليه المعلم وجعل يلطمه ويسبّه. فقلت: عرّفني خبره. فقال: هذا صبي لئيم

(٥٥) عن مجلة: العربي، العدد ٩٤ لعام ١٩٦٦، ص١٥٣.
(٥٦) منشورة أيضاً في: أسامة، العدد ٢٤٦، تاريخ ١٩٧٩/٤/١٦، ص٦، عن أحمد المتعلمين. وفي: البعث، تاريخ ١٩٨٧/١٢/٢، ص١٢، عن موسيقار.

يكره التعليم ويهرب ويدخل الدار ولا يخرج، وله كلب يلعب به. فإذا سمع صوتي ظن أنه صوت الكلب، فيخرج فأمسكه!»[٥٧]. هذه الشخصية التربوية لم تعد موجودة في بلادنا في الوقت الحاضر، منذ أواسط هذا القرن. أما بديلها الحديث، وهو معلم المدرسة المؤهل، فليس موضوعاً مغرياً لسخرية النكتة كمعلم الكتّاب، وإن كانت العلاقة بين المعلم والتلاميذ مازالت مثيرة للتنكيت: «قالت المعلمة لتلامذتها: عندما أقول «كنت جميلة»، فإنني أكون أتكلم عن الماضي، ولكن عندما أقول: «أنا جميلة»، فماذا يكون ذلك؟ فقال التلامذة بصوت واحد: يبقى كذب!»[٥٨]. «شكا مدير المدرسة، أن التلاميذ يقفزون من فوق سور المدرسة، وأخذ يتساءل عن الحل. فقال أحد الأساتذة: بسيطة، يا سيدي، نهدم السور!»[٥٩]. كذلك لم يعد المواطن العربي في الوقت الحاضر يسخر من المثقف الذي يتقعّر في حديثه ويتفصحن، كما كان يفعل في الماضي. ربما لأن المثقفين الحاليين ما عادوا يفعلون ذلك كسابقيهم، ولأن المواطنين العاديين أنفسهم أصبحوا مع تعميم التعليم أكثر فهماً للفصحى، وخاصة بالمقارنة مع العاميات العربية الكثيرة في المشرق والمغرب. مثال من التراث: «... جاء نحوي يعود مريضاً، فطرق بابه، فخرج إليه ولده. فقال: كيف وجدت أباك؟ قال: يا عم، ورمت رجليه... قال: لا تلحن! قل: رجلاه! ثم ماذا؟. قال: ثم وصل الورم إلى ركبتاه. قال: لا تلحن! قل: إلى ركبتيه! ثم ماذا؟ قال: مات وأدخله الله في بطن عيالك وعيال سيبويه وجحشويه!»[٦٠].

إذن، في الزمن الحاضر ليس ثمة نموذج مثقف لم تتقصّده النكتة بالسخرية من قبل. حتى شخصية العالِم «السهيان» هي قديمة متجددة، حيث يطيب الضحك إزاء المفارقة بين ذكاء ومعرفة العالم من جهة وسهوه

---

(٥٧) المستطرف للأبشيهي، ص٣٢١.

(٥٨) الموعد، العدد ٩٩٥، تاريخ ١٩٨١/١٢/١٦، ص٦٥. وردت عن عجوز وطفلة صغيرة، في: سعد، العدد ٧٦٢، تاريخ ١٩٨٥/١/٢٨، ص٢٦.

(٥٩) ماجد، العدد ٨٠٦. تاريخ ١٩٩٤/٨/٣، ص٥٩.

(٦٠) فكاهات ممتعة ونوادر مسلية وحكايات عجيبة، إعداد حبشي الحفناوي، الإسكندرية ١٩٨٨، ص١٦.

وجهله في الأمور العادية والبسيطة من جهة أخرى: «كان العالم مشغولاً في عمله، حيث كانت زوجته تضع مولوداً. وجاء من يخبره: جاءك صبي، يا أستاذ. فقال: دعه يدخل!»[٦١]. هذا السهو وهذا الجهل الحياتي يرتبطان بما ذكرناه آنفاً من ابتعاد نوعية من المثقفين عن الحياة العملية وتركيز أذهانهم وجهودهم في المجال الذي يعملون أو يختصّون فيه. قد يجد جمهور الناس في ذلك ثغرة ينالون عبرها من هؤلاء العلماء والمثقفين، بشعور لا يبدو لي واضحاً تماماً على الدوام: أهو الاستهانة بهؤلاء أم مداعبة ودية لهم أم تأكيد للذات الأخرى (العامية، العملية، العاملة، التلميذة) أمامهم؟ أم هو مزيج من هذا وذاك؟: «كان أحد الفلاحين مسافراً مع أستاذ جامعي في رحلة بحرية طويلة. فاقترح الأستاذ أن يقطعا بعض الوقت في حل الألغاز، على أن يدفع كل منهما للآخر ريالاً عن كل لغز لا يستطيع حلّه. فقال له الفلاح: أنت أكثر مني علماً وثقافة، فيكفي أن أعطيك نصف ريال فقط. ووافق الاستاذ الجامعي على ذلك. فبدأ الفلاح المباراة سائلاً: ما اسم شيء له ثلاث أرجل يمشي بها ورجلان يطير بهما؟ ولما عجز الاستاذ عن حل هذا اللغز، دفع للفلاح ريالاً بحسب الاتفاق وسأله عن ذلك الشيء. فأعطاه هذا نصف الريال الذي أخذه منه وقال: أنا أيضاً لا أعرف هذا الشيء!»[٦٢]. وهذه نكتة تعكس رفض المواطن العادي للامتياز الذي يطالب (ضمنياً) به المثقف لنفسه: «نزل أحد الأدباء في فندق. ولما سأل عن أجرة الغرفة، قيل له: مئتا درهم تقريباً. فقال الأديب: أليس عندكم امتياز للأدباء؟ فقيل له: نعم، نطلب منهم أن يدفعوا مقدماً!»[٦٣].

فيما عدا ذلك لم تبدع النكتة الحديثة المتداولة نموذجاً ثقافياً تُضحك الناس عليه، إنما حدث منذ النصف الثاني من السبعينات تغيير في النظرة العامة إلى الثقافة والمثقف، مع تدفق أموال النفط وانقلاب البنى الطبقية

(٦١) الصياغة من قبلي. أورد النكتة عباس محمود العقاد عن جحا، انظر المصدر المذكور، ص١٥. وجاءت في كتاب «الفكاهة البلغارية» عن البروفسور بلابانوف، انظر ص٨٢ من الكتاب.
(٦٢) الهلال، آذار ١٩٥٠، ص١٣٢.
(٦٣) البعث، تاريخ ١٩٨٩/٥/٢٩، ص١٢.

للمجتمعات العربية. منذ ذلك الوقت لم يعد العلم والمعرفة كالسابق ضروريين للفئات السائدة، إلا بالحدود الدنيا، لأن المليتاريا والنفط والخارج أغنوها عن الطبقة المتوسطة وشريحتها المثقفة، أو جعلوها لا تهتم لأمرهما، بل وسمحوا لها أن تُنزلهما إلى مستوى يقارب البروليتاريا، وخاصة منذ النصف الثاني من الثمانينات. إزاء ذلك أدخلت النكتة ضمن مواضيعها عرض أوضاع المثقفين والمعلمين المعيشية والمهنية: «معلم المدرسة كان في السابق يُري تلاميذه موزة ويقول لهم: هكذا شكل القمر. الآن يريهم القمر ويقول لهم: هكذا شكل الموزة!». سوف نعود إلى ذلك في فصل آخر. أما الآن فننهي هذه النقطة من البحث بنكتة تقليدية يتناقلها الطلبة عن أساتذتهم في الوطن العربي: «صبي ووالده يسيران في الشارع، وفجأة صرخ الولد وأشار بيده: انظر، يا أبي، ذاك أستاذ القواعد. ـ وكيف عرفته؟ ـ من الفتحة الظاهرة في آخره!»[٦٤].

أخيراً، هناك نموذج من الشباب تستهدفه النكتة المتداولة الحديثة، وهو الشاب «المايع» (المائع) الذي يحمل بعض صفات الإناث أو يقوم ببعض تصرفات النساء على حساب رجولته، وذلك بمعيار المجتمع للأنوثة والرجولية. أقصد بالطبع مجتمعنا العربي، لأن معيار الرجولة والأنوثة يختلف إلى هذا الحد أو ذاك باختلاف الشعوب والأزمان. رسمياً يسمى هذا النموذج من الشباب «مخنثاً»، ويطلق عليه شعبياً، منذ عقد أو عقدين، اسم «تانت». المثير للانتباه أن هذه التسمية «شبابية»، أي أن عامة الشباب أطلقوها على قسم منهم. وهذه ظاهرة صحية، بمعنى أن ينقد الشباب بعضهم بروح ندّية، خير من أن ينقدهم الكهول بروح وصائية: «جلس رجل محافظ في حديقة عامة، يراقب المتنزهين مذهولاً، وسأل رجلاً كان يجلس بجانبه: أهذا فتى أم فتاة؟ قال: إنها فتاة، إنها ابنتي! قال: أرجو المعذرة، لم أكن أعلم أنك والدتها!»[٦٥]. «رجل كان راكباً في باص وإلى جانبه شاب. تطلع الرجل فرأى الصبايا نصف عاريات، والشباب غير مكترثين بهن. قال:

(٦٤) عالم التسلية، دار سناء، العدد ٤٨، ص٥٢.

(٦٥) ماجد، العدد ٧٥٩، تاريخ ١٩٩٣/٩/٨، ص٣١. مع بعض التصحيح الضروري.

شو هالشباب هدول، ما فيهم دم، والله الواحد منا ما كانت تمرّ من جنبه نحلة وتعمل «وزّ»، حتى يجي ناقرها عالطاير. وهنا قال الشاب: وزز...!»[٦٦].

- ج -

الفئة الثانية من الأفراد الذين يلعبون دور البطولة في النكات ليست بصورة عامة مستهدفة بحد ذاتها، بل يراد عادة من خلالها الوصول إلى غايات أخرى، وتضم بصورة رئيسية: الأطفال، العجائز، المجانين والعصابيين، ذوي العيوب الجسدية، الحيوانات. بخصوص العجائز وذوي العيوب الجسدية ثمة اعتراض. فالأصح أن يُفترض بالنكتة المتداولة أن لا تستهدف هاتين الفئتين بذاتهما، بينما هي في الحقيقة تفعل ذلك في بعض الأحيان. ينطلق افتراضنا من موقف إنساني لا يحمّل أحداً جريرة عيب أو نقص أو عجز لا دور له فيه. فبالتأكيد لا أحد يرغب في أن يكون أعمى أو قزماً أو أخرس أو أكتع... أو عجوزاً، ولا أحد يفعل ذلك بنفسه. هذا يحدث للمرء دون إرادة منه ودون رغبة ودون فعل منه، يحدث في ظروف طارئة وبقوى قاهرة. وليس من الإنسانية أو النبالة أو المروءة أن يعيّر الفتي وكامل الخلقة هؤلاء الناس أو يسخر منهم أو يجعلهم موضوعاً للضحك بسبب عاهاتهم أو نواقصهم:

«أحدهم كان يلعب بطاولة الزهر مع ضيف ثقيل السمع. سأله: شو بتشرب؟ قال الضيف: آه؟ فرفع المضيف صوته: شو بتشرب؟ ولم يفهم الضيف، فصرخ المضيف: شو بتشرب، شو بتشرب؟ قال الضيف: شو بشرب؟ فهز المضيف رأسه قائلاً: اي، شو بتشرب؟ أجاب الضيف: شاي. وبعدما شربا الشاي وانتهى اللعب، سأله المضيف: وهلق شو بدنا نساوي؟ فقال الضيف: آه؟ فرفع المضيف صوته: هلق شو بدنا نساوي؟ كذلك لم يفهم الضيف، فصرخ المضيف: هلق شو بدنا نساوي؟ قال الضيف: هلق شو بدنا نساوي؟ فهز المضيف رأسه قائلا: اي، شو بدنا نساوي؟ أجاب الضيف: نتحادث!».

(٦٦) عين الزهور، ص١٧٨.

هكذا يتبين أن النكتة قد تكون ظالمة، وقد تكون عدوانيتها شرّيرة. بالتالي فهي ليست دائماً بنّاءة تبغي الخير، ليست دائماً وبالضرورة تربوية إصلاحية، بل قد تكون أحياناً فاسدة مفسدة: تضع النقطة السوداء على الصفحة البيضاء، أي تختلق السواد، ولا تكشفه كي تزيله. هذا يعود بالطبع إلى خلل أو ثغرة في حضارة المجتمع المعني. فبقدر ما يتقدم المجتمع على درب الحضارة، يصبح أكثر إنسانية وعقلانية. ومع تقوي التوجه الإنساني العقلاني للبشر، تتراجع وتزول تقريباً النكات الساخرة من العيوب الجسدية وأصحابها. لا شك أننا في العصر الحديث قطعنا أشواطاً على درب الحضارة والتقدم، إنما بخصوص ما نتكلم عنه لست متأكداً من أننا فعلنا ذلك، أو بالأحرى لم نفعل ذلك بالقدر المناسب لتقدمنا الحضاري العام. في الماضي كنا نسخر من العجوز والأقرع والأعمى والأعور والأحدب والطويل والقصير وقبيح الوجه... الخ، أما الآن فربما لم نعد نتجنّى بتلك الكثرة على هذا العدد الكبير من المعاقين والمعابين جسدياً، لكننا مازلنا نتناول بالسخرية قسماً كبيراً من هؤلاء، جاء في مقدمتهم في العقود الأخيرة وبشكل ملفت للنظر: الأحول: «وقف ثلاثة متهمين أمام قاض أحول. نظر إلى الأول وسأله: ما اسمك أنت؟ أجاب الثاني: أحمد، سيدي. فنظر القاضي إلى الثاني وقال له: أنت لم يسألك أحد!. فرد الثالث: أنا، والله، يا سيدي، ما تكلمت بشيء!».

قد يكون مبرر النكتة الأخيرة أنها تتعرض لقاض، أي لرجل متنفذ يُحتمل أن لا يكون عادلاً، فاستغلت حَوَله للنيل منه. يبدو لي أن أكثر الناس يبيحون جميع الأسلحة في مقاومة الظالمين. أنا شخصياً لم أصل إلى قناعة نهائية في ذلك، بل ربما كنت أكثر ميلاً إلى وضع الحدود هنا، كما في كل مكان ومجال، لا حبّاً بالظالمين ولا رأفة بهم، بل حباً بالمظلومين ورأفة بهم أنفسهم من أن يصيروا في يوم من الأيام مثل ظالميهم. وهذا ليس نادر الحدوث في التاريخ، واليهود الصهاينة في فلسطين أبرز مثال، على الأقل منذ ١٩٤٨ وحتى الآن. على كل، إذا صح - رغم كل الاعتراض - تبرير نكتة القاضي الأحول، فإنها تكون قد وصلت فعلاً عن طريق تناول عيب جسدي

إلى غاية أخرى، وهي إدانة الظلم والظالمين. في النكتة الحديثة المتداولة نجد أمثلة كثيرة على ذلك، وخاصة من النوع السياسي: «سياسي معين راح إلى بلد أوروبي، فزار فيها معالم البلد، ومنها حديقة الحيوانات. بعد كم يوم أرسل لزوجته رسالة وفيها صورة له مأخوذة في حديقة الحيوانات مع عدد من القرود، وكتب على ظهر الصورة: أنا الثاني من اليمين!».

مع ذلك، هناك نكات لا يصلح معها بأي حال هذا التبرير: «أحول ذهب إلى المطار ليستقبل شقيقه العائد من المهجر. فما أن أنبأوه بوصوله حتى عانق الحمّال ونزل فيه تبويساً، ثم ناول شقيقه خمس ليرات!»(٦٧). لنتذكر أيضاً نكتة ثقيل السمع وقبلها نكتة المتأتئ وكذلك نكتة العجوز في المقبرة وغيرها. غير أنه ربما وجب - على أساس تفسيري، وليس على أساس تبريري - أن نخفف من حكمنا على إنسانية من يتناقل النكات المذكورة، بالنظر إلى أنهم قد يكونون ممن يعتقدون بأن العيوب الجسدية هي عقوبات على ذنوب اقترفها أصحاب العيوب في حياتهم الدنيا، أو - بالنسبة لمن يولدون بهذه العيوب - على ذنوب اقترفوها في حياة سابقة، أو لحكمة إلهية غير مدركة ومع ذلك غير مبرّئة لهؤلاء في نظرهم. هذه مفهوميات معتقدية غير ملزمة لأحد، لأنها غير برهانية. من الأدلة (المؤسفة) على ما أقول: هذا المثل الشعبي: «لا تشوف أعمى وما تدبّه، مانك أرحم من ربه»(٦٨). وهذا بالطبع غير صحيح، لا من جهة المنصوص ولا من جهة المعقول. هو - كما قلنا - فهم معين وتأويل معين، لا نقبله عقلياً ولا نرضى به لأخوتنا من بني آدم.

إذا كان تناول النكتة المتداولة للمعاقين والمعابين والعاجزين جسدياً يتأرجح بين السخرية منهم بحد ذاتهم أو توسيطهم لغاية أخرى، ففي استخدامها للمجانين يرجح الميزان إلى الكفة الثانية. وإذا حدث وكان

---

(٦٧) الشبكة، *العدد* ١٣٠٢، تاريخ ١٩٨١/٢/٢٣، ص٦٦.

(٦٨) يورد علي الخليلي هذا المثال بالصيغة التالية: «إذا شفت أعمى، كبّ عشاه، انت مش أدرى باللي عماه»!. انظر: التراث الفلسطيني والطبقات، ص٩٧.

المجانين مستهدفين لذاتهم، فلكي يقال إن المجنون مجنون، فلا تحاول العلاج واقبله على علاته. وهذا ليس أكثر من عرض لحالة الجنون: «رسم أحد المجانين باباً على جدار الغرفة. وكان رسمه متقناً جداً، حتى أن مجنوناً آخر حاول الخروج منه مرات عديدة. وكان الرسام يضحك بشكل متواصل. وعندما سئل عن السبب، أجاب قائلاً: لأن هذا المجنون يريد الخروج من الباب والمفتاح عندي!»(٦٩).

في بعض الحالات تتعامل النكتة المتداولة مع المجانين بحسب القول المأثور «خذوا الحكمة من أفواه المجانين»، أو بحسب المثل الشعبي «مجنون يحكي، عاقل يتسمع»: «وضع مجنون أذنه على أحد جدران غرفته، فدخل الطبيب الغرفة، فناداه المجنون: تعال بسرعة وضع أذنك هنا. وضع الطبيب أذنه حيث أشار المجنون وقال له: لكنني لا أسمع شيئاً. رد المجنون على الفور: إن هذا ما يقلقني!»(٧٠). في حالات أخرى يظهر من يُعتبر عاقلاً ليس أقل جنوناً من الجنون، أو يظهر المجنون ليس أقل عقلاً من العقلاء: «رجلان أوقفا سيارتهما فجأة بالقرب من فلاح يعمل في حقله: نحن حراس نبحث عن مجنون تمكن من الفرار من مستشفى المجاذيب، فهل رأيته؟ فقال الفلاح: وما صفته؟ فرد الرجلان: هو قصير جداً ونحيف جداً ويزن نحواً من مئة كيلو غرام. قال الفلاح لهما متعجباً: قصير جداً ونحيف جداً وثقيل جداً؟! كيف يكون ذلك؟ فأجاب الرجلان: ألم نقل لك منذ البدء إنه مجنون؟!»(٧١). وفي حالات ثالثة لا تكون النكات عن المجانين سوى شكل من نكات اللامعقول: «طاف طبيب مستشفى المجانين على مرضاه وأخذ يسأل كل واحد منهم، ماذا يريد هدية على رأس السنة. فقال

(٦٩) منشورة أيضاً في: أسامة، العدد ٣٢٢، تاريخ ١٩٨٢/٦/١٦. وكذلك في مجلة: سعد، العدد ٧٧٥، تاريخ ١٩٨٥/٤/٢٢، ص٢٦.

(٧٠) أسامة، العدد ٣٦٤، تاريخ ١٩٨٤/٣/١٦، ص٦. منشورة أيضاً في: البعث، تاريخ ١٩٨٩/١٠/٢٤.

(٧١) العربي، العدد ٩٣/ آب ١٩٦٦، ص١٥٢. منشورة أيضاً في: المضحك المبكي، العدد ١٠٢٩، تاريخ ١٩٦٣/٧/١٤، ص٢. وفي العدد ٨٩ من مجلة العربي أيضاً، نيسان ١٩٦٦، ص١٥١.

له الأول: أنا أريد زوج جرابات حرير. وقال له الثاني: أنا أريد سلماً لأقدر أن أتسلق به على هذا الجدار عسى أن أنجو من هذا المستشفى. والتفت الدكتور إلى الثالث وقال له: وأنت ماذا تريد؟ قال له: أنا أريد أنفاً جديداً. فتعجب الدكتور من طلب هذا المجنون وقال له: ليش بدك أنف، ما عندك أنف؟ قال له: صحيح عندي أنف، ولكنه مبخوش من الجهتين!»[٧٢].

لا شك أنه ما من شخصية نموذجية أصلح من المجنون لأن نقوّلها ما نريد نحن قوله وما لا نستطيع نحن العاقلين قوله. في ذلك يتساوى المجنون مع الأجدب. ربما لا يوجد بالنسبة لعلم الطب فرق بين المجنون والأجدب، غير أن أدب النكتة يستخدم الشخصيتين باعتبارهما مستقلتين، وإن كان يخلط أحياناً بينهما. كذلك يميز بين الأجدب والمغفل، لكنه - خلافاً لعلم الطب - يعود ويخلط بينهما في كثير من الأحيان. يبدو أن الناس وجدت أخيراً أن شخصية الأجدب أنسب وظيفياً لقول اللامعقول[٧٣]، فآثرتها على شخصيتي المجنون والمغفل، بحيث أصبحت الآن شخصية الأجدب تغطي على الشخصيتين المنافستين. هكذا حلّت شخصية الأجدب (المسمى في سوريا: حمصي) محل جحا في التراث العربي، مع أنه قبل عقد أو عقدين كان هناك ميل لمتابعة استخدام شخصية جحا: «كان جحا لا يعرف القطار. فسأل رجلاً عنه، فقال له الرجل: هو أسود طويل. ثم أراد جحا أن يسافر، فرأى رجلاً أسود طويلاً، فحاول الركوب على رأسه، فقال الرجل: ماذا تفعل، يا جحا؟ فقال جحا: أريد أن أسافر!»[٧٤]. في سوريا الوقت الحاضر قلما تصلنا النكتة منحولة إلى جحا، بل نسمعها عموماً مروية عن الأجدب. أما شخصية العصابي فهي حديثة، لم يعرفها أجدادنا، لا لأنها لم تكن موجودة، بل لأن بساطة

(٧٢) مع بعض التصحيح عن: المضحك المبكي، العدد ١٠٠٧، تاريخ ٢٤ تشرين الثاني ١٩٦٢، ص٢٣.

(٧٣) الأجدب في مفهوم النكتة الشعبية ليس مجنوناً، بل هو إنسان عادي ينصرف أحياناً تصرفات جنونية.

(٧٤) سعد، العدد ٥٦، تاريخ ١٩٨٢/١٢/٢٧، ص٢٦. ويبدو أن هذا الميل مازال موجوداً في بعض البيئات العربية.

الحياة وتضامن الجماعات وقتذاك، لم ينتجا الكثير منها، ثم لأنهم ما كانوا يميزون جيداً بين المجنون عضوياً والمجنون نفسانياً. والنكات عن هذه الشخصية لا تفعل في الغالب أكثر من عرض حالة: «ذهب رجل إلى طبيب نفساني وطلب منه مساعدته لأنه يعتقد نفسه كلباً. وعندما سأله: متى اعتقدت أنك كلب؟، أجاب الرجل: منذ أن كنت جرواً صغيراً!»(٧٥).

على كل، يتساءل المرء: لماذا توجد نكات اللامعقول؟ أو: لماذا يرغب الناس بهذه النكات؟. لا شك أن في الإنسان ميلاً فطرياً إلى اللعب، ومنه اللعب الذهني (كالشطرنج). ونكات اللامعقول هي من نوع اللعب الذهني، أو – على الأقل – اللعب عنصر رئيسي في تركيبها. غاية النكتة عندئذ هي اللعب، وربما أيضاً تمرين العقل على التفكير. يبدو لي أن هذا الجانب الإنساني لا يأخذ حقّه من الاهتمام لدى الكبار، ولا يُراعى عند وضع أوامر ونواهي السلوك الفردي والاجتماعي ولا عند تنظيم الحياة الاجتماعي. في أيام طفولتنا لم يكن أهالينا يتفهمون حاجتنا للعب، كانوا يرفضونها من حيث المبدأ، فنسرقها نحن، ويغضّون هم النظر عنها مراعاة لصغرنا وقلة عقلنا. وحتى الآن مازلنا نرى المواد اللعبية من رياضة وأشكال ورسم مهملة في مدارسنا، وغالباً ما تُعامل كأنها حصص فراغ. كذلك ثمة نقص هائل في حدائق الأطفال والملاعب أو ساحات اللعب في مدننا، مما يُلجئ الصغار إلى الشوارع ومخاطرها. فالمخططات التنظيمية لمدننا وبلداتنا لا تلحظ أماكن عامة للتسلية واللعب، تستخسر ذلك، ترى فيها خسارة لا معنى لها.

بالطبع أصبح الآن جيلنا عموماً يدرك أكثر من الأجيال السابقة أهمية اللعب بالنسبة لأطفاله، لكنه ينكر هذه الحاجة على نفسه، ظناً منه أن اللعب قضية الصغار وما يرتبط بهم من قلة عقل. ومن يمضي بعض الوقت في اللعب يشعر عادة بتأنيب ضمير، لأنه يضيّع وقته ويهدر طاقته. أما الإكثار منه فيعدّ انحرافاً، في نظره. لقد ذكرنا في المدخل، أن الجدّ يقابله الهزل، مثلما العمل يقابله اللعب. على هذا الأساس تكون النكات اللعبية

(٧٥) البعث، تاريخ ١٩/٤/١٩٨٩، ص١٢.

هي هزل الهزل، بما في ذلك من احتمال لأن تكون رفيعة المستوى أو تافهة: «ذهب أحدهم إلى الملعب في حمص لحضور مباراة. لاقاه جماعة وسألوه: أنت معنا ولاّ مع هدنكه؟!. قال: أنا جاي أتفرج على المباراة، ما مع حدا. فلم يقبلوا منه هذا الموقف المحايد، وأصروا عليه كي ينحاز إلى أحد الفريقين وهددوه بالسلاح. فقال لهم: أنا معكم. فقوصوه، طخ طخ، وقالوا: نحن هدنكه!».

في أحد الجوانب يشترك الأطفال والمجانين في أنه مقبول منهم ومغفور لهم أن يقولوا ما لا يقال، أو ما لا يتجرأ الكبار والعاقلون على قوله، ـ المجانين بحكم فقدان العقل واللامسؤولية، والأطفال بحكم صغر العقل والبراءة: «الصغير: ماما، لماذا ترضعين أخي الصغير؟ الأم: لأنه ليس له أسنان يأكل بها. الصغير: إذن، لماذا لا ترضعين جدي؟!»(٧٦). وإذا كانت لامسؤولية المجنون مسلم بها، فإن النكات نفسها لا تبدو واثقة دائماً من براءة الأطفال. وهذا مقصد ثان للتنكيت عن طريق الأطفال، وهو استهداف الأطفال أنفسهم. كأن النكتة في هذه الحالة تنبهنا نحن الكبار إلى أن نأخذ حذرنا، فلا نكون ساذجين ونؤخذ هكذا بمظاهر الملائكة على هذه المخلوقات الصغيرة الجميلة المحبوبة: «التلميذ: هل تعاقبني على شيء لم أفعله، يا أستاذ؟ المعلم: بالتأكيد لا، فهذا ليس عدلاً. التلميذ: عظيم، فأنا لم أعمل وظيفة الحساب لهذا اليوم!»(٧٧).

المقصد الثالث يتأتى من تزعزع القناعة بصغر عقل الأطفال ويتمثل في السخرية من الكبار، أو رد الاعتبار للصغار، حيث يُراد القول، إن الصغار أناس لهم شخصيتهم وأهميتهم كالكبار، أو أنهم قد يكونون أكثر فطنة وأحسن تصرفاً من أبويهم ومعلميهم...: «وضعت سيدة على باب منزلها لافتة تقول: شقة للإيجار بشرط أن لا يكون للساكن أطفال. وبعد

(٧٦) أسامة، العدد ١٨، تاريخ ١٦/١٠/١٩٦٩، ص٢.

(٧٧) منشورة في: سعد، العدد ٦٤٦، تاريخ ٨/١٠/١٩٨٢، ص١٥. أسامة، العدد ٣١١، تاريخ ١/١٢/١٩٨٢، ص٦. أسامة، العدد ٤١٢، تاريخ ١٦/٣/١٩٨٦، ص٦.

مدة سمعت طرقاً على الباب، ففتحته لتجد طفلاً يقول لها: سيدتي، أريد أن أستأجر هذه الشقة، وليس لي سوى والدتي ووالدي. فضحكت السيدة من ذكاء الطفل وأجّرت الشقة للأسرة الجديدة!»(٧٨). «رأى رجل ابنه يتأخر كثيراً في النهوض من النوم. فجاء إليه ذات صباح وقال له: يا بني، إن رجلاً خرج من بيته باكراً، فوجد كيساً مملوءاً بالدراهم. فأجاب الولد: يجب أن يكون الذي ضيّع الكيس خرج باكراً قبله!»(٧٩). وفيما يلي نقد لأسلوب تربية مازال للأسف موجوداً في مدارسنا: «سأل الأب ابنه: هل أعطوكم الضرب في الحساب؟ فأجاب الابن: وفي الإملاء والقواعد أيضاً!»(٨٠).

بقي أن نتحدث عن آخر نماذج هذه النكات التي لا تستهدف الأفراد لذواتهم، وهم الحيوانات. تكمن أهمية الحيوانات في النكتة، كما في الأدب عموماً، في أنها كثيراً ما تكون حيوانات غير حقيقية، كثيراً ما تكون رموزاً للبشر وعلاقاتهم، يراد بواسطتها قول ما لا يقال، لسبب من الأسباب كالخوف، أو لعرض المقصود بشكل تجسيدي مؤثر، مثلما رأينا في نكتة عصفور الدوري، وسنرى في النكتة التالية: «دق جرس الهاتف في أحد أقسام الشرطة. الضابط: نعم، من المتكلم؟ المستغيث: أرجوكم، احضروا بسرعة، إن القطّ يقترب مني. الضابط: وما في ذلك؟ إنه قطٌّ وحسب! المستغيث: ولكنني ببغاء وحسب!»(٨١). المراد قوله هنا هو أن الأمور نسبية؛ فإذا كان اقتراب القط من إنسان لا يعني شيئاً خطراً عليه، ففيه كل الخطر على كائن صغير كالببغاء أو الفأر أو السمكة. وهذه نكتة ذات رمز سياسي، تروى في أكثر البلدان العربية بالصيغ المناسبة، ومنها هذه الصيغة التي أوردها أحمد فؤاد نجم كمثال عن النكات التي انتشرت في مصر بعد هزيمة ١٩٦٧: «كلب جريان حاطط ديله بين وراكه وبيجري

---

(٧٨) عن مجلة: سمير، العدد ١١٩٣، تاريخ ١٨/٢/١٩٧٩، ص٢٩. منشورة أيضاً في: أسامة، العدد ٢٩٧، تاريخ ١/٦/١٩٨١، ص٧. الجملة الأخيرة لا تحتاجها النكتة، بل تجعل منها نادرة.

(٧٩) العربي، العدد ٧٥/ شباط ١٩٦٥، ص٤٢.

(٨٠) البعث، تاريخ ٢٤/١٠/١٩٨٨.

(٨١) أسامة، العدد ٢٩٦، تاريخ ١٦/٥/١٩٨١، ص٧.

بأقصى سرعة في اتجاه الحدود الليبية. وعند نقطة الحدود قابله واحد صاحبه. سأله: على فين، يا بوبي؟ قال له: على ليبيا. قال له: حتعمل إيه في ليبيا؟ عقد عمل؟ قال له: أبداً ح أهوهو وراجع. قال له: طب وبتجري كده ليه. قال له: ح أهوهو على روحي، سيبني!»[٨٢].

الحيوانات التي ترد في النكات هي إما حيوانات أهلية، مثل الكلاب والقطط والبقر والغنم والحمير والدجاج والنحل... الخ، أو حيوانات برية تربطها بالبشر صلة من الصلات، قريبة أو بعيدة، عدائية أو ودية، مفيدة أو ضارة، موروثة أو معاصرة، مثل السبع والذئب والضبع والثعلب وابن آوى والدب... الخ، ومثل الفأر والجرذ والأرنب والغزال والفيل... الخ، ومثل الأفعى والضفدع والسلحفاة والضبّ والحرباء... الخ، ومثل عصفور الدوري والببغاء والقاق والغراب والسنونو... الخ، ومثل النمل والبعوض والذباب... الخ. كما قلنا، قد تحمل هذه الحيوانات رموزاً إنسانية، تمثل طبعاً لدى الإنسان أو علاقة ما بين البشر أو نموذجاً من الناس. فالحمار مثلاً يرمز إلى الغباء والقدرة على الاحتمال، والكلب إلى الصداقة والإخلاص، والجمل إلى الصبر وكذلك الحقد، والأفعى إلى الشر واللؤم، والنمل يمثل العمال ويرمز إلى النشاط، والثعلب يرمز إلى الخبث والخداع، والسبع يمثل الحاكم ويرمز إلى التسلط وكذلك الشجاعة... الخ. هذا التناول قديم حديث، كما نعلم، يلجأ إليه الناس كي يعبروا عن آرائهم بشكل لا يعرضهم للعقاب (السياسي خاصة)، أو ربما إمعاناً في إعطاء العبرة، وتقريباً إلى أذهان الأطفال (بصورة خاصة):

«تزعم العرب أن الأسد رأى الحمار، فرأى شدة حوافره وعظم أذنيه وعظم أسنانه وبطنه، فهابه وقال: إن هذا الدابّة لمنكر، وإنه لخليق أن يغلبني، فلو رزته ونظرت ما عنده. فدنا منه فقال: يا حمار، أرأيت حوافرك هذه المنكرة لأي شيء هي؟ قال: للأكم. فقال الأسد: قد أمنت حوافره. فقال: أرأيت أسنانك هذه المنكرة لأي شيء هي؟ قال: للحنظل. قال

(٨٢) روز اليوسف، العدد ٣٤٠٩، تاريخ ١١/١٠/١٩٩٣، ص٤٤.

الأسـد: قـد أمنت أسنانه. قـال: أرأيت أذنيك هاتين المنكرتين لأي شيء هما؟ قال: للذباب. قال: أرأيت بطنك هذا لأي شيء هو؟ قال: ضَرط ذلك. فعلم أنه لا غناء عنه، فافترسه»[٨٣]. وهذه خرافة شعبية تروى في جميع الأرياف السورية بصيغ متشابهة: «الكلب قاطيش كان جوعاناً، راح إلى تنور ضيعته، فشاف النسوان لم يحموا التنور بعد. تطلع لبعيد، شاف في الضيعة المجاورة دخان الحمو طالعاً. راح إلى الضيعة الثانية، شاف النسوان خلصوا من الخَبز وكلاب الضيعة أكلوا كل شيء. رجع لضيعته، شافهم كمان خالصين وما بقي له شيء. وهيك تعب ع الفاضي وضلّ جوعاناً!»[٨٤]. وهذا مثال حديث: «كان عند أحدهم عدد من الدجاجات وديك. بعد فترة لاحظ الرجل أن الديك لم يعد يدكّ الدجاجات، كما يجب، فبعض البيضات لا تفقس صيصاناً عندما تقعد الدجاجات قرقات عليها. فاضطر الرجل إلى شراء ديك ثان صغير. ومنذ وصوله شرع هذا الديك يدكّ الدجاجات بهمة وافرة. لكن الذي أثار استغراب الرجل هو أن الديك القديم تنشّط هو الآخر في دكّ الدجاجات. فقال له: أما كنت تنشط من قبل وتوفّر علي شراء ديك جديد؟! أجاب الديك: القصة أني شفت هذا الديك الأرعن يدك الدجاجات بهذه الهمة، فخفت أن يظنني دجاجة!».

وقد تعبّر هذه الحيوانات عن حيوانات حقيقية، فتقوم عندئذ النكتة بتبيان طباعها أو علاقتها بالبشر، وكأنها تقدم دروساً في علم الحيوان، وهي دروس مؤثرة ومفيدة للأطفال بخاصة: «لبس جحا فروة ثعلب وجعل شعرها إلى الخارج. فقيل له: ما هذا؟ فقال: ما أنتم أعلم من صاحبها الثعلب، ولولا أن لبسها هكذا أصلح، لما لبسها كما ترون!»[٨٥]. وقتذاك

(٨٣) مجمع الأمثال للميداني، الجزء الأول، ص٤٢٠ - ٤٢١.

(٨٤) كثيرة الانتشار في سوريا. اسم الكلب مختلف من منطقة إلى أخرى، أكثره انتشاراً «حمّور». وردت هذه القصة أيضاً لدى سلامة عبيد، ص١٦٣، ومنها جاء المثل «مثل كلب دمّر» كناية عن الطماع الخاسر. كذلك يبدو أن القصة منتشرة عالمياً. وثمة رواية ألمانية بعنوان «الحمار» (حمار بودوان) تعطي نفس العبرة، ترجمها صنع الله ابراهيم وصدرت عن دار ابن رشد ببيروت عام ١٩٧٧.

(٨٥) عبد الستار فراج، ص٨٢. في نثر الدرر عن مجنون غير مسمى.

ضحك الناس على جحا؛ أما الآن، ونحن في المستوى العلمي الذي وصلنا إليه، لا نرى في كلام جحا أية مغالطة... أو ربما تلعب الحيوانات في النكات أدواراً مساعدة تخدم الشخصيات الرئيسية ومقاصد النكتة: «في إحدى المدارس الابتدائية طلبت المعلمة إلى الأطفال كتابة موضوع إنشاء عنوانه «كلبي». وعندما شرعت في تصحيح الكراسات، لاحظت أن الأخوين محمد وأحمد نقل أحدهما الموضوع عن أخيه، فصاحت بغيظ: موضوعاكما يتماثلان تماماً، وهذا مخجل للغاية. فقال أحمد: بل شيء طبيعي جداً، فليس لدينا في البيت سوى كلب واحد!»[٨٦].

من المناسب بعد هذا أن نميز بدقة بين ترميز الحيوانات وأنسنتها. فأنسنة الحيوانات هي النظر إليها كبشر، تتكلم وتتعامل فيما بينها مثلهم، دون أن يغيّر هذا من طبيعتها الحيوانية. أما الترميز فيعني أن يمثل الحيوان في العمل الأدبي والفني نموذجاً معيناً من الناس، فيحلّ محله في طبعه أو سلوكه أو تفكيره. في الأنسنة يبقى الحيوان حيواناً، بينما في الترميز المقصود بالحيوان إنسان معين في نوعه. ويقوم الأطفال في الغالب بأنسنة الحيوانات، وهكذا كان يعتقد البشر عموماً فيما قبل عصور الحضارة (الإحيائية والطوطمية)، في حين أن الترميز من فعل المبدعين في الأدب والفن. في خرافة الأسد والحمار ونكتة عصفو الدوري ثمة أنسنة مترافقة مع الترميز، وقد يفهمهما البعض غير مرمزتين، تبينان طبائع الحيوانات وسلوكها، بينما في خرافة الضبع والظبي الراكبين على حمار (المذكورة سابقاً) وفي نكتة الببغاء والقط ثمة أنسنة مع ترميز لا شك فيه. أما نكتة الكلبين على الحدود المصرية الليبية فهي رمزية خالصة، يشبّه فيها المواطن بالكلب، كما هو الحال في هذه النكتة أيضاً: «بقرة كانت تعدو ووراءها عدد من الثيران. بين هؤلاء كان ثور مخصيّ. سألوه: هدول فهمنا ليش لاحقين البقرة، بس أنت لشو؟ أجاب: إثبات موجودية». وهذه نكتة أنسنية دون ترميز: «قال كلب البحر لزميله وهو ينظر إلى مدربه: لقد دربت هذا الانسان جيداً، كلما أوقفت الكرة

(٨٦) نضال الفلاحين، العدد ٤٨٧، تاريخ ١٩٨٦/١/١٧، ص٧. وردت في: البعث، تاريخ ١٩٨٨/٧/١٧، عن قطة.

على رأسي، يقذف لي بسمكة صغيرة!»[٨٧]. هكذا بالنكتة يضحك الحيوان على الإنسان، وهذا يعني في الحقيقة أن الإنسان يضحك على نفسه.

- د -

فيما سبق كان حديثنا يدور حول نماذج من البشر ذوي مواصفات معينة ترفضها النكتة أو من تعبر عنه (المجتمع في المقام الأول). ثم انتقل الحديث إلى مجموعات من الأفراد (والمخلوقات) ليست مستهدفة بحد ذاتها، بل يُراد من خلالها إيصال عبرة أو فكرة إلى المتلقين. وثمة فئة ثالثة من النكات المتفرقة تستهدف من خلال أفراد منفردين، وليس من خلال مجموعات أفراد، صفات أو أفعالاً أو مشاعر يرفضها الوسط الذي تعبّر عنه هذه النكات، وذلك أيضاً بغاية الإصلاح وإعطاء العبرة. فهي نكات تربوية كسابقاتها عموماً في هذا الفصل. وتختلف هذه الفئة عن الفئتين الأولى والثانية في أنها هنا تتناول الصفات والأفعال والمشاعر المذكورة مباشرة، لا الأفراد الذين يحملونها بذاتهم، وإن كان هذا يتم بالضرورة من خلال هؤلاء الأفراد. هذا يعني أننا لسنا أمام نماذج من البشر، أو يعني أننا لا نتعامل مع أناس نمطيين، وإن كان هذا ممكناً من الناحية النظرية. نموذج الطفيلي مثلاً الذي حفلت به كتب التراث الأدبي لم نعد نراه في النكتة أو النادرة العربية الحديثة، وكذلك هو الحال مع الشاطر صاحب المقالب (مثل علي الزيبق) والمهرج (مثل شيبوب ومهرجي القصور من أمثال أبي العبر) والأقرع في التراث الشعبي.

من خلال كركوز وعيواظ تعطينا هزليات «خيال الظل» هذه العبرة: «تشارك مرة كركوز مع عيواظ على أن يشتغلا بالشحادة. فقرعا باب منزل مطلقة وطلبا منها حسنة من مال الله. وقبل أن تمد المسكينة يدها إلى جيبها وتخرج لهما هلي فيه النصيب، أخذ كركوز يسألها عن سبب طلاقها، وهل كان الحق معها أم مع زوجها، وغير ذلك من الأمور. فغضبت وطردتهما وأغلقت الباب وراءهما. وانصرفا، وفي الطريق أخذ كركوز يندب

(٨٧) في مجلة: ماجد، العدد ٧٧٦، تاريخ ١٩٩٤/١/٥، ص٣٩.

حظه. فقال له عيواظ: الحق عليك، شو أنت رحت تشحد منها، لما تستنطقها؟!»[88]. وهذه قصة أكثر حداثة تشبهها: «دخل لص إلى منزل إحدى السيدات بقصد السرقة. وخشيت أن تستغيث، فقالت له: خذ ما يكفيك، ولكن قبل أن تخرج أرجوك أن تفسّر لي هذا المنام الذي رأيته وأنا نائمة منذ ساعة. فقال لها اللص: قولي تانشوف. فقال له: لقد رأيت شخصاً يريد أن يذبحني بسكين، فرحت أستغيث وأصرخ: الحقني، يا أحمد، يا محمود... وعند ذلك حضر أولادها وقبضوا على اللص، الذي أطرق برأسه وهو يقول لهم: اضربوني بالصرمايه، لأني مستاهل، فأنا جايه أسرق لما أفسّر منامات؟!»[89].

وقد أبدع حكمت محسن نموذج الفضولي (الحشري) ممثلاً بشخصية أبي فهمي، كما أبدع دريد لحام مع نهاد قلعي شخصية الشاطر غوار الطوشة، لكن النكتة المتداولة بعدئذ لم تهتم بهذين النموذجين، إنما في نفس الوقت لم تتخلّ نهائياً عن نقد الفضوليين والتعاطف مع الشطار. ربما يعود ذلك إلى أن شخصية المغفل قد استوعبت جزئياً شخصية الفضولي، بينما الزمن تجاوز شخصية الشاطر الطيب ولا يحتمل هذا الزمن بسوئه الشاطر اللئيم: «كان رجل يدور حول حفرة عميقة، وهو يقول: ٥٧، ٥٧، ٥٧. فاقترب منه رجل آخر وقال له باستغراب: هل أنت مجنون لتدور حول هذه الحفرة وتقول: ٥٧، ٥٧، ٥٧؟! فقذفه الرجل الأول في الحفرة وهو يقول: ٥٨، ٥٨، ٥٨!»[90]. يبدو لي أن هذه النكتة أخطأت الهدف. فمن حيث أرادت الردع عن الفضولية، وقعت في مطبّ اللؤم، فعاقبت الفضولي بقسوة لا يستحقها. مع ذلك قد تضحكنا هذه النكتة، لكنها تكون عندئذ في الغالب ضحكة صفراء أو سوداء، بالتالي لا تكون النكتة قد أدت وظيفة تربوية بصورة إيجابية.

---

(٨٨) عن: المضحك المبكي، العدد ١٠٣٢، تاريخ ١٩٦٣/٩/١، ص١. الاستنطاق يعني «التحقيق» بلغة اليوم.

(٨٩) المضحك المبكي، العدد ١٠٢٣، تاريخ ١٩٦٣/٦/٢، ص٢٣.

(٩٠) الموعد، العدد ١١٥١، تاريخ ١٩٨٥/٣/١٦، ص٦٠. وردت أيضاً في: سعد، العدد ٨٥١، تاريخ ١٩٨٦/١٠/٢٠، ص٢٦. وفي جريدة: البعث، تاريخ ١٩٨٧/٧/٥.

من المشاعر المعروفة تقليدياً والتي ترد عرضاً في النكات المتداولة نذكر هنا «الحسد»: «كان أحدهم شديد الغيرة من جاره. فأي شيء يفعله جاره كان يفعله هو ويزيد عليه. يشتري الجار طاولة، فيشتري هو طاولتين؛ يفصّل الجار قميصاً، فيفصّل هو قميصين... وحبلت امرأة الجار وولدت صبياً سماه محمد؛ كذلك حبلت امرأة الرجل وولدت صبياً، فسماه: محمدين!». ومنها «القنزعة»، وهي الأنفة الفارغة: «رفض أحدهم أن يأكل القمردين لأنه ممعوك بالأرجل الحافية. وقال ذلك لمن قدّمه له. فأجابه المضيف مدافعاً: لا يا سيدي، الآن يمعكونه لابسين الصبابيط!»[٩١]. ولا نريد أن نطيل في هذا الموضوع، فمن الطبيعي أن يبقى أكثر أو أقل من القيم المتوارثة حياً رغم الزمن. المهم هو رصد التغيرات والتحولات.

هناك بعض القيم ازداد اهتمام النكتة المتداولة بها عن السابق، وبالمقابل ثمة قيم لم تعد النكتة تعطيها الأهمية التي كانت لها في الماضي. هذا ما يستدعيه تغيّر النظام الاجتماعي الاقتصادي وتطور القوى الانتاجية والتقدم الثقافي... الخ. التدخين مثلاً لم يكن موجوداً في العصور السابقة، فاستهدفته النكتة الحديثة، مشيرة إلى إضراره بالصحة، وضاحكة على المدخنين الذين لا يقدرون على تركه: «رأى رجل صديقه وفي فمه بزّ سيكارة طوله ثلاثة أشبار، فقال له: ليش بز سيكارتك كل هالقد طويل؟ قال له: لأن الطبيب أمرني أن أبتعد عن التدخين!»[٩٢]. والبدانة، التي كانت تُسمى «صحة» ويفخر بها الفرد باعتبارها دليل غنى ورفعة ويُنظر إليها كمظهر جمال، تتحول الآن مع نسيان أزمان الجوع وإدراك مخاطر تكدّس الشحوم لتصبح موضوع سخرية: «قال الطبيب لمريضه البدين: لا تتناول أية وجبة من الطعام، فإن ما تحصل عليه بين الوجبات يكفيك!»[٩٣]. كذلك مع تعميم التعليم وازدياد ثقافة المجتمع أصبحت النكتة المتداولة لا تنتقد الجهل فحسب، بل أيضاً ادعاء المعرفة

(٩١) مع تعديل ضروري طفيف نقلاً عن: نجاة قصاب حسن، حديث دمشقي، ص١٦١.
(٩٢) المضحك المبكي، العدد ١٠٤٦، تاريخ ١٩٦٣/١١/٢٤، ص٢٧.
(٩٣) أسامة، العدد ٤٠٩، تاريخ ١٩٨٦/٢/١، ص٦.

من قبل المواطن العادي، وليس فقط المثقف: «لاحظ أحد الباعة الجوالين أن وزارة الصحة تكثر من حث الأهلين على مطاردة الذباب لأنه ناقل لميكروب الكوليرا، فأبدى دهشته وسأل أحد زبائنه: هل من المعقول أن الذباب يحمل ميكروب الكوليرا؟ - مش معقول ليه؟ - لأنه لو كان يحمل الميكروب، كان مات فيه، لأن الذباب أضعف بكثير من بني آدم!»[٩٤].

إلى جانب ما ذكرنا وجهت النكتة الحديثة سهامها إلى ما يسمى «لغة الشارع»، تهذيباً للحديث بين الناس وتلطيفاً للتعامل فيما بينهم. وأرجو أن يعفينا القارئ الآن من ايراد نكتة عن البذاءة. ثم إن النكتة الحديثة تناولت بعض آفات العصر، مثل النسيان: «شاهد أحد البحارة رجلاً عجوزاً في إحدى الجزر النائية. فقال له البحار: لماذا أتيت إلى هنا، يا عم؟ العجوز: لكي أنسى. البحار: وماذا تنسى؟ العجوز: لقد نسيت»... طبعاً مازلنا نستطيع ذكر المزيد. هناك مثلاً السخرية من أصحاب المهن الموروثة والحديثة... بالمقابل علينا أن نشير من جديد إلى أن النكتة قد تنحاز عرضاً لبعض الصفات والمشاعر والأفعال السلبية بمقياس الأخلاق الإنسانية، بل حتى بمقياس أخلاق المجتمع الذي يتداولها، وذلك - ربما - لمجرد الإضحاك: «جاء أحدهم إلى بياع أرانب وسأل: بكم الحمار؟ قال له البياع: ولك هذا حمار؟! ألا ترى أنه أرنب؟! فقال الرجل: أنا لا أسألك، أنا أسأل الأرنب!». والغريب أن عامة الناس تضحك لهذه النكات اللاتربوية، فكأنها مستعدة للتضحية أحياناً ببعض قيمها في سبيل أن تنال شيئاً من المتعة بالضحك.

كذلك بصورة عرضية ومن خلال أفراد غير مسمّين ولا نموذجيين تعرض مجموعة من النكات حالات وظروف مفارقة، لا حول ولا قوة لنا تجاهها، إنما تساعد هذه النكات المتلقي على فهم أفضل للحياة أو تعزّيه في عدم فهمه لهذه الحياة ونواظمها. إذا أردنا، نستطيع تسميتها «نكات حكيمة» أو - تجاوزاً - «نكات فلسفية»، لا يتوجه تأثيرها إلى سلوك

(٩٤) الاثنين والدنيا، العدد ٦٩٥، تاريخ ٦/١٠/١٩٤٧، ص٢٩.

المتلقي أو طبعه، بل ينحصر مفعولها تقريباً على العقل. فإذا اعتبرناها تربوية ولابد، فهي من النوع التوعوي تجاه الوجود الإنساني. منها نكتة سقراط المظلوم، وقول الممثلة كاترين هيبورن، اللذان ورد ذكرهما فيما سبق. ومنها هذه القصة التراثية: «قالت فاطمة بنت الحسين: دخلت علينا العامة الفسطاط - بعد مقتل أبيها - وأنا جارية صغيرة وفي رجلي خلخالان من ذهب، فجعل رجل يفضّ الخلخالين من رجلي وهو يبكي. فقلت: ما يبكيك، يا عدو الله؟! قال: كيف لا أبكي وأنا أسلب ابنة رسول الله؟! فقلت: فلا تسلبني. فقال: أخاف أن يجيء غيري فيأخذه»[٩٥]. كذلك منها هذا الشعر لبعض خلفاء بغداد[٩٦]:

عجبت من إبليس في كبره ... وخبثِ ما أبداه من نيته
تاه على آدم في سجدةٍ ... وصار قواداً لذريته

من الواضح أن هذه الأمثلة ليست من معين النكتة المتداولة، بل من مصادر المثقفين. وعلينا أن لا نتوقع من النكتة الشعبية أمثلة كثيرة على مستوى نظري عال من الحكمة والفلسفة. فكل امرئ يأخذ من الحكمة ما يناسبه، وعلى قدر وعيه. فالأجدب الحمصي مثلاً فهم كل شيء ما عدا: كيف يدخل القطر إلى العوامة. وأعجوبة الفلاح البسيط: ماذا تفعل العنزة في الزرع؟!. طبعاً هذا على سبيل الضحك، لكنه يعبّر في جوهره عن الحقيقة. أريد القول، إن الحكمة والفلسفة في النكتة المتداولة غالباً ما تكون ذات طبيعة عملية، أي نابعة من تجربة الحياة، مما يتناسب مع متوسط العقل المجتمعي ومع التجارب العامة للمجتمع المعني: «عربي سافر إلى بلد أجنبي، وزار مقبرة هناك. على شواهد القبور قرأ أن أحد أصحاب القبور عاش ثلاث سنين وكذا شهراً، وآخر عاش سنتين وكذا يوماً، وثالث كذا... ما من أحد منهم عاش أكثر من بضع سنوات. تعجب من هذه

(٩٥) المستطرف الجديد لهادي العلوي، دار الطليعة، بيروت ٨٩١، ص١٢، نقلها عن بحار الأنوار للمجلسي.

(٩٦) البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني، بيروت (١٩٦٨م)، ص٣١.

الكتابات، خاصة وأنه التقى بكثير من العمّيرين في تلك البلد. وعندما سأل عن ذلك، قيل له: نحن نسجّل عمر الإنسان بقدر ما عاش مبسوطاً. فقال لهم: على هذا الأساس إذا متّ أنا، لازم ينكتب على قبري: محمد جبر من رحم أمه إلى القبر!»(٩٧).

أما أجمل نكات الحكمة وأعمقها ففي الموروث من النكتة الشعبية المتداولة؛ وهذه النكات الموروثة مازالت حتى الآن متداولة بين العرب وكأنها نتاج اليوم: «سأل رجل: أيما أفضل، يا أبا نواس، المشي أمام الجنازة أم خلفها؟ فقال: لا تكن على النعش وامش أينما شئت!»(٩٨). مثال آخر: «سألوا جحا يوماً: متى تقوم القيامة، يا جحا؟ فقال: وأي قيامة تعنون؟ فأجابوه: وهل القيامة متعددة؟ فأجابهم: نعم، إذا ماتت امرأتي فتلك القيامة الصغرى، وإذا متّ أنا فتلك القيامة الكبرى!»(٩٩). غير أن أكثر الحكم الشعبية نجده في الأمثال الشعبية، حتى أننا نستطيع القول، إن العامة حفظت حكمها وفلسفتها في أمثالها قبل كل شيء: «أقرع سحب سحبة، طلع له مشط»، «ما في حمار بيموت وبياخد جلاله معه»، «قال: الكلب الأبيض أحسن وإلا الكلب الأسود؟ قال له: كلهم كلاب أولاد كلاب»، «بعد كرّي ما ينبت حشيش»، «قالوا: يا جحا، وين بلدك؟ قال: اللي فيها مراتي»، «جاي تتعكّز ع المكرسحين؟!»(١٠٠).

- هـ -

أخيراً يصل بنا الحديث إلى مجموعة النكات التربوية التي تتناول أشخاصاً معرّفين بمهنهم. تتميز هذه المجموعة بأنها نادراً ما تكون تربوية

---

(٩٧) رواها سلامة عبيد عن عربي هاجر إلى أمريكا واسمه طنوس الجبر، ص١١١.

(٩٨) نوادر أبي نواس، ص١٧. ينسب القول إلى جحا أيضاً، انظر نوادر جحا الكبرى، ص٢٣/ ٢٤. أيضاً العقاد، ص١٤٣.

(٩٩) نوادر جحا الكبرى، ص٢٨/ ٢٩. معروفة أيضاً كمثل شعبي، بالصيغة التالية: «سألوا جحا: متى تقوم القيامة؟ قال: وقت اللي بموت أنا». انظر أديب قوندراق، ص١٣٦.

(١٠٠) عن ألسنة الناس، إلى جانب المراجع التالية: عبد الكريم الحشاش، ص١٠٣؛ سلامة عبيد، ص١٢٨، ١٥٦؛ سيمون حمصي، ص٣١١.

خالصة، بل يتضايف عادة العنصر التربوي بعنصر عصبوي طبقي أفقي أو شاقولي. وبحسب حصة العنصر الطبقي، وخاصة الشاقولي، تزداد العدوانية في النكتة. غير أن العدائية لا تصل عادة إلى حدّ التناحر والإلغاء. ذلك لأن المجتمع، مهما ساءت طباع أو تصرفات أو أخلاق أصحاب المهن المعنية، يبقى بحاجة إلى هذه المهن وبالتالي يبقى بهذا القدر أو ذاك وبهذا الشكل أو ذاك بحاجة إلى أصحابها. إذن هذه النكات تنتقد الأفراد كأصحاب مهن وحرف، ويتراوح الانتقاد بين المعاتبة أو المدعبة والمعاداة.

في مقدمة المهنيين الذين تعاتبهم النكتة أو الذين تسخر منهم بمودة، يأتي الحلاقون. فهؤلاء تتهمهم النكتة بأنهم ثرثارون. إذا صح الاتهام يكون الأرجح أن من طبيعة مهنة الحلاقة أن تُكسب من يزاولها مع الزمن عادة الثرثرة. والأقل ترجيحاً أن تكون مهنة الحلاقة تجتذب أناساً يكثرون من الكلام أو يهوون «طقّ الحنك»، كما يعبّر العامة. هذا، مع أن هذه المهنة بالفعل مناسبة جداً لمن يهوى طق الحنك، حيث يجد الحلاق نفسه مع شخص واحد شبه مقيّد وشبه مكتوم الفم، لا يستطيع أن يهرب منه أو ينافسه أو يجاريه في الحديث: «الحلاق للزبون: كيف تريد أن أحلق لك؟ الزبون: بصمت!»(١٠١).

إذن تنتقد النكتة بعض أصحاب المهن والحرف لعادات مرتبطة بمهنهم. كذلك تنتقد أصحاب مهن وحرف أخرى في كيفية ممارستهم لهذه المهن والحرف، ومنهم: الأطباء والقضاة والمحامون. وإذا كان سمع الزبون مرهوناً للحلاق طيلة فترة الحلاقة، فإن روح المريض مرهونة بيد الطبيب. ومهما كان المريض وأهله مؤمنين بأن الأرواح بيد الله، فإنهم في حاجة ماسة إلى الطبيب للتخلص أو التخفيف من الآلام. هذه الأهمية الكبيرة للطبيب على حياة الفرد المعني وسعادته وطاقته الضرورية للعمل وأداء الحاجات والواجبات، جعلته هدفاً أثيراً للنكتة. لذلك تكثر النكات عن

(١٠١) انظر أيضاً: ماجد، العدد ٨١٧، تاريخ ١٩/١٠/١٩٩٤، ص٦٠.

الأطباء، وهي تتناولهم من جانبين: التطبيب، واستيفاء الأجر. في الجانب الأول تسخر من قدرتهم وتنتقد تهاونهم، وفي الجانب الثاني تهاجم جشعهم. بالنسبة لعامة الناس، ورغم تطور الطب وعلمنته وشيوع هذه المهنة وازدياد كلفتها بازدياد تقنيتها، تبقى مهنة الطب في أذهانهم مهنة إنسانية قبل أي شيء، فلا ينظرون إليها نظرتهم إلى المهن الأخرى. هذه النظرة تصل أحياناً إلى درجة الاعتبار الضمني (باللاشعور) أن الطبيب يقوم بعمل إنساني خالص مثل الراهب أو رجل الدين، أي يقوم بمساعدة إنسانية يؤجره عليها الله، دون أن يحتاج المواطن المعني حتى إلى دفع الزكاة. هذا الزمن ولّى، لكن مازالت آثار الوعي القديم باقية. مع ذلك يجب أن لا ننسى أن كل مهنة أساسية في حياة الناس مغرية لأن يستغلّها أصحابها، وفي نفس الوقت يكون استغلالها خطيراً جداً. من هذا المنطلق أرى النكات محقة، حين تترصّد وتنتقد ادعاء العلم أو سوء ممارسته لمأرب شخصي أو مالي، وكذلك المبالغة في استيفاء الأجور لدرجة تجعل من الأطباء الماهرين والمشهورين «بورجوازية أكاديمية»:

«الطبيب: إن طولك القصير لا علاج له، لأنه مرض وراثي. القزم: ولكنه لا يوجد أقزام مطلقاً في عائلتي!. الطبيب: نعم، لأن الوراثة ستبدأ بك أنت!»[١٠٢]. «ذهب أحد الموظفين إلى الطبيب يشكو إليه ضعفاً عاماً يعجزه عن أداء عمله. ففحصه الطبيب طويلاً، ثم قال له، إن علاجه الوحيد هو إراحة أعصابه من المنازعات العائلية. فقال المريض: لكني لست متزوجاً، يا دكتور. فقال الطبيب: كده؟ يبقى لازم تتجوز، ولما تحصل منازعات عائلية تبقى تريح نفسك منها!»[١٠٣]. «الطبيب: ممنوع عليك أكل اللحم والسمك. المريض: لو كان عندي لحم وسمك ما مرضت، يا دكتور!»[١٠٤]. «قال الرجل لصديقه: أصيب عمي في حادث تصادم وهو يركب سيارة، وقد عالجه الطبيب ووعده أن يسير على قدميه بعد أسبوع

(١٠٢) البعث، تاريخ ١٩٨٩/٤/٢٧، ص١٢.
(١٠٣) الاثنين والدنيا، العدد ٦٩٠، ١٩٤٧/٩/١، ص٢٢.
(١٠٤) ماجد، العدد ٨٢٧، تاريخ ١٩٩٤/١٢/٢٨، ص٦١.

واحد. الثاني: وهل برّ الطبيب بوعده؟. الأول: طبعاً، عندما أرسل فاتورة الحساب اضطر عمي لبيع السيارة والسير على عكازين!»(١٠٥). «ذهب طبيب البلدة إلى الإسكافي لإصلاح حذائه. فأخبره هذا أن لا سبيل إلى إصلاحه وطلب منه دفع ثلاثة دنانير. فاحتجّ الطبيب: وعلام تطلب مني دفع هذا المبلغ؟ فردّ الإسكافي: إني أعاملك بالمثل، فعندما عاينتني أخيراً قلت لي إن مرضي لا شفاء منه، ومع ذلك تقاضيت أجرك!»(١٠٦). «الأول للثاني: لماذا يرتدي الجراح قناعاً أثناء إجراء العملية؟. الثاني: حتى لا يعرفه المريض أو أحد أفراد أسرته!»(١٠٧). وهذا مثال من مصدر أجنبي: «اثنتان من النساء المسنات تتحادثان: ـ حنه حالتها في الويل، فهي منذ ثمانية أشهر في الفراش، المسكينة لا تستطيع أن تموت. ـ ومن هو طبيبها؟ ـ يا الله، هي لا تريد أي طبيب. ـ لذلك، فليس عجيباً أنها لم تمت!»(١٠٨).

بالدرجة الثانية بعد الأطباء تترصّد النكتة وتنتقد بصورة خاصة من بين الأكاديميين: القضاة والمحامين. فتحيّز القضاة أو ارتشاؤهم يدعم الظلم في المجتمع ويزيد في العداوات والخصومات بين أفراده، وقد يؤدي إلى بعض الجرائم، إن لم يهدد النظام الاجتماعي ويرجعه إلى شريعة الغاب، في حال استشراء التحيّز والرشوة في القضاء. أما المحامون فيفترض بهم أن يدافعوا بأمانة وإخلاص عن موكليهم، إنما إذا كانوا مظلومين وليس ظالمين، وأن لا يبالغوا في تقدير أتعابهم مثل التاجر الجشع. النكتة تريد من القاضي العدل والنزاهة، ومن المحامي الدفاع عن المظلوم مقابل أجر مناسب لجهد المحامي ولوضع الموكل:

«روى أحد القضاة المصريين أن أطرف ما مرّ به من أجوبة المتهمين على أسئلته ما أجابه أحدهم عندما سأله: هل لديك ما تقدمه للمحكمة

(١٠٥) سعد، العدد ٧٣٥، تاريخ ١٩٨٤/٧/١٦، ص٢٦. انظر أيضاً: المختار، العدد ٩٥/ تشرين الأول ١٩٨٦، ص٢٦.

(١٠٦) المختار، العدد ١٠٢/ أيار ١٩٨٧، ص٥٣.

(١٠٧) أسامة، العدد ٣٩١ - ٣٩٢، تاريخ ١ و١٦ أيار ١٩٨٥، ص٧.

(١٠٨) الطبيب في مرآة الفكاهة، ص١٢٨.

قبل صدور الحكم عليك؟ فأجاب المتهم على الفور: والله ما بقي معي ولا مليم، يا حضرة القاضي!»(١٠٩). «أجبر وزير أحد القضاة على أن يعيّن لديه سكرتيراً من أصحاب الوزير، لا يقرأ ولا يكتب. وذات يوم اجتمع القاضي بالوزير وشكا له بأنه مضطر أن يكتب هو بنفسه جميع قرارات المحكمة، لأن سكرتيره لا يقرأ ولا يكتب. قال له الوزير: وما هي وظيفتك، إذن، إذا كنت لا تكتب قرارات المحكمة؟ قال له: إن وظيفتي أن أحكم فقط، ووظيفة السكرتير هي أن يكتب. وفي اليوم الثاني صدر قرار بجعل السكرتير قاضياً، وبجعل القاضي سكرتيراً»(١١٠). «قال القاضي للمتهم: حقيقة أنت كذاب، فشو لازم أعمل فيك هلأ؟ قال له المتهم: ليش بإيش كذبت؟ قال له: كذبت وقلت إن لك أخ واحد، مع أن أختك في شهادتها قالت إن لها أخين!»(١١١). «وقف أحد المحامين - وكان قصيراً نحيفاً - أمام قاض، فقال له: ما مهنتك؟ فقال: محام. فقال القاضي: أنت محام ويمكنني أن أضعك كلك في جيبي؟! فقال المحامي: إذن يصير في جيبك عقل أكثر مما في رأسك. فخجل القاضي وسكت!»(١١٢). «قابل أحد رجال الأعمال صديقاً له من المحامين وسأله: أليس الجو بديعاً اليوم؟ ثم تذكر أن صديقه المحامي يتقاضى أجراً مرتفعاً عن استشارته. فواصل حديثه قائلاً: هذه ليست استشارة، فأنا لا أقصد إلا لفت نظرك إلى حقيقة واقعة!»(١١٣). استطاع المحامي أن يؤثر في نفوس القضاة والمحلفين ويحملهم على الرثاء لموكله الطفل، وذلك بأن أسمعهم بكاءه خلال الدفاع عنه. وأخيراً سأل القاضي الطفل عما حمله على البكاء، فأجاب: إن المحامي قرصني!»(١١٤).

إن السخرية من الحلاقين قديمة قدم هذه المهنة. لنتذكر حكاية «مزين

(١٠٩) نضال الفلاحين، العدد ١٤٣٢، تاريخ ١٩٩٤/١١/٢.
(١١٠) المضحك المبكي،العدد ١٠٣١، تاريخ ١٩٦٣/٨/١١، ص١. بعد إعادة الصياغة.
(١١١) المضحك المبكي، العدد ٣٥٥، تاريخ ١٩٣٨/١/١، ص٩.
(١١٢) نضال الفلاحين، العدد ١٤٢٢، تاريخ ١٩٩٤/٨/٢٤، ص٨.
(١١٣) الهلال، عدد تموز ١٩٥٠، ص١٣٢. انظر أيضاً: المختار، العدد ٩٥/ تشرين الأول ١٩٨٦، ص٧٤.
(١١٤) من التقويم العربي الهاشمي، ١٩٩٤/١/١٧.

بغداد» في «ألف ليلة وليلة». كذلك القضاء مهنة قديمة، تناولتها النكتة منذ زمن طويل. وفي تراثنا شواهد كثيرة على ذلك، بطلها في الغالب جحا أو قراقوش: «قال قراقوش للص: مادمت أخذت كيس دراهم الرجل، فلماذا ضربته؟. قال اللص: لقد وجدت كيس الدراهم خالياً، فضربته من شدة الغيظ! فنظر قراقوش إلى الرجل وقال: وكيف تسير، يا رجل، بدون دراهم حتى تعكّر صفو الرجل، أنت تستحق أكثر من الضرب!»(١١٥). «جاء رجل إلى قراقوش يشكو من دار اشتراها من ساكن قديم، حيث وجد فيها مجموعة من الفئران. أخذ قراقوش يفكر، ثم قال: اصبر شهراً آخر، فإن لم يطالب بها الساكن القديم، صارت الفئران ملكاً لك!»(١١٦). أما الطب والمحاماة فمهنتان حديثتان نسبياً. وتنقسم مهن الفن بين قديمة وحديثة. فالغناء والرقص قديمان، وكذلك الموسيقى، بينما التمثيل مهنة حديثة نسبياً.

لقد كثر اهتمام النكتة بأهل الفن، خاصة بعد انتشار هذه المهن على المستوى الجماهيري. وهو يزداد بقدر ازدياد أهميتها في الحياة اليومية للمواطن العادي، من خلال تعايشه الدائم مع المذياع ثم التلفاز، إلي جانب السينما والمسرح. في هذا القرن، وخاصة منذ عقده الخامس أصبح الإنسان بحاجة إلى زمن أقل نسبياً للعمل، وفي نفس الوقت أكثر فأكثر ميلاً إلى اللهو والمتعة، وبالتالي أكثر فأكثر اندفاعاً للاستفادة من الخدمات الترفيهية لمهن الموسيقى والرقص والغناء والتمثيل. تبعاً لذلك من الطبيعي أن لا تعبّر النكات المتناقلة عن رفض عامة الناس لهذه المهن، بل عن رفضها للتردي الأخلاقي الذي تلاحظه على هؤلاء الفنانين والفنانات والمرتبط بممارسة المهن المذكورة. في ظاهرها ترفض النكات هذه الممارسات التي تعدّها لاأخلاقية، وفي الباطن نلمح أثراً من الحسد. أو لنقل: يتساءل المواطن العادي من خلال هذه النكات: لماذا يبيح هؤلاء الفنانون والفنانات لأنفسهم هذه المساحة الهائلة من الحرية في انتهال الملذات، في حين أنه هو، المواطن العادي، محروم منها؟! ولماذا يتساهل

(١١٥) ماجد، العدد ٨١٠، تاريخ ١٩٩٤/٨/٣١.
(١١٦) ماجد، العدد ٨٣٠، تاريخ ١٩٩٥/١/١٨، ص٦٢.

المجتمع معهم، ويتشدد مع بقية المواطنين؟ في الحقيقة ورغم الاهتمام غير العادي للناس بهم، فإن المجتمع يقيم هؤلاء الفنانين والفنانات بصورة سلبية، إلى أن يثبتوا العكس. ثم لابد طبعاً من التساهل مع أصحاب هذه المهن، وإلا فإنهم لن يستطيعوا ممارستها. لذلك يصبح الأمر بأيديهم، فيبقون ضمن حدود الأخلاقية العامة للمجتمع أو يخرجون عنها. فإذا حافظوا على الحد الأدنى منها، نظر إليهم المجتمع نظرة احترام وتقدير كبيرين: أبو خليل القباني، سيد درويش، أم كلثوم، محمد عبد الوهاب، فيروز والرحابنة، فاتن حمامة، يوسف شاهين، الشيخ إمام، فرقة كراكلا، مرسيل خليفة وغيرهم. إلى جانب ذلك هناك الثراء المرتبط غالباً بممارسة هذه المهن في العصر الحديث، بحكم كثرة الطلب عليها وندرتها كمواهب حقيقية. فمن المعلوم أن الثراء يدفع إلى الملذات، والثري هو أكثر من يخرج على أخلاق المجتمع. لذلك جاء في المأثور الشعبي: «اثنان لا يسمع بهما أحد: موتة الفقير وتعريصة الغني!»:

«في أحد برامج الإذاعة الفرنسية سئل طفل في العاشرة عن المهنة التي يفضلها عندما يكبر، فاختار أن يكون نجماً سينمائياً. وعندما سئل عن السبب، قال: حتى لا أستيقظ إلا في العاشرة، ويحضروا لي الطعام في السرير، وبعد ذلك أركب سيارتي (الرولز)، لأذهب إلى الاستديو، وهناك أقضي الوقت في تقبيل الممثلات الجميلات!»[(١١٧)]. «أرادت إحدى ممثلات السينما في هوليود أن تستخرج جواز سفر، فسألها الموظف المختص: حضرتك عازبة؟ فقالت له: أحياناً!»[(١١٨)]. «لقي ممثل مزواج ذات يوم فتاة مرحة حسناء، فحيته وقالت: ألا تذكرني؟ لقد طلبت مني ذات مرة ومنذ عشر سنوات أن أتزوجك! وتمطى الممثل ثم تثاءب وقال: وهل فعلت؟»[(١١٩)]. «واحدة ذهبت إلى الطبيب النفساني، فقال لها: شو مشكلتك؟ قالت له: أنا مطربة، وصوتي مش حلو، ولا بعرف نقي غنياتي، ولا الجمهور بيصفق لي،

(١١٧) حواء، العدد ٧٤٠، تاريخ ١٩٧٠/١١/٢٨، ص٤٩.

(١١٨) المضحك المبكي، العدد ٢٩٠، تاريخ ١٩٣٦/٥/٢٣، ص٩.

(١١٩) الموعد، العدد ٥٨٧، تاريخ ١٩٧٣/١٢/٦، ص٧١.

ومـثل مـا شـايف أنا مـوش حلوة، فـشـو الـعـمل؟ قـال لهـا : بسـيطة، اتركي هالمهنة!. فقالت: فات الأوان، يا دكتور. ـ ليش؟ ـ لأني صرت (نجمة)!»[120]. «التقت راقصة بأخرى وكانت تحمل أشياء معها، فسألتها عما تحمله. أجابت: كيلوتات. فقالت لها: شو، بدك تتحجّبي؟!». «دخلت راقصة إلى بيت جيرانها. فلاحظت أنهم ينظرون إليها باستغراب. وعندما تطلعت إلى نفسها، وجدت نفسها عارية، فقالت معتذرة: عفواً، جيت بتياب الشغل!».

الفئة الخامسة من أصحاب المهن التي تهاجمها النكتة هم التجار والباعة. وقد تحدثنا عن التجار ورجال الأعمال في الفصل الاقتصادي السياسي، باعتبارهم من الطبقة العليا. هنا نخص الباعة بالحديث، باعتبار أنهم من الطبقة الوسطى أو الدنيا، لكنهم في سعيهم للصعود الطبقي أو لتأمين العيش قد يقومون أيضاً مثل أولئك بالغش والاحتكار والجشع ورفع الأسعار وما إلى ذلك. هذه ممارسات معروفة منذ القديم، حتى أن النظام الاجتماعي الاقتصادي العربي في القرون الوسطى أوجد مؤسسة المحتسب ومنصب شيخ الكار والشهبندر من أجل تنظيم المهن والحرف ومراقبة ممارستها ومعاقبة المرتكبين. في العصر الحالي وجدت في بلادنا وزارة التموين للقيام بهذه المهام إلى جانب النقابات المهنية، لكن موظفيها ما كانوا على مستوى المسؤولية، مثلما أن المحتسب لم يكن دائماً مخلصاً للأمانة التي وضعها المجتمع في عنقه. لا أعلم إن دُبّجت نكات عن موظفي التموين، ربما كانت قليلة لحداثة هذه الوظيفة نسبياً، إنما عن سوء الباعة ثمة الكثير من النكات:

«المشتري للبائع: عندك سمك طازج؟ البائع: السمك الذي اشتريته في الأسبوع الماضي، ألم يكن طازجاً؟ المشتري: نعم كان طازجاً. البائع: هذا السمك منه!»[121]. «دخل بائع المكانس الكهربائية إلى بيت في قرية نائية.

(١٢٠) الشبكة، العدد ٨٤٩، تاريخ ١٩٧٢/٥/١، ص٤٣.

(١٢١) أسامة، العدد ١٧٣، تاريخ ١٩٧٦/٤/١، ص٢٠. وكذلك العدد ٣١١، تاريخ ١٩٨٢/١/١، ص٧. انظر أيضاً: سعد، العدد ٨١٨، تاريخ ١٩٨٦/٢/٢٤.

وبعد أن أفرغ كمية من النفايات في صالون البيت قال لصاحبته: إذا لم تلتهم مكنستي الكهربائية العجيبة كل هذه النفايات بدقيقة واحدة فقط، فسوف ألتهمها أنا بنفسي! فقالت له السيدة ضاحكة: إذن، ابدأ بالتهامها منذ الآن، لأنه ليس لدينا كهرباء بعد في هذه القرية!»[١٢٢]. «الأستاذ: عمليات الجمع تبعك دايماً مجموعها زايد، مين بيساعدك فيها؟ التلميذ: أبي. الأستاذ: وشو بيشتغل أبوك؟ التلميذ: سمان!»[١٢٣]. «ذهب رجل إلى أحد الباعة بعد سقوط الفرنك وقال له: معك تصرفلي هالليرة؟ فأخذها البائع وأعطاه سبعين غرشاً سورياً. فقال له الرجل: ما تكمّل، يا عم؟! قال له: شو كمّل، هذا حقك، ما الليرة نزلت ثلاثين بالمية!»[١٢٤]. «اضطر أحد البقالين إلى التغيّب عن دكانه لبضع دقائق، لكنه كان يخشى أن يفقد زبائنه، فترك على الباب ورقة كتب عليها العبارة التالية: سأعود بعد ربع ساعة. لكنه بعد أن فكر في أن بعض الزبائن لن يصبروا على الانتظار، أضاف: وقد ذهبت منذ عشر دقائق!»[١٢٥]. «الأب: هل تعلم ماذا يحل بالأولاد الكذابين، يا ولدي؟ الولد: نعم، إنهم متى كبروا تستخدمهم المحلات التجارية لإقناع الزبائن بجودة البضائع!».

إلى فئة التجار والباعة يمكن أن نضم مجموعة من المهنيين الذين يقدمون خدمات للمواطنين مثل أصحاب المطاعم والفنادق والمقاهي، وكذلك مجموعة من الحرفيين الذين يصنّعون ويبيعون سلعاً بحسب الطلب أو الذين يقومون بخدمات الصيانة والإصلاح في محلاتهم أو في منازل المواطنين: «في مطعم من أفخم مطاعم الريفيرا الإيطالية نظر الزبون إلى فاتورة الحساب، فصعق. ثم تمالك نفسه وقال للخادم: عشرون ألف ليرة لوجبة واحدة؟! وأضاف قائلاً: أرجو أن يكون لديكم خصم خاص لزميل لكم في هذه المهنة! قال الخادم: هل أنت خادم في مطعم؟ الزبون: كلا، أنا

(١٢٢) الموعد، العدد ١١٣٩، تاريخ ١٩٨٤/١٢/٢٢، ص٦١. انظر أيضاً: المختار، العدد ٥٨/ أيلول ١٩٨٣، ص٣٣.
(١٢٣) المضحك المبكي، العدد ١٠٢٢، تاريخ ١٩٦٣/٢/١٧، ص٢٣.
(١٢٤) المضحك المبكي، العدد ٣٠٨، تاريخ ١٩٣٦/١٠/٣١، ص٩.
(١٢٥) ماجد، العدد ٨١٠، تاريخ ١٩٩٤/٨/٣١.

لص!»[١٢٦]. «كم عليّ أن أدفع؟، سأل الزبون. ـ عشرون ألفاً، أجابه صاحب الفندق. ـ لكن، أعلمك أن المياه كانت طوال الليل تخرّ من سقف الغرفة، اعترض الزبون. ـ حقاً؟، كنت إذن في غرفة مزودة بحمام، عليك إذن أن تدفع خمسة وعشرين ألفاً!»[١٢٧]. «شاب من المدينة قرر أن يشتري منزلاً خارج المدينة. فذهب مع سمسار. وأعجبه منزل، فقال للسمسار: هذا المنزل يعجبني، ولكن هناك شيء يزعجني فيه. ـ ما هو، يا سيدي؟ فقال الشاب: هذا المصنع القذر قرب المنزل. وأجاب السمسار على افور: لا تشغل بالك، يا سيدي، إنه مصنع ديناميت، وسوف يطير عن بكرة أبيه يوماً ما بسبب هفوة بسيطة!»[١٢٨]. وهذه نادرة من الواقع: «اشترى أحدهم طرطيرة، وبدأ عمله بأن نقل لابن عمه جاغات تبن. فاعتلى ابن العم التبن وساق الرجل الطرطيرة إلى القرية. عند أحد المنعطفات انقلبت الطرطيرة مع حمولتها فوق ابن العم. فنزل السائق وترك كل شيء وهرب. بعد قليل تخلّص ابن العم من التبن فوقه، وقام سليماً معافى. وعندما رأى ابن عمه ثانية، عاتبه قائلاً: هيك بتعمل فيني، بتتركني تحت التبن وبتهرب؟ أجاب السائق: ما هيك بيعملوا الشوفيرية؟».

* * *

هذه هي أنواع النكات التي رصدناها تقوم بوظيفة تربوية على يد المجتمع أو الوسط الذي يعيش في كنفه الفرد المستهدف: (١) نكات تتناول شخصيات حقيقية مشهورة، فنقدمها كمثال إيجابي أو سلبي مشخّص، جدير بالاقتداء أو بالرفض. (٢) نكات ونوادر نُسجت حول شخصيات تاريخية معروفة لتقدم عبراً تعليمية وتنويرية. (٣) نكات أبطالها شخصيات أدبية (خيالية). (٤) نكات تتناول أفراداً غير محددين بشخوصهم، بل بطباعهم. (٥) نكات تقوم على الدرس التربوي عن طريق أفراد غير محددين بشخوصهم. (٦) وأخيراً نكات تستهدف أفراداً معرّفين

(١٢٦) ماجد، العدد ٧٨٦، تاريخ ١٦/٣/١٩٩٤، ص٦٢.

(١٢٧) عالم التسلية، العدد ٤٩، ص٥٤.

(١٢٨) الموعد، العدد ٦٨٥، تاريخ ٢٣/١٠/١٩٧٥، ص٥٦.

بمهنهم. في كثير من هذه النكات والنوادر يختلط العنصر التربوي بعناصر أخرى. وذلك لأن النكات عموماً قد تقوم بوظائف أخرى، كما سنرى: تسلوية دافعها اللعب وهدفها مجرد الضحك، ايديولوجية تعبّر عن الذات الجماعية ضد الذوات الجماعية الأخرى، عرضحالية تعكس ظروف الناس وأحوالهم الاجتماعية الاقتصادية والسياسية بغاية التنفيس أو التحريض أو التوعية، شهوانية تتكلم فيها حاجات أساسية غير ملباة في الفرد أو ملباة بأشكال منقوصة وهي الحاجة الجنسية بصورة خاصة في العصر الحديث، اعتقادية موضوعها وجود الإنسان وموته ومصيره دافعها البقاء والخلود وغايتها تعزية الإنسان. في ذلك تقوم النكات بالوظيفة الجامعة الكبرى، وهي خلق التوازن في النوع البشري وفي المجتمعات وفي نفسيات الأفراد، حيث اللعب يقابل العمل، والتربية تضبط اجتماعياً الحرية الشخصية والأنانية، والانتماء (النحن) يجابه الانتماء الآخر (الغير)، والشكوى والثورة يستثيرها التسلط والضغط، والشهوة تقف أمام الكبت والحرمان، والشكّ يخفف من قسوة الإيمان، كما الإيمان يخفف من هول المصير.

الفصل الخامس

عصبوية النكتة

«عصبوية النكتة» - عنوان هذا الفصل - نستطيع أن نستبدل به مصطلح «اديولوجية النكتة». ذلك لأنني أرى أن مفهوم الايديولوجيا أوسع مما استخدمه ماركس ومن بعده مانهايم ولينين ثم التلاميذ، بل وأرى أن أصل المفهوم موجود في مقدمة ابن خلدون. فالايديولوجيا ليست - كما فهمها أولئك العلماء والمنظرون - طبقية الطبيعة فحسب، بل تسع أكثر من ذلك لتشمل جميع الانتماءات الاجتماعية من عشيرة وشعب وطبقة وطائفة... الخ من المجموعات البشرية التي تقوم بين أفرادها روابط مصيرية واقتصادية من هذا النوع أو ذاك، إلى هذا الحد أو ذاك. فالايديولوجيا هي الوجه الفكري (قل: الروحي) للانتماء الذي هو الوجه الكينوني (قل: المادي) للعصبية أو الايديولوجيا، وذلك عندما يصبح الانتماء ولاء، أي عندما لا يعود الانتماء انتماء بذاته بل أيضاً لذاته، بحسب اللغة الماركسية. هذا يعني أن الحالة الموضوعية وهي الانتماء أصبحت بالوعي حالة ذاتية أيضاً. والقصة الضاحكة التالية تعبّر بطريقتها عن هذه الفكرة:

«يروى أن جندياً من فرقة ايرلندية وقع أسيراً في قبضة الجيش الألماني في الحرب العالمية الأولى. ولكن الفرقة نفسها انتصرت على الألمان في النتيجة. وكان هذا الايرلندي يفتخر ويفاخر بهذه الفرقة التي

هي فرقته، حتى ضاق آسروه به ذرعاً، واغتاظوا منه أيما اغتياظ. فتقدم منه أحد كبار ضباطهم وقال له: لقد افتخرت أيها الرجل كفاية، والآن عليك أن تختار أمراً من اثنين، إما أن يقطع رأسك وإما أن تقسم يمين الطاعة لجلالة امبراطور ألمانيا. أما الايرلندي فقد ارتعدت فرائصه وأجاب على هذا قائلاً: والله، لا أريد أن أفارق هذا العالم الآن، ولهذا أرى أن أقسم يمين الطاعة لجلالة الامبراطور. وهكذا كان. وما أن أقسم اليمين حتى قال له الضابط الألماني: الآن، وقد صرت منّا وفينا، يمكنك أن تسرح وتمرح كما تريد. فتوجه هذا الايرلندي نحو الباب فرحاً، وقبل أن يخرج منه، التفت إلى الضابط الألماني وقال له: يا الله، أيها الضابط، من أولئك الايرلنديين! ألم يحرقوا أنفاسنا وينتصروا علينا نحن الألمان؟!»[1].

لقد عرضت نظرتي هذه في وقت سابق في مكان آخر[2]، ولا حاجة لمزيد من التفصيل. نقطة واحدة فقط ما زال عليّ أن أستعيدها، كي يصبح ما قلته هنا كافياً لبحث المحتوى الاديولوجي أو الغاية الاديولوجية في النكتة العربية المتداولة: فكما أن الأبيض يُعرف بالأسود، والخير بالشرّ، واليمين باليسار، ولولا ذلك لما وُجد أبيض وأسود ولا خير وشر ولا يمين ويسار، كذلك فالأنا الجمعية، وهي الـ«نحن»، لا تعرف إلا بالـ«هُم»، أي الغير: يروى عن هبنقة «أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف وقال: أخشى أن أضل نفسي، ففعلت ذلك لأعرفها به. فحولت القلادة ذات ليلة من عنقه لعنق أخيه. فلما أصبح قال: يا أخي، أنت أنا، فمن أنا؟»[3]. وعن جحا أنه «قابل رجلاً في الطريق فسلّم عليه سلام اشتياق، فدهش الرجل وقال له: هل تعرفني؟ قال: لا، ولكني رأيت قفطانك مثل قفطاني، فظننتك أنا!»[4].

يجري تعريف الذات (أو الـ«نحن») بتمييزها عن الغير، ويجري بالمقابل تعريف الغير من خلال تمييزه عن الذات. بالطبع يكون تمييز

(١) باختصار عن: المضحك المبكي، العدد ١٠٣٦، تاريخ ١٩٦٣/٩/١٥، ص٢.
(٢) نحن والغير في السياسة والاقتصاد، دار الحوار باللاذقية ١٩٩٠، ص٥ - ٦، ٩، ٣٨ - ٤٥.
(٣) ابن الجوزي، أخبار الحمقى، ص٤١.
(٤) نوادر جحا وابنه وحماره، ص٧.

الذات أو الـ«نحن» عن الغير امتيازاً لهذه الذات عن الغير، كما يكون تمييز الغير عن الذات في العادة انتقاصاً للغير بالمقارنة مع الذات. فكاهياً يتم ذلك في الأحوال العادية بالضحك على الغير، ونادراً على الذات.

يقول مثل شعبي: «القرد بعين أمه غزال». ويقول مثل آخر: «الخنفسة شافت بنتها ع الحيط، قالت لها تقبريني مثل اللّولية بالخيط». ويقول مثل ثالث: «كل مين مخطته على تمه حلوة»(٥). بناء عليه، عندما ترى شعباً ما يسخر من شعب آخر أو يتهكم عليه، فهو يفعل ذلك ليس بالضرورة لعداوة بينهما، ولا بالضرورة حتى لتنافسهما على مصلحة ما، بل على الأرجح تأكيداً للذات وإثباتاً للوجود. هناك إذن ثلاثة مستويات من دواعي الضحك على الجماعات الأخرى: الداعي الأول هو العداوة، الثاني هو التنافس، الداعي الثالث والأعمّ موجود في الذات (الـ«نحن») أكثر مما هو موجود في الغير.

في هذه الحالات الثلاث التي تتعلق بالصلات بين الجماعات، لا وجود تقريباً للعنصر التربوي في النكتة، رغم انتقاديتها، بل يكون العنصر الاديولوجي هو الطاغي. فالتوجه التربوي ينطلق من المجتمع نحو الفرد (أو من فرد ممثل للمجتمع نحو فرد آخر) ولا يكون من مجتمع إلى مجتمع آخر. في هذه الحرب الاديولوجية الفكاهية ليس مهماً أن يكون ما يقال صحيحاً، ولا صادقاً، وليس مقصوداً ولا حتى مرغوباً إصلاح الغير، ولا أخذ العبرة من مساوئه. بالعكس، إذا لم تتواجد السلبيات في الآخرين، أوجدناها. وعلى فرض أنهم تغيروا، أصلحوا أنفسهم، فإننا لن نغيّر نظرتنا. في هذه الحرب لا يقال - من حيث الجوهر - أكثر من أننا نحن مختلفون عنهم هم، وأننا نحن (بما أننا نحن) أفضل منهم (لأنهم الغير). الغير من جهته ينظر إلينا نحن هكذا أيضاً: «قال إعرابي لشاعر من بني الفرس: الشعر للعرب، فكل من يقول الشعر منكم، فإنما نزا على أمه رجل منا. فقال الفارسي: وكذلك من لا يقول الشعر منكم، فإنما نزا على أمه رجل منا!»(٦). بالتأكيد

(٥) عن ألسنة الناس، إلى جانب: يا مال الشام، ص١٣٦.
(٦) زهر الآداب للحصري، ص٢٦٢ من الجزء الثاني.

لا تقدر النكتة بأي شكل أن تخلق تفوقاً لقوم على آخرين، لكنها قادرة بلا شك على المساهمة في خلق (أو إيهام) شعور بالتفوق أو - على الأقل - بالندّية تجاه الأقوام الأخرى، وإلا صار الكيان الجماعي المعني عرضة للإنهيار من الداخل.

النكتة في هذا المجال هي إذن - بمعنى ما - عدوانية بلا شك، أو لنقل «شرانية»، ليس بالضرورة كرهاً بالآخرين، كما قلنا، بل حباً للذات وفي سبيل لمّ شمل النحن وتقوية تضامنها. أما المفارقة فتكمن في الاختلاف نفسه، بعد المبالغة فيه على طريقة الرسم الكاريكاتيري. فيؤخذ من الجماعة المغايرة جوانب غير مألوفة (لدى النحن) مما يُعرف عنها أو عن قسم منها، من عادات وسلوك وأخلاق وعقلية، وتُعرض كسلبيات مضخّمة توصم بها الجماعة بأكملها، فتضحك لها «النحن» وتقوي ثقتها بنفسها، كما تقوي الرابطة النفسية فيما بين أعضائها. وهذا هو المطلوب في المقام الأول: «قال هشام بن عبد الملك للأبرش الكلبي: زوجني امرأة من كلب. ففعل وصارت عنده. فقال له هشام وقد دخل عليه: لقد وجدنا في نساء كلب سعة. فقال له الأبرش: إن نساء كلب خلقن لرجال كلب»(٧).

في هذا الفصل سوف نستبعد ثلاث عصبيات: الطبقية الشاقولية (ما بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا)، والدينية (فيما بين أبناء الأديان والمذاهب المختلفة)، والجنسانية (فيما بين الرجل والمرأة)، لأننا سنتناولها بشكل مستقل، مركّزين على العلاقات الاقتصادية في الأولى، وعلى النفسية الإيمانية في الثانية، وعلى العلاقات الجنسية إلى جانب الجنسانية في الثالثة، أكثر مما سنركز على الاديولوجيات فيها، أي أكثر مما سنركز على الأفكار والمشاعر المرتبطة بالانتماء إلى هذه العصبيات.

---

(٧) العقد الفريد، الجزء الثاني، ص١٢٤. الجزء الثالث، ص٢٤٩.

أ ـ العصبيات المحلية ـ تجاه البادية والريف

جاء في القرآن الكريم(٨): «يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»: «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة». وهذا بيان لطبيعة اجتماع البشر. فقد بدأت البشرية حياتها بأرهاط رحالة، وهي جماعات صغيرة أشبه بالقطعان عند الحيوانات. ثم مع تقدمها على درب (أو دروب) الحضارة تكونت العشائر. ومن العشائر القبائل، ومن القبائل الشعوب. - حلقات متواسعة من الاجتماع البشري، كل حلقة تالية تستوعب الحلقات السابقة ولا تلغيها، إلى أن اتجهنا في القرن العشرين، ببوادر الأمم المتحدة ومنظماتها، نحو شكل اجتماعي يضم البشرية كلها من خلال مجموع الدول التي تحكمها. إذن، ليست المشكلة أننا، نحن العرب، منقسمون إلى مجتمعات تشترك في أمور وتتمايز في أخرى. مشكلتنا أن لا تضم حلقاتنا القطرية حلقة قومية واحدة. كذلك ليست المشكلة أننا في سورية (أو في اليمن أو الصومال أو الجزائر) نتوزع في بيئات وأوساط متباينة جزئياً، من حيث طبيعتها الأقوامية أو الثقافية أو حتى الطائفية... مشكلتنا أن لا نتعارف، أي أن لا نقبل بعضنا في تمايزنا الجزئي. فنسعى إلى المستحيل وهو إلغاء خصوصياتنا، متوهمين أننا بذلك ندعم عموميتنا، فلا نعي أن لا عمومية لولا الخصوصيات، وأننا بسعينا هذا، نخاطر بأن نعمم الخصوصيات ونلغي العمومية.

غير أن الخصوصيات ضمن حلقة العمومية يعني - فيما يعنيه - القبول بالمتناقضات بين فرادى هذه الخصوصيات ضمن الحدود التي لا تضرّ بالوحدة العمومية (تناقضات غير تناحرية)، وخاصة أن لا تدفع التناقضات المجموعة المعنية إلى طرد أي من أعضائها وكذلك أن لا تدفع أياً من أعضائها إلى الإنسحاب من هذه المجموعة. طبعاً من الأسلحة التي ستستخدم في هذا الصراع بين الأخوة يهمنا هنا: الأدب الهزلي. على هذا الصعيد تتحدد الحدود بالحفاظ على الشعور بالوحدة بين عناصر

(٨) سورة الحجرات، الآية ١٣. سورة المائدة، الآية ٤٨؛ وسورة النحل، الآية ٩٣.

المجموعة، فلا تصل السخرية أو المهاجاة إلى حدّ إلغاء الجماعة المستهدفة أو إذلالها. بالمقابل تضيق الحدود إلى درجة المستحيل، إذا كانت الجماعة المستهدفة ذات حساسية مفرطة لا تقبل معها بأي نقد ساخر: «سمع إعرابي قارئاً يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً»، فقال: لقد هجانا. ثم بعد ذلك سمعه يقرأ «ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر»، فقال: لابأس، هجا ومدح، هذا كما قال شاعرنا:

هجوت زهيراً ثم إني مدحته   ومازالت الأشراف تُهجى وتُمدح»(٩).

بهذه النادرة نكون قد بدأنا الحديث عن العصبية الحضرية (مدناً وريفاً) ضد البدو. وهي عصبية قديمة، ربما تعود في بلادنا إلى بدء الزراعة. فمع ازدياد أهمية الزراعة استقر قسم من سكان منطقتنا في الأماكن الصالحة للزراعة، بينما بقي القسم الآخر مع حيواناته يتنقل طلباً للمراعي. من ناحية خلق هذا إمكانية تبادل السلع لصالح الطرفين، ونشأ من الناحية الأخرى تناقض بين مصلحتيهما بالأرض؛ المزارعون يريدون أراضيَ محمية يزرعونها بأمان، والرعاة يريدون أراضيَ مفتوحة لرعيهم متى شاؤوا. كان تناقضاً وجودياً (مصيرياً)، أقسى من الصراع الطبقي المعروف، حلوله صعبة وغير دائمة، حتى بتقسيم الأراضي بينهما من قبل سلطة عليا. فكلا الطرفين كان يطمع، بل وكثيراً ما يضطر إلى التوسع على حساب الآخر. يُضاف إلى ذلك رغبة البدو أو اضطرارهم لغزو المدن والأرياف وقطع الطرق على القوافل التجارية. منذ أوائل هذا القرن، على الأقل، تراجعت أكثر فأكثر حدّة هذا التناقض، حتى أننا الآن نكاد لا نسمع به(١٠). غير أن آثاره ماتزال موجودة في العداء الموروث الذي نلاحظه

---

(٩) المستطرف للأبشيهي، ص٣١٤.

(١٠) نقرأ مما كتبه عبد الحميد فتنة على الصفحة الرابعة من العدد ١٣٢٣ من جريدة «نضال الفلاحين» الصادر بتاريخ ١٩٩٢/٩/٢: «تشهد قرية المشرفة في منطقة النبك صراعاً بين مربي الأغنام والمزارعين. ولعل هذا الصراع قديم جديد، حيث يسعى مربو الأغنام بعد ندرة الأعلاف قديماً وغلاء سعرها حديثاً إلى تأمين احتياجات ثروتهم الحيوانية بأي طريقة وعلى حساب أي كان، وهم يعرفون أن ذلك سيسبب لهم الكثير =

حتى يومنا هذا لدى أبناء الحضر تجاه البدو، والذي تعبّر عنه النكتة ألطف تعبير، وربما أصدقه:

«كان من المشهور عن الحمام أنه يوصف بنعيم الدنيا. سمع بذلك بدوي، فجاء إلى دمشق ليرى نعيم الدنيا. وتصادف أن مرّ أمام بائع نمّورة، فاستطاب الشكل. ولما ذاق الطعم، وهو أطيب، قال: اي بالله، هذا هو الحمام!»[11]. مثال آخر: «بدوي كان يتسلق شجرة. وكانت معه بدوية، فقالت له: هالله هالله، يا حمد، على هالقلشين!. فقال لها: بسلامة فهمك، هاد مش قلشين، هاد قشب!». مثال ثالث: «أحد أبناء المدينة زار البادية وقعد يرتاح عند أحد الرعاة البدو. كان عند البدوي غنم أبيض وأسود. سأله ابن المدينة: من أين تسقي هذا الغنم؟ قال البدوي: الأبيض أم الأسود؟ ـ الأبيض. ـ هناك وراء هذه التلة واحة فيها ماء. ـ والأسود؟ ـ من نفس المكان. ثم سأله ابن المدينة: ومن أين تطعمه؟ قال البدوي: الأبيض أم الأسود؟ ـ الأبيض. ـ إلى جانب الواحة يوجد مرعى فيه عشب. ـ والأسود؟ ـ من نفس المرعى. فقال له ابن المدينة: إذا كان كل الغنم يشرب من نفس النبع ويأكل من نفس المرعى، فلماذا تفرّق بين الأبيض والأسود؟ أجاب البدوي: لأن الغنم الأبيض ملكي. فسأله ابن المدينة: والأسود؟ أجاب: كمان ملكي!». ومما جاء في المأثورات الشعبية: «البدوي ما ينام وفوق راسه حلاوه!»؛ «البدوي إذا كثروا سمناته، بيدهن بيضاته!»؛ «صابون العرب لحاها!»؛ «شم الهوا عند العرب الورد والحطب!»[12]... الخ.

فأهل الحضر يعيّرون البدو في هذه النكات (ونكتة البدوي مع الموز التي سبقتها) بالحرمان وخشونة العيش وبالجهل والغفلة وقلة النظافة،

= من المتاعب والصراعات مع الآخرين. في حين أن المطلوب من المزارعين حماية أشجارهم ومزروعاتهم التي كلفتهم الكثير من الجهد والمال والزمن، واعتمدت معيشتهم كلها على ما ينتجون. وتوسعت دائرة الصراع بينهم لتصل إلى مرحلة بات يخشى معها أن يذهب بعض الأفراد ضحيتها».

(١١) حديث دمشقي، ص٢٣٢.

(١٢) سلامة عبيد، ص١٠٤، ١٠١. الورد: نقل الماء. العرب (هنا): البدو.

وحتى بالبدائية. وهذا برأيي أساسه اديولوجيا. قد يعترض قارئ بأن هذه الصفات موجودة فعلاً لدى البدو، بالتالي فالنكات المذكورة صادقة، وهي لذلك ليست اديولوجيا. وجوابي هو أنه بغض النظر عن صحة هذه النكات وصدقها، فهي اديولوجية الأساس، لأنها أصلاً غير موجهة للبدو (بل للاستهلاك المحلي)، ثم إنها - بافتراض صحتها - تعيّرهم بما ليس تحت سلطتهم عموماً، فلا تقدّم لهم ولا لغيرهم من خلالهم عبرة تربوية. خلافاً لذلك ثمة نكات تتهم البدو بالخبث والمكر والغدر: «استدان أبو فهد من جاره أبي فارس مبلغاً من المال كي يشتري به غنماً يربّيه ويعتاش منه. وفي الموعد المحدد ذهب أبو فارس يطالب أبا فهد بالمبلغ المستحق، فوجده يرعى قطيعاً كبيراً من الغنم. قال له: والله انسريت وقت شفت هالقد عندك غنم. فأجابه أبو فهد: هالغنمات ما هي غنماتي، غنماتي طاروا وهدول غنمات شيخ الضيعة. - شلون طاروا غنماتك؟! - شي فطس، شي بعتو وأكلت بحقو. - لكن كيف رايح تدبر لنا السند وتدفعلنا ياه؟ - أم فهد بتقعد كل يوم عالعين، فوقت بتجي الغنمات حتى تشرب، بيعلق شوي من صوفها بالسياج، فهي بتلمّ الصوفات العلقانين وبتغزلهم، فوقت بيكتروا بدنا ننزل عالسوق ونبيعهم ونعطيك حقك وحبة مسك. وهنا لم يعد أبو فارس قادراً على أن يمسك نفسه عن الضحك. فقالت له أم فهد: ليش عم تضحك، يا أخي؟ قال لها أبو فهد: ليش حتى ما يضحك؟ صار حقو بعبو!»[١٣].

بالطبع، لا يعني هذا أنه ليس لدى البدو بالمقابل نكات ونوادر تهجو أبناء الحضر (من ريف ومدينة)؛ ربما لو عشنا معهم زمناً لسمعنا الكثير منها: «لطم رجل قروي بنتاً بدوية على وجهها حيث كانت تحشّ من زرعه، وتلفّظ عليها ألفاظاً نابية لأنها دخلت مزرعته. ثم أدرك خطر ما اقترف... وأطنب على بدوي ليخلّصه من هذه الورطة، فأخبره البدوي أن الحلّ الوحيد الذي يجنبه من هذا الجرم هو أن ينفّذ ما يطلبه منه في مجلس القضاء (البدوي). فوافق القروي على تنفيذ الطلب بحذافيره. فما كان من البدوي إلا أن ربط القروي من رجله في مربط الحمار وقال له: نهّق!، على

(١٣) ملخص عن: المضحك المبكي، العدد ١٩٤، تاريخ ١٩٣٣/١١/٢٥، ص١.

مرأى ومسمع من القاضي والمتقاضين. وحين فعل ذلك، قال البدوي: أسألك بالله، يا قاضي الرحمن، هل هذا الرجل الذي يفعل ذلك يدرك ويعرك؟ فأجاب القاضي: لا، وكل ما يفعله لا يؤاخذ عليه»[١٤].

كذلك عليّ أن أستدرك، أن أهل الحضر يتناقلون أيضاً مضحكات غير ادیولوجية عن البدو، وإن كانت نسبياً قليلة جداً، منها هذه النادرة الحيادية (الحكيمة) التي تبدو منقولة عن البدو أنفسهم: «كان حمد متزوجاً وله ولدان. فلما جاء وقت انتقاله إلى منطقة غير منطقته طلباً للمرعى، أخذت امرأته تضبضب أمتعتها وتحمّلها على ظهر زوجها. فوضعت على ظهره الخيمة والكراسي والفرش والبسط واللحف وغيرها. وقبل أن يقوم أسرعت إليه وقالت له: انتظر لا تقوم، فقد نسيت المكباج والجرن، فسأحمّلك إياها أيضاً. فالتفت إليها حمد وقال لها: حطّي هلي بتريديه، على كل حال حمد ما هو قايم!»[١٥].

في الصلات بين المدن والريف لا نجد ذلك التناقض الذي عرضناه بين البدو والحضر. التعاون هنا أوثق، والتناقض أرحم. فقلما يكون مصيرياً مدمّراً، بل هو تناقض يتراوح ما بين الشاقولي التناحري والأفقي التنافسي. فيُلاحظ أن علاقة التبادل التجاري بين الطرفين ذات ضرورة حياتية لهما من جهة، وغير متكافئة من جهة أخرى. فالفلاحون يبيعون منتجاتهم بأسعار لا تغطي تكاليفهم وأتعابهم بالقدر الذي تغطي فيه أسعار المنتجات والخدمات المدينية تكاليفها وأتعاب العاملين فيها من حرفيين وتجار ومهنيين وإداريين. بتعبير آخر: ساعة عمل القروي تُقدّر بأقل مما تقدر به ساعة عمل المديني. (شبيهة بذلك، إنما بمكيال أكبر – العلاقة بين الدول الصناعية المتقدمة والدول المتخلفة). غير أن طبيعة العلاقة هذه بين المدينة والريف قلما تظهر في النكات التي يتناقلها الطرفان عن بعضهما، هي – كما رأينا في النكات عن البدو – ادیولوجية في الغالب:

---

(١٤) باختصار عن: عبد الكريم عيد الحشاش، قضاء العرف والعادة، ١٩٩١، ص١١٠.
(١٥) المضحك المبكي، العدد ١٠٢٨، تاريخ ١٩٦٣/٧/٧، ص٣.

«دخل رجل ريفي أحد محلات الأحذية، فأعجب بحذاء في الفترينة، فأحضر له عامل المحل فردة حذاء. وبعد أن قاسها، قال الريفي: بكام؟ فقال البائع: ٦٠٠ قرش. وهنا صاح الريفي: ما تهاود يا شيخ شوية، خليني أشتري الجوز على بعضه!»[١٦].

بالطبع ليست قضية المديني أن يبين استغلال المدينة للريف، ولا هو قادر هزلياً على عرض أحوال الريف والفلاحين. هذه قضية أبناء الريف والفلاحين أنفسهم. ابن المدينة يميل إلى التفاخر على الريفي، وبصورة واعية أو غير واعية إلى تمويه العلاقة الاستغلالية معه، وإن كانت هذه تتراءى، بصورة غير مباشرة وغير مقصودة، من خلال حدث النكتة، أي كنتاج ثانوي لها: «فلاح ذهب إلى عرضحالجي وطلب منه أن يكتب له عريضة، يظهر فيها ظلامته ليرفعها إلى الحكومة. قال له العرضحالجي: إن العرائض عندي أنواع، منها عرائض بليرة واحدة، ومنها عرائض بخمس ليرات، فمن أي صنف تريد عريضتك؟. قال له بعد التفكير: اكتب لي عريضة ذات الخمس ليرات... وأخذ العرضحالجي يكتب له العريضة المطلوبة. ثم قرأها عليه بصوت متهدّج وكلمة كلمة. والتفت إلى صاحب العريضة، فوجده يبكي. فقال له: لماذا تبكي، يا أخ؟. قال له: لقد كنت أحسب نفسي أنني مظلوم، ولكنني ما كنت عارف أني مظلوم كل هالقد»[١٧].

يمكن أن نورد أمثلة أخرى تشهد على ظلم الفلاح (أو القروي) أو على كدحه ونشاطه وكذلك على ذكائه وحكمته، لكنها قليلة نسبياً: «فلاح كان قاعداً يرتاح في ظل شجرة، وقد انتهى موسم عمله الربيعي ولم يبدأ موسم عمله الخريفي. فمرّ من قدامه بائع يسوق حماره في عزّ الحرّ وقد حمّله بمختلف البضائع. قال له البائع: مالك تقعد هكذا دون عمل؟ أجاب الفلاح: وماذا أفعل؟ - قم، تحرك، بع واشتر! - ولماذا أبيع وأشتري؟ - كي تربح.

---

(١٦) ١٠٠٠ نكتة، الجزء ٢٠، ص٢٨.

(١٧) المضحك المبكي، العدد ١٠٣٥، تاريخ ١٩٦٣/٩/٨، ص١.

- وماذا لو ربحت؟ - يصير عندك أموال كثيرة وتصبح غنياً. - وماذا لو أصبحت غنياً؟ - تقعد وترتاح. - وماذا تراني أفعل الآن؟!»(١٨). أما عموم النكات، وليس مجرد الغالبية، فتنعت الفلاحين والريفيين بصفات سلبية. والقليل القليل مصدره الريف، ويعيّر أهل المدينة بالتحايل (الخبث) والبخل: «المدني مثل الدجاجة، اطعمه سنة، ما بعشيك ليلة»(١٩). أما جهل المديني بالطبيعة والحيوانات والزراعة فأمر معروف، وهو مصدر لكثير من النوادر والنكات: «طفل مديني زار لأول مرة في حياته بستان حمضيات، فصاح قائلاً: ماما، ماما، ليكي البردقانات معلقات بالشجرة!».

النكات المتناقلة في المدن تصف الفلاحين والريفيين عموماً بالجهل والتغفيل: «كان عند أحد الفلاحين بقرتان. وكانتا مربوطتين إلى جذع شجرة، ففلتت إحداهما وطشرت. طلبت منه زوجته أن يلحق بها ويعيدها، فلم يتحرك. ولما أعادت عليه القول مرة ثانية وثالثة، أمسك بقضيب وجعل يضرب البقرة المربوطة. قالت له زوجته: لشو متضرب هاي؟! ما هي الفلتانه!. فأجابها: ليش مقلتيها لهاي، إذا فلتت؟!». مثال آخر: «ريفي جاء لزيارة أحد أقربائه في القاهرة. ولما استقرّ به المقام، راح يسأله عن أهل بيته وفي طليعتهم ابنه الوحيد. فقال له صاحب الدار: الحمد لله، دخل مدرسة الطب ودلوقت بيشتغل طبيب أطفال. فقال له قريبه الطيب القلب: ليه يا شيخ، ما كنت تخلّيه يكمّل!»(٢٠). وفي هذه النادرة ثمة طيبة زائدة لدرجة السذاجة والغشمنة: «قصّ علينا أحد الوجهاء أنه كان يسير بسيارته في إحدى الطرق الزراعية، فوقع نظره على قروي عجوز يقف في الطريق ويبدو عليه الكلال. فدعاه لتوصيله. ولبّى القروي الدعوة. وبعد أن قطعت السيارة مسافة طويلة، قال الوجيه للقروي: أنت رايح أي بلد؟ فقال القروي:

(١٨) المصدر شفهي. ذكر نجيب حنكش نكتة مماثلة عن صياد سمك، انظر حنكشيات، ص١٠٩. كما أوردها فايز قنديل عن أحد الهنود الحمر، في: البعث، تاريخ ١٩٨٦/٤/٢٤، ص١٢. وكذلك عبد الكريم أبا زيد، في: نضال الشعب، العدد ٤٩٠، تاريخ ١٩٩٣/١١/١٥، ص٧.

(١٩) علي الخليلي، ص٦٨.

(٢٠) رحلة مع الظرفاء، ص٢٢٦ - ٢٢٧.

والله أنا سكّني من الجهة المضادة. فقال الوجيه مندهشاً: ولماذا ركبت معي إذن؟! فقال القروي في سذاجة: أصلي مارضيتش أكسفك!»[٢١].

ويميّز أبناء المدن الريفيين بالتخلف الذي يعني بالنسبة لهم الجهل التقني وسوء التعامل مع الأدوات والوسائل الميكانيكية الكهربائية: «رجل جاء من القرية وذهب إلى محل الأدوات الكهربائية، فاشترى غسالة أوتوماتيك. فقال له البائع: هذه الغسالة تعمل كل شيء. وعندما ركّبها في البيت لم يركّزها بشكل مضبوط. فما أن بدأت امرأته بالغسيل، حتى كرجت الغسّالة. فقال لهم: اتركوها، فهي ذاهبة لكي تنشر الغسيل على الحبلة!»[٢٢]. شاهد آخر: «سألت قروية عجوز زوجها بعد عودته من المدينة: ما هو أغرب ما شاهدته في المدينة؟ فأجابها بوقار مصطنع: في معظم العمارات تجدين خزانة في حجم خزانتنا، وفيها أزرار بعدد طبقات العمارة وما أن تضغطي أحد الأزرار، حتى ينزل إليك الطابق الذي تريدينه!»[٢٣]. وثمة قول سمعته شخصياً من أبناء القرى أنفسهم: «الفلاح إذا تمدّن، تفدّن!» (أي أصبح فداناً، والفدان هو الثور بلهجة ريف الساحل السوري).

ب ـ العصبيات المحلية ـ فيما بين المدن والمناطق

إذا كانت عصبية المدن والريف ضد البدو تتضمن عنصراً صراعياً مصيرياً وطبقياً، وعصبية المدينة ضد الريف والفلاحين عنصراً طبقياً، فإن الصراع العصبوي فيما بين المدن في البلد الواحد يقوم بصورة رئيسية على التنافس أكثر مما على الاستغلال. ربما أمكننا في أكثر البلدان العربية، إن لم يكن في جميعها، أن نستثني العاصمة، فتراها تستأثر بحصة السبع من الدخل الوطني، أو بالأحرى تؤثرها الدولة بهذه الحصة، بما لا يتناسب إطلاقاً مع نسبة عدد سكانها إلى المجموع العام للسكان ولا مع

(٢١) الاثنين والدنيا، العدد ٦٨٥، تاريخ ١٩٤٧/٧/٢٨، ص٢٦.
(٢٢) هوبي - عالم التسلية، العدد ٢٢٢، ص٣٧.
(٢٣) رواها محمود شباط (السعودية) لمجلة: المختار، العدد ٥٤/ أيار ١٩٨٣، ص٨١.

معدل مساهمتها في الانتاج الوطني. بغض النظر عن هذا الاستثناء لا نرى أن جميع النكات المتبادلة بين المدن الشقيقة عصبوية خالصة دون أساس واقعي، بل الأرجح أن هذه النكات العصبوية تقوم على أساس واقعي أو شبه واقعي. فالأساس الواقعي (كاحتمال) جرى عبر الزمن تضخيمه وتعميمه. والأساس شبه الواقعي (كاحتمال آخر) هو في الحقيقة موهوم، لكن مع الزمن جرى نشره دعاوياً وتثبيته في الوعي العام للمجتمع كحقيقة مسلّم بها. على أية حال لا يخلو التنافس والتهاجي بين المدن والمحافظات من الدعابة، بمعنى المزاح بين الأصدقاء، أي السخرية الودية. عندئذ لا تكون النكات عصبوية بقدر ما هي تسلوية.

إن التنافس بين المدن أو الأقوام في الدولة الواحدة والتهاجي فيما بينها ظاهرة مألوفة في كل أصقاع الأرض، ولسنا في سوريا أو في الوطن العربي مستثنين منها. في سويسرا يتناقر كل كانتون مع أهالي الكانتون الآخر، والجميع يناقرون زوريخ، والذين يتكلمون الفرنسية منهم يناقرون جيرانهم الألمان. يقول السويسريون، إنه تستقبل القادم إلى رورشاخ لافتات كبيرة كتب عليها «حذار من النشالين!»، أما في رومانسهورن فمكتوب على اللافتات «احترس من النشالين!»[٢٤]. في الولايات المتحدة الأمريكية تهزأ كل مجموعة أقوامية من الأخرى، حيث تتمايز هذه الأقوام بحسب وطنها الأم قبل الهجرة إلى أمريكا. فتنطلق نكات ضد ذوي الأصل الألماني، والبولوني، والسويدي، وكذلك ضد الزنوج واليهود. فينعت الأمريكي الألماني بالفظاظة والنزعة العسكرية، والأميركان البولونيون بأنهم سكيرون، والزنوج الأميركان باللاأمانة والشبقية والغباء: «سئل زنجي، لماذا معدلات الانتحار ضئيلة لدى بني قومه. فأجاب: عندما يفكر الإنسان الأبيض ويهدس، تأتيه أفكار سيئة. أما إذا فكر الزنجي، فإنه سرعان ما يغفو!»[٢٥].

في ألمانيا تتنافس وتتهاجى برلين وميونيخ: «ما هو الفرق بين مصلّح

(٢٤) هربرت شوفلر: جغرافيا صغيرة للنكتة الألمانية، ط٩، غوتنغن ١٩٨٤، ص٢٦.
(٢٥) هيرش، ص٢١٥.

سيارات ميونيخي واخر برليني؟ - إذا كشف الميونيخي أخيراً عن سبب العطل، قال: لا يتوقف المرء عن التعلّم. وإذا عرف البرليني أخيراً العطل، قال: كنت أعرف ذلك!»[٢٦]. ويتناقل الألمان نكات عن البافاريين وعن الفريزيين الشرقيين...، ويصل الأمر إلى حدّ أن مدينة كبرى مثل هامبورغ تتكّت على ضاحيتها ألتونا: «يقال إن الإله الحبيب نزل مرة يتفقّد الأرض. فصادف على طرف الطريق عجوزاً يبكي بمرارة. - لماذا تبكي؟ - لا أستطيع أن أقول لك. - قل لي، فأنا الإله الحبيب، وأقدر أن أحل مشكلتك. - إذن أستطيع أن أقول لك: أنا من ألتونا. عندئذ قعد الإله الحبيب إلى جانب العجوز وبكى معه!»[٢٧]. كذلك يسخر الألمان من اليهود والزنوج، وأخيراً من الأتراك الذين استقدموهم عمالاً منذ أول الستينات، وما عادوا الآن بحاجة لهم.

في بلغاريا تمثل غابروفو مركز الفكاهة البلغارية، وأهلها - كما يبدو - فخورون بذلك، فيقيمون كل سنتين مهرجاناً عالمياً للفكاهة، مع أنهم بالذات هدف كثير من الدعابات الساخرة التي تنعتهم بالبخل: «قالت امرأة من غابروفو لزوجها: إنني أحلم بالسفر إلى بلاد بعيدة، ترى كم يمكن أن تكلفنا مثل هذه السياحة؟. فأجابها زوجها: لن تكلفنا شيئاً على الإطلاق. فسألته زوجته: وكيف؟ فأجابها الزوج: ألا تعرفين أن الأحلام مجانية دائماً؟!»[٢٨]. ومن العالم الثالث نورد هذه النكتة المعبّرة: «حدث في سريلانكا، عندما كثر التاميل القادمين من الهند، أن أحد السريلانكيين ضاق بتكاثرهم لدرجة ابتلاع الجزيرة الصغيرة تجارة وعملاً وبطالة. وبينما هو في أحد حقول الشاي وجد مصباحاً قديماً، فقلبه بين يديه ثم فركه لتنظيفه، إذ بالمارد يخرج له عبداً ملبياً، وقال: شبيك لبيك، عبدك بين ايديك. فسأله: هل تلبي لي أي مطلب؟ - نعم، قال المارد. فقال

---

(٢٦) المصدر السابق، ص٢١٤.

(٢٧) شوفلر، ص١٦.

(٢٨) الفكاهة البلغارية، ص١٩٩، مع بعض التعديل الضروري. مذكورة أيضاً في مجلة: الطليعي (دمشق)، العدد ١، آذار ١٩٨٦، ص٥٠.

السريلانكي عندها: إذن اجمع التاميل كلهم وأعدهم إلى الهند وخلّصني منهم. فقال المارد: حرام أرباب، احنا تاميل فقير مسكين وين يروح؟»[٢٩].

في الوطن العربي، وعلى قدر معلوماتي المتواضعة، والمراجع الأكثر تواضعاً، تُعيّر صفد في فلسطين بالبخل، والخليل بالتغفيل ويباس الرأس: «وقع خلايلي من الطابق الثالث، فجاء على رأسه، ولم يصب بأذى. دهش صاحب له وشارطه إن كان يستطيع القفز من الطابق الخامس. فأجابه: أهي، اش يضمن لي أجي ع راسي؟!». في الأردن يسخرون من مغفلي الطفيلة. في اليمن الجنوبي تتنافس وتتهاجى مدينتا ضالع ويافع. وفي اليمن الشمالي يتناولون مدينة ريمة بالسخرية. في المغرب يضحكون من بخل السوسي: «سقطت للسوسي قطعة نقدية من فوق الطاولة، فسارع إلى التقاطها، لكنه لم يجدها. لقد سقطت على رقبته!». في تونس يتهمون صفاقس بالبخل، وينكتون على بوعزيز. وبوعزيز اسم عائلة في صفاقس، مشهورة بخفة الدم. ويعيّرون بالبخل كذلك: تلمسان في الجزائر، والموصل في العراق. في السودان ينكتون على حلفا، وعلى عشيرة الهدندوه من قبيلة البجه في الشرق. وفي موريتانيا تتشابه العلاقة بين العيون وروصو مع تلك التي بين حمص وحماه في سوريا.

في مصرينصبّ التنكيت بالدرجة الأولى على الصعايدة. ولأن المصريين أكثر تفهماً وتقبلاً للنكتة من بقية العرب عموماً، وأكثر تقدماً وتحرراً في الثقافة العربية، فإننا نجد شواهد وافرة على مناقراتهم الفكاهية: «واحد صعيدي كان في باريس، شاف واحدة فرنسية حلوة، حب يعاكسها، فقالت له: سوفاج. فقال: لأ، سوهاج!»[٣٠]. وينعت الشراقوه بالعبط، بينما تُعيّر دمياط بالبخل. ويشتهر أهالي رشيد «بميلهم الشديد إلى التنكيت والتريقة على خلق الله، مهما تكن

---

(٢٩) مع بعض التعديل الضروري عن: احسان الفرحان، خيرها بغيرها - دراسة في الأمثال الشعبية العربية، دار الباحث، بيروت ١٩٨٧، ص٣٢.
(٣٠) الموعد، العدد ١١٧٢، تاريخ ١٠/٨/١٩٨٥، ص٧٥.

الظروف»[٣١]. وتتباهى دمنهور بالحداقة والشطارة أمام أسيوط: «قابل أسيوطي شخصاً في قطار الصعيد، فسأله عن وجهته، فقال المسافر، إنه في طريقه إلى أسيوط. فبادر الأسيوطي يحذّره من أهلها وينبّهه إلى أنهم أذكياء ومهرة، وأن عليه أن يعدّ أصابعه بعد أن يسلّم عليهم. واندفع يروي عشرات الحكايات عن التجار الذين نزلوا أسيوط وخرجوا منها بملابسهم الداخلية. وكان المسافر صامتاً طوال الوقت، إلى أن سأله الأسيوطي عن بلده، فردّ بهدوء وثقة: أنا من دمنهور. على الفور انهار الأسيوطي باكياً وقال له: طب والنبي خلّ بالك من الأسايطة!»[٣٢].

يبدو أن التنكيت على أهالي الصعيد قديم، فقد «كتب ابن سودون على لسان صعيدي رسالة إلى أهله جاء فيها: بلغني أن مراتي حبله، فلا تخلّوها تولد، حتى آجي!». وجاء في الرسالة نفسها: «أرسلتم تطلبوا حبل تنشروا عليه الغسيل، وقلتوا لنا على طوله، وما قلتوا على عرضه!»[٣٣]. يقول عادل الجوجري: «وكان المصريون اشتهروا بإطلاق النكات على أهل الصعيد (جنوب مصر) نظراً لبساطتهم. غير أن الرئيس أنور السادات أمر في نهاية السبعينات بمنع إذاعة النكت على الصعايدة. ومازال القرار معمولاً به حتى الآن، إلى حد أن المنولوجيست المتخصص في إطلاق النكات، مثل سيد الملاح وحماده سلطان، يضطر إلى القول (مرة واحد صاحبنا) ثم يلقي النكتة ويقصد بها البسطاء والسذج الذين يشترون (الترماي) المملوك للحكومة، إذا هبطوا إلى القاهرة ووقعوا بين أيدي المحتالين»[٣٤].

في سوريا تنكّت تقريباً كل محافظة على الأخرى، وكل المحافظات على العاصمة دمشق. ويصل الأمر إلى أن يتراشقوا النكات ضمن نفس المحافظة بين منطقة وأخرى، وأحياناً بين حيّ وآخر ضمن نفس المدينة:

---

(٣١) زكي مبارك: تحيا الفرفشة، في: الاثنين والدنيا، العدد ٦٨٥، تاريخ ١٩٤٧/٧/٢٨، ص١٧.
(٣٢) هوامش المقريزي، ص١٢٣.
(٣٣) الفكاهة في مصر، ص٨٠.
(٣٤) النكتة علاج نفسي عند المصريين، في مجلة: الوسط، العدد ١٤٢، تارخ ١٩٩٤/١٠/١٧، ص٦٢.

«يقولون عن أهل الصالحية (في دمشق) إنهم يضعون الماء بعيداً عن السفرة. فإذا عطش الضيف وقام إلى حيث الماء ليشرب، قالوا له: ما حلّك تشبع!. فيستحي ويعتبر أنه حان وقت أن يشبع، ولا يكمل طعامه»[٣٥]. كذلك قد يجري توجيه أو تبادل الانتقادات الساخرة بين مدينة وقرية تابعة لها أو بين قرية وأخرى ضمن نفس المحافظة أو المنطقة. فيروون في منطقة اللاذقية عن قرية اشتهرت بصناعة العرق واحتسائه بأن أهلها يرددون: «من لا بطحة له، لا دين له!». وعن بلدة جوبر القريبة من دمشق ثمة قول مأثور شديد القسوة: «يهود خيبر ولا إسلام جوبر»[٣٦]. كذلك عربين في محافظة دمشق تروى عن أهلها نكات غريبة في نوعها (نكات الغضب): «انقلب صهريج بنزين. فذهب لحّام كهرباء عربيني ليصلحه. وفيما هو يفعل ذلك، انفجر الصهريج واحترق، وانقذف العربيني بعيداً. فوقف العربيني مجرّحاً ونظر إلى أعلى وقال (والكلام له): طق، ما متت!».

في محافظة اللاذقية تدور أكثر المضحكات حول أبناء الريف الجبليين، وخاصة حول لهجتهم وبعدهم (سابقاً) عن المدينة: «أحدهم كان مع خطيبته على البحر. قال لها: شايفه هالبحر شو كبير؟ قالت: اي. قال: لو كان كله لبن، قديش بدو برغل تيصير متبّل!». «أحد الفنانين من جبال الساحل سألته صحفية في مقابلة: ما رأيك، يا أستاذ فلان، بالمرأة؟ أجاب: المرقه طيبة!. فأعادت سؤالها مصححة: أقصد، ما رأيك بالمرأة بالذات؟ فقال: طيبة بالزات وبالسمنة!» (الزات هو الزيت في لهجتهم). ويضحكون أيضاً على ابن ناحية الحفة (كانت تدعى منطقة صهيون)، فيزعمون أن: «الصهيوني، إذا تغالبت أنت وإياه وغلبته، يضع - وهو تحتك - رجله فوقك ويقول: غلبتك!». ويروون أن «الصهيوني قال يدعو ربه: صحيح، يا ربي، إني قتلت النفس التي حرمتها، وزنيت، وأكلت بالفايظ، بس

(٣٥) حديث دمشقي، ص١٦٩/ ١٧٠. في قرى اللاذقية يقولون إن الفلاح البخيل يأخذ ضيفه إلى كرم التين قبل الغداء. وبنفس المضمون يورد شيخاني، ص١٨٦، المثل التالي: «إذا أكل وقشّر، عيّط له!»، أي إذا اكتفى من التين، ادعه للغداء.

(٣٦) سيمون حمصي، ص٣٤٢.

الحمد لك، إنك حميتني من شرب العرق!». ومما يروى أيضاً «أن صهيونياً احترق، فأخذوه إلى المستشفى، لكنه وصل ميتاً. فحصه الطبيب، فوجد فيه كسوراً عديدة. وتبين أن مواطنيه طفّوه (أطفأوا النار عنه) بالرفوش». أما عن أبناء مدينة اللاذقية فيقول الريفيون: «اللوادقه بنادقه!». والبندوق هو الشاطر، بالمعنى السلبي. حتى أبناء اللاذقية يسخرون من أنفسهم قائلين: «منين بتعرف اللادقاني؟ ـ إذا شخّ واحد بيلحقه التاني!».

ثمة تنافس تقليدي، وبالتالي تهاجي، بين حلب ودمشق، وكذلك بين حماة وحمص، وبين الرقة ودير الزور في الجزيرة السورية، وبين اللاذقية وطرطوس في الساحل. يُتهم الشوام (أهل دمشق) بالبخل. فهم - كما يقال - لا يدعون أحداً إلى بيوتهم، إلا على طريقة: أتتفضل إلى البيت، أم السوق أفضل؟. وهي الطريقة المعروفة في المقامة البغدادية لبديع الزمان. وللشوام تعبير غريب في الدعوة (وفي الحديث عموماً): «ماتزورنا، يابي؟.». يقصدون: لماذا لا تزورنا، يا أبي؟. و«تقول للشامي: أتسمح بكذا؟. فيجيبك: ولو، على حسابك. ثم يدفّعك الحساب!». كذلك يُنعت أبناء الشام بالخبث والملعنة[٣٧]. فيقال «بناديق الشام»، وكذلك «بناديق تيمورلنك»، تذكيراً مزعجاً بفعلة هذا الطاغية بأهل دمشق: «قال شامي لمصري: أنتم المصاروة مشهورون بالنشل. فردّ عليه المصري: وأنتم الشوام مشهورون بالخنزرة. واتفقا على أن يعلّم المصري الشامي النشل، وأن يعلّم الشامي المصري الخنزرة. سارا في الشارع، فصادفا فتاة. فقام المصري بنشل جزدانها، وقال للشامي: هكذا يكون النشل، علّمني أنت الخنزرة!. أخذ الشامي الجزدان وذهب إلى الفتاة وقال لها: انظري، هذا نشل منك الجزدان». ورغم أن دمشق تحتكر أكثر فرص العمل، فإن الدمشقيين، وخاصة في العقدين الأخيرين، لا ينظرون بعين الرضا لإقبال أبناء المحافظات، بما فيها اللاذقية، على الإزدحام في العاصمة، فيفسّرون

(٣٧) يقول مثل حلبي: «شامي بلا لآمة متل الشريف بلا علامة». ويقول مثل آخر: «حلبي جلبي، شامي شؤمي». المصدر: الأب يوسف قوشاقجي، الأمثال الشعبية الحلبية وأمثال ماردين، مطبعة الاحسان، حلب ١٩٨٤، ص٢٥٤، ١٥٥. جلبي (شلبي) = ظريف.

ساخرين تسطيح رؤوسهم من الخلف، بأن «الواحد منهم، أول ما يولد، تضربه أمه على نقرته قائلة: روح ع الشام!».

ويُنعت الحوارنة بالتخلف والفظاظة: «الحوراني يقول، عندما يغازل حبيبته: دقات قلبي وقلبك مثل رفسات البغل!». ويروى عنهم أنهم قدموا طلبات للحكومة: «حوران ودها حقوقها، ودها عقله يطوّط، وترين يمشي ع الجلة، وتشرخانه جنب بيت المختار!». إن هي إلا أحكام مسبقة ومبالغات اعتاد على سماعها كل شخص تنقل في هذا العالم البشري، فلا يتحسس منها كغيره ممن لم يبرحوا من أوطانهم. يروي نجاة قصاب حسن، أن «عوض العامري، وهو رجل مثقف أنيق يشغل منصب مفتش في وزارة المعارف، كان مسافراً مرة بالقطار إلى بلدته من حوران، فصادفه شرطي القطار وسأله: من أين البيك؟ أجابه: من حوران. فنقز الشرطي وقال له: حاشاكم سيدنا!»[٣٨]. ومن المأثورات الشعبية الظالمة عنهم: «حوران: حجار سود، وسكان قرود، وجيران يهود». فمن حيث الشكل لا يختلف أبناء حوران عن أهالي الجزيرة في سوريا وأهالي الأردن وفلسطين. جغرافياً تضم حوران ثلاث محافظات: درعا، السويداء (جبل حوران أو جبل الدروز أو جبل العرب)، القنيطرة (الجولان). يضرب المثل بأبناء جبل العرب في العناد وفي الشجاعة، فيقال: «الدروز كبار الروس»، «الدروز فروز»[٣٩]. ومن النكات المتناقلة هناك أو عن هناك: «أحدهم دخل بيته فوجد امرأته في الفراش مع رجل غريب، فصاح بها: منيرة، بقاش إلا تدخني!»[٤٠].

في المحافظات الأخرى يطلق على أهالي الجزيرة (ما بين دجلة والفرات ضمن سوريا) اسم «ديرية» أو «شاوية»، ويعني لغوياً «رعاة الشاة» (أي رعاة الغنم)، غير أنه يُقصد بها ضعف التمدن. في ذلك لا يفرقون بين أهالي المحافظات الثلاث التي تتألف منها الجزيرة: الرقة ودير الزور

(٣٨) جيل الشجاعة، ص٢٦٩/ ٢٧٠. مع تعديل بسيط في الصياغة واختصار.
(٣٩) سلامة عبيد، ص٨٤. فروز: شجعان.
(٤٠) المصدر شفهي. رواها أيضاً (عن بعض الشعوب) أنطوان شعراوي، ص٣٨.

والحسكة، رغم تنوع سكانها: «ديري سافر خارج دير الزور لأول مرة في عمره. فقال عندما غادرها: بخاطرتش، يا سوريا!». «سأل المعلم تلاميذه: ما هي عاصمة اسبانيا؟ فلم يجب أحد منهم. ثم سأل تلميذاً ديرياً، فقال له: ما ادري، يا أستاذ، فقال له المعلم: أحسنت، صح، مدريد!».

أما أهالي حلب فيعيرونهم بالفضول والحشرية، وبأنه إذا اجتمع منهم أصدقاء في محل عام، دفع كل واحد منهم عن نفسه. فتُسمى هذه الطريقة «حلبية»، علماً أن شعوب أوروبا الغربية تعمل بها، دون أن يسخر منها أحد. وهذه نكتة من حلب: «كان أبو مصطفى يهرش في جسمه، فسأله أبو أحمد: هلق أنت كل قديش بتتحمّم؟ أجابه: والله، يعني كل كام سنة بتحمم شي مرة!. فقال له أبو أحمد: ايشو سمكة؟». وللحلبية لهجة ظريفة، تروى عنها نكات، إنما سمعية. مما يمكن أن يُسجّل، أن «إحدى السيدات الحلبيات أرادت أن تزور أقاربها في بيروت.. فركبت تاكسي وقالت للسائق: اذهب إلى بيت فلان. فقال لها: بأي شارع؟ فقالت له: نسيت. فقال لها: يامو، تذكري كويس، فكيف أستطيع أن أوصلك دون أن أعلم اسم الشارع؟! فقالت له: نسيت، نسيت. فقال لها: اجهدي نفسك وتذكري. فقالت له: واخ، واخ، نسيت. فقال لها السائق: هلأ عرفت اسم الشارع، فهو شارع بدارو، حيث يقطن الحلبيون، ويرددون بكل مناسبة: واخ، واخ!»(٤١). روى لي أحد الحلبيين، أن «الحياة عند أهالي حلب: ملدع ومدفع!».

لا ينجو أهالي إدلب من السخرية، فيزعم البعض أن الداخل إلى المدينة تستقبله لافتة كتب عليها: أهلاً بكم وبأولادكم!». وجاء في بعض الأمثال الحلبية: «الأدالبه تعالبه»، «أهل ادلب ميتهن جمع وكذبهن نبع»، «ادلبي واقطع الخبر!»(٤٢). أما أبناء طرطوس فيقول عنهم جيرانهم أبناء اللاذقية: «غسّل يديك، إن صافحت طرطوسي!»... هكذا لا أحد يسلم من ألسنة الآخرين!.

---

(٤١) عن: أنطوان شعراوي، ص٧٦.

(٤٢) قوشاقجي، ص٢٦. ميتهن = ماؤهم.

يبدو لي أن التعبير باللاتمدن يأتي بالمرتبة الأولى في التهاجي بين أبناء المدن والمحافظات السورية. في المرتبة الثانية وبالارتباط مع ذلك تكثر السخرية من اللهجات المحلية. فكلٌ يرى ما يُضحك في لهجة الآخر: الشوام، الحوارنه، الدروز، الحلبيه، اللوادقه، العلويه، الطراطسه، الجزراويه... وتنصبّ السخرية قبل كل شيء على اللهجة البدوية التي تجعل القاف غافاً، ثم بين الناطقين بالقاف وهم غالباً فلاحون، والناطقين بالآف وهم أهالي أغلب المدن. كما تصيب السخرية لهجة الحوارنة والديرية الذين يلفظون القاف غافاً والكاف تشافاً أو شيناً، ولا ينجو منها الحلبية الذين ينطقون القاف آفاً مضخمة بملء الفم. من النكات على الناطقين بالقاف: «أحد الفنانين من جبال الساحل سألته صحفية: ما رأيك، يا أستاذ فلان، بالمرأة؟ أجاب: المرقة طيبه!. فأعادت السؤال: أقصد المرأة بالذات! فقال: طيبه بالزات والسمنه!»*. بالمقابل، هذه نكتة عن مدينة طرطوس التي تنطق القاف آفاً والألف مائلة: «رأت الابنة الزريعة أمام البيت مقصوفة، فقالت لأمها: يا أمي، قارفينا للزريعة! فقالت الأم: الله يقرف القارفينا». وتعتبر هذه النكتة موجهة أيضاً إلى أبناء المدن الذين لا يلفظون القاف الفصحى.

في إطار التنافس والتهاجي بين المناطق والجماعات في سوريا تأتي - بتقديري - في المرتبة الثالثة: السخرية من التغفيل. في المرتبة الرابعة: البخل. وفي المرتبة الخامسة: الخبث والشطارة، وهذه موضع فخر، كما هي موضع ذم. لقد رأينا أمثلة على الشطارة المذمومة (الخبث والاحتيال). أما في معرض الفخر بالشطارة فيقال في حمص: «الحمصي بياخدك ع العاصي وبيرجعك عطشان!»(٤٣). نعود إلى السخرية من التغفيل. في سوريا يوصف به أبناء حمص بشكل مخصوص. بالطبع هكذا تبعاً للصراعات الفكاهية، أما الحقيقة فهي في واد آخر. فمن عاش في حمص وعاشر

* الزات = الزيت (باللهجة المحلية).

(٤٣) محمد فيصل شيخاني: بعض الأمثال الشعبية في منطوقها الحمصي، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩١، ص٤٣٢.

أهلها، يعلم أنهم ليسوا أقل ذكاء من أبناء أية مدينة أو محافظة سورية أخرى (وخاصة حماة)، بل ربما كان معدل الذكاء في حمص يزيد إلى هذا الحد أو ذاك عنه في بقية مدن ومحافظات القطر السوري. ويبدو أن نمط النكات عن الحماصنة كان في السابق أكثر مراعاة لهذه الناحية. انظر إلى هذه النكتة كم هي جميلة وذكية لماحة: «أحدهم دخل في حمص إلى دكان فيه ساعات كبيرة معلقة. قال لصاحب المحل: بكم هذه الساعة؟ وأشار إلى واحدة منها. فأجابه الرجل: ليست للبيع. قال الزبون: وهذه؟ قال صاحب المحل: ولا هذه. قال: فأيها للبيع؟ أجاب: ولا واحدة، أنا لست ساعاتياً، أنا مطهر أولاد. قال له الرجل مستغرباً: فلماذا تعلّق هذه الساعات؟ أجاب المطهر الحمصي: ماذا تريد أن أعلّق لك إذن؟»[٤٤].

غير أن النكتة ليس همها قول الحقيقة، بل لها دوافع وغايات أخرى، أتينا على ذكرها سابقاً. ربما الأصح أن نقول، إنها تقول الحقيقة بطريقتها الخاصة أو بحسب مفهومها الخاص للحقيقة، وذلك من خلال تعبيرها الخاص عن الواقع وبقدر تعبيرها عنه: أليس عكسها للعصبية القائمة نوعاً من التعبير عن الواقع وبالتالي من قول الحقيقة؟!. في مجالات أخرى قد تبدو وجهة النظر هذه أكثر إقناعاً: في مجال المحرمات مثلاً، كتعبير عفوي عن الحياة النفسية، وبالتحديد عن العقل الباطن. وكذلك في عرض الحال السياسية والاقتصادية، بصورة أكثر وضوحاً من التعبير عن الحياة النفسية، إنما أقل عمقاً بالتأكيد... الخ.

بخصوص النكات عن الأجدب الحمصي ثمة أربع نقاط جديرة بالاهتمام. هناك أولاً التأثير التاريخي والتراثي، إذ أن الحديث عن مغفلي حمص قديم قدم الحديث عن بخلاء خراسان. نقرأ لدى ابن الجوزي، «أن جماعة من أهل حمص تذاكروا في حديث الأعضاء ومنافعها، فقالوا: الأنف للشم والفم للأكل واللسان للكلام، فما فائدة الأذنين؟! فلم يتوجه لهم في ذلك شيء. فأجمعوا على قصد بعض القضاة ليسألوه. فمضوا فوجدوه

(٤٤) حديث دمشقي، ص٢٤٤.

في شغل، فجلسوا على باب داره. وإذا هناك خياط فتل خيوطاً ووضعها على أذنه. فقالوا: قد أتانا الله بما جئنا نسأل القاضي عنه، وإنما خلقت للخيوط. وانصرفوا مسرورين بما استفادوه»[٤٥]. ثم أورد ابن الجوزي أربع نوادر أخرى، واحدة نقلها عن الجاحظ، وأخرى حدثت أيام هشام بن عبد الملك، وثالثة أيام الرشيد. بالطبع، بعد ثمانمئة عام لا يمسّ حديث ابن الجوزي والجاحظ أحداً من الحاضر، وربما لا يوجد في حمص الآن من سلالتهم. من يدري، بعد كل تلك الهجرات والاختلاطات والحروب والأوبئة؟ لكن، ليس من السهل إزالة سمعة قديمة متواترة، بل في العادة ليس لدى عامة الناس رغبة في نفي سمعة كهذه عن غيرهم، فهي تسلّيهم وتعزز ثقتهم بنفسهم. وأن يكون الآخرون أسوأ من المرء، بل وحتى أن يكونوا مشتركين معه في السوء، يخلق له بعض التعزية، فالسوء العام ليس سوءاً بمقياس الشعور. تقول حكاية شعبية إنه كان لفلاح زوجة حمقاء، فغادر القرية بعد إحدى حماقاتها وآلى على نفسه أن لا يرجع حتى يجد من هي أحمق منها[٤٦]. وفي حكاية الملك شهريار وأخيه شاهزمان اكتشف شاهزمان أن زوجته تخونه مع عبد أسود، «فحصل عنده غم زائد واصفرّ لونه وضعف جسمه، ولكن عندما رأى أخاه شهريار يتعرض لخيانة أبشع، ردّ لونه واحمر وجهه وصار يأكل بشهية!»[٤٧].

النقطة الثانية هي تأثير التنافس بين مدينتي حمص وحماه: «الحماصنة والحموية قسّموا نهر العاصي بينهم. صار الأجدب الحمصي يشيل المي بالسطل من جهة حماه لجهة حمص!». أذكر أن التنكيت على جدبان حمص كان في الخمسينات مازال متأثراً بهذا التنافس. في ذلك الوقت كانت الناس تتحدث عن عوران حماه، تقريباً مثلما تتحدث عن جدبان حمص. مثلاً كان (ومازال) يُقال على سبيل المزاح، إننا «نصوم رمضان ونفطر كل سنة على رؤية أعور حماه للهلال!». ومن الأقوال

(٤٥) أخبار الحمقى والمغفلين، ص١٧٦.

(٤٦) ضمن حكايات: من ليالي كانون، ص٢١٤.

(٤٧) ألف ليلة وليلة، الجزء الأول، ص٣.

المأثورة: «أهل حما طبع قدما»[٤٨]. ومن نكات الحماصنة على الحموية: «امرأة سقط ابنها في العاصي، فأخذت تفتش عليه من حماه حتى حمص. ولما وصلت إلى حمص، قالوا لها: انت غلطانه، لازم تفتشي عليه من حماه لأنطاكيه، لأن العاصي، بيطلع طلوع ما بينزل نزول. وهنا هزّت برأسها المرأة وقالت لهم: انتو ما بتعرفوا ابني، ابني تنح ودائماً معاكس!»[٤٩].

الآن لم يعد يظهر سوى القليل من أثر التنافس المذكور: «كان هناك حمصي يقطّع الناس على ظهره وقت فيضان العاصي. فكل ما قطّع واحداً، يسأله عن بلده، فيقول له: أنا من حماه. فشعر بالإهانة. ومرة حدث فيضان في حماه. فذهب هذا الحمصي إلى حماه، وركب على ظهر أول مقطّع وجده. وعبر الشارع على ظهره عدة مرات، ذهاباً وإياباً. الشخص الذي يحمله استغرب، فسأله: شبك عم تقطعني الشارع رايح جاي، لوين بدك تروح؟ قال له الحمصي: طول عمركم أنتو الحموية بتركبوا علي، هلق إجا دوري اركب عليكم!. فقال له الرجل: اي بس أنا حمصي!». الطريف أن مدناً أخرى غير حماه اقتحمت في هذه الأثناء الساحة، وأخذت تمازح الحمصي، بل إن النكات التي تجمع الحماصنة والشوام مثلاً أصبحت الآن أكثر عدداً من تلك التي تجري حوادثها بين الحماصنة والحموية: «حمصي كان يسير في دمشق مع صديق شامي. بعد قليل سلّم الحمصي بحرارة على أحد المارة، فسأله صديقه: من هذا؟ أجاب: واحد من حمص. وحدث هذا عدة مرات، وفي كل مرة يقول الحمصي عن الذي سلّم عليه، إنه من حمص. فأبدى الشامي استغرابه: ما أكثر الحماصنة في الشام؟! فقال الحمصي: لَكَنْ، كيف تروح ع حمص!».

النقطة الثالثة الجديرة بالاهتمام في إطار الحديث عن شخصية الأجدب الحمصي هي أن السخرية من الحماصنة كانت في السابق عصبوية، وتحولت مع الأيام إلى تهزيرية. هذا يعني أن الدافع إليها كان في

(٤٨) سيمون حمصي، ص٢٧١.
(٤٩) المضحك المبكي، العدد ٣٩٣، تاريخ ١٩٣٨/١١/٥، ص١٠.

الأصل التفاخر على حمص وبالتالي توكيد الذات، سواء صدر هذا من أهالي حماه أم من غيرهم. أما الآن فأصبحت نكات الحمصي تبتغي الإضحاك قبل أي شيء آخر. بكلمات أخرى: النكات عن الحماصنة لم تعد هادفة، فلا تقصد أهالي حمص تحديداً وبالفعل، وإنما - كما قلنا - لمجرد التسلية والمرح. هذا بصورة عامة. وقد أخذت هذا المنحى منذ السبعينات - كما أُقدّر -، عندما لم تعد تعبّر عن التنافس التقليدي بين أهالي حماه وحمص. نجد شواهد ذلك في نكات كانت أو مازالت تقال (في سوريا أو في بلدان أخرى عربية أو أجنبية) عن المسطول أو الأهبل أو المجنون أو عن شخصيات فكاهية شهيرة مثل جحا وأمثاله أو حتى عن شخص مغفل دون اسم، أصبحت تروى الآن عندنا عن الأجدب الحمصي.

على سبيل المثال تعود النكتة التالية إلى العصر القديم وتروى حديثاً عن رجل دون تعيين وكذلك عن الحمصي: «امرأة وقفت أمام المرآة وأغمضت عينيها لترى نفسها كيف تظهر وهي تنام!»[٥٠]. وهذه نكتة عن فيلسوف نشرت في مصر عام ١٩٤٧ وسمعتها شخصياً عن الحماصنة في عام ١٩٨٩: «دخل فيلسوف شارد الذهن إلى محل تجاري ليشتري آنية من الخزف، فلمح واحدة منها في وضع مقلوب، فقال مندهشاً: عجيب، إن هذه الآنية ليس لها فتحة في أعلاها. ثم تناولها فقلبها إلى الناحية الأخرى التي بها الفتحة وصاح مرة أخرى: عجباً، وليس لها قاع أيضاً!»[٥١]. وهذه ثالثة تروى في لبنان عن المسطول، وعندنا عن الحمصي: «كانوا يتندرون عن المساطيل، وما أكثرهم في هذه الأيام. فسأل الأول الثاني: بتعرف ليش المسطول بيحط بسينه تحت باطو؟ - ليش؟ - بركي لعب الفار بعبو!»[٥٢]. وثمة نكتة نشرت عن أحد المسافرين، بينما يجري في نفس الوقت تناقلها شفهياً عن أحد الحماصنة، أو بالعكس: «في مقصورة القطار كان مع أحد

(٥٠) هيبرو كلوست: استيبا. نقلاً عن: الفكاهة البلغارية، ص٢١. انظر أيضاً في مجلة: سعد، العدد ٦٥٦، تاريخ ١٩٨٢/١٢/٢٧، ص٢٢. والعدد ٧٥٥، تاريخ ١٩٨٤/١٢/١٠، ص٢٧.

(٥١) في مجلة: الهلال، شباط ١٩٤٧، ص١٨٦.

(٥٢) في مجلة: الشبكة، العدد ١٣٦٥، تاريخ ١٩٨٢/٥/١٠، ص٩٢. البسينة هي القطة.

المسافرين سلة موز. ولكن هذا المسافر كان يقشّر كل موزة ويرشها بالملح ثم يلقيها من النافذة. فسأله رجل: لماذا تلقي بكل هذا الموز من النافذة؟ ردّ المسافر: لأنني لا أحب الموز المملّح!»[٥٣]. وكمثال أخير هذه النكتة المنحولة إلى جحا في الكويت، والتي تنسب في سوريا إلى الحمصي: «كان جحا لا يعرف القطار. ولما سأل عنه، قيل له: هو أسود طويل. ثم أراد جحا أن يسافر، فرأى رجلاً أسود طويلاً، فحاول الركوب على ظهره. قال الرجل: ماذا تفعل؟ فقال جحا: أريد أن أسافر!»[٥٤].

أخيراً يبدو لي أن الناس تحتاج إلى شخصية نمطية، كي تنسب إليها نوعاً معيناً من الأفعال والأقوال، تؤلف منها أو تركّب عليها نكات تربوية أو تسلوية (غير عصبوية)، مما تعرفه أو تخترعه. البعض حاول مع جحا، فنسب إليه نكات حديثة العهد. ومازال هناك من يروي نكات منحولة إلى جحا: «نزل جحا على السلالم مهرولاً، فوقع وأصيبت ركبته. فذهب إلى الطبيب الذي وصف له مرهماً ليدهن به مكان الإصابة. أخذ جحا المرهم، ودهن به السلالم»[٥٥]. لكن، هناك أيضاً من لم تناسبه هذه الشخصية التي لا تخلو من الحكمة (هي متحامقة أكثر منها حمقاء) ولا تنفصل عن التاريخ. فكان اللجوء إلى شخصية الحمصي: «حمصي كان يبيع خساً. جاءه واحد وسأله: بكم الخسّة؟ قال: بكذا. فقال الزبون: ضبّ لي كل الخسات! فاحتجّ الحمصي: وأنا، ماذا أبيع؟!». وقد لاقت هذه الشخصية قبولاً شديداً في سوريا، حتى اتخذت منذ السبعينات ظاهرة الصرعة، التي تذكّر بصرعة «اش معنى» المقتبسة عن مصر في الخمسينات، و«الفيل والنملة» في الستينات، والتي تذكّر بها صرعة «الفيزون» أوائل التسعينات: «مشاكل العالم: في السماء الأوزون، وعلى الأرض الفيزون».

---

(٥٣) أسامة، العدد ٤٣٢، تاريخ ١٩٨٨/٩/١.

(٥٤) سعد، العدد ٦٥٦، تاريخ ١٩٨٢/١٢/٢٧، ص٢٦. وقد اضطررت لإعادة صياغة النكتة. خاتمة نكتة الحمصي أجمل: «يا الله، شدّ ع حمص».

(٥٥) ماجد، العدد ٧٧٣، تاريخ ١٩٩٣/١٢/١٥، ص٤٧. نفس النكتة نشرت منسوبة إلى رجل ساذج، في: سمير، العدد ١١٧١، تاريخ ١٩٧٨/٩/١٧، ص٣١.

من الواضح أن الناس أعجبتهم شخصية الإنسان الأحمق الذي يفعل دائماً ما لا يمكن أن يتوقعه أحد، دائماً بحسب أضعف الاحتمالات وأوهاها بالنسبة للمتلقي، ومع ذلك ليس أقلها بديهية: «وضع الحمصي أمامه كأسين. سألوه: لماذا الكأسان؟ أجاب: واحد لكي أشرب به، والثاني لكي لا أشرب به!». ومما شجع على هذه الصرعة الفكاهية استخدام الشكل البسيط السهل للنكتة الحزورة، وهي شكل غير مختص بالحمصي، كما نعلم: «ليش الحمصي لبس جراب أحمر؟ ـ هيك إجا ع باله. ـ ليش لبس كرافيت حمرا؟ ـ لأنها طقم مع الجراب. ـ ليش لبس جراب أخضر؟ ـ لأن الجراب الأحمر توسخ!». طبعاً كنا نتمنى لو اخترع الناس شخصية أخرى أو لو أطلقوا على هذه الشخصية إسماً آخر غير الحمصي، كي نزيل عنها الطعم العصبوي الواضح. ولكن، للأسف لا قيمة لهكذا أمنية. ثم إننا لا نبحث هنا عما يجب أن يكون، بل بالأساس فيما هو كائن.

أعود إلى حيث بدأت وأقول، إن التنافس والتهاجي بين المدن والجماعات ضمن الدولة الواحدة ظاهرة مألوفة في جميع بلدان العالم. لذلك لا مبرر لأن يخجل منها أو يتستر عليها مواطنونا. وليس عيباً أن تتكّت ميونيخ على برلين في ألمانيا، ولا دمنهور على أسيوط في مصر، ولا حماه على حمص في سوريا، بل العيب كل العيب أن لا يكون فينا من رجاحة العقل ورحابة الصدر وروح الفكاهة ما يسمح لنا بتقبّل النكتة والضحك على أنفسنا كما نضحك على غيرنا. بهذا الخصوص أرى اللغة البشرية ككبش جدنا ابراهيم، إذ جُعل الكبش بديلاً عن أبينا اسماعيل، كما جُعلت اللغة أيضاً – فيما جعلت – بديلاً عن الفعل. وإنها لنعمة أن نتقاذف بالكلمات بدل أن نتماسك بالأيدي أو بما هو أخطر. وتكون النعمة أتمّ، إذا تقاذفنا بالكلمات المضحكة، بالنكات، بدلاً من أن نتقاذف بالكلمات الجارحة، المبكية. حدثني عدة أصدقاء ومعارف عن أن أحد المذيعين روى نكتتين عن الحماصنة في برنامج البث المباشر لإذاعة دمشق (أوائل الثمانينات). فتلقى بعد قليل مكالمة هاتفية من أحد مواطني حمص الذي سأله في سياق نكتة بصيغة حزّورة: «أتعلم لماذا يُدخل الحمصي معه راديو إلى المرحاض؟ ـ الجواب: لا.

فقال المواطن: كي يتبرّز على برنامج البث المباشر!». فكان هذا رداً بالغ القسوة من المواطن الحمصي على نكات المذيع.

بالمقابل نجد كثيراً من أهالي حمص يتلقون النكات عنهم بالضحك، وقد يروون لك بعضاً منها. حدثني أحد الأصدقاء أنه رأى في دمشق سائقاً يخالف إشارة المرور، فأوقفه شرطي السير، وفيما هو يهمّ بتسطير مخالفة سأله: لماذا تجاوزت الإشارة الحمراء؟ أجاب السائق: لأني حمصي. فضحك الشرطي ولم يسجّل المخالفة. ويُفهم من الشيخاني أنهم في حمص يرددون (من بين أمثالهم السائرة): «جدبها جدبه حمصيه»[٥٦]. برأيي - وبناء على ما بينت في الفقرات السابقة - هذا هو الموقف السليم. ولحمص في غابروفو قدوة. وها هي سوسة في تونس تقيم هي الأخرى مهرجاناً عالمياً للفكاهة[٥٧]. ويجدر بمدينة حمص أن تقيم مهرجاناً مشابهاً، فأهلها ليسوا أقل ظرفاً من أهالي غابروفو أو سوسة (أو أبردين الاسكتلندية)، والنكات عنهم ليست أقل عدداً أو إضحاكاً.

ضمن إطار العصبيات المحلية بقي أن ننظر إلى تبادل النكات فيما بين الأقوام ضمن البلد الواحد، أي «الأثنيات» بالمصطلحات الغربية. في سوريا يعيش مع العرب أناس ذوو أصول: تركمانية، أرمنية، كردية، قرباطية، شركسية وغيرهم. وسوريا معروفة تاريخياً بتقبلها للغريب وبتسامحها، ولولا ذلك لما وُجدت فيها هذه التعددية في الأثنيات والطوائف والمذاهب. يتواجد التركمان في منطقة اللاذقية، وينعتون بالبخل والتخلف والقنزعة مع الفقر: «فلاح تركماني، فقير فقراً مدقعاً، عنده قنباز واحد، إذا غسله ينتظر في لباسته حتى ينشف ليرتديه ثانية. نادته زوجته مرة: عثمان، عثمان. فلم يردّ عليها. فعادت تناديه: عثمان، عثمان... ولم يرد. فصاحت به: عثمان، ليش ما بتردّ؟!. فأجابها بغضب: وقطا القرط، ما فيه آغا؟!». ويقال، إن «التركمان إذا تقدم أحدهم في

(٥٦) الشيخاني، ص١٩٨، ٢٥١.
(٥٧) نقلاً عن جريدة: الثورة، عدد ١٩٨٩/٨/٥، ص٩.

السن، داروه ع رعي الحميرا». هاتان نكتتان قديمتان، فالتركمان ما عادوا فقراء، بل هم عموماً أقرب إلى الغنى بفضل زراعة البستنة (التفاح) وابتعادهم عن وظائف الدولة التي أفقرت أبناء الفلاحين الآخرين في المحافظة. وهذه نادرة تُسجّل للتركمان وليس عليهم: «يقال إن فلاحتين كانتا تسيران في البرية بالقرب من قرية لاذقانية، فضرطت إحداهما. قالت لها الأخرى: انتبهي، هناك رجل بالقرب. ردت الأولى: هو تركماني لا يفهم. فقال التركماني: عربي ما بفهم، بسّ فصّ ما بسمع؟!».

أما الأرمن فيعيشون في المدن ويعملون في الحرف التقنية الحديثة، في الغالب، ويضحك الناس على لهجتهم العربية المكسّرة، وخاصة تأنيث المذكر وتذكير المؤنث. ومما يروى عنهم: «تواجد أرمني في تركيا. سألوه على عادتهم: هل أنت مسلم؟ أجاب: الحمد لله. فرحبوا به وأكرموه. بعد مدة علموا أنه غير مسلم، فاستنكروا تصرفه قائلين: كيف تدّعي أنك مسلم؟ أجابهم: أنا قلت الحمد لله، وأعني الحمد لله أنني غير مسلم». هذه الصراحة وهذه المباشرة، لدرجة تتراوح بين الوقاحة والغشمنة غير المزعجتين، معروفة عن النموذج الأرمني: «جاء أرمني ليعزّي جيراناً له بوفاة قريب لهم، فقال: هدا دنيا كذا، بياخد مليح وبيخلّي عاطل!»[٥٨]. ومما يروى عن الأرمن «أن أحدهم سئل: هل تعرف المتنبي؟ فقال: معلوم بعرفه، هادا شاعر عربي كبير، هادا بقول: بابور يمشي هيك، هوا يمشي هيك!»[٥٩].

ويتواجد ذوو الأصل الكردي في مدينة دمشق وفي محافظة حلب (عفرين) وفي محافظة اللاذقية، ومن الأكراد من نزح في العقود الأخيرة هرباً من تركيا إلى الجزيرة (محافظة الحسكة). يُنعت الأكراد بالعناد ويباس الرأس حتى يضرب بهم المثل في ذلك: اثنان كرديان تفاخرا على بعضهما. قال أحدهما: أنا أقدر أن أدق بسماراً برأسي. فقال الثاني:

(٥٨) المصدر شفهي. انظر أيضاً: احسان الفرحان، ص١٠٥.
(٥٩) انظر رواية أنطوان شعراوي، ص٤١.

فرجيني! أخذ الأول بسماراً، وضع طرفه المدبب على جدار وجعل يدقه برأسه. فصار البسمار يدخل شيئاً فشيئاً. ثم عند نقطة معينة توقف ولم يتزحزح. تطلع يبحث عن السبب، فوجد صديقه في الجهة المقابلة من الجدار يصدّ البسمار برأسه!». ومن المأثورات الشعبية الضاحكة: «أخذوا كردي ليشنقوه، قال لهن: إن شا الله المرسه حمرا»[٦٠]. وقد نحت العوام من اسم الأكراد فعل «استكرد»، بمعنى استغبى أو استغفل، وهذا يفصح عن نظرة معينة إلى هؤلاء الناس. أما الشركس فكانوا يتجمعون في مدينة القنيطرة، التي احتلها الاسرائيليون عام ١٩٦٧ ودمروها تماماً عام ١٩٧٦ قبل تسليمها للدولة الأم سوريا. ومما وجدته عنهم هذه النكتة: «شركسي أردني اشترى فروة ولبسها، إنما جعل الصوف خارجاً والقماش إلى جسمه. وأول فلاح صادفه قال له: يالخو (أي: يا أخ)، لابسها مشقلبة (أي معكوسة). فقال الشركسي: ليش أنت أفهم من خاروف خلقه الله؟!»[٦١].

أخيراً نأتي إلى ذكر القرباط، وهم الغجر وكذلك النور والزط. كانوا رحالة يعيشون في الخيم مثل البدو، إنما دون ماشية. وكانوا يسترزقون من دق الطبل والزمر في الأفراح ومن صناعة الغرابيل ومن قلع الأسنان أو مداواتها وتلبيسها بالذهب، وعند الضرورة من الشحادة والسرقة وبيع الهوى، كما يزعمون. «القرباطي لا يسأل امرأته أين كانت، بل ماذا جلبت!». ولا أدري، هل كان الناس يحسدونهم أم يشفقون عليهم، عندما قالوا: «مثل النور، قلّة وبسط!»، «مثل أولاد النور، لركب الحمير وأكل الزواده!». على أية حال، من المؤكد أنهم كانوا ينظرون إليهم بعيون ناقصة، كما يعبّر العامة: «تعلّم البيطرة بحمير النور!»[٦٢]. ويضرب المثل بشيخ القرباط، فهو «كبير بعين حاله، زغير بعين الناس!»[٦٣]. ولا يُنتظر من هذا القوم كثير خير، كما

(٦٠) يا مال الشام، ص١٣٧. المرسه: الحبل.

(٦١) احسان الفرحان، ص٣٢. النكتة تعود بالأصل لجحا، كما هو متواتر عنه.

(٦٢) سلامة عبيد، ص١٣٣، ١٦٣، ١٥٨، ٦٩.

(٦٣) نقلها عن الأسدي: محمد موفق الأرناؤوط، طريق الحرير - طريق الغجر بين الشعوب، في: دراسات تاريخية، العددان ٣٩ - ٤٠، كانون الأول ١٩٩١، ص١٦٣. زغير: صغير.

يعبّر هذا المثل: «طلع من الزطّ مؤذن!»(٦٤). الآن قلّ الصغار بين القرباط، توطّن الكثير منهم، والذين لم يتوطنوا تجد في خيمهم أجهزة تلفزيون. صار كثير من القرياط، بفضل ازدهار الغناء والرقص والهوى منذ أواخر السبعينات بصورة خاصة، من الأكابر. زالت القلة وبقي البسط. وإذن، ألم يصبحوا فعلاً جديرين بالحسد؟.

ج ـ العصبيات فيما بين الأقطار العربية

بعد الذي قلناه عن العصبية فيما بين المدن والمناطق ضمن البلد العربي الواحد، لا نستغرب وجود عصبيات فيما بين الأقطار العربية، خاصة وأن الخصومات التي تحصل بين الأقطار أخطر من تلك المنافسات بين المدن والمحافظات في القطر الواحد، إذ أن القيادات السياسية والاقتصادية تفرّق بين الأقطار، بينما تجمع عادة بين مدن ومحافظات البلد الواحد، بحكم أن الأقطار العربية قلما كانت موحدة القيادة. فالتنافس (وأحياناً الصراع) بين الأقطار العربية قديم، لأسباب قبلية وسياسية واقتصادية ومذهبية. فحتى أوائل هذا القرن كان مازال هناك بقايا عصبية، تعود إلى الجاهلية، ما بين عرب الشمال وعرب الجنوب، أو العدنانية والقحطانية. بعد الجاهلية تنافست الشام والحجاز، ثم العراق ومصر، والشام ما بينهما، وتجدد التنافس في العصر الحديث بين العراق ومصر وبقيت الشام ترجّح الكفة إلى أحد الطرفين... وقد حفظ تراثنا الفكاهي شواهد كثيرة على هذه الصراعات والتنافسات بين العصبيات العربية:

حضر عند أبي العباس السفاح ذات ليلة ابراهيم بن مخرمة الكندي وخالد بن صفوان التميمي، فخاضوا في الحديث وتذاكروا مصر واليمن. «فقال ابراهيم بن مخرمة: يا أمير المؤمنين، إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا، ولم يزالوا ملوكاً، ورثوا الملك كابراً عن كابر وآخراً عن أول، منهم النعمان والمنذر... فهم العرب العاربة وغيرهم المتعرّبة». فرد

---

(٦٤) سلامة عبيد، ص٢١٣، ٢٣٣.

عليه خالد بن صفوان: «وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسنة فصيحة ولا لغة صحيحة نزل فيها كتاب ولا جاءت بها سنة، يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر، ونفتخر عليهم بخير الأنام... فمنا النبي المصطفى والخليفة المرتضى... بل ما أنتم إلا سائس قرد، أو دابغ جلد، أو ناسج برد!»(٦٥). و«يروى أن مزينة أسرت ثابتاً أبا حسان الأنصاري وقالوا: لا نأخذ فداءه إلا تيساً. فغضب قومه وقالوا: لا نفعل هذا. فأرسل إليهم، أعطوهم ما طلبوا. فلما جاءوا بالتيس، قال: أعطوهم أخاهم وخذوا أخاكم. فسموا مزينة التيس، فصارت لهم لقباً وعبثاً»(٦٦).

ومن أمثال العرب: «أخسر من صفقة شيخ مهو»، وهو عبد الله بن بيدره، «ومن حديثه أن إياداً كانت تعيّر بالفسو وتُسبّ به. فقام رجل من إياد بسوق عكاظ ذات سنة ومعه برداً حبره، ونادى: ألا إني من إياد، فمن الذي يشتري عار الفسو مني ببردي هذين؟. فقام عبد الله هذا الشيخ العبدي وقال: هاتها. فاتزر بأحدهما وارتدى الآخر. وأشهد الإيادي عليه أهل القبائل بأنه اشترى من إياد لعبد القيس عار الفسو ببردين، فشهدوا عليه. وآب إلى أهله، فسئل عن البردين، فقال: اشتريت لكم بهما عار الدهر!»(٦٧). ويزعم الحصري أن «أهل الشام غاية في الجهل والغباوة»، في حين «كان بنو أمية يكرهون أهل العراق لفطنتهم ورقتهم، إذ سياسة الأغبياء أسهل عليهم!»(٦٨). وعن الميداني: «قال رجل من أهل الحجاز لابن شبرمه: من عندنا خرج العلم. قال: نعم، ولكن لم يعد إليكم!»(٦٩).

هذا شيء من الماضي. بخصوص الحاضر ثمة نقص شديد في المصادر. فالعرب الحاليون يفضّلون في هذا المجال أن يبقوا شفهيين، فيخجلون من نشر سخرياتهم العصبوية أو يمنعون نشرها، مع أن هذا

(٦٥) المستطرف للأبشيهي، الجزء الأول، ص٢٠٢ - ٢٠٣.
(٦٦) الأذكياء لابن الجوزي، ص١٤٥.
(٦٧) مجمع الأمثال للميداني، ص٢٥٢. انظر أيضاً أخبار الحمقى لابن الجوزي، ص٢٤.
(٦٨) جمع الجواهر للحصري، ص٨٥، ٨٧.
(٦٩) الميداني، الجزء الثاني، ص٤٥٨.

الموقف لا يغيّر من الواقع، بل يحجبه عن الرؤية، فيزيد في صعوبات حل مشاكله. إلى جانب أن الكثير من النكات التي تستهدف الجماعات ليست عصبوية بحتة، بل الأصح أن يسمّى بعضها «تربوياً جماعياً». نصادف هذا النوع من النكات على الأخصّ عندما تمسّ النكتة «النحن» (الأنا الجماعية). لحسن الحظ أن أجدادنا من كتاب وذوي سلطة كانوا أوسع أفقاً وأقل وصائية من الكتاب ورقباء الكتابة الحاليين، وإلا لما كنا ورثنا هذه الثروة الفكاهية ولتأثر سلباً اطلاعنا على تاريخ ذلك الزمان. من خلال ما سمعته من أفواه الناس تبين لي أن أكثر التنكيت المتناقل في البلدان العربية ذا طبيعة سياسية، أكثر مما هو عصبوي. يبدو أن السياسة قد غطّت على العصبية، بالنظر إلى الأحداث السياسية الخطيرة التي تمر بها المنطقة العربية في العقود الأربعة أو الخمسة الأخيرة. الآن سوف نغضّ النظر عن النكات السياسية، أي التي تمسّ الأنظمة والحكومات، ونحصر اهتمامنا بالنكات العصبوية، أي التي تستهدف أهالي البلدان العربية كجماعات مميّزة عن بعضها (ضمن حدود معينة). هنا أعترف بأن اطلاعي ليس كافياً، لكنه يفي بغرض هذا الكتاب. على كل، ليس بوسع الكتاب أن يُشبع جميع النقاط التي يدرسها بالشواهد والأمثلة، وإن كان يحاول ذلك حيثما أمكن. مع ذلك، ربما كان يشقّ طريقاً جديدة تسمح لرواد تالين أن يسيروا عليها مسافات أطول.

من خلال رفضه لاختزال الشعوب إلى طباع وأمزجة، يقدم لنا يحيى جابر معلومة قيّمة عن الطباع المزعومة للعصبيات العربية: «وحيث أنني لا أؤمن باختزال الشعوب والبلاد إلى طباع وأمزجة، فأنا لا أعتبر الخليجي بدوياً واللبناني شاطراً والمصري حربوقاً والمغربي فيلسوفاً والعراقي كحولياً انتهاء بدروشة السوداني وثوروية الليبي وفنجرية اليمني»[٧٠]. ونحن بدورنا سوف نتقصّى نظرة النكتة إلى هذه العصبيات. بخصوص الجيران الأشقاء، وهم اللبنانيون، كان يقال قبل الحرب الأهلية فيها (التي بدأت عام ١٩٧٥) عن العسكر اللبناني بأنه «جيش أبو الزلف». طبعاً تغيرت الصورة

(٧٠) يحيى جابر: على باب الخليج، في: نجوم الظهر، دار الريس، لندن ١٩٩٥، ص٤٦.

بعدئذ، وبرهن اللبنانيون بأنهم كغيرهم قادرون على تقتيل بعضهم وكذلك على مقاومة العدو الصهيوني، إذا تهيأ الظرف والوعي، مثلما هم قادرون على حياة اللامبالاة والمرح. أما تقليد اللبنانيين للغرب، الذي يفخرون به، متباهين بأنهم «سويسرا العرب» أو ما شابه، فيبقى بالنسبة للسوريين والعرب الآخرين وحتى لكثير من اللبنانيين أنفسهم، مثيراً للسخرية: «سيدة مجتمع لبنانية قرأت في إحدى المجلات، أنه جرى استفتاء في أميركا حول الزوجات اللواتي يضربن أزواجهن، فتبين أنهن ٨ ملايين. وهنا شهقت السيدة المخملية وقالت: يا لطيف، نحن بلبنان شو متأخرين!»(٧١). هذه النكتة تربوية (جماعية) أكثر مما هي عصبوية بحتة. بالارتباط مع ذلك تعاني لبنان من نزوع أبنائها للهجرة، فتنتقد النكتة كثرة هجرة اللبنانيين: «أحد المهاجرين اللبنانيين في البرازيل كان في جلسة مع أبناء وطنه وأخذ يسأل عن الأخبار المحلية، فقال: من هو رئيس بنك البرازيل اليوم؟ فقيل له: ريكاردو يافث. ـ ومن هو مدير البوليس؟ ـ جريس حنا. ـ ومدير غرفة التجارة والصناعة؟ ـ ادوار صايغ. وأخيراً سأل: ومن هو حاكم الولاية الآن؟ فقيل له: إنه ريمار دي باروس. فهاله الأمر وصاح بمواطنيه: ليش حاطين هالأجنبي بينكم؟!»(٧٢).

في عقود الخمسينات إلى السبعينات انصبت النكات العصبوية على الأشقاء المصريين قبل غيرهم. يرتبط هذا إلى حد بعيد بالاحتكاك القوي، السياسي أولاً ثم الاجتماعي، بين البلدين، وخاصة منذ وحدة ١٩٥٨، مروراً بحربي ١٩٦٧ و١٩٧٣. من هذه النكات: «إن الجندي المصري يغمض عينيه ويقوّص على الجندي الاسرائيلي وهو يقول: يا ربّ، تيجي بعينه!». ويُعيّر المصريون بالنشل، كما رأينا في نكتة الشامي والمصري، وبالتحشيش. يبدو لي أن النكات المتداولة في سوريا في الخمسينات والستينات عن الحشاشين مقتبسة أصلاً من المصريين أو المنشورات المصرية، إلى هذا الحد أو ذاك. ومما له دلالة خاصة هنا أن ثمة نادرة

(٧١) الشبكة، العدد ١١٤٨، تاريخ ١٩٧٨/٣/١٣، ص٧١.
(٧٢) حنكشيات، ص١٣٢.

معروفة للشاعر أحمد رامي نسبتها مجلة «المضحك المبكي» الدمشقية إلى حشاش: «دخل أحد الحشاشين إلى منزل صديق له، فاستقبله في غرفة كان النور فيها ضئيلاً للغاية، فالتفت إلى الصديق وقال له: اعمل معروف هات لمبه تانشوف النور ده!»(٧٣). على العموم تُعتبر مصر متقدمة على سوريا في النكتة، ولم تتحرر سوريا من التأثير المصري في هذا الميدان قبل السبعينات، مع انتشار نكات الفيل والنملة والأجدب الحمصي. ومن نكات فترة الوحدة (١٩٥٨ - ١٩٦١): «خروتشوف زار عبد الناصر في القاهرة. فأخذه عبد الناصر جولة بالسيارة في شوارع القاهرة. أثناء سيرهم شاف خروتشوف أحدهم مديراً ظهره ويبول على حائط في الشارع. فانتقد هذا التصرف، بينما خجل عبد الناصر وسكت على مضض. بعد مدة زار عبد الناصر خروتشوف. فأخذه خروتشوف بدوره جولة في شوارع موسكو. وهنا رأى عبد الناصر أحدهم يبول في أحد الشوارع. فسرّ لذلك وقال لخروتشوف: عندكم أنتم أيضاً أناس يبولون في الشوارع. جن جنون خروتشوف وصاح بمرافقيه أن يحضروا هذا الشخص. ذهبوا وأتوا به، وإذا هو مصري!»(٧٤).

بعد قيام العمل الفدائي كردّ على هزيمة ١٩٦٧، وخاصة بعد أيلول ١٩٧٠، نال الأشقاء الفلسطينيون أكثر فأكثر نصيباً معتبراً من التنكيت. هنا تداخل العنصران السياسي والعصبوي، مع الغلبة للسياسي. ربما كان هذا التداخل يعود إلى عدم وجود حكومة فلسطينية يمكن أن تُوجّه لها سهام السخرية. لم يكن ثمة دولة فلسطينية بالمعنى الدقيق للكلمة، بل يتوزع الفلسطينيون في الدول العربية والأجنبية وينتظمون في تجمعات سياسية عسكرية إدارية يجمعها الإطار الفضفاض لمنظمة التحرير الفلسطينية

(٧٣) المضحك المبكي، العدد ١٠٣٢، تاريخ ١٩٦٣/٨/١٨، ص٢٧. انظر أيضاً: المضحك المبكي، العدد ١٠٠٩، تاريخ ١٩٦٢/١١/١٨، ص٢.

(٧٤) عين الزهور، ص١١٣. هذه مقارنة ظالمة برأيي، ففي البلدان العربية قلما تجد مراحيض عامة، وبالتالي أين يقضي الناس، وخاصة القادمين نهاراً من الأرياف، حاجتهم؟. النقد يجب أن يوجه إلى المجالس البلدية في المدن العربية وإلى الدولة، لا إلى المواطن.

التي تقوم ببعض وظائف الدولة. من النكات المتداولة في هذا المجال: «واحد تطوع في منظمة. قالوا له: شو بدك تلقّب حالك؟ قال: ليمون. قالوا له: لا يصح، هذا ليس لقباً، يجب أن تلقب حالك أبو فلان، أبو أي شيء!. قال لهم: أبو صرّة!».

في النصف الثاني من السبعينات بدأ التيار الرئيسي للنكات العصبوية في سوريا يتجه نحو الشقيقات بلدان الجزيرة العربية، تحديداً نحو السعودية ودول الخليج. يعود هذا في المقام الأول إلى تأثير الانقلاب الذي أحدثه النفط هناك، إذ أصبح الأقل تحضراً وثقافة أكثر غنى وسطوة. في نفس الوقت، ولأسباب لا مجال لذكرها الآن، أمست البلدان العربية الأكثر تحضراً وثقافة أضعف اقتصادياً وسياسياً، مما دفعها - راغبة و/ أو مضطرة - إلى الإلتفات نحو منطقة الخليج، وسبّب لها تراجعاً على مستوى الوعي الاجتماعي العام. لنر ما تقوله النكتة بهذا الخصوص: «سمع سعودي أن رواد فضاء نزلوا على القمر، فقال: باشر يصير القمر هلال ويقعون!». «سعودي زار شخصاً في سوريا. فأخذه السوري للفرجة على مباراة لكرة القدم. شاف السعودي اللاعبين لاحقين الطابة، وكل واحد يحاول تشليحها من الآخر، فقال للسوري: ليش يتقاتلون؟! قل لهم، أنا أشتري لكل واحد منهم كرة!». «يروى أن أحد شيوخ السعودية دخل مع ابنه ساحة قصره، فلمح امرأة حولاء. أشاح بوجهه عنها، وقال لابنه: من هذه المرأة الحولاء؟ قل لها أن تتستر!. أجابه الابن: هذه أمي، يابا!». النكتة الأولى تهزأ من لاعلمية المواطن السعودي، بينما تضحك الثالثة مستغربة من هذه العلاقة الزوجية. أما النكتة الثانية فتبدو لي قديمة، إذ نشرتها مجلة الاثنين والدنيا عام ١٩٤٧ عن ثري الحرب[٧٥]، باعتباره حديث نعمة.

بعد حرب الخليج ١٩٩١، ازداد التنكيت على منطقة الخليج كثافة، ونالت منه الكويت نصيباً أكبر بكثير من السابق. غير أن هذه النكات كانت على العموم سياسية، مع بعض الاستثناءات: «أحد الكويتيين ألّف كتاباً عن

(٧٥) العدد ٦١٧، تاريخ ١٩٤٧/١١/٢٠، ص٢٢.

الحصان العربي وطبعه طبعة أنيقة. فتحه أحدهم فقرأ على الصفحة الأولى: ركب العربي على الحصان. ونظر في الصفحة الأخيرة فقرأ: نزل العربي عن الحصان. دهش لذلك، فأراد أن يطلع على مضمون الكتاب، فوجد في الصفحات الأخرى: ترتك، ترتك، ترتك...». «قالوا: احتل النظام العراقي الكويت، فشرد أبناء الشعب الكويتي في فنادق الخمس نجوم في كل أنحاء العالم!». المغزى من النكتتين الأخيرتين أن أبناء الكويت أو الخليج يتنعمون في حياتهم دون تعب أو مساهمة منهم في خلق هذا النعيم أو في الحفاظ عليه، تماماً كما تقول النكتة التالية أيضاً: «واحد خليجي معه سيارة من أفضل الماركات وآخر الموديلات. صال فيها وجال، ثم توقف وصفن. سأله مرافقه عن سبب توقفه، فقال: سبحان من سخّر لنا الفرنجة، هم يفبركون المواتير ونحن نرشبها!». فإذا كان المرء لم يتعب في جمع المال، فإنه يهون عليه تبذيره، وخاصة على شهواته. والمبذرون يمثلون نقطة جذب للمحتالين والانتهازيين والنفعيين: «رجل شرقي ثري جداً جداً. قال لسائح أجنبي: ابنتك تعجبني جداً! أعطيك وزنها ألماساً إذا زوجتني إياها. فقال السائح: أعطني مهلة شهرين حتى أرد عليك. ـ طيب، إني أفهم وضعك ويجب أن تفكر بالأمر جيداً. ـ إن الشهرين أريدهما ليس للتفكير بالأمر، بل لأحشيها بالأكل، مولانا!»(٧٦).

في الحاضر كما في السابق يتندّر العرب على عنف العراقيين وقسوتهم وكذلك على ما يتهمونهم به من المعاشرة المثلية: «منع التجول في أربيل بالعراق من الساعة السابعة مساء حتى السابعة صباحاً. في الساعة السادسة والنصف مساء كان أحد المواطنين يمشي في الطريق. رآه جندي فقوصه وأرداه قتيلاً. جاء الضابط إلى الجندي غاضباً وصرخ في وجهه: لماذا قوصته؟ قال: سيدي، هذا بيته بعيد، يحتاج أكثر من ساعة كي يصل!». في السنوات الأخيرة، التي اتفقت فيها المجاعة والحرب القبلية على إبادة الشعب الصومالي، اتجهت النكتة في سوريا لأول مرة نحو ذلك البلد العربي المسكين. إذا لم يكن بيدنا أن نساعد أولئك الأشقاء،

(٧٦) الموعد، العدد ٥٩٣، تاريخ ١٧/١/١٩٧٤، ص٥٨.

فلنضحك حزناً وألماً!: «أرسلت سوريا شحنة أدوية إلى الصومال، فأعيدت الأدوية إلى سوريا. ـ لماذا؟ – لأنه كان مكتوباً على علب الأدوية: يؤخذ بعد الطعام!». «صومالي راح عالبحر، رجع هيكل عظمي!. ـ لماذا؟. ـ لأن جلده قشّر!». وهذه نكتة تعكس رأياً في وضع اليمن، سمعتها عام ١٩٩١: «أحد المثقفين اليمنيين فسّر تخلف اليمن بكونه لم يُستعمر أبداً. فاقترح على أبناء بلده أن يأتوا بالاستعمار لكي يبني في البلد طرقاً وسككاً حديدية ومدارس ومشافي وغير ذلك. وافقوه على ذلك، لكنهم احتاروا أي دولة استعمارية يختارون. قال لهم: «الانكليز والفرنسيون من الاستعمار القديم، لا ينفعان، ليس لنا سوى الاستعمار الأمريكي. أيدوا رأيه، لكنهم سألوه: ولكن كيف نجلب الاستعمار الأمريكي؟ قال: نعلن الحرب عليهم، فيهجموا علينا... ثم استدرك: لكن الذي أخاف منه أن ننتصر عليهم!». المضحك المبكي هو أن اليمنيين أعلنوا الحرب على بعضهم في أيار ١٩٩٤.

من النافل أن نقول، إن مستوى النكتة يتناسب مع مستوى الوعي العام للشعب المعني. بناء عليه، فإن تنامي الشعور العروبي ظهرت آثاره في النكتة، كما في بقية الأجناس الأدبية. فظهرت نكات تعبّر عن عصبية عروبية، ليست ضد الغير مباشرة، بل تنتقد الذوات القطرية المتنافرة لصالح الذات العربية العامة، تنتقد قصر النظر عن المصلحة العربية العليا التي بدونها لن تتحقق حتى المصالح القطرية: «روسي وأميركي وعربي، أراد الله (تعالى) أن يحقق لكل منهم أمنية واحدة، شرط أن يحقق لجاره الضعف. تمنى الروسي سيارة، فنال هو سيارة وجاره سيارتين. وتمنى الأميركي مسدساً، فنال مسدساً وجاره مسدسين. أما العربي فجعل يفكر، كيف يكون لجاره ضعف ما له. أخيراً طلب من الله (تعالى) أن يقلع له إحدى عينيه!». عندما انتقلت الجامعة العربية من مصر إلى تونس انطلقت الحدوتة التالية: «شاهد أحد التونسيين زميلاً له واقفاً أمام مبنى الجامعة العربية وبيده بوق، فسأله: ما بالك واقفاً بهذا الشكل؟. قال: لقد توظفت هنا شهرياً بعشرين دولاراً لأنفخ في البوق عند إعلان الوحدة العربية. فقال الصديق: ولكن عشرين دولاراً مبلغ ضئيل. فردّ: نعم، ولكن ألا تعلم أنها

وظيفة مدى الحياة؟!»(٧٧). وهذه مفارقة من التاريخ السياسي العربي: «في عام ١٩٥٣ جرى تعيين السيد ميشيل لبان وزيراً مفوضاً عن جمهورية التشيلي في سوريا ولبنان. وقد اختارت التشيلي السيد لبان وزيراً مفوضاً عنها تمكيناً للصداقة مع العرب، لأنه من أصل عربي. لكن حكومة لبنان لم توافق على قبوله عندها، لا لسبب إلا لأنه من أصل سوري!»(٧٨).

كذلك ثمة نكات تنتقد الذات القطرية، لكنها ليست عصبوية بأي حال، بل تربوية جماعية، كما أسميناها من قبل. في الحقيقة هناك تداخل بين النوعين: إذا جاءت النكتة الناقدة على لسان الناقدين، فهي عصبوية؛ وإذا جاءت على لسان المنقودين، فهي تربوية جماعية. فطبيعة الأشياء تختلف بحسب موقع الناظر أو بحسب زاوية النظر. هذا قانون فيزيائي، واجتماعي أيضاً. وإنها لحالة صحية أن يتناقل مجتمع ما النكات التي تنتقده، أي أن يضحك على نفسه. عندئذ يطهّرها بالفعل، بمعنى أنه يأخذ العبرة من النكتة أو أنه قد أخذ العبرة منها وتجاوز الأمر، بدلالة أنه يرويها: «لبناني زار أميركا. فرّجوه هناك على الكومبيوتر وقالوا له: اسأله أي شيء، يجبك. فسأله اللبناني سؤالاً. وإذا بالكومبيوتر يبرق ويرعد، يقوم ويقعد، ثم ينفجر. قالوا له: ماذا سألته حتى انفجر؟. قال: سألته، شوفي مافي؟». «ثلاثة، أميركي وروسي وسوري تباروا في دمشق، من فصّه حامي أكثر. وضعوا الفلينة في قفا الأميركي، طارت فوصلت إلى العراق. وضعوا الفلينة في قفا الروسي، طارت فوصلت إلى إيران. وضعوها في قفا السوري، طارت في السماء، وما عرفوا أين حطت. بعد يومين سمعوا من إذاعة الصين أن فلينة طائشة أصابت صينياً في عينه فقلعتها!». وفي نكتة تعود إلى الستينات: «سأل هندي سورياً: كم عدد سكان سوريا؟ أجابه السوري: سبعة ملايين. فقال الهندي: إذن، أنتم تعرفون بعضكم جميعاً؟». في رواية ثانية سمعتها في الثمانينات، يكون السائل صينياً، حيث يقول: «إذن فأنتم تسكنون في بناية واحدة؟!». وفي رواية ثالثة مزامنة للثانية يقول الصيني: «في أي فندق تنزلون؟».

(٧٧) محمد الرميحي، في مجلة: العربي، نيسان ١٩٨٦، ص١٩.
(٧٨) باختصار عن: المضحك المبكي، العدد ٨٧٦، تاريخ ٢٤/١٠/١٩٥٣، ص٨.

ربما يشتم القارئ مثلي أن هذه النكات لا تخلو رغم انتقاديتها من بعض الإعجاب، أو – على الأقل – لنقل: إنها تسخر من لامنطقية اللبناني وتبجّح السوري وقلة عدد سكان سوريا، لكنها سخرية القابل بالشيء على علاته، الذي لا يرى إمكانية لتغييره أو لا يفكر أصلاً بالتغيير. أما النكات التالية فتبدو لي أكثر رغبة في التغيير: كتب محمد الرميحي: قضية أخرى عالجتها الصحافة الضاحكة هي قضية «الخواجه» أو بالأحرى «عقدة الخواجه»، وتظهر في قمة طرافتها وسخريتها في القصة التالية: «شاهد رجل شرطة لصاً متدلياً من الشباك وفي يده صرّة كبيرة، فصرخ: من هناك؟! فرد الحرامي: خواجه. فقال الشرطي: اسف، لقد ظننتك مصري!»[٧٩]. «زار وفد سوري دولة أوروبية صناعية. وقام الوفد بجولة على منشآت البلد المضيف، من ذلك: معمل تعليب اللحوم. قال لهم المرشد: هذا المعمل يقوم بكل الأعمال آلياً، ندخّل الخنزير من باب، نطلّعه نقانق من تاني باب، هل عندكم معمل كهذا؟ رد رئيس الوفد: نحن عندنا أفضل من ذلك، نحن ندخل النقانق، فنطلّع خنازير!». «جاء أجنبي إلى المدينة الرياضية باللاذقية. توقف عند المدخل وسأل الحارس عن شيء ما، فلم يفهم عليه الحارس، قال الأجنبي: دو يو سبيك انغليش؟ أجاب الحارس: لا. قال له: دو يو سبيك فرنسي، ألماني، طلياني، اسباني، برتغالي، روسي. وفي كل مرة كان الحارس يجيبه بـ«لا». فتركه الأجنبي وذهب. وكان إلى جانب الحارس صديق له، فقال له: والله، يا فلان، أنت لازم تتعلم لغة أجنبية. قال: ليش؟ قال له: تستفيد. فقال له الحارس: هاي هادا الأجنبي يعرف سبع لغات، ما استفاد شي!».

د ـ العصبية تجاه الشعوب الأخرى

النكتة العصبوية سلاح صائب مثل الصاروخ الموجّه، بعيد المدى كأسلحة الفضاء، مفعوله مزمن كالإشعاع النووي. فإذا اتهم شعب ما شعباً آخر، ولو كان اتهاماً باطلاً، عبر نكتة أضحكت الآخرين، فإن هؤلاء يكونون من خلال ضحكهم مهيئين لأن يقبلوا الاتهام وينقلوه إلى غيرهم. فالطرف

(٧٩) المصدر المذكور، ص١٧.

الثالث (أي المتلقي) هنا غير مستهدف، بالتالي لن تثير هذه النكتة عصبيته، فلا تلقى منه الرفض في الأحوال العادية. ويزداد احتمال تصديق الاتهام إذا كان الطرف الثالث لا يعرف الطرف الأول (أي الناقد) ولا الطرف الثاني (أي المنقود أو المستهدف)، وخاصة إذا كان لا يعرف الطرف الثاني معرفة مباشرة. بالإضافة إلى أن الإنسان ميال بطبيعته إلى الشكّ في الآخرين، وبالتالي تصديق الاتهام. هنا يسود قانون: كل مدّع صادق حتى يثبت كذبه، وكل متهم مذنب حتى تثبت براءته. في كل الأحوال، ليس مما يقضّ مضجع الطرف الثالث ولا مما يدعوه إلى التبصّر أن يكون الطرف الثاني على الصورة التي يعرضه فيها الطرف الأول أم في صورة معاكسة. هذا أمر لا يشغله على الإطلاق. ومما يزيد في خطورة النكتة العصبوية هو سرعة انتشارها في العصر الحديث، مع هذه الثورة في الاتصال وتبادل المعلومات بين البلدان والشعوب.

نحن نقرأ ونسمع الكثير من النكات التي تتضمن اتهامات الشعوب لبعضها بعيوب معينة؛ ولا ندري - لقلة معرفتنا بهم أو معاشرتنا لهم -، إن كانت صادقة أم كاذبة، بريئة أم مغرضة. مهما يكن تبقى هذه النكات عصبوية، لأنها تقيّم شعباً معيناً بمقياس شعب آخر أو شعوب أخرى، ولأنها تعني ضمنياً أن الشعب المنتقِد سليم من العيوب المذكورة. وأرجو أن لا يغيب عن ذهن القارئ، أن عصبوية النكتة لا تعني بالضرورة أنها كاذبة في اتهامها أو متجنية على من تسخر منهم، تماماً كما لا تعني أنها صادقة أو محقّة. العصبوية ليست لا أكثر ولا أقل من تقدير للنحن على حساب الغير. من النكتة العصبوية نستطيع، ونحن نضحك، أن نطلع على قيم الشعوب، وأن نأخذ فكرة عن العلاقات فيما بينها. كما نستطيع عند الحاجة أن نستخدم هذه النكات كسلاح ثقافي، بالتحديد عندما تصل علاقتنا مع أي من هؤلاء إلى درجة العداوة. بهذه العدسة يجب أن ننظر إلى التنكيت بين البلدان والشعوب.

على المستوى العالمي تنتشر نكات عن حمق البلجيكيين، ربما كان الفرنسيون مصدرها: «تنهّد بلجيكي وقال: آه، حبذا لو كان بالإمكان بيع

الحماقات، لأصبحنا جميعاً من أصحاب الملايين!». «س: لماذا الاتوبيسات البلجيكية عريضة أكثر مما هي طويلة؟ – ج: لأن كل الركاب يودون الجلوس بالقرب من السائق!»[٨٠]. وتنتشر نكات عن برودة الانكليز: «الأحد هو اليوم الذي يضحك فيه البريطانيون من القصص الجميلة التي تروى لهم يوم السبت!»[٨١]. ومما يروى عن «البرود الساكسوني»، «أن رجلاً تشاجر مع زوجته ثم غادر المنزل. وترقبت زوجته عودته، ولكن على غير طائل. ومرت الشهور والأعوام، دون أن يعود. وفوجئت الزوجة ذات ليلة بدخول الزوج في وقت متأخر من الليل، وكان قد مضى على غيابه أكثر من ١٢ سنة. فسألته الزوجة في غير اكتراث: كنت فين؟ فأجاب في هدوء: كنت في القهوة!»[٨٢]. ويُنعت الكورسيكيون بالتنبلة: «كان كورسيكيان يجلسان على شرفة أحد المقاهي وقد لزما الصمت طول ساعة كاملة. وفجأة فتح أحدهما فمه ليتثاءب، فقال له الآخر: آه، يا أنطوان، اغتنم إذن هذه الفرصة لمنادة الجرسون!»[٨٣].

ويتندرون على تجليط الطليان واحتيالهم: «أراد محام أن يثبت للمحكمة براءة موكله، فطلب استدعاء شاهد نفي، ثم سأله: هل صحيح أن... وقبل أن يكمل عبارته، قاطعه الشاهد بقوله: أبداً، هذا غير صحيح!»[٨٤]. «في واحدة من الولايات المتحدة الأمريكية وصل أحد الطليان ضيفاً مهاجراً. ولما ضاقت به سبل العيش، نشر إعلاناً جاء فيه: أرسل خمس دولارات على العنوان التالي لتحصل على أحدث جهاز لقتل الذباب بفاعلية وكفاءة... والجهاز الذي أرسله كان قطعتي خشب، كتب على واحدة منها رقم ١ والثانية رقم ٢. مع الجهاز أرفق نشرة تعليمية كتب فيها: أمسك القطعة (١) بيدك اليسرى، ضع عليها الذبابة، ثم أمسك بيدك اليمنى القطعة (٢)، واضرب بها الذبابة على القطعة (١)، عندها تكتشف

(٨٠) ماجد، العدد ٧٧٧، تاريخ ١٢/١/١٩٩٤، ص٤٧. العدد ٧٧٢، تاريخ ٨/١٢/١٩٩٣، ص٢٩.
(٨١) بيتر اوستيفور، في: القول المثال في الحكم والأمثال، ص٦١. مع تصحيح طفيف.
(٨٢) الاثنين والدنيا، العدد ٦٨٧، تاريخ ١١/٨/١٩٤٧، ص٢٢.
(٨٣) ماجد، العدد ٨٠٦، تاريخ ١٣/٨/١٩٩٤، ص٦٢.
(٨٤) الاثنين والدنيا، العدد ٦٨٥، تاريخ ٢٨/٧/١٩٤٧، ص٤١.



فاعلية هذا الجهاز لقتل الذباب!»[٨٥]. جدير بالذكر أن الطليان يُسَمون في أوروبا «معكرونة» و«سباكيتي»، تلميحاً إلى رخاوتهم كهذه الأكلة. وليس جديداً أن ننقل حديثهم عن بخل الاسكتلنديين: «تلقى رئيس تحرير إحدى المجلات رسالة من اسكتلندا يقول كاتبها: سيدي، إذا نشرتم أي نكتة مرة ثانية عن بخل الاسكتلنديين، سأضطر في هذه الحالة إلى الكفّ عن استعارة مجلتكم من جارنا لقراءتها!»[٨٦].

وتنتشر على الصعيد العالمي أيضاً نكات عن كحولية الايرلنديين وشرانيتهم: «ايرلندي طلع له مارد. قال له: شبيك لبيك، عبدك بين ايديك، اطلب وتمنى! قال له: أريد برميل بيرة. فقدم له برميل بيرة، وأخذ الايرلندي يشرب. ثم قال له المارد: مازال لك طلبان. فقال الايرلندي: اجلب لي برميلين آخرين من البيرة!». ـ نقرأ في مجلة «المختار»: «من المعروف أن الايرلنديين شرانيون. منذ فترة قصيرة تحدث حول ذلك أمريكي تنحدر أسرته من ايرلندا مع أحد معارفه القادمين مؤخراً من هناك. قال المهاجر الجديد، إنه رأى مرة في إحدى القرى رجالاً يتشاجرون، واكتشف أخاه بينهم. فألقى بنفسه سريعاً في المعمعة وسأل أخاه: شين، شين، مع من أنت؟ فصرخ أخوه مجيباً: ومن أين لي أن أعرف، فأنا لا أعلم لماذا يتشاجرون!»[٨٧]. ويُرمى الطليان أيضاً بالشرانية، وخاصة الصقليين، كما يرمى البولنديون بالكحولية. في الواقع يمكن أن نقول بصورة عامة، إن جميع الأوروبيين كحوليون. ـ وتسخر الشعوب الأخرى من الإسبان والبرتغاليين وأبناء أمريكا اللاتينية لطول أسمائهم، أو بالأحرى لتقليديتهم في التسمية الكاثوليكية والانتساب البطريركي: «أحد البرازيليين طرق باب مهاجر عربي كان يقطن في مزرعة يملكها في منطقة ريفية لا فنادق فيها. وجرت العادة هناك أن ينزل الغرباء ضيوفاً على من أرادوه من الأهالي، فلا يغلق في وجههم باب. وقد ردّ عليه المهاجر العربي من وراء بابه قائلاً: من أنت، أيها الطارق، وماذا تريد؟ فقال

(٨٥) باختصار عن: احسان الفرحان، ص١٠٢.

(٨٦) سمير، العدد ١٩٣٨، تاريخ ١٩٩٣/٥/٣٠، ص٣٧.

(٨٧) المختار (بالألمانية)، العدد ١١، تشرين الثاني ١٩٧٨، ص٣٦.

الضيف البرازلي: ضيف من سان باولو يريد أن يبيت عندك، اسمي جوان دا سيلفا اروجو اوليفارا سكرانيا... وأجابه المهاجر العربي على الفور: متأسف، سنيور، ليس عندي أمكنة لاستقبال كل هؤلاء الناس!»[٨٨].

ويضحكون على عسكرية الألمان، كما في هذه النكتة التي يرويها الأميركان: «عامل ألماني الأصل يشتغل في مصنع بالولايات المتحدة، أراد أن يركّب عربة أطفال، فسرق من المصنع على مدى شهور القطع اللازمة لذلك. وفي نهاية أحد الأسابيع أخذ يعمل على تنفيذ مراده. بعد بضع ساعات جاء إلى زوجته مهرولاً: ماريا، كيفما ركّبت القطع، لا أحصل إلا على رشاش!»[٨٩]. كذلك يسخرون من محدودية الأميركان وعنجهيتهم: «كان الدليل السياحي يقف أمام سجن الباستيل مع مجموعة من السائحين الأمريكيين، حين قال: أترون الباستيل، السجن القديم الذي هاجمه الشعب في ١٤ يوليو ١٧٨٩؟ نظر أحد الأمريكيين إلى العمود الباقي من الباستيل وقال: يا لهم من مساكين، لقد كانوا محشورين كثيراً بداخله!»[٩٠]. «أحد المدرسين الأميركان وقف في الفصل وسأل تلاميذه عن الرجل الأول في العالم. وكان رد أحد التلاميذ هو: بيل كلينتون. فصاح المدرس: أخطأت. وسأل مرة أخرى، فرد تلميذ آخر: إنه آدم. وعندئذ وقف التلميذ الأول محتجاً: كان يجب أن توضح لنا، يا أستاذ، أن السؤال يشمل الأميركان والأجانب!»[٩١]. «فتح أمريكي من واشنطن جريدة وقرأ فيها: في لوس أنجلوس هناك رجل تدهسه السيارات كل ساعة! فهزّ رأسه وقال: يا للمسكين، لماذا لا يغادر هذه المدينة؟!»[٩٢].

---

(٨٨) حنكشيات، ص٧٣.

(٨٩) هيرش، ص٢١٥.

(٩٠) ماجد، العدد ٧٤٩، تاريخ ١٩٩٣/٦/٣٠، ص٤٦. تروى أيضاً عن جان كلود بريالي وصديقته الأمريكية، في: الأسبوع الضاحك، السنة الثانية، العدد ٣٦، ص٢.

(٩١) آخر ساعة، العدد ٣١٠٤، تاريخ ١٩٩٤/٤/٢٠، ص٥٢. مع بعض التعديل الضروري. واردة أيضاً في: المضحك المبكي، العدد ١٠٣٨، تاريخ ١٩٦٣/٩/٢٩، ص٣١، إنما يذكر جورج واشنطن.

(٩٢) المضحك المبكي، العدد ١٠٢٢، تاريخ ١٩٦٢/٢/١٧، ص٢٣. والعدد ١٠٨٨، تاريخ ١٩٦٣/٧/٧، ص٢٣.

أما الروس فالنكات عنهم سياسية على الغالب، أو بالأحرى ايديولوجية طبقية عموماً، متأثرة بالحرب الطويلة الأمد بين النظرتين الرأسمالية والاشتراكية. وهذه مجموعة من النكات الخارجة عن هذا الإطار: «يقال إن الفلاحين الروس لا يعرفون للصدق معنى. ومن ألطف ما يروى في هذا الموضوع النادرة الآتية: كان فلاح روسي في أحد أيام الحرب يبكي ويندب سوء حظه على قارعة الطريق. وفيما هو كذلك مرّ به قسيس القرية، فسأله عما به، فقال له: إنني أبكي بسبب ابني. قال له: وهل ابنك مريض؟ قال له: كلا، ولكني حائر في أمره، فإن قلت لولاة الأمور إنه دون سنه الحقيقية طلبوا مني أن أرسله إلى المدرسة، وإذا قلت إنه أكبر من تلك السن، ألحقوه بالجيش. ففكّر القسيس قليلاً، ثم قال له: ولماذا لا تعطيهم سنه الحقيقية؟ فصاح الفلاح، وقد بدت على وجهه دلائل البهجة والسرور وقال له: فكرة جميلة حقاً، يا أبانا، إني لم أفكر بذلك قطّ، فشكراً!»(٩٣). «فلاح روسي أصيب بنوبة زائدة حادة، فنقل إلى موسكو حالاً ليوضع في مستشفى وتجرى له عملية جراحية. وقبل أن يُعرض في المستشفى على أنظار رئيس الأطباء، أخذ إلى الحمام، بحسب العادة. ثم جاء أحد رجال المستشفى وغسّله جيداً ثم حمله إلى سريره... هنا نظر إلى جسمه المبيض بعد الحمام وقال: والله أنا كنت مفتكر أن عملية الزائدة بتكون أصعب من هيك، تاريها لذيذة للغاية!»(٩٤). «ويقال في روسيا، إنك إن وجدت ضوءاً في بيت الساعة الثانية ليلاً، فيكون ثمة روسي يشرب الفودكا أو يهودي يعد نقوده!».

أخيراً وليس آخراً نصل إلى الفرنسيين. هؤلاء يمثلهم لدى الشعوب الأخرى أهالي باريس، مدينة الحب والجمال. لهذا يثيرون الإعجاب لدى الآخرين، وفي نفس الوقت يلقون من جرائه سخريتهم، فيُنعتون بالميوعة والاستهتار الجنسي وما إلى ذلك: «.. لا تنسي أن سيدك من رجال الجيش، وبرتبة كولونيل. فابتسمت الوصيفة الحسناء، ورددت تقول: اطمئني، يا

(٩٣) المضحك المبكي، العدد ١٠٢٢، تاريخ ١٩٦٣/٢/١٧، ص٢٣. والعدد ١٠٢٨، تاريخ ١٩٦٣/٧/٧، ص٢٣.

(٩٤) بعد الاختصار عن: المضحك المبكي، العدد ٢٩٠، تاريخ ١٩٣٦/٥/٢٣، ص٩.

سيدتي، فأنا بطبعي لا أحب إلا هذا الصنف من الرجال!»[٩٥]. يبدو لي أن الباريسيين تخلّصوا قبل أو أكثر من غيرهم من عقدة العلاقة بين الرجل والمرأة، وأصبحوا يضحكون من أمور ربما مازالت تبكي الآخرين في هذه العلاقة. يقول أندريه موروا: «إنه يحبها حتى ليصعب عليك أن تصدق أنه زوجها!»[٩٦]. والنساء الفرنسيات مشهورات بخبرتهن الجنسية وفهمهن للرجال: «فازت سيدة فرنسية بلقب (الزوجة المثالية) من بين ستة آلاف متبارية. وجاءت إحدى مندوبات التلفزيون تسألها: ما هي نصيحتك للزوجة التي تسعى لأن تعيش سعيدة مع زوجها؟ فقالت الزوجة المثالية: على الزوجة الذكية أن تعامل زوجها كالكلب، ثلاث وجبات كل يوم، تمدّ له السلسال طويلاً، تسمعه كلمات عذبة، ولا تنبح عليه وهويأكل!»[٩٧].

هذا عن الغربيين فيما بينهم، مما يصل كثير منه إلينا ويساهم في رسم الصورة التي في ذهننا عن هؤلاء. إذا انتقلنا إلى التنكيت فيما بين الشرق والغرب، سمعنا نكات ذات طابع مختلف نوعياً، تعكس عادة نظرتين متنافرتين إلى الحياة والكون، وتعبر عن اختلاف الحضارات. في هذه النكات تظهر عنجهية الغرب ونظرته الدونية إلى الشعوب والثقافات غير الغربية، وتظهر بالمقابل العواطف المتناقضة للشعوب الأخرى تجاه هذا الغرب وحضارته الحديثة. على العموم، هي نكات عصبوية تلغي الآخر من طرف الغربيين، بينما رأينا النكات فيما بين هؤلاء عصبوية تنافسية، تنقد الغير دون أن تلغيه: «ذهب جنديان أمريكيان ليضعا باقة من الزهور على قبر زميل لهما استشهد في كوريا. فوجدا هناك جندياً من كوريا الجنوبية يرش على قبر زميل له كمية من الأرز، وفقاً للعادة المتبعة هناك. وضحك الأميركيان وقالا للكوري ساخرين: أتظن أن صاحبك سوف يذوق طعم هذا الرز؟ فأجابهما الكوري: نعم، حين يشمّ زميلكما رائحة هذه الزهور!»[٩٨].

(٩٥) الاثنين والدنيا، العدد ٦٨٥، تاريخ ١٩٤٧/٧/٢٨، ص٤٠.
(٩٦) الاثنين والدنيا، العدد ٧٠١، تاريخ ١٩٤٧/١١/١٧، ص١٧.
(٩٧) الشبكة، العدد ٨٦١، تاريخ ١٩٧٢/٧/٢٤، ص٤٢.
(٩٨) المضحك المبكي، العدد ١٠٤٩، تاريخ ١٩٦٣/١٢/١٥، ص٢٧.

وروى نجيب الريحاني: «سمعت أن اللجنة التي تألفت للإشراف على اليابان حارت في طريقة معاملة الميكادو. فاليابانيون يعتقدون أنه ابن السماء وسليل الآلهة. فتقدم أحد الأعضاء باقتراح طريف لحل المشكلة، قال: مادام جلالته ابن السماء، فأحسن طريقة يروح يعيش مع أمه، وخلاص!»[٩٩]. وهذه نكتة معاكسة، إنما من نفس المنطلق: «أراد شاب فرنسي أن يتقدم لخطبة إحدى الفتيات اليابانيات، فسأل شيخاً يابانياً: هل تظن أن أهلها يرفضونني بسبب جنسيتي الفرنسية؟ فأجابه الشيخ: إنهم سوف يرفضون طلبك، لا لسبب جنسيتك وإنما بسبب سلالتك، فأنتم حسب تقاليدكم من سلالة القردة، أما هي فإنها حسب تقاليدنا سليلة آلهة الشمس!»[١٠٠]. «شاهد مهاجر صيني امرأة تنظف نافذة في الطابق الثاني والعشرين ثم تفقد توازنها وتسقط في حاوية زبالة، فقال لنفسه: الأميركان مسرفون جداً، مازالت المرأة تصلح لعشر سنين أخرى!»[١٠١].

وهذا مثال نادر يُنصف الهنود الحمر: «وقفت سيدة في عربة قطار مكتظة في نيويورك تقرأ صحيفة أجنبية. وما لبثت أن اختل توازنها فاصطدمت براكب واقف آخر. امتعض الرجل وراح يتذمّر: يا للغرباء اللعينين!. ولما سمعته المرأة بادرته بلهجة أمريكية سليمة: لا أراك ترتدي عباءة هندية، يا سيد!»[١٠٢]. والجميع يجد في الزنوج هدفاً سهلاً لمسخرته التي تعزف على وتر البدائية والهمجية، رغم محدودية ذلك ورغم ما حصل في أفريقيا السوداء وأمريكا الشمالية من تطورات منذ الخمسينات، على الأقل: «مصنع أحذية أرسل إلى أفريقيا السوداء اثنين من خبراء التسويق لدراسة السوق، وإعداد تقارير عن حجم المبيعات المحتملة. الخبير الأول كتب لمدير المصنع يقول: سأعود غداً، فالجميع هنا يمشون حفاة. والخبير الثاني كتب له يقول: عظيم، سأبقى في أفريقيا

(٩٩) في: ندوة الفكاهة، مجلة الهلال، عدد آب ١٩٤٨، ص١١١.

(١٠٠) الهلال، تشرين الثاني ١٩٥٤، ص٥٤.

(١٠١) ليكسفيلد، ص٢١.

(١٠٢) المختار، عدد نيسان ١٩٨٧، رقم ١٠١، ص٤٦.

للأبد، فالجميع هنا مازالوا حفاة!»[١٠٣]. «زنجي ببنطال مقلّم وقبعة عالية وخواتم ماسية، كان يجلس في إحدى مقطورات الدرجة الأولى ويقرأ جريدة وول ستريت. وكان هناك رجل أبيض، حدّق فيه برهة، وهو مملوء بالحقد، ثم صرخ في وجهه: زنجي! في تلك اللحظة أفلت الزنجي الراقي الجريدة من يده وصاح مذهولاً: أين؟!»[١٠٤]. إلى هذه الدرجة أصبح الرجل مستلباً. وتصل هذه الحرب الهزلية إلى ذروتها في النكتة التالية: «توجّه وفد تجاري من ألمانيا الديمقراطية إلى أفريقيا على متن طائرة. في الطريق حدث هبوط اضطراري. وفجأة ظهر من الأدغال زنوج همجيون وأسروا أفراد الوفد، واقتادوهم إلى القرية. هناك تملّى زعيم القبيلة الأسرى وأعطى حكمه: الجميع لطعام العشاء، فقط هذا نتركه حراً!. سأله الزنوج: ولماذا؟. أجاب الزعيم: هذا زميلي في كلية الاقتصاد من جامعة هومبولت في برلين الشرقية!»[١٠٥].

أما فيما يخصّنا نحن العرب و/ أو المسلمين (حيث يختلط المفهومان لديهم)، فليس بين أيدينا مصادر عن النكات التي يتناولنا بها مواطنو الغرب (أوروبا وأمريكا). هناك مؤلّفان نستطيع أن نسدّ بهما هذه الثغرة، من الناحية المعرفية: «في الأفلام والتلفاز يرتبط العربي إما بالفسق أو بالغدر والخديعة المتعطشة للدم. ويظهر منحلاً، ذا طاقة جنسية مفرطة، قديراً، دون شك، على المكيدة البارعة والمراوغة. لكنه، جوهرياً، سادي، خؤون، منحطّ، تاجر رقيق، راكب جمال، صرّاف، وغد متعدد الظلال: هذه بعض الأدوار التقليدية للعربي في السينما... وفي أشرطة الأخبار، أو أشرطة الأخبار المصورة، يظهر العرب دائماً بأعداد ضخمة، لا فردية، لا خصائص أو تجارب شخصية. وتمثل معظم الصور الهيجان والبؤس الجماعيين، أو الإشارات والحركات اللاعقلانية (والشاذّة حتى اليأس، بالتالي). وخلف هذه الصور جميعاً يتربّص خطر الجهاد المهدد. والعاقبة: الخوف من أن

(١٠٣) الموعد، العدد ٩٥٦، تاريخ ١٢/٣/١٩٨١، ص٦١.

(١٠٤) ليكسفيلد، ص٢٠.

(١٠٥) المصدر السابق، ص٢١.

المسلمين (أو العرب) سوف يحتلون العالم»[١٠٦]. هذا مما كتبه ادوارد سعيد عن الاستشراق الآن، بالأحرى عن صورة العرب في وسائل الإعلام الغربية.

وتبين دراسة أخرى عن صورة العرب في الصحافة البريطانية والأمريكية في فترة ١٩٦٧ - ١٩٧٣ أنه كان «أغلبية رسامي الكاريكاتير يميلون إلى مهاجمة العرب، إما صراحة بالحطّ من مكانة زعمائهم، أو ضمناً. والصفات الرئيسية المنسوبة للعرب التي تتخلل الرسوم هي الاعتدائية والعناد والسخف والإرهاب». «هذا، وقد حافظ رسامو الكاريكاتير لفترة حرب ١٩٦٧ وما بعدها على الصورة القديمة الموروثة عن العرب بصفتهم متخلفين، برابرة، «كفاراً» و«قتلة». «ويجري عرض العرب بشكل سائد في الرسوم الكاريكاتيرية، وهم بملابس بدائية وعليهم سمات الأوغاد الشريرين الكريهين والمنفّرين، أما صورة الإسرائيليين فهي على العكس من هذا. فالإسرائيلي يُصور دائماً وهو بملابس غربية وملامح غربية»[١٠٧].

من ناحيتي أستطيع أن أضيف نقطة إلى ما ذكره المصدران السابقان، وهي أن الغربيين لا يهتمون بنا أو بغيرنا إلا بقدر ما يمسّهم، يمسّ مصالحهم ويجري ضمن تيار ثقافتهم. إن العربي الذي يعيش في أوروبا أو أمريكاالشمالية يستغرب كم هم يجهلوننا، بل إن الإنسان العادي عندهم بالكاد يعرف شيئاً عنا. ومما يدخل في هذا الإطار هذه النادرة: «في عهد الانتداب الفرنسي اعتادت إحدى الجرائد الدمشقية أن تتبادل أعدادها مع جرائد فرنسية. وكان قصد صاحبها أن يجعل جرائد تلك البلاد تطلع على قضايا بلادنا تحت الانتداب. وبعد زمن طويل كان ما نقلته إحدى الجرائد الفرنسية عن الجريدة الدمشقية المذكورة خبر عن قرار المجلس البلدي

---

(١٠٦) ادوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط٢، بيروت ١٩٨٤، ص٢٨٧.

(١٠٧) حلمي خضر ساري: صورة العرب في الصحافة البريطانية، مركز دراسات الوحدة، بيروت ١٩٨٨، ص١٠٩، ١١١، ١١٤.

بإعدام الكلاب في المدينة!»(١٠٨). وأنا شخصياً سئلت مراراً من الألمان إبان إقامتي في ألمانيا في الستينات: «هل توجد في بلدكم أشجار؟ – هل عندكم سيارات؟ - هل تملك بئر نفط؟ - هل تلبسون هكذا في وطنكم؟... الخ». يظنوننا بدواً في صحراء نركب جمالاً ونملك بئر نفط أمام الخيمة!. وهم عموماً مسرورون بهذه الأكاذيب، ويتمنون أن تكون صحيحة.

بعد هذا، لننظر بالمقابل كيف تتناول النكتة المتناقلة عربياً الإنسان الغربي وحضارة الغربي (في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية). نحن نعلم أن الشك بالغريب والحذر منه هما الحالة الاعتيادية لدى الجماعات البشرية عموماً. يقول مثل شعبي عربي: «لا تأمن العقرب، ولا الأجنبي إذا استعرب»(١٠٩). ويقول مثل آخر: «صابون ما عملت، وأجنبي ما شاركت، ليش لكن خسرت؟!»(١١٠). فكيف يكون الشعور، وكيف يكون الموقف، إذا كان هذا الغريب أو هذا الأجنبي معروفاً ومجرّباً بممارساته المعادية لنا نحن العرب: «كان الحديث يدور حول المعونات الأمريكية بمناسبة تصريح وزير خارجية أمريكا الأخير، وذلك بحضور سلطان باشا الأطرش. فأخذ أحد الحاضرين... يتحدث عن عطف الأميركان على العرب، وعن مساعداتهم التي تدل على هذا العطف. فاستلم الكلام الباشا وقال: حكي أن لحاماً أخذ خاروفاً ومدّه على الأرض ليذبحه. وكان هذا اللحام مرهف الحس، رقيق القلب، فترقرقت دمعة في عينيه. وكان خاروف آخر إلى جانب الخاروف الممدد على الأرض للذبح. فقال له: انظر إلى هذا اللحام، ما أرقّ قلبه، فإن الدمعة تترقرق في عينيه!. قال له الخاروف الثاني: لماذا تنظر إلى الدمعة في عينيه ولا تنظر إلى السكين في يديه؟!»(١١١).

«عندما كان الانكليز ينشئون سكك الحديد الصحراوية في السودان، أبرق انكليزي من ملاحظي العمل إلى المركز الرئيسي يقول: توفي أحد

(١٠٨) ملخص عن: المضحك المبكي، العدد ١٨٣، تاريخ ١٩٣٣/٨/٢٦، ص٤.
(١٠٩) جمانة طه، ص٢١٠.
(١١٠) شيخاني، ص٤٣٢.
(١١١) المضحك المبكي، العدد ١٠٢٥، تاريخ ١٩٦٣/٦/١٦، ص٢٤.

العمال أثناء العمل، فما هي تعليماتكم؟ وجاء الردّ في الحال: ادفنوه بعد التأكد من موته تماماً. وفي اليوم التالي أرسل الملاحظ الانكليزي إلى رئيسه برقية: دفنا العامل بعد أن تأكدنا تماماً من وفاته، فقد ضربناه حتى تهشمت جمجمته ولم يشعر بشيء!»[١١٢]. «أحد المرابين الأجانب لقي بعض الفلاحين في يوم شديد البرد. واسترعى نظر أحدهم أنه لا يلبس قفازاً في يديه. فلما قال ذلك لبعض رفقائه، أجابه توّاً، إنه ليس في حاجة إلى قفاز مادامت يداه في جيوبنا»[١١٣]. «أبو علي بيروتي بسطاوي، كان يملك حماراً قبرصياً يشغّله على طنبر في النقليات المحلية. وحدث أن الحلفاء أخذوا أيام الحرب الأخيرة يصادرون الحيوانات لإرسالها إلى الجبهة، فوقع اختيارهم على حمار أبي علي، وصادروه. وقد حاول صاحب الحمار عبثاً أن يقنعهم بإعادته إليه. والتقى بعد يومين بصديق له، فسأله هذا الأخير: وين الحمار، يا بو علي؟ أجاب: يا خال، الحمار انضم للحلفاء!»[١١٤]. «أخذ مبشر انكليزي يعمل جهده ليهدي رجلاً من الهندوس إلى الديانة المسيحية، فلم يوفق. وقبل أن يتركه، قال له: يظهر أنك ما بتحب تروح عالجنة؟! قال له: لا. قال له: عجيب، ما بتحب تروح عالجنة؟ قال له: لا، لأني أعتقد أن الجنة ما هي مليحة. قال له المبشر: عجيب، شوفي عندك برهان على أن الجنة ما هي مليحة؟ قال له الهندي: برهاني هو أنو لو كانت الجنة مليحة، كانوا الانكليز ما تركوها!»[١١٥].

كان هذا أحد منحيي النكتة العربية تجاه الأجانب الغربيين: هم معادون، استغلاليون نفعيون، استبداديون، لا يؤمن لهم. أما المنحى الآخر، وهو الأقوى في العقود الأخيرة، على الأقل من حيث كم النكات وانتشارها، فتقوم فيه النكات بالمقارنة بين «النحن» العربية و«الآخر» الغربي، مبينة مساوئنا ومحاسنهم، مبدية إعجابها بهم وامتعاضها منا، بدعوى الرغبة في

(١١٢) المضحك المبكي، العدد ١٠٢٩، تاريخ ١٩٦٣/٧/١٤، ص٢٣. والعدد ١٠١١، تاريخ ١٩٦٢/١٢/٢، ص٢٣.

(١١٣) الفكاهة في مصر، ص١٠٩.

(١١٤) ظرفاء لبنان، إعداد أنطوان القوال، دار بيسان، بيروت ١٩٩٣، ص١٢٣.

(١١٥) المضحك المبكي، العدد ١٠٥١، تاريخ ١٩٦٣/١٢/٢٩، ص٣١.

أن نصبح أفضل، إنما بتقليدهم أو بأخذهم قدوة أو - على الأقل - الاستفادة من مميزاتهم. إنها عقدة النقص المعروفة في المغلوب، وإنها الموقف المعروف من المغلوب على أمره. في تناولها للغرب، أو بالأحرى للعلاقة بيننا وبين الغربيين، نجد النكتة المتداولة لدينا، تحطّ من قدرنا تجاه أولئك. هي نوع من النقد الذاتي عن طريق المقارنة مع الآخرين باعتبارهم نماذج تحتذى، إذ يبدون في هذه النكات: راقين، فهمانين، مرفهين، متقدمين، متحررين، ديمقراطيين، عمليين، منسجمين مع ذواتهم، صادقين. وتظهر في هذه النكات بعض الأخلاق والممارسات التي يرفضها تكويننا الحضاري، لكن النكات تبررها لهم من خلال الخصال الأخرى الحميدة. بالمقابل تصورنا هذه النكات: متخلفين، فوضويين، جليطين، مكابرين، استبداديين، محرومين، أذلاّء، معقدين نفسياً.

لقد أوردنا سابقاً عدة نكات تشهد بما نقوله. ونضيف الآن: «التقى مرة ثلاثة، أميركي وفرنسي وعربي، أخذ كل واحد منهم يفخر ببلاده. قال الأميركي: نحن عندنا بنايات تنطح السحاب. قالا له: شو هالحكي، ما معقول توصل بناية للسحاب. قال لهما: لأ، تحت بشبر شبرين. وقال الفرنسي: نحن عندنا برج ايفل واصل للسما. قالا له: ما معقول البرج يوصل للسما. قال: لأ، تحت بشبر شبرين. جاء دور العربي فقال: نحن عندنا النسوان بتولد من تمها. قالا له: مستحيل النسوان تولد من تمها. قال: لأ، تحت بشبر شبرين!». «سافر أحدهم إلى الخارج وحضر حفلة تعري (ستربتيز). أثناء العرض كان لا ينفك يدير وجهه جانباً ويردد: تفو!. سأله مرافقه: لماذا تقول تفو، ألا يعجبك هذا؟. قال: بلى، أنا أقول تفو على التي عندي!». «أناس من الدانمارك، عبروا عن معاناتهم من الملل، وأبدوا رغبتهم في أن يعيشوا حياة صعبة ويكسبوا تجارب جديدة. نصحهم أحد العرب: روحوا ع بلاد العرب، بيعيشوكم عيشة كلاب. فذهب هؤلاء إلى بلاد العرب. مكثوا هناك زمناً ثم عادوا إلى بلادهم. سألوهم: كيف شفتوا بلاد العرب؟ أجابوا: عيّشونا عيشة كلاب، بس ما خلونا نعوّي!».

«واحد لبناني مات. ولأنه لبناني لازم يدخل جهنم. خيّروه بين جهنم الأميركية وجهنم اللبنانية. سألهم: كيف جهنم الأميركية وكيف جهنم اللبنانية؟ قالوا: بجهنم الأميركانية تقعد على الكرسي الكهربائي، وبجهنم اللبنانية تقعد على الكرسي الكهربائي ويقوم جلاد بضربك بالكرباج. قال: لا والله، جهنم الأميركانية أحسن. دخل إلى جهنم الأميركانية، فذاق الويلات من عذاب الكرسي الكهربائي. فطلب منهم أن يأخذوه إلى جهنم اللبنانية، حيث يتعذب بين أهله. ودخل إلى هناك فوجد الناس تدق وترقص. قالوا له: مليح انك اجيت لهون، الكهربا دائماً مقطوعة، والجلاد بيجي الصبح بيوقع وبيمشي!». «سافر اثنان من العرب إلى فرنسا. هناك أرادا تناول الطعام، لكنهما ما كانا يعرفان الفرنسية. فقال أحدهم للثاني: لا يهمك، أنا أسمع الفرنسيين يضعون في نهاية كل كلمة مقطع (وته). وذهبا إلى المطعم، وطلبا رزوته ولحموته وسلطوته. فجلب لهم النادل رزاً ولحمة وسلطة. هنا قال الأول للثاني: أرأيت أني أعرف الفرنسية. فقال لهما النادل: لو ما كنت أنا عربوته، كنتم أكلتوا خروته!». «مر أحدهم بصديق له ومعه ابنته، فسأله: لفين آخد البنت؟ قال له: عالمدرسة. قال له: شو ناوي تعلمها؟ قال: رايح أعلمها لغة فرنجية. قال له: فرنساوي لما انكليزي لما ألماني؟ فحكّ الأب رأسه قليلاً ثم قال: ماني عارف، هلي فيها فرنجي أكتر!»[116]. ومن مفارقات الواقع الثقافي في سوريا، أن أحدهم زار فناناً مشهوراً ورآه يرسم لوحة. وحدث أن أرسلت هذه اللوحة إلى ايطاليا للاشتراك في معرض رسم. في المعرض علقت اللوحة بالمقلوب، ونالت جائزة. وعندما استعاد الفنان لوحته، أبقى على تعليقها بالمقلوب. فقال له الصديق إياه: أنا رأيتك ترسمها، وهي الآن بالمقلوب. فردّ عليه الفنان: شو أنا أفهم من الطليان؟!».

من النكات المذكورة آنفاً وسابقاً، والتي تتناول علاقتنا بالغرب، يظهر بوضوح الإعجاب بالغرب وحضارة الغربيين، إعجاب الخادم بسيده. وهذه أكبر قوة معنوية يملكها الغرب في صراعه معنا. بالتعبير العامي يقال، إنهم

(١١٦) المضحك المبكي، العدد ١٠٤٤، تاريخ ١٩٦٣/١١/١٠، ص٢٧. العدد ١٠٢٦، تاريخ ١٩٦٣/٦/٢٣، ص٢٣.

ضبعونا، أي هيمنوا علينا داخلياً. بالتالي يستطيعون التحكم بنا أفضل بمساعدة هذه الهيمنة الداخلية. ويقول العامة، إن الضبعة تفسي على الإنسان في البرية، فيصيبه ما يشبه التنويم المغناطيسي، فتراه ينقاد لها دون إرادة ودون وعي إلى حين تفترسه. في هذا الباب تدخل «عقدة الخواجة»، التي ذكرها الرميحي. بالطبع، الروح الشعبية التي تكمن وراء هذا الموقف وهذا الشعور ليس دافعها ولا غايتها الخضوع للغرب. هذه نتيجة لم تردها ولا تتوقعها. الغاية تربية الذات الجماعية والتخفيف من الأسى لحالها. غير أن الفاصل شعرة بين هذه الغاية وبين التجريح المازوخي للذات، الذي يصبّ في مصلحة الغير المعادي. يجب أن ننقد أنفسنا، ولكن ما من ضمانة لأن لا يكون هذا النقد تبجيلاً للغير: «سأل رجل بائع ساعات عن أحسن ساعة عنده، فقال له: لك أن تختار، هذه بألف ليرة وهذه بعشرة آلاف. سأله: ما الفرق؟ قال: تلك التي بألف إما أن تقدم دقيقة أو تؤخر دقيقة في كل أسبوع، ذات العشرة آلاف إما أن تقدم ثانية أو تؤخر مثلها ولكن في الشهر. قال المشتري: إذا كان عندك واحدة بمئة ليرة، هاتها!، فنحن في بلدنا، مانزال نتواعد بين الصلاتين!»(١١٧). مع ذلك لا يمكن أن نمنع تماماً ودائماً السخرية من الذات، فما هي إلا تعبير عما هو في الصدور. ومجرد منعها لن يُصلح، بل بالعكس يُعيق الوظيفتين التربوية والتنفيسية للنكتة، دون أن يفيد فعلاً الوظيفة العصبوية. والوظيفة التنفيسية ايجابية هنا، لأن المساوئ كالجراثيم لا تناسبها الحياة في الهواء الطلق تحت الشمس الحارقة في متناول الجميع.

قد يجد بعض القراء في تقييمي للنكات التي تجمعنا مع الغرب بعض المبالغة أو ربما بعض الشطط. لكنه سيكون على الأرجح أكثر تقبلاً لهذا التقييم، بعد أن يتمعّن في النكات التي نلتقي فيها مع شعوب أخرى (غير غربية). هنا، خلافاً لهناك، توكيد للذات، شعور بالتفوق، هجوم أو دفاع هجومي: «أحد زعماء مصر أراد أن يوقع اتفاقاً مع رئيسة وزراء الهند. قال لها: نريد وحدة. قالت: موافقة بشروط. قال: ما هي؟ قالت: أن يبطل

(١١٧) نجاة قصاب حسن، في: البعث، تاريخ ١٩٩٣/٨/٧، ص١٢.

الشعب المصري كلمته المشهورة (فاكراني هندي؟). قال: هذا سهل. وأرسل قراراً في البلاد يمنع الكلمة نهائياً، وألغيت من قاموس اللهجة المصرية. قالت: والشرط الثاني أن الشعب المصري لديه شيء من الكلام كشتيمة الأم بموضوع عفتها، لا أريد هذا، أبطله أيضاً. قال: واجب. وأصدر قراراً آخر بمنع الشتيمة المذكورة. قالت: بقي شرط أخير. قال ما هو؟ قالت: أن أكون أنا رئيسة الاتحاد الهندي المصري. قال: نعم؟، فاكراني هندي؟! كذا وكذا لأمك!»(١١٨). وتثير لغات الشرق الأقصى الضحك لدى المواطنين العرب، فيسأل أحدهم الآخر: «هل تعلم كيف يسمّي الصينيون أولادهم؟ - يرمي الواحد منهم طنجرة على الأرض، ويسمي ولده بحسب الصوت الذي يصدر عن الارتطام!».

وتكثر النوادر التي تتناول الأتراك، حيث يظهرون متسلطين وجهلاء ومدّعين. ولا عجب، فقد كان لنا معهم تاريخ طويل اختلط فيه الحلو بالمر، والعداء بالإخاء، لكن في التقييم الأخير يبدو أنه أبعد العرب مع الأتراك عن المسيرة الحضارية للعالم:

«صدر في أيام الأتراك أمر عن الشرطة المسماة في حينها «ضابطية»، بألا يمشي واحد ليلاً إلا ومعه فانوس. وصادفت دورية من الضابطية اثنين يمشيان بلا فانوس في سوق مدحت باشا (دمشق)، فاقتربت من الأول - وتصادف أن كان من أغنياء آل العظم ووجهائهم - فسألته: نيرده فانوس؟ (أي بالتركي: أين الفانوس؟). فأجابهم بعظمة وغطرسة وهو يدقّ على قفاه: اشتا (أي: هذا هو). وأدركت الدورية أنه ما تكلم هكذا إلا لأنه من الكبار الذين لا يخافون، فالتفتت إلى مرافقه الذي كان وراءه (وهو من الظرفاء)، فسألته: نيرده فانوس؟ فأجابهم على الفور: أنا ماشي على ضو البيك!»(١١٩). «يروى عن تركي أنه تقاعد بعد

(١١٨) حمق المثقفين، تأليف نهاد عباسي، مطبعة كرم بدمشق ١٩٨٦، ص١٥٣ - ١٥٤. مع بعض التعديل الضروري.
(١١٩) حديث دمشقي، ص١٣١.

«سفريرلك» وأحب البقاء في بلاد العرب. ولما أحسّ بالفراغ وبأن عمل الإنسان هو الدائم والعمر يتلخص بسنوات معدودة، فقد قرر أن يتوارث الناس ذكراه. افترش الأرض، بعد أن اشترى عدداً من أباريق الفخار المتشابهة، ووضع فيها ماء عذباً يملؤها من بيته ويحملها إلى المكان الذي اختاره، وجعل منها سبيلاً لوجه الله لكل ظامئ. إلا أنه اشترى أيضاً عصا خيزرانية القوام طويلة. إذا أتى ابن السبيل ماراً من قربه ورأى الأباريق، سأل: للبيع؟ فيرد صاحبنا: لا، للشرب. - إذن ممكن أشرب، يقول ابن السبيل. فيرد عليه: نعم، تفضل وادع لنا. فيمد يده الظامئ لإبريق قريب منه، إلا أن صاحبنا يمد الخيزرانة ويضربه ضرباً خفيفاً على يده ويقول: لا، اترك هذا، اشرب من هذا!»[(١٢٠)].

هكذا يظهر الأتراك متسلطين (بحكم العادة) حتى في عمل الخير. وهذا مثال على التسلط التركي (العثماني) الممزوج بالحماقة: «يروى أن أحد الجنود العثمانيين طلب إلى بدوي أن يحمل على ظهره امرأة عجوزاً، مدعياً بأنها أم ذلك البدوي. ولم يستطع البدوي أن يقنع ذلك الجندي بأن تلك المرأة العجوز ليست والدته، فاضطر تحت التهديد إلى حملها. وعندما استغرب أهله منه ذلك، ونبّهه أحدهم إلى أنها ليست أمه، قال لهم: أنا فهمان، لكن فهّم الآغا!»[(١٢١)]. أما عن جهل الأتراك العثمانيين فيروى الكثير، منه هذه النادرة: «زار مفتي أنقرة مفتي الشام، وكان الفصل شتاء. فجلس المفتيان حول النار يتحادثان. قال مفتي الشام: النار فاكهة الشتاء. فردّ مفتي أنقرة: صدق الله العظيم. ودهش مفتي الشام لهذا الخلط الشنيع بين الأقوال السائرة والآيات القرآنية، لكنه لم يعلق على ذلك. ومرت الأيام وجاء مفتي اسطنبول في زيارة لمفتي الشام، فروى له هذا قصة مفتي أنقرة مع النار. فعلق مفتي اسطنبول: سامح الله أخانا مفتي أنقرة، لم يعرف أن يفرّق بين الآية القرآنية والحديث الشريف!». إذن فالحرب الهزلية بين الشعبين العربي والتركي لم تقتصر على العوام منهما، بل ثمة

(١٢٠) باختصار عن احسان الفرحان، ص٦١ - ٧٠.

(١٢١) سلامة عبيد، ص٥٠.

عدد لابأس به من أمثال النادرة السابقة يشير إلى اشتراك رجال الدين فيها: «كان بعض الأتراك لا يهتمون بأداء الصلاة، بينما كان بعض علماء اليمنيين يجمعون بين صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء. فأراد أحد ولاة الأتراك أن يبكّت عالماً يمنياً، فقال له: ما دليلكم على الجمع؟ فأجابه العالم الفاضل: وأنتم ما دليلكم على القطع؟!»[١٢٢].

وتتهم النكتة العربية الأتراك، إلى جانب التسلط والحماقة والجهل، بالادّعاء الكاذب: «قيل إنه اجتمع في قطار موظف انكليزي وموظف فرنسي وموظف تركي. وأخذوا يتبادلون الحديث، وصار كل واحد منهم يفتخر بأمته وبحكومته وبنشاطها. وأخذ الافرنسي يبرهن على مقدرة حكومته، فقال: إن الشرطة الافرنسية، إذا وقعت في البلاد سرقة، فإنها تكتشف أسرارها في برهة أربع وعشرين ساعة أو أقل. فأجابه الانكليزي ببرودته المعروفة: إن الشرطي الانكليزي يقدر أن يكتشف السرقة، إذا وقعت، بأقل من عشر ساعات، مهما كانت غامضة. وأما التركي، الذي كان يسمع الحديث وهو ساكت، فقد ضحك وقال: أما البوليس التركي، فإنه يقدر أن يعرف السرقة قبل وقوعها!»[١٢٣].

كما هو معروف، فقد اشتركت اللغتان، العربية والتركية، في هذا الصراع الأقوامي: «من الفكاهات التي صاحبت محاولة الأتراك الاتحاديين لمحو الكلمات العربية من اللغة التركية ما شاع عن تأليف جمعية باسم (مكافحت لغت عربيت جمعية سي). وليس في اسمها لفظ غير عربي إلا كلمة سي!»[١٢٤]. «معلم تركي جاء إلى دمشق ليعلّم التلاميذ فيها اللغة العربية. دخل الصف وكتب على اللوح الأسود جملة (البلابل تغرد بالأقفاص)، وبدأ الشرح قائلاً: بلابل يعني بلبللر، تغرد يعني تغريد ايدر،

(١٢٢) ابراهيم الحصراني: الفكاهة في الأدب اليمني، في مجلة: الهلال، عدد آب ١٩٧٤، ص٣٧.

(١٢٣) المضحك المبكي، العدد ٣٣١، تاريخ ١٩٣٧/٦/١٢، ص١٠.

(١٢٤) نجاة قصاب حسن: جيل الشجاعة، ص١١.

بالأقفـاص يعني قفصلرن ايشنده، مفهوم؟»[١٢٥]. بالمقـابل، وكي نكون منصفين، تأثر العرب، وخاصة الموظفون منهم، باللغة التركيـة: «عندما دخل الحلفاء البلاد وجلا الأتراك عنها واستلم العرب الحكم في دمشق، بعث شكري باشا الأيوبي إلى الأقضية والمحافظات برقيات بوجوب إعلان الحكم العربي. وتلقى نافع بك القدسي مثل هذه البرقية باعتباره قائمقاماً وطلب منه أن يعلن ذلك على الأهلين. جلس يقدح زناد فكره، واستطاع بعد تفكير طويل أن يضع البيان التالي ويذيعه على الناس: يا أهالي كرام، حكومة عربية اعلان ايدلمشدر!»[١٢٦].

هـ ـ العصبية تجاه اليهود والاسرائيليين

منذ القديم ثمة نكات عن اليهودي. فهؤلاء الناس الذين يمثّلون في كل مجتمعاتهم أقليات، كانوا يعيشون إلى حد بعيد منعزلين عن بقية جماعات المجتمع المدني، في مجمّعات سكنية خاصة بهم ضمن المدن الرئيسية من كل بلد، ويمارسون مهناً محددة يبرعون بها؛ في بلادنا: خاصة الصيرفة و/ أو الربا، حرف تصنيع الذهب والفضة والنحاس والخشب وغيرها. اختلافهم في الدين عن بقية المجتمع المعني وانعزالهم الاجتماعي ومهاراتهم المهنية وبالتالي دخولهم العالية نسبياً، كل هذا جعل بقية المجتمع ينظر إليهم نظرة سلبية، باعتبارهم عناصر غريبة احتكارية استغلالية مشكوك في نواياها. في كل المجتمعات والبلدان كان وضعهم هكذا، أقل أو أكثر بقليل. وربما كان العرب والمسلمون أكثر الشعوب تقبّلاً لهم وتسامحاً معهم، قبل أن يغتصبوا - كصهاينة - فلسطين. لننظر الآن إلى صورة اليهودي في النكتة، ولنبدأ بالنكتة الغربية (الأوروبية الأمريكية)!.

«عاد تاجر من سفرة طويلة، فعلم أنه في هذه الأثناء توفي واحد من أعزّ أصدقائه. فتوجه على الفور إلى المقبرة كي يصلي على المتوفى.

(١٢٥) المصدر السابق، ص١٢ - ١٣.

(١٢٦) باختصار عن: المضحك المبكي، العدد ١٠٢٢، تاريخ ١٩٦٣/٢/١٧، ص٢.

هناك وجد مكتوباً على شاهد القبر:

هنا يرقد صاموئيل كوهين

إنسان طيب

تاجر أمين

فتمتم: دفنوك في قبر واحد مع رجلين غريبين!»[127]. «لاحظ يهودي بقايا طعام على لحية يهودي ثان. الأول: أستطيع أن أقول لك، ماذا أكلت البارحة؟ الثاني: قل!. الأول: عدس. الثاني: خطأ، أول البارحة!»[128]. «كان متشرد يهودي في طريقه إلى ثري يهودي، فالتقى بمتشرد آخر عائد من عند الثري. فنصحه هذا: لا تصعد إليه، مزاجه اليوم ليس رائقاً، فهو لا يعطي أكثر من غولدن واحد. فرد عليه الأول: بل سأصعد، ولماذا أسامحه بهذا الغولدن، أيسامحني هو بشيء؟!»[129]. «في حديقة بلدية فيينا جلس إثنان من اليهود وتشاكيا اللاسامية. في هذه الأثناء مرّ في الجو طائر وأفلت شيئاً على كمّ موشيه. فقال موشيه منفعلاً: أرأيت، ماذا قلت لك: للغرباء يغرّد!»[130]. «التقى يهوديان: ـ أين كنت في الستة أشهر الماضية؟ ـ كنت مسافراً. ـ ولماذا لم تقدّم استئنافاً؟!»[131]. «قال تاجر يهودي لشريكه: الصبي الذي استخدمته مضمون أنه أمين. ـ ومن أين علمت ذلك؟ ـ وضعتُ عشرين بفنيكاً على طاولة المحل ولم يأخذها. ـ وضعتَ عشرين بفنيكاً؟! ماركان كان عليك أن تضع!. ـ ماذا يعني ماركان، ماركان كنت أنا أيضاً آخذهما»[132]. «كان يهودي يجلس في مقصورة من قطار أمريكي، عندما دخل عليه زنجي. وتناول الزنجي جريدة عبرية وبدأ يقرأ فيها. فمال اليهودي نحو الزنجي وقال له: قل لي، ألا يكفيك أنك زنجي؟!»[133]. «يهودي اضطر للنزوح من موطنه. وطأ الأرض الفلسطينية وزفر قائلاً: منذ ألفي

(١٢٧) ليكسفيلد، ص٢٠.

(١٢٨) فرويد، ص٥٨.

(١٢٩) المصدر السابق، ص٩٢.

(١٣٠) هيرش، ص٢٨١.

(١٣١) المصدر السابق، ص٢٢٣.

(١٣٢) المصدر السابق، ص٢٨٢.

(١٣٣) ليكسفيلد، ص١٩.

سنة ونحن نصلي عبثاً من أجل العودة ـ كان لازم تُستجاب الدعوة لي أنا بالذات؟!»[١٣٤]. «ـ دكتور، ماذا عندك ضد الصهيونية؟ ـ من حيث المبدأ: لا شيء. فقط بعض المآخذ: أولاً، لماذا اخترتم فلسطين دون سواها؟ في الشمال مستنقع وفي الجنوب صحراء. ألم تتمكنوا من إيجاد بلد أفضل؟ ثانياً، لماذا تصرّون على التكلم هناك بلغة ميتة كالعبرية؟ وثالثاً، لا أفهم لماذا اخترتم اليهود دون سواهم، فثمة شعوب أكثر جاذبية!»[١٣٥].

هذه المجموعة من النكات المتداولة غربياً والمأخوذة من مصادر غربية (المانية) رصينة، تبين أن اليهودي ليس طيباً كإنسان ولا أميناً كتاجر (النكتة رقم ١٠٥). وبهذا السوء ينظر اليهودي أيضاً إلى الآخرين، فالأمانة في مفهومه تنتهي عندما يتعلق الأمر بمبلغ محرز إلى حد ما (رقم ١١٠). واليهود موزعون بين متشرد قذر طماع وغني بخيل (رقم ١٠٦ و١٠٧). يضاف إلى التشرد والتسول والقذارة والطمع: الكذب والجنوح (رقم ١٠٩). ففي هذه النكتة يسلّم الأول بأن الآخر يكذب، وأنه لم يكن مسافراً بل مسجوناً. لذلك لا يتوقف عن كذبه، بل يتجاوز ذلك إلى سؤاله، لماذا لم يستأنف الحكم عليه بالسجن لستة أشهر. هكذا تنظر النكتة الغربية إلى اليهودي نظرتها السلبية إلى الزنجي (رقم ١١١). وتشكك في صدق دعوات اليهود للعودة إلى فلسطين (رقم ١١٢). كما تشكك في الوجود الموضوعي للاسامية، وترى أن شعور اليهود بالظلم موهوم أو مبالغ به (رقم ١٠٨). وما الصهيونية في نظرها سوى حركة سياسية اختارت اليهود لأهدافها، لكنها أخطأت الشعب واللغة والوطن اللازمين لذلك (رقم ١١٣). ويمكن أن نورد المزيد من النكات التي تزيد هذه الصورة الغربية لليهودي وضوحاً على وضوح.

خلافاً لذلك لا نجد في مستودع السخرية العربية من اليهود ما يسمح لنا بأن نرسم صورة متكاملة عن اليهودي كالصورة الغربية التي رأيناها آنفاً، ولا حتى بالخطوط الأولية. النكات العربية عن اليهودي تدور بأغلبها

(١٣٤) هيرش، ص٢٨٥.
(١٣٥) المصدر السابق، ص٢٨١.

عن حبّه للمال وما يتبع ذلك من بخل وطمع واستغلال. من نكات البخل: «اشترى عربي ويهودي بطيختين. وبعد أن أكلا واحدة، اختلفا على الثانية. العربي يريد اقتسامها، واليهودي يريدها لنفسه. ثم اتفقا على أن من يكذب أكثر من الآخر، يأخذ البطيخة. قال اليهودي: كان فيه يهودي كريم و... فقاطعه العربي: خلاص، خلاص، خود البطيخة!». «أصيب فلاح يهودي بمرض في عينيه، فذهب إلى طبيب بيطري، وطلب منه أن يعالجه، وذلك إمعاناً منه في الاقتصاد. فوضع الطبيب البيطري في عين الرجل ما يضعه (عادة) في عين الدواب من دواء. فعميت عينه. فلما رفع الأمر للقاضي، قال له: ليس على البيطري من إثم، إذ لو لم تكن حماراً، ما ذهبت إليه!»(١٣٦). ومن نكات الطمع والجشع: «أميركي ذهب إلى اسرائيل وأراد أن يقطع بحيرة طبريا .فقال له اليهودي: مئة دولار حتى أساعدك على قطع البحيرة. فقال الأميركي: أنت مجنون، هذا سعر مرتفع جداً. - أعرف ذلك، ولكن لا تنسى أن المسيح مشى على صفحات هذه البحيرة. - لا عجب في ذلك، إذا كان هذا هو سعركم، لقد كان عليه أن يدبّر نفسه بأعجوبة!»(١٣٧).

من ملامح اليهودي، كما تصوره النكتة، إلى جانب البخل والطمع، الاحتيال: «قال يهودي لجاره اليهودي: أريد أن أزوج ابنتي، وليس معي سوى خمسين ألف دولار، والعريس يطلب مئة ألف كي يتزوجها. فقال له جاره: ضع المبلغ أمام المرآة، واجعل صهرك ينظر إليه، فيراه مئة ألف دولار، لأن المرآة سوف تريه بدلاً من الرزمة رزمتين. فأجابه والد العروس: الواقع أنني لا أملك إلا المال الذي بداخل المرآة!»(١٣٨). «بلوخ وكوهين كانا تاجري أدوية، الأول ذو شعر كثيف والثاني أصلع. دخل ذات يوم مخزنهما رجل أصلع، وقال لكوهين: هل عندك دواء للصلع؟ قال له كوهين: عندي دوا، ساعة ما يضعه الأصلع على رأسه ينبت شعره. قال له: ولماذا لا تضعه

---

(١٣٦) العربي، العدد ٨١، آب ١٩٦٥، ص١١٦.

(١٣٧) الموعد، العدد ٦٦٩، تاريخ ١٩٧٥/٧/٣، ص٥٦. موجودة أيضاً في: رحلة مع الظرفاء، ص١٦٠ - ١٦١.

(١٣٨) الموعد، العدد ٨٥٥، تاريخ ١٩٧٩/٤/٥، ص٥٣.

أنت؟ قال: لأني أنا لا أعمل بروبوغندا لهذا الصنف من الدواء، ولكن شريكي بلوخ يضع منه!»[١٣٩]. «تقابل يهوديان بعد فراق ثلاثة أعوام، فقال ليفي: أهلاً بصديقي سلمون، ما هذه الأناقة، هل ورثت ثروة؟ فأجاب سلمون: لا ميراث ولا إرث، أنت تعلم، يا ليفي، أن هناك نوعين من الناس: ناس ذوي خبرة، وناس ذوي مال، وفي يوم قابلت شخصاً عنده الكثير من المال، ولكن بدون خبرة، فاشتركنا معاً، أنا بخبرتي، خبرة ثلاثة أعوام، وهو بماله. ـ وما الذي حدث؟ ـ أنت ترى النتيجة اليوم، أصبح زميلي يملك خبرة ثلاث سنوات، وأصبحت أنا أملك الكثير من المال!»[١٤٠].

بين البخل والطمع والاحتيال وشائج قربى، الأساسي فيها هو عبادة اليهودي للمال، كما تصوره النكتة. في سبيل المال يهون كل شيء، حتى الصداقة: «حملوا لاعب تنس يهودي إلى المستشفى وطلبوا من طبيب الطوارئ إجراء عملية مستعجلة له. وسأل الطبيب: ما به؟ قالوا: بلع الطابه. ـ وهذا الذي يقف هنا وفي يده المضرب؟ ـ هذا صاحب الطابه، ناطرك تشيلها من بطن رفيقه حتى ياخدها!»[١٤١]. أما ما يسميه العرب «شرف البنت» فلا أهمية له عند اليهود: «رأى يهودي ابنته خارجة برفقة شاب وهما يتباوسان في الشارع. فاندفع إليهما وقال للشاب بغضب: شو هالعيب، ما عندك أخلاق، ما عندك شرف، ما عندك بيت؟!». هكذا في نظر النكتة. على هذا الأساس، من الطبيعي أن يكون الربى مهنة مفضلة عند اليهود: «أثناء الطريق في القطار أخذ بضعة أشخاص يقتلون الوقت في أحاديث مختلفة. ثم أخذوا يبحثون عن أعظم مخترع في العالم. فهذا كان يقول إن أعظم مخترع هو أديسون، وهذا كان يقول هو مورس... وكان يهودي يقرأ جريدة ويسمع الحديث. فالتفت إليه أحدهم وقال له: وأنت رأيك، يا بيك، مين هو أعظم مخترع؟ فهز برأسه وقال: أنا برأيي هلي اخترع (الفائظ) هو أعظم مخترع وأكثرهم ذكاء ونباهة!»[١٤٢].

(١٣٩) المضحك المبكي، العدد ١٧٦، تاريخ ١٩٣٣/٧/٨، ص١١. بروبوغندا: دعاية.

(١٤٠) العربي، العدد ٨١، آب ١٩٦٥، ص١١٦. واردة عن أحد خريجي التجارة، في: الاثنين والدنيا، العدد ٦٨٤، تاريخ ١٩٤٧/٧/٢١، ص٢٢.

(١٤١) الشبكة، العدد ١٢٠٤، تاريخ ١٩٨١/٣/٩، ص٦٨.

(١٤٢) المضحك المبكي، العدد ٢٤٠، تاريخ ١٩٣٤/١/٢٦، ص١٥. مع بعض الاختصار.



ويسخر العرب في نكاتهم المتناقلة من التحجّر العقلي لدى اليهود، الذي لا ينفع معه لا منطق ولا حقيقة ولا واقع عياني، فيضرب به المثل: «تأسست في باريز شركة سوكرتاه (ضمان) كاثوليكية. وكان جميع عمالها ومستخدميها من الكاثوليك، ما عدا واحد منهم كان يهودياً، ولكنه ماهر جداً وخبير بهذه المهنة. وقد حاول كثيراً مدير هذه الشركة أن يحمل هذا اليهودي على التنصّر واعتناق مذهب الكثلكة، فلم يقبل. وأخيراً أقنعه أن تنصّره سيكون سبباً في بقائه وترقيته، وإلا فليس أمامه إلا الطرد... وقال له: عليك أن تذهب إلى الدير وهناك يعمّدك الخوري بماء روح القدس ويصلي عليك، فتتحول حالاً من يهودي إلى نصراني. وذهب الرجل إلى الدير، ومكث فيه بضعة أيام، ثم عاد إلى المدير الذي استقبله بكل حرارة وسأله: هل تنصّرت؟ فأجابه: كلا. قال له: إذن، ماذا فعلت هناك؟. قال له: سوكرت الخوري!»[١٤٣]. من كل ذلك تصل النكتة إلى نتيجة قاسية جداً، وهي أنه لا فائدة ترجى من اليهودي: «استأجر أحد الزحليين الذين استوطنوا كاليفورنيا زورقاً للنزهة. وكان رفيقه شاباً قصير القامة. فسأله الزحلي عن مذهبه. أجاب بكل جرأة: أنا يهودي. قال الزحلاوي: هل تؤمن بالعذراء؟ أجاب اليهودي بالنفي. فلم يتردد الزحلي من أن يمسكه من يديه ويغطسه بالبحر حتى منتصفه، ثم رفعه وكرر عليه السؤال: هل تؤمن بالعذاراء؟ فأصرّ اليهودي على عدم إيمانه. أخيراً أمسكه الزحلي وغطسه كاملاً في البحر، فإذا باليهودي مذهول خائف، وإذا هو يجيب: الآن أصبحت أؤمن بالعذراء. فغطّسه الزحلي مرة أخرى وهو يقول: إذن، موت مؤمن!»[١٤٤].

من الواضح أن بعض هذه النكات والنوادر مقتبسة عن مصادر أجنبية (على الأقل: لاعب التنس، السائح الأميركي، الشركة الكاثوليكية...). ولكن هذا ليس أساساً في إطار حديثنا السابق،لأننا كنا نبحث عما هو متناقل بين الناس بغض النظر - مبدئياً - عن منشئه. وأن تتناقل جماعات بشرية

---

(١٤٣) المصدر السابق، العدد ١٠٣٤، تاريخ ١٩٦٣/٩/١، ص٣١. سوكرت الخوري: أمّنت عليه (لدى الشركة).

(١٤٤) حنكشيات، ص٥١.

مختلفة النكات نفسها أو شبيهاتها عن فئة معينة، فهذا يعني أن صورة هذه الفئة متماثلة أو متشابهة لدى الجماعات المذكورة. التماثل الجزئي أو التشابه واضح من مقارنة النكات المتداولة عربياً والأخرى المتداولة أوروبياً عن اليهودي، مع التأكيد على ما ذكرناه سابقاً، وهو أن الصورة الغربية أكثر بشاعة وأكثر وضوحاً وتفصيلاً في هذه البشاعة. في بعض الأمثال الشعبية العربية يذكر اليهودي بوصفه مستضعفاً ذليلاً: «يهودي وقبضاي؟!»، هذا من قبيل النفي والاستنكار طبعاً. يقول مثل آخر: «ضربوا اليهودي بطوس لبن، قال: من زمان مشتهيه!»(١٤٥). ربما أمكن فهم هذين المثلين على أنهما نقد لما يتصف به اليهودي - برأي قائليهما - من ضعف ومذلة. على أية حال، وكيفما فهمنا المثلين، فلا هما ولا النكات العربية الأخرى تحمل تلك النظرة الاحتقارية لليهود كالتي وجدناها في السخرية الغربية، فيما يخصّ القذارة والتشرد والتسول والنفاق واللصوصية والإجرام...

إنني أرى أن الغرب دعم - بصورة غير مباشرة - بعد اغتصاب فلسطين ذخيرتنا من النكات التي تستهدف اليهودي، أكثر مما فعلنا نحن له. أثناء تجميعي لمواد هذه الدراسة فوجئت شخصياً بقلة النكات التي يتقاولها عرب فلسطين عن اليهود، وبمحدوديتها، فبالكاد تزيد عن القليل (نسبياً) الذي يتقاوله العرب الآخرون الأقل احتكاكاً باليهود. هل يعقل أن نكون ضعفاء في سلاح السخرية كما نحن في الأسلحة النارية؟! وإذا كان استيراد الأسلحة النارية تعيقه التكاليف العالية ومناوأة العدو وأصدقائه، فإن سلاح السخرية مشاع لمن يترجم، إن عجز أو قصّر عن التأليف. لا، بالتأكيد لا يعود سبب التقصير - إن كان ثمة تقصير - إلى ذلك، بل يبدو لي أن العرب ربما كانوا الآن أكثر كرهاً لليهود، ربما لأنهم يماثلون بينهم وبين المغتصبين الصهاينة (Identification) ، لكنهم لا يحتقرونهم بتاتاً كما يفعل الغرب الذي يدّعي إنصافهم. لننظر مثلاً إلى هذه النكتة العربية، ألا يظهر فيها اليهودي محتالاً مثل أي شاطر مصري أو بغدادي؟!: «اصطاد غلامان غراباً وصبغاه وصعدا إلى إحدى السفن ليبيعاه كببغاء. فقابلا

(١٤٥) الخليلي، ص٦٢.

رجلاً يهودياً، اتفقا معه على خمس ليرات ثمناً للبغاء. ودفعها لهما وعندما تحركت السفينة نادى أحدهما لليهودي قائلاً: لما يغنّي الببغاء، ابقى خبّرنا!. فرد عليهما اليهودي وقال: وانتوا لما تقدروا تصرفوا الخمس ليرات هلي أعطيتكم ياها، ابقوا قابلوني!»(١٤٦).

من زاوية نظر أخرى يثير الانتباه أن فحوى النكات الغربية عن اليهودي تناقض الايديولوجيا الغربية المعلنة حالياً، الرسمية وغير الرسمية، تجاه اليهود والاسرائيليين، كما هو واضح من السياسة الغربية وكما بيّنا نقلاً عن ادوارد سعيد وحلمي ساري. ومن الضروري أن أشير إلى أن المصادر الغربية التي استقيت منها النكات ضد اليهود لم يكتبها أناس معادون بالضرورة لليهود أو لاسرائيل، بل العكس هو الأرجح، إنما هم يعرضون الواقع، أي ينقلون ما يتداوله أو ما كان يتداوله الناس هناك حول اليهودي. على هذا الأساس يكمن التناقض بين الثقافة الشعبية من جهة وايديولوجيا الساسة والمثقفين من الجهة الأخرى. وهو في نفس الوقت تناقض بين مشاعر الماضي ومشاعر الحاضر، باعتبار أن مشاعر الماضي إما مسجلة أو مازالت تختزنها في النكتة. هذا يتفق مع حقيقة أن هؤلاء الغربيين الذين دعموا الصهيونية ومكّنوا من قيام اسرائيل وحفظوا وجودها اقتصادياً وعسكرياً، كانوا بعامتهم قبل قيام اسرائيل أعداء لليهود. هنا تكمن المفارقة: فالأوروبيون الذين كانوا على الدوام يشعرون بأن مواطنيهم اليهود غرباء عنهم، شعروا بعد أن غادر هؤلاء اليهود إلى فلسطين بأنهم منهم أو مثلهم. وهم مخطئون في الأول، محقون في الحالة الثانية، وفي كلا الحالتين صادقون في مشاعرهم النفعية، لأنها في الحالتين تعبّر بصدق عن مصالحهم. هذا هو النفاق الذي سيودي بالغرب في يوم من الأيام!:

يقول مايكل آدامز، «إن التصوير الصحفي للعرب وعرضهم بصفتهم «الآخرين»، والإيمان بأن اليهود ينتمون «إلينا»، نحن الغربيين، قد خلق حواجز نفسانية صلبة، يصعب على العرب اختراقها لعرض آرائهم». وفي

(١٤٦) المضحك المبكي، العدد ٢٤١، تاريخ ١٩٣٥/٢/٢، ص١٤.

محادثة له مع قسيس تابع لكنيسة انكلترا عن نزاع الشرق الأوسط، قال القسيس: «تعرف، حين يفكر أناس مثلي بالشرق الأوسط، يبدو لهم اليهود، نعم، مثلنا تماماً. أما العرب، - وهنا توقف بحثاً عن الطريقة الصحيحة للتعبير عن نفسه، ثم قال - أما العرب فيبدون شيئاً مختلفاً!»(١٤٧).

في هذا المجال يثير الانتباه أن بعض الباحثين الغربيين يزعم أن اليهود أنفسهم هم على العموم مصدر النكات عن اليهود، فيتحدث عن «النكتة اليهودية» كنوع مميز يغلب عليه السخرية من اليهود(١٤٨). هذا يعني أن اليهود يهاجمون أنفسهم في هذه النكات. بهذا المقياس تعتبر هذه الظاهرة حالة نادرة من التنكيت في التاريخ الثقافي للشعوب. حقاً، إننا نجد لدى كل جماعة بشرية تقريباً مجموعة نكات تستهدف بها نفسها، إما (١) كشكل من التكفير عن ذنب اقترفته سابقاً، والنكتة عندئذ تقوم بوظيفة تطهيرية أو تكفيرية، أو (٢) كنوع من التربية الجماعية لدفع الجماعة إياها إلى إصلاح أمورها غير السويّة،أو (٣) هي لمجرد التسلية والضحك. لكن، في حالة النكتة اليهودية المذكورة، لا يمكن الحديث عن التسلية البريئة، لأن النكات المزاحية تكون بين الأصدقاء، ولا تخلو من المودة. كذلك لا نجد فيها غاية تطهيرية أو تكفيرية، فالآخرون هم المذنبون وهم الظالمون. وبالكاد نستطيع التحدث عن تربية جماعية، لأن هذه النكات اليهودية عدوانية وتيئيسية، فهي لذلك غير إصلاحية، بل عصبوية واضحة. لهذه الاعتبارات أرى أن هذه النكات المسماة «يهودية» والتي تهاجم اليهود دون رحمة، لم تصدر بأي حال عن اليهود من حيث الأصل. فمن يقول عن نفسه هكذا بكل بساطة إنه: لص ومتشرد ومتسول وقذر وبخيل وجشع ولئيم وكذاب ومنافق ونفعي ووصولي... الخ؟!. هذا ما دفع هيرش نفسه إلى الاعتراف بأن المرء يشك أحياناً فيما إذا كانت النكتة مروية من قبيل الدعاية الضد سامية (يقصد: الضد يهودية) أم هزءاً بالذات»(١٤٩).

---

(١٤٧) صورة العرب، ص١١٥.

(١٤٨) فرويد، ص٩٠ - ٩١. هيرش، ص٢٨١ - ٢٨٥. مارتين غروتيان، في: النكتة، إعداد ليكسفيلد، ص٤٠ - ٤١. وغيرهم.

(١٤٩) هيرش، ص٢٨١ - ٢٨٢.

ربما تناقل اليهود هكذا نكات، ولكنهم لا يؤلفونها. أما سبب تناقلهم لها - فيما لو صح ذلك -، فأظنه نفس السبب الذي يدفع الواحد منا أحياناً لأن يضحك (على الأرجح: ضحكة صفراء) على سخرية الآخرين منه، عندما لا يجد - وهو الأضعف - خياراً آخر غير البكاء، بينما الضحك معهم على الذات عدم التأثر بالهجاء الساخر، بالتالي يظهر (الشخص المستهدف) كما لو أن هذه السخرية لا تعنيه وأن النقيصة المتضمنة في النكتة ليست موجودة فيه. هذا نوع من الدفاع الوقائي عن النفس: لا تتعب نفسك وتهاجمني، أنا أهاجم نفسي. ألم يقل العرب: «الاعتراف بالذنب فضيلة»، و«من اعترف بذنبه، فكأن لا ذنب له»؟. بعد هذا (ومن زاوية نظر أخرى) نتساءل: هل يمكن أن تترك الشعوب الغربية، وهي المغرقة في الأصل بعداوتها لليهود، على الأقل منذ اعتناقها للمسيحية، شرف الهزء باليهود والضحك عليهم لليهود أنفسهم؟ وكيف تقصّر تحديداً هنا، بينما تنشط هزلياً في جميع الميادين، بما فيها الهزء من بعضها ومن الشعوب الأخرى؟!.

ويتساءل المرء: لماذا ظهرت هذه «النكتة اليهودية» المازوخية في أوروبا ولم تظهر في الوطن العربي مثلاً أو في بلدان العالم الأخرى؟. يقولون إن «النكتة اليهودية ليست كثيرة القدم، فقد ابتدأت تابعة لموضة التنكيت الأوروبي العامة في بداية القرن الماضي»[١٥٠]. ولكن لننظر إلى هذه النكتة التي سجلها لنا المؤلفون على أنها مأخوذة من مخزون «النكتة اليهودية»: «جاء يهودي إلى حاخام وقدم شكوى ضد تاجر غشّه. أصغى الحاخام إلى شكواه ثم قال له: معك حق. بعد قليل جاء التاجر المتّهم بالغش واشتكى من المشتكي. فأصغى الحاخام إليه ثم قال له هو الآخر: معك حق. وكانت زوجة الحاخام قد سمعت حكمه في الحالتين. فما أن غادر التاجر حتى قالت لزوجها: ليس من الممكن أن يكون الحق مع الاثنين! فهزّ الحاخام رأسه وقال متفكراً: معك حق!»[١٥١]. لا شك أن القارئ قد

(١٥٠) جان مايروفيتش: النكتة اليهودية الأصيلة، مقتطف نشره هيرش، في المصدر المذكور، ص٣٤١.
(١٥١) هيرش: ص٢٢٦.

اكتشف أن هذه النادرة لجحا في الأصل، وقد يكون اليهود اقتبسوها عن تراثه مباشرة أو بصورة غير مباشرة. على أية حال سبق أن لاحظنا تشابه أو تماثل عدد من النوادر والنكات الأوروبية (الحديثة نسبياً) مع نوادر ونكات عربية قديمة. ونورد الآن مثالين آخرين: «في قرية هنغارية اقترف حداد جريمة استحق عليها القتل، لكن العمدة قرر أن لا يحاسب عليها الحداد، بل رجلاً خياطاً، لأن في القرية ثمة خياطين، ولا يوجد سوى حداد واحد!»[١٥٢]. من المعلوم أن هذه ترد في التراث العربي ضمن نوادر قراقوش. «دخل رجل إلى محل حلويات وطلب تورته. لكنه سرعان ما أعاد التورته وأخذ بدلاً منها قدحاً من الليكور. بعد أن شرب الليكور، همّ بمغادرة المحل، دون أن يدفع. لكن صاحب المحل استوقفه، فقال له: ماذا تريد مني؟ ـ عليك أن تدفع ثمن الليكور. ـ لقد أعطيتك التورته بدلاً منه. ـ وهذه أيضاً لم تدفع ثمنها. ـ ذلك لأنني لم آكلها!»[١٥٣]. هذه أيضاً تذكر القارئ العربي ولابد بقصة مشابهة لجحا، مع فارق وحيد هو أن الخلاف يدور هناك حول الملبس، وليس حول الأكل والشرب.

أردت من الأمثلة الأخيرة أن أدعم شكوكي بكون النكات الغربية المصوّبة ضد اليهود ذات أصل يهودي، دون أن أنفي احتمال تناقل اليهود أنفسهم لها أو لجزء منها. غير أن أكثر ما يعزز رأيي هو مقارنة هذه النكات بالنكات الاسرائيلية. المجتمع الاسرائيلي يهودي الهوية، وإذن فنكاته تعبّر عنه عموماً. أما في الغرب فالنكات المتناقلة تعبّر عن عامة المجتمع الغربي، وهو ذو هوية جرمانية لاتينية مسيحية ملكوية (كي لا نقول: رأسمالية) من الناحية الحضارية الثقافية. في اسرائيل نسمع نكات تنتقد الذات، وأخرى تهاجم الآخرين، وفي مقدمتهم العرب. وعندما تنتقد الذات، فإنها لا تقصد عامة الاسرائيليين دون تعيين، بل تخصّ بتهجماتها أشخاصاً معينين أو فئات أو زمراً معينة من المجتمع الاسرائيلي. وهي تفعل ذلك لأسباب مبينة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، تهدف بالتالي إلى

(١٥٢) فرويد، ص١٦٧ – ١٦٨.
(١٥٣) المصدر السابق، ص٤٨.

تصحيح خطأ أو تسوية اعوجاج أو تحسين وضع... وهناك نكات تنتقد الذات دون أن ترحم الآخرين. انظر إلى هذه النكتة التي انتشرت بعد حرب تشرين ١٩٧٣: «تعلم العرب من الجيش الاسرائيلي القتال، وتعلمنا الكذب!»[١٥٤]. فهي تنتقد الإعلام الاسرائيلي، لكنها تبطن أيضاً صفعة للعرب، بأنهم ما كانوا يعرفون القتال وأنهم كاذبون. وهذا شاهد آخر على نقد الذات وفي نفس الوقت ذمّ الآخرين: «أثناء حرب تشرين سأل جندي اسرائيلي: ماذا يفعل هؤلاء العرب (عرب الأرض المحتلة ١٩٤٨)، في حين أننا نموت على الجبهة؟ فأجابه الجندي الآخر: إنهم يتكفلون براحة زوجاتنا في المؤخرة!»[١٥٥].

من النكات التي تستهدف الآخرين: «موشي دايان يدخل صباحاً على رئيس الأركان سائلاً: ماذا نفعل اليوم؟ رئيس الأركان: لعلنا نحتل بلداً عربياً ما. دايان: وماذا نفعل بعد الظهر؟»[١٥٦]. هل لهذه العنجهية مثيل؟ «قال الرئيس الأمريكي جونسون لأشكول: أعطني كتيبتين من الجيش الاسرائيلي لأحل جميع مشكلاتنا في الشرق الأقصى. أشكول: كتيبتان؟ كتيبة واحدة تكفي. جونسون: أنا أعني جميع المشكلات، بما في ذلك الصين الشعبية!»[١٥٧]. ومن النكات التي تهاجم الذات: «ألقيت قنبلة على مجلس الحكومة. قتل الجميع. الخسائر: لا شيء!»[١٥٨]. هذه النكتة تهاجم مجلس الوزراء، والتالية تبدي اعتراضها على اعتماد اسرائيل على المساعدات الخارجية: «بنحاس سابير وصل إلى نيويورك، فالتقى بمتسول، فقذف له فلساً. أعاد المتسول الفلس وقال: من رفاق المهنة لا آخذ نقوداً!»[١٥٩]. الغاية الإصلاحية واضحة في الشاهدين الأخيرين، وكذلك في هذه النكتة التي تعبّر عن الصراعات العصبوية في اسرائيل: «سأل أشكنازي زميلاً له

(١٥٤) النكتة الصهيونية، ص٨٢.
(١٥٥) المصدر السابق، ص٤٢.
(١٥٦) نفس المصدر، ص٣٥.
(١٥٧) نفس المصدر.
(١٥٨) نفس المصدر، ص٣٦.
(١٥٩) نفس المصدر، ص٣٤.

عن الاسفاراديم، فقال له: هم الذين يحاولون أن نكون نحن مثلهم!»[١٦٠]. بخصوص الصراعات العصبوية قال افرايم سيفيلا في كتابه «وداعاً يا اسرائيل»: «إن اسرائيل بلد يختنق، إنها منقسمة إلى عشرات الطوائف الموزعة جغرافياً. فالألمان اليهود في الخالصة، والبلغار في يافا، والكوكاز في اللد والرملة، والبخاريون في شمش. أما اليهود العرب ففي منطقة تسمى ماباروت. كذلك تُطلق على كل طائفة صفة معينة تشتهر بها. فاليهودي التركي يُسمى باليهودي الأكول، واليهودي الروسي بالسكير، واليهودي المغربي بالقذر...»[١٦١].

بالطبع ثمة نكات أقسى من ذلك على الذات، كهذه النكتة التي ظهرت بعد حرب تشرين: «من يخرج الأخير من اللد (أو من البلاد)، فليطفئ النور!»[١٦٢]. أظن أن العقل الباطن وراء هذه النكتة. فيبدو أن الاسرائيليين مقتنعون في قرارة أنفسهم أنهم غرباء عن هذه المنطقة، وأن مصيرهم عاجلاً أم آجلاً هو الرحيل. لذلك فهم يوطّنون النفس هزلياً منذ الآن على هذه النهاية. ربما كانوا في اللاوعي أقل من غيرهم تصديقاً لدعواهم بحق العودة المزعوم إلى أرض فلسطين. العقل الباطن لا يعرف التضليل، ولا يقنعه أن يعيش في فلسطين كل من يعتنق اليهودية، سواء كان عربياً أم سلافياً أم زنجياً أم نورماندياً. فماذا لو كان أو أصبح عدد اليهود مثلاً مليارا أو أكثر؟!. بالمقابل لا يقدر العقل الباطن أن يجاري الصهاينة، وهم بشتى الحجج والوسائل والظروف يطردون أبناء فلسطين العرب الذين ولدوا فيها وعاش فيها أجدادهم منذ مئات، وربما آلاف السنين، ولا يُسمح لهم بالعودة إليها.

إن مفارقات العلاقة بين السلطة الاسرائيلية وعرب فلسطين هي النكتة الصهيونية الحقيقية، التي لا تدع مجالاً للبحث في أصلها، والتي لا

---

(١٦٠) نفس المصدر، ص٦٩.
(١٦١) نقلاً عن المصدر السابق، ص٦٨.
(١٦٢) نفس المصدر، ص٣٤، ٣٦.

يمكن الخلاف بصددها، ما إذا كانت عصبوية معادية لليهود واسرائيل أم هي ناقدة للذات بشكل إصلاحي أو مازوخي، أم أنها عصبوية معادية للغير لدرجة السادية. النكات التالية هي بنت الواقع، مأخوذة مما روته محامية يهودية عن عملها في الدفاع عن متهمين عرب أمام المحاكم الاسرائيلية: «في القدس الشرقية اشترى جورج حزبون جريدة الاتحاد، الناطقة باسم الحزب الشيوعي الاسرائيلي باللغة العربية، وأخذها معه إلى بيت لحم، حيث سلمها للشاب الياس الأعرج ليقرأها. حكم على جورج حزبون بالسجن لمدة سنتين وعلى الياس الأعرج لمدة ثمانية أشهر، ذلك لأن الحزب الشيوعي وجريدته مسموحان في اسرائيل، والقدس الشرقية ضُمت إليها، ممنوعان في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧»[١٦٣]. «أبو طور منطقة مجردة سابقاً، وقعت فيها اشتباكات كثيرة في أيام حرب حزيران ١٩٦٧، مما دفع سكانها إلى النزوح بصورة مؤقتة. عندما عادوا إلى بيوتهم، جاءت الشرطة على الفور وطردت العائلة وقدمتها للمحكمة بحجة أنها تطاولت على أملاك الغير. ذلك لأن الحكم الاسرائيلي كان في تلك الأثناء أعلن أن المنطقة غير تابعة للأردن، وأن البيوت أملاك مهجورة، فتحولت إلى إدارة عقارات اسرائيل وجرى تأجيرها إلى اسرائيليين. صحيفة معريب كتبت عن القضية (في ١٩٦٨/٧/٨) تحت عنوان: نساء عربيات غزون بيتاً يهودياً في أبو طور!»[١٦٤].

«بتاريخ ١٩٧٠/٧/٢٩ حكم على علي نوباتي بالسجن لمدة ١٤ سنة، بناء على اعترافات أخذتها منه الشرطة. ولم يفده الاعتراض بأن الشرطة أخذت إفادته بالتعذيب، فاعترف بأعمال لم يقم بها. من الطريف أنه اعترف في هذه الإفادة بقتل تيسير اللوزي المتهم بالتعاون مع السلطات الاسرائيلية، مع أن القاتل الحقيقي اعتقل وحوكم في المحكمة نفسها!»[١٦٥]. «في إحدى

(١٦٣) بعد التلخيص عن: فيلسيا لانغر: بأم عيني، ترجمة مؤسسة الأرض، دمشق ١٩٧٤، ص٨٦ - ٨٨.

(١٦٤) ملخصة عن المصدر السابق، ص٣٦ - ٣٧.

(١٦٥) ملخصة عن نفس المصدر، ص٢٠٥ - ٢٠٨.

غاراته على جنوب لبنان في ١٩٧٢/٩/١٦ أسر الجيش الاسرائيلي عشرة أشخاص من معسكر فلسطيني، واقتادهم إلى اسرائيل، حيث جرت محاكمتهم. أحدهم لبناني حكم عليه بتهمة حيازة سلاح دون إذن من القائد العسكري (الاسرائيلي). وقد تساءل المحامي: كيف يمكن اختلاق ما هو أسخف من القول إن مواطناً لبنانياً يجب عليه أن يطلب إذناً من القائد العسكري في اسرائيل؟! وهكذا فإن مئات الألوف سيحتاجون لإذن كهذا، من جميع أنحاء المعمورة!»[١٦٦]. «في ١٩٧٣/٣/٢٠ قابلت المحامية في سجن عكا المعتقل صلاح مداح. كان ذنبه أنه لم يش بزميله إلى الشرطة. وقد اعترف بذلك في الحال، لكن ذلك لم يرض المحققين. فضربوه بالهراوات على رأسه، وأفقدوه السمع نهائياً في إحدى أذنيه، وركلوه في صدره، وضربوه في أعضائه التناسلية...، ثم وضعوه في الزنزانة ولم يقدموا له أي إسعاف طبي. كان عليه أن يعترف بالتسلل إلى سوريا، وبإعطاء معلومات وبحيازة سلاح. فقال لمعذبيه: إذا اعترفت في أعقاب التعذيب بأن لدي سلاحاً، وهو كذب، فمن أين آتي به؟ فأجابه المحققون بسخرية: اشتر!»[١٦٧]. - هذه الشواهد الخمسة كافية، بتقديري، من أراد المزيد، فليرجع إلى الأصل.

من هذا الواقع، واقع الاحتلال الصهيوني لفلسطين وتهجير أهلها واضطهاد الباقين منهم وحروب اسرائيل المتلاحقة مع الدول العربية وتوسعها على حساب الأقطار المجاورة لها، من هذا الواقع ظهر نوع جديد من النكات بالكاد نتبيّن فيه الشخصية التقليدية لليهودي أو العربي، بل يظهر لنا فيها الاسرائيلي العسكري العدواني المتغطرس والعربي صاحب الحق المقاوم: «ألقت السلطات الاسرائيلية القبض على فتى فلسطيني يرمي الجنود الاسرائيليين بالحجارة. سألوه: من حرّضك على ذلك؟ قال لهم: أخي محمد. ذهبوا إلى أخيه محمد في البيت، فوجدوه طفلاً لا يتجاوز السابعة من عمره!» (سمعتها في خريف ١٩٨٨). «طيار عربي سوري نفّذ عملية

(١٦٦) ملخصة عن نفس المصدر، ص٤٤٨ - ٤٦٠.
(١٦٧) ملخصة عن نفس المصدر، ص٤٠٧ - ٤٠٨.

انتحارية في عمق الأرض المحتلة ثم أسر. أجرت إذاعة اسرائيل مقابلة معه. سأله المذيع الاسرائيلي: كم صاروخاً تحمل طائرتك؟ أجاب: خمسة. قال له: كيف وهي لا تحمل غير أربعة؟! ردّ الطيار: نعم، أربعة، وأنا الصاروخ الخامس!» (خريف ١٩٨٨). «خليلي شحن أثاث بيته في سيارة كبيرة. وعندما وصل الجسر، قال له الضابط اليهودي: ممنوع، يا خبيبي! فسأله الخليلي: ليش، يا خواجه؟ قال الضابط اليهودي: ممنوع إخراج أي شيء من الضفة الغربية إلى الشرقية، بس الأشخاص مسموح لهم بالخروج. عندئذ قال الخليلي: ليش هو جلالة الملك سلّمكم الضفة الغربية مفروشة؟!»(١٦٨).

* * *

في الختام نتوصل من هذا الفصل إلى أن النكات التي تستهدف الجماعات هي نكات عصبوية، تتعصب لجماعة ضد أخرى، بحسب الجماعة التي تتناقلها. وتأتي أهمية هذا النوع من التنكيت من أن الإنسان اجتماعي بطبعه، وأن أية جماعة لا تتكوّن إلا بالعصبية ولا تدوم إلا بدوامها. العصبية هي «النحن» بالنسبة للفرد، ولابد لكل فرد من «نحن» واحدة على الأقل، وغالباً ما ينتمي إلى عدة «نحنوات». فثمة عصبية للأسرة وللمدينة أو القرية وللبلد والشعب، تجاه غيرها من الأسر والمدن أو القرى وتجاه البلدان والشعوب الأخرى. كما أن هناك عصبيات حزبية وطبقية وعرقية ودينية ومذهبية... الخ. في هذه النكات يؤكد ناقلوها على انتمائهم مقوّين تضامنهم وتلاحمهم، من خلال مديح الذات الجمعية والسخرية من الجماعات الأخرى، وخاصة تلك التي ينافسونها، وبالأخص التي يتناحرون معها. في ذلك لا يهمهم أن يكون مديحهم أو سخريتهم حقيقياً أم موهوماً أم كاذباً. لذلك نسميها «اديولوجيا».

هناك أناس يرون منع النكات العصبوية كلياً أو جزئياً، لأنها - برأيهم - توقع بين الجماعات المعنية، وخاصة فيما بين أبناء الوطن الواحد، أو فيما

(١٦٨) نقلاً عن: رشاد أبو شاور، في رواية: الربّ لم يسترح في اليوم السابع، دار الحوار باللاذقية ١٩٨٦، ص٢٧.

بين شعوب صديقة وإلى آخره من الاعتبارات. وأنا لا أرى ذلك، لأن النكتة لا تخلق شيئاً جديداً، بل تعبّر عما هو موجود. النكتة المغرضة تحديداً لا تكون مطلقاً دون أساس موضوعي، بالتالي هي شكل من الصراع الكلامي الذي قد يكون إلى حدّ ما بديلاً للصراع المادي. لقد ذبح النبي ابراهيم كبشاً بديلاً عن ابنه اسماعيل، ولا بأس أن نتخذه قدوة فنرمي عند الغضب الآخرين بالنكات أو الشتائم بدلاً من اللكمات. وإذا كانت الجماعات الأخرى عدوة معتدية، فإن النكتة تلعب دور السلاح المعنوي الممهّد والمحمّس للمقاومة. أما فيما بين جماعات البلد أو الشعب الواحد، فالأصح أن نضحك لسخرية الأصدقاء منا، وأن لا تتعدى سخريتنا منهم حدود الكرامة.

الفصل السادس

التعبيرات والمدلولات الاقتصادية السياسية

حديثنا هنا يدور حول النكتة المغرضة، وهي النكتة التي يريد بها الراوي غرضاً معيناً، وليس مجرد الإضحاك. في البدء نتساءل: عمّ يمكن للنكتة أن تتحدث؟ من أين لها أن تستمد مادة كلامها؟ - إنها مثل التفاعل الكيميائي، ليس بمقدورها أن تخلق شيئاً من لاشيء. كل ما تستطيعه هو أن تتناول شيئاً مما بين يديها لتصنع منه شيئاً آخر. وماهذا الشيء الذي بين يديها سوى الواقع؟ يجب أن نفهم «ما بين اليدين» بالمعنى المجازي، أي الواقع الذي يعيشه الشخص المعني أو يشعر به أو يعقله أو يتخيله... الخ. بعبارة أخرى: ما بين اليدين هو الأشياء المدركة بشكل من الأشكال. أما لماذا تريد النكتة أن تصنع من مواد الواقع شيئاً آخر، فذلك لأن ثمة ما هو غير مرض أو غير مناسب أو غير صحيح... الخ، بالنسبة للشخص المعني طبعاً.

ـ آ ـ

على هذا، كل نكتة مغرضة تنطلق من وضع معين متوجهة إلى وضع آخر، أو تقوم على أرضية معينة لتغادرها متطلعة إلى هدف مغاير. من خلال ذلك تراها تعرض الواقع أو الحال بطريقتها الخاصة، طريقة السخرية أو الهجاء أو التهكم أو الفضح أو التحامق... الخ. فلدى الإنسان

دافع لأن يعبّر عن أحواله، فرحاً أو أسى. أحياناً يقول لنفسه: أنا تعبان، خائف، مزعوج... الخ. كأنه بقوله هذا يطرد التعب أو الخوف من الداخل إلى الخارج، فيقضي بذلك عليه. لا أعلم، إن كان للحيوانات مثل هذه النعمة (أو هذه النقمة): سحر الكلام. على كل، هذا هو المفعول التنفيسي أو التسكيني للكلام، الذي يصيب الشخص المعني ومن هم في مثل حالته، دون أن يؤثر بأي شكل تغييراً في الواقع: «أسعف فلاح إلى المستشفى. وحال وصوله دسّت له الممرضة ميزان الحرارة تحت إبطه، وناولته حبتين دواء. وعندما زاره الطبيب بعدئذ، سأله: والآن، كيف حالك؟ أجاب: هدول الدعابيل ما فادوني شي، بس الماسورة تحت الباط ريحتني كتير!»[1]. «أتى هولندي إلى طبيب. وبعد الكشف عليه، وصف له الدواء. ثم رآه بعد أيام، فقال له: يبدو أن صحتك تقدمت، فلابد أنك استعملت الدواء، واتبعت التعليمات بدقة. فقال المريض: نعم، يا دكتور، فقد كان مكتوباً على الزجاجة «تحفظ الزجاجة مغلقة»، ولأجل ذلك لم أفتحها أبداً»[2].

هكذا، كما ارتاح الفلاح لوضع ميزان الحرارة تحت إبطه، وكما شفي الهولندي من إبقاء زجاجة الدواء مغلقة، كهذا السحر تفعل فينا بعض النكت، فنرتاح لمجرد أن عبرنا بالنكتة أو عبرت النكتة عما يضطرب في دواخلنا، فكأنها خلصتنا منه، دون أن يكون لهذا التعبير أي فعل (تأثيري) على ما كان يضطرب في داخلنا: «مواطن كان يمشي على الرصيف. رآه الشرطي فصاح به: انزل عن الرصيف، يا حمار!. ردّ عليه المواطن بغضب: لا تقول رصيف، هاه!». «في كاريكاتير لعلي فرزات يصرخ مدير في وجه موظف عنده: اطلع برّه!. فيخرج الموظف مذلولاً، وفي الخارج يصرخ قائلاً: ما بطلع!»[3]. لقد كان فعل كلمتي «أنا ما بطلع» و«لا تقول رصيف هاه» على الرجل في النكتة تنفيسياً («فشة خلق»)، وكذلك فعلهما علينا

(١) الطبيب في مرآة العصر، ص١٨٧.
(٢) العربي، العدد ٤٢٦/ أيار ١٩٩٤، ص١٧٤. انظر أيضاً: سعد، العدد ٦٤٦، تاريخ ١٨/١٠/١٩٨٢، ص١٤.
(٣) نشرت في جريدة الثورة بتاريخ ١٩٧٨/٨/٩.

نحن الذين نشاركه ذلك الاضطهاد والذل. بالطبع المفعول الإضحاكي، بالنسبة لنا نحن المتلقين، هو أول المفاعيل وأصلها، طالما أننا نتعامل مع النكتة، فبدونه لا وجود للنكتة التي هي موضوع دراستنا.

هموم الفرد في عصرنا الحديث ثقيلة. وإذا وُجد فرد آخر يشكو له الشخص المعني همّه، فكأن هذا الآخر قد احتمل عنه جزءاً من ذلك الهمّ. قد نشك كلنا أو أكثرنا بالقدرة السحرية للفراغ الهوائي (الخارج) على تبديد التعب أو الخوف أو الانزعاج عنا، لكن النظرة النفسانية لا تشكّ في قدرة جسم آخر، نفس أخرى، كائن آخر على امتصاص الحالة إياها إلى هذا الحد أو ذاك، بصورة مشاركة واعية أو غير واعية. من ذا الذي ينكر عدوى الكلام (كالمرض)؟. نرى إنساناً يبكي بمرارة وهو يشكو، فلا نشعر إلا وقد ترقرقت أعيننا بالدموع واندفعنا نحاول التخفيف عنه. كثيراً ما نفعل ذلك دون تفكير. أما هو، أتراه لم يدرك تأثيره فينا؟ - طبعاً أدرك، على الأقل لاحقاً. وكثير من الناس يكره أن يثير شفقة الآخرين، فيعتبر نفسه عاجزاً، إذ حاول بإثارة الشفقة أن يستدرّ مساعدتهم. بالمقابل هناك أناس يتقصّدون (مسبقاً) إثارة الشعور بالشفقة لدى الآخرين كي يدفعهم إلى فعل المساعدة. على هذا الشعور تقوم مهنة التسوّل من أساسها، ولولا ذلك لما وُجدت. هذا هو المفعول التحريضي للكلام: «راح صبي يبكي عند الشاطئ ويقول: أريد أمي، أريد أمي، أنا ضائع. وفيما هو يطوف بالناس، راحوا يطيّبون خاطره بإعطائه المال والحلويات. فمرّ أحدهم، الذي استوقفه وقال له: أنا أعرف أين أمك، يا صغير. فرد الصغير: وأنا أعرف، اسكت وتابع دربك!»[٤]. وإليكم شاهد على مفعول تحريضي معاكس: «صاح الثري بخادمه: اطرد هذا المتسول من هنا، إنه يقطع قلبي باستعطافه!»[٥].

إذن، قد تأتي النكتة لمجرد بثّ الشكوى، تخفيفاً عن النفس، لأن ما في داخلها لم تعد قادرة على تحمله، أصبح كبيراً لدرجة تتهدد فيه

(٤) بعد تعديل طفيف عن مجلة: سلوى، العدد ١٠٩، ص١٨.
(٥) انظر أيضاً: هيرش، ص٢٦٤.

بالانفجار (يقولون: «فقعت مرارته»). نكتة من هذا النوع ذات مفعول تنفيسي، لأنها تساعد النفس على تحمل المزيد من دواعي الشكوى، المزيد من الاضطهاد والحرمان والاستغلال والإذلال. فهي تقوم في هذا النوع بوظيفة صمام أمان للنظام الاجتماعي وقناة تصريف لطاقة الفرد المشحونة ضد هذا النظام الاجتماعي الضاغط. لذلك يقف المثقفون التقدميون ضد الثقافة التنفيسية، لأنها تسكين وتخدير وبالتالي دعم لمزيد من الاضطهاد والحرمان... غير أنني شخصياً أفضّل - لو أمكن لي الخيار - المفعول التنفيسي، إذا كان بديله الوحيد هو المفعول الانفجاري.

ـ وقد تأتي النكتة باثّة الشكوى، إنما في نفس الوقت محرضة على الفعل ضد مصدر الشكوى أو مسببها، أو على الأقل محرضة على المساعدة لإزالتها. هذا المفعول التحريضي يتجلّى في عدة أشكال متباينة، فمن تحريض على المساعدة للتخلص من نتائج المشكلة، إلى تحريض على حل المشكلة نفسها، إلى تحريض على إزالة سبب المشكلة: ثلاثة مستويات متباعدة، كمن يكافح عرضاً من أعراض المرض الجرثومي، أو يداوي آثار الجرثوم (أي المرض)، أو يقضي على الجرثوم. هكذا يمكن أن تشبه مستويات التحريض.

في إحدى المقابلات معه، قال دريد لحام: «ليس بالفن تنفيس وتحريض. هذان تعبيران اخترعهما منظرو الثقافة أو منظرو النقد في العالم العربي. الفن، إما أن يكون صادقاً أو كاذباً. وأنا أعتقد أنني أقدم فناً صادقاً وليس كاذباً. وأرفض استعمال كلمة تنفيس لأنه اتهام سمج للجمهور. فأنا لا أعتقد أن الناس بالونات تنتفخ في الشارع وتأتي إلى المسرح لتفرّغ عبوتها من الغضب، وبالتالي هذا الغضب ليس حقيقياً، هذا الغضب زائف... أنا أرفض هذا الاتهام، فالفن ليس شرطياً يحرّضك على فعل ما وأنت لا يكمن في داخلك هذا التغيير أو لم تكن تملك أن تبلغ إرادة التحريض. وبالتالي ليس الخلل بالعمل الفني، وإنما الخلل بالشخص الذي يتلقى ولا يحرّض فكره نحو تغيير يبدأ من ذاته. التغيير يجب أن يبدأ من الداخل ويشعّ على المجتمع، ولا يجب أن يكون العكس، أن يشعّ التغيير من

الخارج إلى داخلنا»[٦]. ـ برأيي، المسألة المطروحة ليست مسألة صدق أو كذب، كما أنها ليست تقييماً للجمهور، بل للعمل الفني. ومن الطبيعي أن يبحث الجمهور عما يضحك ترويحاً عن النفس. أما الداخل والخارج فهما هنا شيء واحد في المحصلة. فإذا بدأ التغيير من ذوات البعض (من دواخلهم) ليشع على بقية المجتمع، فمعنى ذلك أن أفراد هذه البقية من المجتمع قد تلقوا تحريضاً من الخارج. ما الغريب في الأمر، والناس منذ الأزل يحرّض بعضها البعض الآخر؟!. إن الأعمال الهزلية التي قدمها دريد لحام، إن لم تكن إضحاكية بحتة، أي تسلوية (كما يغلب على أعماله الأولى المشتركة مع نهاد قلعي)، فهي عموماً من النوع التنفيسي بالمقياس السياسي والايديولوجي. ذلك لأنها متصالحة مع الواقع، موافقة عليه من حيث المبدأ، مختلفة معه حول بعض الصغائر. هي تحرضنا أحياناً (خاصة في أعماله مع الماغوط) ضد هذه الصغائر، غافلة عن أن هذه التي تُضحكنا عليها، ليست في العادة سوى نتاجات ثانوية لذلك الكل الذي يؤيده الفنان دريد في أعماله. على أننا يجب أن نستثني أجزاء من أعمال دريد، وخاصة في الأخيرة منها، كما في تناوله للوحدة العربية في «غربة» و«الحدود» وفي عرضه للفساد في «التقرير» و«الدوغري»، حيث كان تأثيره دعائياً أيضاً. لكن للأسف، يبدو لي أنه بقدر ما يُزيد من فعله الدعائي، يُنقص من فعله الإضحاكي، فكأن التوعية تتعارض مع الإضحاك لديه.

إلى جانب التنفيس والتحريض قد يكون عرض الحال في النكتة يخدم الدعاية (أو الدعاوة). التنفيس هو مجرد التخفيف عن الذات أو الآخرين. أما التحريض فيبغي دفع الآخرين عاطفياً إلى الفعل. وأما الدعاية فغايتها التأثير على الوعي، أي كسب الآخرين للقضية المطروحة. في التنفيس تسكين وتخدير، وفي التحريض تحريك، بينما في الدعاية تبصير (أو تضليل). في التحريض الناجح مشاركة فعالة وسريعة، إنما آنية وجزئية. وفي الدعاية الناجحة تكون المشاركة كاملة تقريباً، بل ربما أنزل الشخص الداعية الحمل بكامله عن كاهله وألقاه على كاهل الآخرين، الذين أثمرت

(٦) أجرت المقابلة رغداء مارديني، في جريدة: تشرين، العدد ١٩٩٤/٥/٨، ص٧.

معهم دعايته، فتبنوا القضية. وهذا هو المفعول الدعائي أو الدعاوي للكلام: «بنت إحدى البلديات جسراً جديداً. قال أحد سكان المنطقة: إذا شئنا صيانة هذا الجسر فلابد من تعيين حارس له. واقترح آخر توظيف محاسب للإشراف على راتب الحارس. وبعد ذلك تعيّن توظيف أمين صندوق. وحين باتت هيئة الجسر تضم حارساً ومحاسباً وأميناً للصندوق اضطرت البلدية إلى تعيين مدير من أجل حسن سير الأعمال. ثم اتخذ مجلس البلدية قراراً بخفض النفقات، مما يعني إنقاص عدد الموظفين. وكانت النتيجة، بالنسبة إلى الجسر، صرف الحارس من الخدمة!»(٧). هكذا أو شبه هذا من البيروقراطية تعمل الحكومات المعاصرة. ـ روى أحد أساتذة اللغة الروسية قصة طريفة عن مكسيم غوركي، عندما كان طفلاً في العاشرة: «طلبت إلى تلاميذي يوماً أن يكتبوا موضوعاً إنشائياً بعنوان: ماذا تفعل لو أصبحت مليونيراً. وعلى الفور أمسك كل التلاميذ بأقلامهم وراحوا يكتبون. أما مكسيم الصغير فقد جلس ساكناً لا يبدي حراكاً. واقتربت منه وقلت: لماذا لا تكتب، إن جميع إخوانك يكتبون؟! وردّ مكسيم على الفور: وهل تتوقع مني أن أقوم بأي عمل، عندما أصبح مليونيراً؟!»(٨).

من الضروري أن نميّز بين غاية النكتة ومفعولها. غاية النكتة هي ما يريده صاحب النكتة منها، هي غرضه من روايتها. أما مفعول النكتة فهو تأثيرها على المتلقين، بغض النظر عن غايتها. المفعول مستقل نظرياً عن إرادة الراوي، قد يتفق مع غايته وقد لا يتفق. فالغاية قبلية، أي موجودة مسبقاً. أما المفعول فهو بعدي، نتبيّنه بعد رواية النكتة، وقد يختلف باختلاف نوعية المتلقين. فإذا اتفق المفعول مع الغاية، عندئذ يكون صاحب النكتة قد حقق مقصده: «تناقش أمريكي وروسي في مزايا كل من الديمقراطية والشيوعية. فقال الأمريكي: إننا نتمتع بأكبر قسط من الحرية، فالواحد منا يستطيع أن يذهب إلى الكابيتول ثم يصيح بأعلى

---

(٧) المختار، العدد ٧٢، تشرين الثاني ١٩٨٤، ص٧٤.

(٨) العربي، العدد ١١٨، أيلول ١٩٦٨، ص٥٥.

صوته: إن الرئيس ايزنهاور أحمق. فقال له الروسي ساخراً: ونحن نستطيع أن نفعل هذا أيضاً، فيذهب من يشاء منا إلى الكرملين ثم يصيح بأعلى صوته، إن ايزنهاور أحمق!»[٩]. مثال آخر: «هل سمعت؟ رصدت البرافدا جائزة لأحسن النكات، الجائزة الأولى: عشرون سنة!»[١٠].

هذان مثالان على الدعاية السياسية، يهاجم فيها صاحب النكتة الاتحاد السوفييتي في زمانه. وما هذه الدعاية سوى ايديولوجيا، لا تعبّر بالضرورة عن الحقيقة والواقع. فعلياً ما كان لأمريكي عادي أن يقول ذلك لايزنهاور وينجو، كما لم يكن بإمكان السوفييتي أن يهاجم حتى ايزنهاور كيفما يشاء. كذلك، عندما يتطلب الأمر، لم يكن موقف ايزنهاور وأمثاله من النكتة أفضل من موقف البرافدا، حسبما نقلت لنا مجلة «المضحك المبكي»: «وكما ينكت الانكليز على الأمريكيين، كان الأميركيون ينكتون على الانكليز. وفي زمن الحرب الأخيرة كان الألمان يكثرون من هذه النكات بقصد الدسّ بين الحليفتين انكلترا وأمريكا، حتى أن الرئيس ايزنهاور كان يمنع تداول هذه النكات ويعاقب من يرددها!»[١١]. لكل من الاتحاد السوفييتي (سابقاً) والولايات المتحدة نظامه في الاستبداد، والحرية الغربية ليست سوى حرية ذوي الثراء والنفوذ وفي حدود مصالحهم. مهما يكن فقد نجح الغرب في تحقيق غايته من النكات الدعائية، فصدّقه المواطن العادي في البلدان الاشتراكية (سابقاً) أكثر مما صدّق هو نفسه: «سأل أحد الأمريكيين الممثل كلود دوفان أثناء وجوده في أمريكا عن معنى ألوان العلم الفرنسي الثلاثة، الأزرق والأبيض والأحمر. فأجاب دوفان: إنها تذكرنا بالضرائب المفروضة علينا، فنحن نتسلم أوراقاً زرقاء، تمتص دمنا الأحمر وتجعل لوننا أبيض. فقال الأمريكي معلقاً: ونحن أيضاً حالنا حالكم، إلا أننا نختلف عنكم في أننا نرى النجوم!»[١٢].

(٩) الهلال، عدد سبتمبر (أيلول) ١٩٥٣، ص١٠٥. رويت فيما بعد عن ريغان وبريجينيف، وفيما قبل عن ترومان وستالين.
(١٠) ليكسفيلد، النكتة، ص٢٥.
(١١) المضحك المبكي، العدد ١٠١٠، تاريخ ١٩٦٢/١١/٢٥، ص٢٢.
(١٢) العربي، العدد ٧٠، أيلول ١٩٦٤، ص١٠٩.

بالإضافة إلى النكات التنفيسية والتحريضية والدعائية هناك نكات لا تبغي شيئاً سوى التسلية، لكنها وبما أنها اقتصادية سياسية، فإنها تقدم - ربما دون قصد - معرفة. لذلك نقول، إن مفعولها معرفي، أي تقدم معلومات ومعارف دون ايديولوجيا وبلا تحريض ودون وجود ضغط تنفّس عنه: «حدثنا أحد أساتذتنا في جامعة بون، أنه جرى تحضير «طعام اقتصادي» يحتوى على جميع المواد اللازمة لجسم الإنسان بالكميات المحددة علمياً، وإنما بالحدود الدنيا للكلفة. لكن، عندما قُدّم هذا الطعام لكلب، رفض أن يأكله!». تعبر هذه الحادثة الواقعية أو التخيلية عن الفرق بين النظرية والتطبيق، وتبرهن كذلك على أهمية الشكل (الذوق هنا) تجاه المضمون، لدرجة أن الشكل قد يصبح هو نفسه مضموناً. شاهد آخر: «صحا رجل من غيبوبة عام ٢٠٠٠، وكان أول ما فعله أن رفع سماعة الهاتف للاستفسار عن قيمة أسهمه المالية، فجاءه الجواب أن حصته في إحدى الشركات تبلغ خمسة ملايين دولار، وفي شركة أخرى عشرة ملايين. فقال: آه، إنني غني الآن. وقبل أن يكمل حديثه، قطعته عاملة التلفون لتقول: لقد انتهت الدقائق الثلاث للمخابرة، الرجاء أن تحول كلفتها إلى دائرة البريد، وهي مليون دولار!»[١٣]. هذه النكتة بورجوازية المصدر، التضخم بالنسبة لها قدر مكروه. لكن، قد يعترض أحد الاشتراكيين على تصنيفنا لها، بأن التضخم ظاهرة مرتبطة بالاقتصاد الرأسمالي، بالتالي فالنكتة تكشف عن أحد مساوئ الرأسمالية، هي إذن دعائية المفعول. إذا صحّ ذلك، نكون بهذه النكتة قد أعطينا مثالاً على إمكانية التعارض بين غاية النكتة ومفعولها، إذ - كما نوّهنا - ليس نادراً أن يختلف المفعول من متلق إلى آخر،وخاصة إذا اختلفا في انتمائهما وثقافتهما.

كذلك ليس نادراً على الصعيد العملي أن يختلف المفعول من زمان ومكان معينين إلى زمان ومكان آخرين. ويمكن أن نتصور اجتماع مفعولين في نكتة واحدة، أحدهما أساسي والثاني ثانوي. غير أن النقطة الأكثر جوهرية، التي نودّ التأكيد عليها، هي أن المفاعيل التنفيسية والتحريضية

(١٣) المختار، العدد ١٩ - ٢٠، حزيران - تموز ١٩٨٠.

والدعائية، في وقتها، تصبح على الغالب بعد انقضاء مرحلتها، ذات قيمة تاريخية. إنها تفقد في الأحوال العادية تأثيراتها الثلاثة المذكورة بسبب فقدان موضوعات تأثيرها في المتلقين الجدد، ولا يبقى لها في أفضل حال سوى مفعول معرفي: «قال الأصمعي: خرج الحجاج متصيداً، فوقف على اعرابي يرعى إبلاً وقد انقطع عن أصحابه. فقال: يا اعرابي، كيف سيرة أميركم الحجاج؟ فقال الاعرابي: غشوم ظلوم لا حياه الله ولا بياه. قال الحجاج: فلو شكوتموه إلى أمير المؤمنين؟ فقال الاعرابي: هو أظلم منه وأغشم، عليه لعنة الله! قال: فبينا هو كذلك إذ أحاطت به جنوده، فأومأ إلى الاعرابي فأخذ وحُمل. فلما صار معهم قال: من هذا؟ قالوا: الأمير الحجاج. فعلم أنه قد أحيط به، فحرّك دابته حتى صار بالقرب منه، فناداه: أيها الأمير. قال: ما تشاء يا اعرابي؟ قال: أحب أن يكون السرّ الذي بيني وبينك مكتوماً. فضحك الحجاج وخلّى سبيله!»(١٤). في هذه النادرة ليس وارداً أن نكون قد خففنا عن القارئ أو حرضناه على الحجاج الظالم أو على سيده عبد الملك بن مروان، فالزمان مغاير بحكامه ونظام حكمه، إنما أعلمناه أو دعمنا معرفته التاريخية بظلم الحجاج وعبد الملك.

ضمن إطار المفعول المعرفي تنضوي المهمة التتريخية للنكتة: يتأتى هذا من كون النكتة تمتح من نبع الحياة الاجتماعية، كما هو معروف. إذن من خلال النكتة ربما أمكننا أن نتعرف إلى هذه الحياة. ولو أتيح لنا أن نتتبع النكات في مجتمع معين عبر الزمن، فلا شكّ أن معرفتنا ستزداد بعض الشيء بتاريخ المجتمع المعني.نعم، ليس بعيداً أن تكون النكتة والنادرة مصدراً ثانوياً من مصادر التاريخ، على الأقل في جوانب من حياة ومسيرة المجتمع لا يعيرها التاريخ المعروف الاهتمام الذي تستحقه. هذا يفترض بالطبع أن تكون النكات المنبثقة مع مياه نبع الحياة الاجتماعية قد حفظها لنا الآباء، إما بالتسجيل أو بالذاكرة، مع الحذر من أن الذاكرة - بحكم الزمن وبتأثير الواقع المعاش - قد تحرّف الوقائع بلا قصد، دون أن ننفي عن التسجيل (وكذلك عن الذاكرة) تحريفاً مقصوداً. وهذا احتمال

(١٤) جمع الجواهر للحصري، ص١٨. انظر أيضاً: العقد الفريد لابن عبد ربه، ج٢، ص١٠١.

وارد في أي تتريخ. بالطبع لا تقدر النكتة على رصد مسيرة المجتمع عبر الزمن بشكل عام ومتواصل، جلّ ما تستطيعه هو أن تلقي من فترة لأخرى ضوءاً كاشفاً على هذه النقطة أو تلك من مسرح الحياة الدائر دون انقطاع. غير أن هذه البقع الصغيرة التي تضيئها النكات كثيراً ما تكون غائبة عن اتساعية وعمومية التاريخ العادي المعروف. وهذه ميزة علينا أن نعترف للنكتة بها. وبقدر ما نستطيع جمع عدد متنوع كبير من النكات والنوادر والطرائف عن مجتمع معين على امتداد زمن معين، فإن البقع الصغيرة المذكورة تتسع أكثر فأكثر وتتكامل لتعطينا صورة تاريخية ذات قيمة معرفية كبيرة. «ويُحكى أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر اهتم بنوعية (النكت) المنتشرة في مصر بعد عام ١٩٦٧، وكان يطلب تقريراً أسبوعياً عنها لمعرفة تأثير الهزيمة على نفسية الشعب»[١٥].

مشروع ثقافي كهذا قام به، من خلال النادرة، عدد من أجدادنا، وخاصة أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني. كما قام به دون قصد كتاب «ألف ليلة وليلة» من خلال الحكاية[١٦]، والميداني في «مجمع الأمثال» من خلال المثل. فكانوا رواداً، ومازالوا قدوات جديرين بالاحتذاء: «أخبرنا اليزيدي عن عمه عبيد الله عن ابن حبيب عن الهيثم بن عدي قال: كانت امرأة الأخطل حاملاً، وكان متمسكاً بدينه، فمرّ به الأسقف يوماً، فقال لها: الحقيه، فتمسحي به! فعدت، فلم تلحق إلا ذنب حماره، فتمسحت به ورجعت. فقال لها: هو وذنب حماره سواء!»[١٧]. «ومما يحكى من دهاء عمرو أن معاوية قال له يوماً: هب لي الوهط! فقال: هو لك. والوهط ضيعة كان لعمرو بالطائف ما ملكت العرب مثله، وكان معاوية يشتهي أن يكون له بكل ما يملك، فلم يقدر على ذلك. فلما وهبه له وقدر معاوية أنه صار ملكاً له، قال عمرو: لقد وجب أن تسعفني بحاجة أسألها. قال معاوية: أنت بكل

(١٥) عادل الجوجري، ص٦٢.

(١٦) انظر بخصوص (ألف ليلة وليلة) كتابنا: خير الزاد من حكايات شهرزاد - دراسة لمجتمع ألف ليلة وليلة، دار الحوار، اللاذقية ١٩٨٦.

(١٧) الأغاني، ج٨، ص٣١٠.

ما سألت مسعف. قال: ترد إلي الوهط. فوهبه له معاوية ضرورة!»(١٨).
«قال الأصمعي: قلت لاعرابي: هل تعرفون العشق بالبادية؟ قال: نعم، أيكون أحد لا يعرفه؟!. قلت: فما هو عندكم؟ قال: القبلة والضمة والشمة. قلت: ليس هو هكذا عندنا. قال: وكيف هو؟ قلت: أن يتفخذ الرجل المرأة فيباضعها. قال: قد خرج إلى طلب الولد!»(١٩).

هذه هي المفاعيل الأربعة التي يمكن - برأيي - أن تنتج عن النكتة الاجتماعية السياسية والاقتصادية: التنفيس، التحريض، الدعاية، المعرفة، إلى جانب الإضحاك. وهذا التصنيف ضروري، لأنه يشير إلى ماهية الوظائف التي تؤديها النكتة. غير أننا فيما يلي لن نختبر مفعول كل نكتة نوردها في النص، بل سنترك هذه المهمة التفصيلية للقارئ، وندرس المفاعيل المذكورة بشكل عام، فنركز الاهتمام على مواضيع النكتة السياسية الاقتصادية ومدى وكيفية تناول النكتة لهذه المواضيع، ودوافع وغايات هذا التناول، كي نتعرّف من خلال ذلك إلى عناصر الوظيفة الاقتصادية السياسية وكيفية ومدى قيام النكتة المتناقلة عربياً بهذه الوظيفة. وربما كان من المناسب أن نشير إلى أن كلامنا عن المفاعيل الأربعة لايجوز على النكتة فحسب، وإن حصرناه بها (لأنها موضوعنا)، بل ينطبق على جميع الأعمال الثقافية التي تتناول حياة المجتمع سياسياً واقتصادياً.

- ب -

من بين موضوعاتها السياسية الاقتصادية تعكس النكتة المتناقلة عربياً الهموم اليومية للمواطن العادي. أستطيع الادعاء أن ايراد هذه النكات، حتى دون شرح أو تعليق، يغني عن إعداد تقرير ميداني مفصّل عن أحوال المواطن المعيشية. فإذا كان المواطن العربي العادي - كسبب داخلي - قد

(١٨) مجمع الأمثال، ج٢، ص١٨٨. رويت عن عبد الله بن عامر في أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزي، ص٧٦/ ٧٧. وكذلك في العقد الفريد لابن عبد ربه، ج٢، ص١٥٥.
(١٩) الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج٢، ص٥٦. انظر أيضاً: أخبار النساء لابن قيم الجوزية، مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣٠٩هـ (١٨٤٣م)، ص٢٣.

تهيّب، أو - كسبب خارجي - قد مُنع من الإفصاح عن همومه المعيشية، فإنه عبّر عنها من خلال النكتة. هو في الحقيقة يعبّر ضاحك الثغر عما يُبكي قلبه. لننظر ما تقوله النكات المتناقلة!.

يشكو المواطن العادي من أنه في ضيق من العيش لا يسمح له بأن يتمتع بأبسط أنواع الأطايب الشعبية. وهو يلمح إلى ذلك خجلاً، بل مكابراً، لأنه يراها حالة مخجلة فعلاً، ولكن ليس باليد حيلة: «ذهب أحدهم مع خطيبته في مشوار. في الطريق مرّا أمام محل كنافة، فسألها: أتأكلين كنافة؟ همّت بأن تجيب، فقال لها: اي بلا. تابعا طريقهما، فمرّا من أمام محل معجنات، فسألها: أتأكلين كاتو؟ وقبل أن تجيب، قال لها: اي بلا. ثم مرّا من أمام محل مثلجات، فسألها: أتأكلين بوظة؟ كذلك قبل أن تجيب قال لها: اي بلا. أخيراً وصلا لعند بياع فلافل، فسألها: أتأكلين فلافل؟ لم ترد عليه، فقال لها: اي، فلافل، فلافل!». في الحقيقة يضطر المواطن العادي إلى التخلي عن مواد أساسية، وليس عن الأطايب فحسب: «رفعت امرأة دعوى تفريق على زوجها. سألها القاضي: يا أختي، لماذا تريدين الطلاق من زوجك؟ قالت له: يا سيدي، لي عنده عشر سنين لم يُذقني فيها طعم اللحمة!. فسأل القاضي زوجها: صحيح هذا الكلام؟ فغضب الرجل ورفع جلابيته ووضع عضوه على الطاولة وقال للقاضي: ما هذا؟ خضرة أم لحمة؟!». وقد عبّر أحدهم عن هذه الحالة بقوله، إنه «لكثرة ما صار يتناول الورقيات من خسّ وسلق وسبانخ وملفوف، صار يفلط تفليطاً!».

لكن الإنسان لا يحيا بالطعام وحده، يحتاج إلى المسكن واللباس والحذاء، وكذلك إلى الماء والنور والطاقة والدواء، كما يحتاج إلى التنقل والاتصال، ناهيك عن ضرورة الترويح عن النفس والحاجات الثقافية. سلع وخدمات كثيرة ومتنوعة لابد منها للإنسان المتحضّر المعاصر، لكنها ليست ميسرة للمواطن العربي العادي أكثر مما هي السلع الغذائية: «المعلم يسأل أحد التلاميذ: ما هي فوائد الخروف؟ التلميذ: لا أعرف. المعلم: كنزتك هذه ممّ صُنعت؟ التلميذ: من كنزة والدي

القديمة!»[٢٠]. وفي رسمة لعلي فرزات يقول دليل سياحي لسائح: الأماكن الهامة اللي يروحوا لها الناس: أسواق الباله!»[٢١]. بعض هذه الحاجات أصبح تأمينه من رابع المستحيلات: «أحد المواطنين عثر على فانوس سحري. فركه، فطلع له عفريت ضخم، اللهم تعافينا. قال له العفريت: شبيك لبيك، عبدك بين ايديك، اطلب ما تريد!. قال له المواطن: أريد بيت سكن. فقال له العفريت بصوت ذليل: لو كنت أستطيع تأمين البيوت، لما رأيتني أسكن في فانوس!».

ولا يتوقف الأمر عند قلة الدخل والغلاء، بل يصل إلى فقدان بعض المواد الضرورية الذي رافق نظام تولي الدولة لاستيراد وتوزيع مواد الاستهلاك الرئيسية، وخاصة منذ الستينات حتى الثمانينات. فكانت الدولة تؤمن هذه المواد وتقدمها للمواطن من خلال المؤسسة الاستهلاكية والشركة العامة لتجارة التجزئة، تقدّمها في الواقع بأسعار معتدلة وأحياناً رخيصة، إنما بكميات غير كافية. فلم تكن تصل إلى المواطن العادي إلا بشق النفس، ويستأثر بها ذوو المال والنفوذ، أي تحديداً الذين ليسوا بحاجة لشرائها بالأسعار العادية أو المدعومة، بينما يضطر الفقراء لتأمينها من السوق السوداء الغالية، حيث ترد إلى هذه السوق بطريق التهريب من الخارج أو من الداخل (من معامل الدولة ومؤسساتها):

جاء في نكتة عراقية: «اصطاد أحدهم سمكة كبيرة، وأراد أن يأكلها مع صديق له. قال له: اذهب واجلب لنا زيتاً لنقليها. فقال له: الزيت مقطوع. - اجلب سمنة. - لا يوجد في السوق سمنة. - اجلب لنا ثوماً. - ليس هناك ثوم. فغضب الرجل ورمى السمكة في الماء. وما أن نزلت السمكة في الماء حتى صاحت: يعيش فلان، يعيش فلان!». في كاريكاتير لعلي فرزات يشرح مدير معمل التبغ لصحفي الخطة الجديدة لإنتاج السجائر الوطنية، فيقول:

(٢٠) أسامة، العدد ٣٦٣، تاريخ ١٩٨٤/٣/١، ص٦. وثمة نكتة مشابهة في: ماجد، العدد ٨١٠، تاريخ ١٩٩٤/٨/٣١.

(٢١) منشورة في: الثورة، عدد ١٩٧٤/١١/٢.

مـراحل العـمل: أولاً الفـرم، ثم التـحـضيـر، والتـصنيع والفلتـرة والتـغليف... وأخيـراً التـهـريب!»[٢٢]. «أحـد المسـؤولين شـاهـد حشـداً على بـاب مؤسـسـة استهلاكية. قال لسائقه: قف نعزّي مع هؤلاء الناس، علينا أن نشارك الناس مصائبهم. وفيما هو يهمّ بالدخول، التقى بواحد خارج، سأله: عزّيت؟ أجابه: لأ، ع السمنـة!». هذه إشارة إلى بعد المسؤولين عن هـموم الناس ومشـاكلهم. فـالمسـؤول لم يكن يدري كم يعـاني ربّ الأسـرة للحصـول على جـعـالتـه من الزيت أو السـمنة أو السكر أو الرز أو الشـاي. فـهـذه المـواد المـدعـومـة والمقننة تصله بالكمية التي يريد بالسـعر المدعوم أو بلا ثمن، بينما ينفق المواطن العادي من وقته وأعصابه أكثر مما يوفره في ثمن هذه المواد.

التزاحم على باب المؤسسة الاستهلاكية، بما كان يلزمه من جهد ووقت وتحمّل، جعلتـه الروح الشعبية مـادة للتفكّه: «مـواطن لآخـر: البارحـة عـادت زوجتي من المؤسسة ممزقة الثياب عارية الجسد. المواطن الثاني: بسيطة، أنا زوجتي عـادت حامل!». «وقف فيل على باب المؤسسة الاستهلاكيـة لمدة طويلة، ولم يسـتطع شـراء شيء من شـدة الزحـمـة. في هذه الأثنـاء جـاء ضفـدع، اختـرق الجمع وعـاد مُحمّلاً بعلب المحارم والقهوة والمعلبات. قال له الفيل: أنا مع ضخـامتي لم أستطع الحصـول على شيء، فكيف أمكنك أنت ذلك؟ أجاب الضفدع: ألا تراني مبرقعاً وأقاقي؟!». «على باب المؤسسة الاستـهـلاكيـة كـان ثمة زحـمـة وطحـشـة. جـاء رجل قصيـر نحيف، وأخذ يطاحش، برم من هنـا، لفت من هـنـاك، بعـد ألف يا ويلاه وصل إلى البـاب. في هذه اللحظة حدثت مطاحشة جديدة، فوجد نفسـه خارج الحشـد. أعاد الكرة ثانية وثالثة، فـمـا أفلح. أخيـراً وقف وراء جمـع الناس وصـاح بأعلى صوته: طيب، يا عرصات. بدي شوف مين بدو يفتح لكم الباب!».

وكان هناك أيضاً تزاحم على الأفران. المفارقة الإضافية هنا هي أنك لا تجد فرناً إلا مزدحماً، ومع ذلك فكل أسرة تنال خبزها اليومي. ولكثرة ما عانى الناس من الوقوف أمام المؤسسـات والأفران، كان مما يُسمع في

(٢٢) منشور في: الثورة، عدد ١٩٧٦/١/٢٧.

مجالس الأصدقاء، «ان المرأة أصبحت تحتاج إلى زوجين، زوج للعمل وزوج لتأمين المواد الاستهلاكية!». وان أحدهم صدف أن وجد فرناً غير مزحوم، فاشترى منه الخبز مع أن ما عنده يكفي ويزيد. «بعض الأفران كان يقدّم إنتاجه في الليل. فوقف مرة صديقان في طابور أمام الفرن، وكانت هناك سيدة مع الواقفين. فقال أحدهما للثاني معلقاً: ليس رجلاً من يرسل زوجته ليلاً إلى الفرن!. فأجابه الثاني: وهل الرجل هو الذي ترسله زوجته؟!». وكان من طرق رفع سعر الخبز، تقديم دقيق أسمر لخبز السعر العادي، وتخصيص الدقيق الأبيض لخبز محسّن بسعر أعلى، يسمى عندئذ «مدعوماً». «يقال إنهم شاهدوا مرة أحد المواطنين يكيل اللطمات لرغيف خبز من هذا النوع. سألوه: لماذا تفعل هكذا بالرغيف؟! قال: أريد أن أشفي غليلي مرة من واحد مدعوم!».

أما الخدمات فتعتبر نسبياً رخيصة، بل إن بعضها مجاني. فكثير من الخدمات التي تقدمها الدولة لا تعدّها من ضمن القطاع الاقتصادي، وإن عدتها كذلك فإنها لا تحسب سعرها حساباً تجارياً، يغطي على الأقل كامل كلفتها. لكن المشكلة هي أن هذه الخدمات، إما أن تكون قليلة، فلا يحصل عليها المواطن إلا بشق النفس و/ أو تكون متسيّبة تعرض المواطن للمخاطر. هكذا يحتاج الحصول على الخدمة إلى جهد ووقت يضيع معهما المكسب من المجانية أو الرخص، أو تترافق الخدمة بإهمال خطر يتقيه المواطن بدفع الرشاوي أو (إن أمكن) بالانتقال إلى القطاع الخاص الغالي نسبياً. وتعبّر النكتة عن حالة المواطن مع هذه الخدمات، فتقول مثلاً عن المشفى العام: «الداخل مفقود، والخارج مولود!». ويبالغ البعض فيقول متجنياً: «مسلخ» بدلاً من «مشفى»! وثمة رسمة كاريكاتيرية لعلي فرزات، نرى فيها مريضاً يدخل المستشفى مستنداً إلى كتف شخص آخر، ثم يخرج منه متعكزاً على شخصين اثنين!»(٢٣).

وتكثر النكات التي تتناول موضوع الازدحام في باصات النقل الداخلي:

(٢٣) منشورة في: الثورة، تاريخ ١٩٧٩/٩/٤.

«أحدهم لصديق له (في سيارة عامة كانت غاصة بالركاب): لم تغمض عينيك؟ هل أصابك مكروه أو أنت تشعر بألم، لا سمح الله؟ الصديق: أنا بخير، ولكني أكره النظر إلى النساء، وأنا قاعد وهنّ واقفات في السيارة!»[٢٤]. وهذه نكتة مشابهة: «الأستاذ للتلميذ: إذا كنت جالساً في باص وأقبلت امرأة عجوز، فماذا تفعل؟ التلميذ: أتظاهر بالنوم!»[٢٥]. هذه إشارة إلى التأثير السلبي للازدحام في الباصات على الأخلاق العامة، حيث أن صعوبة حتى الوقوف في الباصات تجعل المرء يتخلى عن مروءته فلا يخلي مكانه للنساء والشيوخ والمعوقين. وثمة نكات أخرى تجري أحداثها في الباص، تعبّر عن العلاقة السلطوية والتسلطية في المجتمع: «في الباص المزدحم داس واحد من ذوي السطوة على قدم مواطن، فاحتقن الدم في وجه المواطن وجحظت عيناه، وبحلق في وجه الرجل. قال له: ما بك، لماذا تنظر إليّ؟! أجابه: أنا آسف، قدمي جاءت تحت قدمك!». «مواطن كان يستقل الباص يومياً ويدفع الأجرة كالعادة. انتبه مرة إلى وجود أشخاص لا يدفعون، بل يكتفون بالقول: هوية!. ففكر في أن يفعل مثلهم ويركب مجاناً. ومرة جاء الجابي، فلم يدفع له، بل قال: هوية. سأله الجابي: أين الهوية؟ فقدم له الهوية الشخصية. فقال له الجابي: هاي بتركب فيها بالبيت، ما هون!».

في مجال الكهرباء قامت الدولة بإنارة الريف خلال سنوات قليلة. فانتشرت الأدوات الكهربائية هناك بسرعة، وزاد الاستهلاك من الكهرباء بقدر عجزت عن تلبيته محطات التوليد الكهربائي، وأصبح انقطاع التيار الكهربائي أمراً عادياً في حياة المواطن اليومية في الريف والمدينة، وخاصة في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات. ومما تندّر به الناس وقتئذ، أن «البلاد خلت من القابلات القانونية، لأنهن ذهبن لتوليد الكهرباء!». وقيل، إنه «عندما عاد رائد فضاء من رحلته الفضائية، سئل عن منظر بلده

(٢٤) العربي، العدد ٩٨/ كانون الثاني ١٩٦٧، ص١٦٢. انظر أيضاً: المختار، عدد ٨٣/ تشرين الأول ١٩٨٥. منشورة أيضاً في مجلة: الهلال، عدد أيلول ١٩٥٠، ص٦٢. ولذلك فهي السباقة.

(٢٥) سعد، العدد ٨٨٢، تاريخ ١٩٨٦/٣/٢٤، ص١٩.

من السماء، فقال: في غاية الجمال، مثل شجرة الميلاد، تُضيء هنا، تعتّم هناك!». «اتصل أحدهم بزوجة مدير كهرباء مدينة سين وقال لها: مبروك، عينوا زوجك مديراً لمرفأ مدينة عين (وهي مدينة داخلية). قالت له: وهل في مدينة عين مرفأ؟! فأجابها: وهل في مدينة سين كهرباء؟!».

تبقى المشكلة الأساسية هي أن كلفة المعيشة أعلى من متوسط دخل المواطن العادي، مما يشير إلى سوء التوزيع للدخل الوطني بين الطبقات الاجتماعية. ربما تكون عبارة «سوء التوزيع» غير دقيقة. فطالما أن هناك طبقات اجتماعية، فلابد أن هناك تفاوتاً كبيراً في الدخول والثروات بين أفراد المجتمع. هذه حالة قديمة. لكن الجديد هو ازدياد السوء وازدياد التفاوت، بصورة خاصة عن طريق التضخم، بحيث أن الدخول تزداد شكلياً، أي كمبالغ بالعملة السائدة، في حين أن القوة الشرائية لهذه الدخول المتزايدة تتناقص. وقد وصل التناقص إلى حد الاستنزاف، الذي لم يعد معه دخل المواطن العادي يغطي الحد الأدنى لتكاليف المعيشة، الأمر الذي برر عملياً موضوعياً للفساد: «سأل عربي أميركياً: كم متوسط الدخل الشهري عندكم؟ أجابه: أربعة آلاف دولار. ـ كم يصرف منها؟ ـ ألفين. ـ وماذا يفعل بالباقي؟ ـ هو حرّ، لا أحد يسأله. ثم سأل الأميركي: وأنتم كم يبلغ متوسط الدخل الشهري عندكم؟ أجابه العربي: ألفي فلس. ـ وكم يصرف منها في الشهر؟ ـ أربعة آلاف. ـ فمن أين يأتي بالألفين الآخرين؟ ـ هو حرّ، لا أحد يسأله».

وكان لعدم كفاية الدخل لمعيشة الأسرة تأثير آخر في عقلية المواطن العربي وفي أخلاقيته: «كنت أجيل النظر في غلاف إحدى المجلات النسائية، فلفت نظري العنوان الآتي: ماذا يخيف الرجل في زوجته العاملة. وقررت الحصول على إجابة مباشرة، فسألت زوجي: ما الذي يخيفك أكثر من أي شيء آخر في كوني امرأة عاملة؟ فأجابني على الفور: أن تتركي عملك!»[٢٦]. فالرجل العادي الذي كان ضد عمل زوجته خارج البيت، أصبح

(٢٦) المختار، العدد ١٠٦/ أيلول ١٩٨٧، ص٧٥. انظر أيضاً: البعث، عدد ١٤/٣/١٩٨٨.

الآن في حاجة إلى دخلها. هكذا ألغى السبب الاقتصادي لعمل الزوجة السبب الشخصي لإبقائها في البيت، وغيّر النظرة الأخلاقية إلى عمل المرأة. ومن الأمثلة الحديّة على ما نقول، هذه النكتة التي تدل على ميل عفوي لدى العامة نحو الشطط في التعبير، إمعاناً في إعطاء العبرة: «أحد كبار الموظفين ضاقت به الحال، ولم يعد الراتب يكفي. فما كان من الزوجة إلا أن أوجدت سراً مصدر دخل جديد. فتحسنت معيشة الأسرة. غير أن المرأة كانت تستغرب، أن زوجها لا يسألها عن مصدر هذا التحسن. فعمدت إلى التخفيف من المصروف، حتى عاد طعامهم إلى سابق عهده. وعندئذ نظر الزوج إلى الطعام وقال مستنكراً: اي هادا أكل عرصة؟!».

هذه النكتة تستدعي السؤال عمن ضاقت بهم الحال تحديداً، ولم تعد دخولهم تكفي للحياة الكريمة. لقد أشرنا إلى أن توزيع الدخل الوطني بين الطبقات والفئات الاجتماعية أصبح أكثر ظلماً أو أقل عدالة، ولكن: كيف؟
- إليكم هذا الجواب: «كان ثلاثة ماشين في طريق: طبيب وحرفي وموظف. شافوا في طريقهم حماراً. فأرادوا أن ينحّوه عن الطريق. جاء إليه الطبيب وتكلم معه، فلم يتحرك. وجاء إليه الحرفي وتكلم معه، فلم يتزحزح. ثم جاء الموظف وكلّمه بضع كلمات، فأخذ الحمار يضحك. ثم كلمه بضع كلمات أخرى، فأخذ الحمار يبكي. ثم كلمه مرة ثالثة، فترك الطريق يعدو. قالوا للموظف: ماذا قلت له حتى فعل هذا؟ أجاب: قلت له، أنا موظف، فضحك؛ وقلت له راتبي ١٥٠٠ فلس فبكى؛ ثم قلت له، ما رأيك أن تشتغل محلي، فهرب!». إذن فالعامل بأجر كالموظف، أي من يُسمى «ذا الدخل المحدود»، هو الذي تأثر بزيادة التفاوت لدى توزيع الدخل الوطني. وهذا طبيعي، إذ أن كلاً من الطبيب والحرفي، مثل كل ذي عمل حرّ، يستطيع أن يرفع سعر قوة عمله مع الارتفاع العام لأسعار المواد والخدمات، في حين أن العاملين بأجر، وخاصة لدى الدولة، رواتبهم محدودة، ولم تترك لهم القوانين والأنظمة وسيلة انضباطية للضغط من أجل تصحيح الخلل بين قطبي الأسعار والأجور. ومن بين العاملين بأجر كان أكثر المتضررين هم الموظفون المتقاعدون، إذ تنخفض رواتبهم عند التقاعد، ولا ينالون ترقيات (ترفيعات)،

ولدى زيادة الرواتب والأجور بسبب التضخم تكون نسبة ما يحصلون عليه أقل ممن هم على رأس عملهم. لذلك يسمون المتقاعد «مُت قاعداً».

يقول مثل شعبي: طول حميدان من قصر حمّود. هذا يعني بالنسبة لموضوعنا، أن الفقر يقابله الغنى هناك، وأن اغتناء بعض الناس يتطلب إفقار أناس آخرين. الأوروبيون يشبّهون الدخل الوطني بالكعكة (التورتة)، تتقاسمه الطبقات الاجتماعية. فإن زادت حصة طبقة معينة، نقصت حصة طبقة أخرى في المجتمع المعني، والعكس بالعكس. وإذا كانت الطبقات الشعبية قلما تأكل اللحمة مثلاً، فلابد أن اللحمة على موائد الطبقة العليا الجديدة تزيد عن حاجتها، فتطعمه كلابها. في رسمة لعلي فرزات ثمة «مواطن درويش يحمل قضّوضة فلافل، يصادف كلباً مرفّهاً في الشارع وفي فمه قطعة من اللحم، فيقول له: طعميني بطعميك!». وفي نكتة رويت أيام الرئيس عبد الناصر في فترة حرب اليمن: «جاء عامل إلى المحاسب ليقبض راتبه. قال له المحاسب: راتبك ٩ جنيه، بيروح منه كذا ضريبة دخل، وكذا تأمينات اجتماعية، وكذا مجهود حربي، وكذا قسط للمصرف الفلاني... يبقى لك عشرة ساغ. أخذ العامل العشرة ساغ وراح. يعمل ايه بالعشرة ساغ. راح اشترى سندويتشه. عمل له البياع سندويتشه وأخذ جريدة بدو يلف له إياها. تطلع العامل شاف ع الجريدة صورة عبد الناصر، فقال للبياع: لا والنبي، بلاش، أحسن ياكلها!». إن مثل الطبقة الدنيا مع الطبقة العليا في اقتسام الدخل الوطني كمثل أحد العاملين الذي كان راتبه ما بين ثلاثمئة وأربعمئة، والذي «عندنا سئل عن مبلغ راتبه، قال: أنا وابن عمي نأخذ خمسة آلاف!».

حدث مع التضخم المالي تضخم في العمالة، قامت به البورجوازية الجديدة في بدايتها من أجل كسب وإرضاء أكبر عدد ممكن من الأنصار من الطبقات الوسطى والدنيا. فيما بعد تولى التضخم المالي التخفيف من أعباء هذه العمالة الزائدة وجعلها محتملة من قبل الاقتصاد الوطني، فانخفض أكثر فأكثر مستوى الأجور الحقيقية. أخيراً أصبحت الأجور

بمثابة مساعدة من قبل الدولة، لا تحرص السلطة الاقتصادية، لا على الحصول على انتاج وخدمات تكافئها هذه الأجور ولا على جعل الأجور إياها تغطي تكاليف معيشة العاملين. وهذا ما جعل القطاع الخاص في المرحلة الوسطى قادراً على منافسة القطاع العام في استقطاب أفضل الكوادر؛ وفي نفس الوقت لعبت أجور القطاع العام المتدنية وظيفة استرشادية لتعرفة الأجور لدى القطاع الخاص، الأمر الذي عنى تقليل الكلفة من ناحية الأجور، مع فارق أن انتاجية قوة العمل لدى القطاع الخاص أعلى بكثير منها في القطاع العام مع التسيّب الذي ساد فيه. في المرحلة الأخيرة أصبح التوظيف محدوداً جداً، يقتصر على أبناء الطبقة الجديدة وحواشيها أو مقابل عمولات باهظة. ولم يكن أبناء البورجوازية الجديدة ليرغبون في الوظيفة بأجرها المتدني، بل في السلطة المرتبطة بها وبالمداخيل الجانبية و/ أو الخفية التي تسمح بها: تبادل منافع وتستّر متبادل فيما بين أفراد طبقة لا رقابة عليهم ولا محاسبة لهم من أحد خارج دائرتهم.

مما جرى تناقله عن التوظيف: «قام مدير التربية في إحدى المحافظات بتوظيف امرأة أمية، لنقل اسمها: فلانة. فجاءه رجل من قريته وطلب منه توظيف زوجته. قال له المدير: زوجتك، يا فلان، أمية، وتوظيف الأميين ممنوع. فردّ عليه الرجل: لا والله، ما هي أمية! استغرب المدير وسأله: كيف؟ قال: والله دخلت المدرسة هي وفلانة، تعلمتا معاً، ونالتا الشهادة معاً!». «في فحص القبول لإحدى الوظائف قال الفاحص لأحد المتقدمين من المحاسيب: لا تفكر، لأنك من أقربائي، نجاحك مضمون! لازم تبرهن على كفاءتك! السؤال: في الحرب العالمية الثانية ألقت الولايات المتحدة قنبلة ذرية على بلد معين، ما هو هذا البلد؟ أجابه: اليابان. ودخل متقدم ثان، فقال له الفاحص: لا تفكر، لأنك من الطرف الفلاني، ستنجح كيفما كان جوابك، لن تنجح إلا بكفاءتك! السؤال: في الحرب العالمية الثانية ألقت الولايات المتحدة قنبلة ذرية على اليابان، كم كان عدد الضحايا؟ أجابه: كذا. ثم دخل متقدم ثالث، فقال له الفاحص: لا تظن، لأنك غير مدعوم، مالك أمل بالنجاح! سوف أسألك سؤالاً، إذا كان جوابك صحيحاً، اعتبر نفسك

ناجحاً، السؤال: في الحرب العالمية الثانية رمت الولايات المتحدة قنبلة ذرية على اليابان راح ضحيتها كذا إنسان، فما هي أسماؤهم؟»(٢٧). وهذه نكتة تتهم بحسب المثل القائل «حاميها حراميها!»، وذلك بفجاجة معهودة لدى عامة الناس: «مسؤول كان يحضر اجتماعاً لأحد المجالس في مدينة عربية ما، اتصلت به زوجته وهي تصرخ مستغيثة: الحرامية يسرقون البيت!. فقال لها: غريبة، مع أن جميع أعضاء المجلس حاضرون!».

منذ السبعينات توجهت سهام النكتة بالدرجة الأولى ضد الأثرياء الجدد، ووُضعت مساخر الطبقة العليا السابقة على رفوف التاريخ والتراث. أما الأثرياء الجدد (حديثو النعمة) فهم الذين حازوا على دخولهم العالية وثرواتهم من خلال نفوذهم في الدولة و/ أو استغلال ظروف التقلبات والتحولات الاجتماعية الاقتصادية بالتعاون مع أهل الدولة، متنكرين للطبقات الشعبية التي وصلوا على أكتافها، أو غير مبالين بمصيرها. وقد عبّر علي فرزات عن هذا التحول بكاريكاتير مؤلف من رسمتين، في الأولى يعتلي أحد المواطنين كتفي مواطن آخر وهما في مظاهرة يهتفون فيها بشعارات ثورية؛ وفي الرسمة المجاورة يعتلي نفس الشخص كتفي المواطن ذاته، لكنه يظهر الآن وهو يدخن السيجار ويرتدي أفضل الملابس، في حين يئن المواطن تحت ثقل المتسلط الجديد!. وقد انتشرت مجموعة من النكات تذكر الطبقة العليا الجديدة بماضيها، هي بالأحرى تعيّرها بهذا الماضي، وتشبه إلى حد بعيد تلك التي انتشرت في السابق ضد أثرياء الحرب. فهؤلاء مثل أولئك كانوا من عامة الناس، على الغالب، متواضعين في مستواهم الحضاري، ثم اغتنوا بأساليب ملتوية في لحظات تاريخية استثنائية، فاجتمع لديهم المال مع الجهل أو التخلف: «كانت إحدى الأسر الحديثة النعمة تسهر عند أسرة أخرى من مثيلاتها. فقالت المرأة الضيفة: يا جماعة، ألا يكفي ما سمعناه لعبد الوهاب وأم كلثوم؟! سمعونا شي

(٢٧) شفهية. وهناك رواية شفهية أخرى عن الصين وعدد سكانها وعن أسمائهم. كما أن البعث، عدد ١٩٨٩/١/٢٤ نشرت صيغة ثالثة عن اسم سفينة غارقة وعدد الذين هلكوا وأسمائهم.

اسطوانة لشكسبير!. تضايق زوجها، لكنه كتم غيظه. وعندما ذهبت الأسرة لبيتها، قال الرجل لزوجته: الله يخرب بيتك، ما أغشمك، بهدلتينا، تقولين عن شكسبير إنه مطرب وهو ماركة سيارات؟!». وفي كاريكاتير من رسمتين لعلي فرزات نرى في الرسمة الأولى واحداً من أولئك الأثرياء الجدد وهو يقف غائباً عن الوجود من المتعة لسماع قرع الطبل، وفي الرسمة الثانية يهرب غاضباً وقد سدّ أذنيه لدى سماع تغريد البلبل[٢٨].

تتألف الطبقة الجديدة أساساً من متنفذين وطفيليين وكومبرادور. أصبحت دخولهم غير محدودة وثرواتهم فاحشة، فينفقون الأموال بغير حساب، على ما يلزم وما لا يلزم. مثلهم الأعلى هو نمط حياة الطبقات العليا في البلدان الرأسمالية الغربية. وقد انصبت سخرية عامة الشعب على جوانب من نمط الحياة هذا، كما في هذه النكتة السماعية التي تشير إلى اقتناء الكلاب وتدليلها، وهذا في بلدان يصعب فيها تأمين لقمة العيش الشريف وتعاني مدنها من الكلاب الداشرة، بالتالي يقف فيها المواطن العادي من ذلك موقف الكراهية والرفض: «مسؤول عنده كلب مدرّب. أرسله بأغراض إلى البيت. بعد زمن عاد الكلب لعند صاحبه في المكتب. سأله: ودّيت الأغراض؟ قال الكلب وهو يهز رأسه: هاو. - شفت معلمتك؟ - هاو. - عندها أحد؟ - هاو هاو. - هل يفعلان شيئاً؟ - هاو هاو هاووو...!». الهمّ الأول لأفراد هذه الطبقة في حياتهم اليومية بعد تصيّد الأرزاق هو المتعة الحسية اللحظية، دون مراعاة لأية قيمة أخرى: «أحدهم كان ابنه في طريقه للسفر إلى أوروبا، فأخذ يوصيه: يا بني، انتبه من بنات أوروبا، قد تعاشر واحدة غير نظيفة، فتصاب بالايدز، وتعود إلينا فتنقل المرض للخادمة، والخادمة تنقله لي، وأنا أنقله لأمك، وأمك تنقله لأهل الحارة!»[٢٩]. «أحد المبتكرين صنع سكرتيرات آلية، تستطيع القيام بجميع

(٢٨) منشور في: الثورة، تاريخ ١٩٧٨/٣/٣.

(٢٩) المصدر شفهي. انظر نكتة مشابهة (عن مرض الحصبة) في: الموعد، العدد ١٠٤١، تاريخ ١٩٨٣/٢/٥، ص٥٧. ويبدو أن النكتة أقدم من ذلك، وتتحدث على الأرجح عن مرض الزهري. كما يبدو أنها منتشرة عالمياً، انظر: الطبيب في مرآة الفكاهة، ص٣٩.

أعمال السكرتاريا من ضرب على الآلة الكاتبة وترجمة واختزال وغيره. طاف على المدراء يعرض عليهم صناعته ويبيعهم. أحد المدراء أعجبته السكرتيرة، فباعه إياها وأخذ الثمن وانصرف. وفيما هو نازل على الدرج من عند هذا المدير، سمع صراخاً: آخ. هنا توقف الرجل وهز برأسه وقال لنفسه: لاه، نسيت أن أقول له إن وسطها براية!».

وبتهكم مرّ تبين النكات للمواطن العادي كيفية استعادة بعض أمواله من الأثرياء الجدد، بما يتلاءم مع كيفية إنفاقهم لهذه الأموال: «مواطن كان واقفاً على الرصيف أيام الشتوية. فمرت من قدامه سيارة فخمة بسرعة كبيرة، وطرطشته بالماء والوحل. أخذ يعيّط ويسبّ. وكان بالقرب منه شخص، فقال له: لا يهمك، هلق بيرجع لعندك. سأله مستغرباً: من سيرجع لعندي؟ ـ صاحب السيارة، هلق بيرجع لعندك، بياخدك لبيته، يغسل ثيابك ويكويها، ويوصلك إلى بيتك. قال له: ما هذا الكلام؟! فأكد له الرجل: اي والله، هيك صار مبارح مع مرتي!». من يملك المال يشتري كل شيء. وفي المجتمع الطبقي عموماً، والمتخلف أو الفقير خصوصاً، يجري الضغط لجعل الجنس سلعة؛ وعلى هذه السلعة تُهدر الأموال: «سأل أحدهم الثاني: شفت الميريديان؟ أجاب: وما الذي يأخذني للميريديان؟! العمى، المنامة فيه بمئتي ليرة في اليوم غير الأكل والشرب!. فاعترض الأول: وكيف ذلك؟! هذه أختي فلانة، تروح إليه، تتعشى وتسهر وتنام، وتفيق الصبح فتجد خمسمئة ليرة تحت المخدة!». هكذا، فإن ما تُسمى «أقدم مهنة في التاريخ» هي أكسب مهنة في المجتمع المتخلف الجديد: «ضاقت الأحوال بمنجّد، فسافر إلى السعودية. اشتغل هناك مدة من الزمن، وعاد بمبلغ من المال. قال لزوجته: لو تعرفي، يا مره، قديش تعذبت حتى حوّشت هالمبلغ، نجّدت شي مية ألف فرشة!. فقالت له زوجته: يا شحاري، من مية ألف فرشة ما جبت غير هالمبلغ، أنا جبت قدّه على مية مرة، من فرشة واحدة!».

القاعدة هي أن الطبقة العليا، كانت من تكون، حيث ومتى وُجدت، لا تهتم لأحوال الطبقات الدنيا. مثلها في ذلك مثل التلميذة في هذه النكتة:

«طلبت المعلمة إلى تلميذات الفصل كتابة موضوع يصفن فيه أسرة فقيرة. فكتبت ابنة رئيس مجلس الإدارة لإحدى الشركات: يحكى أنه كانت هناك أسرة فقيرة: الأب فقير، والأم فقيرة، والأولاد فقراء، والخادمة فقيرة وسائق السيارة فقير، والبستاني فقير، الجميع فقراء!»[٣٠]. في كاريكاتير لعلي فرزات يقول مسؤول في مقابلة على التلفاز: «وإنني أتوجه بالشكر أيضاً إلى المشكلة التي أتاحت لي فرصة الظهور بالتلفزيون»[٣١]. فلم يكن عدم اهتمام الطبقة العليا بأحوال الطبقات الدنيا، وبالتالي أحوال المجتمع، بل وبمصيره، عائداً لجهلها بهذه الأحوال. فالمواطن العادي لم يتوقف عن الشكوى والنقد والهجوم، جدياً قدر ما أمكنه، وهزلياً على الدوام: في البدء منبّهاً بتودد، ثم ناقداً بسخرية، وأخيراً شاتماً ومتشفيّاً، بعد أن خاب أمله بالطبقة الجديدة ويئس من المستقبل معها: «مواطن ألقوا القبض عليه في دولة عربية. قالوا له: ايه اللي معاك؟ قال: منشورات ضد الحكومة!. حوّلوه على النيابة. قالوا له: افتح. فوجدوا معاه ورق أبيض، كله أبيض. وسأله رئيس النيابة: فين، يا بني، المنشورات؟ ما فيش حاجة مكتوبة!. فرد المواطن: حاكتب ايه، ولا إيه، ولا إيه؟!»[٣٢]. لقد خلعت الطبقة الجديدة ورقة التوت، وما قد يخاف منه غيرها، هي قاعدة عليه. والجماعة أو الطبقة التي تفقد قيمها أو التي لا قيم لها، تكون عائشة من قلة الموت[٣٣]: «أحد المواطنين لام رأسمالياً صاعداً على جشعه، فأجاب هذا: أنا ما باكل حلال، الحلال بشخ عليه لحتى يصير حرام وباكله!».

فماذا ننتظر من هذا المواطن؟ قد نجد الجواب في هذه النكتة القديمة التي جرى تحويرها حديثاً لتخدم غرض الراوي: «سقط ابن مسؤول عن مركب في البحر. ولم يكن يعرف السباحة، فأخذ يخبّط ويلبّط. تجمع الناس وجعلوا يستنجدون بمن ينزل لإنقاذه. وسرعان ما شاهدوا رجلاً ألقى بنفسه

(٣٠) هوبي: العدد ٢٥٦، ص٣٧.

(٣١) نشر في: الثورة، تاريخ ١٩٧٩/٣/٣٠.

(٣٢) محمود السعدني، في: روز اليوسف، العدد ٣٤٤٢، تاريخ ١٩٩٤/٥/٣٠، ص٦٦.

(٣٣) بهذا المعنى صدق الشاعر أحمد شوقي حين قال:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

في البحر وأنقذ الغريق. وعندما وصل إلى بر الأمان، صار الناس يشكرون المنقذ ويثنون عليه. فقال لهم: بس بدّي أعرف من ابن الكلب الذي دفرني!»[٣٤]. كأن الضمير الشعبي يتساءل مستنكراً: ولماذا أُنجد هذه الطبقة؟!: «تخفى أحد الزعماء على طريقة هرون الرشيد ودار في الشوارع يتفقد أحوال الرعية. أثناء ذلك وقع في مجرور. رآه أحد المواطنين، فانتشله. وأخذ الزعيم يتشكره. قال له المواطن: ما عملت غير الواجب. ثم سأله الزعيم: أتعرف من أنقذت؟ أجاب المواطن: لأ. قال له: أنا الزعيم فلان، اطلب أي شيء تريده!. قال المواطن: بترجاك، يا فندم، ما تقولش لحد!»[٣٥]. «أحدهم سأل الثاني: أتعرف الفرق بين المصيبة والكارثة؟ قال له: ما هو؟ قال: المصيبة، إذا كانت هناك سفينة تنقل مسؤولين وغرقت!. سأله الثاني: فما هي الكارثة إذن؟ قال: أن يكون في السفينة قوارب نجاة!».

منذ أن خاب أمل المواطن العادي، أو بالأحرى منذ أن هُمّش دوره في الحياة الاقتصادية السياسية للمجتمع، أصبح سلبياً تجاه القضايا العامة. وهذا طبيعي. فمن يتخذ القرار، يكون مسؤولاً عنه. الواجبات على قدر الحقوق، تماماً كما تقول القاعدة الحقوقية: الغُرم بالغنم. ولا يقبل المرء أن يأكل غيره الجاج ويقع هو في السياج. هذا إلى جانب أن الهموم الشخصية كبرت وتوسعت حتى ألقت بالهموم العامة إلى الهامش. من ناحية ثالثة، الفئة المسؤولة عن الاقتصاد الوطني نفسها ساوت بين النشيط والمهمل، بين الكفء وغير الكفء، بين الأمين والفاسد، بل وغالباً فضّلت الثاني لأنه يسهّل عليها أو يساعدها في عملية استحواذها على فائض الناتج الوطني أو اقتناصها له. إذا كان ربّ البيت بالطبل ضارباً، فماذا ننتظر من أفراد الأسرة؟!:

«الأول: إن وجود رئيسي في العمل يمنعني من النوم في المكتب!. الثاني: لماذا، هل يوقظك من النوم؟ الأول: كلا، لكنه يزعجني

---

(٣٤) المصدر شفهي. أوردتها مجلة: الهلال، عدد تشرين الثاني ١٩٥٤، ص٣٥، عن شاب ينقذ فتاة.

(٣٥) المصدر شفهي. تروى أيضاً عن دايان، انظر: النكتة الصهيونية، ص٤١.

بشخيره!»[٣٦]. «كان عند أسرة فلاحية عجل تشباية مشهور بفحولته. وسمع به مركز حكومي لتربية الأبقار، فاشتراه بأعلى ثمن. وعندما جاء وقت التشباية، فوجئ المركز بالعجل لا يركب أية بقرة، رغم محاولاتهم. استغرب المسؤول، وأرسل من أحضر المالك السابق للعجل. اقترب الفلاح من العجل وهمس في أذنه: ما لك؟ خجلتني! ليش بطّلت تشبّي؟! فأجاب العجل: ليش بدّي شبّي، تثبتت!». هكذا الموظف، متى تثبّت في الوظيفة، أمّن على راتبه، سواء عمل أم لم يعمل. «في محطة أبقار للدولة سمعوا أن هناك بقرة عند أحد الفلاحين تحلب مئة كيلو حليب. اشتروها منه، من أجل زيادة الانتاج وتحسين النسل. وضعوها في أحسن حظيرة، وجلبوا لها أفضل علف، وسخّروا لخدمتها كذا عامل. في البداية حلبت مئة كيلو، بعدئذ أخذت الكمية تتناقص... وبعد مدة لم تعد تحلب أكثر من ثلاثة أربعة كيلوات. استدعوا الفلاح واتهموه بالغش. واقترب الفلاح من البقرة وهمس في أذنها: شوبك ساويتي فيني هيك؟! كنت عندي تحلبي مية كيلو، شو صار؟! فقالت له: اي صرت قطاع عام!».

في الحقيقة مازالت البقرة تحلب مئة كيلو، أو ما يقرب من ذلك، لكن ما يتبقّى لأصحاب البقرة، أي المجتمع، هو أربعة خمسة كيلوات فقط. «طيارة كانت طائرة في الجوّ، وفيها اثنان من الطيارين؛ أحدهما يقود الطيارة والثاني ما بين النائم والمتيقظ. أثناء ذلك توقف محرك الطيارة. فنكش الطيار الصاحي زميله وقال له: خرب محرك الطيارة. رد عليه الثاني: معليش، فيه محرك ثاني. ورجع إلى غفوته. بعد زمن توقف المحرك الثاني. فقال الطيار الصاحي لزميله: خرب المحرك الثاني. وكان رد الطيار الثاني: معليش فيه محرك ثالث. بعد فترة أخرى توقف المحرك الثالث. فصاح الطيار الصاحي: خرب المحرك الثالث. وهنا غضب الطيار الثاني: ولك، الله لا يردّه، أهو ملك أبي؟!»[٣٧]. هكذا، كما في النكتة، حدث

(٣٦) ماجد، العدد ٨١٠، تاريخ ١٩٩٤/٨/٣١.

(٣٧) المصدر شفهي. ثمة نادرة مشابهة تروى عن الظريف المصري محمد البابلي. انظر: شوقي ضيف، الفكاهة في مصر، ص١٤٣. وثمة أيضاً نكتة شفهية مشابهة عن الخلايلي وابنه، وكذلك عن الحمصي.

للمواطن. لقد دفعته العلاقة مع الطبقة العليا وإدارتها البيروقراطية إلى موقف سلبي من الاقتصاد الوطني، وسمحت له كقوة عاملة أن يمثّل بطالة مقنعة في القطاع العام، فانعكس هذا سلباً عليه في مستوى الدخل والمعيشة. بذلك، ومع استنزاف الطبقة الجديدة له، تدهور القطاع العام، وهو القائد للاقتصاد الوطني: «واحد سأل الثاني: بكم خلق الله الدنيا؟ قال: بستة أيام. أردف الأول: اي لو سلمها للقطاع العام كانت حتى الآن ما خلصت!»(٣٨).

شبّه البعض البورجوازية الجديدة التي نشأت من خلال سلطة الدولة السياسية والاقتصادية بالإقطاع، فتحدثوا عن «الاقطاع البيروقراطي»، حيث يتحكم شخص معين بوحدة إدارية أو اقتصادية ويسخرها لمصلحته ومصلحة أمثاله. على هذا الوتر تدق هذه النكتة: «عجوز راحت تخطب لابنها. سألها أهل العروس: شو بيشتغل ابنك؟ قالت لهم: هلق بيشتغل بمخفر ع الحدود، ومعه معه بيفتح مخفر لحاله!». وهذه قروشة باسمة عن إدارة الدولة، أم الموظفين وجميع المواطنين غير الرؤوم:

إلامَ تسوط نفسك مسرعاً
مندفعاً كالبغل، أيها الزميل؟
تمهّلْ ولا تخفْ، ستجدها
بانتظاركَ تلك المومسُ العجوز
هذي التي يسمونها «وظيفة».
من غيركَ يسترُ آخرتها؟!

❊

ماذا دهاه، هذا السائق الأرعن
كثورٍ هائج يشقّ طريقه
ليقف من بعد نافثاً ريحه؟
- سيقلّ امرأة متهندمة
إلى «مكتب» القهوة والاغتياب

---

(٣٨) نجاة قصاب حسن، في: البعث، تاريخ ١٩٨٣/٢/١٥.

ونسج الصوف وعسى المغازلة

*

من هذا الرجل الذي يتطاوسْ
(يا أرض اشتدي، ما من أحد قدّي)
محلّسٌ مملّسٌ كطيز الست[٣٩]؟
يبدو كأنه قوادٌ في ماخور؟
- لا، بل هو مدير تلك المزرعة
هذي التي يسمونها «دائرة»!

*

أولاد عاقّون، نحن الموظفين،
لدولتنا، أمنا غير الرؤوم
عيّنتنا حراساً لكنز مسروق
وزرّاعاً للأوراق بالكلمات
ومن ثمّ كفرعون تقول لنا
كلوا وأولادكم مما تحصدون!

في مرحلة مدّهم الاديولوجي سعى الاشتراكيون إلى تذكير الناس بأن أي ثراء لا يكون إلا على حساب المجموع، من قوة عملهم أو من ثرواتهم العامة. يسمون هذا «توعية»، وينقدون أنفسهم إن فشلوا في كسب الناس إلى صفّهم. لكن الشيء الذي يعرفونه، إنما يتجاهلونه عادة، هو أن عملية التوعية هذه غالباً ما تفشل بتأثير تواطؤ الناس أنفسهم مع الأثرياء. إن الأنانية النفعية تكبّل، خاصة عند المنعطفات التاريخية، الكثير من المتميزين الفاعلين في المجتمع عن التصدي لأصحاب الثروات، أملاً في أن يصل هؤلاء المتميزون، هم أيضاً، إلى مصافّ الأثرياء. هذا طموح يقوّيه الاحتمال الذي تقدّمه التغييرات الاجتماعية الاقتصادية؛ وهو موقف أغلب الأذكياء الطموحين، أما الأغبياء فليس أسهل من الضحك عليهم بطريقة

(٣٩) يتطاوس: يتصرف كطاووس. الجملة ضمن قوسين هي مثل شعبي. الجملة التالية تعبير شعبي بمعنى أنه مبالغ في التهندم.



جزر الحمار. وهذه لعبة أتقنها النظام الرأسمالي. أما إذا لاحت لهم فرصة استثنائية للصعود الطبقي، فيكون اندفاعهم أقوى وضد كل المقاييس العقلانية والتقليدية: «أعلن مكتب الدفاع عن قبول متطوعين من الشباب. وذات يوم دخل رجل كبير السن، له لحية بيضاء. فسأله الرقيب: كم عمرك؟ قال: ٦٠ عاماً. الرقيب: ولكنك تعرف أن هذه السن متقدمة جداً بالنسبة لمتطوع! أجاب الرجل العجوز: ربما يكون صحيحاً فيما يخصّ الجنود، ولكن ألا تحتاجون إلى جنرال؟»[٤٠].

كيفما كان قصد النكتة، فهي تعبّر عن شخصية نموذجية من الطبقة الجديدة، على المبدأ المعروف شعبياً: «ما حدا أحسن من حدا»، أو على مبدأ «ما يعرفه أحمق يمكن لأحمق غيره أن يعرفه!»: «أرملة... قررت أن ترسل وحيدها إلى حداد القرية كي يتعلم الصنعة. وذهب المحروس أول يوم وعاد مساءً. وسألته أمه عن العمل، فأجاب: لن أذهب غداً إلى الحدّاد، فلقد تعلمت الصنعة. قالت أمه: تقبرني، احكيلي! قال الصغير: شغلة بسيطة، حطي الحديدة بالفرن حتى تصبح حمراء واخرجيها ودقيها واصنعي منها ما تشائين: رفش، فأس... أي شيء، أي شيء. وضمته إلى صدرها مبتسمة. في اليوم الثاني جاء الحداد مساء وسأل الأم عن سبب تغيّب الصغير. فقالت: الصغير تعلّم. وبدأت تشرح له كيف يعمل. وتطلّع الحداد إليها وهو يزمّ شفتيه وقال: شوف الملعون، تعلم الصنعة، وعلّم أمه كمان!»[٤١]. نستطيع القول، إن هذه النكتة والاثنتين اللتين سبقتاها تصور النموذج الوصولي قبل الصعود، لنقل: تبيّن مؤهلاته للصعود. أما النكتة التالية فتعبّر عن وضعه وقت الوصول: «من قبيل التكتيك السياسي اختير أحد وجهاء الريف لمجلس محافظته، وكان أمياً. ذهب الرجل إلى المدينة لحضور اجتماع المجلس، لكن غيابه لم يطل. سألوه: لماذا عدت باكراً؟ أجاب: ما صار جماع! (يقصد: اجتماع). سألوه: وما السبب؟ أجاب: ما اكتمل الانتصاب! (يقصد: نِصاب)».

---

(٤٠) سعد، العدد ٨٢٤، تاريخ ١٩٨٦/٤/٧، ص٢٧.

(٤١) سهيل خليل، في جريدة: الوحدة (اللاذقية)، عدد ١٩٩١/٧/٩، ص٤.

- ج -

ما ذكرناه سابقاً عن هموم المواطن العادي لا يعني بأي حال أن أوضاعه كانت في الماضي أفضل مما هي عليه الآن. نقصد بالماضي فترة ما قبل الستينات، أي ما قبل التحولات الاجتماعية الاقتصادية التي بدأت أواخر الخمسينات. على سبيل المثال، «كان الخبز في قرانا أسمر، يُصنع من القمح البلدي، بينما كان في المدينة أبيض يُصنع من طحين مستورد. فيزعم البعض أن فقراء الريف كانوا في زياراتهم للمدينة يشترون الخبز الأبيض ويأكلونه كأدام ملفوفاً بخبزهم القروي!». وإذا كان المواطن يشكو الآن من قلة اللحمة في طعامه، فإنه في الماضي كان - وهو المنتج - يجوع ويعرى ويحفى: مما رواه حكمت محسن (أبو رشدي): «أنه كان في شبابه فقيراً عرف الجوع الذي يقرض الأمعاء، فكان إذا مرّ في الدرويشية... وجد العشّي يقف شامخاً معتزاً أمام صف من الصواني الملأى بالطعام الطيب... الصغير الذي يقف على الطرف الآخر من ناحية الشارع ينظر إلى هذا الرجل السمين المتورد الخدين المشمّر عن الساعدين يمسك بيده الكفكير فيهندس الصواني ويصب الصحون، فيكاد الفتى الجائع يصيح من الخارج بما يجول في نفسه: ولك، يا عك! لماذا لا تأكل، كل وخلّصني!»(٤٢). «فيما مضى اشترى أحد الفلاحين صرماية (حلبية) من المدينة، وحملها تحت إبطه وعاد ماشياً إلى قريته. عندما اقترب، همّ أن ينتعلها، لكنه رأى أنه يستطيع حملها مسافة أطول قبل الوصول. وما أن سار خطوات حتى ضربت حجر سلاّطه قدمه فشقتها. فقال: الحمد لله أنني ما كنت لابساً الصرمايه!».

كان أهل الريف والزراعة متروكين لمصيرهم، بين مطرقة المالكين الكبار وسندان التقلبات في الطبيعة والأسواق. وفي المدينة كان الأجراء والباعة والحرفيون يخضعون لتسلط واستغلال كبار التجار ورجال الأعمال.

(٤٢) نجاة قصاب حسن، في: البعث، تاريخ ١٩٨٣/٢/٩. روى شبيهة لها عن حكمت محسن أيضاً في نفس المصدر، بطلها رجل فقير كردي. وثمة نادرة مشابهة تروى عن جحا، انظر العقاد، ص١٥٦.

حقاً إن قريحة الشعب النكتية سكتت في المرحلة الحاضرة عن الطبقة العليا السابقة، رغم أن هذه حافظت على بقائها بهذا الشكل أو ذاك. لكن ما قيل قد قيل، وهو محفوظ بنسبة كبيرة هنا وهناك. إذ العهد ليس بعيداً إلى درجة النسيان والضياع: «اشتهر أحد الأعيان بمماطلته في دفع ما عليه من ديون. وحدث أن ذهب إلى أحد الخياطين لتفصيل بدلة. فأخذ يساومه ويلحّ في المساومة، حتى أنقص الثمن إلى ما يقرب من النصف. وكان الأستاذ رامي يشهد هذه المساومة، فقال له هامساً: انت بتفاصل قوي، زي ما تكون حاتدفع له بصحيح!. فقال الوجيه: أصلي شايفه راجل طيب ومش عايز آكل عليه مبلغ كبير!»[٤٣]. «كان المقاول رجلاً كثير النشاط، لا يطيق الكسل والتراخي في العمل. وفي أحد الأيام رأى أحد الفعلة ينقل الأحجار إلى البناء ببطء وتكاسل، فصاح به يأمره بأن يسرع في عمله. فقال له الفاعل: يا معلم، طوّل بالك، ربنا خلق الدنيا في ستة أيام. فاحتدّ المقاول وقال له: لو كان أعطاني مقاولتها كنت خلقتها له في يومين فقط لا غير!»[٤٤]. «قال الفلاح للآغا: والله، يا آغا، عندي كل شلفون بيجنّن! فقال له الآغا: خلّيني أجنّ، خليني أجن!»[٤٥].

ثمة ميل طبيعي لدى الناس لقبول الأغنياء القدامى أكثر من الأغنياء الجدد، حتى لو كانت طريقة الحصول على الثروة واحدة لدى السابقين واللاحقين. كأن الزمن يعطي شيئاً من المشروعية، لما ينتج عنه من نسيان وتعوّد على ما سبق حدوثه؛ أو لما يعطيه للمرء من مبرر لعدم المسؤولية، بحكم أن الانحرافات في توزيع ثروات المجتمع لم تحصل على أيامه؛ أو لأن الحسد لا تثيره أحداث وأفعال سابقة قدر ما تثيره أحداث وأفعال مزامنة. أما إذا كان الثراء بالوراثة، فالأرجح أن يحظى الثري من عموم المجتمع بقبول أكبر، بغض النظر عن الوسيلة التي وصل بها سلف هذا

(٤٣) الاثنين والدنيا، العدد ٦٩٠، تاريخ ١٩٤٧/٩/١، ص٢٢.
(٤٤) المضحك المبكي، العدد ١٠١٩، تاريخ ١٩٦٢/١/٢٨، ص٢٣ (أحد الفعلة: أحد العمال). منشورة سابقاً في العدد ٣٥١ من نفس المجلة، تاريخ ١٩٣٧/١١/٢٠، ص٨.
(٤٥) الشلفون: الفروج، الفرخة.

الثري إلى ثروته. قال الشاعر العاملي عبد الحسين العبد الله[٤٦]:

يا مـديـر الاقـتـصـاد الوطـنـي   دلـني من أين أصـبـحـت غني

لم تهاجر، لم تتاجر، لم ترث   عـن أبيك الفذ غير الرسن

فكأن الوراثة مثل التجارة، مثل الهجرة، تشرعن الغنى. بالطبع كان الأثرياء القدامى في مرحلة من المراحل السابقة جداً، والأرجح أنهم لم ينجوا في حينها من سهام السخرية والتهكم. هكذا نجد مثلاً أن النكتة في المرحلة التي سبقت استهدفت بالدرجة الأولى أغنياء الحرب، مثلما تستهدف الآن حديثي النعمة: «البائع: أنصحك تقرأ الكتاب ده. ثري الحرب: كده؟ طيب اديني منه دسته!»[٤٧]. «اشترى أحد أثرياء الحرب الريفيين سيارة جميلة، وركبها عائداً إلى بلدته فرحاً مسروراً. وقبل الوصول توقفت السيارة. فنزل السائق وأخذ يفحص الآلية. وأخيراً قال متكدراً: إن البنزين قد نفد، يا سيدي. - الحق عليك، يا غبي، فإنك ظللت من حين ركوبنا وأنت تزمّر دون انقطاع!»[٤٨]. «ثري حرب أنجب مولوداً، فصار يعنى به أشدّ العناية. وجاء له بخادم خاصة. وحدث مرة أن مرض الطفل، وقال له الطبيب الذي فحصه بأنه مصاب ببرد شديد. فثار ثري الحرب وقال للخادم: معلوم الواد يجي له برد، مادمت شايلاه طول النهار وماشيه حافيه!»[٤٩].

بالمقابل، وفي الأحوال العادية يتصف الصاعد طبقياً، سواء في الماضي أو الحاضر، بميل طبيعي إلى أن يتأقلم مع الوضع الجديد الأفضل، وينسى الوضع القديم الأسوأ. بل إن هذا الصاعد طبقياً لا يريد عادة من يذكّره بماضيه البائس، لأنه كان بالأصل رافضاً لذلك الماضي. عقدة النقص تلازمه بعد الوصول، فينكر الماضي وأصدقاء الماضي أو - بحسب الحال - يتنكّر لهما، لأنه يريد أن يبرهن على حقه وجدارته الطبيعيين بالحاضر الأفضل، أمام الطبقة التي ارتقى إليها. بالإضافة إلى

(٤٦) فوزي عطوي، مصدر مذكور سابقاً، ص٣١. وتروى هذه الأبيات منسوبة إلى شعراء آخرين.

(٤٧) الاثنين والدنيا، العدد ٦٩١، تاريخ ١٩٤٧/٩/٨، ص٣٦.

(٤٨) البعث، تاريخ ١٩٨٩/١١/٢٩.

(٤٩) بديع خيري، في: الهلال، آب ١٩٤٨، ص١١٠.

أن للارتقاء الطبقي، بما يتضمنه من شعور بالتعالي ومن سلطة مالية وقمعية، سحراً يندر أن يكون أحد من المعنيين بمنجاة منه: «كان أحد المرشحين للانتخابات البرلمانية يخطب في حشد من الناخبين، فسأله أحدهم: أتذكر مركبة (عربة) أبيك وحماره؟ - نعم أذكر أن المركبة (العربة) قد تحطمت، وأما الحمار فقد ذكرتني أنت به الآن!»[٥٠].

«حكي أن صديقين كانا يشتغلان معاً منذ صغرهما. وقد صدف أن دارت الأيام فرشح أحدهما ليكون رئيساً، فقال له رفيقه: ماذا تعمل لي إذا أصبحت رئيساً لهذه الدولة؟ قال له: إنني أحقق لك كل ما تطلبه. قال له: ولكنك إذا وصلت إلى الرئاسة، فيصبح من الصعب أن أصل إليك. قال له: هذا صحيح، ولكن أنا أدلّك على طريقة يمكن أن تجعلني أتذكرك بها، وهي أن تجلس كل يوم تحت تلك الشجرة الكبيرة التي هي في طريقي إلى السرايا، فعندما أمر بها وأشاهدك، أدعوك لزيارتي أمام الحرس، فتأتي وتُفتح لك الأبواب. ودارت الأيام، وأصبح صاحبنا رئيساً للدولة. وذهب الصديق إلى تلك الشجرة، يجلس تحتها منتظراً مرور موكب صديقه الرئيس، ليذكره به... ولكن الرئيس كان يمر بدون أن يلتفت إليها، أو يتذكر ذلك الوعد الذي كان قد قطعه لصديقه. وأخيراً دارت الأيام أيضاً واضطر الرئيس أن يترك الكرسي، ويرجع إلى أصدقائه القدامى. وصدف أن اجتمع بذلك الصديق... وقال له: فينك كل هالمدة ما كنت عم اشوفك؟! قال له الصديق: لقد كنت أجلس تحت تلك الشجرة التي أشرت لي عنها، كما اتفقنا... فهزّ برأسه الرئيس السابق وقال له: أنا في ذلك الوقت ما كنت شايف الشجرة كلها، فكيف بدك ياني أشوفك تحتها؟!»[٥١]. هذا هو سحر السلطة.

وهكذا تقريباً كانت الحياة السياسية للبلاد تحت سلطة البورجوازية السابقة. أصحاب السلطة والمال يتنافسون مع بعضهم لنيل «ثقة»

---

(٥٠) سهيل العلي، في: فنون، العدد ١٤٦، تاريخ ١٩٩٤/٥/٣٠، ص٣٣. الكلمة ضمن قوسين إضافة مني.

(٥١) المضحك المبكي، العدد ١٠٣٢، تاريخ ١٩٦٣/٨/١٨، ص٢. بعد الاختصار.

المعدمين المستضعفين، وهؤلاء لا قدرة مالية ولا سلطوية لهم على خوض الانتخابات. وإذا ما بدا لديهم شيء من ذلك، فشكلوا خطراً، عندئذ تنزع الطبقة العليا قناع الديمقراطية وتستخدم العنف السافر المباشر. هذه أفضل أنواع البورجوازيات التقليدية العربية. أما الطبقة العليا في الممالك والسلطنات فالمواطن بالنسبة لها غالباً في مقام العبد. ومن المضحكات التي فضحت الحياة السياسية وقتذاك: «مرة كانت في البلد حملة انتخابية، فجاء أبو أيوب الكردي يقول: أنا رشّحت نفسي. قال له جلوس مقهى البرازيل: على أي شيء تعتمد يا قبو قيوب؟ قال لنا: اسمعوا، عدّوا على أسابعكم (يجعل الصاد سيناً على عادة أكراد الحارة في دمشق)، عدّوا على أسابعكم من ينتخبني: سكرجيه ينتخبوني، تمام ولا مو تمام؟ قلنا له: تمام. قال: حشاشه ينتخبوني، حرامية ينتخبوني، عرسات ينتخبوني، بيلحقوا نسوان ينتخبوني، بيلحقوا اولاد ينتخبوني، اي مين بقى؟»(٥٢). «ترشّح مرة نقولا سرسق، الغني المشهور، عن البقاع، وأقيم له حشد انتخابي ووقف ليخطب فيه. فاستهل خطبته بقوله: ليعذرني الاخوان، إذا لحنت، لأني نسيت النحو. وكان المطران نيفون سابا حاضراً تلك الحفلة، وهو معروف بسرعة خاطره ولذعات نكته، فقال له: انت شو بدك بالنحو، اعتمد على (الصرف)، وأنا ضامن نجاحك!»(٥٣). «أثناء الحملة الانتخابية لفكري أباظة في مصر الأربعينات وقف أحد المؤيدين له يقول: انتخبوا خير من يمثل عليكم!»(٥٤). ـ ربما كانت زلة لسان أو جهلاً باللغة، لكنها - بغض النظر عن اسم النائب - صادقة عموماً.

«يحكى عن أحد النواب في سوريا الخمسينات أنه كان ينام في المجلس النيابي أثناء انعقاد جلساته. مرة من المرات غطّ في النوم. انتهت الجلسة وفلّ النواب وهو مازال نائماً. جاء العامل لينظف قاعة المجلس، فرأى النائب على هذه الحالة. أخذ يوقظه. وما بين النائم والصاحي رفع

(٥٢) نجاة قصاب حسن، جيل الشجاعة، ص٣٥٥.
(٥٣) المضحك المبكي، العدد ١٠١٤، تاريخ ١٩٦٢/١٢/٢٣، ص١.
(٥٤) عادل الجوجري، ص٦٢.

النائب يده وقال: موافتش!». وهذا مثال من الثلاثينات: «السائح: دخلك فين ممكن نلاقي آثار قديمة وتماثيل؟ محمد علي بك (العابد وكان رئيساً للجمهورية): يا في المتحف العربي، يا في البرلمان!»[٥٥]. وهذه لقطة نكتية من ملهاة كان عامة الشعب يؤدونها على مسرح الحياة السياسية في دمشق: «تولى رئاسة الجمهورية في أول الأربعينات الشيخ تاج الدين الحسيني، وكان مع الفرنسيين. ولذلك فحين علا تيار الوطنية شيّعه أهل دمشق بمظاهرات معادية. فيقول أحد المتظاهرين: أنا الشيخ تاج حبوني حبوني. فيجيبه الجمهور: خرانا عليك، خرانا عليك!»[٥٦]. «عسكري سمع رجلاً يتحدث عن الملك الفاسد، فأراد أن يقتاده إلى القسم. قال الرجل، إنه لم يعيّن في كلامه من يكون ذلك الملك الفاسد. فقال العسكري: لا يا شيخ، وهو فيه ملك فاسد غير ملكنا؟!»[٥٧].

في كل الأحوال لم تكن الطبقة العليا السابقة أكثر اهتماماً بالطبقة المنتجة المعدمة من الطبقة العليا الحالية، رغم ما يشاع عن الحرية والتمثيل الديمقراطي وقتذاك، إذ للتسلط والاستغلال أشكال وألوان، والديمقراطية لا تكون حقيقية في مجتمعات التفاوت الطبقي، لا تكون حقيقية إلا بين الأنداد: «توقفت سيارة (الاقطاعي) النائب في إحدى القرى لسبب ما، فتقدم إليه أحد الفلاحين وقال له: أعمي، لا تنساني!. وذكّره بمشكلته التي كان قد توسّطه بها. وبعد قليل عاد الفلاح إلى تذكيره. فقال له النائب مطمئناً: لا تخف، لن أنساك. وقبل أن تعود سيارة النائب للانطلاق كرر الفلاح رجاءه. فقال له: الله ينساني، إن كنت أنساك. عندما ابتعدت السيارة قليلاً، سأله أحد المرافقين في السيارة: من هذا؟ فأجاب النائب: علمي كعلمك، لا أعرفه!»[٥٨]. انطلاقاً من هكذا موقف كان أحد كبار السياسيين البورجوازيين السابقين في سوريا يردد: «إني أشبّه

(٥٥) المضحك المبكي، العدد ١٨٨، تاريخ ١٩٣٣/١١/٧، ص١٨.

(٥٦) نجاة قصاب حسن، جيل الشجاعة، ص٣٦٢ - ٣٦٣.

(٥٧) محمد عفيفي: النكتة كفن جميل، في: الهلال، العدد الثامن، آب ١٩٦٦، ص١٣٦.

(٥٨) عين الزهور، ص٣٧ - ٣٨. مشهورة في سوريا قصة «هات الهوية وخود المية!»، إبان الانتخابات النيابية في فترة الحكم البورجوازي التقليدي.

السياسي عندنا بالأرتيست تماماً. فكما أن الأرتيست تضطر بحكم مهنتها أن تتحمل غلاظات البشر وثقالتهم لتستطيع أن تكسب ما تعيش به، هكذا رجل السياسة، فإنه مضطر أن يتحمل غلاظة الناس وثقالتهم ليستطيع أن ينجح ويكسب ثقتهم ويرضيهم!»[59]. وهذه مفارقة من الحياة رواها منير عامر: «سألني عبد الحليم ذات مرة: هل تعتقد أن عبد الناصر ظالم، لأنه يأخذ من الأغنياء؟ أقول لعبد الحليم: الظلم والعدل كلمات صعبة، لكني رأيت طعاماً يكفي قرية، ونحن معزومون مع أخي في تفتيش ملكي في عام ١٩٥١، وأمر صاحب القصر بدفن الطعام حتى لا يأكله الفقراء!»[60].

إن أصحاب السلطة من كبار الملاكين ورجال الأعمال، ما كانوا يعرفون الإنسان الفلاح أو العامل أو المستخدم من مواطنيهم، وما كانوا يريدون أن يعرفوا شيئاً عنه كإنسان أو مواطن. بل إن النائب منهم والسياسي كان يتضايق من غلاظة وثقالة مؤيديه وناخبيه، لأنه في الحقيقة لا يمثلهم، إنما يمثل مصلحته الشخصية و - في أفضل الأحوال - من خلال مصلحة طبقته المتسلطة. لكن المواطن عموماً خبر ذلك مع الأيام، ولم ينس مواقف نوابه وسياسييه. ولولا ذلك لما وصلت إلينا تلك النكات والنوادر، بل لولا ذلك لما صعدت طبقة جديدة واستقرت مكان أو إلى جانب طبقة ذلك المالك وذلك السياسي. فالفلاح، إن لم يكن شارك في محاربتهم، فقد كان كارهاً لهم مسروراً بأفول نجمهم: «بنت مرابعين كانت (صوب برّه)، وكان صباح يوم عيد. كانت قابزة وراء الصبارات، عندما لمحت مقدم القرية. وما أرادت أن تفوّت الفرصة، فصاحت تعيّده: عيد مبارك عليك، وامقدمنا!. استاء الزعيم من هذه المعايدة غير اللائقة، فقال لها زاجراً: افعليها واسكتي!. ولم تفهم الصبية كلامه على حقيقته، فتابعت معايدتها: عليك وعلى عائلتك وعلى محبيك، يا رب!»[61]. في موقفه هذا يتساوى الفلاح القديم مع المواطن الحديث تجاه الطبقة الجديدة.

(٥٩) المضحك المبكي، العدد ١٠٢٢، تاريخ ١٧/٢/١٩٦٣، ص١.
(٦٠) منير عامر، في: روز اليوسف، العدد ٣٤٣٤، تاريخ ٤/٤/١٩٩٤، ص٤٦.
(٦١) عين الزهور، ص٣٦. المرابع: فلاح بالمحاصصة.

وهذه نادرة تعبّر عما كانت عليه مشاعر قاع المدينة تجاه أغنيائها التقليديين: «حكي أن غنياً رزق بولد بعد ثلاثين سنة من زواجه، فتعلّق به وصار يرى الله فوق وابنه تحت. وكان في البلدة شحاذ في حالة يرثى لها. فنصحه أحد أبناء البلدة بأن يتربّص لذلك الغني، وأن يقول له، عندما يراه مع ابنه (الله يخلي لك هذه الشمعة ويطوّل عمره)، فهو عندئذ سيكرمه وينعم عليه. وهكذا فعل الشحاذ، فوجد ابن الغني في غاية القبح. وهنا لم يستطع الشحاذ أن يتمالك نفسه، فتقدم من الرجل وقال له: هذا هو ابنك، يا سيدي؟ قال له: اي نعم. فقال له الشحاذ: الله يقصف عمره، وأنا رزقي على الله!»(٦٢). «قيل إن إحدى السيدات أرادت أن ترسل مع الصانعة طعام (التعصيرة) إلى ابنها في المدرسة. ولماكانت الصانعة جديدة، فقالت للسيدة، إني لا أعرف ابنك. فقالت لها السيدة: شوفي أجمل ولد في المدرسة واعطيه (التعصيرة). فما كان من الصانعة إلا أن أعطت الطعام لابنها!»(٦٣). ولم تكن الطبقة الوسطى أكثر تمسكاً بالطبقة العليا السابقة من فقراء المدينة والريف: «خاض أحدهم معركة الانتخابات متحالفاً مع ارستقراطي من بيت فلان، فخسرها الاثنان. قيل له: مالك فشلت في الانتخابات؟! أجاب: لا، بل نجحت أكبر نجاح، سقّطت بيت فلان!».

هذا الموقف العدائي أو الازدرائي (الاستخفافي) له أساس واقعي، وهو بالتحديد سوء العلاقة ما بين الطبقة العليا والطبقات الأخرى في المجتمع العربي، لاسيما فيما يخص معيشتها وكرامتها. وقد عبّرت عنها النكتة أجمل تعبير. فيما سبق ذكرنا شواهد على معيشة الفقراء في المدن والريف: «يقول الأغنياء: إجا الشتا وإجا لبس الفروات وأكل الكنافات ورمي الخرافات (النكات). بينما يقول الفقراء: إجا الشتا وإجا لبس الشراطيط وشرق المخاليط وأكل القرنبيط»(٦٤). أما عن هدر كرامة المواطن فحدّث

(٦٢) باختصار عن: المضحك المبكي، العدد ١٤٠٦، تاريخ ١٩٦٣/١١/٢٤، ص٢. وقبلئذ في العدد ٢٠٥، تاريخ ١٩٣٤/٢/١٧، ص١.

(٦٣) انطوان شعراوي، ص٤١. الصانعة هي الخادمة أو الشغالة.

(٦٤) انطوان شعراوي، ص٥٧.

ولا حرج: «الاقطاعي لابنه: هل تعلمت الجمع والضرب والطرح؟ الابن: نعم، يا والدي. الاقطاعي: وكيف ذلك؟ الابن: نجمع أهل القرية فنضربهم ضرباً ثم نطرحهم أرضاً!»[٦٥]. «شغالة صغيرة دقت باب جارتهم في السكن. فلما فتحت الجارة، بادرتها الشغالة بقولها: ستي بتصبّح عليكي وبتقول لك: اضربيني قلمين، علشان ايدها مش فاضيه!»[٦٦]. «الارستقراطي لخادمه: اسعل، كما سعلت أنا امبارح، حتى يشوف الحكيم شو كان معي!»[٦٧]. في كاريكاتير للمضحك المبكي يقول «الشيخ تاج: جايبلكم (كمامات) من باريس، بلكي صار شي حرب بتحميكم من الغازات. الصحافيون: ما في حاجة، لأن نحن حاطيلنا (كمامات) على تمنا من زمان!»[٦٨].

في هذا الإطار يستهوي النكتة أن تطرق المحرمات. فكل سلطة سياسية و/ أو اقتصادية و/ أو اجتماعية هي في ذات الوقت، من باب تحصيل الحاصل، سلطة جنسية، بهذا الشكل أو ذاك. إن من يتسلّط على الناس ويستغل قوة عملهم يفضّل أن يمارس سلطته من أجل المتعة، ويعطي لنفسه الحق في ثروتهم الجنسية وفي أن يتمتع بها: «جلس الآغا مع الشوباصي يستعيد ذكرياته في القرية التي يملكها، وكان عنده أحد عشر مرابعاً، فقال: والله، عشت أيام بسط في هذه الضيعة، أتعلم كم واحدة خلوت بها؟ فأخذ الشوباصي يعدهم، ثم أجابه: إحدى عشرة، يا سيدنا. فقال له الآغا مصححاً: لا والله، اثنتا عشرة!»[٦٩]. مع ذلك لا يغيب عن ذهننا أن نصف الطبقات الأدنى، وهن النساء فيها، قد لا يجد بعضهم بأساً في أن يستفيد – إضافة لمتعته المحرمة المحمية – من رغبة رجال الطبقة العليا. فربما أمكنه عن هذه الطريق أن يصعد طبقياً، أو – على الأقل – أن يحسّن وضعه المعيشي. – إنه حلم لطالما جعلت منه السينما المصرية منذ بدايتها قضية لها (السيد

(٦٥) أسامة، العدد ٤١٠، تاريخ ١٩٨٦/٢/١، ص٧. وردت في مجلة: سعد، العدد ٨٤٣، تاريخ ١٩٨٦/٨/٢٥، ص٤١، دون نكهة طبقية.
(٦٦) رحلة مع الظرفاء، ص١٥.
(٦٧) المضحك المبكي، العدد ١٠٢٩، تاريخ ١٩٦٣/٧/١٤، ص٢٣.
(٦٨) المضحك المبكي، العدد ٢٧٠، تاريخ ١٩٣٥/١١/١٢، ص١.
(٦٩) عين الزهور، ص٣٨.

والخدامة): «قال طفل لأمه: أصحيح أن الملائكة يطيرون؟ قالت له: طبعاً. فقال لها: لماذا إذن الصانعة عندنا لا تطير؟ فقد قال لها أبي بالأمس: يا ملاكي. فقالت له الأم: لا يبقى بالك، اليوم بتطير!»(٧٠). ولا شك أن هناك البعض الأقل من النصف الآخر، وهم رجال الطبقات الدنيا، يعجز عن حماية نسائه، فيقبل على مضض بشيء من الفوائد، طالما أن ما يريده المالك المتسلط سيحصل عليه بالرضى أم بالغصب: «في إحدى القرى افتضّ ابن الوجيه بكارة ابنة فلاح. ثار الأب، فنصحه الأهل والأصحاب محذّرين بأن لا يثير الموضوع أمام الوجيه، لكن الفلاح أصرّ. وعندما انعقد مجلس السهرة قال: يا بو فلان، ابنك خزق لهالبنت شنتيانها، والله بدنا حقّه!».

إلى جانب ذلك لا ننسى أن ثمة إعجاب أو افتتان ينشأ عادة لدى عموم فتيات الطبقات الأدنى تجاه شباب الطبقات الأعلى، على الأقل بسحر الجاه والمال والسلطة التي يملكونها. وهذا يفتح نافذة لوصول هؤلاء الشباب إلى تلك الفتيات. فليس موقف نساء الطبقات الأدنى مماثلاً تماماً لموقف رجال هذه الطبقات: هناك التجاذب الجنسي، إلى جانب الصعود الطبقي وتحسين المعيشة: «سأل المدير الوسيم الموظفة الشابة: هل لديك ما يشغلك هذا المساء؟ أجابت وقلبها يدق فرحة: لا، أبداً. قال: إذن أرجو أن تأخذي هذه الكومة من الأوراق وتحاولي أن تنسخيها كلها!»(٧١). «هرعت السكرتيرة إلى مكتب المدير قائلة: سيدي، إن ابنتك على الهاتف وتريد تقبيلك. فقال لها المدير على الفور: حسناً، استلمي منها القبلة وسآخذها منك بعد انتهاء أعمالي!»(٧٢). طبعاً، لا يوجد تجاذب مشابه فيما بين رجال الطبقات الأدنى ونساء الطبقة الأعلى، لأن المجتمع الطبقي الرجالي يسمح بوصول الرجال المقتدرين إلى النساء المستضعفات أكثر بكثير مما يسمح للنساء المقتدرات بالوصول إلى الرجال المستضعفين، إضافة إلى أن الجنس يهوى الاقتدار، لا الضعف.

---

(٧٠) انطوان شعراوي، ص٦٩.

(٧١) حواء، العدد ٧٤٠، تاريخ ٢٨/١١/١٩٧٠، ص٤٩.

(٧٢) نضال الفلاحين،العدد ١٣١٥، تاريخ ٢٤/١١/١٩٩٣، ص٨.

نستطيع القول، إن الجنس لاطبقي، من حيث المبدأ. فله مقاييسه الخاصة في الاختيار، التي لا يشكّل الانتماء الطبقي منها سوى واحد من جملة عوامل. والصعود الطبقي ليس وهماً، بل وليس غريباً ولا نادراً، إنما هو بالتأكيد ليس حلاً عاماً للمسألة الطبقية، بل أقصى ما يستطيع هو أن يكون حلاً فردياً لهذه المسألة: «كان في إحدى القرى النائية في الجزيرة راع يرعى غنمات أهالي تلك القرية وطروشهم. وكانت له أخت جميلة جداً. وفي ذات يوم جاء أحد التجار الحلبيين ليشتري عدداً من الغنمات، فدهش بأخت الراعي، فتزوجها وجاء بها إلى حلب. وبعد زمن جاء رجل من تلك القرية، فقصد تلك المرأة للسلام عليها. سألته عن أخيها الراعي المسكين، فقال لها: إن أخاك أصبح مختاراً وأصبحت له هناك الكلمة النافذة. فلما سمعت هذا، أخذت تصرخ وتولول. فتعجب الرجل من حركتها هذه، فقالت له: أنا لا أولول على أخي، وإنما على القرية التي لم يوجد فيها خير من أخي فانتخب مختاراً»(٧٣).

من الملاحظ أن الطبقة العليا في بدايتها وفي نهايتها تكون في حالة مناسبة لصعود طبقات أخرى عن طريق الجنس. ففي البداية لا تكون التخوم الطبقية المادية والاديولوجية قد تحددت تماماً بعد. وفي النهاية تبدأ معالم التخوم بين الطبقات بالضياع مادياً واديولوجياً. أما في مرحلة قوتها فإن الطبقة العليا تستطيع أن تستغل الطبقات الدنيا جنسياً، دون أن تسمح لها بالصعود إلى مصفّها. عندئذ، من ناحية تكون الطبقة العليا ممسكة تماماً بالمجتمع والاقتصاد ومحافظة على عصبيتها الطبقية، ومن الناحية المقابلة تكون الطبقات الدنيا خاضعة في تأمين معيشتها لمتطلبات الطبقة العليا: «كانت عند الرئيس ناظم القدسي خادمة في منزله تقوم على خدمة البيت وتدبير شؤونه. ففي ذات يوم خطر ببالها أن تطالب بزيادة أجرتها، وهددت أنها، إذا لم تحصل على هذه الزيارة، ستترك. ولما لم يستجب إلى طلبها، تركت فعلاً. فجمعت ثيابها في حقيبة صغيرة، حملتها تحت إبطها وراحت. ولكن يظهر أنها، بعد أن أغلقت الباب

(٧٣) باختصار عن: المضحك المبكي، العدد ١٠٢٣، تاريخ ١٩٦٣/٨/٢٥، ص٢.

وراءها، ندمت على ما فعلت، فرجعت. قالوا لها: خير إن شاء الله، باين رجعت؟! قالت لهم: لقد تذكرت، بعد أن أغلقت الباب، إني عاجنة العجينة، فخفت أنها تحمّض!»[٧٤].

إلى حد بعيد انزاحت البورجوازية التقليدية، المسماة «رجعية»، عن قمة الهرم الطبقي في بعض المجتمعات العربية مثل مصر وسوريا والعراق واليمن والسودان وليبيا، لكنها استمرت في مجتمعات عربية أخرى. وقد تطور النموذجان البورجوازيان، التقليدي والجديد، خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة باتجاه التقارب فيما بينهما، من حيث أن البورجوازية التقليدية أصبحت أكثر تنوراً وأقل استبداداً وأن الطبقة الجديدة تحولت إلى بورجوازية مستبدة وتخلت عن أهدافها التقدمية. في الوقت الحاضر، حيثما استمرت البورجوازية التقليدية، تتناولها النكتة بالهزء والمسخرة، وإن لم يكن بالزخم الذي وجّه إلى شقيقتها الجديدة:

«أحد الحكام كان في زيارة لبلد آخر. بعد عودته إلى بلاده صادف أحد مواطني البلد المضيف ورقة نقدية عليها صورة هذا الحاكم. فكّر الرجل بأن الحاكم الضيف ضيّع هويته. فسافر إلى بلد الحاكم وطلب مقابلته. بعد طول انتظار قابله وأعطاه الورقة النقدية. فشكره الحاكم وأعطاه ظرفاً وقال له: لا تفتحه إلى بعد أن تتجاوز الحدود. بعد أن اجتاز الحدود فتح الرجل الظرف، فوجد فيه أوراقاً نقدية عليها صور أجداد الحاكم. فقال الرجل لنفسه: كم هو أجدب هذا الحاكم، أعطيه هويته، فيعطيني دفتر العائلة!». «صحفي سأل حاكماً عربيا: ماذا قدمت للانتفاضة في الأرض المحتلة؟ فأجاب: أرسلت لهم حجارة!». «الأميركان في السعودية أخذوا خنزيراً وهمّوا بذبحه. فحال السعوديون بينهم وبين ذلك قائلين: هذا خنزير، حرام أكله. ردّ الأميركان: هذا ليس خنزيراً، هذا خروف. لكن السعوديين أصروا: هذا خنزير. فقال الأميركان: هذا خروف حاطط كمّامة!». «زعموا أنه بعد احتشاد الجيوش الأميركية في السعودية منذ آب

(٧٤) باختصار عن المصدر السابق، العدد ١٠١٥، تاريخ ١٩٦٢/١٢/٣٠، ص١.

في عام ١٩٩٠ أصبح من شروط الحج أن يتقن المرء اللغة الانكليزية، والسبب هو أن المطوف أمريكي!».

- د -

كان النظام القديم يعتمد أساساً في سلطته الطبقية على الاقتصاد، وعلى هذا الأساس واستكمالاً أو تدعيماً له كانت تأتي الاجراءات الأمنية القمعية: السياسة تخدم الاقتصاد، والاثنان في خدمة الطبقة. أما الطبقة الجديدة فأساس سلطتها الطبقية هي السياسة، وخاصة الداخلية. وعلى هذا الأساس تؤمن مصالحها الاقتصادية: الاقتصاد يخدم السياسة، والاثنان في خدمة الطبقة. برأيي، وبعد الاعتذار من لينين العظيم، من الطبيعي أن يكون الاقتصاد هو الأساس: أوّلية الاقتصاد. فالغني يريد بالسياسة، ومنها القمع، أن يحفظ أو يزيد ثروته ومدخوله. والمتسلط يستخدم قوته، كي يحصل على الثروة والمدخول العالي، اللذان يؤمنا له كما للغني التمتع بخيرات الدنيا. إلى هذا مرجوع الاثنين. «قيل: مر عمرو بن عبيد بجماعة وقوف. فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقاً. فقال: لا إله إلا الله، سارق العلانية يقطع سارق السرّ!»[٧٥]. بالطبع ما كان بإمكان الطبقة الجديدة في بداية صعودها أن تحارب بالاقتصاد الذي كان بيد الطبقة البورجوازية التقليدية، إنما بالسلطة التي امتلكتها في غفلة عن الطبقة العليا وبتأييد الطبقات الدنيا. لكن أن تبقى الأمور هكذا بعد ثلاثة أو أربعة عقود من قيادة المجتمع، فهذا معناه أولاً أن الطبقة الجديدة لا تنوي أو لا تستطيع إيجاد نظام اقتصادي مغاير قائم بذاته، مما يؤدي إلى عودة البورجوازية السابقة و/ أو تحول الطبقة الجديدة إلى بورجوازية جديدة على نمط البورجوازية السابقة، ومعناه ثانياً أن عملية التراكم الأولي (الاغتصابي) اللازم للطبقة الجديدة كبورجوازية جديدة لم تنته بعد. وقد كانت هذه الطبقة من الجهل والاستهتار والجشع بحيث أنها لم تزل تراكم وتراكم حتى قطعت أنفاس مجتمعها: «قال المتفائل: إذا بقيت الأحوال هكذا، أكلنا خرا. فقال المتشائم: إذا بقيت الأحوال هكذا، لن نجد خرا نأكله!».

(٧٥) المستطرف للأبشيهي، ص٢١٧.

في إخضاعها الاقتصاد للسياسة الداخلية، وحتى للدعاية، كموقف معكوس من طبيعة الأشياء، كانت الطبقة الجديدة - خاصة في بداية سلطتها وتجربتها في الحكم - مضحكة مبكية. وقد رصد العقل الشعبي الناقد لقطات من ذلك المسرح السياسي الهزلي. من النكات الجميلة التي سمعتها بعد التأميمات في سوريا ثم اختفت لزوال الدافع لها أو الغاية من ورائها، «أن كلباً سورياً كان مهاجراً إلى لبنان. عند الحدود التقى بكلب لبناني. سأله الكلب اللبناني: إلى أين، يا أخ؟ أجاب الكلب السوري: أنا مهاجر إلى لبنان. ـ تترك سوريا بلد الوحدة والحرية والاشتراكية؟! ـ نعم، فهم يخصون كل كلب عنده ثلاث بيضات!. ـ وما المشكلة؟ عندك بيضتان فقط، فمم تخاف؟. ـ المشكلة أنهم يخصون الواحد ثم يعدّون بيضاته!»[٧٦] . هذا تاريخ، فقد حدث فعلاً أن التأميم جرى بشكل غير مدروس، لدرجة أن بعض المعامل المؤممة كانت موجودة في السجلات فقط، وأن بعض الشركات كانت مديونة للدولة أكثر من موجوداتها، أي هي مفلسة في الحقيقة... الخ[٧٧]. وجاء في كاريكاتير للمضحك المبكي: «بعد أن أصبح سعر الشعير أغلى من سعر القمح: الحمير يحتجون، لأنهم يجبرون على أكل الشعير مع أن القمح أرخص لهم!»[٧٨]. وهذا مثال من الواقع: «في ٢٤ مايو ١٩٦٠ كان قد تم الاستيلاء على المبني والمطابع لمجلة روز اليوسف. وكان احسان عبد القدوس قد اقترض هو وعائلته حوالي مئة ألف جنيه من البنك لبناء دار جديدة للمؤسسة تنتقل إليها في شارع قصر العيني. لكن البناء انتقلت ملكيته إلى الاتحاد القومي، بينما ظل الدين باسم احسان عبد القدوس واسم عائلته. فأصبح في موقف لا يحسد عليه: استدان من البنك ليبني داراً صحفية يقدمها للدولة!»[٧٩].

(٧٦) المصدر شفهي. ثمة نكتة مشابهة أوردها نجاة قصاب حسن في: جيل الشجاعة، ص٣٦١، عن أبي درويش وهو يهرب من الحكومة التي تلمّ الجمال. كما أورد عباس البغدادي نكتة مشابهة عن عدد أصابع اليد، في: تحرشات ساخرة، دار المروج، بيروت ١٩٩٣، ص٤٧.

(٧٧) انظر بعض المعلومات بهذا الشأن في: السلطة العمالية على وسائل الانتاج، دار الحقائق، بيروت ١٩٧٩، ص٤٦ - ٤٧.

(٧٨) المضحك المبكي، العدد ١٠٤٦، تاريخ ١٩٦٣/١١/٢٤، ص٣.

(٧٩) فتحي غانم، في: روز اليوسف، العدد ٣٤٣٠، تاريخ ١٩٩٤/٣/٧، ص٥٨.

المسألة - في الحقيقة - لم تكن مسألة اقتصادية تتطلع إلى الهدف الاقتصادي وتبحث عن أنسب الوسائل للوصول إليه، بل كانت مسألة سياسية ترمي إلى التحكم بوسائل الانتاج بأية وسيلة ممكنة. وإذا كانت بعض الشركات مفلسة، فإن البعض الآخر لم يكن كذلك. ثم إن المسؤولين لن يخسروا شيئاً من تأميم الشركات المفلسة، بل المواطنون دافعو الضرائب. هذه الفجوة بين المتطلبات المجتمعية العامة والهدف الطبقي الخاص حاولت الطبقة الجديدة سدّها بالدعاية، بالشعارات المعلنة والتي استعملت مثل رقوات المشايخ وطلاسم السحرة والمشعوذين: «توفي أحدهم فخيّروه في الآخرة بين الجنة والنار. أراد رؤية الاثنتين، كي يستطيع الاختيار. نظر إلى الجنة، فرأى ما رآه من عبادة وتأمل وسكون وملل. ثم نظر إلى جهنم، فرأى الناس يرقصون مصطهجين، فاختار جهنم. وعندما دخلها، رأى الناس يرقصون من حرارة الجمر الذي تحت أقدامهم. قال: ما هذا؟! أريتموني الناس يرقصون فرحاً. قالوا له: تلك كانت جهنم بالتلفزيون!». «التقى ثلاثة حكام: غورباتشوف وريغان وزعيم عربي، وأخذ كل واحد منهم يتفاخر على الآخر. قال غورباتشوف: نحن لا يستطيع أحد أن يقهرنا، خسرنا في الحرب العالمية الثانية عشرين مليوناً، ومع ذلك صمدنا وهزمنا جيوش هتلر. وقال ريغان: نحن جنودنا في كل العالم، لا يهابون الموت، مستعدون لأية مهمة في أي مكان وزمان. فقال الزعيم العربي: أنا عندي رجال، إذا قلت للواحد منهم (اقتل نفسك)، يقتل نفسه. فاستغرب غورباتشوف وريغان وقالا له: كيف يكون ذلك؟! قال لهما: سأريكما. فقال لأحد الجنود: ارم نفسك. وكانوا جالسين في مكان مرتفع. فاندفع الجندي يريد رمي نفسه. لكن غورباتشوف وريغان لحقا به وأمسكاه وقالا له: مجنون، كيف تقتل نفسك هكذا دون سبب؟! قال: اتركاني، أريد أن أخلص من هذه العيشة!».

لقد بدأت الطبقة الجديدة بإعلان مبادئ حاربت تحت لوائها البورجوازية التقليدية، وكسبت إلى صفّها الطبقات الدنيا، واستلمت قيادة المجتمع والاقتصاد. في ممارستها للسلطة سارت وراء مصالحها الطبقية،

لكنها في نفس الوقت كانت حذرة جداً في التخلي عن المبادئ المعلنة. ولما كانت المصالح الطبقية الضيقة لا تتفق دوماً مع المبادئ العامة المعلنة، فإن الطبقة الجديدة كانت تجعلهما متفقين بالدعاية مع كبت الأصوات المعارضة. الدعاية أصبحت تساوي التضليل، والاديولوجيا أصبحت تبريريدة وغوغائية.

في مقابلة معه قال الأديب يوسف ادريس: «ذات مرة في أحد الاجتماعات الرسمية العربية، كنت أجلس إلى جانب أحد الحكام العرب...، فأردت أن أتبادل معه أطراف الحديث. فسألته: يا فخامة الرئيس: هل تقرأ؟ فأجاب: بلى، أقرأ. وحتى يستمر الحوار، كررت السؤال بصيغة أخرى، فقلت: هل تحب قراءة الأدب أم التاريخ أم...؟ فردّ عليّ باستنكار: كيف نقرأ التاريخ ونحن الذين نصنع التاريخ؟!»[٨٠]. شاهد آخر من الحياة نقله لنا محمود السعدني: «وفي عام ١٩٥٦ أتيح لي أن أصدر صحيفة (الجمهورية) لسان جمال عبد الناصر، طبعة بيروت، وكان ذلك أثناء العدوان الثلاثي على مصر. هذه الصحيفة انتشرت وبيعت كثيراً. وكنا نلجأ إلى أساليب عجيبة، مثلا: ... نحضر صورة لأي انكليزي ونكتب: حديث مع الجنرال (فلان) الذي وقع أسيراً في يد القوات المصرية. وبقينا كذلك حتى آخر تخريفة والتي أقفلت الصحيفة بسببها: فقد كتبنا تحت عنوان (حديث مع ماو تسي تونغ): مليون جندي صيني في طريقهم إلى مصر لردّ العدوان!. فجاءنا ممثل وكالة (تاس) السوفييتية وسألنا: كيف تنشرون هذا الحديث؟! فقلت له: إنه مراسلنا في...!»[٨١].

شاهد ثالث: «في ١٢ آذار ١٩٦٣ أوردت مجلة «الاقتصادي العربي» خبراً عن مقابلة من «رجال الفعاليات الاقتصادية» (أي الرأسماليين الصناعيين، بلغتنا) وتجار دمشق لنائب رئيس الوزراء، جاء في الخبر: ... ثم

(٨٠) يوسف ادريس في آخر حديث معه لـ«الموقف العربي»، العدد ٤٨٦، تاريخ ١٩٩١/٨/١٨، ص٤٦.

(٨١) محمود السعدني، في مجلة: العربي، العدد ٤٢٦، أيار ١٩٩٤، ص٧٤.

انتقل أحد المجتمعين إلى الكلام عما يقال بأن التجار هم أشخاص (بورجوازيين)، وما يتفرّع عن هذه الكلمة من اتهامات، وعن اهتمام الدولة بفئتين من طبقات الشعب دون غيرهما (يقصد العمال والفلاحين). فردّ نائب رئيس مجلس الوزراء على ذلك قائلاً: أرجو ألا تعيروا هذه الشائعات أذناً صاغية، فنحن نعتبركم منا وإلينا، كما أننا لا نفرّق بين طبقات الشعب، والكل في نظرنا سواسية؛ إن البورجوازي هو ذلك الشخص الذي يعمل للتهديم والتخريب والإضرار بمصالح البلاد، ولا أعتقد أن أحداً منكم يعمل في هذا المجال!»[٨٢]. وهذه نادرة تعود إلى أيام الشيشكلي في سوريا: «جرت أيام الشيشكلي انتخابات. وفي الحملة الدعائية بمنطقة عفرين حصلت ملاسنة بين أحد المرشحين ومسؤول المنطقة. فقال المرشح، إنه سوف ينجح غصباً عن أديب الشيشكلي نفسه. ووصل هذا القول إلى الشيشكلي، فأوعز إلى المسؤول أن يسحق هذا المرشح في الانتخابات. وفعلاً كانت النتيجة أن المرشح المذكور لم ينل أي صوت. إذ ذاك قال له المسؤول: ماذا تقول الآن؟ فقال المرشح المهزوم: صحيح أنا عشيرتي قوية، بسّ تخلّوا عني وما انتخبوني، وصحيح عائلتي كبيرة، بس نسوا الخبز والملح وما صوتوا لي؛ بسّ أنا بعرف إني صوتت وانتخبت نفسي، بدي أعرف وين راح هالصوت!».

هذه نوادر من الواقع، لا يميز العامة الممارسات فيها عن الكذب، كما يظهر من بعض النكات التي تداولوها في هذا المجال: «أحدهم صعد إلى السماء. هناك سمع: تك، تك... سأل الملائكة عن ذلك، فقالوا له: هذه آلة لتسجيل الكذب، كل تكّة كذبة. بعد قليل سمع تكّات متلاحقة: تك تك تك تك... سألهم: ما هذا؟ قالوا: هذه جريدة كذا تجري طباعتها!». «كانت مجموعة من رجال الأمن تفتش بيتاً لمواطنين معارضين. فجأة صاح أحد العناصر: سيدي، سيدي، انظر: الاشتراكية، الاشتراكية!. نظر رئيسه إلى ما بيده وقال له زاجراً: اسكت، ولاه، هاي جريدتنا!». وقد قيل: «مثل الدول العربية التقدمية كمثل السائق الذي يشير إلى اليسار ويتجه إلى اليمين!». وعن

(٨٢) وردت أيضاً في: عين الزهور، ص٢٠٨ - ٢٠٩.

السياسة الخارجية قال هيكل: «بعض دول العالم الثالث تصنع معجزة تغيير الطائرات في الجو. تقلع مع الاتحاد السوفييتي وتنزل إلى الأرض مع الولايات المتحدة!»[٨٣]. طبعاً كان هذا قبل انهيار الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي. في الحقيقة يمكن رصد ثلاث مراحل من حكم وسيطرة البورجوازية العربية الجديدة، والملفت أن هذا التقسيم لم يغب عن النكتة، فعبّرت عنه بأشكال مختلفة، منها: «يقال عن حكام مصر: الأول طعمانا مشّ، والتاني علّمنا الغشّ، والتالت لا بيطشّ ولا بينشّ!». «في كاريكاتير للشهيد ناجي العلي يقول الرجل الطيب لزوجته فاطمة: صورته كانت بالصالون، وبعد معركة الجبل لقيتها معلقة بالمطبخ، وبعد الهجوم عالضاحية شفتها معلقة بالحمام، لا تخليني أنرفز عليكي يا مره، الصورة وينها؟!»[٨٤].

الدعاية التضليلية والاديولوجيا التبريرية لا تنفعان بدون كبت الأصوات المعارضة، فالكذب يُعرف من خلال الصدق، والتضليل ينكشف بقول الحقيقة، والغوغائية تقهرها الديمقراطية، ولا يصمد التبرير أمام النقد الموضوعي الحرّ. إنه نظام متكامل: تأمين المصالح الطبقية على حساب المجتمع بالقوة السافرة، مع اديولوجيا تقدمية تحررية، ودعاية تعرض الممارسة على أنها متفقة مع الاديولوجيا المعلنة. وقد عبّرت النكتة عن حالة الكبت السياسي، أحياناً بغضب من قلب محروق، وأحياناً أخرى بأعصاب باردة، تفاؤلاً في البدء، وتشاؤماً في المرحلة الأخيرة:

هذه نكتة عن أيام الوحدة: «دخلت بنت الحاكم أحد المحلات تشتري قماشاً. عرض البائع عليها أنواعاً من الأقمشة، فلم تعجبها، وطلبت أنواعاً أخرى. وفيما كان يصعد على السلّم ليجلب لها المزيد من على رفّ عال، ضرط. فانزعجت بنت الحاكم وبهدلته. فقال لها: ألا يكفي أن أباك سكّر فمنا، فتريدين أنت تسكّري قفانا؟!». وهذه نكتة انتشرت بعد حرب ١٩٦٧: «واحد لافف وشّه بالشاش الطبي وقابل واحد صاحبه، فسأله: ـ ايه، كفى

(٨٣) هيكل، ص١٤٠.

(٨٤) للاطلاع على الرسمة انظر: عنبوسي، ص٣٦، ٣٧.

الله الشرّ؟ قال له: أبداً، دا الدكتور فتح لي وشي تمانيه سنتي. قال له: ليه؟ خراج؟ قال له: لأ، خلع ضرس. قال له: طب ليه الدكتور ما فتحش بقك وخلع لك الضرس؟ قال له: وهو فيه حدّ يقدر يفتح تمه في البلد دي؟!»[٨٥]. وهذه أقرب عهداً: «كان رجل راكباً في الباص مع ابنه الصغير. رأى الطفل صورة للحاكم، فقال لأبيه: بابا، أما هذا هو الذي نراه في التلفزيون وتسبّانه أنت وأمي؟ فتطلع الأب حواليه وقال: ابن من هذا الطفل، يا ناس؟!». يقول محمد الرميحي: «وتحولت النكتة السياسية في هذا العصر إلى عكسها، حيثما كان النقد غير مباح، وتحوّل إلى ما يبدو للوهلة الأولى مبالغة في الإطراء، وهو في حقيقته إمعان في الذمّ. مثل ذلك الصحفي الذي وصف زيارة أحد الزعماء لمزرعة دجاج بأن الدجاج (طار) من الفرح احتفاء بالزعيم!»[٨٦].

لكن أكثر ما كان يرهب المواطن العربي هو التجسس عليه، إذ أن أي تعبير معارض تهتم له السلطة، فترسل كلابها الشمّامة إلى كل مكان لينقلوا لها تلك التعبيرات من أي مواطن في أي ظرف، ليلقى عقابه المبالغ في شدّته لدرجة جعلت المواطن العادي بعد عقدين أو ثلاثة في غاية السلبية تجاه القضايا العامة، كما ذكرنا من قبل: «بنت مسؤول أعجبت بتمكن أبيها في اللغة العربية، فسألته: بابا، من كان أستاذك بالعربي؟ فأجابها: فلان الفلاني من المدينة سين. فرجته أن يرسل بطلبه، كي تستفيد من علمه. فأعطى المسؤول الأمر لأحد رجاله بأن يجلب الأستاذ فلان. بعد أيام ذكّرت الفتاة أباها: أما وعدتني أن تطلب الأستاذ فلان كي يعطيني دروساً في

(٨٥) أحمد فؤاد نجم، في: روز اليوسف، العدد ٣٤٠٩، تاريخ ١١/١٠/١٩٩٣، ص٤٤. وهناك صيغة أخرى للنكتة أوردها عباس البغدادي، ص٥٨. وصيغة ثالثة، شفهية: «اجتمع أميركي وروسي وعربي، وكان الحديث عن طب الأسنان. قال الأميركي: نحن عندنا يفتحون للواحد فمه ويضربونه ابرة بنج ويقلعون له السن التالفة. قال الروسي: نحن تقدمنا قليلاً، صاروا عندنا يفتحون للواحد فمه ويبخونه بالمخدر ويقلعون له السن التالفة. فقال العربي: نحن عندنا يعملون له فتحة في خدّه وينزعون له السن التالفة. قالا له: لماذا الفتحة في الخد؟! قال: لأنه ممنوع أن يفتح فمه!».

(٨٦) في: العربي، نيسان ١٩٨٦، ص١٩.

العربية؟ قال لها: اي والله، طلبته ونسيت الموضوع. وعلى الفور استدعى من كلفه بالأمر وسأله عن الاستاذ. فأجابه: اي والله، هو عندي، وقد اعترف بكل شي!». «أمريكي وروسي وعربي تباروا بصيد الغزلان. دخلوا الغابة. وبعد ساعة عاد الأمريكي ومعه غزال. بعد ساعتين عاد الروسي ومعه غزال. وغاب العربي ولم يعد. فدخل الأمريكي والروسي الغابة يبحثان عنه، فرأياه قد أمسك بخنزير يضربه ويصيح فيه: اعترف أنك غزال!»(٨٧).

«مواطن كان مسافراً بسيارة، ومرّ في طريقه بصحراء. أثناء الطريق بنشر دولاب السيارة، وما كان معه دولاب احتياط. حاول إصلاح الدولاب، فلم يفلح. بعد ساعة أو ساعتين مرّت طيارة حوّامة من فوقه بالجو، فلوح لها بيديه، ثم بقميصه، ولكن دون فائدة. بعد ساعة أو ساعتين أخرى رأى الحوامة تقترب ثانية، فأخذ دولاباً وأشعله، ثم أتبع به الدواليب الأخرى، مع ذلك ابتعدت الحوامة. فنظر إليها الرجل وهي تغيب، وشتم الدولة. وفي هذه اللحظة جاءت دورية أمن وأخذته!». بهذه النكتة يريد ناقلو النكتة أن يقولوا، إن الدولة عارفة تماماً بأحوالهم، ولكنها لا تفعل شيئاً إلا إذا كان الأمر يمسّها بالسوء. وهي بالرغم من كل تخلفها، كما يعبّرون في نكتة أخرى، فإنها تساير التقدم التقني فيما يخص الحفاظ على السلطة القائمة: «أحدهم سافر إلى أميركا. هناك التقى بأحد مواطنيه الذي سأله: كيف الأحوال في البلد؟ أجابه: جهنم، لا في سكر ولا رز ولا شاي، الأسعار نار والمدخول ضعيف. بعد مدة عاد الرجل إلى بلده، فاستقبله رجال الأمن وحققوا معه. قال لهم: والله، لم أر أحداً ولم أتكلم مع أحد. قالوا له: ساعة الشخص الذي تكلمت معه مسجّلة، سمعنا كل شيء. ثم أوجعوه ضرباً وخلّوا سبيله. بعد فترة سافر الرجل ثانية إلى أميركا، والتقى بالشخص

(٨٧) يبدو أنها نكتة عالمية، فقد اعتبرها عادل الجوجري افريقية: «تنافست أجهزة الاستخبارات العالمية فيما بينها، وقررت إجراء مسابقة باطلاق أرنب في غابة، تبحث عنه الأجهزة في أسرع وقت ممكن وتحدد موقعه. وبعد ربع ساعة تمكن رجال المخابرات الأميركية والروسية والألمانية من معرفة مكان الأرنب، بينما اختفى رجل الاستخبارات الافريقي، وبعد ثلاث ساعات من البحث عنه وجدوه أمام حمار ومعه عصا يضربه بها وهو يقول له: اعترف أنك أرنب!». ص٦٣ من المصدر المذكور.

ذاته. وهنا أمسك بيد الرجل وقال وهو يبعص الساعة: سكر فيه، رز فيه، شاي فيه، الأسعار رخيصة والمدخول عالي، خود، سجّل على كيفك!. فقال له الشخص: هاي ما بقى مسجلة، هاي هلق فيديو!».

مع ذلك يجب التطرق إلى دور المواطن في مآله إلى هذه الحالة السياسية الأمنية. فهنا أيضاً، كما في المجال الاقتصادي المعيشي، ساهم المواطن عموماً بشكل ما وإلى هذا الحد أو ذاك في تهميش دوره السياسي، كما ساهم هناك بصورة عامة في تردي ظروفه المعيشية. أقصد بذلك الظاهرة الوصولية الانتهازية. فثمة مواطنون ليسوا مستعدين لتقديم أقل تضحية في سبيل كرامتهم وحريتهم. وثمة مواطنون يسعون إلى جني المكاسب بأي ثمن، أو على الأقل المحافظة على مكتسباتهم بأية وسيلة. أولئك يصيرون من أجل سلامتهم الشخصية بلا كرامة، وهؤلاء في سبيل مصلحتهم الشخصية بلا مبادئ ولا كرامة: «سأل معلم مدرسة تلاميذه: من يذكر لي حيواناً يطير؟ أحدهم رفع يده وقال: الفيل، يا أستاذ. فزجره المعلم وأنبه وقال له: من قال لك إن الفيل يطير؟! أجابه التلميذ: أبي فلان (وهو من أصحاب السلطة). فقال له المعلم: ام، هو صحيح يطير، ولكن ليس عالياً!». «على أثر سقوط وزارة صدقي باشا... وقيام وزارة النقراشي باشا، عمد أحد النواب الذين كانوا يتغزلون في مزايا صدقي باشا إلى التغزّل في مزايا النقراشي باشا. فسأله خطاب بك: إنت تغيّرت قوام كده؟! فقال النائب: والله أنا ما اتغيرتش، رئيس الوزارة هو اللي تغيّر!»[٨٨].

الوصوليون الانتهازيون موجودون دائما وفي كل مكان، بعضهم يصل ويؤلف قسماً من الفئة المتسلطة، ذلك لأن هذه الفئة تعتمد عليهم لترسيخ سلطتها وتحقيق غاياتها. هم وجه القباحة، هم الممسحة. وهم الذين تنسب إليهم دعائياً الأعمال القذرة التي تأمرهم بها الفئة المذكورة، حتى وإن ظهروا ملكيين أكثر من الملك: «منع التجول في أربيل (بالعراق) من السابعة مساءً حتى السابعة صباحاً. وفي الساعة السادسة والنصف مساء كان

(٨٨) الاثنين والدنيا، العدد ٦٩٥، تاريخ ٦/١٠/١٩٤٧، ص٢٢.

أحدهم يسير في الطريق. فقوصه عنصر وأرداه قتيلاً. جاء الضابط إلى العنصر غاضباً وصرخ في وجهه: لماذا قوّصته؟ أجاب: سيدي، هذا أعرفه، بيته بعيد، يحتاج إلى أكثر من ساعة كي يصل!». تروى هذه النكتة عن لبنان أيضاً. أما هذه فأرجّح أنها من العراق: «مخبر قدّم تقريراً لجهاز الأمن عن شخص بأنه شيعي. فاستدعاه مسؤول الأمن وسأله: ماذا تقصد، هل هذا الشخص شيعي أم شيوعي؟ أجابه وهو يعصر ذهنه: شيعي، شيوعي، والله لا أعرف، ما الذي يضرّه أكثر؟». الانتهازية الوصولية وجدت في الماضي كما في الحاضر. لكن المميز لدى الطبقة الجديدة هو تجنيدها وتشجيعها، ثم دفعها الناس إلى الانتهازية. أصبحت في النهاية واجباً على كل مواطن. لم يعد مقبولاً منه أن لا يعارض ويسكت، رغم تقلبات وتناقضات المواقف السياسية، ورغم المخالفات والتجاوزات والارتكابات الجلية للعيان، بل عليه أن يؤيّد ويصفّق: «كان أحدهم في الصين. وعندما عاد إلى بلده، أخذ يقص على الناس العجائب عن تلك البلاد. روى لهم أن أهل الصين يجعلون الغيوم تمطر عن طريق التصفيق. وأخذ بعض الحاضرين من المثقفين يحاول تفسير هذه الظاهرة الغريبة. فتدخل أحد الخبثاء قائلاً: لو كان هذا صحيحاً، لما كانت الأمطار تنقطع عن الوطن العربي!»[٨٩]. والنتيجة من التصفيق هي، كما قالت المضحك المبكي: «ضمينا نقول: كفّ يا شباب، كف يا شباب، حتى أكلنا هالكفّ!»[٩٠].

عندما يصل الانتهازيون يصبحون منتفعين يداومون على سيرتهم الانتفاعية اللامبدئية، أو ينضمون إلى الطبقة البورجوازية الجديدة ويدافعون عن مصلحتهم الطبقية التي أصبحت مطابقة لمصلحتهم الشخصية فيما يخص القضايا العامة. أما أكثر من يثير السخرية العدوانية لدى عامة الناس من بين هؤلاء، فهم الذين يحتلون مواقع التمثيل لهم: «التقى نائب بفتاة من بلدته. سألها عن عملها، فقالت له: أنا بقرا في الجامعة. فقال لها: وأنا تور في مجلس النواب!». «أصيب عضو في مجلس

(٨٩) عين الزهور، ص٢٠.
(٩٠) العدد ١٠١٧، تاريخ ١٩٦٣/١/١٣، ص١.

النواب بمرض جنسي، فذهب إلى طبيب مختص وشكا له: يا دكتور، أنا عضوي مصاب بكذا وكذا. فقال له الطبيب: ليس من اللائق أن تقول (عضو)، قل (قضيب). وبعد فترة حدث أن سئل الشخص عن عمله، فقال: أنا قضيب في مجلس النواب!». ويبدو أنهم مازالوا يظنون خيراً بالبعض من هؤلاء الممثلين، أو - وهو الأرجح - كانوا في البدء يتوقعون الخير من بعضهم ثم فقدوا الأمل: «في المجلس النيابي وقف النائب خلف وقال: سكر ماكو، رز ماكو، سمنة ماكو... بعد قليل وقف نائب آخر وقال: سكر ماكو، رز ماكو، خلف ماكو!». على كل ما كانت السلطة الجديدة (في بدايتها لتضع ممثلين أكفاء، فهؤلاء قد ينسون ولي نعمتهم ويأخذون الأمر جدياً، لذلك يجب أن يعوا على الدوام أنهم لا يستحقون مناصبهم وأن يتذكروا فضل من عيّنهم: «أثناء انعقاد الجلسات الأولى لمجلس تشريعي معين، حاول كل عضو أن يثبت جدارته بكلمة طويلة. لكن نائباً ظل في مقعده صامتاً. فظن النواب أنه يفكر في قضية خطيرة. فاقترب أحدهم منه وسأله: فيما تفكر، يا زميلي؟ فرد عليه قائلاً: أريد أن أعرف كيف دخلت المنضدة الكبيرة التي يجلس عليها رئيس البرلمان من هذا الباب الصغير!»[٩١].

لو استعرضنا النكات السياسية المتناقلة في مجتمعاتنا العربية، للاحظنا أن أكثرها يستهدف أشخاص السياسيين أكثر مما يستهدف نظام حكم معين أو سياسة معينة. هذا لا يعني أن نظام الحكم والسياسة المتّبعة لا تلوكها ألسنة السخرية كما تفعل مع أشخاص النظام والسياسة المذكورين، بل يحدث هذا من خلال الأشخاص أكثر مما يحدث مجرداً. من المعلوم أن العامة تتفاعل مع الأشياء الملموسة أو المشخصة أكثر مما تتفاعل مع الأشياء المجردة أو المعنوية. من ناحية ثانية يسهل صب الكره والغضب على الأشخاص بالمقارنة مع المؤسسات والأفكار، الأشخاص أهداف أوضح وأسهل منالاً. ومن ناحية ثالثة يشفي الغليل أن نهزأ بشخص أكثر من نظامه أو سياسته. الشخص السياسي المستهدف هو إذن رمز لنظام وسياسة معينين. لكن، هذا لا يمنع من أنه مستهدف أيضاً لذاته،

(٩١) عادل الجوجري، ص٦٢.

باعتبار أنه يمثل النظام المعني وينفذ السياسة المعنية. وعندما لا يعود هذا الشخص يمثل النظام المرفوض أو ينفذ السياسة المكروهة، فإن السخرية تحوّل هدفها عنه إلى المسؤول الجديد، وتوضع النكات التي قيلت عن المسؤول السابق على رفّ التاريخ.

فيما يلي مجموعة من النكات المتداولة عربياً والتي تستهدف بعض الحكام وتعبّر في نفس الوقت عن رأي الشعب بهم: «أحد الحكام أراد تفقد قطعة عسكرية. الضابط المسؤول جمع جنوده وأعطاهم تعليمات الاستقبال والترحيب، وقال لهم: كل واحد يطلق ٢١ طلقة. فسأله أحد الجنود: وإذا أصبته من أول طلقة؟!». «أفلس أحد المواطنين، فاضطر للبحث في مقتنياته عن شيء يبيعه ويعيش بثمنه. وجد صورة للسيد المسيح وهو مصلوب، فأخذها إلى عند أحد التجار، فاشتراها هذا بألف دينار. بعد مدة أنفق الرجل النقود، فعاد يبحث عما يبيعه. وجد صورة لحاكم بلاده، فأخذها وعرضها على التاجر، فأعطاه بها عشرة دنانير. قال له مستغرباً: تعطيني على صورة المسيح المصلوب ألف دينار، ولا تعطيني على هذه الصورة سوى عشرة دنانير!. فقال له التاجر: اجلب لي صورته مصلوباً وخذ عشرة آلاف دينار!». «أحد الحكام استقل طائرة مع رئيس وزرائه ووزير دفاعه. أثناء التحليق فوق أحد التجمعات السكانية قال وزير الدفاع: لو رمينا الآن مئة دينار، سيجدها شخص ويفرح بها. قال له رئيس الوزراء: الأفضل أن نرمي خمسينين، فيفرح اثنان. وقال الحاكم: بل الأفضل أن نرمي أربع خمس وعشرينات، فيفرح بها أربعة. ثم التفتوا إلى الطيار وسألوه رأيه. فقال لهم: أنا رأيي أن أرميكم أنتم الثلاثة، فيفرح الشعب كله!». «مواطن من العالم الثالث سمع أن أميركياً كان يرعى في حديقة البيت الأبيض، فرآه ريغان وسأله عن سبب تصرفه، فقال له، إنه جوعان ولا يجد عملاً، فأمر له ريغان بمعاش دائم. ففعل المواطن مثل ذلك أمام قصر الحاكم في بلاده. رآه الحاكم وسأله عما يفعل. فقال له: أنا جوعان ولا أجد عملاً أعيش منه. فتأثر لحالته وأعطاه ورقة. وعندما قرأها، وجد مكتوباً فيها: يسمح له بالرعي في جميع أراضي البلاد!».

في هذه النكات مازلنا نستطيع أن نستشف - على الأقل - شيئاً من القضية السياسية، فرجال السلطة مستهدفون فيها بصفتهم الاعتبارية كأصحاب مناصب وليس كأشخاص محددين. إلى جانب ذلك هناك نكات تستهدف السياسيين لذاتهم، كأشخاص محددين، وليس فقط كأصحاب مناصب. بصورة عامة يتميز هذا النوع باللؤم الشديد، حيث أنه يبحث عن نقاط الضعف (الحقيقية أو المزعومة) في الشخص المستهدف لينفذ منها بسهمه الساخر إلى قلب هذا الشخص. في نكات كهذه قد تغيب القضية الأصلية كلياً من النص (تبقى في ذهن المتلقين)، فتتحول إلى مسألة تقييم لشخص السياسي المعني، من ناحية الخلقة أو الأخلاق أو ما إلى ذلك من أمور لا علاقة ظاهرية لها بالأحوال والقضايا العامة الاقتصادية والسياسية. يمكن تسمية هذه النكات نكات هجائية، أو حتى نكات الذمّ والشتم:

«في السبعينات، وخاصة النصف الثاني، كان السوريون كثيراً ما يرددون في مجالسهم الخاصة: العلم نورٌ، والجهل أنورا». يقصدون بذلك الرئيس أنور السادات. «مسؤول زار باريس وقابل الرئيس الفرنسي. تصافح الرجلان وقال الرئيس الفرنسي معرّفاً بنفسه: ميتران. فرد المسؤول: نصف مترا». واضح أن النكتة تعيّره بقصره. «أحد حكام العالم الثالث ذهب مع زوجته إلي موسكو. هناك أخذوهما إلى حفلة باليه. وما أن جلس الحاكم وعزفت الموسيقى، حتى غطّ في النوم. وظهرت الراقصات وأخذن بالرقص. تطلعت امرأة الحاكم إليهن وقالت: كم هنّ مذوقات، هؤلاء الفتيات، عندما رأين أبا فلان نائماً، صرن يرقصن على رؤوس أصابعهن!». «مجموعة من السياسيين العرب كانوا يتحاسبون عند الله. سأل الله النبي محمد: هل هم من جماعتك، يا محمد؟ قال: لا. سأل عيسى: هل هم من جماعتك، يا عيسى؟. قال: لا. سأل موسى: هل هم من جماعتك، يا موسى؟ قال: لا. سأل بوذا: هل هم من جماعتك، يا بوذا؟ قال: لا. وهنا تطلع الله إلى الشيطان. فقال الشيطان: ليك، ما كل خرية تلزقها فيني!». «المسؤول فلان ذهب مع زوجته وابنته إلى عاصمة أوروبية. وفيما هم

يتفرجون على معالم العاصمة، ضاع المسؤول. فتوجهت الزوجة مع الابنة إلى مركز الشرطة وأعلمتهم بذلك. سألوها: ما هي أوصافه؟ أجابت: شاب أبيض طويل، رياضي، شعره أشقر، عيونه زرق. فاعترضت البنت: لكن، يا ماما، هذه ليست أوصاف البابا! فزجرتها الأم: اسكتي، لعلهم يبدلونه لنا!». هكذا لا يتورع الناس في حربهم الهزلية ضد سياسي يكرهونه عن تناول زوجته أو أحد من قرابته: «امرأة مسؤول رأت النساء في العاصمة يستعملن السوشوار، فقالت: نحن عندنا بالبلد نقتل القمل بالأظافر، انتو تقوصونه!».

* * *

ختاماً يتبيّن لنا من هذا الفصل أن النكات المتناقلة عربياً قد واكبت إلى حدّ بعيد التطورات والتحولات السياسية والاقتصادية، فكانت بمثابة الإخباريات الشعبية عما يجري، إنما هي إخباريات غير حيادية، إذ تتضمن الرأي الشعبي بهذه التطورات والتحولات. بذلك مثّلت شكلاً من التعبير عن الرأي يعوض جزئياً عن أشكال التعبير الأخرى الممنوعة أو الممتنعة عن عامة الناس. أما مفاعيلها فكانت تنفيسية أو تحريضية أو دعاوية أو معرفية (تتريخية). ونلاحظ أن هذه النكات قد لاقت في الربع قرن الأخير تحولاً في هدف سهامها، يتناسب مع التطورات والتحولات المذكورة في الحياة السياسية والاقتصادية، وذلك بالانتقال من استهداف رجال الاقطاع والبورجوازية وسياسييهم إلى استهداف الدولة ورجالاتها، وخاصة طبقة الأثرياء الجدد التي نشأت من خلال سلطة الدولة وقطاعها الاقتصادي. وقد أسهبت النكات في تبيان أشكال وطرق الظلم والاستغلال في المرحلة الجديدة، لكن الواضح أن الجوهر لم يختلف كثيراً عنه في المرحلة السابقة. في كلا المرحلتين لم تكن الطبقة العليا لتهتم بأحوال الطبقات الدنيا، مع فارق أن السابقة اتخذت أساساً الطريق الاقتصادية لتسلطها، في حين اتبعت الجديدة أساساً الطريق السياسية للوصول إلى السلطة والاستئثار بها. بالارتباط مع ذلك ثمة فارق هام آخر، وهو أن المرحلة الجديدة كانت أكثر اعتماداً على الدعاية وأكثر اتقاناً لها، بالتالي أكثر قدرة

على إيهام أبناء الطبقات الدنيا بإمكانية الصعود الطبقي. كما أنها نسبياً وبحكم جدّتها كانت أقل قدرة على منع ذلك. من هنا، فإن الطبقات الدنيا قد ساهمت، جزئياً بنزوعها إلى الصعود، مساهمة فعّالة في وصول المجتمعات العربية إلى المرحلة الجديدة المذكورة.

الفصل السابع

المرأة والجنس في النكتة

لا أظن أن النكتة طرقت موضوعاً بقدر العلاقة بين الجنسين. لأن الموضوع بحد ذاته محبب إلى الناس، سواء بالهزل أم بالجدّ، حتى أنه يهيمن على أجناس الأدب والفن. لم لا، والرجل والمرأة نصفان يكملان بعضهما؟ لم لا، والحياة تتقاسمها حاجتان أساسيتان: البقاء والاستمرار، الغذاء والجنس.. يقول مثل شعبي عربي: «لولا البطن والاير كانت الدنيا بألف خير!». العلاقة بين الجنسين هي أخصب ميدان للنكات، لكنه ليس أجودها ثمراً، ففيه يكثر التافه والمبتذل والممجوج. ذلك لأنه ميدان يجتذب الجميع، لأنهم معنيون به مباشرة، من نساء ورجال، من جميع الأعمار والطبقات، من جميع المهن والثقافات. المميز في النكتة الجنسانية، وهي التي تتناول العلاقة بين الجنسين في شتى أحوالها، هي أنها تتعامل مع مشكلات محيّرة، مع أمور زئبقية الطبيعة. فالعلاقة بين الرجل والمرأة هي علاقة صداقة لدودة أو عداوة ودودة، أي علاقة متناقضة: حب وكراهية مجتمعان. المرأة شرّ، ولابدّ منها. هكذا قيل قديماً. «لابدّ منها» يعني أنها خير، وهي في الوقت ذاته شر. فمن أين للرجل تلك المتعة الجنسية لولا المرأة. ولولا المرأة، من أين له تلك المتعة الأبوية التي تلبي له حاجة أساسية للخلود بالتكاثر. كذلك من أين للمرأة بالمتعة الجنسية ومتعة الأمومة لولا الرجل. متعتان أو حاجتان أساسيتان

تتحققان للرجل بالمرأة، وبالمرأة فحسب. ويتحققان للمرأة بالرجل، وبالرجل فحسب. لكن، دون هاتين المتعتين الحنظل. وهذا الحنظل يعود إلى ضرورة اندماج الطبيعتين المختلفتين جوهرياً، بالتالي ميل كل منهما إلى الهيمنة على الأخرى. توازن مستحيل عفوياً، يؤدي إلى الصراع على السلطة. أنا شخصياً أعتقد أنه لولا الحاجة الجنسية المترافقة مع الجاذبية الجنسية لقضى أحد الجنسين على الآخر، أو لفني الجنسان بالقتال. يقول مثل افريقي: «خلق الله السماء والأرض واستراح، ثم خلق الرجل والحصان والكلب واستراح. ثم خلق سائر الحيوان واستراح، واستراح الجميع. وأخيراً خلق المرأة، فلم يعد أحد يشعر براحة!»[1].

الناحية الثانية المميزة في النكتة الجنسانية هي أنها كثيراً ما تخرق محرّماً، وهو الجنس، وفي بعض المجتمعات تكون المرأة بحدّ ذاتها أو بكليتها (طبعاً باعتبار أنها وعاء جنسي) محرمة أو هي المحرم. في جميع الأحوال، المرأة هي عرض الرجل، أي عقب أخيل بالنسبة له، بمعنى أنها الثغرة التي يمكن أن ينفذ منها الغريب للنيل من الرجل المعني. لذلك، أحياناً ترى الفعل الجنسي (النيك) في اللغة الشعبية لا يعني بالضرورة الفعل الجنسي نفسه، بل ربما الغلبة والقهر، ويعني تجاه المرأة اقتحام حصنها والنيل من شرفها الذي هو شرف الرجل، إن لم يكن بالزواج المرسوم اجتماعياً: «قيل لأحدهم: لماذا تزوجت أخت فلان، مع أنك تكرهه؟! فأجاب: كي أنيك أخته!». الجواب شتيمة معروفة عند العرب، تطابق المجازي فيها مع الفعل في الزواج، فأحدث الضحك لدى المتلقي.

إذن، على المستوى الاجتماعي الديني ثمة تحريم، وعلى المستوى الفردي النفسي ثمة حساسية وإحراج. مقابل هذا التحريم وهذه الحساسية تقف ضرورة طرح مشاكل العلاقة بين الجنسين لايجاد الحلول، أو - على الأقل - للتنفيس عن النفس المتضايقة. بل إن المرء يحتاج إلى المعرفة والخبرة في هذا الميدان، حتى لو لم يكن يعاني من أية مشكلة من هذا

(١) غرائب وعجائب النساء، ص٣٠٥.

النوع. في هذه اللحظة تأتي النكتة كمنفذ من ورطة التحريم التي وضعت البشرية فيها نفسها، كصمام أمان ينفث ما تضيق بضغطه الأنفس. يطفح الكيل بالرجال أو بالنساء أو بكليهما، فتخرج النكتة التي: قد تلقى قبولاً، أو يُغض النظر عنها كأنها غير موجودة، أو تلقى رفضاً غير زاجر، أو - في أسوأ الحالات - تلقى عقاباً إنما أخفّ مما لو كان الحديث عادياً مباشراً في معناه: «زارت أم ابنتها، فوجدتها عارية. ولما سألتها عن ذلك، قالت: أقول لزوجي إنني لابسة ثياب شفافة، والقصد أن أغريه. وعندما عادت الأم إلى بيتها، فعلت مثل ابنتها. ودخل زوجها عليها وهي على هذه الحالة، فأبدى استغرابه، فقالت له: أنا لابسة ثياباً شفافة. فقال لها: اكويها، اكويها!».

من الضروري التفريق بين النكتة التي تتناول العلاقة بين الجنسين بصورة عامة، ولنسمها «جنسانية»، وتلك التي تتناول تحديداً العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة. النكتة الجنسية تعويضية الوظيفة من حيث الأساس، مبعثها الكبت أو الحرمان الجنسي. فيمكن تسميتها «نكات التعويض الجنسي»، لأنها تستعيض عن الفعل بالحديث عنه، بتأثير الكبت أو الحرمان أو حتى التقشف الجنسي. أما النكتة الجنسانية (غير الجنسية) فتتأتى عن إشكالية العلاقة بين الجنسين، دون أية ضرورة لوجود كبت أو حرمان. إنها مشكلة التعايش بين هذين الكائنين المختلفين عن بعضهما والمكملين لبعضهما في الوقت نفسه. وظيفة النكتة الجنسانية تنفيسية و/ أو سلوانية. وثمة اختلاف جوهري بين المفعولين التنفيسي والسلواني. فالأخير يحدث إزاء أمور لا رادّ لها كالقضاء والقدر، وما على المرء سوى التسليم لها، البكاء منها أو الضحك عليها. أما المفعول التنفيسي فيحدث تجاه أمور لا رغبة أو لا شجاعة أو لا وعي لدى الشخص المعني لمقاومتها، فيتخذ أسهل المواقف وأسلمها وهو الضحك عليها بدلاً من مقاومتها. في العلاقة بين الجنسين كثيراً ما يقف المرء عاجزاً. صحيح، أن الإنسان أعجز ما يكون تجاه الموت. ولكن العجز أمام الموت واضح ومحسوم. أما العجز أمام العلاقة الجنسانية فمموّه محيّر، يترك طاقة أمل. العجز أمام الموت بسيط، بينما هو في العلاقة الجنسانية معقد، لأنه تاريخي، مرتبط

بالعلاقات الاجتماعية الاقتصادية واديولوجياتها: «قالت لصاحبتها: بالي مشغول على زوجي، صار له عدة أيام مسافر، وما بعث لي ولا خبر، اوعى يكون أحب شي واحدة وتزوج عليي!. فصرخت صاحبتها: ليش عم بتفولي على حالك؟! بيجوز يكون مات!»[٢].

وتتميز النكتة الجنسية ببذاءتها، أو بأنها أكثر بذاءة من أنواع النكات الأخرى. تتأتى البذاءة أولاً من الحديث عن الفعل الجنسي والأعضاء الجنسية في الإنسان أو الحيوان (وهذا ما تفعله النكتة الجنسية)، وتتأتى البذاءة ثانياً من التكلم عما يطرح الجسم الإنساني والحيواني من فضلات (براز وبول) وعن مخارج هذه الفضلات. هذا، بينما تتطلب الأخلاق العامة العربية الاحتشام في ذلك، أي عدم التطرق إلى هذه المواضيع وهذه الأعضاء، والتلميح إليها فحسب عند الضرورة: «أول ما عرف من ظرف دحمان الشاعر، أن رجلاً مرّ به يوماً، فقال له: أير حماري في حرّ أمك، يا دحيم!. فلم يفهم ما قاله، وفهم رجل كان حاضراً معه، فضحك. فقال: مم ضحكت؟ فلم يخبره. فقال له: أقسم عليك إلا أخبرتني. قال: إنه شتمك، فلا أحب استقبالك بما قال لك. فقال: والله لتخبرني كائناً ما كان. فقال له: قال كذا وكذا من حماري في حرّ أمك. فضحك، ثم قال: أعجب والله وأغلظ عليّ من شتمه كنايتك عن أير حماره وتصريحك بحرّ أمي لا تكني!»[٣].

ومما يزيد في بذاءة النكتة الجنسية هو أنها شعبية المصدر في الغالب، أو بالأحرى عوامية المصدر. والعوام يسمّون الأشياء بمسمياتها المستعملة في حياتهم اليومية دون لفّ أو دوران، أو بأقل الرموز والكنايات. مما يروى في هذا المجال، أن «أحدهم راح لعند جماعة كي يطلب يد ابنتهم. قال لهم: اعطوني هالبنت تنيكها. فغضب أهل البنت وسبّوه وكعروه. قال له الناس: معهم حق، ماهيك بيقول الواحد إذا بدو يطلب بنت، بيقول: منتقرّب، منتشرّف. راح الزلمه مرة ثانية لعند أهل البنت وقال لهم: اعطوني هالبنت

(٢) الشبكة، العدد ١٣٧٨، تاريخ ١٩٨٢/٨/٩، ص٧٢.
(٣) الأغاني، المجلد السادس، ص٢٨.

تاتقـرب واتشـرّف. وافقـوا وأعـطوه اياهـا. فتـزوجهـا وصـارت عنـده. مـرّ يوم واثنان وثلاثة، مـا فـعل الـزلمـه أي شـيء مـع امـرأتـه. فـذهـبت وشكتـه لأهـلهـا. جاؤوا إليه وسـألوه. قال لهم: من أول شي قلت لكم تنيكها، ما وافقتم!».

موضـوع البـذاءة ذو شـجـون في الوطن العـربي. لطالمـا تحـدث الكتاب والمـفكرون عن المـحـرمـات التي تقيّـد المـثـقـفيـن في أعـمـالهم، تحـرمـهم الحـرية اللازمـة للإبداع، وتبعدهم عن الواقع من خلال إبعادهم عن جوانب أسـاسـيـة من هـذا الواقع، وهي: السـيـاسـة والجنس والدين. وقـد وجدت أن أدب النكتـة، باعتبـاره من أكثـر الأجناس الأدبيـة شعبيـة والتصـاقاً بالواقع، ينوء تحت عبء محـرم رابع، لا يقلّ ثقلاً عن المـحـرمـات الثـلاثة الأخرى. إنه مـحـرم البـذاءة. أقـصـد بذلك، كمـا سـبق التـعـريف، تلك الكلمـات التي - كمـا يقال - تسـيء إلى الآداب العـامـة أو تتنافى مع الحشمة.فـإذا كان الواحد منا يسـمـع يومـيـاً الشـتـائم والتـعـابيـر البـذيئة فـي كل مكان، إن لم يكن هـو نفسـه يتفوّه بهـا، في حين أنه يقدم للنـاس ثقافة «مـؤدبة»، فكم يكون ابداعه عندئذ غريباً عن هـذا الواقع؟!.

أدبنـا العـربي الحديث مؤدب جداً. وهو كـذلك لأنه عمـومـاً أدب مـثقفين متعالين، وأدب وسـائل إعـلام وثقـافة مراقبـة*. أمـا أدبنـا القـديم فمـا هكـذا كان. وأمـا أدبنـا الشـعـبي فـهـو غيـر مـؤدب، وخـاصـة غيـر المـسـجّل منه، أي الأصلي الذي لم يجـر تهـذيبـه. نقـرأ في حكاية «الحـمّـال مع البـنـات»: «فلمـا تحكّم الشـراب معهم، قامت البـوابة وتجـردت من ثيابهـا وصـارت عـريـانة. ثم رمت نفسـهـا في تلك البـحـيـرة ولعبت في الماء وأخـذت المـاء في فمها وبخّت الحـمال. ثم غسلت أعضـاءهـا ومـا بين فخـذيهـا. ثم طلعت من المـاء، ورمت نفسـهـا فـي حجـر الحمـال وقـالت له: يا حبيـبي، مـا اسم هـذا؟ وأشـارت إلى فرجهـا. فقـال الحمـال: رحمـك الله. فقـالت: يوه يوه، أمـا تسـتحي؟! ومسـكته

* من الضـروري أن أشيـر هنا إلى أن بعض الأدبـاء العرب الحـديثين تخلصـوا من عـقـدة الحشمة والتهذيب في كتاباتهم، وأصبحنا نجد في أعمالهم شواهد من بذاءة الواقع. أذكر منهم: صنع الله ابراهيم، غالب هلسا، مظفر النواب، محمد شكري، نبيل سليمان.

من رقبته وصارت تصكّه، فقال: فرجك. فقالت: غيره؟ فقال: كسّك. فقالت: غيره؟. فقال: زنبورك. فلم تزل تصكّه، حتى ذاب قفاه ورقبته من الصك. ثم قال لها: وما اسمه؟. فقالت له: حبق الجسور. فقال الحمال: الحمد لله على السلامة، يا حبق الجسور!»[٤]. هكذا هو الأدب الشعبي، وهكذا يكون الأدب الواقعي، يصرح ويلمّح بحسب الحاجة، مؤدب أو بذيء بحسب الضرورة. وهكذا كان أدب أجدادنا:

«قال الفرزدق: لقيت نبطياً بيثرب، فقال لي: أنت الفرزدق؟ قلت: نعم. قال: أنت الذي يخاف الناس لسانك؟ قلت: نعم. قال: فأنت الذي إذا هجوتني، يموت فرسي هذا؟ قلت: لا. قال: فيموت ولدي؟ قلت: لا. قال: فأموت أنا؟ قلت: لا. قال: فأدخلني الله في حرّ أم الفرزدق من رجلي إلى عنقي. قلت: ويلك، ولم تركت رأسك؟ قال: حتى أرى ما تصنع الزانية»[٥]. «وجاء رجل إلى بعض الفقهاء، فقال له: أنا أعبد الله على مذهب ابن حنبل، وإني توضأت وصليت، فبينما أنا في الصلاة إذ أحسست ببلل في سراويلي يتلزق، فشممته فإذا رائحته خبيثة. قال الفقيه: عافاك الله، خريت بإجماع المذاهب!»[٦].

البذاءة تكون أحياناً ضرورية. وذلك عندما تنفجر في مناسبتها وفي لحظتها. وهي سلاح الضعفاء والمظلومين. في بعض الأوقات لا ترى مجالاً أو فرصة لمناقشة أمر أو الردّ على شخص إلا بأن تشتم... مثلاً، سياسي متسلط يتحدث في التلفاز مبرراً رفع سعر محارم الورق بأن هذه المادة كمالية، وذلك أمام شعب لا يخلو بيت واحد منه من علبة ولا جيب واحد من محرمة ورقية. فماذا تردّ عليه أمام الأهل والأصحاب، وهو يعلم أنك لا تقدر أو لا تجرؤ على أن ترد عليه علناً؟!. وماذا تقول لآخر يدعو إلى

(٤) ألف ليلة وليلة، طبعة البابي الحلبي بمصر، ١٩٦٠، الجزء الأول، ص٣٥.
(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه، الجزء الثاني، ص١٢٨. انظر أيضاً: المستطرف للأبشيهي، الجزء الأول، ص٤٨. وكذلك: الأغاني للأصفهاني، الجزء التاسع عشر، ص٣٣.
(٦) حبشي، ص١٢.

تقشف الشعب والحدّ من الهدر الاستهلاكي، وأنت تعلم أنه يطعم كلبه المستورد من اللحم في اليوم أكثر مما يتيّسر لأسرة شعبية لمدة عشرة أيام أو أكثر؟!. لذلك أعجبني، وأعجب الكثيرين غيري، شعر مظفر النواب في وقته، وقد كان يشعر شاتماً ويشتم شعرياً، كيفما كان رأي النقاد. كما أنني لا أرى بأساً في أن أردد مع من قال:

طزّ على اجاريت
وحروفها الأبجدية
طز على ذقن ابي الهول
إلهاً كان أم جبلا
طز على بابل وبرجها
ولو خرق السماوات
طز على المعلقات العشر
وما فيها من ماء الذهب
طز على طريق الحرير
في البر والبحر والجو
طز عليها جميعا
وطز عليكم وعلينا
فمازلنا نلحس الأطياز!

نعود إلى النكتة. فمن طبيعتها أن تبحث عن اللامألوف، اللاطبيعي، اللاسوي... الخ، مقابل المألوف والطبيعي والسوي، وبالتالي أن تبحث عن البذيء أمام أو مقابل المؤدب، إنما بالتأكيد ليس ترويجاً مقصوداً للبذاءة، بل إما من خلال نقلها للواقع كما هو، أو للوصول إلى تسفيه ما هو أسوأ من البذاءة (عن طريق البذاءة). «قالت العنزة: بيّنت طيزك، يا غنمة!». هذه النكتة التي أصبحت مثلاً شعبياً، ليست للإثارة ولا هي قلة أدب، فالمسألة ليست هنا، بل في إعطاء المثل الصارخ لمن لا يغفر للناس أقل هفوة منهم أو عيب فيهم، وينسى أو يتجاهل سوء سيرته أو جملة العيوب فيه.

نلاحظ أخيراً أن النكتة الجنسية هي أكثر النكات تناقلاً في المجالس النسائية، في حين أن نكات المجالس الرجالية أكثر تنوعاً. ومع مراعاة ضعف مساهمة المرأة في إبداع النكات، فإن أكبر مساهمة لها تتحقق في النكتة الجنسانية عموماً، والنكتة الجنسية خصوصاً. قال أحدهم:

إن كنت لا أجيد الغزل

فالنساء يجهلن المزاح

قالت: راسك كالجبسه

ضحكتُ ثم أجبتها:

شعرك مثل شعر العنزه

فرمتني بنظرة لوم!.

أرجّح أن السبب تاريخي. فميدان المرأة منذ القديم ضيق نسبياً، هو الأسرة والعلاقة بالزوج بصورة طاغية. وميدان الرجل واسع نسبياً، هو - إلى حد بعيد - المجتمع بشتى علاقاته. على سبيل المثال، النكات السياسية رجالية بحتة. مع ذلك لا يبدو أن مساهمة المرأة، حتى في النكتة الجنسانية، تقارب مساهمة الرجل. أما كيف نميز بين النكتة النسائية والنكتة الرجالية، فهذه مسألة تصعب الإجابة عليها بصورة وافية. قبل كل شيء هناك مقياس التحزّب، مع المرأة أو ضد الرجل. ثانياً، انطلاق النكتة من موقع المرأة، أو رؤية الحدث النكتي بمنظار المرأة أو من زاوية نظرها. ثالثاً، التعبير عن مطالب أو هموم المرأة الحاجية أو الموهومة. رابعاً، بساطة الفكرة ومباشريتها: طلب الفعل الجنسي أو الاستزادة منه، ضخامة وكبر العضو، مناكدة الرجل... هذه مثلاً تبدو لي نكتة نسائية قديمة: «امرأة سافر زوجها إلى الرقة. وظل فترة طويلة لم يجئ لعندها. فأرسلت إليه مكتوباً قالت فيه: يا حبيبي ياللي بالرقة/ أنا دايبه موت من الفرقه/ يا بتاخد الجرن/ يا بتبعت المدقّه!».

فيما يلي لن أدقق فيما إذا كانت النكتة نسائية أم رجالية المصدر، بل سأغرف دون تفريق من مخزون النكات التي جمعتها مادة للدراسة؛ وفي هذه الحالة ستعبّر النكات بمحصلتها عن كامل المجتمع الذي يتناقلها،

وذلك بخصوص: صورة المرأة، الحياة الزوجية، العلاقة الجنسية.

أ ـ صورة المرأة

صورة المرأة في النكتة لا تعبّر تماماً عن صورة المرأة في المجتمع. لو نظرنا مثلاً إلى المرأة في الأدب أو الفن، فعلى الأرجح سوف نحصل على صورة مغايرة تماماً لتلك التي في النكتة. رذيلة النكتة وفضيلتها في نفس الوقت هي أنها تضحك على كل شخص وكل شيء، بالتالي ليس عندها ذلك الجليل أو العظيم أو القدسي الذي نجده في الأدب و - بمقدار أكبر - في الفن. فالنكتة - كما نعلم - تبحث (عادة بعيني الرجل) عن النقاط السوداء في المرأة، مما يستتبع بالضرورة أن تغضّ النظر عن المساحات البيضاء فيها. من هذا المنطلق أو بهذا المنطق يجب أن نفهم صورة المرأة في النكتة.

يبدو لي من النكات المتوفرة لدي أن في نفسية المرأة ما نودّ تسميته «عقدة الرجل»، وهي تعني أن الرجل هو المحور الذي تدور حوله المرأة في مشاعرها وتفكيرها وسلوكها. لا أريد أن أرجع إلى أصل العقدة وتاريخيتها، بل سأكتفي برصد تجلياتها الراهنة، كما تُبينها النكتة. من هذه العقدة يتأتى تنافس النساء على الرجال، على جذب أنظارهم، إثارة إعجابهم، كسب محبتهم، وجعلهم يرتبطون بهن: «راح يقول لها، إنه يعجبه قوامها الرشيق وصوتها الموسيقي وعيناها الواسعتان و... و... ثم سألها، ما الذي يعجبها هي فيه. قالت على الفور: ذوقك الرفيع!»[7]. «هو: هل توافقين على زواجنا؟. هي: ماذا تقول، هل أنت جاد؟ هو: طبعاً، بكل تأكيد. هي: ولكنك فاجأتني، أمر هام كهذا يحتاج إلى تفكير، أعطني مهلة كافية من الوقت. هو: بكل سرور، يا حبيبتي. هي: شكراً، ضع السماعة الآن، واطلبني بعد دقيقة!»[8].

من المعلوم أن في التنافس، مهما كان شريفاً، شيئاً من العداء. من هنا

(٧) حواء، العدد ٧٤٤، تاريخ ٢٦/١٢/١٩٧٠، ص٥٩.

(٨) حواء، العدد ٧٥٦، تاريخ ٢٠/٣/١٩٧١، ص٤٧.

ترى الصداقة ضعيفة نسبياً بين النساء. وإن وجدت هذه الصداقة، فهي هشة، سرعان ما تتقوّض، حالما يدخل رجل بين المرأتين المعنيتين. الموقف الأولي للمرأة تجاه المرأة، قبل أي معرفة أو احتكاك، ليس حيادياً، كما هو بين الرجال، بل هو تنافري إلى هذا الحد أو ذاك. يتجلى هذا التنافر في بحث المرأة في المرأة الأخرى الغريبة عن مساوئها، عما يُنتقد فيها، مهما كانت جميلة وخلوقة ورزينة: «ذهب رجل وزوجته إلى معرض رسم، وإذا بالمرأة ضعيفة النظر تقف أمام الحائط وتحدّق بشكل لفت نظر زوجها. فسألها: ما بك لا تتزحزحين من هنا؟ أجابت على الفور: لم أر في حياتي أقبح من هذه الصورة! ضحك زوجها وقال: هذه ليست صورة بل مرآة، يا عزيزتي!»(٩). «زارت امرأة إحدى جاراتها لأول مرة وأخذت معها ابنتها، وهي طفلة جميلة في السادسة. فلما رأتها جارتها، سألت أمها: هل هذه ابنتك؟ فأجابت: نعم، هي ابنتي. فقالت لها: لابدّ أن يكون والدها جميلاً جداً!»(١٠).

في إطار التنافس على الرجل وإلى جانب التنافر المسبق تتصف علاقة المرأة ببنات جنسها بالحسد والغيرة، حسد لما - ربما - حظيت به الأخريات من دونها، وغيرة من أن تستميل واحدة منهن رجُلها. هنا نلمح أعراضاً من عقدة الكرامة لدى النساء، لكنها ليست بارزة في أدب النكتة: «قالت فتاة لخطيبها: تحلف لي أنك تحبني أكثر من أية واحدة ثانية؟ الخطيب: مستعد أحلف. الفتاة: طيب، قل لي، يا خاين، مين هي الواحدة الثانية دي!»(١١). «كانت امرأة تراقب جيرانها الجدد بنظرات ثاقبة. وفي صباح ذات يوم قالت لزوجها: إن جارنا شديد الحبّ لزوجته، فهو يقبّلها عند خروجه في الصباح، ويقبلها عند عودته في المساء، فلماذا لا تفعل مثله؟ فأجابها الزوج في دهشة: ولكني لم أعرف زوجته بعد!»(١٢). «دأبت

---

(٩) سامر، العدد ٧١٣، تاريخ ١٧/٣/١٩٩٤، ص٢٧.

(١٠) غرائب وعجائب النساء، ص٣٠١.

(١١) تسالي، العدد٢٨٢/ ١٩٨٤، ص٢٠.

(١٢) غرائب وعجائب النساء، ص٢٢٤. انظر أيضاً: العربي، العدد ٩٣/ آب ١٩٦٦، ص١٥٢. الموعد، العدد ١١٩٩، تاريخ ١٥/٢/١٩٨٦، ص٧٨. البعث، تاريخ ١٥/٥/١٩٨٨. ووردت أيضاً في: المضحك المبكي، العدد ٢٨١، تاريخ ٤/٢/١٩٣٩، ص٣٠.

امرأة شديدة الغيرة على إخضاع زوجها لفحص دقيق كل مساء. وكان اكتشافها لأصغر شعرة على سترته يعني الويل والثبور وعظائم الأمور. وفي إحدى الليالي فحصته، فلم تجد شيئاً. ومع ذلك انفجرت باكية وصرخت في وجهه: يا قليل الأمانة، هل وصلت بك خسّتك إلى مغازلة النساء الصلعاوات؟!»[١٣]. ومثلما تغار المرأة من بنات جنسها، فإنها كذلك تتباهى أمامهن بما تكون حظيت به دونهن، وتسعى لإثارة غيرتهن: «خُطبت إحداهن بعد أن عنّست أو كادت، ولبست خاتم الخطوبة. في مكان العمل لم يهنئها الزملاء والزميلات ولم يهتموا لأمرها. فصارت تنزع الخاتم من خنصرها وتعيده إلى مكانه وهي تتأفف وتقول: شوب!». «كانت امرأة قاعدة في باص، تمد سبّابتها وتقبّلها وتقول: يا عيني يا طوني، يا حبيبي يا طوني. وكانت إلى جانبها بدوية، فسألتها عما تفعل. فقالت لها، إنها تتذكر ليلتها مع طوني. فمدّت البدوية ذراعها وقبلتها وهي تقول: يا حبيبي يا خلف، يا روحي يا خلف!».

العقدة الثانية في المرأة، كما تعرضها النكتة، هي عقدة الجمال. وهي تبدو لي مرتبطة بعقدة الرجل. فبالجمال تريد المرأة أن تتفوق على بنات جنسها، أو - على الأقل - أن ترتفع في مجتمعهن، وأن تجذب الرجل أو تنال إعجابه. بالطبع، الجمال بحدّ ذاته قيمة في المجتمع البشري منذ القدم، بمن فيه جنس الرجال، وسيبقى هكذا إلى الأبد. لكن الجمال عند النساء عموماً هو القيمة الأولى دون منازع: «سأل الزوج زوجته وهي أمام المرآة: متى تنتهين من زينتك؟ فقالت الزوجة في غضب: لقد مضت ساعة وأنا أكرر لك إنني سأنتهي بعد دقيقة واحدة!»[١٤]. «كانت الأم تضع على وجهها مساحيق التجميل، حيث قالت لها طفلتها الصغيرة: فاضل لي كام سنة، يا ماما، واغسل وشي بالكريم والبودرة بدال المية والصابون؟»[١٥]. وهذا شاهد من الغرب، حيث العقدة أصعب: «في أثناء تلقي زميلة لنا

---

(١٣) البعث، تاريخ ١٩٨٨/٣/١٢. وهناك رواية شعبية للنكتة تتناول العلاقة بين الزوج وحماته.
(١٤) غرائب وعجائب النساء، ص٣٢٥.
(١٥) تسالي، العدد ٢٨٨/ ١٩٩٥، ص٢٠.

اتصالاً هاتفياً من ابنتها سمعناها تهتف بفرح: ثلاث كيلو غرامات ونصف! أنا فخورة بك جداً. وعندما أقفلت الخط سألتها: صبي أم بنت؟ فأجابت: لا هذا ولا ذاك، إنما فقدان وزن!»[١٦].

أما عند عامة الرجال فالقيمة الأولى يتنازعها: القوة والعقل. فإذا كان الرجال يتباهون أمام بعضهم بالقوة أو بالعقل، فالنساء يتباهين أمام بعضهن بالجمال. من أجل ذلك ترى المرأة تصطنع الجمال (حتى لو كانت جميلة بالخلقة)، بواسطة المساحيق (المكياج = التبرّج) والزينة والأزياء (الموضة = الزي الدارج). وهذا مما يبرر لبعض النكات أن تعبّر عن قلة عقل المرأة، لكن ليس بقدر ما هو متعارف عليه في المجتمع العربي الذكوري، حيث يقول مثل شعبي: «عطوها للجاجه عقل عشرين مرا، ضيّعت قنّها!»: «الزوجة: ما هذه الصورة؟ الزوج: هذه صورة فتاة كنت أعرفها وأنا صغير. الزوجة: يا لك من ماكر، كنت تخونني إذن قبل أن تعرفني!»[١٧]. «عرض رجل على زوجته الأحجية الآتية: أنت مهندسة صيانة على قطار ينقل ٣٦ شخصاً، في المحطة الأولى ينزل عشرة ويصعد اثنان، وفي التالية يبقى الجميع ويصعد خمسة، والآن إليك السؤال التالي: ما اسم مهندس القطار؟ فصرخت الزوجة: وكيف لي أن أعرف اسم المهندس؟! ـ أرأيت، إنك لا تصغين أبداً إلى ما يقال، أما بدأت الأحجية بقولي: أنت مهندسة صيانة في قطار؟!»[١٨].

بالطبع، يقوم عامة الرجال أيضاً بتجميل أنفسهم، ولكن باعتدال. فلا مساحيق وقليل من الزينة، وأزياؤهم أقل تبدلاً وتنوعاً. وأنا لا أمدح الرجال لتباهيهم بالقوة بدلاً من الجمال، فهم في ذلك لا يختلفون كثيراً – من حيث الجوهر – عن الثيران والتيوس عندما يتناطحون، فالحديث يدور الآن حول المرأة، ويأتي ذكر الرجل للمقارنة فحسب. لقد أصبحت الموضة قيداً

(١٦) المختار، العدد ١٢٠/ تشرين الثاني ١٩٨٨، ص٢٩.
(١٧) تسالي، العدد ٢٢٢، ص١٩.
(١٨) المختار، العدد ٧٥/ شباط ١٩٨٥، ص١١.

جديداً على عامة النساء، يحدد سلوكهن ويؤثر حتى على عواطفهن، ناهيك عما تسببه من أعباء جديدة على مالية الرجل وميزانية الأسرة، وعلى اقتصاديات العالم، وخاصة البلدان المتخلفة:

«السيدة في المحكمة: بريئة، يا سيدي القاضي، أقسم أنني بريئة. القاضي: ولكن أوصاف القاتلة تنطبق عليك تماماً، فهي جميلة وجذابة وخفيفة الدم. السيدة: آه، في هذه الحالة قد تكون أنا، يا سيدي!»[19]. «قابل أحدهم صديقاً له، فقال له الصديق: هنيئاً لك، يا عزيزي، بالأمس رأيتك مع حسناء شقراء في النادي. فأجابه الرجل قائلاً: حسناء فين، يا راجل، دي مراتي صابغه شعرها أشقر!»[20]. «الأول: لماذا تجري هكذا؟. الثاني: لأنني اشتريت فستاناً هدية لزوجتي. الأول: وماذا في ذلك؟ الثاني: أخاف أن تتغير الموضة قبل أن أقدمه لها!»[21]. «يروى أن سيدة مودرن من نوع (السنوب) التي ينط من القفة إلى آذانها، أخذت طفلها إلى طبيب، ففحصه وقال لها: بسيطة، يا مدام، معه إمساك، وتعطيه ملعقة زيت خروع. شهقت الست استغراباً وقالت له: حكيم، ألا ترى أن الخروع كتير (ديموديه)؟! (أي تجاوزه الزمن والموضه). أجابها الحكيم ساخراً: وهل تحسبين يا مدام، أن الأطفال والإمساك شيء (كتير مودرن)؟!»[22]. «في الباص كانت تجلس فتاة مقابل رجل كبير السن. وكانت تلبس فستاناً قصيراً جداً. فقال الرجل: استحوا وتستّروا، ما بقى فيه خجل!. قالت الفتاة: اي، عمو، دارج تبيّن الصابونة. فقال لها: عقبال ما تبيّن الليفة!». «ذهب أحدهم مع زوجته إلى السوق وأراد شراء ربطة عنق. عرض عليه البائع ألواناً من الربطات ليختار ما يريده منها. قال: أعطني الربطة الحمراء. فقالت له زوجته: لا تصلح لك الحمراء، فهذه للشبان الصغار. قال للبائع: أعطني الربطة الخضراء. فقالت الزوجة: اللون الأخضر فلاحي

(١٩) ماجد، العدد ٨٠٣، تاريخ ١٩٩٤/٧/١٣، ص٦٢.
(٢٠) الموعد، العدد ١١٧٧، تاريخ ١٩٨٥/٩/١٤، ص٥٨.
(٢١) ماجد، العدد ٨٢٢، تاريخ ١٩٩٤/١١/٢٣، ص٦٠.
(٢٢) نجاة قصاب حسن، حديث دمشقي، ص٢٤٠.

غير لائق. قال: أعطني الربطة الصفراء. فقالت الزوجة: اللون الأصفر مشؤوم غير مناسب. عندئذ سحب الزوج مسدسه وقوّص زوجته وقال للبائع: أعطني الربطة السوداء!».

تتهم النكتة المرأة بالثرثرة. وهذا الاتهام نسمعه أيضاً من الرجال في حياتنا اليومية، وفي جميع أنحاء العالم. يقول مثل ألماني: «الرجل كلمة، المرأة قاموس!». أنا شخصياً لا أتفق تماماً مع هذه النظرة إلى المرأة، ولا أرى الرجل أقل ثرثرة من النساء. هذا، إذا عرّفنا الثرثرة بكثرة الكلام، وهو نفس التعريف الذي يتبنّاه ضمنياً كل من النكات والرجال، أو لنقل: يتبناه ضمنياً الرجل في جده وهزله عن المرأة. أظن أن ما يجعل الرجال يصفون النساء بالثرثرة ويدبّجون النكات حولها، هو أن المواضيع التي تكثر النساء من الحديث فيها مختلفة عن تلك التي يثرثر بها الرجال. فجلّ حديث النساء، إن لم يكن كله تقريباً، يدور حول الحياة اليومية العادية لأفراد الأسرة وحول أمور البيت من طبخ وتنظيف وترتيب، وحول المشتريات والمقتنيات والتسليات، إلى جانب النميمة والاستغابة والتباهي بالمظاهر، وبالطبع أحياناً حول الرجال والحب والجنس، في حين أن ثرثرات الرجال أكثر شمولية وتنويعاً وأقل ذاتية وحميمية. كل يثرثر عن عالمه وبحسب معرفته وخبرته، بينما تسمى أحاديث النساء ثرثرة وثرثرات الرجال أحاديث:

«دخلت امرأتان السجن لسبب من الأسباب، وبقيتا فيه سنتين. وعندما خرجتا أخيراً، قالت إحداهما للأخرى مودعة: نكمل الحديث فيما بعد!». «قالت الزوجة لزوجها: أنا ذاهبة إلى عند جارتنا، ولن أتغيب أكثر من خمس دقائق. سأل الزوج: لابأس، وهل من شيء آخر؟ قالت: نعم، أرجو ألا تنسى أن تحرك القدر كل نصف ساعة!»[٢٣]. «الأب: مع من تتحدث أمك على الباب منذ ساعة؟ الولد: مع السيدة سامية. الأب: ولماذا لا يدخلان؟ الولد: قالت السيدة سامية أن ليس لديها وقت لتدخل وتقعد!»[٢٤]. «الزوجة

---

(٢٣) البعث، تاريخ ١٩٨٨/٧/٧. انظر أيضاً: غرائب وعجائب النساء، ص٣٢٥.
(٢٤) هوبي، العدد ٢٢٥، ص٣٦.

للطبيب: زوجي يتكلم وهو نائم، فماذا أفعل؟ الطبيب: أعطه فرصة ليتكلم أثناء النهار!»[٢٥]. وهذه قصة شعبية عن المرأة الثرثارة: «يحكى أن رجلاً أراد أن يتزوج ثلاث نساء وأن يعرف عيوبهن. فركب زورقاً في نهر العاصي مع الزوجة الأولى، وفي موضع خطر من النهر سألها عن عيوبها، فأقرّت أنها تسرق وعند ذلك ترجف يدها اليسرى. فقال لها: الحل بسيط، سأضع مالي عندك. وأعادها إلى الشاطئ سالمة. أما الثانية فاعترفت بأنها تكذب، ويصحب كذبها حكة شديدة بيدها اليسرى. فقال: إن حلّ ذلك سهل. وأعادها إلى البرّ سالمة. أما الثالثة، فعندما وصل بها إلى القسم العميق بقيت تضحك مطمئنة إلى أن ذنبها بسيط، قائلة: أنا عيبي قليل، أنا (كرّارة)، أتكلم عن الناس والجيران، وليس لي إشارة. فظهر الغضب على الرجل وقال: أنت تؤذين كل الناس، دون أن يعلموا. ورماها في النهر قائلاً: الكرارة مالا إشارة!»»[٢٦].

عقدة المرأة الثالثة، كما تصوّرها النكتة المتناقلة هي: السنّ. وثمة شواهد تراثية تؤكد قدم هذه العقدة، كما في قول جميل بن معمر العذري[٢٧]:

تقول بثينة لما رأت ... فنوناً من الشَّعر الأحمر
كبرتَ جميل وأودى الشباب ... فقلت: بثينُ، ألا فاقصري
أتنسين أيامنا باللوى ... وأيامنا بذوي الأصفر
وإذا لمّتي كجناح الغرا ... بِ تطلى بالمسك والعنبر
قريبان مَرْبَعُنا واحد ... فكَيف كبرتُ ولم تكبري

ترتبط هذه العقدة بعقدة الجمال وعقدة الرجل. فمن المعلوم أن الجمال مرتبط إلى حد بعيد بالشباب، والرجال عموماً يرغبون بالنساء الفتيّات أكثر من الكهلات. كأن المرأة تريد إيقاف الزمن عند سن الشباب، تستعجل الوصول إليه وتأبى أن تبرحه. من أجل ذلك تراها تكذب، عندما تُسأل عن عمرها. طبعاً، هي تعلم أن الزمن يمرّ وأن عمرها أكثر مما تقول، إنما تريد

(٢٥) ماجد، العدد ٧٩٠، تاريخ ١٣/٤/١٩٩٤، ص٦١.
(٢٦) شيخاني، ص٣٣٣.
(٢٧) نقلاً عن: أخبار الأدب، العدد ٧٣، تاريخ ٤/١٢/١٩٩٤، ص٢.

بكذبها أن تحسّن نظرة الناس إليها، ظناً منها أن قيمتها ترتفع لديهم بمقدار جمالها وشبابها. على أن هذا التصغير في السن لا يكون دائماً دون فائدة. فإذا كانت المرأة عازبة، عندئذ يعني التقدم في العمر: العنوسة. وهذه منفّرة للرجال، ليس فقط لقرب أفول الفتوة والنضارة، بل أيضاً لما يتوقعه الرجال لدى المرأة العانس من إشكالات نفسية لا تيسّر العيش المشترك، ولما يظنه بعض الرجال من أن عنوستها عائدة لمساوئ فيها أبعدت الرجال عنها (ولا أحد يرغب بالفضالة): «قالت العانس لقريبها الذي لم يتزوج: ابق، وتناول العشاء معي، فالمطر شديد في الخارج. قال: لا أعتقد أنه شديد إلى هذه الدرجة!»[28]. بالطبع، الرجال يميلون أيضاً إلى تصغير سنّهم، لكن الأمر لا يصل لدى عامتهم إلى درجة العقدة النفسية:

«الولد لأمه: كم عمرك الآن، يا أمي؟ الأم: دعني أحسب لك بدقة، تزوجت والدك وعمري ستة عشر عاماً وكان عمر والدك ثلاثين عاماً، واليوم تضاعف عمر والدك وأصبح ستين عاماً، فيكون عمري أنا أيضاً قد تضاعف وأصبح اثنتين وثلاثين سنة!»[29]. «القاضي للشاهدة: قولي قديش عمرك، وبعدين احلفي اليمين!»[30]. «بعد أن فحصها الطبيب، قال لها: كم عمرك، يا مدام؟. فقالت: أوه، عمري ثلاثين سنة. قال: عظيم، لأن ضغطك بالنسبة لعمرك طبيعي. فقالت: مرسي، ولكن قل لي، لو كان عمري عشر سنين زيادة، كان ضغطي كمان بيكون طبيعي؟»[31]. «سألت عجوز طفلة صغيرة: عندما أقول أنا جميلة، هل هذا في الماضي أم الحاضر أم المستقبل؟ قالت الطفلة فوراً: في الماضي طبعاً!»[32]. «نشب خلاف بين ثلاث نساء، انتهى برفع الأمر إلى القاضي. فوقفن أمامه يتكلمن ويشكين في وقت واحد. ولما لم تفلح نصائح القاضي لهن بالهدوء ليسمع شكوى

(٢٨) حواء، العدد ٧٦٩، تاريخ ١٩/٦/١٩٧١، ص٢٥.
(٢٩) ماجد، العدد ٧٨٦، تاريخ ١٦/٣/١٩٩٤، ص٦٢.
(٣٠) المضحك المبكي، العدد ١٠٢٥، تاريخ ١٦/٦/١٩٦٣، ص١٥.
(٣١) الشبكة، العدد ٩٠٥، تاريخ ٢٨/٥/١٩٧٣، ص٤٣.
(٣٢) سعد، العدد ٧٦٢، تاريخ ٢٨/١/١٩٨٥، ص٢٦. انظر نكتة مشابهة في: الموعد، العدد ٩٩٥، تاريخ ١٦/١٢/١٩٨١، ص٦٥.

كل واحدة على حدة، قال لهن: فلتتكلم أولاً أكبركن سناً!. فسكتن جميعاً على الفور!»[٣٣]. وهذا شاهد من عالم الرجال: «سأل القاضي الشاهد: كم عمرك؟ أجاب الشاهد: ما بين العشرين والثلاثين. قال القاضي: أريد عمرك، بالتحديد. قال الشاهد: ما بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين. قال القاضي لكاتب المحكمة: سجلها، قبل أن يعود إلى بطن أمه!»[٣٤].

ثمة ميل لدى النساء إلى الرفاه دون أساس اقتصادي، وهذا يعود - برأيي - إلى لامسؤولية المرأة التاريخية عن مالية الأسرة أو مدخولها. الميل إلى الرفاه طبيعي لدى البشر، يتساوى في ذلك الرجال والنساء، ولكن الرجل عموماً يترفّه ضمن حدود دخله (على قدّ لحافه يمد رجليه)، أو على الأقل يسترشد بمقدار دخله، أما المرأة فميلها إلى الرفاه يتحدد غالباً بما يوفّره المجتمع أو اقتصاد المجتمع لمن يقدر على الدفع، وبما تحظى به النساء الأخريات، دون اعتبار لدخل معيلها من أب أو زوج، أو حتى دون اعتبار لدخلها، إذا كانت معيلة نفسها. لاشعورياً تنتظر المرأة من الرجل الأب أو الزوج أو حتى الصديق (وفي حالات استثنائية من الغريب) أن يدفع ثمن مرفهاتها. هذا الميل ينعكس على كامل المجتمع؛ وما يُسمى الآن «مجتمعاً استهلاكياً» هو بالفعل نتيجة تعاون غير متفق عليه بين الرأسمالية العالمية وجنس النساء في العالم، أو لنقل: نتيجة حسن استغلال الرأسمالية العالمية لميل النساء نحو الرفاه. إلى جانب ذلك ثمة لاعقلانية في هذا الميل الاستهلاكي لدى عامة نساء المدن، تتجلى في أن الحاجة إلى مرفّهات كثيراً ما تكون موهومة، بل ومَرضية، مثل الإفراط في اقتناء الفساتين أو الأحذية وغيرها، أو تفضيل السلعة الأغلى بغض النظر عن فاعليتها أو عمليتها، أو شراء سلع لا حاجة حقيقية لها، كشراء أدوات لا تُستعمل مطلقاً أو نادراً ما تستعمل... الخ.

(٣٣) البعث، تاريخ ١٩٨٧/١١/١١، ص١٢. انظر صيغة أخرى في: المضحك المبكي، العدد ١٠٢٥، تاريخ ١٩٦٣/٦/١٦، ص٢٣. والعدد ١٠٣٤، تاريخ ١٩٦٣/٩/١، ص٣١.
(٣٤) ماجد، العدد ٧٨٦، تاريخ ١٩٩٤/٣/١٦، ص٥٩.

«دخل شاب غرفة خطيبته، فقالت له: أتعلم أنني حلمت بأنك طوقتني بساعدك. فلفّ الشاب ساعده حولها كي ينفذ حلمها. ثم قالت: وحلمت أنك قبلتني قبلة عميقة في فمي. فطبع الشاب قبلة على شفتيها. ثم تابعت: وحلمت أنك قدمت لي هدية من الذهب. عندئذ بدأ الشاب يهزّ خطيبته ويقول لها: اصحي من منامك، اصحي من منامك!»[٣٥]. «قال صاحب المليارات لأحد أصدقائه: انصحني، يا صديقي، فأنا هائم بحب راقصة في السابعة عشرة، وعمري خمس وستون سنة، أأستطيع أن أجعلها تعتقد أنني ما أزال في الخامسة والأربعين؟ فقال له صديقه: لا، الأفضل أن تقول لها إنك في الخامسة والتسعين!»[٣٦]. «رجعت الزوجة من السوق متهللة. قالت لزوجها: اشتريت لك هدية مدهشة بمناسبة عيد ميلادك!. هتف الزوج: أين هي؟ بسرعة!. قالت: لحظة، حتى ألبسها!»[٣٧]. «كتبت فتاة تقضي إجازتها بعيداً إلى أمها تقول: عزيزتي ماما، ارسلي لي بعض النقود لأشتري فستاناً جديداً، خرجت مع الشاب ست مرات ولبست كل فساتيني التي أحضرتها معي! فكتبت الأم تقول: عزيزتي نينا، وفّري واقتصدي، تعرّفي إلى شاب آخر واخرجي معه من جديد!»[٣٨]. ومن قصص الأمثال الشعبية، «أن زوجاً تعوّد أن يجلب يومياً مؤونة البيت وتجهيزه. وتعوّدت زوجته استلام ذلك منه يومياً وشكره على عطائه المستمر. وصدف أن أقبل يوماً بيدين فارغتين. فنظرت الزوجة إلى وجهه معاتبة قائلة: أنت أعور، يا زوجي!. فلم تلاحظ عوره إلا وقتها!»[٣٩].

هذه الحمى الاستهلاكية أتتنا في الواقع من الغرب، فهي من مفرزات المجتمع الرأسمالي المتطور. والمجتمع الغربي يعاني منها أكثر منا بكثير. وهي إحدى الدلالات على الخواء الروحي للحضارة الغربية، حيث تتراجع جميع القيم الثقافية (الروحية) أمام الرفاهيات المادية. من شواهد ذلك

(٣٥) الشبكة، العدد ١٩٨٠، تاريخ ١٩٩٤/٢/١٤، ص٧٧.
(٣٦) عالم التسلية، العدد ٤٩، ص٥٤.
(٣٧) حواء، العدد ٧٤٢، تاريخ ١٩٧٠/١٢/١٢، ص٤٧.
(٣٨) الشبكة، العدد ٢٠٢٣، تاريخ ١٩٩٤/١٢/١٢، ص٦١.
(٣٩) شيخاني، ص١٢٢. انظر أيضاً: شعراوي، ص٢٧.

هذه النكتة المعبرة من انكلترا: «حوار بين سيدتين. الأولى: لكنك اشتريت هذه السيارة الرولز رويس منذ اسبوعين، فلماذا تودين بيعها الآن؟! الثانية: ماذا أقول لكِ، لقد امتلأت منفضة السجائر فيها!»[٤٠].

يقول مثل شعبي عربي: «المرا حنّانه، منّانه، عنّانه!». هي أولاً نبع حنان، وهي ثانياً تمنّن الرجل بما قد تكون قدمته أو ربما تقدمه له، وهي ثالثاً كثيرة الشكوى والتذمر من أي شيء يعترضها في معيشتها وعاطفتها. أما الرجل فيسعى لأن يغرف ما يستطيع من نبع حنان المرأة، ويتجنب قدر استطاعته ما يمكن أن تمنّنه المرأة به، ثم يحاول أن يرضي امرأته دون أن يخفي انزعاجه من كثرة شكواها وتذمّرها. يسمي عامة الناس في سوريا شكوى المرأة وتذمرها «نقّاً»، ربما تشبيهاً له بنقيق الضفادع (يقول المثل: ثلاثة لا تطاق: النقّ والطقّ - أي الدلف - والبقّ). في الحقيقة هو يقابل البكاء لدى الأطفال، حين يريدون شيئاً ويلحّون عليه بعناد، دون أي اعتبار لظرف الأبوين. هذه عادة الأطفال المفسدين بالدلال. والمرأة تنتظر من الرجل أن يدلّلها. التدليل يعني التغزّل والترفيه وتقديم الهدايا، وهي أمور لا يقدر عليها عامة الرجال على الدوام. عندئذ يبدأ النقّ، والنقّ مآله إلى النكد الذي ينفّر الرجل من حياته الأسرية. على هذا الأساس، من الطبيعي أن تفضّل المرأة الزوج الغني، سواء كانت هي غنية أم فقيرة. وقديماً، في الجاهلية، قال علمه بن عبده[٤١]:

فإن تسألوني بالنساء فإنني	بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله	فليس له في ودّهنّ نصيب
يردن ثراء المرء حيث وجدنه	وشرخ الشباب عندهن عجيب

في الأحوال العادية تحظى المرأة الغنية بالزوج الغني، فهما من طبقة واحدة. أما المرأة الفقيرة فليس نادراً أن تحظى بهكذا زوج أيضاً، لاسيما إذا كانت جميلة، لكنه ليس دائماً تحت الطلب. وثمة مثل شعبي يقول: «إذا

(٤٠) ماجد، العدد ٨٢٧، تاريخ ٢٨/١٢/١٩٩٤، ص٦٢.
(٤١) غرائب وعجائب النساء، ص٣٤٢.

ردت تجوّز ابنك انزل درجتين، وإن ردت تجوز بنتك اطلع درجتين!»[٤٢].
أظن أنه لو - على سبيل الافتراض - كانت الأمور بيد الرجال الأغنياء حصراً، لما تركوا امرأة جميلة لفقير. كما أظن ومن قبيل الافتراض أيضاً، أنه لو كانت الأمور تجري بحسب مشيئة النساء (دون الرجال)، لما اختارت واحدة منهن زوجاً فقيراً، مع استثناء وحيد هو أن يكون الرجال الأغنياء المعنيون قادرين على إرضاء هؤلاء النسوة جنسياً:

«كانت امرأة تنقّ كل يوم على زوجها. فجنّ منها. بالأخير اتفق معها على أن تنقّ في يوم، ولا تنقّ في اليوم التالي. فصارت هذه تنق في يوم النق كالعادة، واليوم التالي تمضيه بأن تردد: بكره النق، وبكره النق!». قال رجل لزوجته: لا أسمعك تقولين إلا هات هات، عمرك لا تقولين خذ. فقالت له: خذ هذه الكندرة وضع لها كعباً جديداً!»[٤٣]. «قال الجندي المتطوع لرفيقه: وما الذي حملك على التطوع؟ قال: لأن ليس لي زوجة، وأنا أحب الحرب؛ وأنت لماذا تطوعت؟ قال: لأن لي زوجة، وأنا أحب السلام!»[٤٤]. «جلست صديقتان تتهامسان في إحدى السهرات. وفجأة صاحت إحداهما تقول وهي فرحة فخورة: ثقي أن هذا الزوج الذي اخترته هو أشرف مخلوق في العالم. وبدا الاهتمام على وجه صديقتها وقالت في حزن ظاهر: يا الله، وكيف تستطيعين العيش إلى الأبد مع رجل فقير؟!»[٤٥]. «كسب رجل فقير النمرة الأولى في اليانصيب. وكان قد اشترى نمرتين بعشر ليرات، كل واحدة بخمس ليرات. فجاءته زوجته متكدّرة حانقة وقالت له: أما كان يكفي أن تشتري نمرة واحدة، مادامت الثانية لا تربح؟!»[٤٦].

---

(٤٢) عن عبد الكريم عيد الحشاش، الأسرة في المثل الشعبي، ص٢١.
(٤٣) وردت كحديث بين أب وابنه، في: سعد، العدد ٧٠١، تاريخ ١٩٨٣/١١/١٤، ص١٤، حيث يقول الابن: «لا تغضب، يا أبي، خذ صلّح لي هذه الساعة!».
(٤٤) الشبكة، العدد ٨٤٧، تاريخ ١٩٧٢/٤/٧، ص٥٧.
(٤٥) الاثنين والدنيا، العدد ٦٨٥، تاريخ ١٩٤٧/٧/٢٨، ص٤٠. أوردتها المجلة على أنها نكتة صينية.
(٤٦) المضحك المبكي، العدد ٢٠٧، تاريخ ١٩٣٤/٣/٧، ص١١.

«اشتكت فتاة على أحدهم بأنه سرق جزدانها من صدرها. سألها القاضي: ألم تحسّي به عندما مدّ يده إلى صدرك؟ قالت: بلا، بسّ شو عرّفني اني بدو يسرق الجزدان؟!». وهذه نكتة من الواقع الاجتماعي: «في النصف الثاني من السبعينات تداول الناس قول أحدهم: جميع بناتنا يردن أطباء ومهندسين، بناء عليه لن ترضى طبيباتنا ومهندساتنا أقل من رئيس جمهورية، ولكن للأسف ليس لدينا سوى رئيس جمهورية واحد!». طبعاً لو صحّ للرجال الفقراء الزواج بثريات، لما قصّروا. لكن المجتمع رجالي طبقي، والرجال الأغنياء (وهم المسيطرون) لا يسمحون بذلك من حيث المبدأ: «اقترب شخص من صديقه وقال له: إنني متردد، هل أتزوج من امرأة ثرية لا أحبها، أم من حسناء فقيرة أحبها جداً؟ وأجابه الصديق: إنني أنصحك أن تستمع إلى نداء قلبك وتتزوج من الفقيرة. وقال له مقتنعاً: إنك على حق، سأتزوج الفقيرة. وهنا قال له صديقه: في هذه الحالة، هل تتكرم بإعطائي عنوان الأرملة الثرية؟»(٤٧).

هكذا تبدو صورة المرأة في النكات المتناقلة عربياً. وسواء كانت هذه الصورة قريبة أم بعيدة عن الواقع، فهي واضحة، بل ودقيقة الملامح. أما الرجل فيبدو أننا لا نستطيع من خلال النكتة رسم صورة مماثلة له في وضوحها وتكاملها. هذا يعود على الأرجح إلى ضعف مساهمة النساء في تأليف النكات وروايتها، أو هو مؤشر على ذلك. فيما يلي نورد بعض النكات التي يمكن منها إلى حد ما فهم الرجل بخصوص علاقته بالمرأة:

«سألت امرأة زوجها: شو يعني انتهازية؟ شرحها لها، فلم تفهم. قال لها: سأقرّب لك المعنى، لنفرض مثلاً أنك سافرتِ، وأنا بغيابك جلبت امرأة غريبة إلى البيت، هاي انتهازية. قالت له: طيب، وإذا فرضنا أنك أنت سافرت، وأنا بغيابك دخّلت رجلاً غريباً إلى البيت، كمان هاي انتهازية؟ قال لها: لا، هاي بتكون شرمطة!». هكذا لا يريد الرجل أن يخضع للقواعد الأخلاقية التي يضعها هو للمرأة، فلديه ازدواجية في الأخلاق. وقد انطبع

(٤٧) الموعد، العدد ٩٢١، تاريخ ١٠/٧/١٩٨٠، ص٦٤.

المجتمع عموماً بهذه الازدواجية الأخلاقية، كما تبيّن هذه النكتة التي قد تكون نسائية: «كانت الأم توصي ابنتها على الدوام بأن تحذر من الرجال، فقد يطبّ أحدهم فوقها، ويجلب العار لها ولأهلها. ومرة عادت الأم إلى البيت، فرأت رجلاً غريباً يخرج منه. فسألت ابنتها، عما إذا كان قد فعل معها شيئاً وجلب العار لها ولأهلها. فأجابتها: لا، بسّ أنا جيت فوقه وجبت العار له ولأهله!».

خلافاً للمرأة يبدو الرجل غير مندفع للزواج: «كان الخطيب يلتقي خطيبته في أحد الحقول.. وذات يوم قال لها: منذ زمن طويل ونحن نلتقي في هذا المكان، وأظن أن نهاية ذلك أصبحت وشيكة. ففرحت الخطيبة وطوقته بذراعيها وهتفت قائلة: أحقاً تقول، يا عزيزي؟ فأجابها: بالتأكيد، يا عزيزتي، لأنهم سوف يشيدون على هذه الأرض بناية جديدة!»[٤٨]. أما المرأة فتصورها النكتة متهورة في سعيها للزواج: «قضى فريد سنة طويلة وهو يتودد إلى ناديه الحسناء، ويبذل جهده لإرضائها. ومازال متردداً في خطبتها، يهمّ بمفاتحتها في الزواج ثم يخشى أن ترفضه.. فآثر أن يخاطبها بالتلفون، ودار بينهما هذا الحديث: «- آلو، آلو، مادموازيل ناديه؟ - ايوه، مين حضرتك؟. - اسمعي، أنا راح أكلمك بكل صراحة، تقبلي تتزوجيني؟ - طبعاً أقبل، لكن، ما قلتلي مين حضرتك؟»[٤٩]. الرجل يندفع للتعرف على النساء ومعاشرتهن، إنما ليس بالضرورة للالتزام والزواج: «الأول: آه لو أسترد كل تلك الأموال التي أنفقتها على النساء في شبابي. الثاني: لو حدث هذا، فماذا تفعل بها؟ الأول: أنفقها عليهن مرة أخرى!»[٥٠].

يبدو أن المرأة هي التي تخطط للزواج وتصمم عليه، فيظهر الرجل أحياناً وكأنه ضحية لهذا التخطيط والتصميم: «كانت السيدة تدقق النظر في الرجل الجالس أمامها في الحديقة العامة، فاقترب منها وسألها عن

---

(٤٨) البعث، تاريخ ١٨/٩/١٩٨٨، ص١٢. بعد الاختصار.

(٤٩) المضحك المبكي، العدد ١٦٨، تاريخ ٦/٥/١٩٣٣، ص٩. بعد الاختصار.

(٥٠) حواء، العدد ٧٢٧، تاريخ ٢٩/٨/١٩٧٠، ص٤٧.

سبب تحديقها به. فقالت له: لا، ليس هناك أي سبب، فقط أنت تشبه زوجي الثالث. فسألها باستغراب: وهل تزوجت ثلاث مرات، يا سيدتي؟ أجابته: لا، مرتين فقط!»[٥١]. ربما أمكن الاستنتاج من خلال النكات المتناقلة، أن المرأة تتوهم أن سعادتها ستبدأ بالزواج، في حين يتخوف الرجل من أن تنتهي سعادته به: «كان هناك أعزب يسهر كل ليلة عند خليلته. فقال له صديق من أصدقائه: مادمت تسهر عندها كل ليلة، فلماذا لا تتزوجها؟! قال له: إذا تزوجتها، عند مين بدي صير اسهر؟!»[٥٢]. «- لماذا يلبس العريس بذلة سوداء ليلة زفافه؟ - لأنه يودّع الأيام البيضاء!»[٥٣]. «كان أحدهم يتحدث إلى ابنه الصغير، عندما مرّ بهما حمار. فسأل الصبي أباه: قوللي، يا بابا، الحمير بيتزوجوا؟ أجاب الوالد: يا تقبر بيك، في غير الحمير بيتزوجوا؟!»[٥٤]. ومن التراث الشعبي: «سئل أحدهم: اشقد عمرك؟ قلو: الحمد لله صحتي كويسه. قلو: اشقد معك مصريات؟ قلو: الحمد لله ما عليّ دين. قلو: مبسوط؟ قلو: الحمد لله ماني مجوّز!»[٥٥].

رغم ما ذكرناه عن الميل العفوي للزواج بشريك ثري، ففي كل العالم نجد عقلية رجالية واحدة، وإن كانت تتراجع حالياً في البلدان الرأسمالية المتقدمة، ألا وهي: من الطبيعي أن يصرف الرجل على المرأة، ومن العار عليه أن يعيش على حسابها: «وقف مرة نائب شيوعي في المجلس النيابي الافرنسي وأخذ يحمل حملات عنيفة على الرأسماليين ويقول: إن هؤلاء بدلاً من أن يساعدوا البؤساء في أحوالهم، يصرفونها على النساء، لأن كل واحد عنده صاحبه. وارتفع صوت من آخر القاعة، وقال له: ليش حضرتك ما عندك صاحبه؟. فأجابه: نعم، عندي صاحبه، ولكنها هي التي تصرف علي!»[٥٦]. «أراد شاب أن يراود امرأة عن نفسها. ولما ابتدأت تطلب

(٥١) الموعد، العدد ١٦١٢، تاريخ ٢٠/٥/١٩٩٤، ص٦١.
(٥٢) المضحك المبكي، العدد ١٠٠٩، تاريخ ١٨/١١/١٩٦٢، ص٧.
(٥٣) الموعد، العدد ٩٣٩، تاريخ ١٣/١١/١٩٨٠، ص٦٦.
(٥٤) حنكشيات، ص٦٥.
(٥٥) انطوان شعراوي، ص٣٤.
(٥٦) المضحك المبكي، العدد ١٠٤١، تاريخ ٣٠/١٠/١٩٦٣، ص١٠.

طلباتها منه، أراد أن يفهمها أنها امرأة غير شريفة وأنها لا يجوز أن تبالغ بمطاليبها على هذا الشكل.. فقالت له: لازم تحمد الله على أني غير شريفة، لأني لو كنت شريفة كنت كلفتك أضعاف أضعاف!»[٥٧].

على المستوى التاريخي ثمة ظاهرتان بشريتان بارزتان: الأولى هي العداوة التقليدية بين الحماة والكنة. وهي شكل من الصراع بين المرأة والمرأة على السلطة في البيت وعلى الرجل. فالمرأة الأم (الحماة) لا تقبل أن تزاحمها امرأة أخرى على السيادة في بيتها، في حين تريد زوجة الابن (الكنّة) أن تبني هي الأخرى امبراطوريتها البيتية. وقد انحلّ هذا الإشكال التاريخي في العصر الحديث بانفصال الابن العريس عن أبويه وتكوين أسرة جديدة في مسكن منفصل واقتصاد منزلي مستقل. من ناحية أخرى تريد الكنّة أن تستأثر بزوجها وتقطع جذوره عن أسرته الأصلية، في حين أن الأم (الحماة) لا تنفكّ ترى في ابنها جزءاً منها وعضواً في أسرتها. وهكذا، فبالرغم من الحل الانفصالي للمشكلة، مازالت العداوة بين الحماة والكنة قائمة، ولو بشكل مستتر، إلا أنها الآن أخفّ بكثير مما كانت في الماضي:

«قيل إن امرأة كانت كلما زوّجت أحد أولادها، ذاقت الأمرّين من الكنة. وحينما تضايقت من هذا الوضع، قالت: سأزوج ابني الأخير إلى ابنتي حنّه، لأرى هل ستكون ابنتي أيضاً كنة مزعجة. ففعلت، وبعد فترة قالت لها: آخ، يا بنتي، الوجه وجه حنّه، والقفا قفا كنّه!»[٥٨]. «كان أحدهم في مشوار مع زوجته وحماته وأمه. تعبت الزوجة، فحملها الرجل على كتفيه. تعبت الحماة، فركّبها على ظهره. تعبت أمه، فجعلت تجرجر نفسها إلى جانبه. وإذ بأحد الناس يلتقي بهم، فسأله: ما هذا الذي أراه؟ فأشار الرجل إلى زوجته وقال: هاي روح الروح. وأشار إلى حماته وقال: وهاي مداوية الجروح. ثم أشار إلى أمه وقال: وهاي ناطر عزرائيل ياخدها ويروح!». «على الرغم من انهماك زوجي الدائم بشؤون مزرعتنا، إلا أنه وعد والدته

(٥٧) المضحك المبكي، العدد ١٠٤٤، تاريخ ١٠/١١/١٩٦٣، ص٢٧.
(٥٨) انطوان شعراوي، ص٦٦.

بموافاتها إلى محطة القطار لدى إعلامنا بقدومها. وفي صباح اليوم المقرر لوصولها، سلمته قائمة ببعض السلع التي كنت أحتاج إليها من المدينة، علّه يشتريها في طريقه. وحين عاد إلى البيت عند الظهر، أخذ ينزل السلع من السيارة، لكن حماتي لم تكن هناك. وسألته إذا فاتها القطار، فضرب رأسه بيده وقال: يا لغباوتي، لماذا لم تضعيها على اللائحة؟!»(٥٩). «زوّجت امرأة ابنها، فكانت الكنة شريرة تقاتل الحماية بكل مناسبة. وكان لدى الكنة ببغاء معتاد على عبارات كلها شتائم للحماية. فتضايقت الحماية وشكت أمرها إلى الكاهن. فقال لها الكاهن: إن الببغاوات يتعلمون من بعضهم، فإن لدي ببغاء متعلم الصلوات والدعاءات، فخذيه وحطّيه أمام ببغائكم، فيتعلم منه ويكفّ عن الشتائم. ففعلت ذلك. فصار الببغاء الأول يقول: الله يلعن الحماية. فيجيب الثاني: آمين. ويكرر الأول: الله يخلصنا من الحماية. فيجيب الثاني: من الربّ نطلب...»(٦٠).

العداوة الثانية أقل بروزاً وحدة، وهي العداوة بين الحماة والصهر. وهي شكل من الصراع بين المرأة والرجل، ينشب عندما تتدخل الحماة (أم الزوجة) في العلاقة بين البنت وزوجها. فالأم تريد أن تستعيد حياتها الزوجية من خلال زواج ابنتها، فتنقل لها تجربتها وتجنّبها ما تظنه أخطاءها. ولنقل أيضاً، إن الأم ربما تبغي باللاشعور أن تنتقم من زوجها ممثلاً في صهرها، وأن تنتقم لنفسها ممثلة في ابنتها. هي تماهي نفسها مع ابنتها، وتماهي زوجها مع صهرها. وهذا ما يثير المتاعب للصهر، ويؤثر سلبياً على العلاقة بين الزوجين الشابّين. وخلافاً للعداوة الأولى (بين الحماة والكنة)، فإن هذه العداوة (بين الحماة والصهر) لم تكن في الماضي بالحدة التي هي عليها الآن في العصر الحديث. ففي الماضي لم يكن لأم الزوجة منفذ واسع إلى الحياة الزوجية لابنتها، نظراً لوجود الابنة ضمن الأسرة الكبيرة لوالدي الزوج الشاب، بينما الباب مفتوح لها على مصراعيه الآن للدخول إلى حياة الأسرة الشابة بعد انفصالها عن الأسرة الكبيرة

(٥٩) المختار، العدد ٤٣/ حزيران ١٩٩٠، ص٨٠.
(٦٠) انطوان شعراوي، ص٦٦.

واستقلالها. أخيراً نلاحظ أن كلا العداوتين مصدرهما المرأة، والرجل منفعل بهما وليس مبادراً، وعلى الغالب علاقته جيدة سواء بصهره (زوج ابنته) أوبكنته (زوجة ابنه)، فيعتبرهما كأولاده:

«خطب أحد الشبان فتاة ظل يهيم بحبها مدة طويلة. وفي ذات يوم فوجئ أصدقاؤه بنبأ فسخ الخطوبة، فسأله أحدهم عن السبب، فقال: لقد علمت أن مستقبلي معها سيكون مظلماً. وقيل له: وكيف عرفت ذلك، هل شفت بختك؟ فقال ضاحكاً: لا، ولكنني شفت حماتي!»[٦١]. «في إحدى المقاهي جلس أحدهم يتحدث إلى صديقه عن الزواج. فقال له: ما هو أفظع شيء في أن يتزوج الإنسان مرتين؟ قال له: هو أن يصبح له حمايتان!»[٦٢]. «اعتادت إحدى العصابات أن تخطف الأطفال وتطالب آباءهم بالفدية التي تتناسب ومركزهم المالي. ثم ارتقت العصابة فأخذت تخطف الرجال والنساء على السواء. وحدث أن خطفت إحدى السيدات، فأبلغ زوج ابنتها أمر اختفائها إلى البوليس، ونشرت الصحف الخبر في محلياتها. وكان أن أرسلت العصابة إلى ذلك الرجل تهدده بدفع مئتي جنيه وإلا... ردت إليه حماته!»[٦٣]. «الزوجة: هل تعدني أن تحبني حتى في سن الشيخوخة؟ الزوج: أعدك، على شرط لما تعجزي ما تكونيش شبه أمك!»[٦٤].

ب ـ الحياة الزوجية

أكثر ما يثير السخرية في العلاقات بين الجنسين هي العلاقة الزوجية. فعبر تطور طويل من تنظيم الصلات بين الجنسين رأت البشرية نفسها في العصر الحديث قد وقعت في ورطة لا ترى في الأفق مخرجاً

(٦١) الموعد، العدد ١١٦٨، تاريخ ١٩٨٥/٧/١٣، ص٦٦.
(٦٢) المضحك المبكي، العدد ١٠٤١، تاريخ ١٩٦٣/١٠/٢٠، ص٢٧.
(٦٣) المضحك المبكي، العدد ١٠٢٣، تاريخ ١٩٦٣/٦/٣، ص٢٣.
(٦٤) تسالي، العدد ٢٨٨/ ١٩٩٥، ص٢٠.

منهـا. إنهـا ورطة الـزواج الأحـادي: زوج واحـد لزوجـة واحـدة، يؤلفـان مع أطفالهما وحدة أسروية مستقلة، رأسه برأسها بين أربعة جدران أغلب فترة ما بعد العمل، كثيراً ما ينتج عن هكذا تعايش ملل ومناقرة ونرفزة تضيع معها مشاعر الحب الأولى. في الماضي، في ظروف الأسرة الكبيرة و - أحياناً غير قليلة - تعدد الزوجات وتمضية أكثر اليوم في الوسط الرجالي أو النسواني الواسع الغني الممتع، بالكاد كان للنكات الزواجية وجود. هناك أمثلة قليلة في التراث العربي: «طلق رجل امرأته، فقالت له: أبعد صحبة خمسين سنه؟! قال: مالك عندنا ذنب سواه!»(٦٥). أما هذا الكم الكبير المنوع من النكات التي نسمعها يومياً والتي تدور حول العلاقة بين الزوجين، فهو حديث العهد، من منتجات العصر الحديث بمشاركة أغلب العالم في جهاته الأربع.

إذن فسوء العلاقة بين الزوجين يعود أساساً إلى أنهما زوج وزوجة، وليس إلى أنهما رجل وامرأة. هذا يعني أن العلة تكمن بالأصل في الشكل الأسروي الحالي للتعايش بين الجنسين. من شواهد ذلك: «ـ لما تجوزت كنت أصحي زوجي كل يوم الصبح ببوسه. ـ واليوم؟ ـ اليوم اشترى منبّه!»(٦٦). «قبل الزواج: ـ الأم: ليش عم تبكي، يا حبيبتي؟. الابنة: خطيبي مسافر وراح يغيب يومين. بعد الزواج: ـ الأم نفسها: فين زوجك؟ الابنة: مسافر. الأم: قديش رايح يغيب؟ الابنة: نسيت اسأله!»(٦٧). «في فترة الخطبة يتكلم الشاب وتصغي الفتاة. وفي فترة العرس تتكلم العروس ويصغي العريس. وفي فترة الزواج يتكلم الزوجان، فيسمع الجيران!»(٦٨). «واحد وخطيبته كانا رايحين مشوار، وكان القمر طالعاً. قالت له: شو هادا؟ قال: هادا القمر، يا قمر. وبعدما تزوجا، مشيا مرة في الليل والقمر طالع. أحبت الزوجة أن تستعيد أيام زمان، فسألت زوجها: شو هادا؟ قال لها:

---

(٦٥) ابن قيم الجوزيه، ص٣.

(٦٦) المضحك المبكي، العدد ٢٠٥، تاريخ ١٩٣٤/٢/١٧، ص١٢.

(٦٧) المضحك المبكي، العدد ٣٨٨، تاريخ ١٩٣٨/١٠/١، ص١٠.

(٦٨) الشبكة، العدد ٨٣٦، تاريخ ١٩٧٢/١/٣١، ص٤٣.

عميا، شو، ما شايفتيه قمر؟!». «قال الرجل، الذي مضى على زواجه ربع قرن، لصديقه الحديث الزواج: عندما تزوجت كدت أخنق زوجتي بقبلاتي!. - والآن؟. - الآن، أنا نادم لأنني لم أخنقها بالفعل!»[٦٩]. «الزوج: اذكري أن السارق لا يلوم إلا نفسه، فهو لا يكاد يسرق شيئاً أو يختلسه حتى يقضي بقية عمره نادماً على فعلته. الزوجة (في شيء من الدلال): لا تنس أنك درجت على اختلاس القبلات مني أيام خطبتنا. الزوج: ألا ترين أن ما تذكرينه دليل على صحة ما ذكرته؟!»[٧٠].

هذه المقارنة بين: ما قبل الزواج وما بعده، ما بين فترة الخطبة وفترة الزواج، ما بين بداية الزواج وبعد فترة منه، هامة جداً، وتثير التساؤل: ما الذي يحدث؟ إن نكتة ابن قيم الجوزية تشير إلى الزمن، أي طول فترة الزواج، كسبب للنفور بين الزوجين. إنه الملل، تلك الآفة التي جُبلت عليها الطبيعة البشرية، أو لنقل: ضعف أو فقدان الإثارة بين الزوجين مع الزمن، مما يجعل الحياة الزوجية عادية وروتينية تخمّد الجسم وتمرض الروح. فإذا كانت المادة الجامدة، أو بالأحرى ما اصطلحنا على تسميتها «جمادات»، لا تتوقف عن الحركة (حركة الالكترونات في الذرة، وتجاذب البروتونات الموجبة والنوترونات السالبة)، فما بالك بالعضوية، وهي الشكل الأرقى أو الأعلى تطوراً للمادة؟!: «أراد رجل أن يستفتي الشيخ، خائفاً من فساد صيامه بعد أن قبّل امرأته في يوم رمضاني. سأله الشيخ: كم مضى على زواجك؟ - عشرون عاماً، أجاب الرجل. - لا تخف، كأنك قبّلت مؤخرتي!»[٧١]. وتقول سلوى نعيمي: «ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، عدا الزوجين!»[٧٢]. «سأل أحدهم صاحبته: كيف تريدين أن أعاملك، كصديقة، كعشيقة، كزوجة؟ أجابت: كزوجة. فأدار لها ظهره!». وهذا مثال من التراث: «كان الفرزدق أراد امرأة شريفة على نفسها،

---

(٦٩) الموعد، العدد ١٢٣٣، تاريخ ١٩٨٦/١١/١١، ص٥٦.

(٧٠) العربي، العدد ١٠٧/ تشرين الأول ١٩٦٧.

(٧١) سلوى نعيمي: كتاب الأسرار (قصص قصيرة)، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٩٤، ص٢٦/ ٢٧.

(٧٢) المصدر السابق، ص٢٩.

فامتنعت عليه، وتهدّدها بالهجاء والفضيحة، فاستعانت بالنوار امرأته وقصت عليها القصة. فقالت لها: واعديه ليلة ثم أعلميني. ففعلت وجاءت النوار، فدخلت الحجلة مع المرأة. فلما دخل الفرزدق البيت، أمرت الجارية فأطفأت السراج. وبادرت المرأة إلى الحجلة واتبعها الفرزدق، فصار إلى الحجلة. وقد انسلت المرأة خلف الحجلة وبقيت النوار فيها، وهو لا يشك أنها صاحبته. فلما فرغ قالت له: يا عدو الله، يا فاسق. فعرف نغمتها وأنه خدع. فقال لها: وأنت هي؟! يا سبحان الله، ما أطيبك حراماً وأردأك حلالاً!»(٧٣).

هذا - برأيي - هو السبب الحقيقي الأول لأزمة العلاقة الزوجية بين المحبين، السبب الحقيقي الأول الذي وجدت النكتة المتناقلة تعبّر عنه. هناك سبب أساسي آخر، سابق له، إنما يأتي بالدرجة الثانية في تعبير النكتة عنه. فالحاجة إلى الجنس يخضع لها كل البشر الطبيعيين، ولابد من إرضائها. ولا معنى لقيم الوفاء والإخلاص وما إلى ذلك في هذه الحاجة. توفي الزوج مثلاً، إذن تبحث الأرملة عن زوج جديد أو حتى عن شريك جنسي جديد. وليس في الأمر غرابة. كذلك، إذا انعدم الإرضاء أو تعثر، حدث خلل في العلاقة بين الزوجين، ويتوقع أن يبحث الزوج المحروم أو الزوجة المحرومة عن شريك آخر، دائم أو عرضي. إذا حدث هذا، فليس غريباً. وسواء حدث هذا أم لم يحدث، فالنتيجة أن يتبادل الزوجان انتقادات واتهامات تموّه السبب الحقيقي:

«تزوجت أرملة صبية شقيق زوجها الراحل، وأصبحت مذذاك، كلما أشارت إلى صورة المرحوم، تقول: إنها صورة (سلفي) المسكين الذي توفي السنة الماضية!»(٧٤). «بينما كان يغازل زوجته قال لها: إذا متّ - لا سمح الله - فهل ستتزوجين رجلاً آخر؟ قالت له: بعيد الشر. ـ احلفي!. ـ وحياتك. ـ احلفي كمان!. ـ وحياتي عنك. ـ لا أصدق. وهنا نفخت

(٧٣) الأغاني، الجزء التاسع عشر، ص٣٤/ ٣٥.
(٧٤) البعث، تارخ ١٩٨٩/١١/٢٣.

وقالت: انت موت وشوف!»[٧٥]. «كانا يتحدثان عن الوفاء، فقال أحدهما: أعرف امرأة من شدة وفائها، ماتت في نفس اليوم الذي مات في زوجها. ردّ الآخر: غير معقول. قال: صدقني، بعده بثلاثين سنة، لكن في نفس اليوم!»[٧٦]. وهذه نكتة شفهية: «أخبر الصبي أمه قائلاً: ماما، جاءت باخرة روسية كلها نسوان، يقولون إنهم سيعطون كل رجل امرأتين. فصاحت الأم مستنكرة: شو الشغلة على كيفهم، المرأة التي ستقترب من هنا سأكسر لها رجلها... وذهب الصبي ثم عاد بعد قليل، ليقول لأمه: ماما، ماما، أنا فهمت غلط، يقولون إن الباخرة تحمل رجالاً وسيعطون كل امرأة رجلين. فقالت له: أمر الحكومة، شو بنقدر نعمل؟!». «مرض أحدهم وبحّ صوته، فذهب لعند الطبيب. رنّ الجرس، فخرجت له زوجة الطبيب. قال لها بصوته المبحوح: مساء الخير. فأجابته همساً بمثل صوته: مساء الخيرات. سألها: الدكتور هون؟ فأجابته: لأ، عجّل فوت!».

في الثقافة الجدية من دراسات وأبحاث تتناول العلاقة بين الجنسين تظهر المرأة مظلومة، يضطهدها الرجال ويستغلونها. أما في النكتة فتجدها على العكس من ذلك متسلطة على الرجل. أليس هذا غريباً؟ – طبعاً غريب، لكنه حقيقي، وتفسيره ليس صعباً. فالكتابات الجدية المذكورة ترصد المرأة والرجل في المجتمع، خارج البيت، حيث المرأة فعلاً مهمّشة. أما النكتة فترصد المرأة والرجل في البيت، في إطار الأسرة، وهنا الرجل مهمّش. لذلك نرى الدراسات الجدية محقة، وكذلك النكات، لأن كلاً منهما ينظر إلى أحد وجهي القضية، يقول نصف الحقيقة. هذه نقطة. النقطة الأخرى في الموضوع هي أن الميل إلى السيطرة، فرض الرأي، أمر طبيعي في الاجتماع البشري، لا يقف في طريقه سوى ميل الآخرين أيضاً إلى السيطرة. هذا من جانب. ومن جانب آخر هناك المحبة، أو الميل إلى إرضاء الأصدقاء والأحباب. فالاجتماع البشري يتوازعه إذن ميلان: السيطرة، والمحبة. وطالما أن الزواج تمّ بالمحبة، فالمفروض أن

---

(٧٥) الشبكة، العدد ١٣٤٩، تاريخ ١٨/١/١٩٨٢، ص٩٢.
(٧٦) حواء، العدد ٧٣٧، تاريخ ٧/١١/١٩٧٠، ص٤٧.

يكون الميل إلى السيطرة ضعيفاً. أما إذا زالت المحبة أو انتفت من نفسي الزوجين، فالمتوقع أن يقوى الميل إلى السيطرة:

«كان الحديث يدور حول تعسّف الزوجات بأزواجهن وحرصهن على أن لهن الكلمة الأخيرة. فقال أحد الحاضرين: «لكني لست مثل جميع الأزواج، فعندما أكلف زوجتي بعمل، فلابد أن تقوم به. وسأله صديق خبيث: وإذا رفضت، فماذا تفعل؟ فأجاب الزوج الهمام: إذا رفضت أقوم أنا بأداء العمل وأمشّي كلامي!»(٧٧). «تقابل الصديقان بعد فراق طويل. وبعد العناق والمقدمات قال أحدهما: أريد أن أعرف شيئاً، أيها الصديق العزيز، هل تزوجت أم مازلت تستيقظ في السادسة صباحاً لتعدّ طعام الإفطار بنفسك؟ فأجاب الآخر: الاثنين!»(٧٨). «واحد كان يخاف من زوجته. فكلما اصطدم معها، جعل يشتم: يلعن أبو العالم. قالوا له: شو ذنب العالم، إذا أنت اختلفت مع مراتك؟! أجاب: هيك بتصيبها المسبّة!». وهذا مثال من نوادر أبي نواس، مازال متناقلاً كنكتة في الأوساط الشعبية، دون أن ينسبها الرواة إلى صاحبها الأصلي: «كان قوم يصلّون ومعهم أبو نواس. فابتدأ الإمام يخطب، ثم قال بعد الخطبة: من كان فيكم رجلاً يخاف من امرأته، فليقم واقفاً!. فوقف الجميع، عدا أبو نواس، فإنه بقي قاعداً. فظن الخطيب أنه لا يخاف من امرأته. فقال: ما بالك، يا أبا نواس، لم تقم، لعلك لا تخاف من امرأتك؟ فأجاب: يا مولاي، ليس الأمر كذلك، فنهار البارحة ضربتني على رجلي وآلمتني جداً، ولهذا السبب لم أتمكن من القيام!»(٧٩).

ومن مظاهر اضطهاد المرأة للرجل: حبسها له في سجنها البيتي،

---

(٧٧) الاثنين والدنيا، العدد ٦٩٥، تاريخ ١٩٤٧/١٠/٦، ص٢٢. انظر أيضاً رواية أخرى للنكتة في: البعث، تاريخ ١٩٨٩/١٠/٢٣. وهي منتشرة على مستوى الوطن العربي.

(٧٨) الدوحة (قطر)، عدد كانون الأول ١٩٧٦، ص١١٤.

(٧٩) نوادر أبو النواس، ص٢٢. الرواية الشعبية: «في إحدى الجمعات العائلية جرى الحديث عمن يخاف زوجته ومن لا يخافها. بالأخير قالوا: من يخاف امرأته، ليرفع يده. فرفع الجميع أيديهم إلا واحد. سألوه: ألا تخاف زوجتك؟ قال: بلى، ولكن هي قالت لي أن لا أرفع يدي!».

حارمة إياه من مجتمعه الرجالي خارج البيت: «ـ شو عملت لك مراتك، لما رجعت للبيت وجه الصبح؟ ـ ما عملت شي، بسّ رمت عليي شوية ورد. ـ والله شي مليح، لكن ليش هيك عينك ورمانه ومتعوّر؟ ـ لأنها نسيت تطلّع الورد من المشربية النحاس قبل ما رمتني فيه!»[٨٠]. «خرج رجل متزوج وهو يقول لنفسه: نسيت بماذا وعدت زوجتي، أأشرب ثلاثة أقداح وسكي وأعود للبيت الساعة ١١، أم أشرب ١١ قدح وسكي وأعود إلى البيت الساعة الثالثة!»[٨١]. «الزوجة: العمى بقلبك، هيك جايه عالبيت وجه الصبح؟! الزوج: ما أنت قلتيلي امبارح ابقا تعا بكير؟!»[٨٢]. «الزوجة: لماذا عدت مبكراً؟ الزوج: المدير غضب مني وقال لي (اذهب إلى الجحيم!). الزوجة: وماذا فعلت؟ الزوج: جئت إليك فوراً!»[٨٣]. ومن مظاهر ظلم الرجل أيضاً ضعف دوره في الأسرة، فيشعر - كما تعبّر النكتة - كأنه غريب: «سمع الصغير والده يصرخ قائلاً: كل واحد في هذا البيت يجد من يهتم به ويقضي له حاجته، ما عداي، كيف أحصل على شيء من الاهتمام؟ فردّ يقول: ابك قليلاً!»[٨٤]. «سأل المعلم الطفل الذي دخل المدرسة لأول مرة: كم عمر والدك؟ - لا أعرف تماماً، فهو عندنا منذ زمن طويل!»[٨٥]. ويصل الأمر بالرجل، ليس فقط إلى الشعور بأنه لم يعد يعرف زوجته، بل حتى أنه اقترن بامرأة ما كان يعرفها أصلاً: «الابن: هل تعلم، يا أبي، أن الرجل في أواسط افريقيا لا يعرف زوجته مطلقاً قبل الزواج منها؟. الأب: أعرف ذلك طبعاً، ولكن لم الحصر والتحديد؟!»[٨٦].

إلى جانب الخلل في إرضاء الحاجة الجنسية أولاً، والملل والنزوع إلى التجديد الذي جُبلت عليه النفس البشرية ثانياً، وتنازع الميل للسيطرة مع

(٨٠) المضحك المبكي، العدد ٢٨٤، تاريخ ١٩٣٦/٤/٤، ص٩.
(٨١) المضحك المبكي، العدد ١٠٠٨، تاريخ ١٩٦٢/١١/١٤، ص٢٣.
(٨٢) المضحك المبكي، العدد ١٠٤٥، تاريخ ١٩٦٣/١١/١٧، ص٢٧.
(٨٣) سامر، العدد ٧٠٦، تاريخ ١٩٩٤/١/٢٧، ص٣١.
(٨٤) حواء، العدد ٧٤٦، تاريخ ١٩٧١/١/٩، ص٤٩.
(٨٥) هوبي - عالم التسلية، العدد ٢٢٢، ص٣٦.
(٨٦) العربي، العدد ١٠٧/ تشرين الأول ١٩٦٧، ص١٦٠.

المحبة في الإنسان ثالثاً، نستخلص من قراءتنا للنكات المتناقلة سبباً رابعاً قد يخرّب العلاقة الزوجية ويُفقد الأسرة سعادتها، وهو بالخط العريض: لامسؤولية المرأة. ثمة مثل شعبي، أظنه نسائياً، يعبر عن ذلك أبلغ تعبير: «ان بدي اصرف من كيسي، ما سميتك عريسي!»[٨٧]. وكنا تطرقنا إلى هذا السبب عند حديثنا عن صورة المرأة في النكتة، وقلنا إنه يتأتى عن هذه اللامسؤولية أن تطلب المرأة وتستهلك أكثر من قدرة الزوج وتطمح إلى ما لا يريد أو ما لا يقدر عليه: «كان الزوج يلوم زوجته لأنها تصرف في البيت أكثر من الوارد. فقالت له: أنا لا أصرف أكثر من ايرادنا، ولكن شو بدي أعمل إذا كان ايرادنا أقل من المصروف؟!»[٨٨]. ونضيف هنا، أن الرجل بالمقابل ورث عن بني جنسه شعوراً بالمسؤولية تجاه الزوجة والأسرة، وعندما يرى نفسه لا يرضي متطلبات امرأته، فإنه يشعر بالنقص في رجولته، أو بالغربة عن هذه المرأة، مما يفسد الحياة الأسرية وقد ينهي الرابطة الزوجية، إذ عندئذ يصبح الزوجان غير راضيين: المرأة عن حياة الحرمان واللامتعة، والرجل عن عجزه أو عن تغيّر زوجته:

«التقى رجل على قدر من الذكاء بفتاة نصف مثقفة. فقالت له: الرجل الذي سأتزوجه أريده أن يكون محدثاً لبقاً، ويرقص ويغني، ويلازم البيت على الدوام، ولا يدخن أويشرب الخمر. فقال لها: أعرف واحداً بهذه الصفات. فسألته: من هو؟ فقال: التلفزيون!»[٨٩]. «ذهبت إحداهن إلى عند الخياط ومعها قطعة قماش. قالت له: بدي تفصّل لي هالشقفه فستان ع الموضة، بس ما بدي ياه يكون طويل ولا قصير، بين بين، وما بدي الخصر يكون ضيق ولا واسع، بين بين، الكمام... وهنا قاطعها الخياط قائلاً: ولك، اختي، روحي، تلحسي، لا الفردة اليمين ولا الشمال، بين بين!». «كان صاحب محل للحلويات على وشك إقفال حانوته في مساء شتائي عاصف، حين دخل عليه زبون طالباً قطعتي حلوى. ولم يصدق صاحب المحل أن

(٨٧) انطوان شعراوي، ص٢٧.
(٨٨) المضحك المبكي، العدد ١٠٤٠، تاريخ ١٩٦٣/١٠/١٢، ص٢٧.
(٨٩) الموعد، العدد ٨٥٧، تاريخ ١٩٧٩/٤/١٩، ص٥٣.

أحداً يخرج من بيته في ذلك الطقس الرديء من أجل قطعتي حلوى. فسأل الزبون: هل أنت متزوج، يا سيدي؟ ـ بالتأكيد، يا أخي! أتظن أن أمي ترسلني خارجاً في هذه العاصفة؟!»[٩٠]. «في جلسة على البلاج قالت الأولى للثانية: الإجازة شيء يستمتع به الرجل أكثر من زوجته، لأنه لا يتحمل أية مسؤولية. سألتها: كيف؟ قالت: رئيسه يحدد الميعاد وزوجته تحدد المكان!»[٩١].

هذه هي العوامل الأربعة التي وجدنا النكات المتناقلة تعبّر عنها من أسباب تفسد العلاقة الزوجية. ما عداها يتفرّع عن هذه العوامل الأساسية، بشكل واضح أو مستتر، أو هو مجرد اتهامات متبادلة، وخاصة اتهامات الرجال للنساء، يتوهمونها مآخذ حقيقية على الطرف الآخر، وفي الحقيقة هم بذلك يحرفون النظر عن الأسباب الحقيقية التي قد تكون مآخذ عليهم هم وليس على شركائهم. مع ذلك، هذه التوهمات أو التمويهات ليست دون أهمية. فطالما أن الشخص المعني مقتنع بها كأسباب حقيقية، فهي ذات تأثير مباشر على علاقاته. وهذا دليل على أهمية الوعي في تشكيل الواقع، وبالتالي على أهمية التنوير والتوعية في إصلاح الواقع أو تحسينه؛ على الأقل يصل المرء بذلك - إن لم ينقذ العلاقة الزوجية - إلى تحديد السبب الحقيقي للخلاف، ومن ثم الافتراق دون عداوة أو بأقل ما يمكن من التأثيرات السلبية للفراق.

«الأولى: كل الرجال أوغاد. الثانية: هل هذا هو رأيك حقاً؟ الأولى: نعم، وصدقيني لو لم يمت زوجي الأول لما تزوجت ثانية!»[٩٢]. هنا تتظاهر المرأة أمام بنات جنسها بالعداء للرجل، فكأن النساء يعتبرن محبة جنس الرجال نقيصة في المرأة. وهذا مشهد من الحياة الزوجية، قد يكون منغّصاً، لكنه ليس بأي حال سبباً حقيقياً لتعاسة الزواج أو للتخلص منه:

---

(٩٠) المختار، العدد ٥٢/ آذار ١٩٨٣، ص٣٥.

(٩١) حواء، العدد ٧٢٩، تاريخ ١٢/٩/١٩٧٠، ص٥٣.

(٩٢) حواء، العدد ٧٧٠، تاريخ ٢٦/٦/١٩٧١، ص٤٧.

«تعارف رجلان في أحد المطاعم. قال الأول للثاني: زوجتي لا تعدّ الطعام، ولذلك أتناول طعامي هنا، وأنت؟ قال: أنا أتناول طعامي هنا، لأن زوجتي على العكس هي التي تعدّ الطعام!»[٩٣]. «تزوج أحد الأدباء بفتاة عصرية. وتصادف أن ترك الطباخ عمله، فتولت الزوجة طهي الطعام. وعندما عاد زوجها، قدمت إليه الطعام الذي طهته وقالت له متهللة: ماما كانت دايماً تقول إني شاطرة في عمل البطاطس والملوخية. ونظر الزوج إلى طبق الطعام الذي أمامه ثم قال: طيب، والطبق اللي قدامي ده، ملوخية والا بطاطس؟»[٩٤]. في هذه النكتة أيضاً، الطعام ليس هو المشكلة، بل في ما أسماه الراوي «عصرية» الفتاة. «سأل الصبي أباه: قل لي، يا أبي، كيف تنشب الحروب؟ فطفق الأب يجيبه: حسناً، يا بني، دعنا نقول إن أمريكا مثلاً قد تشاحنت مع انكلترا... ولكن الأم قاطعته قائلة: ليس بين أمريكا وانكلترا أي شحناء. فانفعل الأب وصاح بها: من قال إن بينهما شحناء؟ فقط أحببت أن أقدم لولدنا مثلاً. فعادت تقاطعه ثائرة: ولكنك بذلك تحشو رأس الولد بأفكار خاطئة. ـ شكراً، يا أبي، شكراً، يا أمي، لقد عرفت الآن كيف تنشب الحروب»[٩٥]. بالطبع، سوء الفهم أو التفاهم ليس سبباً حقيقياً لنشوء الحروب، لا بين الزوجين ولا بين البلدان. فكما يقول المثل الشعبي: «ما هي رمانه، بس قلوب مليانه!».

في العلاقة بين الزوجين ثمة على الدوام شيء من الطفولة: «تشاجر زوجان وامتنع كلاهما عن محادثة الآخر. وذات ليلة، عندما تهيأ الزوج للنوم، وضع في يد زوجته ورقة، قال فيها: أرجو أن توقظيني الساعة السابعة. وعندما استيقظ في الساعة التاسعة، وجد في يده ورقة مكتوب فيها: استيقظ، فقد أصبحت الساعة السابعة!»[٩٦]. وحلّ الخلافات

---

(٩٣) حواء، العدد ٧٢٨، تاريخ ١٩٧٠/٩/٥، ص٥٣. انظر أيضاً: العربي، العدد ٧٧/ نيسان ١٩٦٥، ص١٥٣.
(٩٤) الاثنين والدنيا، العدد ٦٩٥، تاريخ ١٩٤٧/١٠/٦، ص٢٢.
(٩٥) الدوحة، عدد كانون الأول، ١٩٧٦، ص١١٤.
(٩٦) سمير، العدد ١١٩٣، تاريخ ١٩٧٩/٢/١٨، ص٢٩. انظر أيضاً: العربي، العدد ٧٤، كانون الثاني ١٩٦٥، ص١٧٩.

الطفولية يكون بطبيعة الحال طفولياً: «كان أبو طنوس مختلفاً جداً مع زوجته أم طنوس. ففي ذات ليلة حنّ إليها وقال لها: اقلبي ناحي قلبه، يا أم طنوس. قالت له: أنا ما بقلبش. قال لها: لا تكوني عنيدة، عم اقول لك اقلبي قلبه. قالت له: ما بقلبش. قال لها: طيب، انت اقلبي قلبه، وأنا بقلب قلبه. قالت له: أبداً ما بقلبش. وعندئذ قال لها: أنا رايح اقلب قلبتين، قلبه عني وقلبه عنك، وأمري لله!»(٩٧).

كما في كل علاقة زوجية شيء من الطفولة، كذلك فيها شيء من الخيانة الزوجية، بمعنى توجّه نظر أو فكر أحد الشريكين أو كليهما نحو بديل، نحو شريك جديد من بين الغرباء. هذا طبيعي لدى الإنسان. فحالما يحدث خلاف شديد بين الزوجين، واحتمال هذا ليس صغيراً - كما رأينا عند دراسة الأسباب الحقيقية -، فإن الشريك الذي يشعر بالظلم أو الذي يظن نفسه محقاً، يلعن حظه، ويفكر تلقائياً لو أنه (من باب التمني) لم يتزوج بهذا الشريك و/ أو لو أمكنه أن يرتبط بشريك آخر. ليس عبثاً أن الثقة بين الزوجين تبقى ضمن حدود، وتكون أحياناً شبه معدومة. فالواقع يقدّم خيارات أكثر من هذا الزواج الواقع، سواء استفاد منها المرء المعني أم لم يستفد، وسواء استطاع أن يستفيد منها أم لم يستطع. وفاقد الشيء يبحث عنه أو يقبله ممن يقدمه له، أو - على الأقل - لا يفقد الأمل في أن يبحث عنه ويجده عندما لا يعود يتحمل العيش محروماً منه. بالنسبة للنكتة، الخيانة الزوجية أمر عادي. يتهيأ لي أننا لو أخذنا بمقالتها، لاعتقدنا أن الخيانة الزوجية معشعشة في كل بيت. غير أنها في ذلك تعبّر عن أحلام الأزواج ورغباتهم أكثر مما تعبّر عن الواقع الفعلي. هي إذن خيانة زوجية بالنية، ولا حكم لبشري على النوايا. على أية حال تخفف النكتة في نظرتها هذه من حدة المشكلة، توطن النفس على تحملها، بحيث لا تأتي عواقبها مدمّرة. هذه ناحية. الناحية الأخرى هي أن النكتة في عرضها للخيانة الزوجية كثيراً ما تبيّن بصورة مباشرة أو غير مباشرة أسباب المشكلة:

(٩٧) المضحك المبكي، العدد ١٠٣٠، تاريخ ١٩٦٣/٨/٤، ص١.

«كان هناك لحام، عندما يشتري الخواريف، يجسّها، يبقبشها، يقلّبها... وفي أحد الأيام عاد إلى البيت، فقال له ابنه الصغير: بابا، بابا، جارنا بدو يشتري الماما!». الزوج هو دائماً الطرف الذي تقع عليه الخيانة في النكتة. فالخيانة الزوجية بمفهوم النكتة هي خيانة المرأة للزوج، حيث تظهر المرأة غالباً كموضوع للخيانة وليست ذاتاً، ولو عُرضت أحياناً مستعدة لفعل الخيانة تنتظر فقط مبادرة الرجل: «ذهبت امرأة مع زوجها إلى عيادة طبيب ليفحصها. في غرفة المعاينة قال لها الطبيب: اشلحي. فامتنعت. ولما أصرّ الطبيب، ذهبت إلى زوجها وسألته، فسمح لها. فعادت إلى الطبيب في غرفة المعاينة وقالت له: زوجي سمح لي أشلح، بسّ اشلح أنت بالأول!». وقليلاً ما تكون المرأة مبادرة، أو محتالة: «دخل الزوج إلى منزله قبل موعده المحدد بساعة، إثر صداع في رأسه، فلم يجد زوجته الحسناء. وسأل الخادمة الصغيرة قائلاً: وين معلمتك، يا بنت؟. أجابت البنت: سمعتها عم بتقلك عالتلفون انها رايحة لعندك!»[98]. «عاد الدركي إلى منزله متأخراً،فقالت له زوجته قبل أن يشعل النور ويخلع كل ثيابه: أرجوك، لا تشعل النور، معي وجع راس، والنور يتعب عيني. ثم أردفت، عندما اقترب من السرير: حبيبي، هل يمكنك أن تذهب إلى الصيدلية القريبة وتشتري لي علبة أسبرو؟ ولبس الدركي ثيابه في الظلام، لأنه كان يحب زوجته، وخرج ليشتري لها الدواء. فصادفه زميل له بالدرك، وقال له: عيد البربارة بعد بكّير! وتساءل الأول: لم هذا السؤال؟ ـ لأنك ترتدي ثياب إطفائي!»[99].

في حالات تزعم النكتة أن طبيعة المرأة الخيانة، وهذا خصوصاً في النكات الشعبية: «أحدهم دخل جهنم، وأخذ يبحث عن زوجته. وجد الملائكة، كل واحد منهم يحمل امرأة ويلوح بها في الهواء، بسرعات متفاوتة. سأل عن الخبر، قالوا له: بقدر ما تكون المرأة فعلت من الخطايا، يلوح بها الملاك في الهواء. وعندما لم يجد زوجته بين النساء، سرّ كثيراً وقال: الحمد لله، مراتي ما عليها خطايا. ولم يكد ينهي كلمته حتى انتبه

(٩٨) الشبكة، العدد ٨٥٤، تاريخ ١٩٧٢/٦/٥، ص٤٥.
(٩٩) الموعد، العدد ٥٣١، تاريخ ١٩٧٢/١١/٩، ص٥٤.

ورأى زوجته مربوطة على مروحة!». «ازدحم الناس في إحدى القرى للتعزية بفقدان أحدهم. في هذه الأثناء شهنقت حمارة، فشهنق من بعدها حمار، واندفع نحوها. فهربت الحمارة من أمامه. لاحقها طويلاً، لكن الحمارة لم تمكّنه من نفسها. أخيراً عجز الحمار عن نوال مراده وهدأ مستسلماً. وهنا التفت أحد الختاورة إلى من حوله وقال: والله، هالجحشة أشرف من كل نسوان هالضيعة!». وكما قلنا، تبدوالخيانة الزوجية في النكتة عادية وشبه عامة. ومما ينقل عن ردح النساء(١٠٠):

قــالت لجارتها يومــاً تعيّرهــا قــرّنت زوجك إن القـرن يفضحـه

قــالت: أأتركه قحطاً بــلا قــرن يأتيه زوجك ذو القـرنين ينطحه

في بعض النكات تتساوى الخيانة مع العهر: «على عادة النساء قبل وجود الخزانات كان عند واحدة صندوق تقفله دائماً ولا تُطلع أحداً على محتواه. ومرة، بعد أن كبرت في العمر، أراد زوجها أن يعرف ما في الصندوق. فتحه، فإذا فيه خمس ست بيضات وكدسات من الأوراق المالية. سألها عن ذلك، فقالت: أنا كلما كنت أخونك مع رجل، كنت آخذ منه بيضة وأصفها في الصندوق. فكّر الزوج: خلال هذا العمر الطويل خمس ست مرات خيانة ليست كثيرة. ثم سألها: وما هذه النقود؟ قالت: كنت كلما اجتمع معي صفت (سفط)، أبيعه وأضع ثمنه هنا!». وفي إحدى النكات ثمة مقارنة بين خيانة الرجل لزوجته وخيانة المرأة لزوجها، فتبقى خيانة الرجل نزوة، بينما تصبح خيانة الزوجة عهراً: «ضابط وزوجته اتفقا على أن لا يخون أحدهما الآخر مع أكثر من ثلاثة أشخاص في السنة. في آخر السنة قال الرجل لزوجته إنه خانها مع فلانة وفلانة وفلانة، مع ثلاث نساء. وقالت المرأة لزوجها، إنها خانته كذلك مع ثلاثة: مع قائد الفرقة ومع نائب قائد الفرقة ومع الفرقة!»(١٠١).

وتنبّه إحدى النكات إلى مخاطر الخيانة الزوجية على المجتمع، بالتحديد: فوضى النسب: «أصدرت مؤسسة التأمينات الاجتماعية قراراً بمنح كل أسرة تضمّ عشرة أطفال بيتاً بالمجان. وكان لدى أحدهم تسعة

(١٠٠) انطوان شعراوي، ص٦٩.

(١٠١) المصدر شفهي. ثمة نكتة مشابهة في: ١٠٠٠ نكتة، العدد ٢٨، بيروت ١٩٨٨، ص٩٢.

فقط، ولم تقبل زوجته أن تنجب طفلاً عاشراً، كما لم تقبل بضرّة عليها. فقال لها: أنا كنت أخفي عنك أمراً، وهو أن لي ولداً من امرأة أخرى، فما رأيك أن نضمّه إلينا، ونحصل على بيت؟ فقبلت على مضض. وعندما عاد إلى البيت بولده العاشر، لم يجد أحداً من أولاده التسعة. سألها: أين الأولاد؟ قالت له: جاء آباؤهم وأخذوهم!».

مع كل هذه الإدانة للخيانة الزوجية (يكفي أن اسمها «خيانة»)، نلاحظ أن هناك بعض التهوين من شأنها، وذلك من خلال إظهارها كأمر عام وعادي، وبالأخص لا تستحق أن يموت المرء بسببها: «أحسّ أحدهم أن امرأته تخونه. فتقصّد يوماً أن يعود باكراً إلى البيت. سمعته زوجته يفتح الباب، فقامت بإخفاء عشيقها في البرّاد. دخل الزوج وأخذ يفتش عن غريمه. فلم يجده في أي مكان. ثم صعد إلى التتخيتة يبحث عنه، فسقط ومات. وبسبب الحادث نسيت المرأة عشيقها في البراد، فمات هو الآخر. في جهنم التقى الزوج والعشيق، وأخذا يتسولفان ويسأل كل منهما الآخر عن سبب موته. فحكى الزوج قصته مع زوجته وكيف سقط عن التتخيتة ومات. وهنا قال العشيق: هذا أنت، إذن، أما كنت تفتح البراد وتتجيني وتتجو؟!». «واحد رجع من الخمارة سكران إلى بيته. فيما هو ماشي كان يتمايل ويتطلع ويبحلق قدامه وحواليه ويقول: هاي حارتنا؟ والله كأنها حارتنا، هادا شارعنا؟ بالظاهر شارعنا، وين بنايتنا؟ هاي بنايتنا، وهاي متل شقتنا. فتح الباب ودخل وتابع يقول لنفسه: هاي شقتنا، هادا الصالون، وهاي غرفة النوم، وهادا تختنا، وهاي مرتي نايمه، وهادا؟، وهادا أنا جنبها!»[(١٠٢)].

في حالات قليلة تبرر النكتة الخيانة الزوجية: الحرمان الجنسي والإنجاب. «كانت هناك امرأة، تنوّم زوجها كل يوم وتذهب لملاقاة زبونها في حفرة قريبة من البيت (الريفي). ومرة اشتلق عليها زوجها، وتظاهر بالنوم. وعندما خرجت، لحق بها، فرآها في الحفرة وقد طبّ عليها رجل.

(١٠٢) المصدر شفهي. روتها المضحك المبكي في العدد ١٠٢٩، تاريخ ١٤/٧/١٩٦٣، ص٢٣، عن حشاش يدلّ صديقه على مسكنه الجديد.

فأخذ يتضارب ويتصارع مع غريمه. عندما يكون زوجها فوق، تقول له: اي اضربه، اضربه، ما كان يخليني اطلع صوب برّه!. وعندما يكون زبونها فوق زوجها، تقول له: أخ، اشفي لي قلبي، لا بيرحمنا ولا بيخلي رحمة الله تنزل علينا!». «سأل طفل أمه: ماما، من جلب لنا الخزانة؟ قالت له: صديق البابا. ـ ومن جلب البراد؟ ـ صديق البابا. ـ ومن جلب التلفزيون؟ ـ صديق البابا. تعجّب الطفل، فكل شيء جلبه صديق البابا. فسأل أمه: وماذا جلب لنا البابا؟ قالت له: لو استنيت ع البابا، ما كنت اجيت لا أنت ولا اخواتك!». وقد يبرر قبول الخيانة (كضريبة) للحصول على الجمال: «تزوج رجل امرأة جميلة. فصارت تجذب أنظار الرجال أينما حلّت. فلم يتحمل الزوج ذلك، فطلقها، ثم تزوج بامرأة قبيحة. ومرة زاره أحد أصدقائه، فرأى عنده المرأة القبيحة، فسأله عن زوجته الجميلة. قال له: طلقتها وتزوجت هذه، أليس هذا أفضل؟ فقال له الصديق: لا والله، إذا أكلت عسل انت وغيرك، أحسن ما تاكل خرا لوحدك!»(١٠٣).

من الأسباب القليلة التي تذكرها النكتة، دون أن تبرر بها الخيانة الزوجية: الشبق الجنسي: «كان أحدهم يسير مرة في الطريق، فصادف جنازة لا يسير وراءها غير النسوان. استغرب ذلك، فسار وراء الجنازة. وبعدما انقبر الميت وانفضّ جمع النسوة، فتح الرجل القبر ونظر ليرى بماذا يمتاز هذا الميت عن غيره من الرجال، فوجد أن شيته كبير. فقطعه ووضعه في كيس ورق وذهب إلى البيت. في البيت سألته زوجته: وين كنت؟ قال لها: كان عندي شغل. ثم استدرك: ليكي، هادا كيس ورق، لا تمدي ايدك عليه، رح حطه فوق الخزانة. ثم استلقى على الفراش وتظاهر بالنوم. وما أن ظنت المرأة أنه نام فعلاً، حتى أسرعت إلى الكيس وفتحته، وهنا أطلقت شهقة وصاحت قائلة: يا حسرتي عليك، يا أبو ابراهيم!». ولنا عودة إلى موضوع الشبق.

(١٠٣) المصدر شفهي. وردت نادرة مشابهة في: الفكاهة البلغارية، ص٧٦، حيث يقول البروفسور الذي تزوج إحدى طالباته الصغيرات: «الأفضل للإنسان أن يأكل لحماً طازجاً مع الآخرين من أن يأكل لحماً فاسداً وحده!».

عموماً، المرأة الخائنة توصم، أما الزوج الذي تخونه زوجته فتهاجمه النكتة باعتباره مغفلاً و/ أو جباناً، وبعبارة أقسى: منقوص الرجولة: «في المقهى كان أبو أحمد يأخذ نفساً من النرجيلة ويتحدث مع أبي مصطفى عن زوجته: هاي مراتي هالكتي، كل خميس، كل خميس بدها، انكسر ضهري. فقال له أبو مصطفى: أنا مراتي بالعكس، ما بدها خالص. ثم التفتا إلى أبي عبدو، الذي كان يشحط نفساً بالنرجيلة صامتاً: وانت، يا أبو عبدو، كيفها مراتك؟ قال لهما: ناس بيقولوا حاميه، وناس بيقولوا بارده، أنا اش عرفني؟!». «أبو محمد شكّ بزوجته، أنها تخونه. وفي أحد الأيام تظاهر بالخروج من البيت وعاد فاختبأ تحت التخت. بعد قليل جاءت الزوجة ومعها رجل غريب، ونامت معه على التخت. بعد أن انتهيا من ذلك، سألها الرجل: كيف شفتيني، أنا أحسن وإلا أبو محمد؟ قالت له: أبو محمد أحسن. وهنا ظهر أبو محمد من تحت التخت وقال: أصيلة، يا أم محمد!». «وجد أحدهم رجلاً غريباً عند زوجته، فجعل يشتم ويهدد. فما كان من الرجل الغريب إلا أن أوسع الزوج ضرباً، ثم قال له: هلق أنا بدي شوف شغلتي، وانت امسك لي بيضاتي، اوع يلقوا ع الأرض!. ونفذ الغريب مراده وخرج. عندئذ قال أبو محمد لزوجته: شفتي كيف ضحكت عليه؟ خليت بيضاته تلق عشر مرات بالأرض!». «ذهب أحدهم إلى طبيب وشكى له، أنه دخل مرة بيته، فوجد رجلاً غريباً مع زوجته، فغضب وشتم وهدد وتوعد. فقالت له زوجته: ليش الغضب، ما حصل شي، تعال إلى المطبخ، اشرب كاس شاي وروّق. فذهب وشرب الشاي وروّق. وفي مرة أخرى وجد رجلاً آخر، وغضب، وأخذته زوجته وأسقته الشاي، وروّق. وتكرر ذلك عدة مرات. وهنا سأله الطبيب: وأنا ما علاقتي بهذا الأمر؟ فقال له: بدي اسألك، يا حكيم، ما بيضرّ كتر شرب الشاي؟».

كذلك لا ينجو الغريم منْ بعض الإدانة، وإن كانت طفيفة بالمقارنة مع إدانة الزوج المخدوع: «أصيب أحدهم بعجز جنسي. فتذمرت زوجته من ذلك، وطلبت منه أخيراً أن يطلقها. فرفض تطليقها، لكنه سمح لها بأن تقيم علاقة جانبية. بالفعل اتخذت المرأة لها عشيقاً، وأصبح هذا العشيق

يشارك الأسرة حياتها. ومرة التقى الثلاثة بشخص في مكان عام، فقام الزوج بالتعريف: أنا فلان الفلاني، وهذه زوجتي، وهذا... أيري!».

إلى جانب الخيانة الزوجية قد ينتج عن سوء الحياة الزوجية، وكذلك عن الخيانة الزوجية نفسها، خطر الطلاق وتدمير الأسرة وتشتيت الأطفال. والنكتة، التي طبيعتها أن تنظر إلى أسوأ الأمور وأخطرها من زاويتها الضاحكة، لا تهتم لهذه التبعات، بل تراها تستسهل هذا الحلّ، وكثيراً ما تحبّذه بلسان الرجل: يقال «من الصعب أن نعرف أيهما يمنح الزوجين القدر الأكبر من السرور، رجل الدين الذي يزوجهما أم القاضي الذي يطلقهما!»[104]. «رجل رفعت عليه امرأة دعوى تفريق. في المحكمة سأله القاضي: يا فلان، زوجتك تدعي عليك أنك تسكر، شو جوابك؟ قال له: صحيح، يا حضرة القاضي. ـ وانك تعذبها؟ قال له: صحيح، يا حضرة القاضي. ـ وانك تلعب قمار؟ قال له: صحيح، يا حضرة القاضي، وبلحق أولاد كمان!». أما المرأة فتبدو في النكتة أكثر تمسكاً بالرابطة الزوجية: «مات الزوج بعد أن عاش حياته في نكد من مشاكسة زوجته، فوضعت على قبره لوحة كتب عليها: نم مستريحاً حتى نلتقي ثانياً!»[105].

ج ـ العلاقات الجنسية

تبدأ العلاقة الجنسية بالتجاذب الجنسي بين الذكر والأنثى. نكات هذه المرحلة تتصف عموماً بالرقة واللطافة، مثلها بين أنواع النكات كمثل شعر الغزل بين أغراض الشعر. هنا نلاحظ، بالرغم من اهتمام الأوساط الشعبية العربية بالنكتة الجنسية عموماً، وبالرغم من أهمية مرحلة التجاذب الجنسي، وخاصة بالنسبة لفئة الشباب من ذكور وإناث، أن تغطية النكتة الشعبية لهذه المرحلة جاءت ناقصة نسبياً. قد يعود هذا أسلوبياً إلى مباشرية وصراخية (تفشيقية) العامة ونكاتهم. وقد يعود من الناحية

(١٠٤) الشبكة، العدد ١٣٨٠، تاريخ ١٩٨٢/٨/٢٣، ص٧٣.
(١٠٥) المضحك المبكي، العدد ٢٠٢، تاريخ ١٩٣٤/١/٢٧، ص١١.

النفسانية الاجتماعية (السيكوسوسيولوجية) إلى تأثير الكبت الجنسي المتفاقم الذي لا يرضيه إلا الفعل الجنسي نفسه دون مقدمات (أو مقبّلات)، والذي لا يجد متعة في طريق الوصول إلى الهدف، بل في الهدف ذاته فحسب. لذلك نجد أكثر النكات التي تناولت مرحلة المقدمات الجنسية إما مثقفية المصدر أو مترجمة عن شعوب أخرى أقل كبتاً وأكثر حرية في ممارسة الجنس. على أية حال تعبّر نكات التجاذب الجنسي عن بديهية وهي أن اللقاء الجنسي رغبة طبيعية في الإنسان، ذكراً كان أم أنثى، لا تصمد أمام إلحاحها أخلاق الشرف والعفّة والكبرياء والإخلاص والطيبة... وما إلى ذلك. فهذه الأخلاق تكون حقيقية، أي تتحقق سلوكياً، طالما لم تصطدم بحاجة جنسية ملحة، وإلا فهي وهمية:

«الأم تنبّه ابنتها قبيل مغادرتها المنزل إلى حفلة: كوني عاقلة وتمتّعي بوقتك. فسألت البنت محتارة: أي من الأمرين تريدين أن أحفظ؟!»[١٠٦]. «كان لرجل ابنة وحيدة خطبت لشاب جميل. وفي يوم زفافها أخذت تبكي وتسكب دموعها. فقال لها أبوها، الذي كان يحبّها كثيراً: لماذا البكاء، يا بنتي؟ إذا كنت ما بدك تروحي مع العريس، اتركيه وارجعي للبيت!. قالت له: ما عليه شي، يا بابا، فأنا أبكي وأروح معه!»[١٠٧]. «ـ هو: لماذا لا تحبين الرقص؟ ـ هي: لأنه عبارة عن عناق مصحوب بموسيقى. ـ هو: وما الذي لا تحبينه في ذلك؟ ـ هي: الموسيقى!»[١٠٨]. «كان العاشق على موعد مع فتاته أمام صيدلية معينة. وكان الشتاء على أشدّه في شهر يناير. وكان صاحب الصيدلية قد وضع بارومتراً لقياس حرارة الجو على جدار الصيدلية. وقد رأى العاشق أن مؤشر البارومتر قد وصل إلى درجة عشرة تحت الصفر. وطال انتظاره وهو يمشي ذهاباً وجيئة استجلاباً لبعض الدفء. ولما طال الوقوف بالعاشق قال بينه وبين نفسه: سأنتظر حتى تصل البرودة إلى

(١٠٦) عالم التسلية (بيروت)، العدد ٤٨، ص٥٢.
(١٠٧) المضحك المبكي، العدد ١٠١٧، تاريخ ١٩٦٣/١/١٣، ص٢٤. والعدد ١٠٢٧، تاريخ ١٩٦٣/٦/٢٣، ص٢٤.
(١٠٨) المضحك المبكي، العدد ١٨٣، تاريخ ١٩٣٣/٨/٢٦، ص١.

خمسة عشر تحت الصف، فإذا لم تحضر جانيت، فسوف أنصرف!»(١٠٩).

«أخذت المدموازيل تقصّ على جدتها كيف أن جارها الشاب دخل إلى غرفتها ليلاً. فقالت لها: أنا ما قلتلك أن تقفلي باب غرفتك بالمفتاح؟! فقالت لها المادموازيل: أنا قفلتو، ولكن كان هو دخل وخلص!»(١١٠).

في ميدان الفعل الجنسي يختلف الإنسان عن سائر الحيوانات الثدية في أنه في الأحوال العادية يختار شريكه الجنسي. فممارسة الجنس ترتبط لديه إلى هذا الحد أو ذاك بقرارات أخرى مثل الإعجاب والحب والشكل والانتماء، وحتى بالمال، في حين أن الحيوانات الثدية الأخرى تمارس الجنس عند الحاجة إليه (في فترة الإخصاب) بحسب التيسير مع أقرب عضو من الجنس الآخر في جماعتها دون تمييز: «كانت البقرة باركة والدمعة في عينيها. سألوها: ليش أنت حزينة، يا بقرة؟ فقالت: آخ، آخ، كل السنة بيلعبوا لي ببزازي، وما بيطلع لي غير فرد زبّ!». لكن في حالات استثنائية قد يضطر الإنسان أيضاً إلى عدم التمييز، ويصبح الفعل الجنسي مطلوباً لذاته دون أي انتقاء أو خيار. في الغالب يكون عندئذ التنظيم الاجتماعي بما فيه من أعراف وقوانين قمعية هو المسبب لهذه الحالة «الحيوانية»، دون أن تعني هذه الصفة أي تحقير أو أية إدانة للشخص المعني: «مرة كانت ست بيت تعمل وهي مشلحفة، تمسح الأرض أمام باب الدار. كانت مطوبزة، وكل شي مبيّن من ورا. مرّ زلمه، شافها واشتهاها من هذا المنظر. فدقّ فيها من ورا. بعقت وهي موطّايه: مين؟... ولك مين؟!... اي، يا الله، مين ما كان يكون!».

لدى دراسة النكات الجنسية البحتة نلاحظ أنها تعزف على وتر عدم مجاراة الرجل للمرأة في مضمار الجنس. ليس المقصود هنا هو الملل الجنسي في الزواج، وإن كانت النكتة تُرجعه إلي الرجل رغم عموميته. ذلك لأننا سبق وناقشناه. المقصود هو أن المرأة عموماً تبدو في النكتة أكثر

(١٠٩) رحلة مع الظرفاء، ص١٠١ - ١٠٢.

(١١٠) المضحك المبكي، العدد ٣٣١، تاريخ ١٩٣٧/٦/١٢، ص٩.

رغبة بالجنس من الرجل وأكثر قدرة عليه منه، أي أكثر مما يرغب ومما يقدر عليه الرجل. المسألة - برأيي - مرتبطة أولاً بذكورية المجتمع، التي نصّبت الرجل قائداً للمرأة (كما هو في عموم الحياة الاجتماعية)، حتى في ممارسة الجنس. لقد ورّط الرجل نفسه بهذا الدور. فهو الذي عليه أن يبادر، وأن يمهّد، وهو الذي عليه أن يصل مع شريكته إلى النشوة في نفس الآن. هذا ما أسميه «مسؤولية الرجل الجنسية»، مثلها مثل المسؤولية المعيشية تجاه الأسرة، والمسؤولية الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والثقافية... الخ: «سقطت عانس من عالي بناية. فجاءت وقعتها على سيارة موز كانت مارة من هناك. فأغمي على المرأة. وفيما هي غميانة جعلت تتلمس الموزات وتقول: بالدور، شباب، بالدور!»(١١١). يقول مثل شعبي: «المرا ما بتشبع نيك، وما تشبع العنزة رعي!»(١١٢). ومن التراث: «قال حمزة بن بيض للفرزدق: يا أبا فراس، أسألك عن مسألة. قال: سل عما أحببت. قال: أيما أحبّ إليك، أتسبق الحرّ أم يسبقك؟ قال: إن سبقني فاتني، وإن سبقته فته، ولكن نكون معاً لا يسبقني ولا أسبقه؛ ولكن أسألك عن مسألة. قال ابن بيض: سل. قال: أيما أحبّ إليك، أن تنصرف إلى بيتك، فتجد امرأتك قابضة على أير رجل، أم تراه قابضاً على هنها؟»(١١٣).

الزوج هو الملام إذا لم يرو شريكته جنسياً. أما الزوجة فلا ملامة عليها، إلا ربما في حالة البرود الجنسي. لقد ظلم الرجل نفسه، لأن الذكر والأنثى خلقا متكاملين جنسياً، ولا يمكن أن يكون من حيث الطبيعة أكثر قدرة أو رغبة. ثانياً، كرّس الرجل هذا الظلم بعقلية ذكورية تتباهى بالفحولة الجنسية. فحولة الرجل فضيلة، بينما لا أحد يمدح امرأة لقدرتها الجنسية المتميزة، ولا هي تتباهى بذلك. بالعكس. حقاً، إن البرودة الجنسية والعقم (عدم القدرة على الإنجاب) يعدّان نقيصتين في المرأة، إلا أن القناعة الجنسية صفة

(١١١) سمعت في الستينات في ألمانيا نكتة مشابهة، إنما عن راهبة.

(١١٢) «وكان يقال: أربع لا يشبعن من أربع: عين من نظر وأذن من خبر وأرض من مطر وأنثى من ذكر». ابن قيم الجوزية، أخبار النساء، ص٨٦.

(١١٣) الأغاني، الجزء التاسع عشر، ص٣٣.

حميدة فيها، مذمومة في الرجل. حتى الزهد الجنسي ليس محموداً في الرجال، إلا لدى صنف الرجال الأولياء والزهاد الدينيين والرهبان. هذه المسؤولية الجنسية الظالمة للرجل جعلته يخاف من شهوة النساء.

إذا كان للمرأة غلبة (مستترة) ضمن الأسرة، فمصدرها جنسي. فبما أن الرجل خصّ نفسه بالدور القيادي في الحياة الجنسية، فعليه أن يتحمل كأي قائد تبعات المسؤولية من انتقادات واتهامات ومؤامرات وتمردات... هذا الوضع الذكوري تستطيع المرأة أن تستغله من خلال أنها معفاة من المسؤولية ودورها منفعل (سلبي)، ومن خلال فيزيولوجيتها التي تخدع من حيث الرغبة والقدرة، ثم أخيراً من خلال فارق السن الذي يجعل النساء عموماً وإلى حدّ معين فعلاً متغلّبات جنسياً. فالرجل يتزوج أو يعاشر عادة امرأة ينقص عمرها عنه بأكثر من خمس سنوات، ويصل بصورة عادية إلى عشر سنوات، وقد يصل بصورة استثنائية إلى عشرين سنة. الشائع لدى العامة أنه يصحّ أن يتزوج الرجل من امرأة بنصف عمره مضافاً إليه خمس سنوات، فابن الثلاثين يتزوج على هذا الأساس بفتاة في سن العشرين، وابن الأربعين بفتاة عمرها خمس وعشرون سنة. ومن النصائح الشعبية: «احذر النسا قبل العشرين، واتركهن بعد الأربعين!»(١١٤). في هكذا زيجات أو معاشرات من الطبيعي أن يتراجع نشاط الرجل الجنسي قبل المرأة.

«قالت امرأة لجارتها: ليش كل ما أغسل بيصير مطر، وكل ما غسلت أنت بيصير شمس، شو عرّفك بالطقس؟ أجابت الجارة: تطلّعي على أير زوجك، إذا كان عاليمين بيكون الجو مشمس، وإذا كان عاليسار بيكون الجو ماطر. فسألتها المرأة: وإذا كان عالنصّ؟ فقالت الجارة: وقتها يقطع الغسيل وأخباره!». «فلاحة أخذت الغداء لزوجها حيث يعمل في الأرض. كانت الدنيا شوب، فقعدا في فيء شجرة يتغديان. بعد الغداء تمددا يرتاحان. واشتهت المرأة زوجها، فسألته: صالح، من شو بيعرف الفدان ان البقرة بدها؟ قال لها: بيشم ريحتها. فقالت له: عزا يقرعك، مزكوم؟!». «كان أحدهم في

(١١٤) عبد الكريم الحشاش، الأسرة، ص٦١.

القاهرة. وفيما كان ينتظر عند الموقف جاء باص. فسأل شاباً كان إلى جانبه: ده يوقف عالعجوزه؟ فأجاب الشاب: ده أنا كنت اقطعه!». «كان بائع فول وحمص يفيق قبل الفجر ويراقب الذاهبين إلى الحمام. رأى رجلاً مسناً يدخل الحمام ثلاثة أيام متتالية. وفي اليوم الثالث سأله: أبا فلان، أليس كثيراً أن تذهب إلى الحمام في هذا العمر ثلاثة أيام؟ قال له الآخر: اسكت، يا أبا فلان، هيه مره واحده ولكن ما خلصت إلا اليوم!»[115].

يتباهى الرجال بفحولتهم الجنسية لدرجة أن بعضهم يختزل الرجولة إلى فحولة، ومقياس الفحولة - في اعتقادهم - هو: عدد مرات الجماع، وطول الذكر أو كبره. لكن، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الهدف هو الوصول معاً إلى درجة النشوة، فإن المقياسين المذكورين ليسا أساسيين، أو ليسا شرطين. عندئذ تكون الفحولة، أو بالأحرى الكفاءة الجنسية، من ناحية خاضعة لتأثير نفسي أيضاً، ومن ناحية أخرى متعلقة بنفسية وسلوك الشريكة. مهما يكن، فعامة الناس تعتقد بصحة المقياسين المذكورين، وتعبّر نكاتهم عن هذا الاعتقاد: «امرأة كانت ماشية مع زوجها في الطريق، فلاحظت رجلاً يتبوّل. وبعدما انتهى من التبوّل، هزّ عضوه قليلاً ثم ضبّه ومشي. سألت زوجها: ليش هالزلمه هزّ تبعه هيك؟ قال لها: منشان يطوّله. في البيت دخل الزوج إلى المرحاض، تبوّل وضب عضوه وخرج. كانت زوجته تراقبه، فقالت له: هزّه، هزّه، بتتكسر ايدك إذا هزيته شوي؟!». «راح زوجان إلى المحكمة يريدان الطلاق. قال القاضي للزوج: ليش بدك تطلق، يا ابني؟ أجاب: يا سيدي، لما تزوجتها كان قدّ كده (وعمل بإصبعيه فتحة صغيرة)، هلق صار قدّ كده (وعمل دويرة كبيرة بكلتا يديه)، هو طشت استحم فيه؟!. تطلع القاضي إلى الزوجة وقال لها: وانت، يا بنتي، ليش بدك تطلقي من زوجك؟ قالت له: يا سيدي، لما تزوجته كان قدّ كده (وأشارت بإحدى يديها إلى مرفق اليد الأخرى)، هلق صار قدّ كده (وأشارت إلى سبابتها بإبهامها)، هو مكحلة أتكحل فيه؟!». «واحدة قاربت العنوسة ولم تتزوج بعد. سألت عجوزاً أن تدبّر لها زوجاً. فسألتها: أتريدينه دمياطياً

(١١٥) نجاة قصاب حسن، حديث دمشقي، ص٢٣٠ - ٢٣١.

أم أسيوطياً؟ قالت لها: كيف يكون الدمياطي، وكيف يكون الأسيوطي؟ قالت: الدمياطي يكون عضوه قصيراً وثخيناً، والأسيوطي طويلاً رفيعاً. فقالت لها: ما فيكي تشوفي لي واحد دمياطي على أسيوطي؟»[١١٦]. «ذهبت امرأة إلى الطبيب وشكت له، بأن عضو زوجها طويل لدرجة أنه يجره وراءه، مما يحرجه أمام الناس. قال لها الطبيب: ممكن نعمل له عملية ونشيل قسم منه. فقالت له: ما ممكن تعمل له عملية تطول له رجليه؟»[١١٧].

«تزوج رجل ثلاث نساء. بعد زمن عجز عن إرضائهن جنسياً. فأرسلهن إلى العمل أجيرات، واشترط عليهن أن من تجلب له خمساً وعشرين ليرة يضاجعها على الحصير، ومن تجلب مئة ليرة يضاجعها على السرير. ومرة استطاعت إحداهن أن تكسب مئة ليرة، فدعاها إلى السرير. فقالت له: لأ، أربع مرات وعالحصير!». «التقت ثلاث أخوات، متزوجات من طبيب ومهندس ومعلم. كانت زوجة الطبيب وزوجة المهندس متضايقتين. قالت زوجة الطبيب: كل ما جيته يقول لي، روحي نضفي وعقمي وطهري. وقالت زوجة المهندس: كل ما بدي نام معه بيقيس لي ياه ع المسطرة. أما زوجة المعلم فقالت لهما: أنا زوجي كل ما قلت، ما فهمت، بيعيد!». يحكى أن «الرئيس الأميركي كان يتمشور مع زوجته في حديقة البيت الأبيض. فرأت زوجة الرئيس ديكاً ينط على دجاجة. فسألت البستاني: كم مرة يفعل الديك ذلك في اليوم؟ فأجابها: كثيراً، عشرين ثلاثين مرة. وهنا نظرت إلى زوجها نظرة ذات مغزى. فسأل الرئيس البستاني: وهل يفعل الديك ذلك مع نفس الدجاجة؟ أجاب: لا أبداً، كل مرة مع دجاجة أخرى!».

تتميز النكتة الجنسية المتناقلة شعبياً في بلادنا، الشفهية خصوصاً، بأنها تشبه إلى حد بعيد «ألف ليلة وليلة» في موقفها الإيجابي من الجنس،

(١١٦) في رواية أخرى عن عضو بلاستيكي: «فرنساوي على ألماني». وفي رواية ثالثة من قدام ومن خلف: «شافعي حنفي».

(١١٧) في رواية أخرى: «صادف أحدهم مارداً. قال له: شبيك لبيك. فطلب منه: بدي ياك توصل لي شيتي للأرض!. فقال المارد: هذه سهلة. وقطع له رجليه!».

بغض النظر عن نوع العلاقة بين الرجل والمرأة المعنيين، بل ودون الاهتمام بذلك. ليس هذا فحسب، بل إن الجنس في بعض النكات يعني الحياة. رجال ونساء، شباب وعجائز، يتمسكون بهذه القدرة الإمتاعية تمسكهم بالحياة، يقاتلون في سبيل الحفاظ عليها، ويرتعبون من احتمال فقدانها، ويتحسّرون على فقدانها حسرتهم على الفردوس المفقود: «تعرف أحدهم على شخص، وتوثقت علاقتهما، ففتحا دكاناً وصارا يعملان معاً. بعد مدة قال الثاني لشريكه: بخاطرك، أنا رايح. قال له: لوين؟ ـ للسما. ـ للسما؟! ـ أنا عزرائيل، طلبت من ربي أن أنزل للبشر مدة وأتعرف على حياتهم، وهلق خلصت المدة ولازم ارجع. - لكن، بما أنك عزرائيل ونحن صحاب، فلا تستعجل عليّ. ـ والله ما ممكن، المعلم ما عنده يا امي ارحميني، إذا خلص عمرك ما يمهلك ثانية، ولا حدا بيفيدك. ـ طيب، عالأقل خبرني قبل ما يخلص عمري، اعطيني إشارة، حتى ودّع الدنيا. بعد كم سنة جاء عزرائيل لعند الشخص نفسه. سلّما على بعضهما، وتذكرا أيام زمان. ثم قال عزرائيل: يا الله، لازم نمشي. ـ كيف بهالسرعة؟! ما أنت وعدتني تعطيني إشارة قبل ما تقبض روحي؟! ـ أعطيتك إشارة. ـ شو الإشارة اللي اعطيتني إياها؟ ـ ما صار لك ستة أشهر ما عم يقوم معك؟». «مر رجل عجوز جداً بطفل صغير جلس على الرصيف يبكي. سأله العجوز: لماذا تبكي، يا ابني؟ قال له: أبكي لأنني لا أستطيع أن أفعل ما يفعله الشباب الكبار. فجلس العجوز بجوار الطفل يبكي معه!»(١١٨). «فحص الطبيب أحدهم وقال له: ستصاب بشلل نصفي. سأله: الشلل من فوق أم من تحت؟ أجابه الطبيب: على الجانب الأيمن من فوق لتحت. وهنا تململ المريض وتحلحل وأكثر من التحركات. استغرب الطبيب تصرفه، فسأله: ماذا تفعل؟ أجاب: أغيّر بعض المواقع الجغرافية!».

«ذهبت مجموعة من الموظفين العرب في مهمة رسمية إلى أمريكا. فكان همّ هؤلاء تدبير نساء، ما عدا واحد منهم كان لا يبدي أي اهتمام بهذا الأمر. صاروا يغرونه بذلك ويحاولون اصطحابه، لكنه أصرّ على

(١١٨) المضحك المبكي، العدد ١٠١٠، تاريخ ١٩٦٢/١١/٢٥، ص٢٣.

موقفه وحسم الأمر معهم بقوله: أنتم شباب، شو همّكم، أنا كل الباقي عندي ضرب ضربين، بضيّعهم هون؟!». «لمح أحدهم في البرية من بعيد لبيسة حمراء، فاندفع إليها. وعندما وصل، وجدها عجوزاً. فلم يتراجع. قالت له: ولاك شو بدّك فيني، ختيارة مافيه بتمي غير فرد ضرس. لكن الرجل قضى حاجته رغم ذلك. وعندما انتهى، قالت له: ليك والله إسا عندي ضرس بهديك الحلّيه!». - تلازم الجنس مع الهضم. وليس التشابه بين لفظي الشهوة والشهية بالعربية مصادفة. مازال لدى العجوز ضرس، وبالتالي بقية من شهوة. وهذا يعني أن فيها بقية من حياة.

أخيراً بخصوص العلاقات الجنسية «الشاذة»: تتناول النكتة العلاقة اللواطية بشكل رافض عموماً، مركزة هجومها على الطرف المنفعل. وتتطرق لماماً إلى العلاقة مع الحيوانات. أما العلاقة السحاقية فلم يصدف أن سمعتُ نكتة عنها، رغم وجود ممارسات من هذا النوع على صعيد الواقع. جدير بالذكر أن كتب التراث تذكر اللواط بتسامح أكبر من الآن، ولا تخلو من طرائف حول موضوع السحاق:

«كان هناك ولد فقير. فكان أولاد الحارة يدقّون فيه. وكلما دقّ فيه واحد، كان يدقّ مسماراً في الحائط. وكانت أمه تسأله عن سبب ذلك، فلا يجيبها. وبقي الحال هكذا حتى كبر الولد وتحسنت أوضاعه، فصار هو يدقّ بأولاد الناس. وجعل، كلما دقّ بواحد، ينزع مسماراً من الحائط. بالأخير قال لأمه: هلق ارتحت وأخذت بتاري. قالت له أمه: صحيح إنك شلت كل البسامير، بس الآثار باقية!»[119]. «ممحون قررت أمه أن تزوجه، وأصرّت عليه، فسألها: ابن مين؟». «مقامر وجشع ولواطي زاد فسادهم في الأرض، لدرجة أنه تعالى أحضرهم لعنده وهددهم: هذه آخر فرصة لكم، إذا رجع أحدكم إلى عادته الرذيلة فسوف أخفيه عن وجه الدنيا. مشى الثلاثة. في الطريق رأى المقامر محلّ قمار، اندغر

(١١٩) واردة بصيغة أخرى في: المضحك المبكي، العدد ١٠٤٨، تاريخ ١٩٦٣/١٢/٨، ص٢، حيث تذكر أعمال الشقاوة بدلاً من أفعال اللواط.

ليدخل، فأمسك به الآخران وقالا له: اوع، ما سمعت شو قال الله؟ بيخفيك عن وجه الدنيا!. قال لهما: بدي ادخل، شو عيشتي إذا ما لعبت؟!. ذهب، وفيما هو يهمّ بالدخول، اختفى. مشى الاثنان الباقيان. في الطريق وجدا ليرة على الأرض. أراد الجشع أن يلتقطها، فأمسك به الثالث وقال له: اوع تشيلها، هلق بيخفيك الله!. قال له: خليه يخفيني، شو حياتي إذا شفت مصاري عالأرض وما شلتها؟!. وانحنى كي يلتقط الليرة، وإذا باللواطي يختفي!». «كان عند جماعة حمارة. وكان ابنهم، كلما عنّ على باله، يدقّ بالحمارة. اشتلق عليه أهله، فأخفوا الحمارة عنه، وقالوا له، إنهم باعوها. افتقد الابن الحمارة، ولم يطق الصبر عليها، فأخذ يبحث عنها في كل مكان، إلى أن وجدها، وهنا نزل فيها وهو يقول: قال باعوها قال!».

«تشارط أحدهم مع آخر أنه يستطيع أن يلتهم حلة رز بحليب. وجلبوا له الحلة وأخذ يأكل ويأكل حتى أتى فعلاً على ما في الحلة، لكنه أغمي عليه وسقط على الأرض. أخذوه إلى المستشفى، وهناك عرف الطبيب حالته، فقال للممرضة: شيلي منه بأي طريقة الرز بحليب!. ثم ذهب للكشف على مرضى آخرين. بعد قليل عاد الطبيب وسألها: شلتي الرز بحليب؟ قالت: شلت الحليبات، بس باقي الرزات!». «تطلقت امرأة من زوجها، وعادت تعيش عند أهلها. فكانت كل مساء تعتكف في غرفتها. فاشتلق عليها أبوها. تطلع من الشباك، فرآها تستعمل خيارة في جسمها. في الصباح غافلها وسرق الخيارة، وخبأها في جيبه. وعند العصر ذهب الأب مع زوجته وابنته في مشوار، وقعدوا في مقهى. في هذه الأثناء التقى الأب بأحد أصحابه، فسلم عليه وعرّفه بمن معه: هاي زوجتي، وهاي بنتي. وأخذ الخيارة من جيبه وتابع قائلاً: وهادا صهري!». ومن كتب التراث: «قالت قحبة لمساحقة: ما أطيب القثاء (يعني الذكر). قالت: إلا أنه ينفخ البطن (يعني يحبّل)!»[١٢٠]. وقال أبو العتاهية[١٢١]:

(١٢٠) لطائف اللطف، الفقرة ١٧٥، ص٩٩.
(١٢١) الأغاني، المجلد الرابع، ص٢٤. المجلد الخامس عشر، ص٢٣٨.

الا يا ذوات السحق في الغرب والشرق أفقن فإن النيك أشهى من السحق
أفقن فإن الخبز بالأدم يشتهى وليس يسوغ الخبز بالخبز في الحلق
أراكن ترقعن الخروق بمثلها وأي لبيب يرقع الخرق بالخرق
وهل يصلح المهراس إلا بعوده إذا احتيج منه ذات يوم إلى الدق

في ختام حديثنا عن العلاقات الجنسية نأتي أخيراً على ذكر البغاء والمومسات. البغاء (أو الدعارة) هو متاجرة باللذة الجنسية، تلعب المرأة فيه دور البائع، يسمونها عندئذ «مومساً»، ويلعب الرجل دور الشاري. هنا تبدو المرأة مستغِلّة لحاجة الرجل إلى الجماع. فبائع اللذة لا يشعر بها لذيذة، أما شاريها فيحصل على بضاعة مغشوشة. ذلك لأن اللذة الحقيقية لا تأتي من مجرد تصريف الطاقة الجنسية، بل من المشاركة أيضاً؛ وهذه نادرة الحصول في الجماع مع مومس. يكفي السبب الجسدي، ناهيك عن العاطفة. هذا صحيح. لكن، في نفس الوقت قد تكون الحقيقة خلاف ذلك، أي الأرجح أن تكون المرأة – هنا أيضاً – هي المستغَلّة. فليس من الطبيعي أن يتخلى الإنسان، ذكراً أم أنثى، عن لذة الجماع مقابل لذة المال، ولابد لحصول ذلك من تواجد ظروف تضطره لهذا السلوك. مسؤولية هذه الظروف تقع على عاتق المجتمع الذي يقوده الرجال، أو الأصح: المسؤولية تقع على النظام الاجتماعي الاقتصادي الذي يدفع بعض النساء إلى الدعارة ويدفع بعض الرجال إلى اللجوء لخدمات المومس الجنسية. قد يكون السبب المباشر لدى النساء هو الحاجة إلى مورد للعيش، وقد يكون السبب المباشر لدى الرجال هو الحرمان الجنسي؛ وكلاهما يشير إلى سوء أو فساد في النظام الاجتماعي الاقتصادي الذي يخضع له هؤلاء الرجال والنساء. وإذا كان لابد من تحميل الذنب لأحد الجنسين، فالرجل هو المذنب الأول، لأنه الجنس القائد للمجتمع. خلافاً لذلك نرى المجتمع، من خلال نكاته أيضاً، يحتقر المومس، ويتساهل نسبياً مع الرجال الذين يتصلون بها، دون اعتبار للظروف القاهرة ودون أن يسعى أو يفكر بحل المشكلات وتغيير الظروف التي تتسبب في الدعارة وتحافظ عليها. المشكلة خطيرة، وتتفاقم مع الزمن لازدياد المعيقات الاقتصادية والتأهيلية

أمام الشباب والصبايا لتكوين الأسر التي يفرض العرف والقانون ممارسة الجماع في إطارها. في مثل هذه الظروف القاهرة أوجد النبي الكريم مؤسسة «زواج المتعة»، وأظن أنه أصبح من الضروري جداً الآن أن نعيد بعد ألف وأربعمئة سنة طرح مسألة إحياء هذه المؤسسة من جديد:

«وحكاية أخرى عن شكارات أهل حرستا أن اثنتين من بنات الخطا واحدة كبيرة قهرمانة والثانية صغيرة، أخذهما أهل دوما. وعند وصولهم في العربة إلى حرستا التي لابد من المرور فيها، خرج أهل حرستا، وبدأ القواص وإطلاق النار. فولولت الشابة، ولكن الدهقانة أسكتتها وقالت لها: ليش الولولة؟ إن أخذنا هؤلاء (صخّمونا)، وإن أخذنا الآخرون (صخّمونا)!»[١٢٢]. «إحدى العاهرات تابت واحتشمت وتحجّبت. ومرة كانت تسير في الشارع، فرآها واحد من زبائنها القدامى. فلحق بها، وانتهز مرورها في حديقة خالية من الناس، فدعاها إليه وقد كشف لها عن ذكره. ترددت المرأة، ثم قالت أخيراً: حبيب القلوب بين الدروب، بسّ يا ربي هالمرة وبتوب!». «التقى أحدهم بامرأة يعرفها. قال لها: وينك، يا فلانة، ما عم نشوفك؟! قالت له: والله، على طول مسافرة، إجر بحلب وإجر بالشام. قال لها: آخ، أنا بموت بحمص!». «ابن عائلة معروفة خطب سرّاً إحدى الأرتيستات الجميلات. فلما عرف والداه بهذه الخطبة، غضبا جداً وهدداه بحرمانه من كل إرث. فخاف الابن وأرسل أخاه إلى خطيبته ليعتذر عنه ويقدم لها مئة جنيه كعطل وضرر. وبعد تمنّع قبلت الأرتيست بتحرير الشاب من عقد الخطبة. ثم استأذنت بضع دقائق، وعادت بمجموعة من صور الشبان الشيك المهداة لها، وقالت له: بترجاك دلّني، فين هي صورة أخوك بهالمجموعة؟»[١٢٣]. «سافر أحدهم إلى الخارج وحضر حفلة تعرّي (ستريتيز). أثناء العرض كان لا ينفك يدير وجهه ويردد: تفو! سأله مرافقه: لماذا تقول (تفو)، ألا يعجبك هذا؟. قال: بلى، أنا أقول (تفو) على اللي عندي!». «نزل أحدهم في فندق. سأله العامل: أتريد الغرفة مع قطة؟

(١٢٢) جيل الشجاعة، ص٤١٢.

(١٢٣) بتلخيص عن: المضحك المبكي، العدد ٢١٨، تاريخ ١٩٣٤/٣/٢٦، ص٩.

أجاب: لا. وعندما انتهت مدة إقامته في الفندق وهمّ بالمغادرة، رأى فتاة جميلة ابتسمت له وحيّته. سألها: من أنت؟ أجابت: أنا قطة، ومن أنت؟ قال: أنا حمار!».

* * *

تلخيصاً لما جاء في هذا الفصل نميز بين النكات الجنسانية التي تصور المرأة أو الرجل والتي تعبّر عن الصراع بين الجنسين، وبين النكات التي تتناول العلاقات الجنسية والتي تصدر عن الحرمان أو الكبت الجنسي. بالتالي فإن مفعول النوعية الأولى تنفيسي أو عزائي، بينما مفعول النوعية الثانية (وهي الجنسية) تعويضي قبل أي شيء. وقد استطعنا من خلال النكات المتناقلة عربياً أن نرسم صورة للمرأة أوضح وأدق من صورة الرجل، وعزونا ذلك إلى القلة النسبية لمساهمة النساء في إبداع ونقل النكات، حتى بهذا الخصوص. على كل تبدو النساء في هذه النكات أنهن يعانين من «عقدة الرجل»، حيث يتنافسن فيما بينهن على كسب الرجال ويكنّ لبعضهن مشاعر الحسد والغيرة. بالارتباط مع ذلك تعاني النساء من «عقدة الجمال» أيضاً، التي تجعل منهن عبدات للموضة والتبرّج، وكذلك من «عقدة السن». بالإضافة إلى ذلك تتهم النكتة بنات حواء بالثرثرة والتظاهر والميل إلى الرفاه والاستهلاك. هذه النزعة الرفاهية الاستهلاكية تعكس لامسؤولية المرأة، وتدفعهن عموماً إلى تفضيل الرجال الأكثر مالاً.

وتبدو المرأة أكثر اندفاعاً للزواج من الرجل. وحين تتطرق النكات إلى الحياة الزوجية، فلا تُظهر منها سوى مساوئها، التي تعزوها إلى الطبيعة البشرية الملولة والراغبة بالتجديد. ضمن الأسرة تبدو المرأة من خلال النكات ظالمة للرجل، متسلطة تريد حبسه في البيت دون أن تترك له دوراً فيه. إلى جانب الخلل في إرضاء الحاجة الجنسية، والملل والنزوع إلى التجديد، والميل للسيطرة، ولامسؤولية المرأة، إلى جانب هذه العوامل الأربعة التي تفسد الحياة الزوجية تذكر النكات التأثير السلبي للمشاحنات بين الحماة والكنة ولتدخلات الحماة بين الابنة والصهر. وتتحدث النكات عن الخيانة

الزوجية، فتنسبها عموماً إلى الزوجة. ومع أنها ترفض الخيانة الزوجية، حتى أنها تساويها أحياناً مع العهر، إلا أنها كثيراً ما تعرضها كأمر عادي.

أما النكات الجنسية فيلاحظ أنها كثيراً ما تكون بذيئة، وخاصة الشعبية منها، وفي قسم منها تصطدم بمحرم الدين. وتعزف النكات الجنسية على وتر عدم مجاراة الرجل للمرأة في مضمار الجماع، - وما هو إلا وهم، ما لم يكن ثمة فارق في السن. المسألة مرتبطة بذكورية المجتمع التي نصبت الرجل قائداً للمرأة، حتى في ممارسة الجنس، وجعلت من الفحولة الجنسية فضيلة يتباهى بها الرجال. بذلك ظلم جنس الرجال نفسه. من ناحية أخرى نلاحظ أن النكتة تقف عموماً موقفاً إيجابياً من الجماع، يصل أحياناً إلى درجة مساواة القدرة الجنسية بقوة الحياة. أما العلاقات الشاذة فهي عموماً مرفوضة. وفي حين أن موقف النكات ليس حاداً ضد الممارسة مع المومسات، فإنها تنظر إلى هؤلاء النسوة نظرة احتقار، دون أن تلامس الظروف التي تتسبب بالبغاء وتحافظ عليه، سواء من طرف النساء المعنيات أو من طرف الرجال المستفيدين.

الفصل الثامن

النكتة الدينية

- آ -

تناقل النكات المعتقدية (أو الدينية) في وسط اجتماعي معيّن لا يدل على عدم الايمان لدى أبناء هذا الوسط، كما قد يخطر على بال البعض. بالعكس، فهي من منتجات المجتمعات المؤمنة. المعتقدات، ككل اديولوجيا، تضع حدوداً مرسومة لسلوك الإنسان، تشكل بالتالي ضغطاً ثقيلاً، وعبئاً زائداً عليه. هي حدود تعجيزية، إذا وجب التقيّد بها، لأنها في حقيقتها ليست أكثر من منارات يهتدي بها المرء ولا يقصدها. فأقصى ما تستطيع تحقيقه هو توجيه السلوك وليس تحديده. لذلك كثيراً ما يردد المؤمن، بصدق وقد أعيته المحاولة، إنه ليس ملاكاً أو ليس نبياً. هنا تلعب النكات دور صمام الأمان الذي يخفف بالتنفيس من هذا الضغط المعتقدي ويزيح عن كاهل الإنسان المعني من العبء الضميري ما يعيد إليه التوازن النفسي وبالتالي التوازن السلوكي:

«امرأة تزوجت رجلاً كثير الصلاة. فكان هذا يصلي في كل الأوقات، في النهار والليل... فيمضي اليوم وهو يبروت. تضايقت زوجته ولم تعد تحتمل. فما كان منها إلا أن صاحت به أخيراً: ولاك، حاج تصلي حاج، وهرته للربّ وهرته!»[1]. «ومن الفكاهات المتصلة بالسحور أن رجلاً مفطراً

(١) يبروت: يردد بصوت مسموع كلاماً غير مفهوم. وهرته: أعييت أذنيه من كثرة الكلام.

لا يصوم كان يجبر زوجته مع ذلك على أن تقوم فتهيء له السحور كل ليلة. تضايقت من ذلك وقالت له: هذا الطلب ما له طعمة مادمت لا تصوم. قال لها: يا امرأة، تركنا الفرض، تريدين أن نترك السنة!»[٢]. «دخل أحد الصائمين في رمضان إلى قرية فرأى كل من فيها يأكلون نهاراً. استغرب وقال لهم: أما عندكم رمضان؟! قالوا: بلى، ولكن شيخنا يصوم عنا. ذهب إلى دار الشيخ مستغرباً ودخل وكان الوقت نهاراً...، فرأى أمامه سفرة طعام طولها كذا ذراعاً وعليها المآكل والشيخ يلوش (أي يلوك) الطعام. قال له: شيخي، بعلمي أنك تصوم عن أهل البلد!. قال له الشيخ: يا جاهل، من يصوم عن أهل البلد ألا يتسحّر مرة كل نصف ساعة؟!»[٣]. وهذه نكتة قديمة واسعة الانتشار، ذهبت مثلاً: «ذهب أحدهم إلى الجامع كي يصلي، فوجد باب الجامع مغلقاً، فقال: الحمد لله، منك ولا مني!».

النقطة الثانية في الموضوع ترتبط بالنقطة السابقة، وهي أن الشخص المتدين معرض على الدوام للوقوع في مأزق، متحيراً بين اتباع الأوامر والنواهي الدينية، وهي عموماً خارجية (من خارج شخصه)، وبين الانقياد لحاجاته ورغباته التي هي عموماً داخلية. هذا، عندما تتعارض الأوامر الدينية مع الحاجات الفردية، ويصبح الخيار بين اثنين لا ثالث لهما: الأمر الديني أم الحاجة الفردية. في الأحوال التي يختار فيها الشخص المؤمن مصلحته، وهي حالات غير نادرة، قد يعتريه شعور بالذنب، وخاصة عند اقتراف المحرمات. إذ ذاك تنشأ نكات دينية تعبّر عن هذا الشعور وتخفف من حدته. هي تهوّن من خطر التعارض بين المعتقد والمصلحة:

«سأل مدرس الديانة تلاميذه الصغار، بعد أن انتهى من حديثه عن الجنة والنار: والآن من يريد منكم أن يذهب إلى الجنة، فليرفع اصبعه!. فرفعوا جميعاً أصابعهم ما عدا واحداً منهم. فعاد المدرس يسألهم: من أراد أن يذهب إلى النار فليرفع إصبعه! ولما وجد أن أحداً منهم لم يرفع إصبعه، التفت إلى

(٢) نجاة قصاب حسن، حديث دمشقي، ص١٩٧.
(٣) المصدر السابق، ص١٩٧.

التلميذ الذي لم يرفع إصبعه في الحالتين وسأله: أين إذن تريد أن تذهب؟ فأجاب قائلاً: أحب أن أذهب إلى المنزل!»[٤]. «أحد القسس كان ذاهباً صباح الأحد إلى الكنيسة حين رأى مزارعاً يدرس القمح على بيدره. فبادره: لم لا تذهب إلى الكنيسة، يا ولدي، وقد حان وقت الصلاة؟ أجاب المزارع: يا أبي، أن أكون في البيدر أفكر في الكنيسة خير أن أكون في الكنيسة وأفكاري عند البيدر!»[٥]. «يروى أن شريكين في متجر واحد، أحدهما مسلم ويدعى مصطفى والثاني مسيحي ويدعى جورج، كانا على وفاق تام. فقال جورج يوماً لشريكه: يا صفو خود المفاتيح، فإني غداً لن أحضر بمناسبة عيد القديس انطوان. ففعل مصطفى ذلك عن طيب خاطر. وبعد كم يوم أعاد الكرة في عيد مار يوسف، ثم في عيد القديس جورج والقديس الياس وغيرهم من القديسين، حتى ضجر مصطفى. وفي أحد الأيام قال له جورج: يا صفو، خود المفاتيح فغداً عيد جميع القديسين. ففرح مصطفى، واعتبر أن الأمر قد انتهى. ولكن جورج عاد بعد أسبوع وقال لمصطفى: غداً لن أحضر بمناسبة القديس ميخائيل. فما كان من مصطفى إلا أن بزق الحصوة وقال له: حينما جمعتموهم هديك الجمعة هالكاني ماني وين كان؟!»[٦].

النقطة الثالثة تتعلق بموضوع الوجود والموت والمصير. فتديّن المرء لا يمنع بقاء مسائل دون أجوبة وما يرتبط بها من شكوك ومخاوف مقلقة. ومما يزيد في قوة هذه التساؤلات أن يكون مصدرها العقل القائم على الحواس والتجربة والمنطق. وكي لا ينجرّ الشخص المعني وراء تفكيراته العقلية، التي لا يستطيع التوقف عنها أو يجد على الدوام ما يدفعه إليها، وخوفاً من أن يوصله هذا الانجرار إلى اللاإيمان، فإنه يحوّل تساؤلاته العقلية وشكوكه إلى نكات تعبّر عن التناقضات بين العقل والإيمان، دون أن تهدم العقيدة. في هذه الحالة تكون التناقضات غير خطيرة بالنسبة للشخص المعني أو للجماعة المعنية، أي تناقضات جزئية ضمن كلّ مقبول أو مسلّم به:

(٤) الهلال، عدد أيلول ١٩٤٩، ص١٠٢.
(٥) نجاة قصاب حسن، في: البعث، تاريخ ٦/١/١٩٨٣.
(٦) انطوان شعراوي، ص٥٠. مع اختصار بسيط.

«الصبي للقسيس: لي سؤال، يا أبانا، هل يذهب أكلة البشر من الزنوج إلى السماء بعد موتهم؟ القسيس: كلا، يا ابني. الصبي: وهل يذهب القسس إلى السماء؟ القسيس: بلا شك، يا ابني. الصبي: وإذا فرضنا أن زنجياً أكل قسيساً، فماذا يكون مصيره؟»(٧). «أصيب رجل بعقد المصران، وبقي مدة تحت الخطر. وجاء الطبيب وقال لهم: إذا لم (يروّح) مريضنا من (تحت) - وأنتم أكبر قدر - فالموت محتم لا محالة. فصار أهله وذووه يصلون إلى الله ويتضرعون ويبتهلون إليه تعالى ليمنّ عليه بضـ.. تفرج عنه فيرتاح ويخلص من الخطر. ولكن المريض كان كل يوم يزداد سوءاً حتى قضى نحبه، وخلص من هذه الحياة (الزفت). فلما مات وقف حوله أهله وذووه وأخذوا يتضرعون إلى الله من جديد ويطلبون إليه أن يمنّ عليه بعد مماته بالجنة. وكان ابن حرام يتتبع حركة هذا المريض وأهله، فلما سمعهم يتطلبون من الله أن يمنّ على ميتهم بالجنة، ضحك وقال لهم: ولك يا مجانين، ربنا ما رضي يمن عليه (بضـ..) تفرج عنه بحياته، راح يمن عليه بالجنة بعد مماته؟!»(٨). في حالات أخرى تبدو التناقضات بين العقل والإيمان خطيرة أو جوهرية بالنسبة للشخص المعني، وعندئذ تؤدي النكتة برأيه وظيفة توعوية، مهمتها ليس تحويل قضية جدية إلى هزلية فحسب، بل التعبير عنها بكل حدّتها بشكل ساخر: «كان المعلم يحدث تلاميذه بأن الله تعالى يعلم بكل شيء. فسأله تلميذ: أستاذ، بيعرف الله شو فيه بدكانة أبو محمود الكبيرة؟ قال الأستاذ: طبعاً، الله بيعرف كل شي. قال التلميذ: طيب، بيعرف الله شو فيه بدكانة أبو محمود الصغيرة؟ قال له: طبعاً بيعرف. فقال التلميذ: أستاذ، ضحكت عليك، أبو محمود ما عنده غير دكانة واحدة!».

النقطة الرابعة هي أن الشكوك والالتباسات الاعتقادية تثقل على الشخص المعني، كما ذكرنا في النقطة الأولى، فيحتاج إلى طرحها أمام الغير كي يخفف من عبئها العقلي والنفسي، وكذلك كي يختبرها ويميّز صحتها عن خطئها، وحقيقتها عن وهميتها، ومشروعيتها عن لامشروعيتها.

(٧) المضحك المبكي، العدد ١٠٢١، تاريخ ١٩٦٢/٢/١٠، ص٢٣.
(٨) المضحك المبكي، العدد ٢٦٦، تاريخ ١٩٣٨/٤/١٦، ص١.

ولما كان الفرد العادي لا يجرؤ على التصريح بهذه الشكوك والالتباسات، فإنه يطرحها أمام الآخرين بصورة غير مباشرة، بصورة هزلية عن طريق النكات. فيتخلص بذلك من المحاسبة والعقاب على هرطقاته المحتملة. إذ ذاك يعبّر عن تشككه بمعتقدات يفترض أن يؤمن بها، فيسخر من هذا الشك معتذراً، أو يعبّر عن إيمانه بمعتقدات يفترض به أن يرفضها باعتبارها خرافات، فيسخر من هكذا إيمان. وإذا كان الإيمان يصطدم في النقطة الأولى بالتكوين الإنساني جسدياً ونفسياً (أو بقدراته الجسدية والنفسية)، وفي النقطة الثانية بحاجاته ومصالحه، وفي النقطة الثالثة بعقله، فهو يتعارض هنا مع واقعه:

«كان في إحدى القرى خوري يدّعي النبوة. فقال لسكان رعيته: كلما احتجتم إلى مساعدة سماوية فأنا حاضر. وحدث مرة أن اشتدّ القيظ، وكان الناس بحاجة إلى الشتاء ليزرعوا أراضيهم. فطلبوا منه أن يخاطب ربنا ويطلعه على حالة الأهلين وحاجتهم إلى الشتاء. فنزل على رغبتهم ودعاهم إلى الكنيسة لكي يخاطب السماء أمامهم فتمطر أمامهم في الحال. ولكنه اشترط عليهم أن يكون عندهم إيمان. ولما جاؤوا إلى الكنيسة، التفت إليهم وقال لهم: لقد فسدت وساطتي، لأن ليس بينكم أحد عنده إيمان، والدليل على ذلك أنكم أتيتم إلى الكنيسة ولا واحد منكم معه شمسية!»(٩).
«لجأت فتاة جميلة إلى أحد المنجمين لقراءة كفّها والتنبؤ بمستقبلها... قال المنجم: ستتزوجين من فتى أحلامك، بلا ريب، وسيكون طويلاً وسيماً و... وهنا سألت الفتاة: وغنياً أيضاً؟ فأجاب المنجم: وغنياً أيضاً وفي ريعان شبابه. فما كان من الفتاة إلا أن أمسكت بيد المنجّم وضغطت عليها بقوة وحماسة قائلة: عليك أن تخبرني الآن عن السبيل إلى الخلاص من زوجي الحالي!»(١٠). وهذان مثالان من التراث: «جاء رجل إلى السيد (الحميري) فقال: بلغني أنك تقول بالرجعة. فقال: صدق الذي أخبرك، وهذا ديني. قال: أفتعطيني ديناراً بمئة دينار إلى الرجعة. قال السيد: نعم وأكثر من

(٩) المضحك المبكي، العدد ١٠١٧، تاريخ ١٣/١/١٩٦٣، ص٢٣.
(١٠) العربي، العدد ١٠١/ نيسان ١٩٦٧، ص١٥٦.

ذلك، إن وثّقت لي بأنك ترجع إنساناً. قال: وأي شيء أرجع؟! قال: أخشى أن ترجع كلباً أو خنزيراً، فيذهب مالي!»[11]. «قالت فاطمة بنت الحسين: دخلت علينا العامة الفسطاط - بعد قتل أبيها - وأنا جارية صغيرة وفي رجلي خلخالان من ذهب. فجعل رجل يفضّ الخلخالين من رجلي وهو يبكي. فقلت: ما يبكيك، يا عدو الله؟! قال: كيف لا أبكي وأنا أسلب ابنة رسول الله؟ فقلت: فلا تسلبني. فقال: أخاف أن يجيء غيري فيأخذه!»[12].

النقطة الخامسة تتعلق بالموت والآخرة. ومع أن الموت حقيقة لا جدال فيها، فإن الإنسان يبقى في أعماق نفسه غير مصدق لها، أو على الأقل غير قابل وغير مهيأ لها. من ناحية، هو يتصرف وكأنه خالد، ومن ناحية أخرى تراه مرعوباً من هذه النهاية المحتومة. وقد جاءت الأديان لتعيد له بعض الاطمئنان، باعتبار أن هناك حياة أخرى بعد الموت. وفي هذه الحياة الأخرى سوف يخلص من معاناته في الحياة الدنيا ويعيش منعّماً، إن هو اتبع الأوامر وتجنب النواهي وأمضى سيرة صالحة. لكنه مع هذا التطمين لم يستطع رغم إيمانه التخلص من رعب الموت ومن قلقه على المصير. فعبّر في مجموعة من النكات عن هذه المشاعر المختلطة، الواعية وغير الواعية، معزّياً بها نفسه في ذات الوقت. هنا تؤدي النكتة وظيفة عزائية، كما أدت في النقاط السابقة وظائف تنفيسية أو تبريرية أو توفيقية أو تنويرية أو تعليمية:

«كان أرسطو يقول: إن الموت والحياة سواء. فقال له أحدهم: مادام الأمر كذلك، فلم لا تقتل نفسك؟! فأجاب: قلت إنهما متساويان، ولم أفضّل الموت على الحياة!»[13]. «قبل أن يموت بيير لاشيز في باريس ويدفن في مدافن الفقراء، أحضروا له طبيباً كشف عليه. وبعد الكشف قدّم له

---

(١١) الأغاني، المجلد السابع، ص٢٤٢. رواها أيضاً ابن الجوزي، أخبار الظراف، ص٩٩/ ١٠٠، عن أبي حنيفة و شيطان الطاق.

(١٢) هادي العلوي، المستطرف الجديد، ص١٢.

(١٣) الهلال، عدد آذار ١٩٤٧، ص١٨٦.

الطبيب فاتورة لم يكن يملك تسديدها. فقال لمن حوله: إني أموت ميتة فوق مستوى إمكانياتي!»[١٤]. «مات قسيس أمريكي يدعى جون براون. وكان في نفس بلدته مالي كبير يدعى جون براون أيضاً. وبعد وفاة القسيس بثلاثة أيام سافر المالي الكبير إلى فلوريدا لإنجاز مهمة تخصّه. وبمجرد وصوله أبرق إلى زوجته كي يطمئنها على سلامته. ولكن عامل التلغراف أخطأ، فسلّم البرقية إلى أرملة القسيس المتوفي، التي فتحتها، فإذا هي تقرأ فيها العبارة التالية: وصلت سالماً، لكن الحر لا يطاق!»[١٥]. «أزعر وديّن ماتا، وحوسبا، وأعطي الأزعر بطاقة دخول إلى جهنم، والديّن بطاقة دخول إلى الجنة. في الطريق سرق الأزعر بطاقة الديّن ودسّ له بطاقته. وهكذا دخل الأزعر الجنة، وسيق الديّن إلى جهنم رغم اعتراضاته. بعد مدة ذهب الأزعر إلى جهنم ليرى ما جرى للديّن، فوجده يعيش في لهو وبسط وعنده النساء والشراب، في حين كان الأزعر يعيش للصلاة والعبادة. فقال الأزعر للديّن: أنا آسف، يا أخ، في الحقيقة أنا بدّلت لك بطاقتك، فأرجو أنك تسامحني وتاخذ بطاقتك وتروح عالجنة وتعطيني بطاقتي. فقال له الديّن: لا، شكراً، بدكم تضحكوا علينا في الدنيا والآخرة؟!». «أحدهم خيّروه بعد موته بين الجنة وجهنم. فأراد التفرج عليهما قبل أن يختار. أدخلوه إلى الجنة، فشاهد الناس مستغرقين في العبادة والتأمل، جالسين في الطبيعة الخلابة هادئين ساكنين. كانت حياة جميلة مملة. فأراد رؤية جهنم. في جهنم شاهد ستالين وفي حضنه بريجيت باردو. تعجّب الرجل وقال لهم: هذا ستالين الكافر، قتال البشر، تضعون بريجيت باردو في حضنه؟ قالوا له: هذا ليس مكافأة لستالين، بل عقوبة لبريجيت باردو!».

النقطة السادسة تخصّ المؤمنين الذين يفسّرون الواقع تفسيراً دينياً، قل: غيبياً، خارج مجالات علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتاريخ. ولأنهم يفهمون التاريخ والواقع هكذا، فهم كثيرو الدعاء والشكوى

---

(١٤) رحلة مع الظرفاء، ص١٤٨/ ١٤٩.

(١٥) الهلال، عدد شباط ١٩٤٧، ص١٨٦. وردت شبيهتها في: الفكاهة البلغارية، ص١٨ عن عائلتين كنيتهما ايفانوف تعيشان في عمارة واحدة.

والاسترحام والاستغفار، يصلون ويصومون ويقدمون النذور والكفارات لتحقيق حاجاتهم أو أمنياتهم.. هم يقومون بما يشبه استرضاء الله تعالى ورشوته من أجل منافعهم الشخصية، الأمر الذي يذكّر بالأديان القديمة، أو بالأحرى يتضمن تدينهم عناصر مترسبة من تلك الأديان من سحر وشعوذة وخرافات. إزاء ذلك تقوم مجموعة من النكات بالسخرية من هكذا فهم ديني ومن هكذا ممارسات معتقدية تربط الفقر والغنى، السعادة والشقاء، الجمال والقبح، طول العمر وقصره... الخ، بقوى علوية أو تدخلات إلهية أو أعمال سحرية أو كائنات خفية، ويمكن بوسائل ووسائط معينة استخدامها أو استقدامها لتغيير الواقع وتحسين الظروف وتأمين المصالح:

«أوصى أحدهم على خياطة طقم عند أحد الخياطين وسأله: بعد كم يوم تسلمني الطقم؟ ـ بعد أسبوعين. ـ ولو، إن الله خلق الدنيا بسبعة أيام. فهزّ الخياط رأسه وقال للزبون: وهل تريد أن يكون طقمك مبهدلاً مثل هذه الدنيا؟!»[١٦]. «سأل أحدهم ربه: يا ربي، الميـة ألف سنة قديش عندك؟ قال له: لحظة. سأله: والمية ألف ليرة قديش عندك؟ قال له: قرش. قال له: طيب، أعطيني قرش من عندك. قال له: لحظة!»[١٧]. «جعل أحد الفقراء يدعو: يا ربّ، خليني اربح الجائزة الكبرى باليانصيب. وداوم على ذلك أياماً. بالأخير صاح فيه صوت من الغيب: يا أخو الـ...، ما بدك أول شي تشتري بطاقة!». «ذهب المرحوم الشاعر البائس عبد الحميد ديب إلى أحد المنجمين ليكشف له عن طالعه، فقال له المنجم: ستظل فقيراً سنة كاملة. فسأله الديب بلهفة: وبعد ذلك؟ فأجابه المنجم: ستكون قد تعوّدت على الفقر!»[١٨]. «أخذ المنجم يكتب حجاباً لإحدى السيدات كي يبعد عنها العفريت الذي قالت إنه يلازمها. لكن السيدة لاحظت أن خطّ المنجم رديء جداً، فقالت له على الفور: حسّن خطك شوي حتى

(١٦) الشبكة، العدد ١٣٨١، تاريخ ١٩٨٢/٨/٣٠، ص٧٦.

(١٧) رواية شفهية. وثمة رواية قديمة نشرتها: المضحك المبكي، العدد ٢٩٠، تاريخ ١٩٣٦/٥/٢٣، ص٩.

(١٨) العربي، العدد ١١٩/ تشرين الأول ١٩٦٨، ص١٠٥. وردت أيضاً في: نضال الفلاحين، العدد ٤٨٩، تاريخ ١٩٨٦/١/٢١، ص٨، دون ذكر لاسم الشخص.

يقدر العفريت يقراه!»[19]. «يقول رجل في الثامنة والثمانين إن صلاته اليومية هي الآتية: إني خاطئ كبير، يا إلهي، ولا أستحق الجنة، فاتركني هنا على هذه الأرض!»[20]. وهذا مثال من التراث الشعبي: «جربت شاة أحد الفلاحين فأخذها إلى جحا وقال له: بما أن نفسك نافع للجرب، فاقرأ لي على هذه الشاة عساها أن تشفى. فأجابه جحا: إن كنت تريد أن تبرئ شاتك من المرض، فأضف إلى قراءتي شيئاً من القطران، فإنها تشفى حالاً بإذن الله!»[21].

- ب -

نستنتج مما سبق أن النكات المعتقدية المتناقلة عربياً هي نكات شعب مؤمن، يحب الحياة، ولا يتخلى عن الحدود الدنيا من الواجبات الدينية، وينفر من التزمت والتشدد الدينيين. ولما كان رجال الدين هم الذين يحملون عادة لواء التطرف الديني، مباشرة أو بصورة غير مباشرة كمنظّرين، فإن النكتة تتوجه ضد هؤلاء من هذه الزاوية، دون أن يعني هذا على الإطلاق تقليلاً من قيمتهم ولا تعبيراً عن قلة احترام الناس المعنيين لهم. كأن الناس يريدون بهذه النكات أن يقولوا لرجال الدين: لا تبالغوا، نحن نعرفكم، ومع ذلك نقبلكم، فلا تزيدوها علينا. هذا التذكير أو التنبيه الهزلي يؤثر باتجاه إعاقة التسلّط الاكليريكي الذي قد ينقلب به رجال الدين من أفراد يقدمون خدمات روحية للمجتمع إلى فئة تفرض أعباء روحية عليه. لذلك يبدو من الهام جداً أن تبقى العلاقة بين رجل الدين وأبناء وسطه علاقة شخصية مباشرة، لا أن تصبح غير شخصية تتوسطها الدولة. بالتالي لا أن يصبح رجل الدين موظفاً ينال رزقه من الضريبة المفروضة، بل يبقى حراً ينال رزقه من الزكاة الطوعية:

(١٩) المضحك المبكي، العدد ١٠٠٨، تاريخ ١٩٦٢/١١/٤، ص٢٣.

(٢٠) المختار، العدد ٧٢/ تشرين الثاني ١٩٨٤، ص٧٤.

(٢١) نوادر جحا الكبرى،ص٣٤. لدى عبد الستار فراج، ص١٦٢. تروى النادرة أيضاً عن الشعبي، انظر مجلة: العربي، العدد ١٨٣ - شباط ١٩٧٤، ص١٤٠، والعدد ١٩١ - تشرين الأول ١٩٧٤، ص١٢٤. وتروي مجلة المضحك المبكي عن كاهن نادرة مشابهة، العدد ١٠١٩، تاريخ ١٩٦٣/١/٢٨، ص٢.

«كان في قرية خوري عنده ألفية نبيذ، وقد لاحظ أنها تنقص يوماً عن يوم. فسأل الخادم (أبو جرجس) عن ذلك، فأنكر تماماً. وجاء يوم العيد وجلس أبو جرجس على كرسي الاعتراف، فسأله الخوري: يا أبو جرجس، النبيذات مين كان عم يشرب منهم؟ فأجاب أبو جرجس: شو عم تقول، يا أبونا، ماني عم اسمع. وكرر الخوري السؤال على أبو جرجس، ولكن أبو جرجس كان مصراً على أنه لا يسمع. وأخيراً قال للخوري: أظن، يا أبونا، أن الذي يجلس على هذه الكرسي لا يسمع، اجلس محلي وجرّب تاتشوف. فجلس الخوري على كرسي أبو جرجس، وراح هذا يسأله: يا أبونا، من كان عم يناغش أم جرجس البارحة؟ قال له: شو عم تحكي، يا ابني، ماني عم اسمع. وصار أبو جرجس يكرر السؤال ويرفع صوته، ولكن الخوري ظلّ لا يسمع. وهنا قال له: شفت، يا أبونا، كيف هلي بيقعد على هالكرسي ما بيعود يسمع؟!»(٢٢). «ومما يروى أن شيخاً أعمى طلبت منه امرأة عجوز أن يقرأ لها سورة من القرآن على روح زوجها العجوز المتوفى وأعطته مبلغاً زهيداً، ولنقل ربع ليرة. فبدأ الشيخ قراءته بقوله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، خذوه فغلّوه، ثم الجحيم صلّوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم، ولا يحضّ على طعام المسكين. فأوقفته العجوز وقالت له: شيخي، أما رأيت غير هذه الآيات؟! قال لها: خانم، بربع ليرة تريدين أن يدخل الجنة؟...»(٢٣). «أحد المشايخ الريفيين شرّد امرأة. فعيّره أهل قريته، كيف يشرّد امرأة وهو رجل دين. فقال لهم: والله ما لمستها إلا بعد أن قرأت عليها الفاتحة!». «دخلت إعرابية على قوم يصلون، فقرأ الإمام: فانكحوا ما طاب لكم من النساء... وجعل يرددها. فجعلت الاعرابية تعدو وهي هاربة حتى جاءت لأختها فقالت: يا أختاه، مازال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا علي!»(٢٤).

---

(٢٢) باختصار عن: المضحك المبكي، العدد ١٠٢٤، تاريخ ١٩٦٣/٦/٩، ص١. منشورة أيضاً في العدد ١٠١٧، تاريخ ١٩٦٣/١/١٣، ص٢. وثمة رواية شفهية لنكتة مشابهة عن أستاذ وطالب.

(٢٣) نجاة قصاب حسن، حديث دمشقي، ص٢٠٦.

(٢٤) المستطرف للأبشيهي، ص٣١٥.

كما قلنا، النكات المعتقدية المتناقلة عربياً تنطق عن شعب مؤمن يحب الحياة وينفر من التزمت الديني. بالتالي هو غير معني بالزهد، بل إنه يرتاب فيمن يزهد بالحياة ومتعها. ورغم تبجيله للدراويش والرهبان، فإنه يشكّ في صدقهم، فيوجّه سهامه الهزلية نحوهم، معتبراً إياهم مثل بقية الناس، لهم شهواتهم وأخطاؤهم. لتبيان ذلك، كثيراً ما تستخدم النكتة الطريق الجنسية للوصول إلى غايتها، فتصيب بذلك محرمين، حيث يعتبر العامة أن الجنس هو أكبر وأصعب تجربة في حياة الفرد؛ بذلك يختزلون الزهد إلى زهد بالجنس:

«ذهبت راهبة إلى عند الخوري للاعتراف وقالت له: يا أبانا، أنا قبلني رجل، فماذا أفعل كي أمحي هذه الخطيئة؟. قال لها: ضعي مكان القبلة ثلجاً، فتنمحي الخطيئة!. بعد ذلك لاحظ الخوري أن الراهبات لم يعدن يأتين للاعتراف كالعادة. فذهب إلى الدير ليستطلع أحوالهن. هناك رآهن جميعاً قاعدات على الثلج!». وقد تكوّن عندي انطباع أن النظرة الشعبية إلى الراهبات مشوبة بأنهن عوانس. والطريف أنني سمعت نكتة من الألمان في النصف الثاني من الستينات مروية عن راهبة، ثم سمعت بعد عشرين سنة شبيهتها في سوريا مروية عن عانس. تقول النكتة الألمانية: «كانت راهبة مسافرة في سيارة. فوقع لها حادث على جسر. فجاء سقوطها على شاحنة موز كانت مارة بالصدفة وقتذاك من تحت الجسر. ظنت الراهبة أنها ماتت ودخلت الجنة. فجعلت تبقبش بالموزات وهي تقول: بالدورية، واحد واحد!». نكتة شفهية أخرى من بلادنا: «راهبة أحسّت بحرقة بالبول، ذهبت لعند الطبيب. فطلب منها فحص البول. ذهبت إلى المختبر وأعطت للممرضة عينة وأخذت منها موعداً لاستلام النتيجة. بعدما خرجت الراهبة حملت الممرضة العينة لتحفظها في الموضع المخصص، فوقع منها الإناء وانكسر. فما كان من الممرضة إلا أن أخذت كمية من عينة أخرى وسجلتها باسم الراهبة. في الموعد المحدد حضرت الراهبة، فكانت نتيجة التحليل أنها حامل. تعجبت الراهبة وقالت: العمى، ما عادت الواحدة تأمن حتى من إصبعها!». وهذه عن الناسكين: «كان هناك رجل ناسك،

يمضي كل وقته يتعبّد بعيداً عن الناس. احتال عليه أخوه مرة، وكان بائع أحذية نسائية، ليحلّ محله، بحجة أنه مسافر. وبالفعل عمل مكانه، وأحسّ أنه ضعف أكثر من مرة أمام الإغراء. وعندما عاد أخوه، شكى له حاله، فقال له الأخ: أخي، العبادة بين السيقان، ما بين الحيطان!».

إلى جانب النفور من التسلط والزهد الدينيين، تعبّر النكتة عن رفضها لاستغلال الدين لمآرب شخصية: «اثنان من المشايخ الدوّارة ساء وضعهما ولم تعد زكاة المحسنين تفي بالحاجة. وكانا يملكان حماراً، فقتلاه وقبراه في موضع مناسب وبنيا عليه قبة. وأخذا يشيعان في الناس أن المقام للشيخ زنكي الذي يشفي من كذا وكذا. فصارت الناس تزور المقام وتتبارك به وتزكي خادميه، حتى جمعا مالاً كثيراً. ومرة اختلف الشيخان على قسمة الغلّة، واتهم كل منهما الآخر بأنه يستأثر بحصة أكبر. وعندما طال الخلاف والجدال، قال أحدهما للآخر: تعال لأحلف لك على الشيخ زنكي. فرد عليه الآخر: شو بدك تحلف لي على الشيخ زنكي؟! قبرناه سوا!». «خوري جعل القداس بليرة، والآخرون كانوا سعّروه بخمس ليرات. اشتكى عليه باقي الخوارنة للمطران، فناداه: أبونا، صحيح قداسك بليرة؟ قال: نعم. قال المطران: أيجوز؟ قال الخوري: سيدنا، أنت سمعت قداسي؟ والله ما بيسوى ربع ليرة!»[٢٥]. «خوري اضطر أن يسافر بعيداً عن كنيسته. فعيّن من ينوب عنه وأوصاه: إذا جاءتك امرأة زانية، اغفر لها وخذ كفارتها، مثلاً إذا كانت زنت مرة واحدة خمس ليرات، إذا مرتين عشر ليرات، إذا أربعة عشرين. ومرة جاءت إلى الرجل امرأة وقالت له: يا أبونا، أنا زنيت ثلاث مرات. ففكر هذا وفكر، ثم قال لها: روحي، ازني كمان مرة وادفعي عشرين ليرة!». وهذه نكتة من اليمن: «وبلغ الإمام أن عجوزاً ماتت وكانت تملك ثروة كبيرة، فكلّف أحد الفقهاء بالذهاب ليقسم تركتها بين الورثة، فسرّ الفقيه لهذه المأمورية لما قد يعود إليه من النفع. ولكن سرعان ما رجع يقول لأصحابه: إنها لم تمت، إنها مازالت حية تسعى!»[٢٦]. أخيراً هذه النكتة

(٢٥) نجاة قصاب حسن، في: البعث، تاريخ ١٥/٢/١٩٨٣، ص١٢.
(٢٦) الفكاهة في الأدب اليمني، ص٣٧.

التي يكثر تناقلها شعبياً: «أحدهم كان يمشي وهو يدعو الله لأن يبعث له برزقة، فتعثّر ووقع، فقال: ما بدك تبعت لا تبعت، ليش الدفش!».

في مجتمع متعدد الانتماءات الدينية والمذهبية قد تتناول النكتة أفراد المجتمع باعتبارهم أبناء لدين أو مذهب معيّن، فتتحزّب لجماعة ضد أخرى، رافعة من قيمة جماعة معينة، خافضة لقيمة الجماعات الأخرى. عندئذ تكون النكتة شكلاً ايديولوجياً من أشكال الصراع أو التنافس، هجوم كلامي كثيراً ما يتلقاه الطرف المستهدف بالابتسام والضحك قبل الرد بالمثل. وأكثر من تستهدف هذه النكات هم رجال الدين في الجماعات المعادية أو المنافسة، باعتبارهم في مقدمة الذين يمثلون هذه الجماعات. مهما يكن يعكس هذا النوع من التنكيت المعتقدي التعصب المتواجد ضمن المجتمع المعني، فهو يكشفه ويعرضه أمام الملأ، ولا يخلقه، بل ولا حتى يشجعه، وهو بهذا يقوم بدور إيجابي لا جدال فيه. غير أن أكثر النكات الساخرة من رجال الدين موجهة من قبل رعاياهم. وقد يكون بعض النكات التي أوردناها سابقاً مدبّجة من قبل خصومهم، لكن تمييز هذه ليس سهلاً. أما النكات التي تجمع رجال الدين من الطرفين الخصمين أو المنافسين فهي على الأرجح منحازة إلى طرف ضد الطرف الآخر (وربما ضد الاثنين):

«الخوري: إلى أين، يا شيخنا؟. الشيخ: رايح حلّل البول. الخوري: رايح تحلل البول، وأنت بتحرّم الخمر؟!». «أحد المطارنة لاحظ في مطرانيته أشياء أثارت فيه الغضب، فصاح: أشهد أن لا إله إلا الله! سمعه أحد الخوارنة، فقال له مستغرباً: ما هذا الذي تقوله، يا أبانا؟!. فرد المطران: اي ما شي بيكفّر؟!». «سافر شيخ وخوري في سيارة في منطقة جبلية وعرة. فجعل الشيخ، كلما وصلت السيارة إلى منعطف، يقول: التعن أبونا. فانزعج الخوري. وبعد قليل قطعت السيارة منعطفاً صعباً، فقال الخوري: يلعن هاللفة!». «شيخ كان يلتقي كل يوم بخوري، فيومئ له برأسه متمتماً بالتحية. الخوري كان يقزح برأسه لفوق ولا يردّ. ذات مرة جاء الشيخ إلى

الخوري وقال له: شو، يا جار، فيه بيناتنا شي؟ قال له: لأ. ـ أسأت لك أنا بشي؟ ـ لأ. ـ ليش لكن بسلّم عليك ما بترد؟. فأجابه الخوري: والله، أنا كنت مفكّرك عم تقول لي (بتناطح)، فعم قول لك (لأ)!». «بعدما خلق الله تعالى الخلق، اجتمعت نساء العالم. وجاء النبي موسى، فانتقى منهن الجميلات وقال لهن: الحقوني. وجاء بعده النبي عيسى، فانتقى المليحات وقال لهن: الحقوني. وأخيراً جاء النبي محمد فلم يجد غير البشعات، فقال لهن: تغطوا والحقوني!».

«أوقف مرة في بيروت شاب مسلم على حاجز تفتيش مسيحي: ـ ما اسمك؟ ـ جورج ماروني. ـ أنت لا جورج ولا ماروني. ـ أقسم لكم بالله وبسيدنا محمد!»[٢٧]. «مسيحي كان يشوف حاله على مسلم، أن المسلمين فقراء عديمين، لا يذوقون اللحمة. فقال له المسلم: أنتو بتاكلوا اللحمة من الأحد للأحد (ماطاً كلمة الأحد)، نحن نأكلها من العيد للعيد، من العيد للعيد (لافظاً «من العيد للعيد» بسرعة)!» (نكتة سماعية). «قال جيريك رئيس بولونيا: إن تجديد بولونيا وإعمارها الصناعي جزء من تقدم المجتمع الكاثوليكي العالمي، ولا بأس من سياسة فيها القليل من الماركسية والكثير من الكاثوليكية. فأجابه كوسيغين: للأسف لا أستطيع أن أضيف لماركسيتي سوى المزيد من أرثوذكسيتي!»[٢٨]. أخيراً هذه النكتة الطفلية: «سئل أحد الأطفال: أنت مسلم أم مسيحي. فأجاب: أنا حمصي!». أما فيما بين المذاهب فتكثر النكات والنوادر، لكن بسبب الحساسية وضيق الصدور نكتفي بهذا المثال من التراث: «لما مات جعفر بن محمد (أي الإمام جعفر الصادق) قال أبو حنيفة لشيطان الطاق: مات إمامك. فقال شيطان الطاق: ولكن إمامك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم!»[٢٩].

* * *

(٢٧) البغدادي، تحرشات ساخرة، ص٢٣.
(٢٨) نقلاً عن عبد الله الأحمد، في: السفير، تاريخ ١٩٨٧/١١/١٣.
(٢٩) العقد الفريد، الجزء الثاني، ص١٢٤. أخبار الظراف والمتماجنين، ص١٠٠.

نلاحظ بخصوص النكتة الدينية، أنها كثيرة التناقل في الأوساط الشعبية، مثلها مثل النكات السياسية والجنسية والتسلوية. فهذه الأنواع الأربعة هي المفضلة في الأوساط المذكورة. وهي تمسّ محرمات، ما عدا النوع الرابع الذي يبغي الإضحاك ليس إلا. وقد وجدنا أن النكات المعتقدية تتناول رجال الدين بالدرجة الأولى، غالباً من قبل رعاياهم رغم المودة والتبجيل، وذلك باعتبارهم ممثلين للمعتقد المعني، وكذلك بقصد التعبير لهم قبل غيرهم عن نفور عامة الناس من التزمّت والزهد والتعصب الديني. إلى جانب ذلك هناك نكات معتقدية ذات صبغة اديولوجية متحزّبة للذات الدينية أو المذهبية ضد الاعتقادات والطوائف الأخرى. وأهم وظيفة تُعزى للنكات الدينية هي خلق التوازن بين الإيمان من جهة والقدرات الجسدية والنفسية أو العقل أو الواقع أو المصالح الدنيوية من الجهة الأخرى، إلى جانب الوظيفة التعزوية (أو العزائية)، حيث تقدم للإنسان عزاء وسلواناً في مواجهته للموت.

فهرس المراجع والمصادر

آ ـ الكتب

ـ الأبشيهي، شهاب الدين: المستطرف في كل فن مستظرف، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٠.

ـ ابن الجوزي، أبو الفرج: أخبار الحمقى والمغفلين، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠.

:أخبار الظراف والمتماجنين، دار الحكمة، دمشق ١٩٨٧.

:الأذكياء، تحقيق أسامة الرفاعي، بيروت ودمشق ١٩٨٥.

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت ١٩٧٨.

ـ ابن عبد ربه، شهاب الدين: طبائع النساء، تحقيق محمد سليم، مكتبة القرآن، القاهرة ١٩٨٥.

:العقد الفريد، دار مكتبة الهلال، بيروت (بلا تاريخ).

ـ أبو خضور، محمد: النكتة الصهيونية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٧٧.

:النكتة الصهيونية، دار الحكمة، دمشق ١٩٩٠.

ـ أبو داود، زاهر: الفكاهة الهادفة في الإسلام، مكتبة دار المحبة، دمشق ١٩٩١.

ـ أبو شاور، رشاد: الربّ لم يسترح في اليوم السابع (رواية)، دار الحوار، اللاذقية ١٩٨٦.

ـ الأصفهاني، أبو الفرج: كتاب الأغاني، مؤسسة جمال، بيروت (بلا تاريخ).

ـ ألف ليلة وليلة، طبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٠.

ـ ١٠٠٠ نكتة، بيروت ١٩٨٨.

ـ بارنياكوف، دانيال: الفكاهة البلغارية، ترجمة حسين راجي، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٢.

ـ برايزندانتس: حول النكتة، دار الجامعة، كونستانس ١٩٧٠.

ـ برشت، برتولد: بونتيلا وتابعه ماتي (مسرحية)، ترجمة عبد الغفار مكاوي، الدار القومية، القاهرة (بلا تاريخ).

:قصص من الرزنامة، ترجمة بوعلي ياسين، مكتبة عين الزهور، اللاذقية ١٩٩٢.

ـ برغسون، هنري: الضحك ـ بحث في دلالة المضحك، ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٣ (ط٣).

- البغدادي، أبو بكر الخطيب: التطفيل، مكتبة القدسي، القاهرة ١٩٨٣.
- البغدادي، عباس: تحرشات ساخرة، دار المروج، بيروت ١٩٩٣.
- بوش، فيلهلم: ثوان هي الخيالات، قصائد، دار ركلام، لايبزيغ (بلا تاريخ).
- تيمور باشا، أحمد: الكنايات العامية، ط٣، الشركة الشرقية، بيروت ١٩٧٠.
- التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت (بلا تاريخ).
- الثعالبي، أبو منصور: لطائف اللطف، دار المسيرة، بيروت ١٩٨٠.
- جابر، يحيى: نجوم الظهر، دار الريس، لندن ١٩٩٥.
- الجاحظ، أبو عثمان: البخلاء، دار الكاتب العربي، سوريا، ١٩٨٣.
:البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، مكتبة الطلاب وشركة الكاتب اللبناني، بيروت.
- جبر، جميل: نوادر الجاحظ، مطبعة فلفاط، بيروت ١٩٥٥.
- الجوزية، ابن قيم: أخبار النساء، مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣٠٩هـ (١٨٤٣م).
- الحسين، أحمد: مقالات في أدب الحمقى والمتحامقين، دار الحصاد، دمشق ١٩٩١.
- الحشاش، عبد الكريم: الأسرة في المثل الشعبي الفلسطيني والعربي، دمشق ١٩٨٨.
:قضاء العرف والعادة، ١٩٩١.
- الحصري، أبو اسحاق: جمع الجواهر في الملح والنوادر، تحقيق علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٣.
:زهر الآداب وثمرة الألباب، مطبوع عى هامش العقد الفريد لابن عبد ربه، المصدر المذكور.
- الحفناوي، حبشي: فكاهات ممتعة ونوادر مسلية وحكايات عجيبة، الإسكندرية ١٩٨٨.
- الحفني، عبد المنعم: موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، دار العودة ببيروت/ مكتبة مدبولي بالقاهرة ١٩٧٨.
- الحكيم، توفيق: أشعب، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٣٨.
- حمصي، سيمون: ألف وخمس مية من الحكم والأمثال الشعبية، دار طلاس، دمشق ١٩٨٦.
- حنكش، نجيب: حنكشيات، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٧.
- حيدر، أحمد: طريق الإنسان الجديد بين الحرية والاشتراكية، دار الآداب،

بيروت ١٩٨٢.
- الخشن، أحمد راتب: أخبار الطفيليين ونوادرهم، دار كرم بدمشق (بلا تاريخ).
- دولينينا: «حديث عيسى بن هشام» خطوة من المقامات إلى الرواية، في كتاب: بحوث سوفييتية في الأدب العربي، ترجمة خيري الضامن، دار التقدم، موسكو ١٩٧٨.
- ديرون، غونتر: الحمار (رواية)، ترجمة صنع الله ابراهيم، دار ابن رشد، بيروت ١٩٧٧.
- ساري، حلمي خضر: صورة العرب في الصحافة البريطانية، مركز دراسات الوحدة، بيروت ١٩٨٨.
- السعدني، محمود: الظرفاء، دار العودة ببيروت/ دار الكتاب العربي بطرابلس (بلا تاريخ).
:المضحكون، دار العودة ببيروت/ دار الكتاب العربي بطرابلس (بلا تاريخ).
- سعيد، ادوارد: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، ط٢، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٤.
- سكاف، جبرائيل، بالاشتراك مع ريمون قسيس: القول المثال في الحكم والأمثال، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٦.
- سلمان، سلمى: في ليالي كانون (حكايات شعبية)، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٦.
- سيرياكس، رولف: الضحك خير دواء - الطبيب في مرآة الفكاهة، دار دلفين، ميونيخ ١٩٨٣.
- شعراوي، أنطوان: حياة الحلبي القديم، منشورات مجلة الضاد، حلب ١٩٩٣.
- شميت/ شيشكوف: القاموس الفلسفي، ط٧، دار كرونر، شتوتغارت ١٩٦٥.
- شيخاني، محمد فيصل: بعض الأمثال الشعبية في منطوقها الحمصي، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩١.
- شو، برنارد: مبادئ للثوار، ترجمة عبد المعين الملوحي، دار الينابيع، دمشق ١٩٩٢.
- شوفلر، هربرت: جغرافيا صغيرة للنكتة الألمانية، ط٩، غوتنغن ١٩٨٤.
- ضيف، شوقي: الفكاهة في مصر، كتاب الهلال، شباط ١٩٥٨.
- طه، جمانة: الجمان في الأمثال، ١٩٩١ (بلا مكان نشر).
- طه، نعمان: السخرية في الأدب العربي، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، ١٩٧٩.
- عباسي، نهاد: حمق المثقفين، مطبعة كرم بدمشق ١٩٨٦.
- عبد المجيد، أحمد: رحلة مع الظرفاء، سلسلة اقرأ، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٦.

- عبيد، سلامة: أمثار وتعابير شعبية من السويداء، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥.
- العقاد، عباس محمود: جحا الضاحك المضحك، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩.
- العلوي، هادي: المستطرف الجديد، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٠.
- عنبوسي، أحمد: الموضوع والأداة في فن ناجي العلي، دار المبتدأ في بيروت/ دار الزاوية في عمان ١٩٩٣.
- عيسى، صلاح: هوامش المقريزي ـ حكايات من مصر، المجموعة الثانية، القاهرة ١٩٨٣.
- العوا، عادل: أخلاق التهكم، دار الحصاد، دمشق ١٩٨٩.
- عوض، عوض سعود: دراسات في الفولكلور الفلسطيني، ١٩٨٣.
- فتحي، ابراهيم: معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية، صفاقس (تونس) ١٩٨٦.
- فراج، عبد الستار: أخبار جحا، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٥٤.
- الفرحان، احسان: خيرها بغيرها ـ دراسة في الأمثال الشعبية العربية، دار الباحث، بيروت ١٩٨٧.
- فرويد، زيغموند: النكتة وعلاقتها باللاوعي، دار فيشر، فرانكفورت أم ماين ١٩٨٦.
- القاموس المحيط للفيروز أبادي، دار الجيل، بيروت (بلا تاريخ).
- القوال، أنطوان: ظرفاء لبنان، دار بيسان، بيروت ١٩٩٣.
- القيم، علي: إضاءات من الذاكرة القديمة، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٦.
- لانغر، فيلسيا: بأم عيني، ترجمة مؤسسة الأرض، دمشق ١٩٧٤.
- لسان العرب لابن منظور، طبعة دار لسان العرب، بيروت (بلا تاريخ).
- ليسنغ: خرافات، دار ركلام، لايبزيغ ١٩٦٨.
- ليكسفيلد، هـ.: النكتة ـ نصوص دراسية، شتوتغارت ١٩٧٨.
- المزاتي، محمد صديق: عجائب القاهرة وغرائبها، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٣.
- المصراتي، علي مصطفى: جحا في ليبيا، طرابلس ـ ليبيا، ١٩٨٦.
- المعجم الوسيط، طبعة دار الأمواج، بيروت ١٩٨٧.
- المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق ببيروت، ط٢٣، بيروت ١٩٦٥.
- موللر/ زيمّر: قصص عن السيد باء، دار أوف ـ باو، برلين وفايمر ١٩٦٨.
- موم، سومرست: عصارة الأيام، تعريب حسام الخطيب، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٤.

ـ المويلحي، محمد: حديث عيسى بن هشام، دار الجنوب بتونس ١٩٩٢.
ـ الميداني، أبو الفضل: مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار النصر، دمشق/ بيروت (بلا تاريخ).
ـ ميرشنت، ملوين: الكوميديا، ترجمة علي أحمد محمود، عالم المعرفة ١٨، الكويت ١٩٧٩.
ـ النجار، محمد رجب: جحا العربي، عالم المعرفة، الكويت ١٩٧٨.
ـ نجم، أحمد فؤاد: ديوان أحمد فؤاد نجم، دار طلاس، دمشق ١٩٨٦.
ـ نعيمي، سلوى: كتاب الأسرار (قصص قصيرة)، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٩٤.
ـ نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد، دار مكتبة الحياة، بيروت (بلا تاريخ).
ـ نوادر أبي النواس، مطبعة كرم بدمشق.
ـ نوادر جحا الكبرى، المكتبة الأدبية بحلب.
ـ نوادر جحا وابنه وحماره، مكتبة المهايني بدمشق.
ـ نيسين، عزيز: أسفل السافلين، ترجمة عبد اللطيف عبد الحميد، دار الحصاد، دمشق ١٩٩٣.
ـ هيرش: مدرسة المضاحك، دار دي تي فاو، ميونيخ، ط٢، ١٩٩٣.
ـ هيكل، محمد حسنين: زيارة جديدة للتاريخ، شركة المطبوعات، بيروت، ط٢، ١٩٨٥.
ـ اليافي، عبد الكريم: دراسات فنية في الأدب العربي، دمشق ١٩٧٢.
ـ اليوسفي، ماهر: ناجي العلي ـ مدهش الملهاة ومفجع المأساة، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٣.

ب ـ مساهمات في صحف ومجلات

ـ أبا زيد، عبد الكريم، في: نضال الشعب، العدد ٤٩٠ تاريخ ١٩٩٣/١١/١٥.
ـ الأحمد، عبد الله، في جريدة: السفير، تاريخ ١٩٨٧/١١/١٣.
ـ ادريس، يوسف، في مجلة: الموقف العربي، العدد ٤٨٦، تاريخ ١٩٩١/٨/١٨.
ـ أرناؤوط، محمد موفق: طريق الحرير ـ طريق الفجر بين الشعوب، في: دراسات تاريخية، العددان ٣٩ ـ ٤٠، كانون الأول ١٩٩١.
ـ بدوي الجبل، في: المضحك المبكي، العدد ١٠٣٩، تاريخ ١٩٦٣/١٠/٦.
ـ جبران خليل جبران: المجنون، في مجلة: الكويت، العدد ٤ ـ كانون الثاني ١٩٨١.

- الجبوري، حسين: من تاريخ الصراع الجدلي في الإسلام، في مجلة: الجيل، المجلد ١٣، العدد ١٠ ـ تشرين الأول ١٩٩٢.
- الجزائري، زهير: في مئوية ميلاده، شارلي شابلن ـ الضحك والبصيرة، في مجلة: النهج، العدد ٣٥ ـ ١٩٨٩.
- الجسر، سالم، في مجلة: الموعد، العدد ١١٦٢، تاريخ ١٩٨٥/٦/٨.
- الجوجري، عادل: النكتة علاج نفسي عند المصريين، في مجلة: الوسط، العدد ١٤٢، تاريخ ١٩٩٤/١٠/١٧.
- الحصراني، ابراهيم: الفكاهة في الأدب اليمني، في مجلة: الهلال، عدد آب ١٩٧٤.
- الحوفي، أحمد: بشر النبي وفكاهته، في مجلة: الكويت، العدد ١٢ ـ ١٩٨١.
- خيري، بديع، في مجلة: الهلال، عدد آب ١٩٤٨.
- رامي، أحمد: أظرف من عرفت، في مجلة: الهلال، عدد كانون الثاني ١٩٤٧.
في مجلة: الهلال، عدد كانون الثاني ١٩٥٤.
- الرميحي، محمد: يا أمة ضحكت، في مجلة: العربي، العدد ٣٢٩ ـ نيسان ١٩٨٦.
- السعدني، محمود: ليس بعد الضحك ذنب، في مجلة: الهلال، عدد خاص عن الفكاهة، العدد ٨ ـ آب ١٩٦٦.
- سلامة، أمين: من طرائف الفيلسوف ديوجين، في مجلة: الهلال، عدد حزيران ١٩٧٨.
- صالح، سعيد، في مجلة: روز اليوسف، العدد ٣٤٤٢، تاريخ ١٩٩٤/٥/٣٠.
- الصايغ، فايز، في مقابلة مع شوقي عبد الحكيم، في جريدة: تشرين، تاريخ ١٩٧٧/٨/٢٥.
- ضيف، شوقي: ما هي الفكاهة؟، في مجلة: الهلال، عدد شباط ١٩٥٨.
- عامر، منير، في مجلة: روز اليوسف، العدد ٣٤٣٤، تاريخ ١٩٩٤/٤/٤.
- العالم يضحك، في مجلة: الهلال، عدد حزيران ١٩٧٨.
- عطوي، فوزي: الفكاهة في الأدب اللبناني، في مجلة: الهلال، عدد آب ١٩٧٤.
- عفيفي، محمد: النكتة كفن جميل، في مجلة: الهلال، العدد ٨ ـ آب ١٩٦٦.
- العلي، سهيل، في مجلة: فنون، العدد ١٤٦، تاريخ ١٩٩٤/٥/٣٠.
- غانم، فتحي، في مجلة: روز اليوسف، العدد ٣٤٣٠، تاريخ ١٩٩٤/٣/٧.
- فتنة، عبد المجيد، في جريدة: نضال الفلاحين، العدد ١٣٢٣، تاريخ ١٩٩٢/٨/٢.
- فرزات، علي: كاريكاتيرات منشورة في جريدة الثورة بدمشق.

- فياض، عامر: الفكاهة سلاح المقاومة في مصر، في مجلة: ٢٣ يوليو (لندن)، العدد ١٩، تاريخ ١٩٧٩/٧/٩.
- القاسم، سميح، (شعر) في مجلة: الناقد، عدد آذار ١٩٩٠.
- قدندراق، أديب: الأمثال الشعبية، في مجلة: دراسات اشتراكية، عدد أيلول ١٩٩٢.
- قصاب حسن، نجاة، في جريدة: البعث، عدد ١٩٨٣/١/٦، عدد ١٩٨٣/٢/٩، عدد ١٩٨٣/٢/١٥، عدد ١٩٨٣/٢/٢٣، عدد ١٩٨٣/٣/٣١، عدد ١٩٩٣/٨/٣.
- كنفاني، غسان: أنقذتني الصدفة (قصة)، في جريدة: نضال الفلاحين، العدد ١٣٣٠، تاريخ ١٩٩٢/١٠/٢١.
- الكيلاني، كامل: جحا في الشرق والغرب، في مجلة: الهلال، عدد آب ١٩٤٨.
- لحام، دريد، في جريدة: تشرين، تاريخ ١٩٩٤/٥/٨.
- المازني، ابراهيم: الفشر، في مجلة: الهلال، عدد آب ١٩٤٧.
النكتة المصرية، في مجلة: الهلال، عدد تموز ١٩٤٧.
- مبارك، زكي: تحيا الفرفشة، في مجلة: الاثنين والدنيا، العدد ٦٨٥، تاريخ ١٩٤٧/٧/٢٨.
- الملوحي، عبد المعين: ابن أبي عتيق، في مجلة: المدى، العدد ٥، تاريخ ١٩٩٤/٢/١.
- المجتمع السعيد ـ ندوة الهلال، في مجلة: الهلال، عدد أيار ١٩٩٠.
- ندوة الفكاهة، في مجلة: الهلال، عدد آب ١٩٤٨.
- نجم، أحمد فؤاد، في مجلة: روز اليوسف، العدد ٣٤٠٩، تاريخ ١٩٩٣/١٠/١١.
- يونس، عبد الحميد: الفكاهة طب نفسي، في مجلة: العربي، العدد ٣٥٧، آب ١٩٨٨.

ج ـ صحف ومجلات

- الاثنين والدنيا (القاهرة)، الأعداد: ٦١٧ تاريخ ١٩٤٧/١١/٢٠، ٦٥٩ تاريخ ١٩٤٧/١٠/٦، ٦٨٤ تاريخ ١٩٤٧/٧/٢١، ٦٨٥ تاريخ ١٩٤٧/٧/٢٨، ٦٨٦ تاريخ ١٩٤٧/٨/٤، ٦٨٧ تاريخ ١٩٤٧/٨/١١، ٦٩٠ تاريخ ١٩٤٧/٩/١، ٦٩١ تاريخ ١٩٤٧/٩/٨، ٦٩٤ تاريخ ١٩٤٧/٩/٢٩، ٦٩٥ تاريخ ١٩٤٧/١٠/٦، ٦٩٩ تاريخ ١٩٤٧/١١/٣، ٧٠١ تاريخ ١٩٤٧/١١/١٧، ٧٠٣ ـ كانون الأول ١٩٤٧.
- أخبار الأدب (القاهرة)، العدد ٧٣ تاريخ ١٩٩٤/١٢/٤.

- آخر ساعة (القاهرة)، العدد ٣٠٩٠ تاريخ ١٩٩٤/١/١٢، العدد ٣١٠٤ تاريخ ١٩٩٤/٤/٢٠.
- الأسبوع الضاحك (بيروت): العدد ٣٥، العدد ٣٦.
- أسامة (دمشق)، الأعداد: ١٥ تاريخ ١٩٦٩/٩/١، ١٨ تاريخ ١٩٦٩/١٠/١٦، ٤٥ تاريخ ١٩٧٠/١٢/١، ١٢٩ تاريخ ١٩٧٤/٦/١، ١٧٣ تاريخ ١٩٧٦/٤/١، ١٧٤ تاريخ ١٩٧٦/٤/١٦، ٢٤٦ تاريخ ١٩٧٩/٤/١٦، ٢٦٣ تاريخ ١٩٨٠/١/١، ٢٩٢ تاريخ ١٩٨١/٣/١٦، ٢٩٦ تاريخ ١٩٨١/٥/١٦، ٢٩٧ تاريخ ١٩٨١/٦/١، ٣٠٣ تاريخ ١٩٨١/٩/١، ٣١١ تاريخ ١٩٨٢/١٢/١، ٣٢٢ تاريخ ١٩٨٢/٦/١٦، ٣٣٣ تاريخ ١٩٨٢/١٢/١، ٣٦٣ تاريخ ١٩٨٤/٣/١، ٣٦٤ تاريخ ١٩٨٤/٣/١٦، ٣٦٦ تاريخ ١٩٨٤/٤/١٦، ٣٩١ - ٣٩٢ تاريخ ١ و١٩٨٥/٥/١٦، ٣٩٣ - ٣٩٤ تاريخ ١ و١٩٨٥/٦/١٦، ٤٠٩ تاريخ ١٩٨٦/٢/١، ٤١٠ تاريخ ١٩٨٦/٢/١، ٤١٢ تاريخ ١٩٨٦/٣/١٦، ٤٣٢ تاريخ ١٩٨٨/٩/١، ٤٩٥ - تشرين الثاني ١٩٩٢، ٥٠٠ - نيسان ١٩٩٣.
- البعث (دمشق)، الأعداد: ١٩٨٦/٤/٢٤، ١٩٨٦/١٢/٣، ١٩٨٧/٢/٢، ١٩٨٧/٢/٢٥، ١٩٨٧/٧/٥، ١٩٨٧/١٢/٢، ١٩٨٨/٣/١٣، ١٩٨٨/٣/١٤، ١٩٨٨/٥/١٥، ١٩٨٨/٧/٧، ١٩٨٨/٩/١٨، ١٩٨٨/٩/٢٥، ١٩٨٨/١٠/٢٤، ١٩٨٩/١/٣٤، ١٩٨٩/٤/١٤، ١٩٨٩/٤/١٩، ١٩٨٩/٤/٢٧، ١٩٨٩/٥/١٧، ١٩٨٩/٥/٢٩، ١٩٨٩/١٠/٢٣، ١٩٨٩/١٠/٢٤، ١٩٨٩/١١/٢٣، ١٩٨٩/١١/٢٩
- البيان، عدد حزيران ١٩٩٣.
- تسالي (لبنان): الأعداد ٢٢٢، ٢٦٥، ٢٨٢، ٢٨٨.
- تسلية (بيروت)، العدد ٥٤.
- التقويم العربي الهاشمي (دمشق)، أيام ١٩٩٤/١/١٥، ١٩٩٤/١/١٧، ١٩٩٤/٧/٢٠.
- الثورة (دمشق): الأعداد ١٩٧٦/١/٢٧، ١٩٧٨/٣/٣، ١٩٧٨/٨/٩، ١٩٧٩/٣/٣٠، ١٩٨٩/٨/٥.
- حواء (القاهرة): الأعداد ٧٢٧ تاريخ ١٩٧٠/٨/٢٩، ٧٢٨ تاريخ ١٩٧٠/٩/٥، ٧٢٩ تاريخ ١٩٧٠/٩/١٢، ٧٣١ تاريخ ١٩٧٠/٩/٢٦، ٧٣٧ تاريخ ١٩٧٠/١١/٧، ٧٤٠ تاريخ ١٩٧٠/١١/٢٨، ٧٤٢ تاريخ ١٩٧٠/١٢/١٢، ٧٤٤ تاريخ ١٩٧٠/١٢/٢٦، ٧٤٥ تاريخ ١٩٧١/١/٢، ٧٤٦ تاريخ ١٩٧١/١/٩، ٧٥٦ تاريخ ١٩٧١/٣/٢٠، ٧٥٩ تاريخ ١٩٧١/٤/١٠، ٧٦٩ تاريخ ١٩٧١/٦/١٩، ٧٧٠ تاريخ ١٩٧١/٦/٢٦.
- الدوحة (قطر)، عدد كانون الأول ١٩٧٦.

- روز اليوسف (القاهرة)، العدد ٣٤٠٩ تاريخ ١٩٩٣/١٠/١١، العدد ٣٤٤٢ تاريخ ١٩٩٤/٥/٣٠.

- سامر (بيروت)، العدد ٧٠٦ تاريخ ١٩٩٤/١/٢٧، العدد ٧١٣ تاريخ ١٩٩٤/٣/١٧، العدد ٧١٦ تاريخ ١٩٩٤/٤/٧.

- سعد (الإمارات)، الأعداد: ٦٣٢ تاريخ ١٩٨٢/٧/٥، ٦٤٦ تاريخ ١٩٨٢/١٠/١٨، ٦٥٦ تاريخ ١٩٨٢/١٢/٢٧، ٧٠١ تاريخ ١٩٨٣/١١/١٤، ٧٣٥ تاريخ ١٩٨٤/٧/١٦، ٧٤٤ تاريخ ١٩٨٤/٩/٢٤، ٧٤٥ تاريخ ١٩٨٤/١٠/١، ٧٥٥ تاريخ ١٩٨٤/١٢/١٠، ٧٦٢ تاريخ ١٩٨٥/١/٢٨، ٧٧٥ تاريخ ١٩٨٥/٤/٢٢، ٧٨٠ تاريخ ١٩٨٥/٥/٢٧، ٨١٨ تاريخ ١٩٨٦/٢/٢٤، ٨٢٤ تاريخ ١٩٨٦/٤/٧، ٨٤٣ تاريخ ١٩٨٦/٨/٢٥، ٨٥١ تاريخ ١٩٨٦/١٠/٢٠، ٨٨٢ تاريخ ١٩٨٦/٣/٢٤.

- سمير (القاهرة)، الأعداد: ١١٧١ تاريخ ١٩٧٨/٩/١٧، ١١٩٣ تاريخ ١٩٧٩/٢/١٨، ١٩٣٨ تاريخ ١٩٩٣/٥/٣٠.

- سلوى (بيروت)، العدد ١٠٩.

- الشبكة (بيروت)، الأعداد: ٨٣٦ تاريخ ١٩٧٢/١/٣١، ٨٤٧ تاريخ ١٩٧٢/٤/٧، ٨٤٩ تاريخ ١٩٧٢/٥/١، ٨٥١ تاريخ ١٩٧٢/٥/٢٢، ٨٥٤ تاريخ ١٩٧٢/٦/٥، ٨٦١ تاريخ ١٩٧٢/٧/٢٤، ٩٠٥ تاريخ ١٩٧٣/٥/٢٨، ١١٤٨ تاريخ ١٩٧٨/٣/١٣، ١٢٠٤ تاريخ ١٩٨٠/٣/٩، ١٢٨٩ تاريخ ١٩٨٠/١١/٢٤، ١٣٠٢ تاريخ ١٩٨١/٢/٢٣، ١٣٣٣ تاريخ ١٩٨١/٩/٢٨، ١٣٤٩ تاريخ ١٩٨٢/١/١٨، ١٣٥٠ تاريخ ١٩٨٢/١/٢٤، ١٣٥٢ تاريخ ١٩٨٢/٢/٨، ١٣٥٦ تاريخ ١٩٨٢/٣/٨، ١٣٦٥ تاريخ ١٩٨٢/٥/١٠، ١٣٧٨ تاريخ ١٩٨٢/٨/٩، ١٣٨٠ تاريخ ١٩٨٢/٨/٣، ١٣٨١ تاريخ ١٩٨٢/٨/٣٠، ـــ تاريخ ١٩٨٧/١١/١١، ١٩٨٠ تاريخ ١٩٩٤/٢/١٤، ٢٠٢٣ تاريخ ١٩٩٤/١٢/١٢.

- الطليعي (دمشق)، عدد آذار ١٩٨٦.

- عالم التسلية (بيروت)، العدد ٤٨، العدد ٤٩.

- العربي (الكويت)، الأعداد: ٧٠ ـ أيلول ١٩٦٤، ٧٤ ـ كانون الثاني ١٩٦٥، ٧٥ ـ شباط ١٩٦٥، ٧٧ ـ نيسان ١٩٦٥، ٨١ ـ آب ١٩٦٥، ٨٧ ـ شباط ١٩٦٦، ٨٩ ـ نيسان ١٩٦٦، ٩٣ ـ آب ١٩٦٦، ٩٤ ـ أيلول ١٩٦٦، ٩٨ ـ كانون الثاني ١٩٦٧، ١٠١ ـ نيسان ١٩٦٧، ١٠٧ ـ تشرين الأول ١٩٦٧، ١١٨ ـ أيلول ١٩٦٨، ١١٩ ـ تشرين الأول ١٩٦٨، ١٥٤ ـ أيلول ١٩٧١، ١٨٣ ـ شباط ١٩٧٤، ١٩١ ـ تشرين الأول ١٩٧٤، ٣٢٢ ـ أيلول ١٩٨٥، ٣٢٩ ـ نيسان ١٩٨٦، ٣٥٦ ـ تموز ١٩٨٨، ٣٦١ ـ كانون الأول ١٩٨٨، ٤٢٥ ـ نيسان ١٩٩٤، ٤٢٦ ـ أيار ١٩٩٤.

- الكويت، العدد ١٢ - ١٩٨١.
- ماجد (الإمارات)، الأعداد: ٧٤٠ تاريخ ١٩٩٣/٤/٢٨، ٧٤٩ تاريخ ١٩٩٣/٦/٣٠، ٧٥٩ تاريخ ١٩٩٣/٩/٨، ٧٧٢ تاريخ ١٩٩٣/١٢/٨، ٧٧٣ تاريخ ١٩٩٣/١٢/١٥، ٧٧٦ تاريخ ١٩٩٤/١/٥، ٧٧٧ تاريخ ١٩٩٤/١/١٢، ٧٧٨ تاريخ ١٩٩٤/١/١٩، ٧٨٥ تاريخ ١٩٩٤/٣/٩، ٧٨٦ تاريخ ١٩٩٤/٣/١٦، ٧٨٩ تاريخ ١٩٩٤/٤/٦، ٧٩٠ تاريخ ١٩٩٤/٤/١٣، ٨٠٣ تاريخ ١٩٩٤/٧/١٣، ٨٠٦ تاريخ ١٩٩٤/٨/١٣، ٨١٠ تاريخ ١٩٩٤/٨/٣١، ٨١٧ تاريخ ١٩٩٤/١٠/١٩، ٨٢٢ تاريخ ١٩٩٤/١١/٢٣، ٨٢٧ تاريخ ١٩٩٤/١٢/٢٨، ٨٣٠ تاريخ ١٩٩٥/١/١٨.
- المختار، الأعداد: ١٤ - كانون الثاني ١٩٨٠، ١٩ و٢٠ - حزيران وتموز ١٩٨٠، ٤٣ - حزيران ١٩٨٢، ٥٢ - آذار ١٩٨٣، ٥٤ - أيار ١٩٨٣، ٥٦ - تموز ١٩٨٣، ٥٨ - شباط ١٩٨٣، ٧٠ - أيلول ١٩٨٤، ٧٢ - تشرين الثاني ١٩٨٤، ٧٥ - شباط ١٩٨٥، ٨٣ - تشرين الأول ١٩٨٥، ٩٥ - تشرين الأول ١٩٨٦، ١٠١ - نيسان ١٩٨٧، ١٠٢ - أيار ١٩٨٧، ١٠٦ - أيلول ١٩٨٧، ١١٠ - كانون الثاني ١٩٨٨، ١١٥ - حزيران ١٩٨٨، ١٢٠ - تشرين الثاني ١٩٨٨.
- المضحك المبكي (دمشق)، الأعداد: ١٦٨ تاريخ ١٩٣٣/٥/٦، ١٧٦ تاريخ ١٩٣٣/٧/٨، ١٨٣ تاريخ ١٩٣٣/٨/٢٦، ١٨٧ تاريخ ١٩٣٣/٩/٣٠، ١٨٨ تاريخ ١٩٣٣/١١/٧، ١٩٤ تاريخ ١٩٣٣/١١/٢٥، ٢٠٢ تاريخ ١٩٣٤/١/٢٧، ٢٠٥ تاريخ ١٩٣٤/٢/١٧، ٢٠٧ تاريخ ١٩٣٤/٣/٣، ٢١٨ تاريخ ١٩٣٤/٣/٢٦، ٢٤٠ تاريخ ١٩٣٤/١/٢٦، ٢٤١ تاريخ ١٩٣٥/٢/٢، ٢٧٠ تاريخ ١٩٣٥/١١/١٢، ٢٨١ تاريخ ١٩٣٩/٢/٤، ٢٨٤ تاريخ ١٩٣٦/٤/٤، ٢٩٠ تاريخ ١٩٣٦/٥/٢٣، ٣٠٨ تاريخ ١٩٣٦/١٠/٣١، ٣٣١ تاريخ ١٩٣٧/٦/١٢، ٣٥١ تاريخ ١٩٣٧/١٠/٢٠، ٣٥٥ تاريخ ١٩٣٨/١/١، ٣٦٦ تاريخ ١٩٣٨/٤/١٦، ٣٨٨ تاريخ ١٩٣٨/١٠/١، ٣٩٣ تاريخ ١٩٣٨/١١/٥، ٨٧٦ تاريخ ١٩٥٣/١٠/٢٤، ١٠٠٦ تاريخ ١٩٦٢/١٠/٢٨، ١٠٠٧ تاريخ ١٩٦٢/١١/٤، ١٠٠٩ تاريخ ١٩٦٢/١١/١٨، ١٠١٠ تاريخ ١٩٦٢/١١/٢٥، ١٠١١ تاريخ ١٩٦٢/١٢/٢، ١٠١٤ تاريخ ١٩٦٢/١٢/٢٣، ١٠١٥ تاريخ ١٩٦٢/١٢/٣٠، ١٠١٧ تاريخ ١٩٦٣/١/١٣، ١٠١٩ تاريخ ١٩٦٣/١/٢٨، ١٠٢١ تاريخ ١٩٦٣/٢/١٠، ١٠٢٢ تاريخ ١٩٦٣/٢/١٧، ١٠٢٣ تاريخ ١٩٦٣/٦/٢، ١٠٢٤ تاريخ ١٩٦٣/٦/٩، ١٠٢٥ تاريخ ١٩٦٣/٦/١٦، ١٠٢٦ تاريخ ١٩٦٣/٦/٢٣، ١٠٢٧ تاريخ ١٩٦٣/٦/٢٣، ١٠٢٨ تاريخ ١٩٦٣/٧/٧، ١٠٢٩ تاريخ ١٩٦٣/٧/١٤، ١٠٣٠ تاريخ ١٩٦٣/٨/٤، ١٠٣١ تاريخ ١٩٦٣/٨/١١، ١٠٣٢ تاريخ ١٩٦٣/٨/١٨،

١٠٣٣ تاريخ ١٩٦٣/٨/٢٥، ١٠٣٤ تاريخ ١٩٦٣/٩/١، ١٠٣٥ تاريخ ١٩٦٣/٩/٨، ١٠٣٦ تاريخ ١٩٦٣/٩/١٥، ١٠٣٨ تاريخ ١٩٦٣/٩/٢٩، ١٠٤٠ تاريخ ١٩٦٣/١٠/١٣، ١٠٤١ تاريخ ١٩٦٣/١٠/٢٠، ١٠٤٢ تاريخ ١٩٦٣/١٠/٢٧، ١٠٤٤ تاريخ ١٩٦٣/١١/١٠، ١٠٤٥ تاريخ ١٩٦٣/١١/١٧، ١٠٤٦ تاريخ ١٩٦٣/١١/٢٤، ١٠٤٨ تاريخ ١٩٦٣/١٢/٨، ١٠٤٩ تاريخ ١٩٦٣/١٢/١٥، ١٠٥١ تاريخ ١٩٦٣/١٢/١٩.

- الموعد (بيروت)، الأعداد: ٥٣١ تاريخ ١٩٧٢/١١/٩، ٥٨٧ تاريخ ١٩٧٣/١٢/٦، ٥٩٣ تاريخ ١٩٧٤/١/١٧، ٦٦١ تاريخ ١٩٧٥/٥/٨، ٦٦٩ تاريخ ١٩٧٥/٧/٣، ٦٨٥ تاريخ ١٩٧٥/١٠/٢٣، ٨٥٥ تاريخ ٥/٤/ ١٩٧٩، ٨٥٧ تاريخ ١٩٧٩/٤/١٩، ٩٢١ تاريخ ١٩٨٠/٧/١٠، ٩٣٩ تاريخ ١٩٨٠/١١/١٣، ٩٥٦ تاريخ ١٩٨١/٣/١٢، ٩٩٥ تاريخ ١٩٨١/١٢/١٦، ١٠٤١ تاريخ ١٩٨٣/٢/٥، ١١٠٩ تاريخ ١٩٨٤/٥/٢٦، ١١٣٩ تاريخ ١٩٨٤/١٢/٢٢، ١١٥١ تاريخ ١٩٨٥/٣/١٦، ١١٦٨ تاريخ ١٩٨٥/٧/١٣، ١١٧١ تاريخ ١٩٨٥/٨/٣، ١١٧٢ تاريخ ١٩٨٥/٨/١٠، ١١٧٧ تاريخ ١٩٨٥/٩/١٤، ١١٩٩ تاريخ ١٩٨٦/٢/١٥، ١٢٣٣ تاريخ ١٩٨٦/١١/١١، ١٢٤٠ تاريخ ١٩٨٦/١١/٢٩، ١٦١٢ تاريخ ١٩٩٤/٥/٢٠.
- نضال الشعب (دمشق)، العدد ٤٩٠ تاريخ ١٩٩٣/١١/١٥.
- نضال الفلاحين (جريدة دمشقية)، الأعداد: ٤٨٧ تاريخ ١٩٨٦/١/١٧، ٤٨٩ تاريخ ١٩٨٦/١/٢١، ١٣١٥ تاريخ ١٩٩٣/١١/٢٤، ١٤٢٢ تاريخ ١٩٩٤/٨/٢٤، ١٤٣٢ تاريخ ١٩٩٤/١١/٢.
- الهلال (القاهرة)، الأعداد: شباط ١٩٤٧، آذار ١٩٤٧، تموز ١٩٤٨، أيلول ١٩٤٩، تشرين الأول ١٩٤٩، شباط ١٩٥٠، آذار ١٩٥٠، تموز ١٩٥٠، أيلول ١٩٥٠، آب ١٩٥١، أيلول ١٩٥٣، تشرين الثاني ١٩٥٤.
- هوبي (بيروت)، الأعداد ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٥٦.
- الوحدة (جريدة لاذقانية)، العدد ١٩٩١/٦/١١، العدد ١٩٩١/٧/٩.

الفهرس

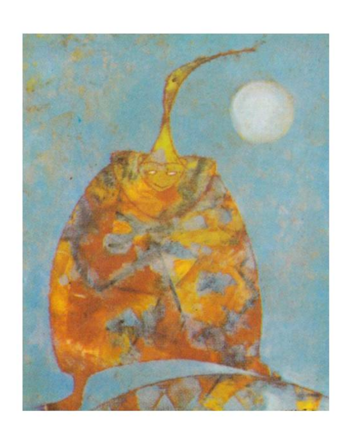
صدر للمؤلف

مؤلفات:

- الثالوث المحرم، بيروت ١٩٧٣، ط٥ ـ ١٩٨٥.
- القطن وظاهرة الإنتاج الأحادي في الاقتصاد السوري، بيروت ١٩٧٤.
- الأدب والاديولوجيا في سوريا (بالاشتراك مع نبيل سليمان)، بيروت ١٩٧٤.
- حكايات الأرض والفلاح السوري، بيروت ١٩٧٩.
- ينابيع الثقافة، اللاذقية ١٩٨٥.
- خير الزاد من حكايات شهرزاد، اللاذقية ١٩٨٦.
- نحن والغير في السياسة والاقتصاد، اللاذقية ١٩٩٠.
- أزمة المرأة في المجتمع الذكوري العربي، اللاذقية ١٩٩٢.
- عين الزهور ـ سيرة ضاحكة، دمشق ١٩٩٣.
- على دروب الثقافة الديمقراطية، دمشق ١٩٩٤.
- العرب في مرآة التاريخ، دمشق ١٩٩٥.

ترجمات:

- المادية الجدلية والتحليل النفسي، تأليف فيلهلم رايش، بيروت ١٩٨٠.
- الأزمات الاقتصادية، تأليف أ. راينهولد، بيروت ١٩٨٠.
- أصل الفروق بين الجنسين، تأليف أورزولا شوي، بيروت ١٩٨٢.
- الطوطم والتابو، تأليف زيغموند فرويد، اللاذقية ١٩٨٣.
- نمط الإنتاج الآسيوي في فكر ماركس وأنغلز، اللاذقية ١٩٨٨.
- قصص من الرزنامة، تأليف برتولد برشت، اللاذقية ١٩٩٢.



عن هذا الكتاب

أحد المثقفين الطيبين سألني مؤخراً: ماذا تكتب هذه الأيام؟ قلت: أؤلف كتاباً عن النكتة. صمت قليلاً وتململ في مجلسه ثم قال: أنت أكبر من أن تكتب عن النكتة!. ولم أجد في ذلك إطراء: فهل أنا أكبر من الجاحظ؟!. حالة كهذه عشتها في بداية نشاطي ككاتب. وقتها كتبت مقالة عن الجنس، فكان همّ أحد الأصدقاء المثقفين أن يهوّن من قيمة هذا العمل ويبيّن ضرورة صبّ الجهود في التوعية السياسية. كأني بهؤلاء الناس الطيبين يريدون القول: أهذا وقت الكتابة عن الجنس أو النكتة أو ألف ليلة وليلة...، والأمة العربية في هذه الحالة التي هي عليها؟!. لهؤلاء أقول: وماذا أفعل للأمة العربية، إذا كانت أحوالها على هذا السوء منذ مئات السنين؟! أنتفرغ جميعاً للثقافة السياسية ونهمل ماعداها؟ وهل إنقاذ الأمة العربية متوقف على كتابتي أنا العبد الفقير لله بوعلي ياسين؟!.



دار المدى للثقافة والنشر